



محمود سيف الدين الأيزاني

الأعمال الأدبية الكاملة



مؤسسة عبد الحميد شومان
مكتبة سائر الفنون



إهداء 2005

مؤسسة محمد الحميد شومان

عمان / الأردن

مَجْمُوعَةُ سَيِّفِ الدِّينِ الْإِسْرَافِي

الْأَهْلُكَ الْأَدَبِيَّةُ الْكَمَالَةُ

في ثلاثة مجلدات

المجلد الثالث



محمود سيف الدين إلهي

الأغنية الأدبية الكاملة

في ثلاثة مجلدات

المجلد الثالث



مكتبات مؤسسة عبد الحميد شومان
عمان / المملكة الأردنية الهاشمية

رقم الايداع لدى دائرة المكتبة الوطنية
(١٩٩٧/٧/١٠٠١)

رقم التـصنيف : ٨١٣

المؤلف ومن هو في حكمه : محمود سيف الدين الايراني

عنوان الكتاب : محمود سيف الدين الايراني: الاعمال الكاملة

الموضوع للرئيسي : ١- الاداب

٢- القصة العربية

رقم الايداع : (١٩٩٧/٧/١٠٠١)

بيانات النشر : عمان: مؤسسة عبد الحميد شومان

* - تم اعداد بيانات الفهرسة الاولى من قبل دائرة المكتبة الوطنية

الصف والاخراج : قبعة للاعلان.

مؤسسة عبد الحميد شومان

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الاولى ١٩٩٨

الفهرس

المسادة	الصفحة
حوار مع المرحوم محمود سيف الدين اليراني	٩
□ قصص مترجمة / أقاصيص من الغرب والشرق	١٥
- مقدمة	١٧
- نعيمة لن تعود	١٩
- قط تحت المطر	٣٧
- الكتاري المسافر	٤٣
- الذبابة	٥١
- الكتاري	٦١
- نسمة هواء	٦٧
- من يكون	٧٩
- الغماز	٨٧
- التخلص من ماتليد	٩٧
- البوح	١٠٩
- الآتسة نتالي	١١٩
- المحار	١٢٥
- الحب القاتل	١٣٣
- الثأر	١٣٩
- أب وابنته	١٤٥
- الحطبة المحترقة	١٥١
- الشحاذ	١٥٩
- الخوف	١٦٥

١٧١	- بيت للبيع
١٧٩	- نجوم الليل
١٨٥	- الغريان الثلاثة
١٨٩	- الريان هارفي
١٩٥	- الأرقعة السوداء
١٩٩	- مأساة في الصحراء
٢٠٧	- بعد عشر سنوات
٢١٥	- صديقه
٢٢٣	- أماء
٢٣٣	- وداع المرأة المجهولة
٢٤١	- يوم زفافها
٢٥١	- الدموع الحلوة
٢٥٩	- أسماك الأحلام
٢٦٧	- جدّي والعصافير
٢٧٥	- قبلة أخرى
٢٨٧	- القاتلة
٢٩٧	- الحقيبة
٣٠٣	- اللقاء الرهيب
٣١٣	- عزيزي الكسندروس
٣١٩	□ ملامح من الغرب (قصص مترجمة)
٣٢١	- مقدمة
٣٢٣	- ملامح من لندن
٣٤٩	- ملامح من باريس

٣٩١	- ملامح المانية
٤١٧	- ملامح من فينا
٤٢٥	- ملامح ايطالية
٤٥٥	□ قصص مترجمة نشرت في جريدة الدفاع على حلقات
٤٥٧	- أبى راسبوتين
٤٩٣	- جواسيس في خدمة الكرملين
٥٢١	- غرام جورنج نائب هتلر
٥٤١	- غرام غويلز
٥٧٣	- أشهر قضية تسميم
٦١٣	- الجاسوسان الخفيان
٦٣٣	- جبل الأفاعي
٦٤٣	- بطل وطني في ثياب جاسوس
٦٦٩	- المجزرة الثلاثية
٧٠١	- أبناء زعماء النازي، ماذا حل بهم؟
٧٣٣	- كيف وقعت في أسر الروس؟
٧٦١	- جاسوس بخمسة أسماء
٧٩٥	- جثة على ضفة النهر
٨٤٣	- أخطر جاسوس في العصر الحديث
٨٦٩	- سجين في السفارة
٨٩٩	- أنا أمرت بضرب هيروشيما
٩١١	- قصة أطول هروب
٩٣١	- ٥٠٠٠ عالم في الأسر
٩٥٧	- قهارس المجلدات الثلاثة

حوار مع المرحوم محمود سيف الدين الأيراني

فيما يلي نص الحوار الذي أجراه الزميل القاص خليل السواحري، ونشرته مجلة «رسالة الأردن» الصادرة في عمان في عددها رقم ١٢١، السنة الثانية عشرة، حزيران ١٩٧٢:

أستاذ إيراني، يكاد يجمع النقاد على اعتبارك رائد القصة القصيرة في فلسطين والأردن. فهل لك أن تعطي القراء فكرة عن البدايات الأولى لكتابتك القصصية عندك؟

بدايتي القصصية الأولى موجودة في كتاب قديم لي اسمه «أول الشوط» صدر سنة ١٩٣٧، وهو يضم خمس قصص، وعددا من الأبحاث والمقالات الأدبية يدور معظمها حول قصصيين عالميين وأبحاث اجتماعية. وقد كان لي محاولات قبل هذا الكتاب غير ناجحة وإن كانت قد نشرت في بعض الصحف التي كانت تصدر في مدينة يافا ذلك الحين، حتى القصص المنشورة في هذه المجموعة لا أعتقد أن تكون القصة فيها كان ناجحا إلى الحد الذي يرضيني. وعلى أي حال فهي من ثمرات الشباب. ويبدو لي أن هذه القصص وقد نشر معظمها في مجلات القاهرة، كانت بالنسبة لذلك الوقت رائدة بمعنى أنه لم يكن قد سبق لكتاب فلسطيني أن عالج القصة القصيرة معالجتي إياها.

ما هي المجموعات القصصية التي صدرت لك حتى الآن؟ وهل هناك

مجموعات قصصية لك غير مطبوعة او في طريقها إلى المطبعة؟

مجموعاتي القصصية المطبوعة هي على الترتيب:

- أول الشوط ١٩٣٧.

- مع الناس ١٩٥٦.

- ما أقل الثمن ١٩٦١.

- متى ينتهي الليل ١٩٦٤.

- أصابع في الظلام ١٩٧١.

وهناك مجموعة قصصية مترجمة عن الأدب القصصي العالمي تضم ٣٨ قصة، وقد نشرت بعنوان «أقاصيص من الشرق والغرب» سنة ١٩٦٠. ذلك بالإضافة إلى مجموعتين أخريين معدتين للنشر.

وهل هناك مؤلفات أخرى غير المجموعات القصصية معدة للنشر؟

هناك ما يقارب ستة كتب معدة للنشر منها «معرض النماذج» «دراسات عن أدباء وقصصيين عالميين»، «تورجنيف سيرته ودراسة أدبه»، «تشارلز ديكنز دراسة لأدبه»، «رواد القصة القصيرة تشيكوف، موباسان، كاترين مانسفيلد»، «في الأدب والحياة ٣ أجزاء»، وهناك كتب أخرى لي منشورة ليست ضمن القصص منها كتاب «اليونسكو والأردن» مع آخرين، واللغة العربية ٣ أجزاء مع آخرين اعتمدته وزارة التربية والتعليم للصفوف الإعدادية الثلاثة.

* من هم الكتاب الذين تأثرت بهم سواء كانوا عربا أم أجنبيا؟

لقد أحببت من خلال مطالعاتي للأدب العربي أدب القصة عند «محمد حسين هيكل» و محمود تيمور ومن قبله شقيقه محمد تيمور ويحيى حقي وإبراهيم المصري وإبراهيم المازني. أحببتهم ولم أتأثر بأي منهم في كتابتي للقصة وإنما كان تأثيري بالكتاب الغربيين الذين تأثر بهم من سبق ذكرهم من الكتاب العرب. ومن هؤلاء تشيكوف ، وموباسان وكاترين كدستوفسكي وتولستوي وتورجنيف وغوركي، والروائي الإنكليزي الشهير د. ه. لورنس.

* أستاذ إيراني كيف تكتب القصة؟ هل تبدأ بالحدث أم بالفكرة أم بالشخص؟

في العادة أبدأ بالشخصية حتى إذا اكتمل تركيبها من عدة شخصيات أوجد لها الفكرة والحدث. وحتى الحدث يكون أيضا مركبا أي قد تكون فيه ملامح من عدة أحداث أكون منها حدثا واحدا يقوم على فكرة، والأهم من هذا كله أنني أترك لشخص القصة والحدث والفكرة فيها أن تعيش في نفسي مدة من الزمن حتى تنضج ومن ثم توضع على الورق.

* من متابعتي لنتائج القصصي لاحظت القدرة الفائقة لديك على رسم أبعاد شخصوك. كيف تستطيع تحقيق ذلك؟

ما أزال وأنا في هذه السن أجد متعة كبيرة في مراقبة الناس، كيف يسلكون في حياتهم، كيف يتحدثون، كيف يفكرون وأتابع دائما التعبير عن هذا كله في ملاحظتهم، وهذه عادة تأصلت في منذ الصغر. وفي رأيي أن القصة سواء كان ذلك في الرواية أو القصة القصيرة أو المسرحية إن هي إلا شخصيات وتحليل لنفسياتهم في إطار من الحدث القصصي البسيط، لأنني لا أؤمن بالحدث القصصي الحاد أو العنيف إلا في حدود ضيقة. صحيحة وصادقة ومعبرة عن اللون المحلي.

* في مقالك الأخير المنشور بافكار عن دستوفسكي قررت أن كتاب القصة العرب خرجوا جميعا من معطف دستوفسكي فهل ينطبق هذا عليك؟ وما مدى تأثيرك بهذا الكاتب العملاق؟

أعتقد أن معظم الإنتاج القصصي العربي متأثر إلى حد بعيد بالقصص الروسي الكلاسيكي، وفي نطاق القصة السيكولوجية كان التأثير مباشرة بدستوفسكي فكلنا قد قرأ الجريمة والعقاب والإخوة كرامازوف والأبله وبيت الموتى.. الخ وكان هذا بالنسبة لي ولأبناء جيلي في البلاد العربية شيئا جديدا بهرنا وملأ قلوبنا بالفرحة على الرغم من أن عالم دستوفسكي عالم مظلم ولا يبدو فيه الإشراق إلا لمحا.

* كل ما قرأناه لك حتى الآن يخلو من العمل الروائي. هل حاولت أن تكتب الرواية؟ وإذا كان الجواب بالنفي فلماذا؟

كنت دائما أفكر في كتابة الرواية وفي كثير من الأحيان كنت أضع الهيكل لرواية ما، ولكن أعمالي اليومية كانت تستغرق معظم وقتي ومن هنا لم أجد الوقت الكافي للتفرغ لكتابة الرواية. وأعتقد أن وقت الفراغ هذا قد أصبح متاحا الآن، ولذلك أمسكت عن كتابة القصة القصيرة مؤقتا لأضع أول رواية وستصدر خلال عام. وفي اعتقادي أن كتابة الرواية أسهل من كتابة القصة القصيرة التي تحتاج إلى دقة وصقل لا تحتاج مثله الرواية.

* ما رأيك بالإنتاج القصصي للكتاب الشباب؟ وهل ترى فيما تقرأه لهم ما يبشر بمستقبل في هذا المجال؟

دائما أحسن الظن وأكون عظيم الأمل بالكتاب الشباب، وأعتقد أن لهم من الطاقات والقدرات الشيء الكثير، والشباب دائما أبناء عصرهم وهم أقدر منا نحن الشيوخ على التعبير عن البيئة المحلية وعن روح العصر، وإذا ما تكاملت

للكاتب الشاب عناصر الثقافة الواسعة وبالطبع الموهبة فإنه لقدير على أن يكون عطاؤه ممتازا حقا، والقصصيون الشباب في الأردن يبشر من توافرت له هذه المزايا بخير كثير. ومن الخطأ الجسيم أن يعترض سيلهم الكتاب الشيوخ لأنهم الذين يعول عليهم في حمل الشعلة والاستمرار في العطاء. أنا لا أنكر في الوقت نفسه صراع الأجيال ولكن من العيب على الكبير أن يقاوم الكاتب الناشئ صاحب الموهبة لأن موهبته ستشق له الطريق مهما كان الأمر وسيتبوأ مكانته مهما كان الأمر أيضا ما دام الأصل هو العطاء الجيد.

* ما نوع الالتزام الذي يقوم به كاتب القصة؟ وهل تعتقد بإمكانية فقدان الالتزام الاجتماعي أو السياسي بالنسبة للقصاص؟

أنا أعتقد أن الكاتب القصصي ككاتب المقال ككاتب البحث ملتزم أراد ذلك أو لم يرد ما دام ابن بيئة معينة وبلد معين، وحتى لو لم يلتفت إلا إلى التراخي الجمالية في العطاء فهو ملتزم، لأنه سيجد أن قلمه ينساق هنا وهناك إلى القول في واقع حياة أمته. وإذا الالتزام السمي هو خدمة أغراض ومبادئ متعسفة، ولتقريب ما أقول إلى الأذهان فإنني أستطيع أن أشير إلى الكتاب والقصصيين الذين وضعوا أعلامهم في خدمة النازية إبان استشرانها قبل الحرب العالمية الثانية، وكذلك الفاشية والصهيونية. غير أن مثل هذا الأدب سرعان ما ينهار بانهار أمثال هذه النظم التي قامت أصلا لتكريسها، وفي رأيي بشكل عام يجب أن يترك للأديب أو القصصي أو رجل الفكر حرية الاختيار والتفكير النابع من النفس في ضوء القناعة الشخصية. ونحن إذا تركنا له حرية التحرك يستطيع أن يقدم إنتاجا حسنا. وأحب أن أؤكد هنا على ناحية مهمة وهي أصالة الأداء الفني، أي أن يعطي الكاتب للأداء الفني حظه الكامل من الجودة وأصول الصياغة الفنية، ويمكن أن أضرب مثالا لذلك في أدبنا العربي القديم ابن المقفع، فقد كان في اعتقادي، ملتزما بمبادئ خلقية وواقعية غير أنه استطاع إلى جانب هذا

الالتزام، كما نراه في كليلة ودمنة والأدب الصغير والأدب الكبير ورسالة الصحابة، أن يوفق بين التزامه وبين الأداء الفني على ما في ذلك من فارق كبير في الظروف والعصر والبيئة.

* في القصة الرئيسية «أصابع في الظلام» من مجموعتك الأخيرة لاحظت أنك قد بدأت تنحو نحو القصة الرمزية. هل تنوي حقا مواصلة هذا الاتجاه؟

الشكل في القصة يستهويني دون ريب، إلا أن الموضوع هو الذي يملئ الشكل وهذا يعرفه كل من مارس الكتابة القصصية، ومع ذلك وعلى الرغم من أنني قد جاوزت الخمسين من العمر إلا أنني لا أستطيع أن أجبر نفسي على الجمود عند شكل معين فالقصة التي تحتاج إلى الرمزية أو غير الرمزية من المذاهب الجديدة فلا بد لي من أدائها في هذا الإطار. وأحب أن أشير هنا إلى أن الكثيرين من أصحاب المذاهب الحديثة هم في سني مثل يوجين يونسكو، ولا بأس أن يعلم القراء أن الكثيرين من الأدباء وكتاب القصة في الغرب يعدون مبتدئين بعد أن جاوزوا سن الأربعين.

وأما بالنسبة لقصتي «أصابع في الظلام» فإنني أعتقد أن الرمز فيها قريب أي غير مغرق في الرمزية على نقيض قصة «آن للشمس أن تطلع في منتصف الليل»، وهكذا ترى في هذه المجموعة قصصا تختلف من حيث الشكل ومن حيث المضمون، ففيها الشكل الكلاسيكي والشكل الرمزي وشكل اللامعقول.

وأرى أن أوجه كلمة شكر لك ليس باعتبارك صحفيا فحسب، ولكن لأنك قبل ذلك كاتب قصصي شاب وصاحب موهبة أكيدة ومشركة في كتابة القصة. كما أنني أشكر مجلة رسالة الأردن التي قررت فيما يبدو أن تفسح مجالا لمثل هذه المقابلات لأدباء هذا البلد ورجال الفكر فيه.

(قصص مترجمة)

أقاصيص من الغرب والشرق

مقدمة

في فترات متباعدة حيناً ومتقاربة حيناً آخر ترجمت هذه القصص القصار . ولقد أحببت بعضها لانه وافق هوى في نفسي ومواسمة لمزاجي الفني في كتابة القصة . وبعضها الآخر نقلته الى العربية غير كاره له وغير محب ، وانما رأيت فيه ألواناً قد يحبها غيري ويؤثرها على ما سواها . الا ان ثمة سببا يجمع بين هذه القصص وهو أنني أردت لها ، على تعدد ألوانها وأنماطها ، أن تمثل أكثر من مذهب في مفهوم القصة القصيرة . ففيها : الرومانسي ، والواقعي ، والرمزي ، والسيكولوجي أو النفسي ، وغير ذلك مما أصطلح عليه وأخذ به كتاب القصص في حقب مختلفة من تاريخ الأدب في شرق وغرب .

ولقد تناولت هذه القصص بالرسم والتصوير والتحليل حالات وأزمات واحداثاً ومواقف لشخص أو نماذج انسانية متباينة الملامح والسمات . بيد أنها ، اذا اختلفت باختلاف بيئاتها ومجتمعاتها وباختلاف أوضاعها في السلم الاجتماعي ، تظل ، ولا حديث لها غير هذا الانسان في شتى مشاعره وأهوانه ، ومتعدد غرائزه وميوله ، ونوازع الخير والشر فيه .. وربما كان حسبي منها أن تشير تفكير القارئ ، أو تحرك عاطفته أو تحفز خياله أو تفتح لعينه أفقا يكسبه رؤية جديدة في جوانب من الحياة ولامح من الانسان .

والشكر ، من بعد ، للأخوان الذين راجعوا هذه القصص في كثير من التفهم والتفطن الذكي لمقاصدها وأنماط أدائها ، ولجنة الاردنية للشعرب

والترجمة والنشر فهي قد تبنت هذا الكتاب وأنفقت على نشره وأثبت مترجمه
ووضعت بذلك لبنة في هذا البناء الذي تريده ، لنشر الكتاب الاردني ، عاليا
قوى الاركان .

١٩٦٩/١/١٥

محمود سيف الدين الايراني

نعيمة لن تعود

خمسة أسابيع تقضت دون أي نبأ عن « نعيمة ». لا شيء أبدا . هناك أناس يعتقدون أنها محتجزة في ثكنة « بدو » . . ان الذين يحبون فيها يعتبرون رهائن . . ويتحدث المتحدثون عن أهوال مروعة يلقونها هناك . . .

ولكن كيف يمكن أن يتأكد الانسان ويتثبت ؟ لا سبيل الى معرفة أي شيء على وجه الصحة . وما من أحد عاد من هناك ليروي ما يحدث ، وليس ثمة غير الانتظار : ان يرشح خبر ما ، ان تمثل نعيمة بمعجزة أمام المحاكم . . الانتظار . . هذا كل ما يتركونه . . .

وأخرج أنا بالاطفال أنزههم ، وأذهب بهم في اكثر الاحيان الى الحديقة العامة التي نسميها « الحديقة الصغيرة » ، ونمضي ثمة بعض الوقت من عصر كل يوم . . .

والخريف لا ينفك يشيع حرته القافة في كل ما هو أخضر ، بل هو يخلط الوانه الحمر والصفير بزرقة السماء ، ولا نستطيع ان نمكث طويلا . ومع ذلك فان الاطفال يتلهون جيدا ، وأنا أيضا أجد في تلك الحديقة لحظات الراحة والاستجمام الوحيدة التي قدر لي أن أذوقها منذ الان . ستقضي علينا جميعا هذه الحرب .

ولكن اذا كان هناك من سينجون منها ، فانهم يكونون قد تعلموا الكثير .
ابني « رحيم » الذي لم يجاوز السابعة من عمره عاش ثلاث سنوات منها
في غمار الحرب ، وهو يسلط علي نظرات جد ثقيلة وملينة بالتساؤل الصامت .
وسرعان ما اضطرب وأحس بأنني مذنب . . .

سألته ، منذ أيام ، لماذا تراه يحدق في وجهي هكذا ، واجاب قائلاً:

- يجب ان لا نتوانى ، يا ابتاه ، اذ نقدفهم بالقنابل أليس كذلك ؟

واعترضتني كآبة مجنونة ، ماذا أقول له ؟ هل أخدعه بالكلمات الطنانة
الجوفاء ؟ لم يعد مثل هذا يجدي حتى مع رحيم . القتل ، والاغتصاب ،
والهجوم ، ونصب الفخاخ والمكامن . . كلها كلمات تجد صداها ، في حديثه
وتفكيره ، من كل ما يحدث. ولست أحاول أن أعلمه الحذر والحرص ، فانه لن
يفهمني. لقد قام بيننا هذا التمزق . .

وفي يوم آخر، دون ان ان استريب فيما أعرض له نفسي، سألته
متضحكاً:

- ماذا يجب ان نفعل فيما ترى؟

- ان نقتلهم جميعاً . . ان نفجر القنابل . . دون توقف . .

قال هذا بلا تردد، وهو لا يتفكك يتفحصني بعينيهِ البريتين . .

وقلت:

- اترك تفعل هذا . . أنت؟

- أجل وانت . . الا تفعله؟

وقلت :

- كلا. .

انتي ما زال اراه بعين خيالي وهو يتأملني غير مصدق.

وفي البيت أصبح جيراننا متكتمين أكثر فأكثر بصدد نعيمة. وانا أحاول أن أقوم مقامها، على نحو ما، ازاء الاطفال مدة سجنها.

وتأبى الجارات الا أن يتولين عني بعض اعمال البيت: فيكتسمن، ويطبخن، ويغسلن الاواني والاطباق والملابس. انهن هن اللواتي يقمن بهذا كله. وما كن يسمحن، بأي ثمن، أن ينهك رجل في الاعمال، بل كن احيانا، وفي غيابي، يطعنن اولادي: بنالي، وزاهية، ورجيم .

وبانتظام كانت تأتي امرأة متحجبة حاملة شيئا من المال. فتسلمهن اياه، فتقدمه الجارات لي بدورهن.

لم يكن البيت ليخلو، في أية لحظة، من حركة وجيشان. وفي هذا الصباح كانت العتمة لم تنجل بعد. انه يوم شدي، بهي، توشك أن تشرق شمس. وعلى حين غرة شاعت فيه أصوات وهمسات مذعورة، مجنونة.. ثم هذا كل شيء. كان الامر مجرد اشاعة عن اشارة خطر كاذبة..

ان هذا الاهتياج، وهذا الانتفاض، وهذا الفرع، ان هذا كله وان يكن ملازما وكثير الوقوع الا انه لا يبلغ ذروته الا بعد دوي الانفجارات خاصة. وعندئذ يعود الجيران بأنباء يزعمون بها للآخرين، فتخلو الحجرات في فناء البيت، ويتنادى الجميع، ويروح كل يقول ما في جعبته.. لم يحدث شيء من هذا، غير ان النهار كان ما يزال في بدايته..

وفي وسط هذه الجلبة، وهذا الاضطراب اروح أفكر في «نعيمة». ان جهلي
بمكانها، وما فعلوه بها، يعذبني عذابا شديدا. ان الذين يختفون، ويموتون،
ويسجنون، في كل ناحية من المدينة، هم من الكثرة بحيث لا يعود في الامكان
حصرهم.. وان ضحايا اليوم لتنسبنا ضحايا الامس.

الملصقات على الجدران والحيطان، في كل مكان، لا يتبدى فيها غير صرعى
وقتل.. والمحاكم لاتنفك، كل يوم، تصدر احكاما بالاعدام.. ويزداد الاعداد
ويتكاثر.. ولا يسفر صبح الا عن ضحايا واجساد مشوهة..

كان الجيران يعتقدون ان نعيمة لن تعود .. كانوا لا يجروون ان يقولوا لي
هذا، وانما كنت اقرأه في ملامح وجوههم وحسب..

يوم أمس حاذاني مجهولان في الشارع واوقفاني قبالة دكان خياط، وبعد
ذهابهما قال لي الخياط بكل البساطة الممكنة:

- أجل لقد وضعا هنا أشياء بعينها..

- ماذا تقول؟

فقال

- ألا تفقه؟

وأدركت ما هنالك. لقد اكتشفت في هذه اللحظة: ان الخطر لا يشير لي
نفسي غير رد فعل من التحدي..

وبعد ظهر هذا اليوم، وفيما كنت أجتاز الشارع الذي يفضي الى ساحة سوق
الغزل المزدهمة الصاخبة دائما، كان الفخ المنصوب قد أخذ يفعل فعله. في

بادىء الامر قماوج الخلق واخذوا يتصايحون.. ولعلعت طلقتان نارشان أعقبهما
انفجارا، وتدافع الناس، وداس بعضهم بعضا. وما هي الا ان خلت الساحة بأسرع
من لمح البصر، ولم يبق غير جثة لا سبيل للمعين ان ترى وجهها..

غادرت المكان انا ايضا لكي التحاشى الوقوع في أيدي رجال الشرطة الذين
أخذت اصوات صفاراتهم تدوي في الجو.

والان..والان..ماذا حدث.. هل من جديد؟

وقلت:

الجديد في الامر..حادث اغتيال وقع في سوق الغزل..

ثم أمسكت متقطع الانفاس، وقال هو:

آه ... فهمت ...

واستضاء محياه الشاحب الرقيق المستطيل بنور ابتسامة، وعاد يقول:

كنت أحسب ان السلام قد حل فعلا.. كنت اوشك ان اراهن على أنك تحمل
الينا أنباء السلام..

وقلت أنا:

السلام؟ انه أمر لم يسمع به أحد...

انني ما ازال احتفظ حتى الان بذكرى واضحة عن هذه اللحظة والكلمات
التي نطق سريعا بها الرجل. انها ذكرى من الوضوح بحيث لم اكذ أبجبه، وأغرق
ضاحكا، بعصبية ظاهرة، حتى هز الشارع انفجاران مديان مروغان.

وفي هذه المرة تأدى اليئا، غير بعيد، صراخ وحشي، ولعله سيل من رصاص انطلق سريعا في جنون مخيف، ثم تحول الى عاصفة من نار.. وكنت أرى بألم عيني قامات تصاب وسرعان ما تنتهي نصفين ثم تنهار مجذلة على الارض..

كانت شهبقات المدافع الرشاشة تقترب، واقتربت على صانع الاحذية أن يغلق دكانه. ودون ان ينبس بكلمة أقفل الباب. ثم ارقينا كلانا فوق بلاط الدكان.

رحت أنصت الى الصخب في الخارج وهو يغيب في الشارع. لا اذكر انني كنت خائفا، بل كنت هادئا، ساكن الطائر، متطلعا فقط الى ما قد يحدث. وكانت الثواني تمر ببطء يجمد الاطراف. وعندئذ انهالت ضربات عنيفة على باب الدكان كأنها ستحطمه. واراد صانع الاحذية ان يفتح دكانه. وسألني بنظرة من عينه، فأومأت اليه أن لا يأتي بحركة. وتضاعف الحيط على الباب وأضحي ملحا آمرا أكثر فأكثر، وساخطا غاضبا أكثر فأكثر.. وأخيرا تداعى الباب وانفتح .. فدخل جندي، ولم يبعث طويلا، فقد أمسك بطوق زميلي واقتاده الى الخارج. وعند العتبة سدد الى صدره ضربة عنيفة، جبارة، متلظية غضبا من كعب بندقيته.. فتقيا صانع الأحذية فيضا من دم وسقط .. وقد استدار وجهه الى السماء .. ووقعت عيني على سدة خشبية مرتفعة فوق رأسي فتسلفتها واختبأت .. غير أن الجندي لم يعد الى داخل الدكان .

وانتظرت وأنا راقد، فوق، في العتمة قرب لفائف الجلود. وفي مكاني، ومن شق بين لوحين منفرجين، استطعت ان اتبين جزءا من الشارع. وعلى مهل أخذت عتمة الاصيل تملأ الدكان. ولم أكن لأتي بحركة، وانما كنت أنظر، وكنت أشم رائحة الجلد، وقر الدقائق.

كان الهول قد ابتعد. ولم يعد يسمع غير دوي مكتوم يتأدى من الأعماق القصية في المدينة..

ونَهَضت، ونفضت ملابسِي، وكان لا بد، وأنا أخرج من فرجة الباب المخلوع
أن أخطو من فوق جثة صانع الأحذية، وكانت الشوارع التي رحت أسير فيها
هادئة، خاوية، بصورة غريبة.

إننا نرضى بالموت، غير أننا لم نتعلم، بعد، كيف نفترق. وفي هذه الليلة
كان كل شيء صامتاً أبكم: فكري، المدينة، الحرب.. كل شيء على الإطلاق..
واستويت جالساً في سريري ورحت أنظر من حولي، وبدا لي كل شيء غير
معقول.. الأولاد يغطون في نومهم.. ولكن.. لماذا هؤلاء الأولاد؟ ما تراهم يفعلون
هنا؟ وتلكتني الرغبة في أن أرتدي ملابسِي وأنطلق راکضاً حتى البلدة القديمة
مخالفاً منع التجول المفروض.. ثم لم أجد إلى استعادة النوم سبيلاً إلا بعد مشقة
عظيمة. عاودني النوم، وأحسست أن رأسي غدا ميداناً مخيفاً لد وجزر لا نهاية
لهما. . .

ومع أولى شعاعات الفجر خرجت. كان ثمة أناس يهرعون مستعجلين لمزاولة
أعمالهم، وراكبو الدراجات يتسللون متعرجين بين الرانحين والفادين وأجراس
دراجاتهم لا تنفك ترن، والباعة المتجولون يزحمون الأرصفة. وفي سوق الغزل
كانت الدكاكين المغلقة هي التي لاقى أصحابها مصارعهم. وها هي آثار الرصاص
تبدو واضحة في واجهات العمانر، وها هي الأبواب الحديدية مبقورة ومزقة. انها
لا تزال هنا. وأنا لم أحلم قط. ان ألواح الزجاج المحطمة، وشظايا القرميد، ويقايا
مجزرة يوم أمس تفرش كلها الأرض..

وصلت إلى دكان صانع الأحذية، فإذا هو مغلق، وقد تركته يوم أمس
مفتوحاً. لقد جيء، هذا الصباح، بقفل وضع في زوتي الباب فتم اغلاق
مصراعِيه. ومكثت برهة أتأمل الباب المغلق.. ولكن صانع الأحذية ماذا تراهم
صنعوا به؟ ودخلت دكاكين جيرانه التجار على أمل أن أعلم أكثر مما علمت من
أمره.. غير أنني لم أفر بظائل.. سوى أنه لن تكون له جنازة ولا مأتم. ان جميع

الجثث التي رفعت ليلاً قد حملت إلى المقابر، وقامت السلطات بدفنها دون اشعار
ذويها. واثبتت أسير، وأجوب الطرقات دون هدف أو قصد. وأحسست أنني
منقطع ولا تربطني صلة بهذا اليوم السافر. ولا بد من التفكير؟ فهذه السماء
الترامية، وهذا الضوء الزغبي الملمس، وحلاوة كل الأشياء محول بيني وبين
التفكير..

بقيت أتسكع طويلاً. وسرعان ما استبان لي أن كل شيء قد استقر فيه طعم
الدم ورائحته... .

في الليل شعرت كأنّ يداً جبارة تهزني، فاستفقت، وألقيت بسمعي. كان
الصراخ ينبعث من بيوت بعيدة. وكان الصخب والصياح والاهتياج ينتشر من حي
إلى حي، وتتخلل ذلك أعيرة نارية متفرقة، تعقبها دفقات مروعة من رصاص
الدافع الرشاشة. وجعلت أصغي وأنا مكتوم الأنفاس.. ودون أن آتي بأية حركة..
كان صياح الألم وصراخ الخوف والذعر ينبعثان من حناجر نساء ورجال.. ثم أطبق
الصمت، وأغمضت أنا عيني. ولتأت بعد هذا وحوش رؤيا القديس يوحنا
الانجيلي لتجتاح الأرض..

ولم يبق غير أزيز السيارات يسمع من بعيد، ولكن هذا الأزيز سرعان ما
تلاشى هو الآخر..

كانت الشمس، في الصباح، تتلألاً بزرقتها الصافية وكأنما هي قد غسلت
وصقلت فتألق فيها نور يبهز الأنظار، وما من أحد يفدو إلى عمله إلا وفي قلبه
مثل الكلاليب من فرط نفاذ الصبر. وقد وجدت جثث منكلي بها، ومشوهة من
فرط التعذيب وقد ألقى بها عند أبواب المدينة.. كانت عشر جثث بينها ثلاث
لنساء....

لقد طالт الحرب، ويمكن أن تدوم سنوات أخرى.. ولم يعد أحد يستطيع أن

يتصور أن العيش ممكن إلا في معمة الرصاص، والنار، والانفجارات المستمرة..

وراحت تنتشر، همساً، أخبار رهيبة مروعة، وأصبحت لا أسير في الشارع إلا وأنا لا أنفك أتلقت ورائي دون أن أكون متأهباً لألقي بنفسي متهدداً على بطني في حالة قذف مفرقات أو القاء قنبلة. كان منظر حركة واحدة مشبوهة يضعني موضع الحذر والتريص، فلا أنتظر أن تنقضي هذه الحركة لكي أفر، كان المرء إذا غادر بيته لا يثق أنه سيعود إليه حياً..

إن ثمة أماكن وأسواقاً ومفارق طرق بعينها، ولا سيما تلك التي محرسها مراكز جند، أقلعت عن المرور بها نهائياً.. وهناك أيضاً شوارع وأزقة ودروب أقيمت من حولها الأسلاك الشائكة، ويجب أن لا يغامر الإنسان فيلوذ بها في حالات الخطر والاختيال، والا فإنه يجد نفسه وكأنه قد وقع في مصيدة..

وفيما كنا نحن، في المدينة، وقد أسلم أمرنا لجزارين عتاة، وكأننا موقوفو الأيدي والأقدام، كانت الحرب الحقيقية تدور رحاها بعيداً.. ولهذا السبب كنا نجد في الفوضى والاضطراب، الدفاع الوحيد في وجه الارهاب اليومي.. ولقد دفعنا الشمن غالباً جداً فلم نعد نتردد أو نتراجع..

ثم حدث ما هو أسوأ من الحرب نفسها. كنت أحياناً أشتهي الموت في حوادث القتل الكثيرة التي تتكرر كل يوم إلى ما لا نهاية.. إن هذا الدم الذي تلطخت به، وروائح هذه المجازر العفنة، كانت تدير رأسي وتقلب أوعائي، وتجعلني أنظر إلى كل شيء بمقت واشمئزاز.. ثم، وعلى حين غرة، أحسست بجوع بنهم شديد إلى الحياة.. بظماً بالغ يدفع بي إلى معرفة - ما سيكون - من بعد ولو واجهت جند العالم وجيوشه قاطبة.

أجل، كيف ستكون وسيلة العيش لأولئك الذين سينجون من الحرب وويلاتها الرهيبة؟ وماذا ستعني لهم العودة إلى حالة السلام؟ لقد فقدت الدنيا، في

حسنها ، طعمها ولونها .. فكيف سيسعهم أن يعودوا فيصنعوا لها وجهاً انسانياً؟

لم أكد أجلس الساعة في مقهى «التيزاوي» حتى انقضت علينا دورية من الجند، فدفعوا بي مع جميع رواد المقهى الذين كانوا منتشرين على الأرصفة الخارجية إلى الداخل مرفوع اليدين .. وراح كل منا ينتظر دوره ليتم تفتيشه، وقد التصقنا ببعض حتى لنكاد نختنق .. وكان علينا أن نخضع لابرار هوياتنا وتدقيقها ونحن على مثل الجمر .. وكانت فوهات المدافع الرشاشة السوداء تنذر بالموت كل متهور يحدثه نفسه أن يأتي بأيسر حركة .. وبقينا هكذا لا تصدر عنا نأمة واحدة وسط هذا الصمت المطبق الذي رانت عليه سكينه غريبة، وكنت أقول في نفسي: انهم لن .. لن .. يتغلبوا علينا ..

وقد استغرق هذا التدقيق ساعة كاملة، كان على كل رجل في أثنائها أن يشيت هدوءه ورباطة جأشه .. ثم رددنا إلى عصر هذا اليوم المنيء بالوعيد .. ولقد ألغني حلقي من شدة ما كظمت في صدري الشائيم والمسبات، فلم أقذف بها في سحنهم النكراء .. كان منع التجول الذي عينت له الساعة الرابعة والنصف يوشك أن يخلي الشوارع .. فغادرت المقهى، وبدلاً من أن أعود من توي إلى البيت آثرت أن أسير قليلاً. كانت واجهات المساكن كأن على رأسها الطير في هذا الانتظار القتال .. وكان الخلق يذهبن صامتين، وينقلون خطاهم بحذر شديد، واتخذت المدينة التي تكورت على نفسها، مظهرها في أيام الهول ..

وفي طرف الميدان الفسيح كانت تلال «المنصورة» الزرقاء ترتسم ظلال لها في صفحة السماء وتنفخني بوعد بالسعادة لا يكذب .. وكان في وسعي أن أطوف حول الأسوار، وأجتاز أبوابها، لو كان هذا ممكناً ..

لقد كان القصد من نزعتي هذه هو كشك بيع الصحف في الميدان الذي تقوم فيه دار البلدية .. وكانت لي بعض معرفة بصاحب هذا الكشك فاستطيع أن ألقي

نظرة على جميع الصحف اليومية دون أن أضطر إلى شرائها.. ولقد طالعتني من الأنباء ما يشبه أنباء الأمس، فمضيت في طريقي، وجعلت أسير محاذاً سور المتحف الحديدي، وكنت قد بلغت زاوية الشارع.. وهنا كانت الواقعة.. فقد هز الانفجار المروع الجدران من حولي بعنف شديد حتى لقد اصطدمت بالهواء الذي لفع وجهي بمثل النار.. وفي اللحظة نفسها انهارت، في دوي مخيف، كتل من الزجاج الذي فتحه الانفجار، وانطلق الصباح من كل الصدور. وكان الناس، في الميدان المضروبة فيه أشجار الدلب، يفرون في كل اتجاه. ودخلت أنا في أقرب شارع حيث كانت تسمع أيضاً الصيحات والتندبات، والأوامر.. وجاءت دقائق من رصاص المدافع الرشاشة فكنت هذا الشارع، فسقط أمامي رجل، ثم امرأة تعثرت بملاءتها ثم انقلبت على الأرض

حمد الشارع

وسرعان ما ظهرت سيارات الجند الكبيرة، وأبواقها الحادة تزعق زعيقاً متواصلاً، ثم توقفت وقد شددت كوابحها بعنف وحشي. وقفز منها جند المظلات وأسلحتهم في أيديهم. وأشار لي أحدهم أن أذهب، وهو ذو عينين زرقاوين جامدتين، قابضت..

ولكن، عند زاوية الشارع المجاور، صاح بي جندي من جنود الجيش الاقليمي أن قف.. فتجمدت في مكاني ورحت أحدى فيهم النظر. ثم قررت أن أسير نحوهم. وفي كل لحظة كنت أنتظر أن يطلقوا علي النار. وكنت هادئاً تماماً بهيود، وكلي احتقار لهم.. وفكرت، وأنا أرغم نفسي على السير قدماً لن أدع الفرصة بأن يروا الرجل الذي سيردونه قتيلاً: يذل نفسه أمامهم...

وكانت ثمة وجوه لا أجهلها، ولكنها وجوه رجال قدامى في المدرسة... وانبعث صوت، من ثلة الجند، يصيح بي:

- لا تتحرك!

وخطوت بضع خطوات أخرى. ثم ألم بي احساس بالغشيان. ولست أدري بالتفصيل ما حدث بعد ذلك، فقد ذهبوا بي إلى الساحة بعد أن تلقيت ضربة في عنقي..

ووجدت نفسي في حشد من جزائريين آخرين، وقد التصق بعضهم ببعض. وكانت قد تمددت على الأرض أجساد لا حراك فيها. انهم رجال ماتوا، أو هم يحترقون ويوشكون أن يلفظوا أنفاسهم، كان أحد أولئك المحتضرين يشن بصوت واهن تحت أقدامنا:

- أعينوني... أعينوني

ولم يأت أحدهم بحركة ما لكي يساعده. كانت حركة مطاردة «الانسان» وقنصه مستمرة، متواصلة في الساحة، وفي الشوارع المتفرعة عنها، وكانت أشباح ترتدي البزات الرسمية، وقد انحنت ودفعت سلاحها إلى أمام، تجري وراء أشباح أخرى هاربة.. فكان بعضها لا يلبث أن يرفع ذراعيه فجأة ثم ينكب على وجهه ويروح يتخبط على الأرض الغبراء..

في هذه اللحظة خرج رجل من حانة وراح يشير إلى شخص لاتذ بركن ويصرخ وهو يهز يديه:

- هو ذاك.. إن الشخص الذي بث القنبلة.. هو نفسه.. رأيته بعيني...

وقد تطلع إليه الشخص دون أن يفقه شيئاً، ثم ضم قفته البانسة المهلهلة فوق سترته السوداء القذرة التي انطبقت شقتها المجعدتان فوق صدره. وكان بعض أفراد الجيش الاقليمي أول المتراكضين نحوه، فأمسكوا به من تحت ابطيه، فلم

تبدو منه أية مقاومة، ثم استأقوه إلى وسط الساحة حيث أفرغوا نيرانهم في صدره ويطنه عدة مرات.. فتهاوى دون أن يترك قفته من بين يديه.. وكان الواشي صاحب مكتبة، فصاح بليل.. أشداه:

- نجحيا العدالة!

لا شك في أنه كان هو، الرجل القميء، الذي أنقذنا. والأرجح أنه عامل بناء، وقد بدا - في الموت أكثر قساة وضآلة.. وهو ممدد هكذا وسط الساحة الحجرية، إلا أنه كان يترأى وكأنه يتحدث الدنيا كلها من بعد. ولم يكن في وسعي أن أحول نظري عن صورته، ولا أن ألمحو من صمته العميق..

بعد قليل أبيع لنا أن ننطلق، ورفع منع التجول، وراح السكان يتجولون بحرية من جديد: راكبو الدراجات طاروا خفافاً فوق دراجاتهم، والزبائن دخلوا الدكاكين والمخازن وخرج منها غيرهم، ومشتري الثياب الرثة البالية أرسل نداء المعهود، وبنائع الخضر أقبل وهو يدفع عربته.. لقد انتهى الخوف.. ولم يعد يطفو في الجو غير رائحة دم مراق.. إلا أنها كانت تلوث كل شيء، وتشغل الرأس والقلب.. وتابعت أنا طريقي، ثم ملت إلى الشارع الذي يصعد نحو حينا.

انه القلق نفسه دائماً، والحيرة ذاتها، والجنون عينه، ودائماً تلك الهوة المغفورة التي يغيب في أحشائها وجودنا..

في هذا الصباح اكتشفت عشرون جثة معروضة في الساحة القديمة، فذهبت لأراها، وتوافد الكثيرون أيضاً. ومن البيوت والمنازل كانت تترأى وجوه قد التهب فيها العيون.

وعند أطراف الساحة كان الجند يردون الناس، ويقيمون المتاريس في الشوارع كلها. ولم يكن في الوسع الذهاب إلى أبعد من ذلك. وكنت أنا أدور هنا وهناك.

في هذه اللحظة ظهرت أغرب مسيرة شهدتها مدينتنا. كانت مكونة من النساء والأولاد فقط.. كان هذا السيل العرم يتقدم وهو يجأراً عالياً بـ «نشيد التحرير» وساد العنف مختلطاً بالغضب والألم والتحدي، وما كان أحد ليُدري ما الذي كان أكثر دفْعاً لهاتيك النساء وأولئك الصبية ذوي الأقدام الحافية لكي يهرعوا ويهرعن هكذا مواجهين السيارات حاملة المدافع الرشاشة.. كانت راية من اللونين الأبيض والأخضر، وقد صنعت من أطمار بالية ممزقة وعقدت بطرفها عصا، تتماوج فوق رؤوس تلك الجموع، واصطف جنود المظلات حول الساحة، وبينما كانت النساء يمررن أمامهم أتبن بحركة أطارت أغطية رؤوسهم.. وما هي إلا أن اندلعت النار من فوهات الرشاشات، وشعرت كأنما عمي بصري.. وعندئذ أحسنا، نحن الذين كنا ننظر إلى تلك الجموع ونسمع أصواتها الحانقة تتصاعد إلى السماء، أننا نذوب في هوة الموت والدم نفسها.. وأردت أن أنطلق نحو هاتيك الجموع وأرفع عقيرتي بالنشيد معها.. وليطلق الجند على الرصاص بعدئذ..

وجاء دورنا فاستدارت فوهات المدافع الرشاشة نحونا.. فتفرقنا وداس بعضنا بعضاً، وعلا الصياح والأنين، وجثونا على الركب..

الساعة الثانية صباحاً.

انفجار هز المدينة. ومن بعيد علت جلبة وضوضاء. شقت العتمة طلقتان فأجابهما سيل من رصاص متدفق حائق.. ثم مرت سيارات ناقلة نصفية رجت البيوت. ولا شيء بعد هذا. لم نعد نسمع شيئاً على الاطلاق. وأضاف الصمت جذراناً أخرى إلى كتلة الليل.

وتنفس الصبح رطباً ندياً، وتدفق الضياء، حتى صرصار الليل استفاق، وراح يرسل صياحه الرقيق. ومن العماثر انطلقت جموع من الصبية احتلت الشارع.

إن أملاً غير معهود شاع في نفسي اليوم. فما معنى هذا؟ أترأه رغبة في البقاء، رغم كل شيء، بعد الانهيار العام؟ انني مستعد أن أقسم - صدقني الناس أم لم يصدقوا - إن الأمل والسلام والنصر.. هذه كلها آتية غداً لا رب فيها..

وشددت قامتي مهتزاً مرتجياً، صلب العود، متوتراً، ورحت أشجع الآخرين.. في هذه الأثناء أخذ اللاجئون يتدفقون من الريف، يحملون، مع جوعهم ولغوهم، رائحة الأرض، نسمة مخيفة، عنفاً صامتاً.. ورحت أقر بهدوء إلى الحقول التي تكتنف المدينة، والوعيد الذي يخبئه هذا الهدوء.. حتى الشجر كان لا يتحرك، والأغصان لا تقيد، والورق يتبدى وحشي التجهم كأنما تلعبه ألسنة من لهب غير مرئية.. كان هذا كله يلوح كأنه يجد في أثر شيء ما..

ومع ذلك فإن وجود النساء على عتبات دورهن أو مجتمعات في أفنيتهن، وسام جلية أصواتهن وهن يتحدثن، كان هذا يجعلني أستشعر شعوراً غريباً بأنه لم يتغير شيء، ولن يتغير شيء.. كان أشبه بهذا الجو البديع الثابت الذي لا يتغير، فلا ضباب، ولا مطر يمكن أن يعكر صفوه.. فما كان أروع وأحلا!

إنني ما أزال حراً طليقاً وعلى قيد الحياة - غير أنني لا أنفك أتساءل كل يوم: لماذا استوجبت هذا، وما نفعه وجدواه؟ الرصاص ما فتى، يطلق ويتفجر في كل لحظة، وفكري يتجه بغتة إلى «تعيمة» ثم يرتد إلى الأخطار التي تأتي بها كل ثانية.. أفكر فيها في ثنایا الليل وأنا مفتوح العينين في الظلام، وأصفي إلى أقل نائمة في المدينة. غير أن تفكيري يتجه إليها، بصورة خاصة، وفي الصباح، الساعة التي يستيقظ فيها الأطفال فنكون في أشد حاجة إليها..

إن هذه الاصباح النشطة ذات السماء الزرقاء الصافية ولكنها مع ذلك أقرب ما تكون إلى اصباح الشتاء، هي الوحيدة التي كانت خليفة أن توائم بيني وبين

الدنيا، وأنا أكثر ما أكون طواعية، لولا أنني أصحو كما أنام: الهم ملء قلبي...

الحياة كاهرس يداخلك منه الخوف، والانتظار يتحول، خفية، إلى رضى لا سبيل إلى التعبير عنه. وعلى مهل أخذ يتسلل إلى نفسي التفكير بأنني لن أرى نعيمة أبداً.. بأنها لن تعود.. ولن تقع عليها عيني.. وهي تسير في أرجاء هذه الحجرة كالعهد بها..

ومع ذلك فإني أعيش، وأواصل العيش، وأستمر مترقباً الأصوات والأصداء في البيت، ومستمعاً إلى حكايات الجيران.

أنت بعد هذا أيام ذات رياح عاصفة. وهدم الخريف، وذهب سناؤه مخلفاً وراءه القمام والاريداد. وقد تصلبت الأشجار، ومن فوق أغصانها الجافة ملأت صفحة السماء سحب رداء، حتى في صميم رأسي وقتوطني وعدم اكترائي سررت لهذا التحول، وغدت أيام أواخر الخريف لا تطاق بسبب من توهجها وشفافيتها، ونقاها..

وأمرتنا السماء فكانت في هذا النجاة. استمر هطول المطر طويلاً، لا ينقطع له مدد، مطر متدفق لا سبيل إلى التنفس معه، ينزلق على مهل فوق بلد محترق.. وجعلت حرب الشوارع من نفسها هي الحارسة الساهرة..

وما يزال المطر يهطل وأنا أدير هذه الأفكار في رأسي، وكأننا السماء لم تمسك قط.. وفي المدينة ماء ينفطر ويسيل. كنت أنفق أياماً وأسابيع في ذهاب، وإياب، ومساع، وتوسلات.. كنت أدق أبواباً لا حصر لها لكي أجد امرأتى.. وكان يخيل إلي كأن هذا كان في يوم أمس.. في هذا اليوم.. ولكن بلا جدوى.. والمطر لا ينفك يهطل فوق عالم أسود فاحم، وفوق أشجار عارية، ومنازل أحالها المطر قائمة مرعدة..

وإذا أرفع نظري اليوم إلى هذه السماء المسفة الثقيلة، فاني لا ألبث حتى
تترأى لي السماء المغلقة نفسها في تلك الأيام، والشوارع ذاتها الفارقة في
الأنهزة والضباب، وأشباح المارة عينها.. وكنت يومئذ ما يزال يساندني ضرب من
الأمل كان يشاخم، في الواقع، مناطق عسيرة المثال من النفس حتى لأتردد اليوم
في أن أسميه أملاً..

كنت كأنما قد ألقى بحجر في هوة لا قرار لها فأروح أصغي إلى صوت
سقوطه الذي لا ينتهي: أنا كنت هذا الحجر.

وربما كان الأمل الذي كنت أتشبث به هو أن لا يصل هذا الحجر إلى قراره
قط..

عندما كانت السماء تنفجر قليلاً، بين حين وآخر، وتلقي بضوئها الأصم على
المدينة كنت أخرج وأروح أتسكع في الطرقات.. وأحاول أن أجِد بعض اهتمام
بحياة الآخرين لعدم استطاعتي الاهتمام بنفسي. كنت في هذه الأثناء لا أعنى
بشخصي أبداً. . . .

وفي وقت مبكر من صباح أحد الأيام جاء أحدهم وناداني وأنا لا أزال في
البيت. كنت أَعْرِفُ هذا الرجل الذي كان ينتظرني على عتبة الباب. وقد
اجتذبتني إلى ناحية غير بعيدة، وراح يحدثني وهو يخافت من صوته.

قال لي أنهم.. منذ وفاة رجل كان يصنع الأحذية.. وجدوا أنفسهم في بعض
حرج وضيق. فقد كان مكانه يحتل مركزاً له أهميته.. ثم ان البوليس لم يضع
عليه علامة اشتباه على الرغم من كل ما حصل.. واذن فان في الامكان العودة
إلى استعمال هذا الدكان.. ثم أضاف قائلاً:

لا شك في أنك كنت معه، ما دمت قد ذهبت غداة المجزرة، تسأل جيرانه

عن مصيره.. ومنذ ذلك اليوم لم نجد أحداً يحتل مكانه ويعود إلى فتح دكانه..
على الأخص لم نجد أحداً من جيرانه المقربين إليه.. ولا يد من استعادة الدكان..
أو لا تريد أنت أن.. على أي حال فإن ثمة وقتاً كافياً لكي تفكر.. اننا لا
نستعجلك الأمر.. بل أنت في حل من أن تقدم جواباً، إذا كان هذا لا يروق لك..

وتركت هذا الرجل يلقي خطابه رشحاً أكون فكرة عنه - وأخيراً قلت له:

- هل معك مفاتيح الدكان؟

فأخرج من جيب بنطاله حلقة تضم مفتاحين، فأخذتها منه، ثم مضى.

انتي أوقف هذه الذكريات.. فان التفكير في زوجتي، وفي صانع الأحذية،
وفي الآخرين، هو الذي ساندني، وأعانتني على أن أعيش حتى هذا اليوم!

لقد عرفوا، هم، لماذا قضاوا نحبهم..

آرنست هيمنفراي (أميركا)

تحت المطر

لم يكن في الفندق غير اثنين من الأميركيين. ولم يكونا يعرفان أحداً من النزلاء الذين يلتقيان بهم في السلم وهما ذاهبان إلى غرفة نومهما، أو هما خارجان منها. وكانت غرفتهما في الطابق الثاني، تطل على البحر، وكان يبدو منها منظر الحديقة العامة والنصب المقام للأموات. وكانت في الحديقة أدواح من النخيل الباسق ومقاعد خضراء اللون.

وكثيراً ما كان يشاهد، حين يصحرو الجو ويروق، أحد الرسامين وقد جلس إلى لوحته وأدوات رسمه.

لقد كان الرسامون يحبون أشكال هذا النخيل الباسق، والألوان الزاهية المتألقة لتلك الفنادق المشرفة على الحديقة العامة والبحر معاً. وكان الإيطاليون يأتون من بعيد ليشاهدوا النصب المقام للأموات. انه مصنوع من «البرنز»، وكان دائماً يلمع تحت وابل المطر. وكانت قطرات الماء تنهاوى من أعراف النخيل. ثم تتكون منها برك صغيرة في الممرات المفروشة بالحصباء. وكانت أمواج البحر تتدافع على امتداد الشاطئ، ثم ترتد لتعود أعنف وأشد فتتكسر على الرمال وراء ستار من المطر الثقيل.

كان الميدان القريب من النصب المقام للأموات خلواً من السيارات.. ومن الناحية الأخرى كان يقف فتي من الخدم في مدخل أحد المقاهي وهو يتأمل الميدان

المقفر.

وكانت المرأة الأميركية تنظر إلى الخارج من خلال زجاج النافذة. ورأت في الجانب الواقع مباشرة تحت نافذة غرفتها في الحديقة، هراً لبد في مكانه تحت منضدة خضراء يتقطر منها المطر، وكان القط يتقبض ويتداخل بعضه في بعض محاولاً بذلك أن يتجنب قطرات الماء. قالت الأميركية «سأهبط لأتي بهذا الهر المسكين»، واقترح زوجها وهو لا يزال راقداً في سريره. قال «سأذهب أنا لأتي به، فقالت «كلا. سأذهب أنا. يا للصغير المسكين الذي يحاول أن يحتمي تحت المنضدة». وعاد الزوج يقرأ، وهو لا يزال راقداً متمدداً، ورأسه فوق وسادتين في مزخرة السرير. ثم قال لامرأته: احذري أن تبغلي.

ونزلت الأميركية. وعند مرورها وقف صاحب الفندق وحيائها. وقد كانت منضدته في أقصى غرفة مكتبه. انه رجل عجوز ولكنه ضخم، منيف القامة وكانت الأميركية تنظري له على مودة فقالت: - المطر ينهمر - فأجابها بلهجته الإيطالية: - أجل، أجل يا سيدتي. يا له من جو سيء جداً.

كان صاحب الفندق واقفاً وراء مكتبه، في صدر الغرفة المعتمة، وكانت المرأة الشابة تحبه. تحب برودة طبعه الهادئ إذ يتلقى جميع الطلبات. وكانت تحب وقاره، وحسن قيامه بالخدمة، وطريقته في فهم مهنته. وكانت تحب وجهه الهرم الثقيل، ويديه الكبيرتين.

فتحت باب الفندق وهي تحس بهذه المشاعر تعتمل في صدرها. وألقت نظرة إلى الخارج. كانت السماء لا تنفك قطر ثقيلاً، ورأت رجلاً يجتاز الميدان الخالي متجهاً إلى المقهى وقد ارتدى معطفاً واقياً من المطاط. إن الهر لا بد أن يكون في جهة ما إلى اليمين، ولعلها تستطيع أن تسير معاذية للجدار وتتقي المطر برغرف السطح. وفيما كانت تنتظر متلبشة عند عتبة الباب، شعرت أن مظلة فتحت

خلفها. لقد كانت إحدى خادמות الطابق الثاني هي التي أتت بالمظلة وفتحتها. وقالت الفتاة بالإيطالية: «لا ينبغي أن تبلي نفسك» وكانت تبسم. ولا ريب في أن صاحب الفندق هو الذي أوعز إليها أن تفعل ذلك. وصارت الأميركية وهي تتقي المطر بالمظلة التي تحملها الفتاة. وقطعت المر المرفوش بالحصى إلى أن وصلت إلى المكان الواقع تحت نافذة غرفتهما. كانت المنضدة هناك، خضراء تلمع تحت ماء المطر. ولكن الهر كان قد اختفى. وشعرت الأميركية بخيبة الأمل. ونظرت إليها الخادمة وقالت لها بالإيطالية: - هل فقدت شيئاً يا سيدتي؟ - وقالت الأميركية: - كان هنا قط - .

- قط؟

- أجل.. قط..

وقالت الخادمة وهي تضحك: «قط؟ قط تحت المطر؟».

- أجل. قط تحت الطاولة. آه... شد ما اشتيته. كنت أريد هذا القط.

وقالت الخادمة: هيا يا سيدتي.. يجب أن نعود، فانك على وشك أن تبلي.

وقالت الأميركية: - أجل. لا ريب في هذا.

ورجعتا سائرتين في المر. واجتازت الأميركية الباب. وقيت الخادم هنيهة في الخارج لتعلق المظلة. ولما مرت الأميركية أمام مكتب مدير الفندق حياها من مكانه. وأحست بحلقها ينكمش وبأنها صغيرة جداً أمام صاحب الفندق، وأنها ذات شأن وأهمية في نفس الوقت. لقد داخلها الشعور، هنيهة، بأنها ذات أهمية عظمى. ثم صعدت السلم وفتحت باب غرفتها. كان زوجها جورج لا يزال يقرأ مضطجعا على السرير. فسألها وهو يضع كتابه: «هل وجدت ذلك الهر؟»

وأجابته «كان قد ذهب». فقال: «أين أمكنه أن يذهب يا ترى».. وجلست على السرير وقالت: شد ما اشتهيته. لا أدري لماذا اشتدت بي الرغبة في الحصول عليه. لقد كنت أريد هذا الهر المسكين. ليس مما يضحك أن يكون ثمة قط صغير يعاني وطأة المطر في الخارج.

وكان جورج قد عاد يقرأ. ونهضت هي، وسارت إلى نضد الزينة، وجلست على مقعد قبالة مرآتها، وراحت تتفحص جانباً من محياها، ثم الجانب الآخر. وبعد هذا تفحصت عنقها من أمام ومن خلف. ثم سألت زوجها قائلة، وهي لا تنفك تتأمل صفحة وجهها: ألا تعتقد أن الأفضل أن أدع شعري ينمو ويطول؟

وتطلع جورج إلى قفاها الخليق كأقفاء الفتيان وقال: «أحب أن تبقي عليه كما هو». فقالت «أما أنا فهذا حسبي. وكفى أن أظل أبدو وكأنني فتى».

وغير جورج وضعه في السرير. وكانت عيناه لم تفارقاها منذ شرعت تتحدث، ثم قال - انك جميلة جداً - وأعادته هي المرأة إلى نضد الزينة ودلفت نحو النافذة وتطلعت إلى الخارج. كان الليل قد طفق يرخي سدوله. وراحت تقول: «أريد أن أسحب شعري إلى الخلف، وأن يكون أملس ناعماً وأن أجعل منه عقبة كبيرة أحس بها، وأريد أن يكون لي قط يرقد على ركبتي ويروح يهر وأنا ألاحظه»..

وقال جورج وهو في سريره: - أصبح هذا؟ - ومضت هي تقول: وأريد أن أتناول طعامي على المائدة المزدانة بجميع أدواتها وقضياتها، وأريد لها شموعاً، وأريد أن يكون الفصل الآن ربيعاً، أريد أن أسرح شعري بفروشة كبيرة أمام المرأة. أريد قطاً وأريد أثواباً جديدة..

قال جورج: اسكتي.. اسكتي.. وعليك بكتاب.

وعاد هو يقرأ.

وتطلعت الزوجة من النافذة، فإذا الدنيا قد لفيها ظلام مطبق، والسمااء لا تنفك تقطر فوق النخيل. وعادت تقول: - على أي حال أريد قطاً. أريد قطاً. أريده حالاً وإذا كنت لا أستطيع أن يكون لي شعر طويل، وإذا كنت لا أستطيع أن ألهو، فانه يمكن أن يكون لي على الأقل قط.

ولم يعد جورج يصغي إليها. كان يقرأ في كتابه. ومن النافذة كانت امرأته تنظر إلى الميدان الذي أنير في تلك الآونة.

وقرع الباب، فقال جورج وهو يلتفت نحوه:

«ادخل.» وكانت الخادمة هي التي انفرج عنها الباب. وكانت تحتضن قطاً كبيراً، أريد، أغبر، كأنه قوقعة السلحفاة. قالت الخادمة معذرة: ان المدير أمرني أن أحمل هذا إلى السيدة..

آرنست هيمنفواي (أميركا)

الكناري في المصافير

مر القطار كالسهم أمام بيت مستطيل من الحجارة الحمراء، وللبيت حديقة وأربع تخلات تنهض في ظلها بضع طاوولات.. وكان البحر يقع في الناحية الأخرى ثم تبع ذلك شق كبير محفور في الحجر الأحمر، ولم يعد البحر يظهر قط إلا بين فترة وأخرى ومن أسفله عند ارتطام موجة بالصخور..

وقالت المرأة الأميركية:

لقد اشترت الكناري من مدينة باليرم. وكان اليوم يوم أحد، ولم تلبث على البر إلا ساعة. وكان الرجل لا يريد ثمنه إلا بالدولارات، قدفعت له دولاراً ونصف الدولار. في الحق انه يغرد تفريداً رائعاً.

كان الحر شديداً في القطار وغرفة الجلوس فيه. وما كانت لتدخل نسمة هواء واحدة من النافذة الزجاجية المفتوحة. وأسدت الأميركية الستار، وعندئذ اختفى البحر تماماً. وفي الناحية الأخرى كانت نافذة، ثم المر، ثم شبك زجاجي مفتوح. وفي الخارج شجر مغبر، وطريق من الحصباء، ومقارس كروم منبسطة فوق تلال غبراء ضاربة إلى الزرقة. وهنا وهناك كان يتصاعد بعض الدخان من مدخنة عالية. وتباطأ القطار عند مدخل مدينة مارسيليا، وراح يشق لنفسه طريقاً بين الخطوط الحديدية المتشابهة، التي تؤدي إلى المحطة. وقف القطار في مارسيليا

خمساً وعشرين دقيقة، واستطاعت الأميركية أن تشتري صحيفة «الديلي ميل» ونصف زجاجة من ماء «افيان» المعدني. وقد تمشت قليلاً على الرصيف ولكن دون أن تباعد كثيراً عن مقصورتها في القطار، ذلك أنه، في مدينة «كان»، وقف اثنتي عشرة دقيقة ثم انطلق دون أن يرسل صفيحه المعتاد، فلم تجد، هي، من الوقت غير لحظة مكنتها من ركوبه ثانية. وكانت الأميركية ثقيلة السمع، ولهذا كانت تخشى أن لا تسمع صفير انطلاق القطار.

غادر القطار محطة مارسيليا بخطوطها الحديدية ودخان معاملها تاركاً وراءه شعاعات الشمس الأخيرة تأتلق فوق الماء، وتاركاً المدينة ومرفأها المحاطين بالتلال الصخرية. وإذا أوشك الليل أن يهبط مر القطار بمزرعة اشتعلت فيها النار وسط أحد الحقول. وقد توقف عدد من السيارات على طول الطريق وتبعثر الفراش والأثاث ومختلف الأدوات في الحقل، وتجمهر كثير من الحلق يشاهدون البيت الذي تلتهمه النيران. وكان قد حل الظلام تماماً عندما بلغ القطار محطة أفنيون وراح ركاب يهبطون من القطار وركاب غيرهم يصعدون. وكان ثمة فرنسيون عائدون إلى باريس يشترون من كشك المحطة صحفاً فرنسية. وعلى رصيف المحطة وقف جنود من الزنوج، لقد كانوا أقوياء أشداء في زيهم العسكري الكستنائي اللون، وكانت وجوههم تلمع قريباً من النور.. كانوا شديدي السواد، منفي القامات، فلا يجسر أحد أن يحدق النظر فيهم. وغادر القطار محطة أفنيون تاركاً الزنوج واقفين على الرصيف ومعهم وكيل ضابط ارويي.

كان خادم القطار قد أنزل، في مقصورة النوم، الأسرة الثلاثة التي تطوى وترد إلى حاجز المقصورة نهائياً، وسط فوقها الأغطية. وما استطاعت الأميركية أن تمض عينها طيلة الليل، لأن القطار كان من النوع السريع الذي ينطلق دون أن يلوي على شيء، ولأنها، كانت، يتملكها الذعر من السرعة ليلاً. وكان سريره محاذياً للنافذة وكان «الكناري» الذي اشتريته من باليرم في قفصه الملتف

بستار، فهو بذلك بعيد عن مجاري الهواء في الممر المؤدي إلى مرافق المقصورة، وكان في الممر مصباح أزرق النور، واستمر القطار منطلقاً طيلة الليل وظلت الأميركية بمدة دون أن تنام في انتظار الكارثة التي ستحدث..

اقترب القطار من باريس مع اشراق الصباح وخرجت الأميركية من مخدعها نشطة نضرة رغم ليلتها البيضاء تلك، انها امرأة نصف، بين عمريين، ونموذج للمرأة الأميركية وقد نَحَت الستار عن قفص الكناري وعلقته في ضوء الشمس، ثم ذهبت إلى مطعم القطار لتناول فطورها. ولما عادت إلى مقصورتها كانت الأسرة قد طويت واتخذت مكانها في الجدار، وتحولت إلى مقاعد، وكان الكناري ينفض ريشه في الشمس التي دخلت أشعتها من النافذة الزجاجية المفتوحة.. وأصبح القطار قريباً جداً من باريس وقالت الأميركية:

- انه يهيم بالشمس.. ولن يلبث أن يروح يغرد..

ونفض الكناري ريشه، ونقر نفسه بضغ تقرات وعادت الأميركية تقول:

- لقد أحببت العصافير دائماً واني لذاغبة به إلى حفيدتي، هاكه انه يغرد الآن.

وغرد الكناري، وانتفش ريش عنقه.. ثم عاد ثانية بنقر نفسه. وممر القطار فوق نهر، وبعد أن اخترق غابة معتنى بها جداً اجتاز مجموعات منازل الضواحي، وكان في الشوارع حافلات، ولوحات اعلانات فوق الجدران موجهة للمرأة التي تعني بحديثها. وكان المشاهد يحس لدى تتابع هذه المناظر من خلال نافذة القطار احساساً عجبياً بأن ساعة الفطور لم تكن بعد، ومضت دقائق عديدة لم أسمع خلالها المرأة الأميركية وهي تتحدث إلى زوجتي. وسألتها:

- هل زوجك أميركي أيضاً؟

وقالت زوجتي:

- أجل. هو وأنا أميركيان.

- حسبكما انكليزيين.

- أه! كلا!

وقلت أنا مصطنعاً التعبير الانكليزي:

- ربما لأنني أستعمل حملات لبنتالي.

وأوشكت أن أصطنع الكلمة الأميركية لحملات البنتال إلا أنني أمسكت لأظلم محتفظاً بطابعي الانكليزي.

ولم تسمع الأميركية ما قلت فقد كانت صماء تماماً.. وكانت طريقتها أن تقرأ الكلمات على شفاه قائلها، وأنا كنت قد أدت لها ظهري إذ كلمتها. واستمرت تحدث زوجتي فيما كنت موشكاً أن أنظر من النافذة:

- انني جد مغتبطة أن تكوني أميركية. إن الأميركيين أفضل الأزواج. ولهذا السبب تركنا، نحن، القارة. لقد وقعت ابنتي في حب في مدينة - فيني - وأمسكت عن الكلام ثم عادت تقول: - ولقد جن أحدهما بحب الآخر - وأمسكت عن الكلام مرة أخرى ثم قالت: - وبالطبع عدت فاستقدمت ابنتي.

وقالت زوجتي:

- وهل نسيت هذا الحب الآن؟

فقالت الأميركية:

- لا أعتقد. انها لا تنام.. ولا تتناول شيئاً من الطعام. وبذلت لها جهدي ولكن يبدو انها لا تريد أن تهتم بشيء.. لقد أصبح، في نظرها، كل شيء سواء.. وما كان في وسعي أن أدعها تتزوج غريباً.. ان أحدهم - وهو صديق حميم - قال لي مرة: ما من رجل غريب يمكن أن يكون زوجاً صالحاً للمرأة الأميركية.

قالت زوجتي:

- لا يمكن. هذا هو الأرجح. راحت الأميركية تتأمل معطف السفر الذي ترتديه زوجتي.. وافق أن زوجتي ظلت تشتري جميع لوازمها - منذ عشرين عاماً - من محل الأزياء ذاته بشارع سانتو نوويه بباريس. وكانت عند المحل أقيستها وثمة بائعة تعرفها، وتعرف ذوقها، فتختار لها ثيابها وترسلها إلى أميركا، فتصل إلى مكتب البريد في نيويورك قريباً من منزلنا، فندفع رسوم الجمارك وهي غير باهظة، إذ أن تلك الثياب كانت تستخرج من صناديقها ويجري تقديرها في مكتب البريد نفسه، وانها لثياب بسيطة لا زخرف فيها، ولا توشية تكسبها مظهراً نفيساً، ثميناً. وقبل هذه البائعة الحالية التي تحمل اسم تيريز كانت ثمة بائعة غيرها اسمها اميلي، وما عرفت زوجتي غيرها في مدى عشرين عاماً. ومع ذلك فإن الأسعار كانت قد ارتفعت، ولكن فرق العملة كان يسد دائماً فرق السعر. وعند محل الأزياء هذا أقيسة ابنتها الآن، وهي فتاة راشدة، والأمل ضعيف في أن تستبدل به محلاً آخر. وصل القطار إلى باريس، وكانت صفوف من العربات والمقطورات تنتظر فوق قضبانها الحديدية: عربات المطاعم، وعربات النوم ذات الخشب الكستنائي التي ستنتقل إلى إيطاليا في الساعة الخامسة، هذا المساء، لو صح أن رحلة هذا القطار هي دائماً في الساعة الخامسة. وكان المرء يستطيع أن يقرأ على تلك المقطورات عبارة باريس - روما. وكان ثمة أيضاً مقطورات من ذوات الطابق الواحد مخصصة لرحلات الضواحي، حيث يتكدس الناس حتى سقفها في بعض الساعات.. فتنتقل هذه القطارات

بهم مارة أمام المجدران البيضاء والمنازل ذوات النوافذ التي لا عداد لها . وما كان انسان أو غير انسان قد تناول بعد شيئاً من فطور الصباح.

قالت الأميركية لزوجتي:

- الأميركيون هم أفضل الأزواج

وكنت أنا منهمكاً في انزال الحقائق عن الرفوف المصنوعة من الشبك.
وعادت الأميركية تقول:

- الأميركيون هم وحدهم، من رجال الدنيا ، الخلقون أن تتزوجهم النساء..
وسألتها زوجتي:

- منذ متى غادرت مدينة فيفي؟

- منذ سنتين.. ومن أجلها هي أتيت بهذا الكناري.

- هل كان الرجل الذي أحبته ابنتك سويسرياً؟

- أجل، وهو من أسرة كريمة في مدينة فيفي. وعندما التقينا كان يوشك أن يصبح مهندساً. وكانا يقومان معاً، في أكثر الأحيان، بنزهات طويلة

وقالت امرأتي:

- أنا أعرف مدينة فيفي، كنا قد مررنا بها في شهر العسل.

- أصبح هذا؟ لا بد انه كان جد ممتع.. وبالطبع لم أكن لأتصور أبداً أنها ستفرم به.

وقالت زوجتي:

- انها مدينة رائعة.

قالت الأميركية:

- أجل. رائعة.. أليس كذلك؟ في أي فنادقها نزلتما أنت وزوجك؟

- في فندق التيجان الثلاثة.

قالت الأميركية:

- أوه! انه فندق قديم ظريف جداً.

- أجل قالت امرأتي، لقد أقمنا فيه بغرفة بديعة، وكان الريف ساحراً في
الحريف.

- كنتما هناك في الحريف؟

- أجل..

ومر القطار متجاوزاً ثلاث مقطورات تالفة، مبقورة البطون مقتلعة السطوح.

وقلت أنا:

- انظري.. بقايا حادث صدام..

وتطلعت الأميركية إلى حيث أشرت فشاهدت المقطورة الأخيرة وقالت:

- هذا ما كنت أخشاه طيلة الليلة الماضية. انني أحياناً تنتابني أحاسيس
مسبقة خارقة. لن أركب منذ اليوم قطار الليل، ولا ريب في أن هناك قطارات
أخرى مريحة لا تنطلق بسرعة.

ثم دخل القطار محطة ليون الدكناء بباريس، وتوقف واقترب الحمالون. وجعلت أنا ولهم الحقائب من خلال النافذة، ثم التقينا جميعاً على رصيف المحطة المستطيل المعتم. وسلمت الأميركية أموراً لأحد موظفي شركة كوك الثلاثة الذي قال لها: لحظة يا سيدتي.. دعيني أبحث عن اسمك. وجاء الحمال بعربة يد راكم فوقها الحقائب، واستأذنا، زوجتي وأنا. من المرأة الأميركية، وكان موظف شركة كوك قد وجد اسمها مكتوباً بالآلة الكاتبة في ورقة أعادها إلى جيبه، وسرنا نحن في أثر الحمال وعبرته على امتداد القطار حتى بلغنا نهاية الرصيف. وعند الباب أخذ أحدهم بطاقات السفر منا.

لقد عدنا إلى باريس، زوجتي وأنا، لكي نعيش منفصلين.. كل على حدة..

كاثرين مانسفيلد (نيوزيلاندا)

الذبابية

قال الرجل العجوز « وودفيلد » بصوت يعرؤه الارتعاش:

-انك على أحسن ما يرام هنا..

ثم راح يتطلع حوله بفضول، وأطل برأسه خارج المقعد الكبير المصنوع من الجلد الاخضر، والموضوع قريبا من مكتب صديقه المدير، تماما كما يطل برأسه طفل من عريته الصغيرة .

كان الحديث قد انتهى، وحين وقت انصرافه.. الا انه لم تكن به رغبة في ذلك. وهو منذ اعتكافه.. منذ اصابته.. كانت امراته وبناته يحتجزنه في البيت كل ايام الاسبوع، سوى يوم الثلاثاء. في هذا اليوم كن يلبسنه ثيابه، وينفضن عنها الغبار، ويهتدمنه، ويأذن له في الذهاب الى المدينة طيلة يومه. وما كانت امراته وبناته ليستطعن أن يتخيلن ما يفعله في المدينة. وكن يحسبن أنه يضايق، بشخصه، أصدقاءه ويسئمهم. اجل، فرما كان الامر كذلك!

انتهى الحديث، ولكن الرجل العجوز تشبث بالبقاء كما تشبث الشجرة بأواخر أوراقها. وظل جالسا يدخن سيجاره الكبير، ويتأمل، بنظرة يقلب عليها الحسد، المدير الذي احتل مكانه راضيا مرتاحا، وقد بدا قويا، متينا، مورد التحدين، ناضر المظهر، وهو مع ذلك أكبر منه بخمس سنوات، ان المرء ليشعر

بالارتياح حين يراه.

وعاد الصوت الراعش يقول بأعجاب واشتهاء:

-بشرفي انك لعلی احسن ما يرام هنا!

وأمن المدير على ذلك قائلاً:

-أجل. المكان مريح.

وتناول مسطرة وراح يضرب بها صحيفة « الشمس » المالية ضرباً خفيفاً متتالياً. فقد كان في الواقع، فخوراً بحجرة مكتبه، وكان يحب ان يجعلها مشار الاعجاب، وعلى الاخص اعجاب «وودفيلد» العجوز. وكان يستشعر الرضى العميق أن يرى نفسه رابضاً وسط حجرته على مرأى قريب من ذلك الشيخ المهزول المتدثر بارديته:

وقال:

-لقد أعدت فرشها واصلاحها مؤخرًا: بساط جديد..

وأشار باصبعه الى البساط الاحمر المتروّج، وقد ارتسمت عليه دوائر كبيرة بيضاء..

-أثاث جديد.

ويرأسه أولاً الى خزانة الكتب الضخمة، ثم الى المنضدة ذات القوائم المجدولة كأنما صنعت من الدبس الاسود المعقود.

-ومدفأة كهربائية...

وأشار مبتهجا، ظافرا، الى الاصابع الكهربائية الخمس التي تتألق في وعائها النحاسي المائل أمامه. الا انه لم يعمل على استرعاء نظر وودفيلد العجوز الى صورة موضوعة فوق المنضدة. كانت صورة فتى رصين النظرة، وقد وقف بيزته العسكرية في حديقة اصنطاعية من حدائق المصورين، وبدت وراءه غيوم تنذر بعاصفة هوجاء. لم تكن الصورة جديدة. انها قائمة في موضعها ذاك منذ أكثر من ست سنوات .

قال وودفيلد العجوز:

-كنت اريد ان احدثك في أمر ما..

وغامت عيناه فعل من يريد ان يتذكر:

-والان ما عسى ان يكون هذا الامر يا ترى؟ لقد كان في ذهني ساعة خرجت هذا الصباح.. وراحت يداه ترتجفان، وظهرت على وجنتيه من فوق لحبته بقع حمراء.

وفكر مدير المكتب:

-يا للشيوخ المسكين.. انه مشرف على نهايته ولا ريب..

ثم حدجه بنظرة عطف من جانب عينه وقال بمازحه:

-ساخبرك انا بهذا الامر الذي يستعصي عليك تذكره.. عندي بضع قطرات من شيء ينفعك قبل ان تعود الى الخروج في هذا البرد.. انه شيء رائع ولا يمكن أن يؤذي طفلا.

وتناول مفتاحا معلقا بسلسلة ساعته، وفتح به درجا في أسفل مكتبه، وأخرج

زجاجة سوداء منتفخة وقال:

-هذا هو العلاج. ولقد أنبأني الرجل الذي أتاني بالزجاجة..ولو أخرج المدير من الدرج أربنا لما كانت دهشته أشد وأعظم..وراح يقول هامسا بصوت واهن:

-ولكن هذا..ويسكي..اليس كذلك؟

وإدار صاحب المكتب الزجاجة، وراه بلطف رقعته الملتصقة عليها. انه ويسكي حقا..

وقال الرجل العجوز وهو يرفع الى المدير نظرة حائرة:

-أتدري..انهم في البيت لا يدعون لي قطرة منه.

ويدا عليه كأنما يهم ان يبكي.

وهتف المدير وهو يدلف من مكانه ليأتي بكاسين موضوعين فوق طاولة مع ابريق ماء:

-آه ! اتنا في هذا المجال ادرى من السيدات قليلا..

وراح يسكب من الويسكي بسخاء، مقدار أصبع في كل كأس ويقول:

-خذ واشرب..انه يفيدك. ولكن لا تصف اليه ماء، والا انتهكت حرمة هذا الرحيق واشرب كأسه دفعة واحدة، واخرج منديله ومسح شاربيه بسرعة، ورفت عينه وهو ينظر الى وودفيلد العجوز الذي راح يمتص الويسكي امتصاصا.

وانتهى الشيخ من شرب كأسه، ولزم الصمت هنيهة ثم قال بصوت خافت:

-ان له نكهة البندق..

لقد اشاع الوبسكي الدفء في بدنه، وتسلسل الى دماغه المقرر، وما لبث أن تذكر..

وراح يقول وهو يقتلع نفسه من مقعده الكبير:

-اجل هو ذاك. لقد حسبت انك تحب ان تعرف ذلك: بناتي ذهبن الى بلجيكا في الاسبوع الماضي. ليلتين نظرة على قبر فقيدنا العزيز ريجي، ووجدن قبر ولدك مصادفة. ان القبرين متجاوران فيما يبدو.

وأمسك عن الكلام. غير ان المدير لم يجب. ارتعاش اجفانه فقط دل على انه سمع ما قيل.

وعاد الصوت الكبير يقول:

-كانت البنات جد مبتهجات لما رأين المبالغة في العناية بالمقبرة. ان القبرين لو كانا هنا ما وسعنا. ان نكون اكثر عناية بهما. الم تذهب الى هناك؟
-كلا.. كلا..

ولامباب شتى لم يكن المدير قد ذهب الى هناك.

واردف وودنيلد العجوز بصوته المرتعش :

-المقبرة تقصد مسافة اميال.. والعناية مبذولة لها كأنها عناية بحديقة غناء. فثمة أزهار نامية على جميع القبور، وبمرات واسعة ممتدة..

وكان صوته ينبيء بمبلغ حبه الممرات الممتدة. ومن جديد ساد الصمت، ثم دبت الحياة في صوت العجوز بصورة مفاجئة وراح يهمهم:

-أندري كم دفعت البنات للفندق، ثلثا لقارورة مربي؟ عشرة فرنكات! اني اسمي هذا اختلاسا، لقد كانت قارورة صغيرة فيمَا قالت ابنتي جرتروود، وهي لم تتناول منها أكثر من ملعقة صغيرة واحدة، فتقاضوها عشرة فرنكات! ان هذه تجارة بعرواطفنا. هؤلاء الناس يتصورون اننا، اذ نذهب الى بلادهم نلقي نظرة على قبور اعزائنا، يتحتم علينا ان ندفع لهم أي ثمن يطلبونه.. واستدار نحو الباب.

وعلى الرغم من ان المدير لم يكون لنفسه أي رأي في الموضوع فقد هتف قائلاً :

صحيح.. هذا صحيح تماما.. ثم دار حول مكتبه، وتبع خطى الشيخ الوثيدة مودعا اياه حتى الباب. لقد ذهب وودفيلد.

وانقضت برهة ظل المدير خلالها تائه النظر لا حراك به. وكان خادم المكتب الاشيب يدخل مصوب العينين نحو المدير، وكأنه كلب ينتظر ان يؤخذ في جولة. وناداه المدير أخيراً وقال:

-ماسي، لا اريد ان ارى أحدا يدخل على مدة نصف ساعة. مفهوم؟ لا أحد على الاطلاق..

حسن جدا يا سيدي.

وأغلق الباب. وعاد المدير الى تجواله على البساط ذي الالوان المشوهجة بخطى ثابتة، ثقيلة الوطء، ثم ترك جسمه البدين يهبط في المقعد الكبير، وانحنى الى أمام، وحجب وجهه براحتيه. كأنه يريد ان يبكي. كان قد اعتزم ان يبكي واتخذ لذلك أهبتة، لقد أحسّ بهدمة عنيفة حين أشار وودفيلد الى قبر والده. خيل اليه عندئذ ان الارض تنشق أمامه، وانه يشاهد ولده مسجى تحت

عينيه، وبنات وودفيلد يتأملنه. ما أغربه من أمر، لقد انقضى أكثر من ست سنوات، ومع ذلك فان مدير المكتب لا يتمثل ابنه ابدا الا عندما هو لا يزال ناضر الحيا لم يمسه سوء، في بزته العسكرية، وقد رقد رقدته الاخيرة: وصاح المدير:

-واولدها !

غير ان الدموع لم تطاوعه. فيما سبق، في الشهور الاولى، وحتى بعد سنوات من موت ولده، كان حسبه أن ينطق بهذه الكلمات حتى يشعر بالالم الشديد الذي لا يطامن من شدته غير نوبة حادة من البكاء.

ويومذاك قال للجميع ان الزمن لا يمكن ان يحمل اليه أي عزاء. ان الآخرين يمكنهم ان يسلوا ويتحملوا في النهاية الخسارة الفادحة. أما هو، فلا. كان هذا يترامى مستحيلا.. لقد كان ابنه وحيد.. ومنذ ولادته عكف مدير المكتب على العمل دون وناء. كان يريد ان ينهض به له وحده.. ويدونه ما كان لهذا العمل أي معنى.. الحياة نفسها اصبحت هي الاخرى لا قيمة لها غير ذلك. وكيف استطاع اذن، ان يعمل جاهدا، ويكد كل هذه السنين الطوال، وينكر ذاته، ويذل نفسه لو لم يكن نصب عينيه دائما الامل بأن يرى ولده يخلفه ويتسلم زمام العمل من حيث يتركه هو؟

هذا الامل كان وشيكا ان يتحقق. وقد جاء ولده الى المكتب، قبل الحرب بستة واحدة، وراح يدرس دوائر العمل. كانا ينطلقان من البيت معا كل صباح، ويعودان مساء، في القطار نفسه. وما اكثر الشاء الذي تلقاه ولده وما كان في هذا ما يدعو الى الدهشة، فقد نجح الابن نجاحا باهرا منذ البداية. واحبه موظفو المكتب كبيرهم وصغيرهم، حتى الخادم المعجوز ماسي. كلهم كانوا يثنون عليه. ولم يفسه النجاح أبدا. فقد ظل كالعهد به دائما، مرسلا على سجيته، وكله اندفاع وحيوية، يجد الكلمة الطبية التي تلائم كلا منهم، وفي عينيه تلك النظرة

الصبيانية الحلوة.

هذا كله.. قد انتهى.. وتلاشى.. كأنه لم يكن قط. انتهى يوم أقبل الخادم ماسي ومد يده ببرقية الى المدير. كان مطلعها هكذا: - يؤلنا ألما عميقا ان نخبركم.. ولهذا انهار كل شيء في نفسه.. وغادر مكتبه وهو انسان معطم وحياته أنقاض..

وراح يفكر:

-ست سنوات.. ست سنوات مضت.. ما يمر الزمان. لكن هذا وقع في الامس. ونحى يديه عن وجهه، وادهشه أن شيئا في نفسه يبدو غير سوي. لم يكن يحس بما كان يود ان يحس به. وقرر ان ينهض ويلقي نظرة على صورة ولده.. وتبين له انها ليست خير صورة له. لم يكن التعبير فيها طبيعيا، وبدت صارمة قاسية. وما كان ابته ل يبدو هكذا قط.

وفي هذه اللحظة رأى المدير ذبابة هوت في دواة الحبر الكبيرة. وقد حاولت، على ضعف، ولكن بهمة المستبش، أن تخرج منها متسلقة حافتها. وكانت سيقانها الضعيفة كأنما تقول وهي تختلج وتضطرب: الفوث.. الفوث.. الا ان جوانب الدواة رطبة ملساء، زلقة، فكانت الذبابة تقع فيها من جديد، وتروح تسبح في المداد. وتناول المدير ريشة الحبر فأخرج بها الذبابة والقاها بنفضة خفيفة على ورقة النشاف، فبقيت جزءا من دقيقة ولا حراك بها، فوق بقعة الحبر الاسود الاخذه بالاتساع حولها شيئا فشيئا، ثم تحركت رجلاها الاماميتان، ثم وجدت نقطة ارتكاز، فراحت تدفع بجهد بالغ جسمها الصغير المبتل الى اعلى، وشرعت من بعد تقوم بعملها العظيم لازالة الحبر من جناحيها.. وكانت رجلها تعلو وتهبط، على امتداد الجناح كما ينتقل حجر فوق المنجل الكبير مرة وتحت مرة..

ومرت برهة سكون بدت الذبابة خلالها كأنها قد نهضت على أطراف

أرجلها-محاوّل ان تبسط جناحا من بعد جناح. ولقد أفلحت أخيرا، فجمشت
وشرعت تنظف وجهها كما يفعل الكلب الصغير. ثم لاحت رجلها الخلفيتان
الصغيرتان تحك أحدهما الأخرى حكا لطيفا، باعسا على السرور. لقد زال الخطر
الهائل، وكتبت لها النجاة، وكانت على وشك أن تستأنف حياتها من جديد...

ولكن.. في هذه اللحظة بالذات.. خطرت للمدير فكرة: فعاد وغمس ريشته
في المباد الاسود، وضغط بقبضته القوية على النشاف، وفي اللحظة التي كانت
الدبابة تجرب فيها جناحيها انتفضت، عليها قطرة كبيرة ثقيلة من الحبر. ماذا تراها
ستفعل؟ أوه ان الامر بسيط. لقد بدت الصغيرة المسكينة وكأنها قد قضى عليها،
فلم تجرؤ أن تأتي بحركة، بعد هذا أخذت تزحف بجهد وعناء كبير الى الامام .
ومحسرت رجلها الاماميتان، ثم وجدتا نقطة الارتكاز، ومن جديد عادت الى
سابق جهدها ولكن ببطء أشد هذ المرة.

وفكر المدير : يا لها من شيطانة باسلة!

وداخله اعجاب حقيقي بشجاعته. وفكر:

-هكذا يجب ان يكون تلقي النوازل. لقد رأى بعينه التصرف الصحيح . انه
ما ينبغي الاقرار بالهزيمة قط.

غير ان الذبابة كانت قد انحزّت من جديد عملها المرهق.. ولم يكن امام المدير
متسع من الوقت الا ريشا يملأ ريشته حبرا ويصب على الجسد الصغير التنظيف
قطرات اخرى سرداء.. وماذا عسى أن يحدث هذه المرة!

تبعث ذلك برهة حيرة أليمة. ولكن ها هما الرجلان الخلفيتان اخذتا تتحركان
من جديد.. وأحسن المدير بارتياح عظيم. وأنحنى فوق الذبابة وخطبها بهتان:

-انك لفنانة ماهرة جواً.

وداخله شعور طيب بأنه أخذ ينفخ على الذبابة ليساعدها في مهمة تجفيف نفسها. ومع ذلك فقد كان جهد الذبابة فيه ضرب من التهيب والضعف. وقرر المدير وهو يغمس ريشته حتى قاع الدواة: ان هذه ستكون المرة الاخيرة. وقد كانت الاخيرة فعلاً، فقد سقطت قطرة الحبر على ورقة النشاف الرطبة فأغرقت الذبابة وصرعتها. انها لم تأت بحركة ما . وقيت رجلها الخلفيتان ملتصقتين بجسمها، اما رجلها الاماميتان فما كان من سبيل لرؤيتهما وقال المدير:

-هيا...أسرعى...

وحركها بريشته دون جدوى. وما حدث من شيء. وما كان ينبغي ان يحدث شيء على الاطلاق. لقد قضت الذبابة نحبها.

وعندئذ رفع المدير جثتها على رأس قاطعة الورق والقاها في سلة المهملات. الا ان شعورا شديدا بالتعاسة والالام النفسي قد تملكه، فأحس بالخوف فعلاً.. فتقدم قليلا وقرع الجرس مناديا الخادم. ولما أقبل خاطبه عابسا.. آتني بورق نشاف جديد نظيف.. جثتي به سريعا.

وبينما راح الكلب العجوز الامين يبتعد بخطى مكتومة، كان المدير يعجب متسانلا عما كان يفكر فيه من قبل:

-فيم كنت افكر؟ هل كان ذلك..

وأخرج مندبله، ومر به على رأسه.. يستحيل ان يتذكر أبد الدهر..

كاترين مانسفيلد (نيوزيلاندا)

الكخاري

هل ترى ذلك المسمار الكبير في الجهة اليمنى من مدخل الدار؟ اني حتى اليوم لا أكاد أحرز على النظر اليه. ومع ذلك فلن تطاوعني شجاعتني ان انزعه. واني لأوثر، حتى لو غادرت تلك الدار، ان افكر بأنه لا يزال موجودا هناك. ولقد أسمع جاري يقول أحيانا: « كان ينبغي ان يكون به قفص معلق » فيبعث هذا في نفسي عزا، وسلوى، واشعر ان طائري لم يقد نسيا منسيا.. انك لا تستطيع أن تتصور أي طائر، غرد كأن لم يكن تغريده يشبه تغريد الطيور الاخرى. وليس هذا وهما، فما اكثر ما كنت ارى الناس، من خلال النافذة، يقفون عند باب الحديقة لكي يسمعوه، أو ينحتوا فوق السياج، قرب زهر معقول، ولكن لو قدر لك سماعه لادركت ما أقول. وكان يلوح لي أنه كان يشدر انغاما حلوة، هي في الحق قطع كاملة من الموسيقى الرائعة.

كنت عند الفراغ من شؤون المنزل، بعد ظهر كل يوم، أبذل ملايسي، واحمل اشغال الابرة ثم اتعذر لاجلس تحت الشرفة. وعندئذ كان يتواثب، ويقفز، من مجثم الى آخر، ويروح يضرب قضبان قفصه برفق كأنما يريد أن يسترعي انتباهي، ثم يحسو قليلا من ماء تماما كما يفعل المغني المحترف. ويشرع بهدئ في شدة مفرط العذوبة اضطر حياله أن أضع ابرتي جانبا لكي القي اليه بسمعي. ولسوء الحظ فاني أحس بالعجز عن وصف جمال تغريده. كان هذا كله يحدث على هذا النحو في جميع الايام. وكنت أجد أنني أفهم الحانه واستوعبها كلها.

لقد كنت أحبه حبا جما . لا يهم ان يكون ما نعبه هو هذا الشيء أو غيره . ولكن لا بد من ان نحب شيئا ما . وبالطبع كان لي دائما بيتي الصغير ، وستانبي . غير أنني لا أدري سبب احساسى بأن هذا وحده لم يكن يكفينى ابدا . ولا ريب فى اننا نستطيع أن نحب الازهار . وهى تستجيب لحينا استجابة معجبة . بيد انه يعجزها ، اذا حدثناها ، ان ترد .. فأحببت اذ ذاك نجمة المساء . قد لا يكون هذا معقولا ، اليس كذلك ؟ وكنت اذهب بعد غياب الشمس الى الفناء الذى يقع خلف البيت ، واروح انتظر ان اراها اخذت تتلأأ فوق ذوابات الشجر العالي ، فأهمس لها عندئذ : « هذه أنت يا حبيبتي » وفى هذه اللحظة بالذات كان يبدو لي انها تتألق لي وحدي . وكان يتراءى لي انها تفهمني .. وتفهم هذا الشعور الذى يشبه رغبة من الرغبات .. ومع ذلك فما هو برغبة .. أفىكون حسرة اذن ؟ قد يكون هذا هو الاصوب والاصح . ولكن ما الداعي الى التحمر ؟ ان ثمة اسبابا عديدة لمحملني على الرضا والطمأنينة ..

وما ان خالط ذلك الطير حياتي حتى أنسيت نجمة المساء . انني لم اعد بحاجة اليها . ويوم جاء الرجل الصبني ففرع باب بيتي عارضا طيورهِ وعصافيره ، رأيته يرفعه من قفصه الصغير . وبدلا من ان يرفرف بجناحيه من الفرع ، كما تفعل الحساسين الصغيرة المسكنة ، فقد أطلق صرخة صغيرة خافتة . ويا للعجب ! سرعان ما جعلت عندئذ أقول له ، بالضبط ، ما كنت أقوله لنجمة المساء التى كانت تتلأأ فوق أشجار الكينا : « هذا أنت يا حبيبى ! » ومنذ تلك اللحظة أصبح ملكا لي .

انني لا ازال تتولاني الدهشة كلما فكرت الى أي حد كانت حياته وحياتي مرتبطتين ، لقد كان يستقبلني بفرقة مليئة بالنعاس ، حين كنت اهبط اليه في الصباح ، وانحي الغطاء الذى يحجب قفصه . وكنت ادرك انه يريد ان يقول : سيدتي .. سيدتي .. وعندئذ كنت أغلق القفص وأغلقه بالمسار الموجود في الخارج .

ثم أروح أعد الفطور لنزلتي الشبان الثلاثة. وكنت انتظر حتى نصبح وحدنا، انا هو، لكي أعيدته الى داخل البيت. وبعد ان أنهى غسل الاواني كنت الهو معه لهموا حلوا سريعا، فأبسط صحيفة فوق ركن من المائدة وأضع عليها القفص. وفي هذه الاثناء كان، هو، يصفق بجناحيه الى درجة اليأس.. كأنه لا يدرك ما يوشك ان يحدث. وكنت أؤنبه وأقول له: « يا لك من ممثل صغير، حاذق. » ثم أروح أنظف قاع القفص، وأفرش فوقه رملا نظيفا جديدا، وأضع بين القضبان شيئا من عشب ونصف قرن من الفلفل الحلو غداء له، وانا واثقة تماما انه يفهم كل حركة من حركاتي، ويعجب أشد الاعجاب بها.

ولا بد ان أذكر انه كان على جانب كبير من النظافة المدهشة. لقد كان هنا شيئا في طبعه. وما حدث قط اني وجدت فوق مجشمة لطخة ما. ولو أمكنك أن ترى سروره وهو يباشر حمامه لادركت انه يهوى النظافة حقاً. لقد كان اغتساله يأتي اخر كل شيء. وكنت لا أكاد احمل اليه مغطسه الصغير حتى يهرع اليه ويلقي بنفسه في داخله. وكان في باديء الامر ينفض جناحا، ثم الاخر، ثم يفوض برأسه، وبعد ذلك يغمس فيه صدره. وكان، بذلك، يريق الماء في انحاء المطيخ كلها، ويعود لا يريد ان يخرج من مغطسه فأقول له: هذا حسبك الان. وكان في النهاية يقفز خارج الماء، فيقف على رجل ويرفع الاخرى، ثم يطلق زقرقته ويمد عنقه.

آه.. شد ما تؤذيني هذه الذكري. لقد كنت دائما، في تلك الاثناء، أشحد سكيننا بأخرى. وكانت السكاكين تبدو لي كأنها تغرد هي أيضا وأنا أقوم بصلفها وتلميحتها.. لقد كان رفيقا لي. وصاحباً. وكانت صحبته رائعة. لو حدث انك عشت وحدك فانه يسمعك أن تدرك كم كان هذا الطير ثميناً علي عزيزاً.

لا ريب في أنه كان ثمة نزلاتي الشبان الثلاثة الذين كانوا يؤوبون لتناول عشايتهم كل مساء، ثم يمكثون في حجرة الطعام ليقروا صحيفة أو نعوها. أما

أنا فلم اكن استطيع قراءة الصحيفة ولم يكن يسعني أن أسألهم الاهتمام بالحوادث الصغيرة التي تتألف منها أيامي. ولماذا؟ اتراهم كانوا سيهتمون بها؟ انني لم اكن في نظرهم شيئاً مذكوراً. حتى لقد سمعتهم مصادفة في إحدى الامسيات يذكرونني، وهم بهيظون السلم، ويقولون « يا لها من هولة مفزعة » ولكن هذا ما كان ليهمني. وما كنت أبالي به أقل مبالاة، كنت أدرك أنهم شبان أغرار، فما استبائي منهم؟ غير أنني أذكر أنني أحسست، في تلك الامسية، انني شاكرة للسماء ان لم اكن وحدي، ولقد رويت لطائري ما حدث بعد ذهابهم، وقلت له: أتدري ما هو الاسم الذي أطلقوه على سيدتك؟ فمال برأسه الى جانبي، وصب الي من عينه الصغيرة نظرة متألفة جناً. فلم أتمالك أن ضحكت، فقد بدا كأنه يجد ذلك أمراً يدعو الى الضحك..

هل كان في حوزتك طيور أو عصافير؟ فإذا لم يكن الامر كذلك، فاني لآخشي انك لا تفهم ما أقول كل الفهم. ان الناس يتصورون ان الطيور مخلوقات صغيرة، باردة، لا قلب لها، وأنها لا تشبه الكلاب والقطط. وقد كانت غسالة الثياب تأتيني يوم الاثنين من كل اسبوع فتبدي دهشتها ان لا يكون عندي كلب أصيل وتقول : ما كان الكناري في يوم من الايام، ليكتسب الانسان منه الصحة والثقة والاطمئنان ». وهذا خطأ جسيم. اني لاذكر حلماً مفزعاً حلمته ذات ليلة، وبعد ان صحوت من نومي لم استطع ان اثوب الى نفسي. فارتديت معطف البيت ونزلت الى المطبخ لاشرب كوب ماء. ولا ريب في اني كنت لا ازال نائمة نصف نوم، ومن نافذة الغرفة التي لا ستار لها، لاح لي كأنما الظلام يحرق بي ويترصدني، وتراعى لي ان من نكد العيش ان لا يكون ثمة انسان استطيع أن أقول له « لقد حلمت حلماً مفزعاً » أو.. وآه.. خبثني فاني خائفة من الظلام.. ووضعت رأسي بين راحتي هنيهة. وعندئذ سمعت صوتاً صغيراً يقول: كوي.. كوي.. وكأنه اراد ان يقول انا هنا يا سيدتي.. انا هنا.. لقد كان صوته سداً لي وقوة، وترقرقت الدموع في عيني..

لقد ذهب الان. ولن يكون لي طائر احبه، ولا حيوان من أي نوع. اني وجدته ملقى على ظهره، وقد جمدت عيناه كقطعتين من زجاج، وتقبضت پرائئه. فلما أيقنت انني لن اعود اسمع شذو صغيري الحبيب، داخلني شعور بأن شيئاً قد مات في نفسي. ولقد أحسست ان قلبي غدا خاوياً كقفصه. ولا ريب في أنني سأثوب الى نفسي. ومع الوقت لا بد ان يبرأ الانسان من كل ما يصيبه.. غير أنه يبدو لي ان للحياة اصلاً من حزن واسى. وانه لتفسير أن أشرح هذا الشيء على حقيقته، وأنا لا أتحدث عن الهموم التي نعرفها كلنا كالمريض، والفقر، والموت. كلا. انه شيء مختلف جداً. انه كامن في أعماقنا، وهو بعض منا، كأنه حشاشتنا، أو رمق الحياة. وعبثاً انهمكت في العمل وانهكت قواي، فانا أعلم اني إذا توقفت لحظة واحدة فان هذا الشيء ينتظرني، وإنني لأسائل نفسي فيما... اذا كان الناس جميعاً يجدون مثل احساسي هذا. من يدري؟ ولكن اليس غريباً ان يكون الاسى كامناً وراء تلك الزقزقة الحلوة المرحمة، زقزقة عصفوري الذي رحل؟.

لويجي بيرانديللو (إيطاليا)

نصمة هواء

بريق من العينين، وشعر أشقر، وذراعان صغيرتان، وساقان عاريتان،
وضحكة مجنونة متصلة متدفقة.. أنها تلك الشيطانة الصغيرة «تيي». لقد
دخلت الحجرة، واندفعت نحو الشرفة لتفتح نافذتها.

ولكنها ما كادت تدبر مقبض النافذة حتى تناهت إليها همهمة، كتلك التي
تصدر عن وحش ضار، بوغت في مريضه، فوقفت فجأة وجعلت تتلفت مذعورة،
ل ترى ما بداخل الحجرة.

كان قد بهرها النور خارج الحجرة فلم تميز شيئا فيها في بادئ الامر. ثم
سرعان ما تبينت في تلك العتمة- وقد تملكها الروح- وجود جدها القابع في قرارة
مقعده الكبير: كتلة ضخمة تحف بها الوسائد وتحيط بها الشيلان الاسكتلندية،
وتكتنفها الاغطية الثقيلة. لقد كان جدها فريسة شيخوخة متورمة يفوح عنفها،
وتتحلل في جمود شللها.

لم يكن وجوده هو الذي روعها، وإنما نسيانها برهة ان جدها لا ينفك قابعاً
في عتمة حجرته الموصدة نوافذها ابداً... .

كيف حدث انها خالفت، دون قصد، ذلك الامر الصارم الذي أصدره أبوها
للجميع بأن لا يدخل احد تلك الحجرة دون ان يطرق الباب ويستأذن بالدخول.

ويكون الاستئذان خافتا، خافتا «جدي.. حبيبي.. أسمح؟» أجل هكلنا برقة وخفض صوت، في حين تتقدم على رؤوس أصابعها دون ان تأتي بأيسر حركة.

وتغيرت ضحكاتها الصاخبة اذ دخلت حجرة جدّها فأضحت شيئا أقرب ما يكون الى شهيق خائق..

وتصاغرت الطفلة، وتضاءلت، وهي لا تنفك ترحف، وانجذبت على رؤوس أصابعها الى الباب دون ان يخطر لها ان الرجل العجوز، وقد اعتاد تلك العتمة الشديدة، أخذ يتبعها بنظره. واذا اوشكت ان تبلغ العتبة ناداها بلهجة أمرة صارمة « تعالي هنا. »

واقتربت الطفلة، وهي لا تزال تسير على رؤوس أصابعها، حائرة مروعة حابسة أنفاسها.. وراحت بدورها تميز الاشياء في العتمة. وتراعت لها عينا جدّها، عينا النافذتان، الحاقدتان.. وعلى الفور غضت من طرفها.

وفي عيني الرجل العجوز، بل في ظل من اجفانه المحمرة المنتفخة التي يعس الناظر اليها اشمزازا كالذي يحسه عندما يس حشرة كريمة، كانت روحه تبدو كأنها قد لاذت هناك، في حذر وتوجس، وهي تتوقد بالحقد الاخرس الضاري، وقد طردت من سائر الجسد الذي تغشاه الموت..

ما كان الرجل ليستطيع تحريك يده اليسرى الا بجهد، وذلك بعد ان يحدق النظر فيها طويلا كأنما يريد ان ييشها، بذلك، القدرة على الحركة، وكان بعد تركيز ارادته فوق رسغ يده يفلح على الجهد في رفعها قليلا فوق الاغطية، ولكنها لا تلبث أن تهوي من جديد وهي لا حراك فيها.

وكان الرجل العجوز لا يني يعاود هذا التمرين في عناء بالغ. انه كان يرى ان هذا الشيء هو الحياة نفسها، الحياة بأسرها، الحياة التي ينعم بها الآخرون

بحرية. انه هو الاخر يستطيع ان تكون له هذه المشاركة. ولكن ضمن هذا الحد لا يعدوه أبدا..

وقال متلعثما ، مضطرب اللسان:

-لماذا.. الشرفة؟

ولم تجب الصغيرة، واستمرت ترتعد. الا ان العجوز لمح بفتحه في ارتعاد جسدها امرا غير معتاد. انه ليس ارتعاد الخوف المعهود الذي كانت لا تكبجه الا بجهد كلما أرغمها على الاقتراب منه. ان خوفها الناجم هذه المرة عن ندائه اياها فجأة، ويقسوة، ليخفي شيئا اخر، فقد كان في ارتعاد الصغيرة شيء من غموض. وسألها:

-ما بك؟

وأجابت الطفلة دون ان ترفع رأسها:

- لا شيء..

الا أنه لا حظ في صوتها شيئا غير معهود. وأعاد سؤاله مزيد من الحقد:

-ما بك؟

وانفجرت الصغيرة باكىمة، وارقت على الارض، وراحت تتلوى، وتتخبط بعنف وشدة احتقتا الرجل العجوز، وزاد من حنقه ان هذا كله لم يكن له في الواقع ما يبرره.

واندفعت زوجة ابن الرجل العجوز الى الحجرة وهي تصيح:

-يا الهي.. تيتي ماذا حدث.. ما الذي دهاك.. هدني من روعك.. اقتربي مني.. كيف دخلت هنا؟ ماذا تقولين؟ رجل سوء؟ من يكون؟ جدك رجل سوء؟ .. انك أنت الفتاة السيئة.. غير ممكن.. انه جدك.. الذي يحبك كثيرا.. ولكن ما الذي حدث؟

كان السؤال الاخير موجها اليه هو، فصوب نظرة ضاربة الى ثغر زوجة ابنه الضاحك الغض، ثم الى خصل شعرها الاشقر الذهبي البديع الذي راحت الطفلة، وقد احتضنتها أمها، تشعته فوق جبينها وهي لا تنفك تتخبط وتتلوى.

وقالت الام.

-اي تيتي، دعي شعري. انك تقتلعينه ايها الحمقاء. انظري، ان شعري كله في يدك.. انظري.. انظري..

وراحت تستل من بين أصابع طفلتها شعرة من بعد شعرة، من تلك الخيوط الذهبية وهي لا تزال تردد:

-انظري.. انظري.. انظري..

وأخذت الفتاة الصغيرة، وقد داخلها التأثر بفتة، تنظر بعينين دامعتين الى قبضتها كأنها اقتلعت شعر امها كله بالفعل، ولم تر شيئا. غير ان الغضب عاد فاستحوذ عليها أذ سمعت ضحكة امها العالية، فاضطرت المرأة الشابة أن تخرج بها من الحجرة.

وفي هذه الاثناء كان الرجل العجوز يلث في غضب متزايد ويقول:

-ماذا بهما ... ماذا دهاهما؟

ذلك انه لمح في عيني كنته وفي صوتها ، وفي ضحكتها ، وفي حركتها وهي
تنتزع شعراتها واحدة واحدة من بين اناصل اهنثها الصغيرة.. لمح شيئا غير
معهود.. فماذا داهما؟

ويلغ الغضب منه ذروته عندمالقى نظرة على غطاء ساقيه فشاهد شعرة من
شعر كنته. انها شعرة خفيفة، خفيفة جدا، ولا بد انها استقرت فوق ساقيه الميتين
لحظة انفجرت المرأة الشابة ضاحكة....

وانهمك طويلا في دفع يده الى الزحف فوق الغطاء لتصل الى الشعرة التي
كانت تبدو له مقبلة، ومنه ساخرة. واستمر انهماكه ومحاولته، يكر الكرة تلو
الكرة بلا جدوى، نصف ساعة كاملة، فعظم لهائه واستنفد قوته كلها. واذا ذلك
دخل ابنه ليراه، شأنه كل صباح، قبل ان يغدو الى عمله.

-اسعد الله صباحك يا ابي..-

فرقع العجوز رأسه، وبدت نظرتة كثيبة كدراء، واتسعت حدقتاه بدهشة
فرعة. لقد حان دور ابنه الان. وخيل لهذا الشاب انه يقرأ عدم الرضا في عيني
والده فسارع يقول وهو يحسب ان السبب هو عصيان طفله:

-لقد ازعجتك تلك الشيطانة الصغيرة، اليس كذلك؟ انك لتسمعها تبكي
هناك، الى اللقاء يا ابي فانا الان مسرع لحاجة ولن تلبث « نرينا » ان تأتي.

ذهب الشاب وأتبعه الرجل العجوز نظرتة نفسها الذاهلة القلقة حتى عتبة
الباب.

ماذا؟ حتى ابنه ايضا؟ انه ما يحدث اليه قط بهذه اللهجة « اسعد الله
صباحك يا ابي » ولم؟ ماذا كان يرجو؟ واذن فقد المحدوا كلهم ضده؟ ما الذي

حدث؟ بدأوا بهله . صغيرة، فقد دخلت وجسمها كله يرتعش.. ثم أمها وهي تضحك.. والان ولده بلهجه هذه المرحه وهو يحييه تحية الصباح

لا بد من أن في الجو شيئا يريدون ان يكتموه عنه. ولكن ما هو هذا الامر؟

الابن، وزوجته، والحفيدة، جميعا، قد جعلوا من عالمهم ملكا لهم. بل هم أكثر من ذلك قد امتلكوا الزمان ايضا، وكأنه قد أقصى هو عنه اقصاء.. وكأنه أضحى لا يرى ولا يتنفس ولا يفكر على الاطلاق. ومع ذلك فانه لا يتفك يتنفس ويرى كل شيء، أفضل منهم جميعا، وما من أمر يقوته أبدا....

وجعلت صور وذكريات تدور مشرشة مضطربة في ذهنه، أشبه ما تكون ببيروق العاصفة. وتراعت له سهول أميركا الجنوبية وسهوبها ومستنقعاتها وأنهارها الضائعة في فجاج الارض، وقطعان الماشية لا تكف عن ثغاء وخوار وهدير.. انه في بادى أمره لم يكن شيئا مذكورا. ولما بلغ الخامسة والاربعين كان قد جمع ثروة طائلة هناك. وكانت الوسائل كلها، وضروب المكر والختل جميعا حسنة في رأيه. كان يسك بالفرصة وهي طائرة، وينصب فخاخ احتياله واحايل خداعه بصير ودها.. وقد بدأ حياته حارسا لقطعان الماشية قبل ان يملك الارض ويعمرها. ثم شارك في مشروعات كبيرة لد السكك الحديدية، وفي النهاية صار من أصحاب العمائر. ولما عاد الى ايطاليا، بعد غياب امتد خمسة عشر عاما، تزوج، ورجع فجأة وحده هناك. بعد ان ولد ابنه الوحيد هذا. ولقد قضت امراته نحبها دون ان يراها ثانية. وكبر ولده بعيدا عنه في كنف جديده لأمه. وعاد من جديد الى ايطاليا منذ أربع سنوات وقد اقعدته العلة، وأنهكه المرض، وملا الاستسقاء بطنه ماء فانتفخ، وتيبست شرايينه وتلفت كليته، وانهار قلبه، غير أنه لم يعترف بالهزيمة. وعلى الرغم من أيامه، بل من ساعاته المحدودة، فقد اراد أن يشتري الأرض في روما وينشيء عليها العمائر الجديدة. وبادر الى العمل، وجعل يقدو الى الورش محمولا على كرسيه المتحرك لكي يعيش بين الفعله

والعمال. وفي صميم حمى هذا النشاط، يصيح كصخرة صلبة، ضخمة، منتفخة. وكانوا يسحبون ماء بطنه مرة كل خمسة عشر يوما، ثم سرعان ما يعود الى مركز عمله.. حتى كان يوم، منذ سنتين، صعقه فيه الشلل وهو قابع في قرارة معقده، ولكنه لم يقض عليه. ان نعمة الموت في ميدان العمل قد تأتت عليه. وانه-وقد تلف جسمه - ليستنفذ حياته منذ عامين مترقبا اجله، حانقا، حاقدا على ابنه الذي لا يشبهه الا قليلا حتى ليوشك ان ينكره. هذا الابن الذي ما كاد ينتهي من تصفية اعمال الورش، ومن تحويل ثروة والده الى مورد دخل ثابت، حتى شرع يواصل مهام عمله المتواضع كرجل من رجال القانون.. فكأنه، بذلك، يأبى أي ارضاء لوالده، ويتنقم لأمه ولنفسه ايضا من افعال طويل. ما من سبب من الاسباب يلتقي عنده مع ابنه، وما من فكر او حس يجمع بينهما ، وانه ليبغضه كما يبغض زوجته وابنتهما.. اجل . اجل انه ليمقتهم جميعا لانهم نبذوه خارج نطاق حياتهم.. ولانهم ايضا يأبون أن يورحوا له بما يجري اليوم من امر، يجعلهم كأنهم جد مختلفين عما هم عليه عادة. وانفجرت الدموع من عينيه، فاستسلم لها كطفل وقد أنسى امره وما كان عليه سنين طوالا.

وعندما دخلت عليه ترينا الخادم الصغيرة، لتعطني به، لم تبال دموعه تلك أي مبالاة وفكرت الخادم وهي تمسح له وجهه وتكفكف دموعه دون اكتراث: ان الرجل العجوز يمتلىء ماء، ولا يضيره ان يخرج بعض هذا الماء من عينيه. ثم تناولت كوب الحليب وغمست فيه بسكوته وراحت تطعمه وتقول:

-كل... كل...

فجعل يأكل وهو يخالساها النظر. وقد سمعها تنهد مرة ، ولكنه لم يكن تنهد التعب والألم. وعلى الفور رفع عينيه الى وجهها. لا ريب في ان هذه الملاجية كانت سترسل تنهدة أخرى، ولكنها، وقد أحست أنها مراقبة، جعلت تخرج أنفاسها متقطعة وعلى مهل من فتحتي انفها، وهي تهز رأسها كأنها

غضبي. لماذا تراها قد احمر وجهها بفتة؟ ماذا دهاها هي الاخرى. انهم جميعا،
أجل جميعا، على غير مألوفهم اليوم. وأمسك عن تناول طعامه وسألها محتقا:

-ما بك؟

وأجابت الخادم الصغيرة وقد اذهلها السؤال:

-ما بي أنا؟

-أجل انت.. انتم كلكم.. ماذا هناك.. ماذا دهاكم؟

-لا شيء... لست أدري.. ماذا عساك تجد بي؟

-تنهداتك.

-تنهداتي؟.. انا تنهدت؟ ابدا. او اني فعلت ذلك دون قصد، فما من سبب
يدعوني الى التنهد.

وظفقت تضحك.

-لماذا تضحكين هكذا؟

-أنا.. اضحك؟ اضحك لانك قلت اني تنهدت!

وجعلت تضحك ضحكا اشد ولا تستطيع أن تكف.

وعندئذ جا، الطبيب، مساء، ليعوده كما يفعل دائما ودخل معه الى الحجرة
ابنه وزوجته والحفيدة، تأكدت عنده الفكرة بأن شيئا ما قد حدث، هذه الفكرة
التي لا حقه حتى في سباته، تأكدت الان واصبحت يقينا واضحا يبقا العين.

لا شك في أنهم متفقدون جميعا: انهم يتحدثون امامه أحاديث لا أهمية لها يخفون بها الحقيقة، ولكن حسب المرء ان يراقبهم ليدرك اتفاقهم. ما حدث قط انهم تبادلوا مثل هذه النظرات. ان حركاتهم ولهجاتهم وإبتساماتهم لا علاقة لها بشاتا بما يخوضون فيه من حديث ، وما الداعي الى كل هذه الحماسة في جدلهم حول الشعر المستعار الذي عادت « موضة » من جديد؟

-أتقول انها جمات شعر خضراء؟ خضراء ونفسجية .

بهذا هتفت الزوجة، زوجة الابن وقد شاعت الحيوية في ملامحها، وتظاهرت بغضب مفتعل لم تغلغ معه في ان تمنع فمها عن الضحك. كان يضحك وحده هذا الفم، وكانت يداها ترتفعان من تلقاء نفسها فتداعبان شعرها وكأنه هو الذي استدعى هذه الملامسة اللطيفة.

وأجاب الطبيب وقد ارتسمت القبضة على محياه المستدير كالقمر في ليلة تمامه:

-طبعاً، طبعاً، ثم اذا كان للمرأة شعر كشعرك فان اخفاءه تحت جمعة مستعارة لخطيئة كبرى. بذل الرجل العجوز، هذه المرة، جهدا كبيرا ليكبح جماح غضبه. كان يتمنى ان يطردهم جميعا من حجرته، وهو يزأر كوحش ضار. وما أن غادر الطبيب الغرفة تشييعه المرأة الشابة ممسكة بيد ابنتها حتى راح يصب جام غضبه على ابنه:

-ماذا بكم؟ ولماذا انتم جميعا هكذا اليوم؟ ما الذي حدث؟ وماذا تكتتمون عني؟

وأجاب الابن متدهشا مقلوبا على أمره:

-لا شيء يا ابي . ماذا تريد ان تخفي عنك؟ أؤكد لك اننا كعهدك هنا دائماً.

-ليس هذا بصحيح. ان ثمة أمرا، أمرا اراه وأحس به. أو تحسب اني غدوت لا أرى شيئا في حالتي هذه؟

- في الواقع لست أدري ما هذا الذي تجده فينا يا ابي. لم يحدث شيء، ولقد أقسمت لك، وانا مستعد أن أقسم لك ثانية. دع هذه الوسواس ولا تزعج نفسك.

طامت لهجته الصادقة شيئا من حدة الشيخ، ولكنها لم تقنعه. ما من رب في أن أمرا ما، أمرا خارقا للعادة، قد حدث. انه يراه ويحسه فيهم..

لكن ما هو؟

وقد جاءه الجواب خلسة وعلى حين غره عندما خلا الى نفسه، فان النافذة التي ادارت حفيده مقبضها في الصباح كانت قد انفتحت قليلا، ويرفق، في ساعات الليل الاولى بفعل نسمة هواء. ولم يلمح الرجل العجوز ذلك في أول الامر، الا انه أحس أن أريجاً شذيا يتصاعد اليه حلوا، عبقا، من الحدائق المجاورة ويملأ عليه الحجرة. وأدار رأسه فشاهد بقية من ضوء القمر على أرض الغرفة كأنها اثر ساطع خلفه أريج العطر في الظلام الدامس.

-آه هو ذاك.. هو ذاك..

ما كان الاخرون ليستطيعوا ان يروه ويستشعروه في أعماق ذاتهم، وهم الذين لم ينفكوا تستغرقهم الحياة. أما هو، وقد خلص منها او كاد، فانه رآه واستشعره بمجرد ملاحظته أياهم .

ولهذا السبب، أجل لهذا السبب بالذات لم ترتعد الطفلة في الصباح كعادتها
وانما هي ارتعشت كلها ارتعاشا وحسب، ولهذا السبب ايضا كانت زوجة ابنه
تضحك وتتلاعب بخصل شعرها ، ولهذا السبب كذلك كانت الخادم الصغيرة
تنهد، لهذا السبب نفسه كانت لهم جميعا هذه السمة الغريبة دون علم منهم او
ادراك:

وذلك ان الربيع قد أقبل!

لويجي بيرانديللو (إيطاليا)

من يكون ؟

قولوا أنتم، اذن، من يكون اذا كان ما أقوله لا بد ان يضحكم وحسب.
ولكن على الاقل، اطلقوا سراح اندريا سانسيرا فهو بري.. وهو لم يكن معي في
ذلك الموعد، واني لاعيد قولي هذا للمرة المنة. والان دعوني اتحدث عن نفسي.

ربما كان الدليل على انني مذنب أثيم هو انني عدت الى روما في شهر
تشرين الاول، أليس كذلك؟ في حين انني اعتدت دائما، في السنوات الاخرى، ان
أتي اليها مرة واحدة فقط، وفي شهر حزيران. ولكن الا تريدون ان نحسبوا حسابا
ان خطبتي للأكسة-تودا-قد انقصت عراها في حزيران الماضي؟ وفي- نابولي-
فيما بين شهري تموز وتشرين الاول، كنت كمن أصيب بمس من الجنون.. حتى لقد
اراد رئيس المكتب الذي اعمل فيه ان يمنحني اجازة شهر آخر اجبارية في شهر
تشرين الاول بالذات. ان حلمي، حلم الاعوام الطوال كان قد انهار تماما. وانه
لكذب صراح، كذب مخز انني عكفت على معاقرة الخمر في نابولي لكي
انسى.. انني ما اشتريت الخمر ابدا. وانما كان الالم هنا، في رأسي، ولقد أصابني
هذا الالم بالهذيان، والدوار والرغبة في التقيؤ. فهل يعقل انني كنت أسكر،
ولكن لا داعي الى الدهشة ما دمتم الآن تحاولون إقناع الآخرين.. اقناع الآخرين
بأنني اصطنع الجنون لكي أبرىء نفسي! لقد اندفعت على تقيض ما تتوهمون،
في تيار هاتيك.. أجل.. في تيار هاتيك المغامرات السهلة اندفاع بلاهة وحماقة
لكي انتقم لنفسي، أو على الاصح لكي أثار من مشابرتي وثباتي، وفي هذا

الاندفاع افرطت وبالغت.

في روما ، عند امي ، وجدت اندريا سانسيرا بعد غياب امتد سبع سنوات. كان قد عاد من اميركا منذ شهرين ، فأولته أمي أمري. لقد نشأنا معا منذ الطفولة. وكان احدنا يعرف الآخر خيرا من معرفتها ايانا.. تلك الام المسكينة التي كانت في ضوء افكارها النقية ، تقيم لنا من الوزن والتقدير اكثر مما نستحق في الواقع.. كانت محسبنا ملاكين مطهرين ونحن بعد في السادسة والعشرين من العمر الا انني انا الذي أعطاهها هذه الفكرة الطبية بسبب من طراز حياتي طيلة خمس سنوات هي مدة خطبتي.

ومع اندريا بقيت مستمرا في طريق الغواية التي كنت قد اندفعت فيها منذ ثلاثة أشهر في مدينة نابولي. راروي لكم الان ما حدث.. ذات مساء عرض هو علي.. والواقع انني اريد ان اكون دقيقا فأؤكد ان -سانسيرا - لم يكن يعرف الشخص الذي سأذكره.. وانما كان قد سمع به من آخرين.. أقول أنه عرض علي ان نتعرف- كما قال بالضبط- بوحدة من نوع خاص.. وحدثني بما لا استطيع ان اعيده.. وانه ليخيل الي ان كلماته صورت لي: غرفة معتمة ، فيها سرير كبير ، وعند طرف السرير حاجز يحجب الواقف خلفه عن الانظار ، وثمة فتاة ملتفة بمطرف كأنها شيع من الاشباح ، ورواء الحاجز عمة أو خالة عجوز للفتاة لا تنفك تحرك شيئا ما وهي جالسة على الجدار ، وبذاها الناشطتان لا تفران عن الحركة.. أما الفتاة فلا تتكلم ولا يكاد المرء يتبين الا وجهها ، وعمتها على نقبض هذا فهي تتحدث وتتحدث وتروي لبعض الزبائن الموثوق بهم.. خليطا لا قرار له من التعاسة والبؤس: فابنة أخيها كانت موجودة الا ان كارثة عائلية ذهبت بها.. واصبح لا بد من ادخالها مرة اخرى ، وأقل ما يمكن من الوقت.. قبل ان يعلم الشاب الممتاز.. ما تفعله الان خطيبته.. واختتم اندريا حديثه قائلا:

-ويمكن ان يكتب على باب تلك الحجرة كلمة: احتضار.. وبالطبع أغراني

ما قاله اندريا واتفقنا معا على موعد في مساء الغد، الساعة الثامنة والنصف عند باب الشعب.. وهو يقيم في شارع- فلامينيا- ، وذلك البيت المشبوه يقع في حي- لورينا- ولست أتذكر رقمه..

كان ذلك مساء يوم السبت والمطر يهطل مدرارا ، وكان شارع فلامينيا يمتد مستقيما موحلا تضيئه هنا وهناك مصابيح تسطع انوارها احيانا ثم تخبو تحت صفعات الريح التي كنت أحس هبوبها في ظهري، وأرى عصفتها بأشجار دارة بورغيز والمطر يضربها بسياطد.. وقلت في نفسي انه لن يأتي في هذا الجو الرهيب، ومع ذلك لم استطع الوصول الى قرار حاسم في ترك المكان والعودة من حيث أتيت.. وبقيت حائرا، مترددا، وأنا انظر الى خيوط ماء المطر وهي تتساقط من حول محطرتي.. أنأذهب وحدي الى حي لورينا؟ لا.. لا.. ابدا.. وفي هذه اللحظة قلكني اشمئزاز عميق من الحياة التي كنت أعيشها منذ ثلاثة أشهر.. وخجلت من نفسي وقد تركني رفيقي هنا.. في طريق الرذيلة.. وفكرت أن أندريا قد ذهب على الأرجح لكي يمضي سهرته في بيت شريف نظيف دون أن يخطر له انني بلغت من الفساد ان اوافيه الى موعدنا في مثل هذا الوقت الكريه.. وفكرت: بل أنا أكثر من فاسد ضال.. انني شقي تعيس.. وأين عساني أذهب الان؟ وعادتنني ذكرى الامسيات الهادئة الهائشة، والى جانبي حبيبي.. وتراعت لي حياتي السابقة.. ولاح لي بيتها هي..-تودا-..تودا.. خطيبتني. وعلى حين غرة برز من تحت أحد العقود والحنايا رجل عجوز قميء، ضئيل، متقوس الظهر ملتف بمعطف ينحدر حتى عرقبيه.. ويده ممطرة ممزقة.. وكان يخطو فتكاد محمله الريح وهو ينحدر نحو شارع فلامينيا.. فجحظت عيناى وترأرأنا.. واعترتني رعشة في بدني كله.. انه- جاكرو ستورزي- والد تودا خطيبتني.. ولكن كيف؟ ألم أضعه أنا نفسي، ويدي الاثنتين، في تابوته في العام الماضي، ثم رافقت جنازته حتى- كامبرو فيرانو-؟ ومع ذلك فيها هو ذا.. وأنه ليسر امامي.. يا الهي-! ولتفت ليراني.. ويحني رأسه من جانب كأنما يريد ان يريني

ابتهامته، وبألها من ابتهامه! وبقيت مسررا في الأرض وفريسة لارتعاد منقبض مؤلم.. حاولت أن أضحى ولكن صوتي لم يخرج من حلقى.. واتبعت نظري هنيهة وأخيرا استطعت أن أحرر من خوفي فاندفعت في اثره.

صدقوني.. فأنا لست بقادر على ابتكار شيء كهذا.. ولن أستطيع أن أعيد على مسامعكم ما قاله لي كلمة.. ولكنكم ستدركون بسهولة أن بعض الآراء والافتكار لا يمكن أن تخرج من ذهني أنا، لأن-جاكوبو ستورزي- وأن كان متطرقا جدا ولا يعرف حدا للاعتدال فإنه كان فيلسوفا أصيلا، ولقد كلمني بحكمة الامرات، وادركته فيما كان يضع يده الصغيرة المرتعدة على مقبض باب حانة زجاجي.. فالتفت بوثبة واحدة وأخذني من ذراعي وانحنى بي ناحية معتمة وقال:

-رحماك يا لويجي.. لا تقل انني حي..

وتقتمت: ولكن.. كيف. فأردف قائلا:- أجل.. أنا ميت.. يا لويجي.. ولكن الرذيلة أقوى.. اتفهم ما أقول؟ سأشرح لك كل شيء حالا: هناك أشخاص يموتون وقد بعثوا ليستقبلوا حياة أخرى.. وهناك غيرهم لم يبعثوا بعد.. أولئك يموتون ولا يرجعون لأنهم عرفوا كيف يجدون طريقهم، وهؤلاء على النقيض، لم يرجعوا لأنهم لم يجدوا تلك الطريق.. وبالطبع فهم يبحثون عنها حيث فقدوها.. أنا مثلا.. هنا.. في هذه الحالة.. ولكن ماذا عماك تظن.. انه الهلاك الابدني والتجديف.. انني أعاقِر الحمر وكأني لا أحسبها.. وكلما شربت ازداد اشتعال الظمأ في صدري.. ثم، كما لا بد انك تفهم، لا يسعني أن أكون مسرفا في السخاء على نفسي.. ثم فرك ابهامه بسبابته واعوجت صفحة وجهه بحركة غريبة كأنه يريد أن يفهمني انه لا يملك شيئا من مال..

وجعلت أحدث فيه النظر مذهولا.. أكان هذا حلما؟ وصعد الى شفتي الاثني هذا السؤال الغبي:

-آه.. تماما.. ولكن كيف تراك تجرد المال؟ فابتسم وأجاب وهو يضع يده على كتفي:

-آه لو علمت ا بدأت ذلك غداة اليوم الذي دفنت فيه، فبعت الاكليل الخزفي الذي وضعته زوجتي على قبري مع هذه العبارة المحفورة- الى زوجي المعبود-.. ان ثمة اكاذيب لا نستطيع نحن الموتى، تحملها.. بعت اذن ذلك الاكليل لقاء بضع ليرات.. فكفاني هذا المبلغ اسبوعا.. وما ثمة من خوف ان تذهب زوجتي لزيارة قبري فتفتقد الاكليل.. أما الان فاني امارس لعب القمار مع الزبائن..

فأربع وأشرب الخمر على حساب الخاسرين.. وانه والله للمهنة.. وانت ما تراك تفعل؟

لم أجد ما أقوله له، وتطلعت اليه هنيهة، ثم انتابني ما يشبه نوبة جنون فأسكت به من ذراعه وقلت:

-قل الحقيقة.. من انت ؟ وكيف وجدت هنا ؟ ولكنه لم يضطرب، بل ابتسم وقال:

-ولكن.. ما دمت انت نفسك قد عرفتنني! سأقول لك كيف وجدت هنا. ولكن فلندخل أولا، الا ترى ان المطر يهطل؟..

وجذني الى الحانة.. وارغمني على احتساء الخمر.. فشربتها.. وشربتها.. بقصد ان اسكر ولا ريب.. ولقد بلغت من الذهول والاضطراب حدا لم استطع معه ان اقرر واتأهبى.. انني لا أشرب الخمر ومع ذلك فقد شربت ما لا اعلم مقداره.. ولست اذكر الا سحابة من دخان خانقة ومنعقدة في جو الحانة، والا رائحة الخمر القوية، واصداء ارتطام اواني الطهي، والقشار الدافئ، الثقيل المتصاعد من المطبخ.. وهدير الاصوات المكثمة المنبعثة من حلق مبحوحة.. وكان ثمة عجوزان

قد انحنى احدهما نحو الآخر، كأنما يريد أن يستل أنفاسه، وهما يلعبان الورق وسط صباح الاخرين وهرجهم ومرجهم.. وكان يتدلى من السقف الواطىء مصباح معلق يرسل ضوءه الشاحب خلال سحابة كثيفة من الدخان.. ولكن الذي أثار عجبى ودهشتى أكثر من هذا كله هو انه ما من احد من اولئك الاشخاص جميعا ساوره الاشتباه بأن هنا شخصا من غير الاحياء.. وحدثتني نفسى، وأنا أنقل نظري فيهم، ان اصيح بهم قائلا وأنا أشير الى رفيقى: هذا الرجل الذي ترونه ميت من الاموات ولكن جاكروبوستورزي، وكأنما قد قرأ على شفتى في هذه اللحظة تلك الكلمات التي هممت ان اصيح بها، راح يبتسم وقد استند ذقنه الى صدره.. يبتسم دون أن تفارقني نظرتة المنبعشة من عينيه الملتهبتين المليشتين بالدموع وحتى وهو يشرب كان يعدق في النظر.. وعلى حين غرة انتفض وراح يتحدث الى بصوت خفيض.. وكان خمار النبيذ قد أخذ يدير لي رأسي.. غير ان عباراته الغريبة حول امور الحياة والموت كانت اشد ادارة لرأسي، فلمح هو ذلك فراح يضحك وقال:

-هذه أشياء ليست لك.. فلتكلم في موضوع آخر.. تودا مثلا..

وقلت:

-تودا؟ الا تعلم ان كل شيء قد انتهى بيننا؟

فأشار برأسه عدة مرات اشارة من يعلم ثم قال نقيض هذا:

-لم اكن لاعلم. غير انك خيرا فعلت أن فصمت خطبتك.. الا قل الم يكن ذلك بسبب أمها؟ أمها اميليا، زوجتي، تلك المخلوقة البغيضة.. كسائر أفراد أسرتها، أما أنا... فانتظر:

وخلع قبعته، ووضعها على المنضدة وضرب جبهته الصلعاء بيده وهو يغمز

بعينه وأردف يقول:

- انها فعلتها مرتين... المرة الأولى في سنة ١٨٦٠ ثم في سنة ١٨٧٥ ..
ولاحظ أنها لم تكن غضة نضرة وان ظلت رائحة الحسن.. غير انني لا أستطيع أن
أرثي لحالي.. فقد صفحت عنها.. وحسب هذا.. فيا ولدي - واسمع لي أن
أناديك بهذا الاسم - صدقني.. انني لم أبداً أتنفس الصعداء إلا بعد أن قضيت
نحبي.. والواقع أنني ما عدت أهتم بهما.. هي وابنتها.. وإذا كنت لا أهتم
بالبنت فبسبب أمها.. وأريد أن أقول كل شيء.. فأنا أعلم كيف تعيشان: انني
أستطيع أن أذهب عندهما دون أن يراني أحد، كما يفعل الكثيرون غيري في مثل
حالي.. وأستطيع من حين إلى آخر أن أتزود، خلسة ببعض المال.. ولكن لا انني
لا أمد يدي إلى هذا المال.. وانك لتعلم بل تعلم جيداً كيف تعيشان.. وأجبت،

- كيف تراهما تعيشان، فما عدت ألتقى شيئاً من أخبارهما.

- بل انك لتعلم.. ولقد قيل لك هذا مساء أمس..

وسألته - متردداً - بنظرة من عيني.. فقال:

- أجل. حيث كنت تريد الذهاب الليلة قبل أن تراني..

فوثبت واقفاً، غير اني عدت فتهاوت، ومرفقاي على المائدة وصرخت:

- هما.. تودا.. تودا وأمها؟ فتناول ذراعي ووضع اصبعه على شفتيه وقال:

- اسكت.. اسكت.. ادفع، وتعال معي. ادفع.. ادفع..

وخرجنا من الحانة.. وقد اشدت هطول المطر، وازداد عصف الريح، فكانت
تقذف وجهينا بالماء وتعرق سيرنا.. غير أنه كان يجرنني من ذراعي بسرعة في

وجه الريح.. وفي المطر.. وكنت أنن وأنتحب وأنا أتعثر مخموراً، مشتعل الرأس
ثقيل الهامة كأنها من الرصاص.

- تودا؟ تودا وأمها؟

كان يغذ السير ملتفاً بمعطفه متقبعاً بقطاء رأسه، ذائباً في كتلة الظلام
الحالكة، ويده محطرتة يتقي بها المطر.. وخيل إلي أنه كبر وتضخم حتى غدا
وكأنه شبح يجرنني في أهوال كابوس رهيب ويدفع بي نحو الهاوية.. وهناك -
بدفعة واحدة - أدخلني من الباب الصغير المعتم المريب، وهو يصرخ في اذني:

- اذهب.. اذهب.. عند ابنتي..

والآن.. أيها السادة.. ما في رأسي هنا.. غير صرخات تودا وهي متشبثة
بعنقي.. صرخات كانت محطمة دماغية.. أودا انه هو.. وأقسم مرة أخرى أنه هو..
جاكوبو ستورزي.. هو.. هو.. الذي خنق بقبضتيه ذلك الشيطان الذي كان يزعم
أنه عمه تودا.. ولو لم يخنقها هو ويكنم أنفاسها، لتوليت أنا خنقها.. ولكنه هو
الذي فعل ذلك.. لأنه أحق به مني..

البيرتو مورافيا (ايطاليا)

القصاص

كنا، بيا وأنا، خطيبين طيلة عامين كاملين. انها خطبة طويلة سببها اني لم أكن لأملك فلساً واحداً، وإن كنت أعمل مع أبي في محله الذي يبيع فيه الألبان ومشتقاتها. أما هي فما كانت تملك أكثر من قميص نومها وتدرس - مع ذلك - لتصبح ممرضة كامها. أقول أنها خطبة امتدت سنتين؟ إن الأصح أن أقول أنهما سنتان من الخصام والنكد والجدل والأخذ والرد.. ولقد كان همتا الأكبر أن نجد منزلاً نقيم فيه. وصحيح أنه كان في وسعنا أن نقيم مع أمي وأبي اللذين كان يطيب لهما ذلك، غير أن - بيا - رفضت بشدة، فقد كرهت أمي حتى قبل أن تعرفها. ومن ناحية أخرى كان لأم بيا منزل واسع يمكن أن نقيم فيه معها، إلا أن الأم هذه المرة، هي التي تأبت.. كانت قد ترملت، وهي ما تزال بعد صغيرة السن، وكانت تؤثر أن تعيش على النحو الذي يشاء لها، وأن لا تتركها وتضايقها أسرة زوج ابنتها.. وذات يوم في - فيلا بودغيز - قلت لبيا وقد خيل إلي انني أقدم لها عرضاً معقولاً:

- اسمعي.. انني أعرف انك لا تطيقين والدتي.. ولكنني لست أسألك أن تقيمي معها العمر كله.. وإن هي إلا بضعة أشهر.. ريثما نجد منزلاً آخر.. فلنتزوج إذن.. ولنقم مع أمي في بيتها.. ونرى بعد ذلك ما يكون.. فالأمور يتولد بعضها من بعض..

وعلى الفور اشتعلت بيا غضباً، وراحت تقول:

- صحيح.. إن الأمور يتولد بعضها من بعض.. فعرضك هذا، مثلاً، يتولد منه أن أدعك..

وخلصت ذراعها من ذراعي وراحت تركض نحو ساحة - ينشيد - وعدوت وراعا وأنا أصبح أن انتظري.. يا بيا ماذا تراك تفعلين؟ وأوشكت أن أصل إليها عندما توقفت أمام أحد رجال الشرطة وكأنها حية رقطاء.. وأخذت تهيب به: «هلا قلت لهذا الانسان أن يتركني وشأني.. انه منذ الصباح لا ينفك يلاحقني.. ويضطهني..» وانبهرت أنفاسي، واقترب الشرطي مني، وطلب أن أريه بطاقة هويتي، ومددت يدي إلى جيبتي لأخرج البطاقة، وأنا لا أزال أتبع - بيا - بعيني، وأراها تبتعد بسرعة.. في حين بقيت أنا أمام الشرطي يائساً، ولا حراك بي.

وفي اليوم نفسه ذهبت إلى بيتها وأنا أرجو أن أجدها.. ولكنها لم تكن هناك.. وحاولت عبثاً أن أتصل بها هاتفياً.. وأخيراً كتبت لها رسالة عاجلة.. ومرت أيام ثلاثة دون أن أتسلم جواباً ما.

وهكذا بقيت بدون - بيا - وعلى حين غرة، أحسست أنني فقدت بعضاً من نفسي.. هو هذا البعض الذي يتيح لي أن أتنفس، وأتناول طعامي، وأنام، وأعمل، وأحيا.. كنت أتألم ألماً لا سبيل إلى وصفه.. ولم يكن الألم في نفسي وحسب بما يصاحبه من شجن يمزج لا يزول بصورة من الصور، وإنما كان ألماً شمل جسمي كله، رتناول بالأوجاع كل عضل وكل عصب.. وكنت - عندما أخلو إلى نفسي في غرفتي من حين إلى آخر - أبكي وأنشعب دون ما سبب.. وقد جلست إلى منضدتي ووضعت رأسي فوق مرفقي الاثنين.. أو كنت أغادر غرفتي فأرى السماء، بتأثير حزني وأسى روحي، سوداء الصفحة، والشمس المشرقة داجية

مظلمة.. والدور والمنازل الناصعة مرهقة دكناء، والشجر الريمي الفينان والأغصان الوريقة جرداء، حالكة السواد.. وصدت نفسي عن الطعام وكنت إذا تناولت لقمة وقفت في حلقي لا تهبط منه.. وغدوت لا أنام أبداً، ولا أكاد أغمض عيني حتى تعتريني ارتعاشة هائلة فأصحو، وأظل مستيقظاً، مفتوح العينين، مفكراً بـ - بيا - واشتد بي، ذات يوم، هذا العذاب المبرح، وتوترت عضلات جسمي توتراً عظيماً، حتى غدت كأوتار الكمان المشدود.. فدخلت حانة تقع تحت مسكن - بيا - في شارع - اوستيانس - كان ذلك في ساعة ميكرة من الصباح، ولم يكن في الحانة غير امرأة تحتمي القهوة، وقد أدارت ظهرها للباب.. واعتمدت بمرفقيها على المشرب.. وللوهلة الأولى حسبتها - بيا - نفسها بسبب شعرها الأسود اللامع القصير المقصوص المرسل منه خصلات متفرقة حول رقبتها.. فقد كانت تصفف شعرها على هذا النحو.. وأقسم لك أنني ما أن خيل إلي أنها هي حتى أحسست أن جسمي قد تراخى وزال توتره، وأن أنفاسي المحبوسة في صدري، كأنني بهيمة أصابها الذعر، عادت قلاً رثي الاثنين هادئة، مطمئنة، رخية.. وهتفت: - بيا - فاستدارت المرأة، وأدركت عندئذ خطئي.. انها لم تكن بيا وإنما هي أمها التي تصفف شعرها كما تصفها ابنتها.. والأمر الغريب أن الراحة التي شعرت بها عندما خيل إلي أنها - بيا - دامت لا تفارقني.. فلم تعد عضلات جسمي تؤلني كالمساق، واحتفظت أنفاسي بخفقاتها، وسهرلتها، وانتظامها.. وقالت بعد أن عرفتي «هذا أنت يا جيوستينو المسكين! انني لست بيا.. ولكن أمها..» وحييتها، ورحت - فيما كنا نتحدث في أشياء لا أهمية لها - أتفحصها بانتباه.. فأتضح لي أمر لم أكن قد التفت إليه حتى تلك الساعة، وهو انها كانت صورة تامة لابنتها: الشعر الأسود القصير المقصوص نفسه، العينان المستديرتان البراقتان نفسيهما، الحاجبان الرقيقان العاليان ذاتهما، الأنف الصغير الأقرنى عينه، الفم على شكل منجل وقد تراخت زاويته قليلاً هو نفسه.. وما كان من فارق بينهما إلا أن بيا كانت

في العشرين من عمرها وأن لأمها ضعف هذا العدد من السنين على الأقل..
وبصورة اجمالية كنت أشاهد وجه بيا وقد غرق في وجه أمها الذي انبسط قليلاً
يفعل السن، وتراخي شيئاً ما وأصابه بعض انتفاخ وذبول.. ومع ذلك كان يلوح
لي، وأنا أشاهدها، أنني أرى بيا كما اشتييت دائماً أن أراها بعد أن تركتني..
وكنت أحس أنني أحسن حالاً، كأنا كانت بيا أمام عيني الاثنين وكأنا قد
أشبع رغبتني بوجودها..

ومثل تلك الحساسية التي تملكها النساء حيال هذا النوع من الأمور.. وجدت
الأم أنني أهدق فيها النظر.. فابتسمت لي.. وكانت هي نفسها ابتسامة بيا..
وابتسمت أنا بدوري.. وسألتني:

- وماذا حل بك يا جيو ستينو؟

وعندئذ لاحظت شيئاً آخر كان قد فاتني، وهو أن لها صوت بيا نفسه، ولكنه
إلى حد ما أكثر خفوتاً.. وأجبتها:

- لا شيء... لست أعمل شيئاً..

وعادت تقول مشفقة:

- أتدري أنك تغيرت كثيراً؟ وانتهت من شرب قهوتها وأردفت تقول وهي
تخرج معي من الحانة:

- انني أحدثك جادة، يا جيو ستينو، الأفضل أن تتخلى عن بيا.. انها تريد
منزلاً خاصاً بها، وأنت لا تستطيع أن تقدمه لها.. ثم هي لا تريد أن تقيم عند
والديك، وأنا نفسي لم أستطع أن أقرر ايواء كما عندي.. وليس هذا إلا سبباً من
أسباب أخرى كثيرة تدعوني إلى أن أنصح لك بفك خطبتكما..

وقلت: لقد انتهى الأمر.. وتخلّيت عنها.. ثم أضفت وأنا أنلثم قليلاً
لعلمي أن طلبي ربما بدا لها غريباً أو مستهجنًا: ماذا ترين في أن.. نتناول
عشاءنا معاً.. الليلة؟ ونظرت إليّ مبهوتة ثم قالت: حباً وكرامة.. ولكن إذا كنت
ستتحدث إليّ عن بيا فلا.. ثم ما جدوى هذا.. فأنا شخص.. وهي شخص آخر..
وإن لكل منا حياتها الخاصة..

وقلت لها صادقاً كل الصدق:

- لن يكون اجتماعنا للحديث عن بيا.. وإنما لكي أنفق معك أنت بعض
الوقت..

ومرة أخرى رشقتني بنظرة مدهوشة، ثم واعدتني في الساعة التاسعة من
الليلة نفسها في مطعم يقابل بيتها تماماً.. بشارع — أوستيانس - وافترقنا..

وأقبلت في تمام الساعة التاسعة من تلك الليلة.. ولاحظت أنها كانت أكثر
نضارة وتبرجاً، فقد كانت، كما سبق وقلت، لا تزال في حدود الشباب، وكانت
غندورة يعجبها الرجال. ولحب أن تكون موضع إعجابهم. كانت - جرستها -
الحمراء محبوكة حول صدرها، وقد أحاطت خصرها بنطاق عريض من الجلد الأسود
ازدان بمشبك معدني مفضض، وارتدت تنورة سوداء ضيقة جداً بدت فيها
محشورة حشراً، وبان ردفاها مضغوطتين تحت القماش المشدود.. وذهبنا إلى
المطعم من الناحية الأخرى لشارع - أوستيانس - وقد كان مدخله من الشارع،
ولكن حديثه وأكشاكها تطل على نهر - التيبر - فجلسنا في الخارج أمام
منضدة كبيرة، فقد كنا في شهر ايار، وكان الجو حاراً.. ولم يكن نهر - التيبر -
يبدر للعيان بسبب الظلام، إلا أن مصابيح الضفة الأخرى المصطفة على طول
حواجز الجسر، ومن وراء المصابيح شعلة اللهب الحمراء المنبثقة من فوهة مستودع
الغاز.. كانت كلها تشق ظلام الليل بأضوائها.. وطلبت عشاء لنا دجاجاً

محمراً.. وفي فترة انتظار الدجاج أحضرت نبيلاً وسكبت لها ملء كأس، وكنت أعلم أنها محب الببيل وتشربه طيبة الخاطر، ولقد شربت، في الواقع، كأساً ثم أخرى، ولما رأتني لا أشرب، ولا أقول شيئاً ولا أفعل غير أن أحديق فيها النظر قالت بلهجة نزقة: هل أستطيع أن أعرف لماذا تطيل إلي النظر هكذا؟

وأجبتها: - انني أنظر إليك هكذا.. لأنك تعجبيني، وكانت ترجمة ذلك في خاطري أنني أنظر إليك لأنني أحب ما فيك من ملامح بيا.

وقد سحرها قلبي فقالت منهتكة: «وما الذي يعجبك في بصورة خاصة؟» وعندئذ رحت أعدد لها ما يعجبني فيها.. وهي كلها صفات مشتركة بينها وبين ابنتها.. وكنت وأنا أتكلم أشعر أكثر فأكثر بالراحة، والارتخاء، وسهولة التنفس.. وكانت هي لا يسعها أن تفهم فقالت: «وأنت لو لم تكن خطيب بيا لقلت لك أنك أيضاً تعجبني.. بل قد أعجبني دائماً ولسر، الحظ فإن الأمور هكذا.. تجري بما لا نشتهي.. ولا حيلة لنا معها..» وقد بدا عليها، وهي تقول هذه الكلمات، صورة التعبير نفسها التي تبدو على بيا عندما تتظاهر بالتواضع وتترقع الشاء والاطراء.

وعلى الرغم مني مددت ساعدي فوق الطاولة فأمسكت بيدها وقلت: «وماذا بهم.. إن العمل لا حساب له.. ولا قيمة في الانسان إلا ما يعجبنا فيه.» وكنت قد أخذت يدها في راحة يدي لأنها شبيهة بيد بيا من جميع الوجوه.. يد بيضاء ناصعة قاسية قليلاً، طاغية إلى حد ما.. بأظفارها المخضبة الحمراء.. تركتني أخذ يدها.. وقد اضطريت.. وبدا أنها تتنفس بصعوبة.. ولحسن الحظ جانا، في هذه اللحظة، الدجاج المحمر.. فتركت يدها وشرعنا نتناول طعامنا.

كنت أكل بشهية، وقد تملكطني الدهشة، فقد كانت هذه هي المرة الأولى التي أكل فيها بشهية بعد أن فصمت بيا ما بيني وبينها.. أما هي فما كانت تمس

الطعام.. وإنما كانت تنظر إلي بعينين واهنتين، جعلهما النبيذ براقنتين.. في هذه اللحظة وقع - لا أدري كيف - أمر عجيب قد لا يصدق.. ولكنه حدث فعلاً.. كنت قد قلت لها شيئاً سرها، فابتسمت.. فاستخفني حبي لبيا كما استخفني السرور أن أجد على محيا أمها ملامحها هي فقلت: إن ما أحبه فيك بصورة خاصة هو ابتسامتك.. أنك حين تبتسمين هكذا يبدو لك غماز.. هنا.. إلى اليسار.. فهو ميزة لك دون سواك.. وكنا جالسين تحت غمر من النور الساطع.. وما كان لينهض لي حتى العذر، في خطئي، بسبب من الظلام.. أجل.. ما كدت أتلفظ بتلك الكلمات حتى تبينت أن محيا أم بيا المبتسم ليس فيه أثر لأي غماز.. أما بيا نفسها فقد كان لها ذلك الغماز.. إلا أنني انسياقاً مع ضلال الهوى نسبت الغماز إلى أمها.. بل لقد خيل إلي أنني أراه في وجهها فعلاً بدافع من الوهم والخيال.. ورجوت لحظة أن لا تكون قد تبينت ذلك.. غير أنني كنت واهماً، فإن للنساء ما يكاد يكون حاسة سادسة حيال هذه الأمور.. ثم إن لهجة هواي خائنتني، فرأيت ابتسامتها تمحي.. ويلاً وجهها تعبير متزايد من الحيرة والارتباك..

وقالت أخيراً: «ولكن.. ماذا تقول؟.. أنني حين أبتسم لا يبدو لي غماز.. أو على الأقل لم ألحظ شيئاً من هذا حتى اليوم» وأحسست بهجرة الخجل تعلوني.. واشتد ارتباكِي.. ولاحظت هي اضطرابِي.. وبانت القسوة في ملامحها.. ثم تناولت حقيبة يدها وأخرجت منها امرأة صغيرة وراحت تنظر فيها وقد ارتسمت على شفتيها ابتسامة مفتضبة.. بدت لي في تلك اللحظة مروعة، مزرقة.. وبقيت هكذا بعض الوقت.. ثم عبست جادة وأعادت المرأة إلى الحقيبة وقالت بصوت منطقي: «إن لبيا غمازاً أليس كذلك؟» وأومات بالايجاب خجلاً، مضطرباً.. وعادت تقول وهي تحدق بي: «وإذاً فقد كنت أنت.. تكاد تلتهمني بنظراتك.. لأنني أشبه بيا.. إن إحدانا في الواقع تشبه الأخرى شبهاً كبيراً حتى ليتلبس الأمر على الكثيرين فيحسبونا اختين.. قل الحقيقة.. أنك إذا كنت قد

دعوتني الليلة فما ذلك إلا لأتلك كنت تريد أن ترى في وجهي ما يجده في وجه بيا.. أليس هذا هو الصحيح؟ وأومات مرة ثانية بالايجاب.. فقد أدركت أن من العيث منذ الآن أن أخفي الحقيقة..

وساد بعد ذلك صمت طويل.. وبدا عليها انها وهانة، منحطة القوى وأقامت مرفقيها فوق المائدة، واعتمدت وجهها بين راحتيها، وأسبلت أجبانها.. ثم رفعت عينيها إلي فرأيت الدموع تلتصع فيها، ولم أستطع أن أدرك أن ذلك بسبب من الشعور بالذل والهوان أو لأى شيء آخر.. وتنهدت ثم سألتني: هل أنت تحب بيا كثيراً؟ وأجبته بقوة، بل بما يشبه العنف: «أحبها أكثر من حياتي» وقالت: «ولا تستطيع أن تعيش بدونها» فقلت: «لا.. لا أستطيع..» ومرت بيديها على شعرها، وبدا عليها أنها مترددة، معذبة، وتنهدت من جديد، ونهضت فجأة وقالت لي: انتظرني هنا.. سأعود حالاً وخرجت وهي تعدو، وتركتني وحدي ذاهلاً، مبهوئاً.

انتظرت طويلاً أمام المائدة غير المرتبة، وطبقي مليء بالعظام الصغيرة، وطبقها هي لا تزال الدجاجة فيه كما هي لم تمس.. ولعل نصف ساعة كان قد انقضى عندما شاهدت أم بيا تظهر في نهاية كشك الحديقة ووراها ابنتها وقد أخذت تحبها بيدها. وعندما أصبحت الأم أمام الطاولة راحت تنظر إلي مواجهه في حين كانت بيا مرودة المحيا، ساكنة الحركة، مسبله العينين.. وقالت الأم:

- هيا.. إن كل شيء على ما يرام.. قلت لبيا انك ما دمت لا تكسب ما يكفي لتدبير حياتكما الزوجية فقد قررت أن تقيما عندي.. انني منذ اليوم امرأة عجوز.. ومن العدل، وأنتما شاهان، أن تنعما بحياتكما كما نعت أنا بحياتي.. ونمت بيا غير انني أقتعتها وأتيت بها إليك، وفي وسعك منذ الآن أن تتملها بنظرك مباشرة دون أن تحتاج إلى النظر إلي أنا.. وإلى اللقاء.. ومضت على غير عجل.. مارة من الكشك إلى الشارع..

وجلست بيا أمامي، في مكان أمها.. ورحت أتأملها وقد استوت مجاهي
بلحمها وعظمها.. وأحسست احساس الرجل السعيد الذي يكون قد أمضى شهراً
في ضوء الشمس على شاطئ البحر، أو ملأ رثتيه بهواء الجبال.. لقد كانت بيا
- لي أنا - هي الشمس والبحر والهواء والجبل وأنها الآن أمامي وما بي من
حاجة على الاطلاق للبحث عن معارفها وملاحها في وجه أمها.. وأخذت يدها
فوق المائدة وقلت لها: «انتي لسعيد أن أراك كما تعلمينا» وأجابت مغفمة.
وأنا أيضاً.. وكانت قارورة النبيذ فارغة.. فاستدرت نحو كشك الحديقة وطلبت
قارورة غيرها.

البيرتو مورافيا (إيطاليا)

التفليس من ماتليد

كتب صديق لي، وهو سائق سيارة نقل، على الزواج الامامي لسيارته هذه العبارة:- المرأة والسيارة بهجة وخسارة.. ولا تكران في أن له أسبابه الرجعية التي دعتة الى المقارنة بين المباهج والآلام التي ملأت بها المرأة حياته فاعتدلت كفتا الميزان نشوة وعذابا، فلا زيادة في هذه ولا نقصان في تلك.. فهما متساويتان متوازيتان، لا ترجح احدهما ولا تميل قيد شعرة عن أختها..

أما أنا- ماتليد- فقد كان الامر بيننا مختلفا جدا، ثقلت كفة العذاب ورجحت رجحانا تاما، وخفت وشالت كفة البهجة والسرور الى نهاية ذروتها المقدورة لها.. ولقد مرت سنة كاملة على خطبتنا فما كانت هذه السنة الا شجارا لا ينقطع، ونكدا لا يزول، وما كانت الا غدرا موصل الاسباب، وخلفا لكل وعد وعهد.. فقررت أن أقطع صلتي بها في أقرب مناسبة تكون.

وسرعان ما أتت هذه المناسبة، وكان هذا ذات مساء تواعدنا فيه على اللقاء في ميدان- كامبينيلى- القريب من مسكنها. وبكل بساطة أخلفت ماتليد وعدها ولم تأت. وانتظرت ساعة اخرى، ثم تبينت أن ما أحس به هو راحة وتخفف أكثر منه ألما وعذابا. وأيقنت أن ساعة الفراق قد حانت. وعدت الى بيتي واويت الى فراشي وأنا في حال من الالم واخرى من الرضا والطأنينة.. الا انني قبل ان أطفىء النور رسمت على صدري علامة الصليب بكل وقار وقلت بصوت جهير:

« لقد انتهى الامر هذه المرة، انتهى تماما.. » ولا بد أن هذا القسم قد هدأ من روحي فاستغرقت في نوم عميق متصل دام تسع ساعات كاملة، ولم أصح الا صباحا على صوت أمي تنبثني بأن هناك من يريد أن يعدثني هاتفيا.

وذهبت الى هذه المعادنة الهاتفية لي الشقة المقابلة لشقتنا حيث تقيم خائطة تربطنا بها علاقة صداقة. وعلى الفور سمعت صوت ماتيلد في الهاتف.

وسألتنى:

-كيف حالك اليوم؟

وأجبت بنبرة قاسية:

-على أحسن ما اروم

-أعذرني اذا لم استطع ان اوافيك في الليلة الماضية، فقد حال دون ذلك حائل..

فقلت:

-لا أهمية لهذا. سنلتقي غدا فاني اريد ان احدثك في أمر من الامور

-وما هو؟

-أمر ذو أهمية

-أهو أمر حسن؟

-حسن بالنسبة لي أنا..

-وأنا؟

وفكرت لحظة ثم قلت:

-اجل.. ولك أيضا..

-فما هو إذن؟

-سأقوله لك غدا

-كلا. قله الان

-لن أقول.. ولو مت..

-طيب. ولكن اتدري لماذا طلبت معادنتك؟ لان هذا اليوم بديع جدا، ولانه يوم عيد، ولاتنا نستطيع ان نذهب على دراجتك النارية الى شاطئ البحر..

فما رأيك؟

وأسقط في يدي، فما كنت أتوقع مثل هذا العرض اللطيف المغربي، ومثل هذه اللهجة الحلوة. وفكرت في هذا الذي اعترزمت أن أقوله لها، ورأيت أن الانقضاء به اليوم أفضل من تأجيله الى الغد. وسنذهب معا الى شاطئ البحر، وفي اللحظة الملائمة سأقول لها انني قررت تركها وقطع صلتي بها. وبهذا سأنأر لنفسي قليلا، وأجبتها:

-سامر بك بعد ساعة فنذهب معا.

وأتييت بدراجتي النارية، وفي الوقت المحدد كنت أصفر لها لتأتي عند أسفل بيتها.. فاندفعت قورا مستجيبة للنداء، وكانت في العادة تتأخر وتبتاطأ

وتجعلني انتظرها مدة طويلة.. وجعلت أنظر إليها وهي تتراثب مقبلة نحوي فأحسست مرة أخرى انها تحبني حقا. وهذه هي: صغيرة القد، متوقرة، سمراء، عريضة الوجه من أسفل كأنها هرة، وحول شفتيها زغب جميل خفيف، سوداء العينين، مأكرة اللحظ، براقة الحدقتين، مقصوصة الشعر، تتهدل منه خصل على جبينها كأنها حيوان صغير شرس.. ومع ذلك قلت في نفسي: « انها تعجبني ولا ريب، تعجبني كل الاعجاب. ولكنني رغم هذا سأتركها.. » وتبينت انني لم أضطرب لهذه الفكرة اطلاقا. ولما أصبحت أمامي وهي لا تزال تلهث من شدة الركض سألتني على الفور، وبصوت عذب:

-ماذا؟ الا تزال غاضبا من الليلة الماضية؟

فغممتم:

- هيا اركبي...

وامتطت الدراجة النارية خلفي، وتشبث بي بيديها الاثنتين، وانطلقنا..

لما أصبحنا في ميدان- كريستوفر كولومبوس- بين حشود السيارات والدراجات النارية المنطلقة في يوم العيد، وقد أرسلت الشمس أشعتها المحرقة، جعلت أفكر بشدة فيما يجب ان افعل.. ومتى يجب ان اقول لها انني قد قطعت علاقتي بها؟ خطر لي، أولا، انني سأقول لها هنا عندما نصل الى شاطئ البحر لكي أقسد عليها نزهتها، ولأعود بها من ثم الى روما فورا.

انها فكرة انتقام رائعة كما ترى.. ولكنني قلت في نفسي بعد التفكير انني اذا ما أفسدت عليها نزهتها فاني في الوقت نفسه أفسد نزهتي أنا.. فالأفضل اذن أن اغتتم فرصة وجودها والمتاع بقريها مدة ما.. حتى الساعة الثانية بعد الظهر مثلا.. بعد الفراغ من تناول طعام الغداء.. أو الانتظار حتى نهاية النزهة

فأنفضي لها بما في صدري في طريق العودة، في ميدان-كريستوفر كولومبس-..
هكذا في سياق الحديث، دون ان التفت اليها، وكأن الامر جاء عفواً الخاطر وبلا
تدبير سابق .. وقد يحسن ايضا ان اترث حتى نكون في روما نفسها، فألقي
اليها بكلماتي على باب بيتها نفسه: وداعا يا ماتيلدا.. وأقول وداعا لان هذه
هي آخر مرة نفضي فيها يومنا معا..

ومن بين كل هذه الافكار لم أدر أيها أختار. وقلت في نفسي، اخيرا، سيتاح
لي ما اريد في لحظة مناسبة، لا اذري متى تكون.. وفي أثناء هذا كله كانت
ماتيلدا تزداد التصاقا بي وكأنها ادركت ما يدور في خاطري، ثم اشتد ضغطها
على ذراعي كأنها هي تقرصني قرصا.. وكان هذا، في طبعها، من دلائل الحب
والحنان.. وسمعتها تقبل على اذني وتقول بمرح:

-تدري انه يجب ان تذهب الى الحلاق فتقص شعرك الطويل هذا.. انني لا
أجد بيته مكانا أضع فيه قبلة على رقبتك..

والواقع أن هذه القرصات، وهذه الكلمات، أحدثت في نفسي تأثيرا ما..
ولكنها لم تشنني عن عزمي، وقلت في نفسي:- هيا.. هيا.. لقد فات الاوان ..
واخترت ناحية منعزلة موحشة من الشاطئ، فركنت دراجتي، وانطلقنا راكضين
معا حتى بلغنا سيف البحر، ومصطخب الموج، ولقد أمسكت بيدها غير أنها
كانت هي التي أملت علي هذه الحركة من المودة والحنان، فتركبتها تفعل.. ولقد
أحسست عندئذ بهذه العاطفة الحلوة التي كنت أحس مثلها في أيام جننا الغائبة..
ولكنني ما برحت، مع ذلك، أشعر بأنه يجب ان أقطع ما بيني وبينها.. فاطمان
قلبي، وقالت:

-سأنزع ثيابي وأتعري وراء ذلك الدغل الصغير من الشجيرات البرية.. فلا
محاول ان تنتظر..

وسألت نفسي عما إذا كانت هذه هي اللحظة المناسبة لأقول لها ما أريد..
وستلتقاه كدفقة الماء البارد، إذ تكون قد تجردت وتعترت وامتلاأت بهجة ومسرة بما
ترى حولها من جمال المكان، وبما تحس من غبطة النزعة على الشاطئ.. إلا أنني
ما كدت استدير نحوها، وأراها خارجة من وراء الشجيرات البرية بكتفيها
الناحلتين، وذراعيها المرفوعتين لكي تنضو فستانها من فتحة الرأس حتى تبخر
ما في نفسي.. وزاد الطين بلة أنني سمعتها تقول بصوت عذب:

-أعتقد أنني لا أراك يا جوليو؟.. أنك ترقبني فيما يلوح لي..

واستلقينا على الرمال: أنا على بطني، وهي على ظهرها، وقد وضعت
رأسها فوق ظهري فكأنه وسادة لها.. والهيئة الشمس كتفي كما الهيئة الرمل
تحت صدري، وكنت لا أحس بثقل رأسها على ظهري لحفته المحببة.. وسألتني
بعد فترة طويلة من الصمت:

-لماذا تراك سكت هكذا.. وماذا تفكر؟

واجبت على الفور:

-أفكر فيما يجب أن أقوله لك

-أذن هيا قل..

وتهيأت للقول إلا أنها سرعان ما تكلمت هي، وكأنها، بهركتها وخفتها،
أحدى هاتيك الفراشات التي تتطاير من زهرة إلى زهرة، ولا تترك ليد مجالا أن
تقبض عليها:

-أدهن لي كتي بيعض هذا الزيت، فما أريد أن أصاب بضربة شمس..

وافلتت الفرصة من يدي مرة أخرى، وتناولت زجاجة الزيت ودهنت به ظهرها،
من عنقها حتى خصرها، ثم قالت:

-دعني أتم الان، ولا تزعجني..

وبقيت أنا واجما أفكر بأنه في الواقع، لا يهمها كثيرا ما اريد ان اقلعه.
وأغفت ماتيلد نحو ساعة، ثم استفاقت وقالت:

-فلنسر قليلا على الشاطئ، فلا يزال الوقت مبكرا للسباحة.. الا انني أود،
على الأقل، ان تبتل قدماي.

وأخذت بيدي، ورحنا نركض معا نحو البحر. وكان الموج عاليا مصطخبا،
ودخلت البحر دون ان تتحرك يدي، وكانت تتقدم مرة وتراجع مرة وفقا لمد الموج
وجزءه بفعل هبوب الريح، وشدة عصفها. وكان الموج اسرع من ماتيلد دائما،
وكلما هاجمها وأحرق بها صاحت ولولت.. ولما شاهدت مرحها العظيم هذا
قلقتني الرغبة الملحة أن أفسد عليها سرورها، ورحت اصرخ بملء أشداقي لكي
أسمعها صوتي رغم احتدام الموج: « الآن اريد ان احديثك فأصغي.. » الا انها
اجتذبتني فجأة وبشدة وهي تقول: خذني بين ساعديك الاثنين، وكانت ثقيلة
الوزن، وان تكن صغيرة القد، وخضت الماء بعيدا بها وانا اتحدى الموج الصاحب
الذي يرغبي ويزيد ويتراكم ويتلاقى ويتكسر بعضه فوق بعض.. وتسلمت: لماذا
تراها ارادت هذا؟ واستنتجت أنها ادركت بغيريزتها النسوية أن ما كنت سأقلعه
لها لن يسرها.. وهكذا، بعد ان أحسّت خطر افضائي بما في صدري، دعنتني الى
الخروج من الماء الى الشاطئ، وعدت بها، وأنزلتها برفق، فشكرتني بقبلة على
خدي، وقالت:

-فلتناول طعامنا الان

وجلسنا، ثم فتحنا الورق الملفوف على الطعام، وجعلنا نتناول شطائر لحم العجل التي أعدها أمي لنا. ودام الامر على هذه الحال ساعتين كاملتين: الكلمات تتراقص على طرف لساني فأهم ان انطق بها في لحظة ملائمة، وعلى حين غرة تروح تتحدث الي بحنان ودلال، او هي تأتي بحركة غير منتظرة، أو تقطع علي كلامي.. وخطر لي أكثر من مرة ان اقارن بينها، وبين الفراشات البيض الناصعة التي تكون اول ما يظهر من فراشات الربيع، وفي الوقت نفسه أكثرهن خفة وافلاتا وذهاها مع الريح حتى لا يتأتى لأحذق الحاذقين ان يمك بها.. وكنت قد يشمت من ان استطيع الاقضاء بما اريد، ولكنها، وعلى حين غرة مني أتاحت هي لي فرصة الكلام، فقد قالت من تلقاء نفسها:

-والآن.. قل ما تريد ان تقوله..

وفتحت فمي لكي أتكلم غير أنها هفت قائلة:

-لا.. لا تقل شيئا.. دعني أحزر: اراك تريد ان تقول انك تحبني؟

-كلا

-واذن فأنت تريد ان تقول انني جميلة.. وانني أعجيبك..

-لا

-سأقول اننا سنتزوج قريباً

-ولا هذا

فقالت وهي تحرك رأسها:

-وما ان هذه الامور الثلاثة هي التي تهمني فاني لا اريد ان اعرف غيرها..

- ولكن يجب يجب ان أقول آ... آ...

وقالت:

- هـش.. اتريد أن أعطيك قبلة؟

وماذا كان يسعني ان افعل؟ فسكت. وانزلت هي راحة يدها عن فمي وأطبقت بشفتيها على شفتي في قبلة مستغرقة بدت لي حارة وصادقة.

وما أكثر الاشياء التي قمنا بها: فقد شوينا جسدنا في الشمس، ونمنا، وسبحنا، وأكلنا، ومحدثنا، الا انني لم أقل ما كنت اريد ان اقله، ولم يبق أمامنا الا ان نعودا ورجعنا فارتدينا ملابسنا كل وراء الشجيرات البرية البعيدة، وخيل الي، مرة أخرى، أن اللحظة الملائمة قد حانت، فقلت بصوت طبيعي هادى..:

-هذا ما كنت اريد ان انبئك به يا ماتيلد: لقد قررت قطع ما بيني وبينك..

وبعد ان نطقت بهذه الكلمات تطلعت الى الشجيرات البرية التي اختفت وراءها لترتدي ملابسها، ولكنني لم أرها، وكانت الريح تهب وتصفر أكثر من أي وقت مضى، ولا يتأذى الى السمع غير صخب البحر واصطفاف الموج.. ولاح كأنفا قد اختفت ماتيلد وكأن كلماتي قد أحالتها بخارا طار به الهواء كما تطير هاتيك الدوامات من الرمل ترتفع به الريح دون انقطاع فرق تلال الصحراء، لكي تذهب به نحر الادغال الموحشة. وجعلت أصيح: ماتيلد... ماتيلد... ولكن ما من جواب.. واضطربت وقزعت اذ فكرت أنها ربما كانت تبكي من الحزن والاسف، بل ربما كانت قد أغمي عليها.. وأكملت ارتداء ملابسي على عجل، ورحت أركض نحو الشجيرات التي لا بد ان تكون مختفية وراءها.. ولكنها لم تكن هناك، ولم أرفق الرمال غير حقيبة يدها ونعليها الصغيرتين الحمراوين، الا انني في اللحظة التي استدرت فيها وانا اناذيها من جديد أحسست بها وهي تسقط فوقني

كانها إعصار من ماء.. ويعنف فكدت معه توازني.. وهويت منها را وإياها على ظهري.. ونهضت هي وجلست مقرفة على صدري، وراحت تفرق في الضحك وتقول:

- أعد ما قلته.. أعد قليلا.. هيا أعد فأرى ما انت فاعل..

وكان الرمل يتطاير في وجهي فيلذعني لذعا، ولا تنفك هي تضحك..
وأجبت أنا كالجبان الرعديد:

- طيب.. انتهينا.. لن أقول هذا مرة أخرى.. فدعيني..

ولكنها لم تنهض في الحال عن صدري وقالت:

- وهل هذا كل شيء؟ ما أسخفني، أنا التي كانت تحسب انك ستحدث في أمر خطير حقا..

ثم انزاحت عني، ونهضت أنا وأحسست فجأة انني سعيد بأن قلت لها ما أريد دون ان تأخذه مأخذ الجد، على اعتبار انه من المفاكهاات التي يتبادلها المحبون.. ورحنا نصعد المنحدر وقد أمسك كل بخصر الآخر، وقلت لها انني أحبها حبا قويا، وأجابتنني هي بعد ان اطمأنت ووثقت ان لا قطيعة بيننا: وانا احبك ايضا. وما هي الا لحظات حتى كنا ندرج من جديد على طريق كريستوفر كولبوس.. الا انها عندما وصلت بها الى مسكنها، قالت وهي قد لي يدها:

- جوليو.. يحسن أن لا نتقابل في بضعة الايام المقبلة..

وأحسست بانقطاع نفسي وهفت كالمختنق:

- ولكن.. لماذا؟..

وعندئذ تطلق محياها وقالت:

- انما اردت أن أمتحنك.. كنت تريد ان تقطع صلتك بي.. اليس كذلك؟..
الا انك لمجرد التفكير بأنك لا تراني بضعة أيام فقط بان عليك هذا الأسى وهذا
الاضطراب.. هيا.. هيا.. لا يأس عليك.. وسنتقابل غدا..

ومضت راکضة، وقيت أنا كالأهله انظر اليها وهي تعود الى بيتها...

البوم

لا تحدثني عن الاسرار.. لقد كان سرّي من هاتيك الاسرار التي تشغل على الضمير وكأنها عذاب كابوس يلازمك في الايام التي تنأبي معدتك، خلالها، على الهضم،، وأنا أعلم سائق سيارة نقل، ولا أنفك أحمل في سيارتي حجارة بركانية ضاربة الى الحمرة من محجر يقع في نواحي- كامبانيانو- الى ورشة بناء في روما.. وذات صباح ربيعي بديع صرعت رجلا كان مندفعاً في مواجهتي وهو يمتطي دراجته النارية، وكان ذلك عند الكليو متر الخامس والعشرين على طريق- كاسيا- وقد زاد الطين بلة انه ما كان لي أي عذر فقد كنت أقود سيارتي الى يسار الطريق بعد ان تجاوزت إحدى السيارات، وكنت مسرعاً جداً في حين كان هو ملتزماً الجانب الايمن من الطريق، ومتمهلاً في سيره. ولقد صدمته سيارة النقل بقوة بالغة لم أكن أرى معها هذه الكتلة السوداء التي انقذت في الفضاء الأزرق ثم انحطت على أرض السهل دون حراك وسط ازاهير- المارغريت- الناصعة البياض. وبقيت دراجته النارية في الجانب الآخر من الطريق وقد ارتفعت عجلاتها في الهواء، اشبه ما تكون بحشرة ميتة.. أما أنا فقد ضغطت على البنزين وطأطأت رأسي وانطلقت مسرعاً، فقطعت الطريق حتى روما دفعة واحدة.. وافرغت حمل سيارتي في ورشة البناء.. ثم عدت عدة مرات الى- كامبانيانو- غير اني كنت المجهّب- كاسيا- فأمر من طريق- فلامينيا-.. وفي الغداة نشرت الصحف خبر الحادث وفلان، رب عائلة في الثالثة والاربعين من عمره، ويعمل

سمسارا، صرخته سيارة عند الكيلو متر كذا في طريق كاسيا ففارق الحياة فوراً.. ولا يدري احد من ارتكب الحادث، فقد فر المجرم الجبان.. « جبان، تلك كانت الكلمة التي استعملتها الصحف اليومية، وما خلا هذا الوصف الذي أثر في نفسي فان اربعة اسطر كانت كافية لسرد الحادث الذي روى موت رجل.

في الايام التالية لم أفعل غير ان افكر فيما وقع.. وصحيح انني سائق سيارة نقل، ولكن من ذا يقول ان سائقي سيارات النقل لا ضمير لهم؟ ان السائق منا سواء اظلم يقود سيارته او اخلد الى الراحة في فراشه فان له لساعات وساعات للتفكير في شؤونه الخاصة.. وعندما لا يكون سلوكه كما يجب ان يكون- كما هي حالي- فان رد الفعل في نفسه يلزمه ويتسلط عليه ويرهقه.. وكنت، بصورة خاصة، لا أصفح عن نفسي أن لم أقف، لم أحمل جشته الى سيارتي.. وبقي مشهد مصرعه يعاودني ويتمثل لحاطري، فأراني أحسب حساب المسافة التي كانت تفصل بيني وبين السيارة التي تجاوزتها، ثم ارى جسم ذلك الرجل التمس وهو يطير في الهواء امام حاجز سيارتي الزجاجي، واذ ذاك ابادر الى محو تلك الرؤيا من خاطري كما تمحي من خواطرننا حوادث فيلم من الافلام، واروح أفكر في سريرتي: الآن تضغط على كوابح السيارة وتنزل منها.. وتوجه الى السهل.. وتأخذ الصريع بين ذراعيك.. وتندد في السيارة وتهرع به الى مستشفى - سانتو سبيرتر- في روما.. ولكن.. واسفاه.. انها ليست اكثر من احلام.. فاني لم أقف بل انطلقت لا الربي على شيء، وقد طأطأت رأسي كشور يتأهب لينطح بقرنه.. وباختصار، كنت كلما عدت الى التفكير بتلك اللحظة الفريدة قل فهمي لنفسي.. انه الجبن دون أي ريب. ولكن كيف يمكن لرجل ان يكون شجاعا أو على الاقل يعتقد أنه شجاع في لحظة سابقة ثم يفقد جباناً في لحظة لاحقة؟ ومع ذلك فقد جرت الامور هكذا تماماً.. فالميت قد مات حقاً.. وتلك اللحظة التي كان في وسعي أن أقف فيها قد مرت وانقضت.. وهي الآن تفر في اطواء الماضي دون ان يستطيع أي شيء ارجاعها، وانا لم أعد- جينو- الذي

استطاع ان يتجاوز سيارة امامه.. وانما غدوت- جينو- آخر قتل رجلا ولادة بالفرار.

وند النوم عن أجفاني.. وأصبحت متجهما، مرید الاسارى، وما هي الا أن تجنبي الجميع في ورشة البناء وفي مكان آخر غيرها.. ما من أحد يحب أن يبقي مع انسان كئيب يطفىء المرح بدلا من أن يأتي به ويشيعه.. كنت احمل سري في ذاتي كما لو كان شيئا مسروقا يحرق لك بدتك ولا تدري لمن تبوح به وتتخفف منه.. وصحيح ان تفكيرى في هذا السر كان يقل شيئا فشيئا، بل استطيع أن أقول انني أمسكت عن التفكير فيه على وجه التقريب.. ومع ذلك فقد كان هذا السر ماثلا دائما أمامي، يشغل بوطأته على ضميري ويحول بيني وبين الاستمتاع بالحياة.. وكنت غالبا ما أحسب انني لو فتحت قلبي لأحدما لتخففت منه، وما كان ذلك لأنني كنت أرجو أن أجد المغفرة- فقد كنت اعلم أن ما اجترحته لا غفران له- وانما لأنه كان يشاء لي انني بالبوح به استطيع ان ازيل عن كاهلي بعض عبئه الذي يكتم أنفاسي ما دام ان امرأ آخر سيشاركني في حمله.. ولكن لمن تراني أفضي به؟ الزملائي في ورشة البناء؟ ان لهم ما يفكرون فيه.. أم لاسرتي؟ لا اسرة لي، فانا لقيط.. أم لخطيبتى؟ ربما كانت هي الوحيدة الجديرة بأن تفهم، فالنساء يعرفن كيف يشكهن وكيف يشفقن ويرحمن.. ولكن، لسوء الحظ، لم تكن لي خطيبة

في أحد أيام شهر أيار ذهبت مع فتاة خارج المدينة، فتاة تعرفت بها في السابق اذ كنت احملها مع صديقة لها في سيارتي واقطع بهما شوطا في طريق- كاسيا- وكنت قد رأيتها مرتين فارتاح أهدنا للآخر، وفي النهاية أفهمتي أنني نلت اعجابها، وانها ستلتقى بمهدات الغزل مني بعين الرضى.. كان اسمها- ايريدا- وتعمل في خدمة امرأة ثرية.. ولقد خلبت لى برزانتها على الفور ان لم يكن برداعة محياها البيضوي الرقيق الشاحب الذي تلتهمه عيناها الواسعتان

الرماديتان الكئيبتان.. وبوجه الاجمال كانت هي ضالتي التي أبحث عنها في ظروفي الراهنة. وقد رضيت ان تجالسني في ناحية من السهل صامتة، رقيقة الحاشية كتوما، بعد ان احتسينا القهوة في مقهى هناك يقوم بين الاثار والاطلال من اعمدة وجدران. وكان مجلسنا عبر بوابة- سان بول- حيث ينسبط ثمة منظر رائع على نهر- السببر- والعمائر الحديثة القائمة جنباً الى جنب على الضفة المقابلة. وقد فرشت شالها فوق العشب لكي لا تتسخ ملابسها، وقيت هكذا بدون حركة وقد طوت ساقبها ووضعت يديها على ركبتيها وراحت تنظر الى العمائر الضخمة في الضفة الاخرى. لاحظت ان في العشب من حولنا الكثير من ازاهير- المارغريت-.. وعلى الفور تذكرت البياض الناصع لهذه التي كانت اشبه ببساط محدود وقد فوقه، منذ شهر مضى، رجل كان قد فارق الحياة.. انه الرجل الذي صرعه بسيارتي.. ولست ادري لماذا أحسست بدافع مفاجئ، يغريني بالافضاء لها بسري.. ولاح لي انني اذا بحث لها بما في قلبي فان هذا سيربني من العبء الذي أرزح تحته.. انها لم تكن من هاتيك الفتيات الطائشات الرعناوات اللواتي اذا ما بحث لهن بمرك سرعان ما تعض يد الندم، ويغدو سرك في صدرك أشد وطأة واعظم ثقلاً مما سبق.. وانما كانت فتاة جادة، متفهمة، متحفظة، ذات مجارب خاصة، لم تكن على التأكيد، مبهجة كما يبدو على الاقل من التعبير الكئيب الذي يعلو محياها.. وسألتها لكي أحطم ثلج الصمت بيننا:

- فيم تفكرين؟ فأجابت:

- لا أفكر في شيء.. وكانت في هذه اللحظة توشك ان ترتفع يدها الى فمها لتكتم بها تضاؤها.. ولم أياس من جوابها فأردفت أقول:

- ايريدا.. انني أحبك كما تعلمين.. ولهذا السبب فأنني أحس أنه يجب أن لا أخفي عنك شيئاً من ذات نفسي.. يجب ان تعلمي كل شيء.. يا ايريدا.. ان في صدري لسرا..

وتطلعت الى العمانر الكبيرة في الضفة لآخرى، وتحسست بأناملها ذقنها
حيث كان يبدو تووم خفيف أحمر لا بد انه بشرة صغيرة من بشور الربيع..

وقالت:

- ما هو هذا السر؟ فقلت بجهد:

- قتل رجلًا.. وتقول لي بهذه الصورة؟

- وكيف كان يجب ان اقله؟ فلم تجب، وبدت كأنها تبحث عن شيء، وهي
تحدد النظر في الارض. وعدت اقول:

- بالطبع انا لم اقله عامدا متعمدا..

ووجدت ما كانت تبحث عنه.. فقد قطعت عشب ووضعتها في فمها وراحت
تمضغها مفكرة.. وعندئذ أخذت اروي لها الحادث دون أن أخفي شيئا، بل كنت،
إذا جاز لي القول، أشدد على الوصف بأنني جبان.. وانتهيت كلامي قائلا وقد
تملكني الانفعال رغما عني ولكنني تخففت من عبء سري قليلا:

- والآن.. ما رأيك؟ ولكنها استمرت تمضغ العشب الصغيرة ولم تقل شيئا.

ولكنني قلت ملحا:

- أراهن الآن انك لا تطيقيني..

فرأيتها ترفع كفيها قليلا غير مبالية.. ثم قالت:

- ولماذا يجب ان لا أطيقك؟

- لا أعلم.. ولكن ذلك الشيطان التاعمس قد مات بجريرتي.

- وهل انت نادم.. يخرزك ضميرك؟

- نادم جدا.. ومعذب الضمير جدا.

وعلى حين غرة تضاعف حلقى كأفا توشك الدموع أن تخنقني .. وتابعت قائلاً:

- يلوح لي انني لن استطيع العيش بهذا.. لا يمكن ان يعيش انسان اذا ما فكر انه كان جباناً.

- وهل تحدثت الصحف بالحادث..؟

- أجل. في أربعة أسطر.. قالت فيها انه قضى نحبه.. وان الفاعل مجهول وسألتنى فجأة:

- أتعرف كم الساعة الان؟

- انها الخامسة والربع.. وتبع ذلك صمت آخر وقلت:

- فيم تفكرين؟

ونقلت العشة المضغوطة من ناحية الى أخرى في قمها وأجابت بصراحة:

- لا أفكر في شيء.. انني أحس انني مرتاحة.. لا أفكر في شيء. في هذه المرة أحسست بالذهول.. وانكار ما تقول.

وقلت:

- غير ممكن.. لا بد انك كنت تفكرين في شيء ما.. ولا ريب.. فاهتسمت نصف ابتسامة. وقالت:

- اجل. كنت أفكر في شيء ما.. ولكن لو أخبرتك به فلن تصدقني..

وسألتها وقد تولد في نفسي بعض الامل:

- أكنت تفكرين في شيء له علاقة لك به..

- وما هو اذن؟

فقلت ببطء:

- انه أحد هذه الاشياء التي نفكر فيها نحن النساء: كنت انظر في حذائي فتبين لي انه مشقوب.. ففكرت ان في شارع- كولا دي ريونتزو- متجر يجرى تصفية لبضائعه، وانني سأذهب غدا لكي اشترى حذاء جديدا.. فهل انت مسرور الان؟

وبقيت هذه المرة صامتا متجهما. فلاحظت ذلك وسألتني:

- ماذا دهاك؟ هل أغضبتك؟ فلم استطع ان امتنع عن الصياح:

- أجل لقد غضبت. انني رويت لك قصة حياتي.. ولكن كان الاجدر بي ان لا أقول لك شيئا ما دام هذا هو كل تأثيرك.. وبدا عليها كأنما قد امتعضت قليلا ثم قالت:

- ولكنك أحسنت فعلا ان قلت لي هذا.. لقد تأثرت حقا..

- أي تأثير؟ ففكرت ثم قالت متحرجة:

- انني آسفة ان يكون قد وقع لك هذا.. ولقد أثر بي تأثيرا محزنا..

- أهذا كل شيء؟ وعادت تقول وهي تتحسس من جديد تلك البشرة الصغيرة

في ذنبيها:

- وأعتقد أن من العدل ان تشعر بالندم ووخز الضمير..

- ولم ؟

- انت نفسك قلت انه كان في وسعك ان تقف.. وتقدم للرجل عوناً ما..
ولكنك لم تفعل..

- واذن.. فأنت ترينني جباناً؟

- اراك جباناً؟ نعم ولا .. الصحيح ان هذا قد يقع لاي انسان غيرك.

- ولكنك قلت الان انه كان يجب ان اقف.

- كان يجب.. اجل.. ولكن.. ما دمت لم تفعل.

- واذن؟ في هذه اللحظة رأيتها منهمكة في النظر الى زهرة من ازهار-
المارغريت- باستغراق. وفجأة أحسست بفراغ في نفسي.. كأنما هذا السر الذي
شد ما عذبت نفسي في سبيله قد تلاشى في انسجام الربيع، او تطاير كهاتيك
الفراشان البيض التي كانت محبوم، ازواجاً، هنا وهناك في الشمس. ومع ذلك
سألته وفي نفسي ايماضة آخر أمل.

- باختصار.. هل انا في رأيك أحسنت أم أسأت اذ لم أقف؟

- أحسنت وأسأت معا.. بالطبع كان يجب ان تقف ما دمت قد ارتطمت
به.. ومن ناحية اخرى ما كان وقوفك ليجدي شيئاً اذ انه مات.. والله يعلم ما
كنت ستعاني من هموم.. واذن فقد أصبت وأخطأت في آن واحد. وقد ولدت
كلماتها هذه في نفسي هذه الفكرة: انها المرة الاخيرة التي أراها فيها.. كنت

أحسبها فتاة ذكية، قادرة على الفهم.. غير أنها، على النقيض، غبية بلها.. ونهضت فجأة وأنا أقول- حسن هيا بنا.. والا تأخرنا عن حفلة السينما.. وما ان جلسنا في ظلام القاعة حتى وجدتها تضع يدها في يدي ومحتضن أصابعها أصابعي.. وتركتها تفعل ذلك.. وكان الفيلم المعروض يروي قصة حب مؤثرة ولما استضأت القاعة رأيت عينيها الرماديتين الواسعتين قد امتلأتا بالدموع فابتل بها خذاها.. وقالت وهي تكفكف دموعها بمندبيلها.

- ان هذا أقوى مما استطيع.. وانا كلما شاهدت فيلما من هذا النوع بكيت..

وبعد السينما ذهبنا الى «بار» شربنا فيه القهوة.. وكانت لا تنفك تلتصق بي، وتضغط برديها على ردي، وفي لحظة من اللحظات التي فاح فيها أريج القهوة، همست وهي تمسك بعينيها الواسعتين في وجهي:

- انك تعلم انني أحبك حبا قويا جدا.

وودت أن أجيبها: « انك تحبينني ولكنك تتركينني احمل عبء سري وحدي » غير اني أمسكت.. وادركت انا من العيب ان أطلب منها او من الاخرات جميعا اكثر من المودة والحنان.. ولا شيء غير هذا وقلت متنهدا:

- وانا أيضا أحبك جدا.. ولكنها كانت قد انصرفت عن الاصغاء الي.. وانما كانت تنظر الى المرأة المعلقة فوق المشرب وهي مشغولة البال ولا تني تمس من ذقتها تلك الناحية التي ظهرت فيها بشرة صغيرة حمراء.

اتظون تشيكوف (روسيا)

الآنسة فتالي

كان ذلك منذ نحو تسع سنوات، في وقت حصاد الهشيم، عصر احد الايام. وكنت أنا وبيير سرغيتش، وكان يزاول عمله قاضيا للصلح، قد ذهبنا على ظهور الخيل الى محطة السكة الحديدية لكي نأتي بالبريد. وكان الجو صافيا ، غير أننا في طريق العودة سمعنا هزيم الرعد، ورأينا سحابة ضخمة دكنا، تتقدم في اتجاهنا، مهددة متوعدة. وكنا نسير صوبها.

من بعيد، وراء تلك السحابة، كانت دارنا تبدو كبقعة بيضاء، ومعها الكنيسة، وأشجار الحور الفضية الباسقة. كانت رائحة المطر والهشيم قلا الانف. وكان زميلي متوقد الذهن لا ينفك بضحك ويفيض بلفظ القول، ويخال الخيالات. قال: ما أروع ان نجد في طريقنا قصرا من قصور العصور الوسطى، وقد نهض ثمة على حين غره بأبراجه المستننة وطعالبه ويومه فنلوذ به من المطر، ثم تضرنا الصاعقة في النهاية فنهلك.

وثارت الريح فجأة، وجرت دوامتها فوق القمح والقرطم، وتطاير الغبار في الجو. وضحك بيير وهمز جواده، وتنحنح وصاح: حسن. حسن جدا. ورحت أنا أضحك كذلك تحت تأثير اندفاعه، وانسياقا مع تصوري بانني لن البت ان ابتل حتى عظامي، وان من المحتمل ان تصرعني الصاعقة.

ولما عدنا كانت الريح قد هدأت، وهطلت قطرات كبيرة من المطر كانت تتفقأ

بين العشب ولوق الاسطح. ولما دخلنا الاصطبل لم نجد فيه انسانا قط.

قام ببيير سرغيتش نفسه برقع السرجين، وقاد الجوادين الى مربطهما. وفي انتظار ان يفرغ من عمله هذا كنت واقفة على العتبة أشاهد خيوط المطر المنحرفة. وكانت رائحة الهشيم المثيرة أشد هنا منها في الحقول. وقد اريد الجو وتجمعت الفيوم وانهمر المطر شديدا. ثم قصف الرعد قصفا مروعا حتى لقد بدا كأنما السماء قد انشقت شطرين. وعلى أثر ذلك اقترب ببيير مني وقال: يا لقعقة هذا الرعد!

كان واقفا الى جانبي على العتبة يتأملني، وما برح مبهود الانفاس من شدة عدو الجواد به. ثم قال: يا آنسة نتالي، شد ما وددت ان أخرج عن كل ما أملك في سبيل أن أظل واقفا هكلا أطول مدة ممكنة وأنا أنظر اليك. قانت اليوم رائحة باهرة.

كانت نظرتة مفتونة متضرعة، ومحياه شاحبا، تلتصع فوق لحيشه وشاربيه قطرات المطر. وكان يُغيل الي كأن تلك القطرات هي الاخرى، تنظر الي برفق. ومضى يقول: اني احبك. احبك وأحس أنني سعيد ان اراك، وأنا اعلم انك لا تستطيعين ان تكوني زوجي. غير أنني لا أبتقي شيئا، ولست بحاجة الى أي شيء. ولتعلمي أنني احبك وحسب. لا تقولي شيئا ولا تجيبي ولتعلمي فقط انك العزيزة الغالية. ودعيني بعد اقلنى النظر منك.

وانتقلت الى حساسته، ورحت أتأمل محياه الملهم، وأصفي الى صوته يختلط بصوت المطر. ولم أعد أستطيع ان آتي بهركة. لكأنما تملكني سحر ساحر. وتقيت لو بقيت هكلا الى الابد أنأمل عينيه البراقتين، وأسمع صوته الجميل.

قال ببيير: أنك لا تفوهين بكلمة. وهنا حسن جدا. استمري في صمتك.

تلكني احساس مستطاب، وطفقت أضحك فرحا وإبتهاجا. ثم ركضت نحو البيت تحت وابل المطر. وضحك هو الآخر، واندفع يلاحقني.. وطرنا خفيين، كل الى غرفته نضخب صخب الاطفال، وكانت ثيابنا مبلولة، وأنفاسنا مبهورة، وصات السلم تحت وقع أقدامنا. وما كان أبي ولا أخي، قد تعودا أن يرياني مبتهجة ضاحكة السن هكذا، فحدقا النظر في مندهشين، ثم أغرقا في الضحك.

وانقشعت غيوم العاصفة وسكن الرعد، ولكن قطرات من المطر كانت لا تزال تلتصع على لحية بيبير. وراح هو طيلة المساء يقني ويصفر ويلعب الكلب في جلبة وبلاحه في أرجاء البيت حتى كاد يصطدم بالخدم. وحن مرعد العشاء فأخذ يلتهم الطعام التهاما، ويتحدث، ويقول الحماقات ثم أكد ان المرء اذ يتناول خيارا طازجا في الشتاء يحس بشذا الربيع في فمه.

ولما حان وقت النوم، اوقدت شمعة في غرفتي، وفتحت النافذة على وسعها، واستولى على روحي شعور لا سبيل الى تفسيره. وطاف في ذهني أنني حرة، وذات ثراء، وجيدة الصحة واني من الطبقة الاجتماعية الرفيعة. أحاسيس ما أجملها يا الهي!

وحاولت، وأنا أضطجع على سريري، وأستنشق العبير الرطب المتصاعد من البستان مع أنداء الليل، ان اتفهم حقيقة شعوري نحو بيبير سرغيتش، وهل أنا أحبه، ولما لم يسعني أن أفهم شيئا ادركني النوم، ولكني لما استيقظت في الصباح، وشاهدت ظلال شجر الزيزفون، وشعاعات من نور الشمس تمر فوق سريري، عادت الى ذاكرتي حوداث العشية السابقة. وبدت لي الحياة عندئذ غنية متنوعة، مليئة بالسكر والروعة، ورحت أرثدي ملابسي بسرعة، وعلى شفتي يتراقص نغم جميل، ثم انطلقت الى الحديقة.

فماذا جاءت به الايام بعد ذلك؟ لا شيء.. لقد كان من عادة بيبير، في أثنائه

اقامتنا في المدينة شتاء، ان يزورنا احيانا. ان اصدقاء الريف، أمثال بيبير لا تطيب بهم نفوسنا الا في الريف وحده، صيفا. وأما في المدينة وفي فصل الشتاء فان هؤلاء الاصدقاء يفقدون نصف كباستهم وملاحظتهم. ونحن حين نقدم لهم الشاي في المدينة، يساورنا الشعور بأنهم يرتدون حلل الريدنغوت المستعارة وانهم يحركون الملاعق الصغيرة في أكواب الشاي مدة جد طويلة..

وفي المدينة كان بيبير يتحدث احيانا في الحب. غير انه كان لذلك الحديث وقع مختلف عنه في الريف كل الاختلاف. لقد كنا في المدينة نحس بالحاجز الذي يفصل بيننا احساسا اقوى وأشد: فأنا ثرية، ومن الطبقة الرفيعة، وهو فقير.

كان مرشحا لوظيفة قاضى صلح. وكنا، كلانا نعتبر الجدار القائم بيننا عاليا وسميكا جدا. وكان هذا مني نزع شباب، واما منه فعلمه عند الله، وكان حين يتردد علينا في المدينة لا ينفك يتكلف الابتسام ويوجه نقده الى الطبقة الرفيعة. وإذا وجد في غرفة الاستقبال زائر اخر لزم جانب الصمت عابسا مقطبا.

لقد كنت محبوبة. وكانت السعادة بهجاني. لكأنما تعايشني وتقيم معي كتفا الى كتف. وكنت احيا دون مبالاة، دون محاولة لفهم نفسي، دون ان ادرك ماذا انتظر واتوقع من الحياة. وكان الزمن يمضي.

كان الناس يمرون أمامي ومعهم الحب. وكانت الايام الصافية والليالي الدافئة تتعاقب والبلابل تغرد، والهشيم يفوح أريجيه. ان هذا كله، وهو غاية في الفتنة وإثارة الذكري لي وللآخرين، قد مر وانقضى وشيكا، دون ان يبقى أثرا يجد تقديرا. فأين هو الان، اين، اين؟..

وتوفي والدي وأخذت أشيخ. وكل ما كان يبهج ويسر، ويحلو، ويهب، الامل: وقع المطر.. هزم الرعد.. فكرة السعادة.. احاديث الحب.. هذا كله لم يعد سوى ذكرى.. واني لارى الان أمامي منبسطا شاسعا كله وحشة وخواء.. والافق،

هناك، مريدا مخيفا..

ويقرع جرس الباب: انه بيير.

إن بيير منذ زمن طويل قد استقر في المدينة بسبب من حماية أبي ومسعاه.
ولقد شاخ قليلا، واتحنى ظهره شيئا ما، وكف منذ زمن بعيد عن مطارحتي الحب
ولم يعد يلقي بحماقاته قط، كما لم يعد يحب مهنته. فكأنه مريض، وكأنما زال
عنه السحر والوهم، فأدار ظهره للحياة وراح يعيشها مرغما.

جلس قرب الموقد يتطلع بصمت الى اللهب.. ولا يدري ما يقول.. وسألته:
ماذا هناك؟ وأجاب: ما ثمة من شيء..

وأطبق الصمت عليه من جديد. وراح اللهب الاحمر المنعكس يتراقص على
صفحة وجهه. وعاد الماضي الى مخيلتي. وعلى حين غرة اهتز كتفائي، وأنحنى
رأسي، وطفقت أبكي بحرقه.. ولقد رثيت رثاء مريبا لنفسي ولهذا الرجل، وتقنيت
لو عاد ما فات مما تأباه علينا، اليوم الحياة، لم افكر عندئذ أنني ثرية.. واني من
الطبقة العالية.. ثم شهقت في البكاء وانتحيت بصوت مرتفع وأنا أضغط فودي،
ورحت اتمتم: رياه.. رياه.. لقد ضاعت حياتي..

ولما سرت معه اودعه في رواق البيت تلبث طويلا وهو يرتدي معطفه المبطن
بالفراء.. وقد قبل يدي مرتين دون ان ينبس بكلمة. وحدث مليا في وجهي المبلل
بالدمع. واحسب انه في تلك اللحظة قد تذكر ذلك اليوم العاصف.. وخيوط المطر
النهمر.. وضحكائنا.. ووجهي اذ ذاك.. وهم ان يقول لي شيئا ما، كان سيشره
بالسعادة لو افضى به، الا انه لم يفعل، واكتفى بأن يهز رأسه ويضغط يده
بشدة.. كان الله معه..

ويعد ان رافقته حتى الباب عدت الى غرفة مكتبتي، فجلست ثانية على

البساط قبالة الموقد.. وقد اكتست الجمرات الحمر بالرماد وشرعت تتمد.. ولقد
قرع الجليد زجاج النوافذ بعنف متزايد، وأخذت الريح تفتح لي مدخنة الموقد،
ودخلت الخادم وحسبتي نائمة وراحت تناديني لتوقظني.

انطون تشيكوف (روسيا)

المهار

لست أحتاج الى جهد كبير لكي اذكر جميع تفاصيل تلك الامسية من
أمسيات الحريف الماطرة: هأنذا مع والدي في شارع من أشد شوارع موسكو
ازدحاما بالخلق. واني لاحص بعارض غريب يتملكني شيئا فشيئا. انا لم أتألم
غير أن ساقى الاثنتين تتراخيان، والكلمات تقف في حلقي، ورأسي ينثني جانبا
دون قوة.. انتي، بكل وضوح اوشك أن انهار واقعد وعيي..

في تلك اللحظة لو حملت الى المستشفى لاضطر الاطباء ان يكتبوا في
اللاحة المعلقة فوق رأسي كلمتو جوع « باللاتينية.. وهو مرض لم يعد له ذكر
في كتب الطب..

ان ابي يقف الى جانبي على الرصيف، وهو يرتدي معطفا صيفيا رئا، وقد
دس رأسه في قلنسوة من نسيج صوفي تفلت منه كبة من شعر اشيب، ووضع في
قدميه حذاء ثقيلا من المطاط، ويداع من الغرور، وخشية أن ترى رجلاه العاريتان
في حذائه المطاط، فقد لف حول ساقية شقتين من جلد جزمة عتيقة..

هذا الرجل الفذ الاحمق قليلا، الذي يزداد حبي له كلما ازداد معطفه
الصيفي تمزقا واتساخا، هذا الرجل كان قد اتى العاصمة قبل خمسة اشهر باحثا
عن عمل مكتبي، عن وظيفة ما.. وطيلة هذه الاشهر الخمسة لم يتفك بجوب
شوارع المدينة في طلب العمل..واليوم فقط قرر ان يمد يده سائلا صدقات

المصدقين..

وينهض أماننا بناء من طابقين وعليه لافتة زرقاء داكنة كُتبت عليها هذه الكلمة «مطعم». ان رأسي الذي فارقتهُ القوة يتطوح الى الخلف وينثني جانبا.. ودون ما ارادة مني، فاني أنظر في الفضاء فأرى نوافذ المطعم وقد انبعث منها النور.. وها هي اطياف الاشخاص تمر ثم تعود فتعمر ثانية وراء الزجاج. وان عيني لتأخذ، في الناحية اليسرى، معازف الموسيقى، ورسمين منقولين عن أصل زيتي، وثريات النور.. ويقف بصري عند نافذة فألاحظ ثمة بقعة بيضاء.. ان البقعة ثابتة، تحيط بها خطوط مستقيمة وقد التصقت هذه الخطوط بخلفية كستنائية اللون من جدار البناء.. واحدق بهذه البقعة، فأتبين لافتة بيضاء من لافتات الاعلان.. ان فيها كتابة.. ولكنني لا استطيع تمييزها.. وابقى نحرا من نصف ساعة دون ان احول بصري عن اللافتة. ان لونها الابيض الناصع ليجتذب انظاري وكأنه قد استهواني وسحرني.. واحاول أن أقرأ الكتابة، ولكن جهودي تبوء بالخيبة.

وأخيرا فان عارض المرض قملكني تماما.. واخذت ضوضاء العربات تقع في سمعي وكأنها هزيم الرعد.. واني لأستطيع ان اميز الاف الروائع في نغم الشارع وعفنه..

وان عيني لتسريان في مصابيح الطريق وأضواء المطاعم هروقا تخطف الابصار.. لقد غدت حواسي المتوترة الى أقصى حد مرهقة بصورة غير طبيعية.. فاذا بي قد شرعت أرى ما لم اكن لاراه من قبل.. وقرأت ما هو مكتوب فوق اللافتة.. انها كلمة: محار.

يالها من كلمة غريبة! لقد عشت في هذه الدنيا ثماني سنوات وثلاثة اشهر بالضبط دون ان اسمع هذه الكلمة تلفظ مرة واحدة.. ماذا تراها تعني؟ ربما كانت

اسم صاحب المطعم.. ولكن اللاقتات التي تحمل اسماء اصحاب المطاعم تعلق فوق الابواب، وليس على الجدران.

وأسأل والذي بصوت مبجروح محارلاً أن ادير وجهي نحوه:

- ابتاه.. ماذا تعني هذه الكلمة: محار؟

لم يسمعني أبي. انه يتفحص حركة جموع الناس، ويتبع بنظره كل من يمر.. انني ارى في عينيه انه يريد ان يقول لهم شيئا.. الا ان الكلمة المشؤومة تظل معلقة بشفتيه المختلجتين، لا تند عنهما كأنها عبء ثقيل.. بل لقد سار خطوة وراء أحد المارة.. ومس كفه بيده.. وعندما استدار الرجل نحوه قال ابي معتذرا:

عفوك يا سيدي، ثم تراجع مضطربا.

وعدت أنا لأقول:

- ابتاه.. ماذا تعني كلمة محار؟

فقال:

- انه نوع من الحيوان.. يعيش في البحر.

ومثل لمح البصر تمثلت ذلك الحيوان المجهول الذي يعيش في البحر.. انه لا بد يكون شيئا وسطا بين السمك والقشريات.. وما دام يعيش في البحر فلا بد انهم يصنعون منه حساء سمك شهيا.. ساختا.. يعبق برائحة الفلفل الاسود وورق الرند.. او قد يصنعون منه متبلات غضروفية ذات مزازة.. أو حتى مرقا من مرق القشريات.. وربما تناولوه باردا مع الفجل البري.. وبإمياضة خاطفة جعلت اتخيل كيف يحضرون هذا الحيوان من السوق: انهم ينظفونه بسرعة.. وبسرعة أيضا

يدسونه في القدر.. اجل بسرعة.. بسرعة.. لان الكل جائع.. الكل يفري الجوع
أمعا».. «من المطبخ تنبعث رائحة السمك المقلي.. وحساء القشريات .

واحس ان هذه الرائحة تدغدغ لي حلقي وانفي، ثم تغمر جسدي كله شيئا
فشيئا.. ومن المطعم.. ومن ابي ومن اللاقتة البيضاء.. واكامي.. تنبعث هذه
الرائحة وتتصاعد قوية.. قادرة.. قاهرة.. الى حد رحت معه أمضخ.. كأنا في
فمي حقا قطعة من هذا الحيوان الآتي من البحر.

وتتراخي ساقاي وتلتويان من فرط اللذة التي أحس بها.. ولكني لا اسقط
أمسكت بكم أبي.. ثم لذت بمعطفه الصيفي المبتل.. ان ابي يرتجف.. ويتكور
على نفسه من البرد.. وعدت أسأله:

- أبتاه.. هل المحار هزيل.. ام سمين ذو دهن وشحم

وقال أبي:

- انه يؤكل حيا.. وهو يوجد في اصداق كالصلاحف انه في قوقعة من
صدفتين..

وعلى الفور لم تعد الرائحة الشهية تستثيرني. لقد زال الوهم.. واصبحت
ادرك كل شيء الان..

واراني اهمس قائلا:

- انه لكريم.. كريم جدا .

واذن فهذا هو ما تعنيه كلمة محار.. واتصور حيوانا اشبه ما يكون
بضفدع.. ضفدع في قوقعة تتطلع بعينين كبيرتين.. ولا تنفك تحرك فكها

الكريهين.. واروح أتخيل كيف يؤتى بها من السوق وهي لا تزال في قوقعتها..
ولها كلابتان وعينان تبرقان.. وجلد لزج.. دبق.. ويختبيء الاولاد جميعا..
والطامية قسك بها من كلابتها وقد بان عليها الاشمزاز وتضعها في طبق
وتذهب بها الى حجرة الطعام.. ويتناولها الاشخاص الكبار.. ويروحون
ياكلونها حية.. بعينها وأسنانها.. وقوائمها.. وهي تصرخ.. وتحاول
ان تنهش لهم شفاههم.

وجيى يلتوي من الاشمزاز.. ولكن لماذا شرعت أسناني تمضغ..! انها حيوان
كرية.. تنقرز منه النفس.. حيوان مخيف.. ولكني مع ذلك أمضغ هذا الحيوان
وأكله بنهم.. بشراة.. وانا احاذر ان اعرف طعمه ورائحته.. ابتلعت
واحدا.. واني لالمح الاخر بعينه اليراقطين.. وألثالث.. فأكلها أيضا.. وأكل معهما
القوطة، والطبق، وحذاء ابي واللاقة البيضاء أكل كل شيء.. كل ما يقع عليه
نظري.. لانني أحس ان الطعام وحده هو الذي يستطيع ان يذهب بمرضي.. ان
للمحار عيون مخيفة.. ان المحار كرية.. كرية.. واني لارتعد لمجرد تصوره..
ولكنني جائع.. جائع..

- أعطوني محارا.. أعطوني محارا..

هذه الصرخة تبعث من صدري من صدري.. وامتد يدي الاثنتين الى الامام..

- ايها السادة... من فضلكم... بعض الغوث...

انه صوت ابي يصافح سمعي.. صوت واهن.. اجش.. واني لاشعر بالخزي
من التسول.. ولكن يا الهي.. ان قواي تخور..

وأصرخ وانا اشد ابي من ذيل معطفه:

- أعطوني محارا.. أعطوني محارا.. واسمع من يضحك قريبا مني ويقول:

- أتناكل محارا.. وانت لا تزال صغيرا الى هذا الحد؟

وأمامنا يقف سيدان بقبعتين سوداوين عاليتين من قبعات السهرة ويتفرسان في ملامحي ضاحكين:

- واذن، أيها الصبي، فأنت تأكل محارا.. اصحيح هذا؟ عجيب! وكيف تراك تأكل المحار؟

واتذكر ان يدا قوية تحبرني الى المطعم المتألق.. ويلحظة واحدة يشجع الناس حولي متعجبين.. هازنين.. واجلس الى مائدة.. واروح أكل بشراهة.. دون ان أمضغه او انظر اليه.. دون ان احاول معرفة ما أكل.. ويغيل الي انني لو فتحت عيني لرأيت، حقا، وبلا ريب على الاطلاق عيوننا براقه.. وكلاهما واستانا مدبية ماضية.

وعلى حين جعلت امضغ شيئا صلبا.. تسمع له قضقضة.. ويضحك المجتمعون ويقولون :

- يا سلام.. انه يأكل الصدف ايضا.. ها للبله الصغير .. ايمن ان يؤكل مثل هذا؟

وبعد ذلك.. اذكر ما الم بي من ظمأ فظيع.. وأراني ممددا في سريري.. ولا استطيع ان انام.. ويتأبني احساس بالاحتراق.. ويشتعل فمي بمذاق غريب كالنار.. يذود عني النوم.. وابي يروح ويجيء كثير الحركات والكلام، ولا ينفك يغمغم:

- احسني قد اصبت بالبرد.. أحس كأن في رأسي شيئا ما.. كأن في داخله

أحدا.. وربما كان ذلك لاني.. لاني.. لم أكل شيئا اليوم.. ما أعجب أمري لا
رب في أنني غبي.. رأيت أولئك السادة يدفعون عشرة رويالات لقاء ما تناولوا
من محار. فلماذا لم اذهب اليهم طالبا بضع محارات.. على سبيل الاعارة. لا
شك في انهم كانوا سيعطونني اياها... .

ويستغرقني النوم قبيل الصباح.. وأرى في أحلامي ضفدعا بكلايتين.. وقد
اقتعدت قوقعة.. وراحت تجول بأنظارها، وعند الظهيرة يوقظني العطش فأبحث
بنظري عن أبي.. انه لا ينفك يسير.. ويتكلم.. ويأتي بحركات كثيرة.

مكسيم غوروكي (روسيا)

الحب القاتل

كان « ماكارتشودرا » يروي لي هذه القصة الغريبة، وكنا جالسين في تلك الناحية من سهوب سيبيريا يطرق اذاننا دوي الامواج المصطخبة على طول الشاطئ، الموحش. وكان هو لا يهتم للبرد، ولا تزعجه صفعات الريح وهي تجلد صدره الاسمر العاري الا من الشعر الكثيف الذي يغطيه، وكان مضطجعا وقد ادار وجهه نحوي، وجعل يدخن غليونه الكبير وينثف في الجو دخانه الداكن، وكانت عيناه تحمقان في الظلام، وقد حدثني طويلا دون ان تبدو منه حركة واحدة ليدراً عن نفسه صفعات الريح القوية. وقد بدأ حديثه ببعض الافكار الغريبة: ليس على الانسان الا ان يسير في درب الحياة وينظر، وحين يكون قد رأى كل شيء، ليس عليه سوى ان يضطجع ويموت. وماذا يجدي ان نعلم الآخرين. هل يسعك ان تعلمهم كيف يكونون سعداء؟ انك لا تستطيع ذلك. ان الناس جميعا يعلمون، فلأني غاية هم يعلمون: لا أحد يدري. ترى احدهم وقد انحنى فوق الأرض يعمل دون راحة، دون ونا، ومع ذلك فانك تقول ان هذا الرجل يستنفد حياته وقوته قطرة قطرة في سبيل هذه الأرض، وسيأتي يوم فيبرقد في جوفها حيث تتعفن جثته وتتحلل، وسوف لا يرى شيئا من حقله الذي كد وتعب في سبيله. قل لي هل ولد هذا الانسان لكي يحرق أرضه ويموت بعد ذلك دون ان يستطيع حفر قبره؟ هل هو يعلم ما هي الحرية؟ هل يدرك عظمة هذه السهوب المهولة في سيبيريا، هل يعني لغة هذه الامواج المصطخبة، وهل هي تشير فيه

السرور والبهجة؟ انه عبد منذ ولد وسيظل عبدا طيلة الحياة. هذا كل ما هناك. .
لقد عرفت مرارة السجن يا صديقي، وسأملت نفسي ذات يوم ما الفائدة من
وجودي في هذه الدنيا؟ فقد كان السأم يعتصر قلبي وأنا في السجن. هل
يستطيع أحد ما أن يقول ما فائدة وجوده في هذه الدنيا؟ لا أحد يستطيع ذلك.
علينا ان نعيش وهذا حسينا. سر وانظر من حولك، فلن ينال منك السأم بعد هذا.
وفي السجن تحدث الي أدهم وهو روسي مثلك، وقال لي يجب ان لا تعيش وفق
ارائك الخاصة، بل عش وفق ما يقوله الله، واخضع لمشيئته تحصل على ما تريد.
وكان محدثي يرتدي ثوبا مهلهلا، وقلت له ببساطة: لماذا لا تطلب من الله ثوبا
غير هذا؟ فغضب وأغلظ لي القول وطردني، ومع ذلك فقد سمعته دائما يقول:
يجب ان تغفر للناس ذنوبهم ونحهم المحبة، ان أمثال هؤلاء الناس يدعونك تأكل
قليلا وهم يأكلون في اليوم الواحد عشر وقعات سمان. « وصق ماكار في النار
وصمت قليلا، وراح يحشو غليونه، وكانت الريح تتناوح، والخييل تصهل من
بعيد، وترتفع من المخيم أغنية حلوة وقد أثار اللحن الشجي ذكريات صديقي
ماكار.

وأخذ يقول: انه صوت فتاة حلوة. اتود ان تحبك واحدة مثلها؟ كلا. اليس
كذلك؟ لا تشق يا صديقي بهاتيك الفتيات. ابتعد عنهن دائما. ان الواحدة منهن
تحب القبل وتتعشق الضم كما احب انا غلينوني هذا. انك اذا قبلت احداهن ماتت
ارادتك في قلبك وتهبها روحك. انهن يكذبن دائما، انهن يشبهن الافاعي، بل
هن الافاعي ذاتها. تقول لك الواحدة منهن اني أعبدك، ولكنك لو خدشتها برأس
دبوس فانها تفرق قلبك. انا اعرف هذا كله. اتريد ان اروي لك حكاية واقعية؟
سأرويها لك فاحفظها واذكرها دائما طيلة حياتك، لتظل حرا طليقا كالعصفور.

كان هناك رجل اسمه زوبار وكان شاهبا من جماعة النور، وكانت هنغاريا،
وبوهيميا، والبلاد السلاقية كلها تعرفه، وتعرف شجاعته واقدامه. وكان اذا

اعجب بفرس اختطفها حتى لو كانت فرقة عسكرية كاملة تقوم على حراستها. وكان له أعداء كثيرون يتمنون ان يقضوا عليه، ولكن أحدا منهم لم يستطع أن يسه بسوء. ان الشيطان نفسه ما كان ليستطيع ان يناله بشر. كان الجميع يعرفونه، ويعرفون حبه للخيل. الا انه لم يكن يحتفظ بها مدة طويلة. كان يكتفي بأن يمتطي صهوة الجواد أياما قليلة ثم يبيعه وينفق ثمنه بسخاء عجيب. انك لو طلبت منه قلبه لا نترعه واعطاك اياه. هكذا كان كرمه.

وكانت بين جماعتنا فتاة نورية مثلنا اسمها- رضا- ابنة الشيخ دانيلو، انت تعرف ابنتي نونكا، انها ملكة جمال، أليس كذلك؟ ومع هذا فلا سبيل الى مقارنة جمالها بجمال رضا. ليس في اللغة كلام يمكن ان يصف جمال رضا. لقد حطمت هذه الفتاة قلوبا كثيرة، قلوب فتيان أشداء، وشباب مغامرین، واثرياء كبار. كلهم تمنوا الظفر بها، ولكنها ردتهم بأنفة، ومرغت انوفهم في التراب، حرقت أكبادهم، وشردهم هائمين بحبها، مولهين بجمالها. وكان ابرها اذ يرى هذا يضحك، بل يفرق في الضحك، ويقول: ان ابنتي أشبه بالنسر، وعلى عاشقها ان يبحثوا عن الأخريات اللواتي يماثلن الحمام الوديع، أجل هكذا كانت- رضا- ذات بأس ودهاء واعتزاز يذل الجبابرة .

وكنا مجتمعين ذات ليلة، وعلى حين غرة صافحت أذاننا انغام حلوة، انغام تأخذ بالالجاب، انغام تشير في النفس اشتهاه شيء ما، يمكن للانسان ان يموت بعده، واذا عاش كان ملك الارض كلها. تلك كانت الموسيقى التي راحت تتأدى الى أسماعتنا. وكانت الانغام تقترب شيئا فشيئا. فجأة استطعنا ان نتيين على ضوء اللهب الجراد الذي يركبه عازف تلك الموسيقى. ولما اقترب منا امسك عن العزف وترجل عن جواده وراح ينظر الينا وهو يبتسم. لقد كان زويار نفسه. وكان شاربها الطويلان يتهدلان على كتفيه ويختلطان بشعر رأسه الاسود الكثيف المسترسل، وكانت عيناه كالنجوم المتلألئة، وكانت ابتسامته الرائعة شمسا

مضيئة. وقد بدا لعيوننا كأنه هو وجواده قد صبا في قالب واحد من الفولاذ .

وكانت اسنانه تلتصع عل ضوء اللهب. ولقد أحببته منذ تلك اللحظة أكثر مما أحب نفسي. وقالت له رضا: « انك تحسن العزف يا زوبار. فمن الذي صنع لك هذا الكمان الجميل؟ » وضعك زوبار وراح يقول: « أنا الذي صنع هذا الكمان. ولكني لم أصنعه من الخشب، وإنما نحته من ضلوع فتاة جميلة كنت أحبها حبا عظيما. أما أوتار الكمان فقد اتخذتها من نياط قلبها. » ولكن رضا اجابته بازدراء قائلة: لقد قيل لي أن زوبار رجل مستقيم وذكي. فما أعجب كذب الناس. ثم ابتعدت.

ومنذ تلك اللحظة وقع زوبار في هواها، فلأزمننا ولم يفارقنا لحظة واحدة، وكانت الحانة العذبة تأسر قلوبنا دائما، وتشير ذكرياتنا وتشجيتنا مرة، وتقلأ أرواحنا بمشاعر النعيم مرة أخرى. وكان يبلغ بنا الطرب، في أكثر الاحيان، حداً لو قال لنا معه ان نستل خناجرنا لفعلنا وخضنا معه المعركة التي يريدنا، ركشيرا ما كان ينأى عنا في ظلام الليل، ليظل وحده يعزف على كمانه ويناجي الارواح الهائمة ويبث لمجوم الليل هواه، ولكن رضا كانت دائما تسخر منه ومن الحانة ومن فنه الجميل بعبارات لاذعة، وكان هو يتحمل هذا كله صابرا. واراد ان يتزوجها وتقدم منها وهو يبشها هواه، فما كان منها الا أن القت تحت قدميه ما عرقل سيره والقاه على الارض واثار السخرية به. ونهض زوبار، وابتعد عنا وهو مطرق الرأس لا ينظر الى أحد، وتبعته أنا خفية لأرى ماذا عساه يفعل، ورأيتنه يجلس عند صخرة بارزة ويعتمد رأسه بين راحتيه. وبعد مدة أقبلت رضا يلقها ظلام الليل، واقتربت منه دون ان يحس بوجودها. ومست كشفه بيدها فرفع رأسه ورآها منتصبة أمامه، فاستل خنجره واستوى جالسا، ولكنها قالت له هازئة « دع هذا أو أحطم دماغك » وشاهدت في يدها مسدسا مصوباً نحوه. وترك خنجره وسمعتها تقول له « انتي لم آت لاقتلك. ولكني أتيت لأصالحك. »

وكان القمر في هذه اللحظة قد اراق ضوء الفضى فرأيتهما واقفين متقابلين
يحدث أحدهما في الآخر، وكأنهما رغم جمالهما الرائع وحشان مفترسان.
واستطردت رضا تقول: « لقد عرفت كثيرا من الفتيان الاشداء، ولكنك أجملهم
وأشجعهم. وكان كل منهم يود ان يقبل قدمي ولكن أحدا منهم لم يستطيع ان
يعرك في قلبي شيئا. انني لم احب أحدا حتى عرفتك فأجبتك، ولكني أحب
ايضا حريتي، وحبى حريتي أقوى في نفسي من حبى لك، وكلانا لا يستطيع ان
يعيش بدون الآخر. واريدك ان تكون لي روحا وجسدا فلا تضع وقتك وافعل ما
اريدك منك لسفدر قبلائي لك وحدك، وسوف تنسى معي حياتك وانغامك
واغنياتك، ولن تغني الا لي وحدي. ستأتي غدا أمام الجميع وتتقدم مني بكل
خشوع ثم تنحني امامي وتقبل يدي اليمنى. وعندئذ أغدو زوجتك. »

وانتفض زوبار وأرسل من حنجرته صيحة مدوية، وارتعشت رضا قليلا
ولكنها تمالكت نفسها وقالت له: « الى اللقاء. وسوف تفعل غدا ما طلبته منك،
ليس كذلك؟ » وأجابها هو بصوت مرتعش: « أجل . سأفعل. » وابتعدت هي
وتهاوى هو على الثرى يضحك ويبكي ويهذي هذيان المسموم. ورجعت أنا الى
المخيم وحدثت الجماعة بما رأيت، واتفقنا على أن ننتظر ما سوف يقع، وفي مساء
اليوم الثاني، وفيما كنا متحلقين حول النار، أقبل زوبار، وقد بدا عليه كأنه وهن
وهزل وغارت عيناه. ووقف قريبا راح يقول: « أيها الرفاق ان رضا قد تملك
قلبي. انها هنا. وهي تبسم الآن كأنها ملكة نادرة الحسن. وهي تحب حريتها
أكثر مما تحبني، أما أنا فاني أحبها أكثر مما أحب حريتي.

ولقد اعترمت ان أنحني على قدميها. ولقد أمرتني هي بهذا لكي لا يبقى
أحد يجهل الى أي حد طفى حسها على قلب زوبار الشجاع. وقد وعدت أن
تتزوجني اذا فعلت هذا. وسوف تغمرني بقبلايتها وتلا قلبي بعبها الى حد لا
أعود معه أغني وأعزف الا لها وحدها. ولا أفكر بحريتي الضائعة الى الابد.

اليس كذلك يا رضا؟»

ورفع رأسه، ونظر إليها، ولم تنبس هي بكلمة واحدة بل حنت رأسها قليلا، وقد بانت القسوة الضاربة في عينيها، ثم أشارت له أن يتقدم وينحني عند قدميها. وكنا نحن ننظر دون أن نفهم شيئا. وكان ما سمعناه قد أثار سخطنا وخجلنا. وكنا لا نريد أن نراه ينحني على قدميها ابدا.

وفي طرفة عين كان زوبار قد وثب نحو رضا وأغمد خنجره المعقوف في صدرها حتى مقبضه، وأذهلنا ما حدث فلم ندر ماذا نفعل، وانتزعت رضا الخنجر من صدرها وألقته جانبا وراحت تمسح الجرح العميق بذوائب شعرها الطويل، ثم ابتمست وقالت بصوت مرتفع: «وداعا يا زوبار، كنت أعلم أنك ستفعل هذا» ثم لفظت نفسها الاخير.

وهتف زوبار بصوت قوي: «سأمرغ رأسي عند قدميك يا ميلكتي المتكبرة» وألقى بنفسه على الارض، وقيل قدميها، ثم ألصق شفثيه ببحرها، وبقينا نحن صامتين وقد حسرنا عن رؤوسنا، لا ندرك ما يجب أن نفعله.

وتقدم «دانيلو» والد رضا، تقدم ببطء، وتناول الخنجر الملقى على الارض وتفحصه طويلا، وتراقص شارباه ثم اقترب من زوبار وأغمد الخنجر في ظهره من جهة القلب والتفت زوبار نحوه وقال «حسنا فعلت» ثم مات. وبقينا نحن واقفين نفكر في حين كانت كتفا الشيخ دانيلو ترتعشان وجسده يرتعد، أما «نور» وهو أحد رفاقنا فقد ارتقى على الارض يبكي بحرقه ولوعة.

وأنهى ماكار حديثه في حين كان المطر قد أخذ يهطل، ويتصاعد من البحر هدير كأنه لحن حزين فاجع على زوبار وجيبته رضا ابنة الشيخ دانيلو. أما أنا فقد كنت أفكر فيما قاله ماكار، واردد هامسا: «انهم يشبهن الافاعي، بل هن الافاعي ذاتها...»

غبي دى مويسان (فرنسا)

المغار

كانت أرملة «باولو سافريني» تقطن مع ابنها دارا صغيرة بائسة فوق أسوار «بونيفاسيو»، المدينة القائمة على ناحية مشرفة من الجبل، حتى لتبدو من بعض جهاتها معلقة فوق البحر ومظلة من فوق المضيق المحفوف بالصخور على الشاطئ، الأكثر انخفاضاً جزيرة «سردينيا». وعند أقدام المدينة - من الناحية الأخرى - يمتد صدع صخري كبير أشبه ما يكون بممر هائل لا يلبث أن يستدير حتى ليكاد يطوق المدينة. انه بمثابة مرفأ لها يقود مراكب الصيد الإيطالية الصغيرة، أو التي تخص سكان «سردينيا»، حتى مشارف البيوت الأولى من المدينة بعد دورة طويلة بين جدارين من المنحدرات. وكل خمسة عشر يوماً تلوذ بهذا المرفأ كذلك السفينة البخارية العتيقة المبهورة الانفاس التي تقوم بمهمتها بين المدينة وجزيرة «أجاكسو». ان البيوت البيضاء المحتشدة فوق الجبل الأبيض تزيد هذا اللون قوة وبروزاً، وتبدو كأنها أعشاش لطيور متوحشة، جارحة، وهي معلقة هكذا فوق الصخرة المشرفة على اقتحامه.

ان الريح هناك لا تنفك توهن الشاطئ، الاجرد دون ونا، وتنخر فيه نخرا، فلا تترك فوقه غير بعض العشب الهزيل، ثم لا تفتأ تقتحم المضيق وتجتاحه مكتسحة امامها ضفتيه اللتين. وتعلق العين من بعيد ببقايا الزيد الشاحب وقد تعلقت برؤوس الصخور السوداء التي لا عداد لها، والتي تنفذ بقوة من بين الامواج فتلوح هاتيك البقايا وكأنها مزق من مجوم تطفو وتختلج فوق صفحة

الماء.

وكانت دار الارملة ملاصقة لحافة الجبل المشرف على البحر، تطل نوافذها الثلاث على ذلك المرفأ الموحش الكثيب. كانت تعيش ثمة متوحدة الا من ابنها الشاب «انطوان» وكلبتهما «سيميان» العجفاء ذات الوريد المستطيل القاسي، وهي من فصيلة الكلاب التي تقوم على حراسة الماشية. وقد كان الشاب يستخدمهما في الصيد والقنص.

وذاوات مساء وبعد شجار عنيف قتل «انطوان سافريني» غيلة بطعنة من سكين، وكان الذي اغتاله هو «نيقولا رافوتي» الذي فر في الليلة نفسها الى الجزيرة سردينيا.

ولما حملت جثة الشاب الى امه العجوز لم تبك وانما لبثت مدة طويلة لا تأتي بحركة ولا تنفك تأمله وقد بسطت يدها المعروقة فوق جثته، حيث أقسمت أن تشار له. وقد أبته ان يبقى معها أحد. فغلقت الابواب ومكثت هي والكلية بجانب جثة ولدها. وكانت الكلية تنبح نباحا متواصلا، وقد وقفت عند اسفل السرير ومدت رأسها نحو سيدها وشدت ذنبها بين رجليها. ولم تكن تتحرك، شأنها في ذلك شأن الأم التي انحنى فوق ولدها محدقة في جثته، بينما كانت دموعها الغزيرة الحمرساء تسح على خديها.

وكان الشاب يبدو كأنه نائم متمدد على ظهره، وقد اخترق النصل الحاد سترته ومزقها من ناحية الصدر. وكان الدم قد لوثه في كل ناحية، فقميصه وصديرتة ووجهه ويداؤه ملطخة كلها بالدماء. كما تجددت بقع من الدم في لحيته وشعره جميعا.

وطفقت الام العجوز تحدثه، فأمسكت الكلية عن نباحها عندما سمعت الام تقول «مأثار لك يا صغيري، يا فتاي العزيز، يا ولدي المسكين، نم أجل نم،

فلسوف أثار لك، أسمع أنت؟ انها الام هي التي تعدك بذلك، وما حثت يوما
بوعدها.. انها الأم.. وانت تعرف ذلك جيدا..»

وعلى مهل انحنت نحوه وألصقت شفثيها الباردتين على شفثيه المانتيتين.
وعادت الكلبة عندئذ تنن، ثم أرسلت نباحا مرجعا طويلا عمزقا، رهيبا.. وليشت
الاثنان، الام والكلبة، على هذا النحو حتى مطلع الصبح. ودفن انطوان سافرنيني
في الغداة، ولم يعد أحد بعد ذلك يذكره على الاطلاق.

ولم يكن لانطوان أخ أو قريب، لم يكن ثمة أي رجل يأخذ على عاتقه
الانتقام له. ان الأم وحدها هي التي كانت تفخر بذلك. وكانت صباح مساء
تشاهد من الناحية الاخرى من المضيق بقعة بيضاء تبدو على الشاطئ البعيد.
انها قرية صغيرة اسمها «لونفوساردو» من قرى جزيرة سردينيا يلجأ اليها
اللصوص والفتاك الكورسيكيون المطاردون. وهؤلاء وحدهم على وجه التقريب
يعمرون تلك الضيقة المواجهة لشواطئ بلادهم، حيث ينتظرون فرصة العودة اليها
والرجوع الى ادغالها. وهي تعلم ان نيقولا رافولاتي قاتل ولدها قد لاذ بهذه
القرية نفسها. وكانت لا تنفك طيلة يومها ترسل بصرها من النافذة الى حيث
تجثم القرية وتديم التفكير بالثأر، وماذا عساها تفعل وهي المرأة العاجزة الموشكة
على الموت التي لا سند لها من احد، الا انها قطعت عهدا بالثأر لولدها وأقسمت
على جثته. وهي لا تستطيع ان تنسى ولا يسعها ان تنظر. فماذا عساها تفعل؟
لم تعد تنام الليل ولم تعد تجد سبيلا الى الراحة والطمأنينة. كانت تفكر وتبحث
في عناد واصرار. وكانت الكلبة تهوم راقدة عند قدميها، وفي بعض الاحيان
ترفع رأسها وتنبح نحو شيء بعيد. ومنذ اليوم الذي مات فيه سيدها ما برحت
تعوي هكذا أغلب الاحيان. كأنما تناديه وكأنما روحها البهيمية التي لا تجد سببا
الى العزاء لا تزال محتفظ بذكرى غالبية لا يمحوها شيء.

وذات مساء فيما أخذت الكلبة تنن وتنوح، طرأت للأم على حين غرة فكرة

وحشية غلابة ضاربة، وراحت تنعم التأمل في هذه الفكرة حتى الصباح، ثم نهضت ومحاملت على نفسها وذهبت الى الكنيسة، وركعت على البلاط وطفقت تصلي خاشعة القلب أمام الله تسأله ان يعينها ويأخذ بناصرها ويهب جسدها الفاني القوة الضرورية لكي تستطيع ان تثار لولدها ثم عادت الى دارها.

وقد كان في باحة الدار يرميل فقلبته وأفرغت ما فيه ونظفته ثم ركزته على الارض ببعض الحجارة وربطت كلبتها «سيميانث» الى هذا الجدار، وأوت الى غرفتها وراحت تنتقل فيها دون ان تكل، وعينها مصوبة دائما الى الشاطئ، «سردينيا» ان القاتل النذل. يتبع هناك..

وعرت الكلبة طيلة الليل والنهار وحملت اليها العجوز في الصباح ماء في وعاء، لا شيء غير الماء. اجل لا شيء من خبز او حساء.. ومضى النهار ونامت الكلبة منهوكة جوعى، وفي اليوم الثاني كانت عينها تبرقان وقد انتفش شعرها واخذت تحاول عبثا الافلات من قيدها. ولم تقدم لها العجوز شيئا تأكله، وجن جنون الكلبة وراحت تعوي بصوت أجش مخيف وانقضى الليل أيضا. وفي الصباح جمعت العجوز بعض القش والتبن من جيرانها، وجاءت ببعض ملابس زوجها القديمة وحشتها تبنًا وقشا لتصنع منها ما يشبه شكل الانسان، ثم غرزت عصا في الارض أمام وجار الكلبة، وربطت اليها هذا الشخص المصنوع من القش والتبن، فبدا كأنه واقف، ثم سوت له رأسا من بعض الخرق القديمة، وقد دهشت الكلبة اذ رأت هذا الرجل المصنوع من التبن وامسكت عن العواء رغم الجوع الذي يفري أمعائها.

وعندئذ غدت العجوز الى القصاب واشترت معيا اسود محشوا باللحم ثم عادت الى دارها وأوقدت نارا قريبا من وجه الكلبة وشوت المعى، وثار الكلبة وعصف بها جنون الجوع وعلا الزيد شفيتها وراحت تشب بعنف وقد علقت عينها بالمعوى المشوي الذي تصاعد رائحته وتقلأ خياشيمها وتدخل معدتها.. وحملت

العجوز المعى المحشو وادارته حول عنق الشخص المصنوع من التبن وثبته قويا متينا. وبعد ان فرغت من هذا أطلقت الكلبة، ويقفزة هائلة كانت الكلبة قد وصلت الى اكتاف هذا الشخص وسرعان ما انشبت مخالبيها في عنقه وراحت تمزقها تمزيقا، ثم سقطت وفي فمها قطعة من اللحم ثم انطلقت صوب الشخص من جديد وغرزت مخالبيها في العنق وانتزعت قطعة اخرى، وعادت السقوط والثوب بقوة وعنف حتى مزقت الوجه والعنق جميعا. وكانت العجوز تشاهد هذا كله ساكنة صامتة متقدمة النظرة. ثم عادت واثقت رباط الكلبة، وجوعتها من جديد مدة يومين واعادت التجربة السابقة كرة اخرى. ولقد عودت العجوز كلبتها هذا الضرب من الصراع ثلاثة شهور كاملة. وبعد هذا لم تعد بحاجة الى ربطها، وكانت اشارة واحدة منها تكفي لتنطلق الكلبة واثبة على الشخص المصنوع من التبن، وأصبحت كلما شاهدت هذا الشخص تعروها ارتعاشة حادة فتدير عينيها الى سيدتها فتصيح بها قائلة بصوت كالصغير وهي توميء بأصبعها: «عليك به»

ولما رأت العجوز ان الوقت قد حان غدت في صباح يوم من ايام الأحاد الى الكنيسة فاعترفت للكهان وتناولت القربان في خشوع وذهول، وعادت الى بيتها فارتدت زي رجل عجوز رث الشيا وبسارت هي وكلبتها بصحبة صياد من سردينيا اوصلهما الى الناحية الاخرى من المضيق، وكانت قد حملت في كيس معها قطعة كبيرة من المعى المحشو بلحم الخنزير وجعلت طيلة الطريق تثير كلبتها الجائعة منذ يومين برائحة هذا المعى المثير.

ودخلت هي والكلبة ضيعة «لونغوساردو» وراحت هذه المرأة «الكورسيكية» تسير في طرقات القرية وهي تتطلع، ثم سألت خبازا عن مسكن «نيقولا رفولاتي» وكان هذا قد عاد يزاول مهنته كنجار ويعمل وحيدا في دكانه. ودفعت العجوز الباب ونادته «هيه.. نقولا». ولم يكذ يستدير ليرى من يناديه حتى

كانت العجوز قد اطلقت كلبتها وهي تصرخ: «عليك به.. عليك به.. افترسيه.. افترسيه..»

وثار جنون الكلبة وانطلقت صوب الرجل وامسكت بعنقه ومد الرجل ذراعيه وضمهما على الكلبة وتدحرج على الارض ثم راح يتلوى وهو يضرب الارض بقدميه ثم سكنت حركته في حين كانت الكلبة تحفر عنقه حفرا بمخالبها حتى احالتها مزقا مبعثرة.

لقد ذكر اثنان من الجيران فيما بعد انهما شاهدا رجلا عجوزا مسكينا، يخرج من الدكان ومعه كلب اسود اللون اعجب الشكل يأكل في الطريق شيئا أسود كان يعطيه اياه صاحبه.

وعادت العجوز مساء الى دارها ونامت في تلك الليلة نوما عميقا مريحا..

غى دي موبسان (فرنسا)

« أب وابنته »

دخل نزلاء الفندق القاعة الكبيرة وجلسوا في اماكنهم وشرح الخدم يقدمون الطعام ببطء ليتسنى للمتأخرين ان يأتوا فلا يحتاج الخدم ان يقدموا الاطباق نفسها مرة أخرى.

وكان القدماء من الوافدين على الفندق، أولئك الذين اعتادوا الإقامة فيه طيلة فصل الاستشفاء بالمياه المعدنية من كل سنة، ينظرون باهتمام الى الباب كلما فتح، وهم متلهفون ان يروا وجوها جديدة غير التي ألفوا رؤيتها.

واذن كنا في ذلك المساء، شأننا في كل الامسيات السابقة، ننتظر دخول اشخاص مجهولين، ولم يدخل غير اثنين غربيي المظهر: رجل وامرأة، أب وابنته. وكان يبدو عليهما ضرب من السحر والروعة البائسة. ورحت انا أتصورهما وكأنهما من ضحايا القدر والمصير المشؤوم. كان الرجل فارغ القامة، مهزولا منحنى الظهر قليلا، وقد شاب شعره كله، وان كان محبباً يدل على ان هذا الشيب كان جد مبكر، غير ان ملامحه كانت تنطق بالوقار وكان مظهره يدل على طبع صارم في السلوك والتصرف. وكانت ابنته قمينة، ضامرة، شاحبة الوجه، تلوح وكأنها واهنة مرهقة. ونحن كثيرا ما نصادف اشخاصا يبدوون ضعافا واهنين حيال ضرورات الحياة ومهامها، وهم أشد ضعفا من ان يجدوا الى الحركة سبيلا والى السير متجها رالى ما نقرم به من عمل كل يوم منفذا. وكانت الفتاة جميلة

الى حد ما. وكان جمالها شاحبا، شفافا، وكانت تتناول طعامها ببطء كأنما هي عاجزة عن تحريك يديها.

انها هي، دون ريب، التي جيء بها لتستشفى بالمياه المعدنية. وقد كانا جالسين أمامي في الناحية الاخرى من المائدة. وعلى الفور لاحظت ان الاب مصاب بحركة تشنج عصبية جد غريبة، فقد كانت يده كلما اراد ان يتناول شيئا من الاشياء تنقبض أصابعها بسرعة على هيئة كلاب، ثم تعروها ارتجاجات متتالية الى يمين ويسار قبل ان تصل الى الشيء الذي تطلبه. وبعد لحظات اتعني النظر الى تلك الحركة فأدرت وجهي لكي لا اراها، وكان مما لاحظته ايضا ان الفتاة كانت تخفي، وهي تتناول طعامها، يدها اليسرى، طي قفاز.

وبعد تناول طعام العشاء نهضت لكي أقوم بجولة في حديقة العمارة المخصصة للاستشفاء بالمياه المعدنية، وكان مركز الاستشفاء هذا يقع عند مضيق في قاع جبل عال تنحدر منه الى الينابيع مياه فائرة آتية من أغوار البراكين القديمة، وكنا نرى من فوقنا قمم تلك البراكين الشامخة برؤوسها فوق القمم العالية.

كان الحر شديدا في تلك الامسية، وكنت أسير في ذلك الممر الظليل وانا أصغي من فوق التل الصغير الذي يحيط بالحديقة الى موسيقى الملهى القريب وأغانيه الحلوة، ثم شاهدت الاب وابنته مقبلين بخطى وثيدة. وقد حييتهما كما يحيي الانسان زملاء النزلاء في فنادق مدن الاستشفاء، ووقف الرجل بعد هذا وراح يسألني:

- ألا تستطيع يا سيدي أن تدلنا على مكان جميل وغير متعب لنزهة قصيرة؟ وأرجو أن تعذرني اذا تطلعت عليك.

وعرضت عليهما ان اذهب بهما الى واد يسيل فيه جدول ماء، انه واد

سحيق، وفيه مضيق بين منحدرين كبيرين من صخور وأشجار، فقبلا وسارا معي ورحنا نتحدث عن مزايا المياه المعدنية. وقال الرجل:

ان ابنتي مصابة بمرض غريب، لا يعرف مستقره، انها تشكو من حالات عصبية غير مفهومة. وقد ظننا الاطباء مصابة بمرض في القلب مرة، وبعدة في الكبد مرة أخرى، ومرة ثالثة بمرض في العمود الفقري. ويقولون اليوم ان علتها في معدتها، هذا هو سبب وجودنا هنا يا سيدي. أما انا فاني أرجح انها مصابة بأعصابها. وعلى أي حال فانه لأمر محزن حقا.

وعلى حين غرة تذكرت حركة يده هو، تلك الحركة الغريبة التي وصفتها، وقلت أسأله:

- أليس مرضها وراثية؟ وأنت، ألا تشكو من أعصابك؟ يا سيدي؟ واجاب بهدوء:

- أنا؟ ابدأ.. لقد كنت دائما ذا أعصاب متينة.

ثم عاد يقول فجأة بعد سكوت قصير:

- أأعلك تشير الى حركة يدي وهي تشننج كلما هممت بتناول شيء ما؟ ان سبب ذلك انفعال فظيع عانيته. تصور ان هذه الفتاة كانت قد دفنت حية وأخذني العجب والتأثر، وتابع الرجل حديثه:

- هذه هي القصة. انها بسيطة. لقد كانت ابنتي «جوليت» مصابة باضطراب في قلبها. وكنا نعتقد بأن علة قلبها قد تؤدي بها في أية لحظة.

و ذات يوم سقطت على أرض الحديقة، وقد حملت الينا باردة الاطراف لا تند عنها حركة كأنها جثة هامدة. وفحصها الطبيب وأكد أنها توفيت، وقد قضيت

الى جانب جثتها يوما وليلتين ووضعتها بنفسي في الثابت ورافقتها حتى قبرها حيث دفنت في قبو العائلة بقصرنا الريفي في منطقة «اللورين». وقد أبيت الا أن تدفن معها حليها من عقود وأساور وخواتم، وجميع الهدايا التي كنت قدمتها اليها.

وتستطيع أن تتصور حالي ومبلغ حزني وأسى روحي وقلبي لدى عودتي من تشييع جثمانها. لم يكن لي احد غيرها بعد أن توفيت زوجي منذ أمد بعيد. عدت اذن وحيدا، شبه مجنون، منهوك القوى ودخلت غرفتي وتهاوت على مقعدي لا أفكر ولا أقوى على حركة، لقد كنت آلة صماء للحزن والالم، وكأننا قد سلخ أديم جسدي، وأضحت روحي أشبه ما تكون بجرح عميق قطيع.

وأتى خادمي «بروسبير»، انه خادم قديم، وكان قد ساعدني في وضع جولييت في مرقدها الاخير وفي تزيينها بحليها. دخل دون نأمة وقال:

هل يريد سيدي أن يتناول شيئا ما؟

فأشرت برأسي بأنني لا أريد أي شيء.

وعاد هو يقول:

- ولكن سيدي مخطيء. سيصاب بما لا محمد عقباه. هل يريد سيدي أن أضعه في سريره؟

وقلت:

- كلا ودعني وشأني.

وعندئذ غادر الغرفة.

كم ساعة انقضت بعد ذلك؟ لا أدري. يا لها من ليلة ليلاء! كان الجو باردا وقد انطفأت النار في الموقد الكبير وكانت الريح، ريحاً كثيبة رتيبة.

كم ساعة انقضت؟ لقد كنت ثمة ساهرا لا أنام، كنت واهن القوى، متخاذل الأعضاء، متزايل العزم، مفتوح العينين، ممدود الساقين ذاهل الفكر من شدة اليأس.

وعلى حين غرة قرع جرس الباب الخارجي، الجرس الكبير المعلق عند مدخل القصر، ولقد انتفضت بشدة حتى قضقض الكرسي لمحتني. كان رنين الجرس يتموج رهيبا، ثقيلا في أرجاء القصر الخالي. والتفت لكي أرى الوقت في ساعة الحائط. فإذا هو الثانية بعد منتصف الليل. من عسى يمكن ان يأتي في مثل تلك الساعة؟

وفجأة قرع الجرس من جديد مرتين متتاليتين. لا شك في أن الخدم لم يكونوا ليجرؤوا على النهوض، فتناولت شمعة ونزلت وكدت أسأله من الطارق؟ ولكنني خجلت ان أبوء ضعيفا، خائفا، وبهدوء أخذت أعالج فتح الباب بفتة قرأت في العتمة شكلا أبيض مذهبا، شيئا كأنما هو شبح، وتراجعت وقد قلقلني قلق عظيم ورحت أقمم قائلا:

- من... من.. من انت؟

وسمعت صوتا يقول: أنا...

وكانت ابنتي هي التي تتكلم.

- وحسبتي مجنونا ولا ريب، وأخذت أرجع القهقري أمام ذلك الطيف الوافد.. كنت أرجع القهقري وأنا أشير إليها بيدي كأنما أريد ان اطردها، وأني بثلك الحركة التي رأيتها انت منذ قليل. هذه الحركة لم تفارقني بعد ذلك قط.

وعاد الشبح يقول: «لا تخف يا والدي.. انني لم أمت. ولقد جاء من أراد أن يسرق بعض الحلوى من خواتمي فقطع اصبعي وسال الدم فأعادني هذا الى الحياة.»

- وفي الواقع رأيتها مضرجة بالدم. عندئذ تهاوت راكمها وأنا أبكي وانتحب وأكاد أختنق.

ثم، وبعد ان عدت قليلا الى وعيي وانا لا اكاد اصدق، من شدة ما انتابني من ذهول، مبلغ سعادتي الغامرة، أخذت بيدها وصعدت بها الى غرفتي وأجلستها في مقعدي وقرعت الجرس أنادي خادمي «بروسبير» لكي يوقد النار، وبعد شربا ساخنا ويحضر طبيبا. وجاء بروسبير، وما كادت عيناه تقعان على ابنتي حتى فغر فاه وانتفض من الذعر والهول ثم وقع جثة هامدة على الارض وقد فارق الحياة!

لقد كان هو الذي فتح القبر الذي دفنت فيه جوليت، هو الذي قطع اصبعها وتركها. انه ما كان ليستطيع ان يحو أثر فعلته. ولقد نسي حتى أن يعيد التابوت الى موضعه واثقا من اني لن أشتبه به بسبب ثقتي التامة التي اوليته اياها.

انك لترى يا سيدي اننا نعساء حقا.

وأمسك الرجل عن الكلام، وكان الليل قد أرخى سدوله فاكتشفت الرادي الموحش الحزين، وقد تملكني خوف غامض اعتصر قلبي حيال هذين المخلوقين الغريبين: هذه الفتاة التي ماتت ثم ردت الى الحياة، وهذا الاب صاحب تلك الحركة المرعبة. ولم اجد ما أقوله غير ان أهمس «يا لها من قصة رهيبة»

ثم عدت أقول بعد هنيهة: حبذا ان نعود، فان الجو مشبع بالرطوبة هنا فيما يبدو لي.. واخذنا نعود ادراجنا الى الفندق صامتين..

غني دي مويسان (فرنسا)

الحطبة المحترقة

كانت غرفة الاستقبال صغيرة ومزدانة بالسجف والابسطة الفاخرة، ينبعث منها أريج خفي. وكانت النار تتضرم في موقدها الكبير، في حين كان مصباح وحيد موضوع فوق وكن الموقد بغمر الشخصين اللذين يتحدثان بنوره اللطيف، وقد أحاطت به ظلة من المخمرات القديمة. وكانت هي - سيدة البيت - امرأة عجوزا ذات شعر أشيب، ولكنها من هاتيك العجائز المعبودات اللواتي خلاها بهن من التجاعيد، فغدا أملس. ناعما كأنه من الورق الناصع الرقيق.. لقد كانت تنفخ طيبا حتى من اخفى انحاء بدننها لطول ما تعطرت بأئمن العطور وأرقها وأصفها. وانك لا تقبل يدها الا ويشب اليك منه هذا الأريج الذي تجد مثله في علية «البودة» المصنوعة من سوسن فلورنسا.. وكان هو صديقا من أصدقاء الماضي بقي دون زواج، كان صديق كل وقت، ورفيق رحلة الحياة ولا شيء غير هذا.. وكانا قد أمسكا عن الحديث منذ نحو دقيقة، وجعلا يحدقان في لهب النار، ويحلمان مستغرقين في هذا الصمت الذي يعرفه أولئك الذين لا يحتاجون الى الحديث المستمر لكي يحظى بعضهم بأعجاب البعض الآخر.

وعلى حين غرة انهارت حطبة كبيرة.. أرومة ذات جذور عالقة بها، وقد اشتعلت فيها النار اياما اشتعال.. وقفزت خارج مسند الحطب في الموقد، وانقذفت في غرفة الاستقبال، وراحت تتدحرج فوق السجاد وهي تشظى شررا ونارا. ارسلت المرأة العجوز صيحة صغيرة، ونهضت كأنها تريد أن تهرب، في حين كان

هو يعيد الحطبة الكبيرة المتضرمة الى الموقد بضربات من جزمته، ويظفيء بنعله
الجمر المتوقد المنتشر في أرجاء الحجرة.

ولما انتهى إصلاح كل شيء، انتشرت في الجو رائحة الاشياء المحترقة. وعاد
هو فاتخذ مقعده قبالة صديقه العجوز، وراح ينظر اليها ويبتسم، ثم قال مشيراً
الى الحطبة التي عادت فاستقرت في موقدها:

-.. وكان هذا هو سبب امتناعي عن الزواج اطلاقاً!

وتأملته هي، مندهشة، بعين المرأة التي تريد ان تعرف كل شيء.. هذه العين
التي خصت بها النساء اللواتي ولى شبابهن او كاد، انها نظرة متطلعة باتزان.
نظرة معقدة، وأغلب ما تكون مأكرة، وسألته؟

- وكيف كان ذلك؟

فقال:

- اوه! انها قصة محزنة.. وبشعة... .

ثم مضى في حديثه يقول: «ما أكثر ما كان أصدقائي القدامى يعجبون لهذا
الجفاء المفاجيء الذي حل بيني وبين واحد من أعز أصدقائي يدعى «جوليان»
وكان اولئك الاصدقاء لا يدركون قط كيف ان صديقين- مثلي ومثله- خالصي
الصداقة لا يكادان يفترقان قط: أمكن أن يغدوا، بين عشية وضحاها،
متباعدين، ينكر احدهما الآخر.. واليك الآن يا سيدتي سر هذه الجفوة: كنا، هو
وانا، نقيم معاً، وكنا لا نفترق أبداً، وكانت الصداقة التي تربط بيننا تبدو من
القوة بحيث لن يستطيع شيء من الاشياء ان يفصم عراها... .

وعاد، ذات مساء، فأنبأني بزواجه. وأحسست كأن هذا النبأ طعنة وجهت

الى صدري.. شعرت كأنه قد سرقني أو خانتني وغدر بي.. ان الصديق اذا ما تزوج فقد انتهى الأمر.. انتهى قاما.. ان حب المرأة، حبها الغيور، القلق، المتوجس، الشهوي، لا يقبل ابدا العلاقة القوية، الصريحة، علاقة العقل والقلب والثقة التي تقوم بين صديقين من الرجال.

وأنت تدركين، يا سيدتي، انه كائناً ما يكون الحب الذي يربط بين الرجل والمرأة فانهما يظلان دائماً غريبين الروح والعقل وما اشبههما بقوتين متحاريتين.. لانهما مختلفان جنسا ونوعا.. وابدأ يجب ان يكون ثمة الرائض والمروض.. والسيد والعبد.. فحينما يكون هو السيد وهي جاريته.. وحينما يكون هو عبد رق لها وتكون هي سيدته. ولكنهما لا يكونان ابداً تدين متساويين. وان ايديهما لتعتنق وتتضاغط وترتعش من حرارة الشوق، ولكن هذه الايدي لا يضم بعضها بعضاً قط بهذه القوة الصريحة، الصادقة، المبرأة من الغرض، التي تفتح القلوب وتحررها، في اندفاع الرجولة وصفاتها ومودتها الخالصة. والحكيم الحكيم من الرجال هو الذي لا يتزوج ولا ينجب ابناء يتخلون عنه في شيخوخته، وانما يتخذ له صديقاً طيباً، قوي الصداقة، فيشيخان معا في اتحاد فكري لا وجود له الا بين رجلين اثنين.. وأخيراً فقد تزوج صديقي جوليان، وكانت زوجته جميلة، فانتة، وكانت شقراء، ذات شعر أجعد، كثيرة الحيوية، ممتلئة البدن، ويبدو عليها أنها تحبه الى حد العبادة.

وفي بادئ الامر كنت قليل التردد عليهما، وأخشى ان أضايقهما، وأحس أن وجودي فضول في حياتهما، ومع ذلك فقد كان يبدو انهما يريدان اجتذابي، واستبقائي معهما، وأنهما يحباني حقاً.. وتركت نفسي تدور، شيئاً فشيئاً، في فلك هذا السحر الذي تتميز به حياتهما المشتركة.. وكنت كثيراً ما اتناول طعام العشاء في بيتهما. جعلت أفكر أن أفضل ما أفعله هو أن اتزوج، وقد شعرت أن بيتي الخاوي قد أصبح، من بعد، كنيي، مرنسا..

وكانا، هما، يبدوان وقد أغرم أحدهما بالآخر فلا يفترقان أبدا... وحدث ذات مساء أن جوليان كتب الي يدعوني لتناول العشاء، فذهبت، فقال لي:

- اسمع يا صديقي. لقد طرأ من الاعمال ما اوجب ان اتغيب بعد انتهاء تناول طعام العشاء، ولن أعود قبل الساعة الحادية عشرة.. غير انني في تمام الحادية عشرة سأرجع حتما، لهذا فاني اعتمد عليك في ان تجالس زوجتي «برت» حتى أعود..

وابتسمت هي وقالت:

- كنت أنا التي خطر لها ذلك.. وأخذت يدها وضغطتها وقلت لها:

- ما أعذب لطفك يا سيدتي.. وأحسست على أصابع يدي ضغطة طويلة، ولكنني لم أعرها التفاتا، وجلسنا الى مائدة الطعام، وفي الساعة الثامنة تركنا جوليان ومضى.

وما كاد يذهب حتى شعرت بالضيق يحل فجأة بيني وبين زوجته.. فما حدث من قبل ان خلا أحدنا بالآخر، وعلى الرغم من المودة التي كانت تنمو بيننا يوما بعد يوم، فان هذه الخلوة وضعتنا في موقف جديد.. ولحدثت في أول الامر عن أشياء مبهمه، أشياء تافهة يملأ بها المتحدثون اوقات الصمت المريك.. ولم تجب هي بشيء، وبقيت أمامي، من الناحية الاخرى لموقد النار، وقد خففت رأسها، وسرحت نظرتها ومدت احدى قدميها نحو لهب النار، كأنها سادرة في تأمل طويل عسير. وقد لزمنا الصمت بعد ان فرغت الافكار القليلة المبتذلة التي دفعتني الى الحديث.

ويا للعجب.. ما أشق أن نجد أسبابا للحديث في بعض الاحيان.. ثم ما لبثت أن أحسست بشيء جديد في الجو، أحسست بما لا يرى.. بما لا يمكن

التعبير عنه.. انه نذير خفي يحذرنا ان نحترس من النوايا الغامضة التي يكنها شخص آخر لنا، طيبة كانت هذه النوايا أو سيئة.. دام هذا الصمت الثقيل بعض الوقت، ثم قالت «برت»:

- ضع حطبة في النار يا صديقي، الممت تراها توشك أن تنطفئ؟

وفتحت صندوق الحطب الموضوع ثمة كهذا الصندوق هنا، وتناولت أكبر أرومة فوضعتها بشكل هرمي فوق قطع الحطب الاخرى التي أوشكت ان تحترق كلها. وخيم الصمت من جديد . وبعد دقائق اشتعلت الحطبة الكبيرة اشتعالا لفع وجهينا بلهبه.. ورفعت المرأة الشابة عينيها الي، عينيها اللتين لاح لي انهما غريبتان حقا، ثم قالت:

- لقد اشتد الدفء الآن .. فلنذهب هناك.. الى تلك الاربكة الاخرى الكبيرة. وانتقلنا الى الاربكة الكبيرة وعلى حين غرة قالت وهي تحدق في وجهي:

- ماذا تراك تفعل لو ان امرأة قالت لك انها تحبك؟

وأجبت كالمشدوه:

- انها .. والله.. حالة لم اتوقعها.. ثم إن هذا يتوقف على المرأة نفسها

وعندئذ جعلت تضحك ضحكا جافا، عصبيا، راعشا، هو هذا الضحك الكاذب الذي كأنما يريد أن يعظم أدق الزواج وأرقه. ثم اردفت تقول:

- ما كان الرجال يذوي جرأة ابدا.. وما هم بمأكرين.

وسكنت لحظة، أحيانا يا سيد «بول»؟

واعترفت قائلًا:

- أجل.. لقد أحببت أحيانا فقالت:

- حدثني اذن بهذا الحب. فرويت لها قصة ما، وكانت هي تصفي الي جيدا، وتبدي ملاحظات فيها الازدراء حيناً، وعدم الموافقة حيناً آخر. ثم قالت فجأة:- كلا. انك لا تفهم شيئاً في الحب.. انه لكي يكون الحب صحيحاً، يجب- فيما يبدو لي- أن يهز القلب، ان يكون شديداً، عاصفاً، وان يمزق الاعصاب ويحتاج العقل، يجب ان يكون خطراً، بل هائلاً، وقريباً من الجريمة.. يجب أن يحطم المقدسات.. ان يكون ضرباً من الخيانة.. أعني ان الحب بحاجة إلى ان يحطم ما يقوم في سبيله من مقدسات.. ومن شرائع.. ومن روابط اخوية.. وأما حين يكون الحب هادئاً، ساكناً، سهلاً يسيراً.. شرعياً دون أخطار تحف به... فهل يكون حياً؟..

ولم أدر بما أجيب.. وقلت في نفسي: «يا لعقل المرأة.. ها هو ذا عقلها اذن..» وكانت وهي تتحدث قد اتخذت هيئة من لا يهم ومن يخفي رذائله تحت ستار التقوى المصطنعة ثم تمددت، وهي مستندة الى الوسائد، وعادت فاضطجعت برأسها الى كتفي، وانحسر فستانها قليلاً عن ساقها المتألقة في وهج اللهب..

وقالت بعد برهة:

- انني أخيفك.. اليس كذلك؟

وحاولت ان احتج.. غير انها استندت الى صدري قماما، وقالت دون ان تنظر الي:

- واذا قلت لك انني احبك.. فماذا تراك تفعل؟

وقبل ان أجد جواباً أقوله كانت ذراعها قد التفتا حول عنقي وجذبتا رأسي

عنوة، وأطبقت شفتاها على شفتي..

آه يا صديقتي: ما كان هذا كله من بواعث السرور في نفسي.. ماذا؟ هل أخون صديقي جوليآن؟ هل أغدر عشيق هذه الصغيرة المجنونة الخبيثة الفاسقة؟ هل أغدر عشيق هذه المرأة ذات الشهوة المخيفة العارمة والتي لم تعد تكتفي بزوجها؟

وهل سأظل أخون ابدا، وأغدر دائما، وامثل قصة الحب في سبيل الشمرة المحرمة.. وتحدي الاخطار.. والعيب بالصدقة.. كلا.. ان هذا لن يكون.. ولكن ما العمل؟ هل أمثل دور يوسف بن يعقوب؟ انه لدور آخرق.. وشاق أيضا.. فلقد كانت تلك المرأة مشتعلة جنونا وهياما وفسقا.. وكانت تلهب جراً وشبقا.. وكانت تنتزى غراما.. ان الذي لم يحس بالقيلة العميقة من امرأة توشك أن تهب نفسها فليكن اول من يرميني بحجر.

وأخيرا.. فان دقيقة أخرى، كما لا بد انك تدركين يا سيدتي، أجل فان دقيقة أخرى وكنت خليفا ان.. بل كانت هي خليقة ان.. بل كان هو خليفا ان يصيح.. ولكن على حين غرة انبعث دوي هائل جعلنا نشب من مكانينا.

انها الخطبة.. أجل يا سيدتي هي الخطبة التي اندفعت في غرفة الاستقبال وقد قلبت مجرفة النار والحاجز الواقى، وراحت تتدحرج كأنها عاصفة من لهب احرقت بعض السجاد المقروش، ثم اندست تحت اريكة صغيرة كانت ستضرم فيها النار حتما.. وعندئذ قفزت كمجنون، ورحت أعيد الى الموقد ما تبقى من جذوة النار المتضرمة، وانفتح الباب فجأة، وظهر صديقي جوليآن فائض السرور والمرح وهتف قائلاً:

- ها قد عدت... وانتهى العمل قبل ساعتين من مواعده..

أجل، أيتها الصديقة، فلولا الخطبة المشتعلة لوجدني جوليان متلبسا بالجريمة.. وفي وسعك ان تتصورى ماذا كانت ستكون العواقب..

ومن ثم لم اتصرف في حياتي قط أي تصرف يضعني في مثل هذا الموقف.. ولا حظت بعد ذلك ان جوليان أخذ يتباعد عني في برود ظاهر كما يقولون.. ولا شك في أن امراته قد قوضت صداقتنا ثم اقصاني عن بيته شيئا فشيئا، وانتهى بنا الامر الى القطيعة وما عاد احدهنا يرى الآخر.. أبدا..

وبالطبع فانه لا يدهشك الآن يا سيدتي اني لم اتزوج قط..

غبي دي مويسان (فرنسا)

الشهاد

لقد عرف فيما مضى اياما أحلى وأرغد رغم يؤسه وعاهته.

ويوم كان في الخامسة عشرة دهمته عربة على طريق «فارنيا» فحطمت ساقيه. ومنذ ذلك الحين جعل يتسول ويستعطي الناس وهو يتأرجع بين عكازيه اللذين جعللا كتفيه تعلوان حتى اذنيه. وكان رأسه يبدو وكأنه يقع بين جيلين.

ولم يكن أحد يدري عنه شيئا سوى ان كاهن «بليت» عشر عليه-وهو طفل-ملقى في قرارة أحد الخنادق ليلة عيد جميع القديسين، ولهذا السبب سماه الكاهن «نيقولا توسان». ونشأ بعد ذلك في ظل الاحسان، فلم يتلق تعليما ما، ولا عرفت قدماء طريقهما الى المدرسة. وذات يوم دعاه خباز القرية الى شرب كؤوس من الخمر، لا يريد من وراء ذلك غير أن يضحك ويرقه عن نفسه. غير ان المسكين دهمته العربة على الطريق وهو ثمل وحطمت ساقيه، وقد عاش من ثم مشردا لا يحسن غير ان يمد يده ويستجدي.

وفي الماضي كانت البارونة العجوز «افاري» قد أخذها العطف عليه فأذنت له بأن يأوي الى خندق مهجور مليء بالتبن، قرب خم الدجاج في مزرعتها الملاصقة للقصر. وكان واثقا دائما من أنه سيجد كسرة من الخبز وقدحا من شراب التفاح في مطبخ القصر اذ يلم به الجوع فلا يجد ما يتبلّغ به. ولكن البارونة العجوز ماتت ولم بعد أحد بوجود عليه بشيء في قريته التي نشأ فيها والقرى

المجاورة. لقد ستمه القرويون منذ أربع سنوات وتعبوا من الحاحه، ومن رؤية هيئته الزرية وجسمه المشوه الذي يتأرجح دائما بين عكازيه، ومع ذلك فلم يفكر أبدا في مفادرة تلك التواحي، لانه لا يعرف في هذه الدنيا غير تلك القرى الثلاث أو الاربعة المتجاورة التي أمضى فيها حياته البائسة. ولقد أقام حدودا لتسوله اعتصم فيها ولم يفكر قط في تجاوز هذه الحدود التي تعود أن لا يتخطاها أبدا، وكان يجهل ما اذا كانت تمتد بعيدا وراء تلك الاشجار التي كان يقف بصره عند حدودها. وكان الفلاحون بعد ان سمعوا لقاء الدائم حول حقولهم يهتفون به: ولماذا لا تغدو الى القرى الاخرى بدل ان تظل تتأرجح هكذا بين عكازيك هنا؟ ولم يكن هو يجيب بشيء، بل سرعان ما يبتعد وقد تولاه خوف غامض من شيء مجهول، وهو خوف الفقير المعدم الذي يرهب ألف أمر، يرهب الوجوه الجديدة والشتائم، والنظرات المريية من لا يعرفه من الناس، ورجال الشرطة الذين يسبرون أزراجا على الطرق فيسارع الى الاختفاء عنهم بدافع الغريزة وراء سياج أو كرم مرتفع من الحجارة. انه لا يكاد يرى رجال الشرطة أولئك وقد راحت خوذهم تلمع تحت أشعة الشمس حتى تدب فيه خفة عجيبة كأنها خفة مارد جبار فينطلق نحو مخبأ ما ويتخلص من عكازيه ويلقي بنفسه على الارض، كأنه شلو ثم يتكور على نفسه فيصبح ضئيلا صغير الحجم كثعلب في حجرة، والغريب أنه لم يشتبك قط مع رجال الشرطة في أمر من الامور. ولكن خوفه منهم كان شيئا في دمه، أو كأنه قد ورث هذا الخوف وهذا الكره عن والديه اللذين لم يعرفهما قط. أجل لم يكن له مأوى، ولا كوخ ولا سقف يستظل بظله. وكان في الصيف ينام في أي مكان، وفي الشتاء كان يندس ببراعة معجبة تحت اهراء القمح أو في زرائب الماشية. ولقد كان يختفي دائما قبل ان يتفطن أحد الى وجوده. كان يعرف جميع الاماكن التي ينفذ منها الى الدور، وكان قادرا على القفز فوق الجدران والاختباء في الخرائب المهجورة، وكان يعمل في هذا على قوة ساعديه اللذين اكتسبا الشدة والعزم لفرط اعتماده على عكازيه، وكان في أحيان كثيرة يمكث ثمة أربعة أيام

أو خمسة دون أن يأتي بحركة، بعد أن يكون حصل على مؤونة كافية من الطعام، أجل كان يعيش بين الناس وكأنه من وحوش القاب، لا يعرف أحدا، ولا يشير في نفوس الفلاحين غير الاحتقار والشعور بالعداء الصامت. لقد أطلقوا عليه لقب «الناقوس» لأنه يتأرجح دائما بين عكازيه كما يتأرجح الناقوس بين حاملتيه.

وقد مضى يومان دون أن يأكل شيئا. لم يعد أحد يعطيه أي شيء. على الاطلاق، انهم في النهاية لم يعودوا يطبقونه، والفلاحون، وهم وقوف عند ابواب منازلهم، كانوا يصرخون به من بعيد اذ يرونه مقبلا عليهم: «إليك عنا، لقد اعطيناك كسرة الخبز منذ ثلاثة أيام فقط» فيبتعد مندفعا الى بيت آخر حيث يتلقونه بالطريقة نفسها، وكانت النساء يتناقلن الحديث من باب الى آخر قائلا «اننا لا نستطيع ان نطعم هذا (الهامل) على مدار السنة» ومع ذلك فان هذا الهامل كان بحاجة الى الطعام كل يوم، ولقد ذرع القرى الثلاث: سانت هيلير وفارقيل وبليت دون أن يحصل على فلس واحد أو كسرة واحدة من الخبز، ولم يبق ما يعقد عليه أمل سوى قرية «تورنال» ولكنها كانت على بعد فرسخين، وكان هو يشعر بأنه تعب، ومنهوك القوى، ولا قدرة له على حمل نفسه، وقد خوت معدته كما خوى جيبه، وعلى الرغم من هذا فقد شرع يسير، وكان اليوم من أيام ديسمبر، وكانت الريح الباردة تركض في الحقول، وتصفى بين الاغصان الجرداء، والغيوم تتطلق في فجاج السماء القاتمة المسفة الي حيث لا يدري احد، وكان المشوه ينتقل على عكازيه ببطء، وكان يجلس من حين لآخر.. الى جانب الطريق ليستريح بضع دقائق، وقد أقنع المجرع نفسه تعاة ثقيلة مبهمة، ولم تستحوذ عليه غير فكرة واحدة هي أن يأكل، ولكنه لا يدري بأية وسيلة يمكنه هذا، وظل ثلاث ساعات طوال يجهد نفسه على الطريق الطويلة الممتدة، ولما لاح له أشجار القرية اسرع نحوها ملهوبا. وقد أجابه اول فلاح صادفه وسأله الاحسان قائلا: «هذا أنت مرة أخرى؟ ألا يمكن أن نتخلص منك ابدًا؟» وابتعد المشوه وهو يتخبط في الشرى اللزج المرحل من المطر، وقد تملكه الاعياء فلا يستطيع ان يرفع

عكازيه، وطرده الفلاحون من كل مكان ذهب اليه. لقد كان هذا اليوم من الايام الباردة الكثيبة الذي تضيق فيه القلوب وتغتم الاذهان وتغدو فيه النفس مظلمة واليد كزرة لا تسمح بشيء. ولما انتهى من طرق جميع الابواب التي يعرفها ذهب واستلقى في ناحية من ساحة دار المعلم «شيكيه» ولبت مدة طويلة لا يتحرك وقد أخذ الجوع يقري معدته، الا انه بلغ من انحطاط آدميته حدا لم يحس معه ببلى يؤسه العميق. وكان ينتظر شيئا وكان انتظاره من نوع هذا الانتظار الغامض الذي يكمن فينا دائما. كان ينتظر في ذلك الركن من حوش المزرعة عونا مجهولا يرجوه الانسان من السماء أو من الانسان دون ان يدري أسبابه ويواعشه. ومرت في هذه الاثناء دجاجات سود من أمامه، كانت الدجاجات تصلح أن يأكلها مشوية على نار بعض عيدان الغاب. ولم يفزعه انه سيسرق، فتناول حجرا ورمى به أقرب دجاجة منه فأرداها فارقت تصفق بجناحيها، وهربت الدجاجات الاخريات رتناول «الناقوس» عكازيه ووضعها تحت ابطيه وتحرك ليلتقط الدجاجة الصريع ولم يكذب يقترب من الدجاجة السوداء حتى حس بلمكة هائلة في ظهره بعشرت عكازيه ودفعته متدحرجا على بعد عشر خطوات، لقد كان المعلم «شيكيه» هو الذي فعل هذا، ثم راح، كأنه مجنون، ينهال عليه ضريا بقبضتيه وركبتيه وجسمه كله، والمشوه لا يستطيع الدفاع عن نفسه، وجاء رجال المزرعة وراحوا بدورهم يوسعون الشحاذ ضريا، ولكما، ولما تعبوا من ضربه حملوه وذهبوا به الى مخزن الحطب وانطلقوا يستدعون رجال الشرطة وبقي المشوه جائعا، تنزف الدماء من جراحه، وقد القي فوق الارض دون ما رحمة، ثم جاء المساء وأعقبه الليل وطلع الفجر دون أن يأكل شيئا.

وعند الظهر وصل رجال الشرطة وفتحوا عليه الباب في حذر شديد لانهم أوهموا انه شرس هاجم رجال المزرعة، فلم يسمحوا ان يدافعوا عن أنفسهم الا بهجد جهيد. وصاح أحدهم هيا، قف، ولكن المشوه لم يستطع أن يتحرك، ثم حاول ان ينهض على عكازيه الا انه لم يقو على ذلك وظن رجال الشرطة أنه يتخايت

ويحتال عليهم ويتظاهر بالعجز، فهجموا عليه وأمسكوا به بقوة ثم أنهضوه راغما. وقد تملكه الخوف، هذا الخوف الذي يستحوذ على الطريدة أمام الصياد وعلى الفأر حيال القط.

وسار به رجال الشرطة أمام سكان المزرعة جميعا، وقد أخذ الرجال يهزأون به والنساء يهددنه بقبضات أيديهن.

لقد تخلصوا منه أخيرا. وكان الذين يمرون بهم في الطريق يقفون قليلا ليروه يتأرجح بين عكازيه ويتهاشمسون قائلين «لا بد أنه أحد اللصوص». وبلغوا به مركز الاقليم مع الليل. ولم يكن ليتصور ما يحدث ولا ما يمكن ان يقع. لقد كانت هذه الاشياء الرهيبة غير المنتظرة جميعا وهذه الوجوه، وهذه البيوت كأنما ترزح فوق صدره وتؤوده.

ولم ينس بكلمة، فهو لا يجد ما يقول لانه لم يعد يفهم شيئا على الاطلاق، ثم أنه منذ سنوات طوال لم يكن يكلم أحدا، ففقد بذلك قدرته على استعمال اللغة. وفكره أيضا كان جد مضطرب ومشوش لا يمكنه من النطق، ولقد ألقوا به في سجن البلدة، ولم يفكر رجال الشرطة أنه يحتاج الى الطعام، فتركوه على هذه الحال حتى اليوم الثاني. ولكنهم عندما جاؤا لاستنطاقه مع الصباح الباكر وجدوه ميتا. قيا للمفاجأة!

غني دي مويسان (فرنسا)

الخوف

اسمحوا لي أن أعبر عن رأيي بوضوح. ليس الخوف أمرا بسيطا.. انه شيء رهيب، واحساس يبلغ من الضراوة حدا يشبه تفكك النفس وانحلالها. انه أشبه ما يكون بانتفاضة الفكر والقلب، ويكفي مجرد تذكره أن يثير القشعريرة في البدن. وفي مواقف الخوف المروعة لا تنفع الشجاعة ولا تعود البسالة مجدي شيئا. ويقع هذا الخوف في ظروف وأحوال شاذة وتحت إلحاح تأثير خفي أمام أخطار غامضة. أجل ان الخوف الخلق بهذا الاسم كأنما هو تذكر أحوال مرعبة تعود الى المخيلة منبعثة من اغوار الازمنة السحيقة في طفولة الانسانية. واضرب لكم مثلا على هذا الرجل، لا بد ان يحس بالخوف في اروع صوره وأشد معانيه هولاً وضراوة.

واليكم هذه القصة التي وقعت لي:

كان ذلك في الشتاء الماضي، في احدى غابات الشمال. وكان الليل قد أरخص سدوله ميكرا، فأريد وجه السماء وأظلمت الدنيا. وكان معي دليل من الفلاحين يسير الى جانبي، خلال طريق ضيقة يظلها ستار كثيف من فروع الشجر لا تنفك الريح تضربها فتصدر عنها اصوات كأنها عواء الذئاب. وكنت أرى الغيوم من خلال ذؤابات الفروع الممتدة وهي تعدو في فجاج السماء مذعورة، كأنها هاربة مولهة أمام هول يطاردها ويكاد يمك بتلابيبها. وكان يخيل الي أن الغابة كلها تنحني، من أن لآخر، في اتجاه الريح العاصفة وهي تعول وتولول،

وعندئذ كان البرد يغمرني وينفذ الى جسمي رغم ثيابي الثقيلة وخطوي السريع.

وكنا نقصد بيت حارس الغابة، حيث كنت سأتناول طعام العشاء وأجد سريرا دافئا أنام فيه. ولم يكن البيت بعيدا، وكان سعبي وراء الصيد هو الذي قادني الى تلك الغابة. وكان الدليل الذي يصحبني يرفع رأسه من حين لآخر ويقول: «ياله من جو محزن.» ثم حدثني عن الاشخاص الذين سببت عندهم. وقال: أن رب العائلة سبق له، منذ عامين، أن قتل أحد المتقحمين من الصيادين، كان يغشى أرضه للصيد، ومنذ ذلك الحين لازمه العبوس والتهجم كأن ذكرى مصرع الرجل لا تنفك تعايشه. وكان له ابنان متزوجان يقيمان معه.

وكان الظلام قد تكاثف، ولم أعد أرى أمامي وحولي شيئا. وكانت اعراف الاشجار لا تزال تصطرع وقلأ الليل دوبا لا ينقطع. وأخيرا ترامى لي ضوء فحششنا نحوه خطانا، ثم لم نلبث أن وجدنا أنفشنا أمام باب راح رقيق يدهقه بيده، فأجابتنا أصوات نسوة فيها حلة وفزع، ثم وصل الى مسمعين صوت رجل، صوت متهالك مرهف يقول: «من هناك؟» فسارع الدليل وأعلن اسمينا، ففتح لنا الباب ودخلنا. ولن أنسى ما حييت ذلك المشهد الذي وقعت عليه عيناى.

كان ثمة رجل أشيب، يبدو الجنون في عينيه، وفي يده بندقية معبأة، في حين وقف ابنه الشابان القويان بحرسان الباب وفي يد كل منهما بلطة كبيرة. واستطعت أن أرى في الزوايا المعتمة امرأتين جاثيتين ووجههما الى الحائط.

ولما اطمأن الرجل الى أنزل بندقيته وأسندها الى الحائط وأصدر أوامره بأن تعد المرأتان غرفة النوم. ولما رآهما لا تستجيبان له ولا تأتبان بحركة قال: وفلتعلم يا سيدي انني قتل رجلًا منذ عامين في مثل هذه الليلة. وفي السنة الماضية عاد شبحه يذكرني بمصرعه. وأنت ترى انني انتظره مرة أخرى في هذه الليلة. وهكذا فاننا كما تشاهد جد قلقين.»

وقد طمأنته ما وسعني ذلك، وقلت له أنني سعيد ان آتي لزيارته في هذا المساء نفسه لكي أشاهد هذا الخوف الذي لا بد أن يكون ألهم هو الباعث عليه. ثم رحت أروي للحاضرين قصصا مختلفة واستطعت في النهاية أن أردهم الى شيء من الطمأنينة والهدوء.

ولقد لفت نظري، قرب موقد النار، كلب أعشى العينين، من هذه الكلاب التي تبدو كأنها بعض من تعرف من الناس، وكان الكلب يرقد وقد دفن أنفه بين يديه المبسوطين.

كانت العاصفة في الخارج لا تنفك تنقض على البيت الصغير، وكنت أرى من خلال كوة في باب الدخول حشا من أعراف الشجر تعصف بها الريح الشائرة في حين تستضيء السماء ببرق عريضة متلاحقة. ورغم جهودي الحارقة كنت أحس بأن رعبا عميقا قد استولى على أولئك الناس. وكانت أذانهم تصفي الى بعيد كلما أمسكت عن الحديث. وفي النهاية سئمت مشهد هذه المخاوف القبية، وفيما أنا أوشك أن أنسحب لنام اذا بالرجل الاشيب حارس الغابة ينهض بوثبة واحدة عن كرسيه فيتناول بندقيته وهو يهتم بصوت مخبول: « هذا هو.. هذا هو.. انتظره.. » وعادت المرأتان جاثيتين على ركبهما وهما تخفيان وجهيهما، وأمسك الشابان ببلطتيهما. وأخذت أنا أحاول تهدئة مخاوفهم جميعا، ولكن الكلب الراقد استيقظ فجأة، واثراب برأسه ومد عنقه نحو النار الموقدة، ثم لم يلبث أن أرسل نباحا مؤثرا، فجعا، يخشاه المسافرون ليلا وترعد لسماعه أوصالهم. واستدارت العيون جميعا نحو الكلب الذي بقي في موضعه دون ما حراك وقد استوى على قوائمه كالمشدود بين يدي ما يترأى له. وعاد يرسل عواءه نحو شيء غير مرئي، لان شعره كله قف وتصلب. وصاح حارس الغابة وقد امتقع لونه: « انه يحس بالشيخ القادم. انه يحس به ولا ريب، فقد كان معي، هنا يوم قتلته. » وفي هذه الاثناء أخذت المرأتان تنبحان مع الكلب وقد قعدتا صوابهما.

وعلى الرغم مني فقد شاعت في أوصالي رعدة طاغية. ان منظر هذا الحيران، في تلك الساعة من الليل، وبين أولئك الناس الذين فقدوا عقولهم، كان مثيرا للرعب حقا.

ومضت ساعة كان الكلب خلالها لا ينفك يعوى دون أن يتحرك. فداخلني خوف مروع. ولكن.. خوف من أي شيء؟ لست أدري. انما كان هو الخوف وحسب.

بقينا صامتين لا نبدي حراكا وقد امتعقت وجوهنا وأخذت تخفق قلوبنا ، في حين أرخينا آذاننا في انتظار ما سيحدث. ثم راح الكلب يدور في القاعة وهو يتشمم الجدران ولا يني يعول دائما. لقد أثار فينا الجنون ذلك الحيوان. وعندئذ ارتقى الدليل الذي كان يصحبني على الكلب في فورة من الرعب، وفتح الباب والقي به الى ساحة خارجية صغيرة.

وصمت الكلب في الخارج وبقينا نحن غائصين في لجة من الصمت أشد ترويعا من كل صوت. وعلى حين غرة ارتعشنا جميعا، فقد أحسنا بانسان ينسل من الغابة لاتنا بالجنون الخارجي، ثم مر أمام الباب، وبدا كأنه يتحسس بهد مترددة، ومرت دقيقتان لم نسمع خلالها شيئا، ثم عاد معاذيا للجدار دائما وأخذ يحك خشب الباب كما يمكن ان يفعل ذلك طفل بأظفاره. وعلى حين غرة ظهر صوت رأس أشيب تبرز فيه عينتان متقدتان كأنهما عينا وحش ضار، وخرج من قمه صوت غير واضح، همس بشيء يشبه الاتين الخافت.

وعندئذ انبعث من المطبخ دوي هائل، فقد أطلق صاحب البيت بندقيته ثم هرع ابتاه ووضعنا في الكرة ما سدها ثم اتيا بخوان كبير وضعا وراء الباب.

واؤكد لكم اني لدى سماعي دوي الطلقة التي انبعثت من البندقية احسست في أعماق قلبي وروحي بخوف لا يوصف كدت أنهار بسببه وأموت فورا.

وبقينا هكذا حتى مطلع الفجر لا نستطيع أن نتكلم ولا أن نأتي بحركة، وقد انكمشنا وتقبضت أعضاؤنا في رعب لا مبيل الى ذكره.

وعندما لاحت أولى شعاعات النهار وسعنا ان نخرج فوجدنا عند اسفل الجدار الخارجي الكلب الهرم وقد حطمت قمه رصاصة ما.. ذلك أنه كان قد خرج الى الغابة، من الساحة الضيقة التي كان فيها، من خلال ثغرة أحدثها في الحاجز الخشبي.

أجل أيها السادة.. انني لم أتعرض في تلك الليلة لاي خطر. ولكنني أؤثر أن أحيا مرة أخرى جميع ساعات الخطر التي واجهتها في حياتي.. على أن لا تمر بي دقيقة واحدة من ساعات الخوف المروع الذي الم بهي في تلك الليلة.. ليلة الغابة..

الفونس دوديه (فرنسا)

بيت للبيع

انه باب من الخشب غير المحكم استطاع الطين وغبار الطريق أن يسلا من شقوقه ويختلطا برمل البستان الصغير الى مسافة بعيدة. وقد علقت فوق هذا الباب لافتة مر عليها الزمن فهي ساكنة ثابتة في وهج شمس الصيف، ومتحركة مهتزة متخلخلة في رياح الخريف، وقد كتبت فيها هذه العبارة: «بيت للبيع»، وهي عبارة يبدو أنها تقول أيضا: «بيت مهجور...» لعيني الصمت الذي يكتنفه.

ومع ذلك فقد كان يقيم في هذا البيت شخص ما، وكان الدخان القليل الضارب الى الزرقة والمتصاعد من مدفأة برزت حجارتها القرميدية شيئا ما فوق الجدار ينبيء بوجود انسان قد توارى واعتكف كشيئا حتى أضحى انزواؤه أشبه بهذه النار القليلة الموقدة، التي لا يكاد يشي بها دخانها الرقيق الباهت.

وكانت العين تلمح من خلال ألواح الباب المتخلعة، وفيما وراء ذلك من ظواهر الاهمال والفراغ والوحشية التي تسبق التخلي أو البيع أو الرحيل، ممرات بدبعة منسقة، وعرائش ملتفة، ومرشات قريبة من حوض الماء، وشتى ادوات العمل في البستان مركونة عند حوائط البيت.. انه ليس أكثر من بيت ل احد الفلاحين، ينهض متوازيا فوق قمة منحدر يسلم مصنوع بحيث يجعل الجانب الظليل من نصيب الطابق الارضي. وما أشبه رقعة البستان، في هذه الناحية،

يمسنت من زجاج للنباتات في البلاد الحارة التي لا تتحمل البرد. فقد كان ثمة مقببات زجاجية للنباتات الضعيفة، وبعض أواني الازهار فارغة ومقلوبة، وغيرها قد امتلأت بأزهار «الجيرانيوم» في حين انتشرت الرياحين في مغارسها من الرمل الابيض الدافئ.. وفيما عدا دوحتين أو ثلاثا من شجر الدلب فقد كان البستان كله ملعبا للريح ومسرحا لاشعة الشمس الدافقة التي تتخلل بعض المعرشات والاشجار المثمرة، وقد تعرت من بعض أوراقها. وفي وسط هذا كله، وفيما كان يحيط به من نظام وهدهد، كان شيخ يعتمر بقبعة من قش يتجول النهار كله وينتقل في الممرات، ويسلسل الماء على مغارس الزهر، اذ يخف الحر ويبرد الجو، ولا ينفك يعمل مقصه بتقليم الاغصان ويشذب ما ند ونبا من كل سياج..

وقد كان هذا الرجل العجوز لا يعرف أحدا في تلك الناحية الا حوذي العربية التي تنقل الخبز وتقف عند كل باب في الشارع الوحيد في القرية. وما كان ليزور أو يزار. وكان يحدث أحيانا ان يقف أحد المارة بعد أن يقرأ اللافتة وتستحوذ على اعجابه قطع الارض الخصبة المعطاء التي تتصل بالبيت والبستان، ويقرع عابر السبيل جرس الباب مرة دون أن يستجيب له أحد. ثم يقرع ثانية فيسمع عندئذ وقع خطى ثقيلة تقترب آتية من أقصى البستان، ثم ينفتح الباب قليلا ويقول الرجل العجوز ساخطا:

- ماذا عساك تريد؟

- هل البيت معروض للبيع؟

ويجب العجوز الطيب بصعوبة كمن يبذل جهدا:

- أجل، انه معروض للبيع.. ولكنني أحب أن ألفت انتباهك فهو غالِي الثمن...

وكانت عيناه كأنها تقولان لك: اذهب، انتعد، لشدة ما يبدو فيهما من
امارات القضب والضيق، ويظل من ثم منتصبا وكأنه تثنى رهيب يذودك عن
مربعات أرضه المزروعة الخضراء، وعن الساحة البديعة المفروشة بالرمال. ومضى
عابرو السبيل وقد عقدت الدهشة السننهم يسائلون انفسهم عن هذا المجنون: من
أي نوع يكون، وأي ضرب من الخيال يغريه بعرض بيته للبيع وفي نفسه كل هذه
الرغبة في الاحتفاظ به؟

واتضح لي هذا السر الخفي، فقد مررت ذات يوم بهذا البيت الصغير،
وسمعت لفظا شديدا واصواتا محتدة لمجادل وتناقش:

- ابتاه.. يجب ان تبيع البيت.. يجب ان تبيعه.. وانت قد وعدت بذلك.

ويقول الرجل العجوز بصوت مرتعش:

- ولكنني يا بنيتي سأبيعه.. ولست أطلب غير أن أبيعه.. بدليل اللاقطة
التي علقتها على يابه..

وعلمت، بعد ذلك، أن أولاده وزوجات اولئك الاولاد، وهم جميعا أصحاب
دكاكين صغيرة في باريس، يضغطون عليه، ويعنفون به لكي يتخلى عن بيته..
وعن أرضه التي يحبها.. ولكن ما هي دوافعهم؟ لست أدري. الا انهم، على وجه
التأكيد، أخذوا يرون ان البيع المنشود قد تأخر جدا.. ومنذ ذلك اليوم جعلوا همهم
أن يزوروا الرجل العجوز كل يوم أحد لكي يحشوه، ويعنفوا به، ويلعروا عليه
الحاحا شديدا أن يفي بما وعد وبيع البيت.. كنت أسمع جدلهم وتصايحهم، في
أحد أيام الأحاد، يصلان الى أذني حيث كنت أقف من الطريق في ذلك الصمت
العميق، والفراغ الذي تستريح فيه حتى الارض التي شبت حراثا وتقليبا طيلة
أيام الأسبوع.. وكانت كلمات «المال» ترن حادة، جافة، في حديثهم وتصايحهم.
وفي المساء كانوا يبارحون البيت.. ويسير معهم الرجل العجوز بضغ خطوات في

الطريق، ثم سرعان ما يعود ويوصد الباب الكبير أسعد ما يكون ان يقضي اسبوعا آخر ينعم فيه بالراحة وهدوء البال.. أجل كان البيت كله يستغرق في صمت طويل ثمانية أيام كاملة لا يسمع خلالها، في البستان الذي تنسكب عليه الشمس الحامية، غير وقع أقدام الرجل العجوز تطأ الرمل وكأنما هي تحقه سحقا تحت ضغطها الثقيل..

وانقضت الاسابيع، الواحد في أثر الآخر، واولاده وزوجاتهم يرهقونه بالحاحهم ويعذبونه بمختلف وسائل الحث والاستعجال.. ثم أتوا له بحفدته الصفار لكي يفتنوه عن نفسه:

- عندما تبيع البيت.. لا بد أن تأتي لتقيم معنا فنكون جميعا سعداء..

ويفترقون زمرا في كل ركن من البستان، يتحدثون، ويتهامون، ويسبون في المرات، وبحسبون أرباحهم من ثمن البيت بأصوات جهييرة عالية، وسمعت مرة إحدى الفتيات تهتف قائلة:

- هذا البيت المتداعي لا يساوي مئة فلس.. والافضل أن يهدم..

وكان الرجل العجوز يسمع هذا كله ولا يقول شيئا. كانوا يذكرونه وكأنه قد مات وأنهى أمره، ويتحدثون عن بيته وكأنه قد تهدم وأضحى آنقاضا مركومة. وكان هو يتنقل متقوس الظهر، وتسبح في عينيه الدموع، ويحاول جريا على عادته - ان يقلم هذا الغصن، ويقيم اعوجاج تلك النبتة، أو يعني بنوع من الثمار، فكان له في هذه الرقعة من الارض جذورا ضاربة في أعماقها لا يمكن اجتثاثها ابدا.. والواقع انه كان دائما يراوغ، ويؤجل بيع البيت كائنه ما كانت أقوالهم.. فكان في الصيف، عندما يرى الفاكهة وقد أخذت تنضج وتزول من الكرز حموضته ومن الاعناب البرية كزازتها، يقول: ولنتنظر موعد القطف، وبعد ذلك أبيع البيت والبستان، دون وئاء، وينتهي القطف، ولكنه يعود فيترث فقد

بدأ دور الخوخ، والكرمة، والزعرور، ويكون قد أقبل الشتاء وادلهم الجو في الريف وأصبح البستان خاليا من الريح تصفر في جنباته.. وعندئذ ينقطع السابلة، ويتوارى كل ذي رغبة في الشراء، ولا يعود أنباؤه وزوجاتهم يزورونه في أيام الآحاد.. ويطمئن الرجل العجوز ويخلد الى الراحة ثلاثة أشهر كاملة يعد فيها العدة للبخار وتشذيب الاشجار المثمرة وتقليمها، في حين تستمر اللقطة التي لا جدوى منها تتأرجح على قارعة الطريق وتتلاعب بها الريح ويضربها المطر بسياطه... .

ونفذ صبر الابناء والزوجات، ووثقوا أن الرجل العجوز يفعل كل ما من شأنه أن يبعد المشتريين عن بيته وبستانه، ففروا ان تذهب احدى الزوجات وتقيم معه، وهي امرأة صغيرة الجسم، وقد اعتادت البيع والشراء في دكان زوجها بباريس، وجعلت همها، كل صباح ان تبهرج وتضفي على ملامحها الرقة الكاذبة، واللفظ المصطنع.. وتفتح الباب الكبير على مصراعيه، وتتحدث بصوت مرتفع جهير، وتبتسم للمارة.. كأن الطريق أصبحت ملكاً خاصاً بها، وكأنها بصورتها تلك تقول لكل عابر سبيل: تفضل ادخل.. وتفرج.. فالبيت معروض للبيع..

وما عاد الرجل العجوز يجد لحظة من راحة وهدوء. كان أحيانا يحاول ان ينسى وجودها فيروح يعمل في تقليب الارض والقاء البذور فيها من جديد.. شأنه في هذا شأن أولئك الذين يستشعرون دنو الاجل فيوهمون انفسهم ويدرأون مخاوفهم بالانهماك في مشروعات جديدة.. وكانت كنته، خلال هذا كله، لا تنفك تلاحقه وتتعبه وتنغص عليه بقولها:

- وما جدوى ما تفعل؟ اترك تعني نفسك هذا العناء في سبيل الآخرين الذين سيشرّون البيت والبستان؟

ولكنه لا يجيب، ويغضي في عمله بعناد عجيب.. وكيف يسعه ان يهمل

بستانه؟ انه اذا ما أهمله يكون كأنما قد فقد حقا وانسلخ عنه..

ولم يتقدم أحد لشراء البيت وبستانه، فقد نشبت الحرب، ولم يعد ثمة من يفكر ببيع وشراء، وعبثا أبتت المرأة الباب الخشبي الكبير مفتوحا، وعبثا أرسلت نظراتها الرقيقة الى الطريق، فما كان يمر غير الذين ينقلون متاعهم من بيت كانوا فيه الى بيت جديد استأجروه.. وعلى الايام غدت المرأة حادة الطبع، وراحت مهام عملها في باريس تلح في عودتها.. وقد سمعتها تلقي بقوارص كلماتها في وجه الرجل العجوز، وتشور به، وتصفق الابواب من ورائها... وكان هو يحني ظهره، ولا يفوه بكلمة واحدة، وانما يروح يسري عن نفسه بمشاهدة ثمار أشجاره وأغصانها الوريقة، ولا تنفك اللاقطة معلقة في مكانها تحمل عبارة: «بيت للبيع»..

ومضت الايام.. وعدت، هذه السنة، الى الريف فوجدت البيت في مكانه، ولكن وأسفاه! فان اللاقطة لم تكن معلقة هناك.. لقد باعوه اذن... وقد استبدل بيبابه الخشبي الكبير باب أخضر اللون تم دهنه حديثا، وفي وسطه كوة تتبيح للنظر أن يرى البستان.. انه ليس البستان.. انه ليس البستان الذي اعهدده، وانما هو خليط من أحواض كبيرة للزهر، ومنبسطات خضراء، وشلالات تنعكس صورها جميعا على كرة كبيرة من المعدن تتأرجح أمام الشرفة التي تعلو السلم المؤدي الى داخل البيت.. وكانت تبدو في تلك الكرة صفوف طويلة من أزهار متألقة، مزهورة، كما كانت الكرة تعكس وجهين لشخصين أحدهما وجه احمر لرجل بدين غارق في كروسيه الريفي، والثاني لامرأة ضخمة الجثة، مبهورة الانفاس، تصرخ متباهية وهي تقبض على مرش الماء وتلوح به:

- لقد رويت أحواض زهر الخيري أربع عشرة مرة!

وقد أضيف الى البيت القديم طابق جديد، وجددت الحواجز والشواطع، وكانت

انغام المعزف، في ذلك الركن الجديد الذي لا تزال تند عنه رائحة الدهان، تتصاعد وتقلأ الجور بالحنان «البولكا» والرقص الحديث.. كانت هذه الانغام الراقصة التي تقفز الى الطريق العامة نفسها وتبعث الدفء الى الأذان التي تسمعها وتختلط بعجاج وغبار شهر تموز، وكان هذا الصخب الذي تثيره وتوحي به الازهار الكبيرة المزدهية، والسيدات البدينات، وهذا المرح الفائر الشافه.. كان هذا كله يعتصر قلبي اعتصارا.. وجعلت أفكر في ذلك الرجل العجوز الذي كان يروح ويحيى هنا سعيدا، هادئا، مطمئن القلب.. ورحت اتخيله في باريس بقبعته المصنوعة من القش، وظهره المتقوس ككل بستانى قديم، يجوس الآن في أقصى القسم الخلفي لدكان ما.. وقد قللكه السأم، والوجل، وامتلاأت عيناه بالدموع، في حين تنعم كنته بانتصارها وراء متضدة القبض والصرف، حيث يسمع رنين الذنانير الذهبية التي بيع بها ذلك البيت الريفي الصغير..

الفونس دوديه (فرنسا)

نجوم الليل

كان يرعى الماشية على قمة الجبل وفي سفوحه المونقة، وكان يعيش في عزلة تامة مع القطيع لا يرى انسانا ولا يسمع صوتا الا فيما ندر. فقد كان يمر من حين الى حين ناسك متعبد أو بعض عمال الفحم، وكان الراعي يشاهدهم من بعيد وهو موقن انهم منطوون على ذواتهم لفرط احساسهم بالوحدة، حتى لقد فقدوا الميل الى الكلام، وعادوا لا يعرفون شيئا عما يجري في القرى والمدن في أسفل الجبل الشاهق تحتهم.

وكانت مؤونة الراعي تحمل اليه مرة كل خمسة عشر يوما، على ظهر دابة تنبش الاجراس الصغيرة المعلقة بعنقها بجيشها، وهي تتوغل الجبل تضرب في شعابه، ولا ينفك صبي المزرعة يحثها على السير ويخزها لكي تظل مصعدة في الجبل دون تلكؤ او تريت. وفي احيان اخرى كانت العمة العجوز «نواد» هي التي تسوق الدابة التي تحمل الى الراعي مؤونته المعتادة.

الا انه كان ثمة ما هو اهم من هذا كله، لقد كان الراعي يتلطف على معرفة ما يحدث للأتسة «ستيغانيت» ابنة اسياده اصحاب المزرعة الواسعة. لقد كانت معروفة بجمالها الباهر وحسنها الاخاذ في قريتها وفي القرى المجاورة جميعا، فكان يتسقط أخبارها وهو يداري اهتمامه بها، ويستنبئ صبي المزرعة أو العمة نرود عما اذا كانت الأتسة «ستيغانيت» لا تزال تغشى محافل الاعياد والافراح

والسهرات، وكان يجيب عما يدعوه الى الاهتمام بها وهو الراعي البسيط بأنه شاب في العشرين من عمره وان الأنسة «ستيفانيت» أجمل من رأى في حياته.

وكان الراعي يجد السعادة في قنة الجبل، وكان يستشعر الغبطة اذ يحدثه صبي المزرعة أو العمة نوراد بما يقع في القرى المبعثرة حول الجبل. وهكذا كان يعرف كل خمسة عشر يوما انباء الاعراس او المآتم او العباد في تلك النواحي.

وذاث يوم من أيام الآحاد تأخر وصول المؤونة الى الراعي، وعبثا أرخى أذنيه لعله يسمع من بعيد صلصة الاجراس المعلقة في عنق الدابة، وحسب ان صلاة الاحد هي التي أخرت وصول المؤونة اليه، اولعها تقلبات الجو كانت هي السبب، وعند العصر كان الجو قد صفا وانقشعت الغيوم وانقطع المطر وبدت قمة الجبل مشرقة مزهورة بشجرها الوريق وخضرتها المتألقة. وعلى حين غرة سمع تلك الصلصلة المحببة. صلصلة الاجراس في عنق الدابة المقلبة، وشد ما كانت دهشته بعد قليل حين لم ير صبي المزرعة إن العمة نوراد هي التي تسوق الدابة وانما كانت الأنسة «ستيفانيت» نفسها هي التي تسوقها اليه في دروب الجبل ومراقبه الوعرة. وقالت الأنسة ستيفانيت إن صبي المزرعة مريض والعمة نوراد سافرت لتري أولادها، فاضطرت هي نفسها ان تأتي له بمؤنته، وقد تأخرت لانها ضلت طريقها الى الجبل. وكانت الدهشة قد عقدت لسان الراعي وهو يتأمل الحسنة في ثياب الاحد الجميلة المهففة والمخرمات الابيقة التي ازدانت بها ثيابها، كما ازدانت بالاناشيط الملونة الرائعة والازاهير الفواحة بالعطر... لقد كان يبدو عليها كأنها مقبلة من مرقص أنيق وليس على ظهر دابة في شعاب الجبل الأشم، وكانت عيناه لا تنفكان تتأملان حسنهما. فانه لم يتح له أن يراها عن كسب حتى اليوم، وهو لا يذكر قبل هذه الساعة انه شاهدها الا خلسة في قاعة الطعام بالمزرعة في أيام الخريف والشتاء التي لا يذهب في أثنائها بقطيعه الى الجبل، كانت اذ ذاك تمر أمامه بسرعة خاطفة أنوفا عيونا متأبية متبرجة لا تلقي اليه بنظرة.. أما الآن

فها هي أمامه، مزادنة بجمالها وحليها له.. وحده...

ويعد ان أفرغت المؤونة التي له بها، راحت تنظر من حولها في دهشة واستغراب، ثم ارادت ان ترى الحظيرة التي يأوي اليها وينام فيها فقادها اليها ورأت بأم عينها حشبة القش التي يرقد عليها وجرة الماء التي يشرب منها وفراء الحروف الممسوط على الارض ويندقيته المعلقة.. وسرها ذلك وراحت تقول: «واذن فأنت تعيش هنا أيها الراعي الطيب، لا ريب ان الحياة على هذا النحو تشير سأمك.. فماذا تراك تفعل وفي أي شيء عساك تفكر؟» واشتهى الراعي ان يجيبها قائلا «انما أفكر فيك يا سيدتي» الا ان اضطرابه كان قد بلغ حدا لم يستطع معه ان ينيس بكلمة واحدة.

ثم عادت الفتاة الجميلة من حيث أتت، وظل الراعي يسمع وقع حوافر الدابة وصلصلة أجراسها الى أن ابتعدت وتورات عن الانتظار. وكان الراعي مبتهجا بلحظات السعادة التي أناحها له القدر. ولما اختفى شعاع الشمس وأقبل المساء وغدت قيعان الاودية تبدو معتمة أو ضاربة الى الزرقة، وأخذت الاتعام تلتصق بعضها ببعض، وقد ارتفع ثغاؤها في عودتها الى حظيرتها، في هذه اللحظة سمع الأتسة «ستيفانيت» تناديه عند سفح الجبل فخف اليها جازعا. فاذا هي قد ضلت طريق العودة الى المزرعة في غيشة الماء، وهالها كذلك عبور النهر الذي ارتفعت مياهه بعد هطول الامطار، ولم يكن في مقدور الراعي ان يترك قطيعه ليذهب بالأتسة ستيفانيت الى القرية، ولم يكن يسعها هي أن تعود وحدها، فما أسرع ما أعانها على الصعود الى قمة الجبل، حيث أوقد نارا من اعواد الشجر تدفأت بها الحسنة الغالية وجفت ملا بسها.

وهبط الليل وبدت لمجومه تتوامض في فجاج السماء، ولم تستطع الغانية الرائنة الحسن ان تنام فأثرت أن تجلس قرب الراعي وغير بعيد عن النار الموقدة. والقي هو على كتفيها قراءه وراح يؤثر النار، وساد الصمت، وسكن كل شيء.

حولهما. ان الليل لسحرا، وجمالا لا يعرفهما الا من راح يسامر النجوم في ذروة الجبل العالي، ان عالما من الحفاء والسحر يستيقظ في مثل هذا الوقت من الوحدة والصمت، ولا تعود الاذن تسمع غير نشيد الكون المنبعث من خرير المياه وحفيف الشجر الوريق، ولا تعود العين ترى غير شعل صغيرة من النار، تطفو وتتألق فوق الغدران ومسايل الماء، وانه ليخيل للمرء عندئذ ان ارواح الجبل تذهب وتحجي، حرة طليقة من كل قيد، ويقع في روعه ان همسا يسرى في الهواء واحتكاكا خفيفا يحدث في الفضاء، وان صوتا كثيبا بعيد المدى ينبعث من الغدير المتلاهي. عند أسفل الجبل. وكانت «ستيفانيت» كلما احسست بشيء من هذا انتابتها الشعيرية فترداد التصاقا بالراعي، وفي لحظة من تلكم اللحظات رأته نجما ينساب ثم يتحدر متقوسا من السماء. وسألته بصوت خفيض: «ما هذا؟» وأجابها وهو يرسم علامة الصليب فوق صدره: «انها نفس تدخل الفردوس يا سيدتي» فخشعت لحظة ثم قالت «أصبح اذن انكم سحرة ايها الرعاة؟» وقال الراعي: ليس هذا صحيحا على الاطلاق أيتها الآتسة.. الا اننا فوق قن الجبال نعيش اقرب الى النجوم من غيرنا، وعلمنا بما يحدث فيها اصح وافضل من علم سكان السهول».

واستمرت مشدودة النظر الى السماء وقد اعتمدت رأسها في راحة يدها ثم راحت تهمس: «ما أجمل السماء.. وما اروع نجومها.. اتعرف اسماء هذه النجوم أيها الراعي» وقال الراعي: «أجل يا سيدتي ها هي المجرة- أم النجوم- تتلألأ فوق رأسنا ونحن نسميها في المنطقة (طريق القديس جاك) وعلى بعد منها عربة الارواح التي يعرفها الفلكيون باسم الدب الاكبر، أما الكواكب الثلاثة التي تتقدم الدب الاكبر، وتلك النشارة من النجوم الصغيرة المتلائة حولها.. فهي الارواح التي يأبى الله عليها دخول ملكوته.. أما الجوزاء فهي، انها أكثر انحذارا من سابقاتها.. وهي التي تدنا على الوقت، ويكفي الآن أن ألقى نظرة واحدة اليها لاعلم ان الليل قد انتصف.. أما أجمل هاتيك النجوم والكواكب يا

سيدتي فهي لمجتمتا نحن الرعاة. اتنا ندعوها لمجمة الراعي فهي التي تضيء لنا سبيلنا ساعة نخرج مع الماشية عند الفجر او نعود بها مع المساء. ويبدو أن مجتمتا مفرمة بزل فتظل تلاحقه سبع سنوات كاملة لتقترن به.

وقالت ستيفانيت «وهل بين النجوم والكواكب زواج أبها الراعي؟» وقال الراعي: «اجل يا سيدتي»

وفيما كان الراعي يحاول أن يشرح لها كيف يكون الزواج بين الكواكب والنجوم أحس بشيء نضر لطيف يشغل كتفه قليلا، وكان هذا الشيء، هو رأس «ستيفانيت» الذي مال على كتفه مشغلا بالنعاس. وظلت كذلك دون حراك حتى اللحظة التي شحبت فيها لمجوم السماء وراحت تخبو مع الصباح الوليد. أما الراعي فلم ينفك يتأملها وهي نائمة على كتفه.

وقد هزه الاضطراب من أعماقه دون أن تساوره فكرة سوء، واستمرت النجوم من حولهما تبحث خطوها الصامت نحو المغيّب في اذعان ووداعة، كأنها قطيع الاغنام في حين كان يخيّل الى الراعي أن إحدى لمجوم الليل، بل أجمل هاتيك النجوم وأروعها وأكثرها لآلاء قد ضلت سبيلها فأنت تستريح وتنام فوق كتفه.

الفرنس دوديه (فرنسا)

الغريبان الثلاثة

انه مساء يوم المعركة. والطبيعة ما تزال، من تلاقي الجيشين ، محتدمة مضطربة في تلك الاتعاء، وانفاس المدافع اللاهبة ما برحت تطفو على شكل سحب صهب فوق السهل الافيج، والهواء ما فتىء مليئا بالدوامات كالبحر بعد هدوء العاصفة. وقد كانت صعقات يوم المعركة لا تزال يحس بهولها هناك، والارض المغطاة بالثلج، الارض التي استثيرت من هدونها واستجمامها في فصل الشتاء. كشرت فبيها الحفر والاخاديد وشاع على سطحها الدمار تحت وطأة عجلات المدافع، وثقل الاقدام اليانسة، وتساقط الرجال، وارتماء الجياد.

ياله من حصاد مشؤوم لقد نشرت المعركة في أخاديد الثلج الطويلة جثث الاموات. وكانت تنبعث من تلك المعاطف الرمادية التي تدر بها الجنود أنات الالم وحشرجات الاحتضار، وكانت ترتفع سواعد مستجدة هنا هناك، وتنتد أرجل ثم تتيسس مستقيمة وقد دفعت طين الارض أمامها، وكانت الحفر قد امتلأت بالاشلاء.

وفي ميدان المعركة كان يرقد جندي مكشوف الوجه تحت السماء الرصاصية. وكانت يده سوداوين من البارود، ورداؤه العسكري كان مشقوبا بفعل القذائف. لقد كان في معمعة القتال إبان احتدامها، وحسبه رفاقه قد مات، وهم يرونه يهوي على الارض. ومع ذلك فانه لا يزال حيا، وقد راح يهتف مناديا بكل ما

بقي فيه من قوة، ولكن ما من مجيب غير الاثنين وغصص الموت!

وفي النهاية وجد أن حسه يغريه اغراء بالراحة الكبرى والسكنينة المطلقة التي تدعوه اليها الارض، وأنه لو شيك أن يستسلم لسلطان النوم أو داعي الردى بعد أن تبيس من البرد والالام، وبعد أن نال منه الاعياء وأوهنه أزيز الرصاص وهزيم المدافع ويوارق قذائفها.

وعلى حين غرة ظهرت في الافق العريض الذي ما زال يتبدى بكامله لعينيه الكليتين ثلاث نقاط سود من جهة الشمال، ثم اذا هي تلوح كالاجنحة، بل هي أجنحة سوداء متسارعة، ولم تلبث، من بعد، أن أصبحت فوق رأسه. انها ثلاثة غريان كفت اجنحتها عن الخفق، وأضحت في الفضاء الناصع الشفاف لا تأتي بنأمة او حركة، وقد نشرت اجنحتها رلزمت تلك السكنينة الخاصة بالطيور الجارحة التي تظل عيونها الشاقبة تترقب فريستها....

كانت هذه الغريان، في ذلك الجو الذي لا يزال مضطربا مدويا بآثار المعركة، تبدو برفيف أجنحتها الخفي التي لا تكاد تدركه العين وكأنها ثلاثة من أعلام القتال ارتسم على كل منها غراب أسود محلق....

وتساءل الجندي الجريح مذعورا: « أتراها آتية نحوي؟ » ثم ارتعش جسده الرهنان وهو يتلطمع اليها تنحدر من سمانها ثم تجثم فوق تل صغير على بعد بضعة خطوات منه..

تا الله انها لطير حسان سمان وذات ريش صقيل جميل لا تنقص اجنحتها منه ريشة واحدة، ومع ذلك فان هذه الطيور تعيش وسط المعركة، بل لا تجد زادا الا من بقاياها وأشلائها! ولكنها لا تشاهد المعركة الا من بعيد دائما، من علو شاهق فلا تصيبها ولا تصل اليها نيران القتال. وهي لا تهبط ابدا الا اذا تهاوى الجنود على الارض واختلطوا على صعيد واحد بين قتيل وجريح

والحق أن هذه الغريبان الثلاثة تبدو ذات أبهة وأهمية، وهي تتبادل التحية بالمناكير، ويدرج الواحد منها أمام الآخر في زهوة وخيلاء، وتطيع جميعا مخالبيها الحادة فوق الثلج المصبوغ بالدماء.. ثم أنها بعد أن تفرغ من خيلاتها وتيهيها تروح تنعق بصوت خفيض، خفيض، دون أن تصرف عيونها عن الجريح..

وقال أحد هذه الغريبان السود مخاطبا رفيقيه: «يا ابني عمي. لقد أتيت بكما لاجل هذا الجندي الفرنسي الراقد هنا أمامكما. لقد كان جنديا صغيرا ولكنه ذو أباء وشمم، فيه بسالة غريبة نادرة المثال، ولكن لا يواكبها الحذر والتدبر، انظرا الى معطفه العسكري المخرق، واحسب كم من القذائف كان لا بد من اطلاقها لكي يقع مجنونا. انه فرصة طيبة، وإذا شئتما تقاسمناها، بيد انه يجب نتظر قليلا قبل ان نذهب اليه، فانه وان تحطم سلاحه وبدا كما تريانه حاسر الرأس، مشلول اليدين، ليخشى جانبه ويحسب حسابه اذا ما انبعث فيه نسمة حياة»

كان الغراب الذي تكلم أكبر الثلاثة، وكان الآخران، وهما يصفيان اليه، واقفين بعيدا عن منقاري الضاري المعقوف- ثم عاد الغراب الكبير يقول هاتفا: «مرحى! هيا بنا نتقاسمه..»

أتسمع أيها الجندي الصغير ما يقولون؟ أصبح أن قلبك لم بعد يخفق بين الضلوع؟ الا تنطق؟ تكلم أذن، وصح بهذه الغريبان عاليا انه لا تزال بقية تجري في عروقك من الدم الكثير الذي أرفقه.

ويا! لكنه ميت حقا، فان الغريبان الثلاثة ذات العين المتوعدة والمناكير المفترسة لم تكذ تنتهي من انتمارها حتى جعلت تدنو منه وقد أجنعتها، غير أن الجندي لم يتحرك ولم يرتعش... ..

يا لك من جندي صغير مسكين، ان الغريبان توشك ان تشك بمناقيرها بدنك

وتخترق أهابك اختراقا ثم تنقض عليك نهشا وتمزقا. ولسوف تخطف بمناقيرها
الجارحة حتى زرار رداك، فان هذه الطيور الناهية لتلقط كل ما يبرق ويلمع، وان
كان محرغا في الدماء.

وعلى هيئة ومهل طفقت الغريبان تقترب، وجازف أشدها سفاهة ونقره في
اصبعه.. الا ان الجندي، في هذه المرة، استفاق وارتعش جسمه كله.. وتناقلت
الغريبان الرعيدة الحديث قائلا: انه لم يم.. انه لم يم.. وسرعان ما عادت
متروانية الى تلها الصغير..

أجل ! ان الجندي الصغير لم يم. كلا انه لم يم على التحقيق. ها هو قد
رفع رأسه وقد أشاع الغضب فيه شيئا من انتعاش، ورفت عينه رفيف الحياة،
وحمي أنفه، وأخذ يبدو له ان الهواء أقل ثقلا، وانه غدا أحسن حالا..

وكان شعاع وردي باهت من أشعة شمس الشتاء لا يزال ينسحب فوق الارض
الدمرة، وفيما كان الجندي يتأمل هذا الغروب الحزين الذي خيل اليه انه يتخذ
الوان الفجر وأشاعه، اذ به يشعر تحت يده الممدودة ان الثلج، وقد ذاب من حولها
بسبب من دفئها، أتاح لرأس نبتة خضراء ان يبرز. انه رأس سنبله صغيرة
ضعيفة. فيا لمعزة الحياة! لقد أحس الجريح انه يولد من جديد. واخذ يحاول ان
يعتدل وهو يعتمد بيديه الاثنتين على أرض وطنه.. وكانت الغريبان الثلاثة ترقبه
من بعيد وهي على وشك ان تذهب، ولما رآته واقفا يبحث من حوله بحركة لا تزال
ترتعش عن سلاحه الملقى، لاذت بالفرار طائرة نحو الشمال الذي كان قد لفه
الظلام! وكان يسمع في عرض السماء صدام أجنحة رهيب، وقصقصة مناقير، انه
فرار سريع، صاحب، فيه ذعر وفيه نقمة وغضب.. وما أشبه هاتيك الغريبان
بقطع طرق قد أخفقوا في سطوهم فاقتتلوا وهم بفرارهم لاجنون..

فكتور هيكو (فرنسا)

الريان هارفي

في ليلة اليوم السابع عشر من شهر آذار سنة ١٨٧٠ كان الريان (هارفي) يقود باخرته، كالمعتاد، الى رحلتها من (ساوثمبتون) الى (غرنسي). وكان الضباب قد تغشى البحر كله، ووقف هارفي في مكان القيادة، وراح يباشر مهمته بحذر شديد بسبب ظلام الليل وتكاثف الضباب. وكان المسافرون في تلك الآونة قد أروا الى مضاجعهم واستسلموا لسلطان النوم.

كانت (النورماندي) سفينة كبيرة، ولعلها كانت أجمل سفن النقل عبر بحر المانش، اذ كانت تتسع لستمئة برميل كبير، وكان طولها اكثر من مئتي قدم انجليزية، وعرضها خمسا وعشرين قدما، وكانت لا تزال في زهرة العمر وزهوة الشباب فيما يقول البحارة، ولم تكن قد قطعت من عمرها اكثر من سبع سنوات. ولقد صنعت سنة ١٨٦٣.

أغلقت السفينة تشق العباب حتى استوت فوق الغمر على بعد خمسة عشر ميلا من مكان رسوها، ثم جعلت تتقدم ببطء كلما ازدادت كثافة الضباب. وكانت الساعة اذ ذاك الرابعة صباحا.

وأريد الجو ثم أظلم تماما وامتد رواقه الحالك حتى طوى السفينة في تضاعفه، وحتى غدت العين لا تكاد تميز غير رؤوس الصواري. ما من شيء يشير

الرهبة والرعب كتلك السفن العشواء تختر العباب في غياهب الليل.

وعلى حين غرة بدت كتلة سوداء شقت ستار الضباب، كانت تتراءى وكأنها شبح مخيف تارة، وتارة كأنها جبل كبير مقبل يتضارسه الرهبة يشق العباب المزيد شقا وعزق حجب الظلام تمزيقا. تلك الكتلة السوداء كانت باخرة كبيرة اسمها «ماوي» وكانت مقبلة من «أوديسا» ومتجهة الى «غرنسي» هي الاخرى وقد شحنت بخمسمئة طن من القمح. كانت بسرعتها الهائلة، وزنتها، وجرمها الكبير مندفعة كالسهم المارق نحو الباخرة «نورماندي».

ما من وسيلة ممكنة كانت لتحول دون صدام السفينتين لقد وقعت الكارثة بسرعة. ذلك ان تلك البواخر، التي تبدو في الضباب الكثيف كالاشباح الخاطفة، لا يجد من اندفاعها شيء ولا تكاد تتراءى حتى تلتشم ولا تكاد العين تميزها حتى تصطدم.

وهكذا قدر للسفينة «نورماندي» أن تخرقها من أحد جانبيها السفية «ماري» بما أخذ حركتها وأوقفها.

وكان على ظهر النورماندي ثمانية وعشرون رجلا هم بحارتها وامرأة كانت تقوم على خدمتهم، وواحد وثلاثون مسافرا بينهم اثنا عشرة امرأة.

ولقد كانت الرجة رهيبة حقا، فلم تنقض لحظة حتى كان الجميع من رجال ونساء وأطفال، فوق سطح الباخرة، أنصاف عراة يثراكضون، ويتصايحون، ويبكون، وكانت مياه البحر تندفق نائرة غاضبة في جوف السفينة فأخمدت نيرانها الموقدة وعطلت حركة آلاتها. ولم تكن الباخرة مزودة بحواجز تحول دون تدفق المياه، وكانت أحزمة النجاة أقل من ان تفي بالحاجة الملحة.

ووقف هارفي ربان السفينة منتصب القامة، في مكان القيادة وصاح قائلاً:

«الزموا الصمت جميعا. وكونوا حذرين يقظين، حتى اذا انزلت قوارب النجاة الى البحر فان النساء هن اللواتي يركبنها أولا ثم الرجال ثم بحارة الباخرة. ان ثمة ستين شخصا يجب انقاذهم.» وتناسى، متعملا، ان يذكر نفسه.

وانزلت القوارب الى البحر، وتوالت الركاب نحوها الى البحر، وكان هذا خليقا أن يؤدي الى غرق القوارب. ولكن «أوكلفورد» نائب الريان، ومساعديه احتجزوا المسافرين وحالوا دون اندفاعهم. انه لموقف مروع حقا: أن يهبوا هكنا من رقادهم فجأة ثم يلاقوا حتفهم مغرقين!

ومع ذلك فقد كان صوت الريان هارفي يسمع متميزا بين الصباح والضجيج وهو يخاطب المسؤول عن الآلات:

- اسمع يا «لوكس»

- ماذا تريد يا سيدي الريان؟

- نبشني ما حال مراكبك؟

- أغرقت...

- والنار؟

- انطفأت...

- والآلات؟

- تعطلت...

وصاح الريان مرة أخرى مخاطبا نابه.

- وأنت يا «أوكلفورد»

- أنا هنا يا سيدي.

- كم دقيقة يمكن ان تنمساك الباخرة قبل ان تفرق؟

- ليس أكثر من عشرين دقيقة.

وقال الريان:

- انها لكافية. هل تحمل مسدساتك يا أوكلفورد؟

-أجل أيها الريان.

- أطلق رصاصاتها على رأس أي من الرجال يريد ان يسبق النساء الى قوارب النجاة.

وصمت الجميع. ولم يحاول أحد أن يقاوم هذا الامر الصارم. لقد كان هذا الحشد من الخلق ساعثنّ يحسّ أن روح الريان، روحه الكبيرة، هي التي تمسود الموقف وتسمو فوق الهامات.

وكانت السفينة ماري من ناحيتها قد انزلت هي الاخرى قوارب النجاة الى البحر لتساعد في حركة الانتقال من الكارثة التي كانت هي سببها.

استمرت عملية الانتقال بنظام وهدوء. ولقد حدث خلالها ما دل على أنانية بغضضة كما حدث ما دل على ايثار جميل وتضحية رائعة.

وفي أثناء هذا كله كان هارفي صامدا، راسخا، كالطود في مكان القيادة. يصدر أوامره ويهيمن على كل حركة ويوجه ويرشد ويهتم بكل شيء وبكل انسان،

ويتحكم ثابت الجنان، ساكن الطائر بموقف الهول وكأنما هو يأمر الكارثة نفسها أن
تطيع فتصدع بأمره!

ولقد صاح في لحظة من اللحظات: انقذوا الفتى «كليمان» وكان كليمان هو
البحار الصغير الذي لم يبلغ السادسة عشرة من عمره.

أخذت السفينة تغوص ببطء في مياه البحر. وازدادت حركة الانقاذ سرعة
بين السفينتين. وكان الريان يهتف: «لا تتوانوا، اعملوا مسرعين...»

ولما انقضت الدقيقة العشرون غرقت السفينة. غاصت مقدمتها أولاً ثم
المؤخرة. ولم يأت الريان هارفي بحركة في موقفه بمكان القيادة. ولم يفه بكلمة.
وغاص هو الآخر في هوة الماء بثبات وهدوء.

تلك كانت نهاية الريان هارفي. لم يكن له بين بحارة المانش من نديد. انه
بعد ان أخذ نفسه، طيلة حياته، بالاضطلاع بواجبه كرجل فقد أختار لنفسه ان
يموت ميتة بطل.

انطوان فرانس (فرنسا)

الآرشفة السوداء

في ذلك الزمن كان « نيقولا نرلي » صاحب مصرف في مدينة فلورنسا المجادة، ولم يكن يفارق مكتبه في أية ساعة من ساعات النهار، حيث يظل مستغرقا في حساباته وأرقامه. وكان يقرض الامبراطور مالا كما يقرض الباهيا، وإذا كان لم يقرض الشيطان نفسه فلأنه كان يخشى أن يتورط في صفقات خاسرة مع ذلك « اللعين » الماكر، صاحب الحيل الكثيرة والمكايد العديدة. وقد كان نقولا نرلي جسورا جريئا، الا انه كان الى هذا حذرا حريصا متأبيا على الخداع، فاحتاز الاموال الطائلة وجرد الكثيرين مما يملكون. لهذا السبب كان مكرما في مدينة فلورنسا. وكان يقطن قصرا لا يدخله النور الذي خلقه الله الا من خلال كوى ضيقة، وكان هذا الحكمة واضحة: فان مساكن الاغنياء يجب ان تكون حصونا حصينة، وان اولئك الذين يملكون المتاع الكثير يحسنون صنعا اذ يذودون بالقوة عما اكتسبوه بالخداع والحيلة. واذن فقد كان قصر نقولا نرلي مزودا بالابواب الحديدية والسلاسل الضخمة. واما في الداخل فقد كانت جدرانه مزدانة بالرسوم الباهرة صنعها مهرة الفنانين الذين صوروا الفضائل السبع في أشكال نساء وبطارقة ورسل وأنبياء. وكانت الغرف مفروشة بالسجاد الثمين، وقد حيكّت عليها نقوش تمثل قصصا وحكايات معروفة وكانت وسيلة نقولا نرلي لظهار ثرائه العظيم في المدينة أن يقيم المنشآت الخيرية، فشاد خارج اسوار المدينة مستشفى جعل في واجهته افريزا منحوتها بموها، وقد نقش عليه ما يدل على أروع

مآثره وأجمل أعمال البر التي قام بها في حياته. واعترافا بجميله واقارارا بالمبالغ الكبيرة التي قدمها لالحجاز كنيسة «سانت ماري نوفيل» فقد علقت صورته على جدران المكان المعد لجوقة المنشدين في الكنيسة. وكان يبدو في هذه الصورة جاثيا تحت قدمي العذراء المقدسة وقد ضم يديه خشوعا وورعا، وكان الناس يعرفونه على الفور من قلنسوته الصفوية الحمراء ولباسه المزدان بالفراء ووجهه المفرق بالشحم الاصفر وعينييه الصغيرتين المتفرتين، أما امرأته «مونا بسما نتوقا» فانها تبدو في الصورة الى الجانب الآخر من العذراء وعليها سيماء الشرف والكأبة، وتلوح تقيية ورعة في موقف الصلاة هنا، الى الحد الذي لا يمكن ان يخطر ببال انسان ان احدا وجد عندها حظرة او نال منها مأربا.

وكان الرجل من صفوة المواطنين ومن اشدّهم حفاظا على القانون والنظام، وكان معروفا بتكرره للفقراء وانصرافه الى شؤونه الخاصة وعدم تدخله فيما لا يعنيه فاكسب بذلك رضا اولي الامر وتقديرهم واحترامهم.

وحدث ذات مساء من أممبيات الشتاء ان عاد الى قصره متأخرا على غير عادته فأحاط به عند عتبة الباب جماعة من المتسولين اشباه العراة، وقد مدوا اليه أيديهم الهزيلة يسألونه ان يعطيهم مما اعطاه الله. الا انه راح ينحيهم ويغلظ لهم القول ولكن الجرع أحالهم أفضاظا جريئين متهورين كالذئاب فتحتلقوا من حوله واخذوا يسألونه بأصوات ناثحة مبحوحة ان يعطيهم خبزا، وكان هو في هذه الاثناء قد انحنى على الارض ليلتقط حجارة يرميهم بها، فلمح أحد خدمه مقبلا وعل رأسه سلة مليئة بالارغفة السوداء ملء راحتيه، ويلقي بها الى المتسولين اليوساء، ودخل بيته بعد هذا وارى الى فراشه ونام. وفي نومه اصيب بسكتة قلبية فمات على الفور، وبسرعة حسب نفسه معها انه لا يزال راقدا في سريره، اذ تراءى له في مكان مظلم القديس ميخائيل وقد استضاء بنور باهر ينبعث من جسده.

وكان رئيس الملائكة يحمل في يديه موازينه، فأخذ يضع في أرجح الكفتين حلي الارامل التي كان نقولا نرلي يحتفظ بها رهنا عنده، ومجموعة لا تعد ولا تحصى من دراهم ودوانق صغيرة كأنها قلامات أطفار كان قد احتازها دون حق، وقطعا ذهبية جميلة تخلب الالباب لم يكن أحد يملك مثلها غيره كان قد حصل عليها بالربا او الخداع والمخاتلة. وادرك نقولا نرلي ان حياته كلها هي التي يضعها الآن القديس ميخائيل في كفة الميزان، فزاد اهتمامه وانشغل باله وقال:

سيدي القديس ميخائيل اذا كنت تضع في احدى الكفتين كل ما كسبته في حياتي فضع اذا تكمرت في الكفة الاخرى المبرات والمنشآت الجميلة التي أظهرت بها في تمام الابهة ورعي وتقواي. ولا تنس قبة كنيسة «سانت ماري نوفيل» التي شاركت في نفقاتها بمقدار الثلث من تكاليفها، ولا يذهبن عن بالك المستشفى الذي أقمته خارج الاسوار وشيدته كاملا من حر مالي.

وأجابه رئيس الملائكة قائلا: «لا تخف يا نقولا نرلي سوف لا أنسى شيئا» وراح بيديه المجيدتين يضع في الكفة الاخرى السائلة قبة الكنيسة والمستشفى بأفريزه المنحوت الموه، الا ان هذه الكفة لم تنخفض ولم تمل.

فأحس صاحب المصرف بالقلق وساوره الاضطراب وعاد يقول: «سيدي القديس ميخائيل، ابحت جيدا، فانك لم تضع بعد في هذه الكفة جرن الماء المقدس الذي أقمته في كنيسة «سان جان» ولا منبر كنيسة «سانتندريه» الذي حفرت عليه معمودية سيدنا يسوع المسيح بشكلها الطبيعي، لقد كلفتني هذا الاثر الفني غالبا جدا» ووضع رئيس الملائكة المنبر وجرن الماء المقدس فوق المستشفى في الكفة السائلة التي لم تنخفض ابدا. وبدأ نقولا نرلي يحس بجيئه يغمره العرق البارد، ثم راح يسأل «سيدي رئيس الملائكة: هل انت واثق من ان موازينك صحيحة؟» وأجاب القديس ميخائيل وهو يتسم بأن موازينه وان لم تكن على غرار الموازين التي يصطنعها مرايو باريس وصيارفة البندقية فانها لا تعوزها

الدقة والاستقامة.»

وقال نقولا ندلي بصوت خافت وقد شحب وجهه، ان قبه الكنيسة ومبنى الخطابة وجرن الماء المقدس والمستشفى الكبير بأسرته العديدة لا تزن أكثر من تين أو زغابة عصفور.

وأجاب رئيس الملائكة قائلاً: «أنت ترى هذا بأَم عينك، فان عبء سيئاتك أرجح بكثير من زنة حسناتك. وقال الرجل: «فسأحمل الى جهنم اذن؟» ثم ارتعدت فرائضه واصططكت استانه من شدة الخوف، الا ان صاحب الميزان السماوي استطرده يقول «صبراً يا نقولا نرلي، صبراً، اننا لم ننشأ بعد. فقد بقي هذا» وتناول القديس الارغفة السوداء التي ألقى بها الصيرفي الفني الى الفقراء في عشية اليوم السابق ووضعها في كفة المصنات فمالت فوراً وشالت الاخرى حتى استوت الكتتان، لا ترجح احدهما على الاخرى، ولا تميل الى يمين او شمال، وقد اشارت ابرة الميزان الى التساوي التام بينهما.

ولم يصدق الصيرفي عينيه. وسمع رئيس الملائكة يقول له «انت ترى يا نقولا نرلي انك لا تصلح للجنة كما لا تصلح للنار، عد اذن الى فلورنسا واكثر في مدينتك من هذه الارغفة التي وهبتها الفقراء من يدك ليلاً، وليكن ذلك دون ان يراك أحد. وعندئذ تنجو. وليس بكاف ان تفتح ابواب السماء للسارق الذي يشوب واللبغي التي تذرف الدمع. ان رحمة الله لا حد لها وهي تسع الجميع وتقبل حتى توبة غني مثلك. أجل أكثر من هذه الارغفة التي ترى زنتها في موازيني. هيا.. عد الى فلورنسا..»

واستيقظ نقولا نرلي فوجد نفسه في فراشه فاعتزم ان يأخذ بنصح رئيس الملائكة، وبضائع خبز الفقراء ليدخل ملكوت السماء.

وكان في أثناء السنوات الثلاث التي أمضاها على الارض بعد موته الاول رحيماً بالفقراء حانياً على البؤساء ومتصدقاً عظيم الاحسان..

اونوربه دي بلزاك (فرنسا)

هأمة في الصحراء

بعد أن سار الجندي بعض الوقت فوق الرمال بكل ما تبقى فيه من عزم وقوة، اضطر ان يقف، فان النهار كان قد انقضى. وعلى الرغم من جمال السماء في ليالي الشرق، فلم يكن ليجد في نفسه القوة على مواصلة السير. ولحسن الحظ استطاع ان يصل الى قمة تل مرتفع تناثرت فوقه بضعة نخلات ذاهبات في السماء كانت سعتها تراءت له منذ زمن طويل فحث اليها خطاه وقد استيقظت في قلبه أعذب الاماني.

وكان الوهن والاعياء قد نالا من الجندي، فانطرح فوق حجر كبير من «الفرانيت» جوفته يد الطبيعة فغدا أشبه ما يكون بسرير مريح، ثم استغرق في نوم ثقيل دون ان يتخذ اية حيلة للدفاع عن نفسه في أثناء رقاذه.

وفي الصباح ايقظته اشعة الشمس التي انصبت على «الفرانيت» فجعلته يتقد اتقادا. ودار ببصره هنا هناك ثم راح يحدق النظر في أشجار النخيل، وبعد أن فرغ من عدها وتأمل تيجانها الخضراء الوارفة عاد يدور ببصره في تلك الانحاء المترامية فهاله ما رأى، وأحس بأشد القنوط يتقلقل في أعماقه.

لقد شاهد بحرا خضما لا حدود له من رمال الصحراء الضاربة الى السواد تمتد في كل الاتجاه، ويضل البصر في آفاقها ولا تنفك تنزهج تحت أشعة الشمس

الحامية كأنها حد سيف صقيل. وقد التبس عليه الامر، فلم يعد يدري هل هو بحر من جليد هذا الذي يراه أم هو عدة بحيرات تجمع بعضها الى بعض فبدت كأنها مرآة منبسطة. واشتعلت الارض والسماء نارا، وارتعدت فرائص الجندي حيال هذا الصمت المطبق الرهيب، وقد اشتدت ثمة وطأته وعظم سلطانه وجبروته. وقد كانت الآفاق الممتدة الى غير حد والى غير نهاية تعتصر القلب من جميع أقطاره. وما كانت العين لترى سحابة واحدة في فجاج السماء، وما كانت نسمة من هواء لتصافح الاذن. لا شيء غير تلك الرمال الملتهبة تتحرك حركتها الخفيفة الدائمة.

وضم الجندي الى صدره جذع احدى النخلات كأن ذلك الجذع صديق حميم، ثم طفق يبكي. وجلس بعد ذلك ولبث في مكانه يتأمل بأسى عميق ذلك المشهد الرهيب الذي علق به ناظره، وبنا له ان يصرخ من أعماق حنجرتة لكانما يريد أن يؤنس وحشته، ولكن صوته ضاع في تلك الفجاج الهائلة ولم يكن له من رجع في غير صدره وحده.

وانحدر الجندي من ناحية التل الاخرى المقابلة للناحية التي صعد منها في مساء اليوم السابق. وعلى بعد خطوات شاهد نخلا مثقلا بقطوفه، فاستيقظت في قلبه تلك الغريزة التي تربط أسبابنا بأسباب الحياة.

وقد انعشه ما رأى، فهرز اليه نخلة فتساقطت منها ثمارها الشهية وأدرك وهو يشذوقها ان الذي ألم قبله بهذا المكان قد تمهد ذلك التخيل وعني به، وآية ذلك هذه الرطب الجنية مبدولة له في كل حين. وانقلب حاله من يأس وقنوط الى أمل ورجاء عظيم، وعاد الى مقره فوق التل وتشاغل بقية يومه منهمكا في قطع نخلة عقيم من ذلك التخيل الذي أظله في ليلته الماضية.

لقد شغله هنية التفكير بوحوش الصحراء، وتوقع أن تأتي لترد الماء من

ذلك النبع الغائر في الرمال الذي لا يبدو جليا واضحا الا في أسفل تلك الصخور الجائئة على صدر الصحراء فأزعم أن يتحصن منها باقامة سد على باب صومعته المنحوتة في الصخر. ثم نام داخل كهفه الرطب وقد أرهقه العمل وحر الشمس في يومه. وعندما انتصف الليل هب من نومه وقد أزعجه صوت غريب. وأتاح له الصمت العتيق ان يتبين ان ثمة كائنا يتنفس بقوة وحشية خارقه لا يمكن أن تصدر عن مخلوق من البشر، فجمد قلبه من الرعب الذي ضاعف من هول الظلام الشامل والصمت المطبق وأخيلة اليقظة. ولقد قف شعر رأسه مما أحس به من ذعر وخوف. ومن شدة محديقته في الظلام أمكنه أن يتبين بصيصا ضئيلا من نور أصفر، فعزا ذلك، في هادئ الامر، الى انعكاسات من أحداق عينيه. وما هي الا ان سطع ضياء القمر فساعده على تمييز ما كان يحس بوجوده في الكهف. وعلى الفور شاهد وحشا ضخما الجثة راقدًا على بعد خطوتين منه.

هل كان ذلك الوحش أسدا أم غمرا أم تمساحا؟ وراح الجندي يكابد عذاب الاستماع الى انفاس الوحش دون أن يجرؤ على الاتيان بحركة ما، وقد ملأت الجرو رائحة غليظة كتلك التي تصدر عن الثعالب ولكنها أشد نفاذاً وأعظم وطأة.

لم يلبث القمر، في تصعيده، أن اعتلى الافق فأضاء الكهف تماما وراحت أشعته تنير أديم ذلك الوحش. وأدرك الجندي أنه حيال انثى الفهد. والفهود من فصيلة القط الكبير. ورأها الجندي تفتح عينيهما لحظة ثم تغمضهما، فجاشت في نفسه ألف فكرة مضطربة. اعتزم أولا ان يقتلها بطلقة من بندقيته ولكنه تبين انه لم تكن بينه وبينها مسافة كافية لتسديد البندقية واتقان تصويبها نحوها، ولقد وضع راحة يده مرتين على مقبض خنجره وفي نيته أن يحز رأسها. ولكن ماذا يحدث لو أخطاها؟ سيكون مصيره الموت دون ريب. وأثر في النهاية فرصة الصراع معها واعتزم أن يتفحص انثى الفهد، فرأى فيها ملطخا بالدم وقال في نفسه: لقد أكلت حتى شبعت من لحم انسان او حيوان. وسوف لا تحس بالجوع

عندما تنهض من نومها.

أجل لقد كانت انثى فهد لا ريب في ذلك البتة، وآية ذلك فراء بطنها وفخذيها، انه فراء أبيض ناصع جميل. وكانت بقع صغيرة شبيهة بالمخل تستدير حول يديها وقدميها كالاساور والدمالج، وكان ذيلها ناصع البياض كذلك، وإذا عضل قوي، غير أنه كان منتهيا بحلقات سود، أما سائر جسدها فكان أشقر ذهبي اللون ولكنه ناعم المجس رقيق الملمس وعليه زخارف من بقع خاصة على شكل ورود تتميز بها الفهود عن سواها من أصناف السباع.

أشرقت الشمس ففتحت الفهدة عينيها فجأة، ثم تغطت بعنف وتناجت فباتت أنيابها المخيفة وتبدي لسانها القوي كمبرد رهيب، ثم أخذت بهذا اللسان تنظف قوائمها وقمها، وراحت بعد هذا تحك رأسها بحركات كلها خفة ولطف. واستعاد الجندي مرحه وشجاعته وقال يخاطب الفهدة في نفسه: «نظفي نفسك اذن وتبرجي.. فلن نلبث ان نتبادل تحية الصباح. ثم أطبق بيده على مقبض خنجره.

في هذه اللحظة أدارت الفهدة رأسها نحو الجندي وحدقت فيه النظر طويلا دون ان تتقدم منه، فارتعدت فراتصه من شدة تحديقها ونفاذ نظرتها الفولاذية وتألق عينيها تألقا لم يكن من قبل قادرا على تحمله، وعلى الاخص عندما شرعت تخطو نحوه. غير أنه أخذ يتأملها بلطف ومودة، وادام اليها النظر كأنه يريد أن يتفقد السحر من عينيها الى قلبها وتركها تقترب منه، ثم مر براحه يده فوق جسمها كله، من رأسها الى ذيلها، وهو يحك لها ظهرها بأظفاره. وعندئذ رفعت ذيلها ملتذة بلطفته المقصودة وند عنها ما يشبه هدير القط وهو في حال بهجة وسرور، غير أن هذا الهدير انبعث من حجرة عظيمة القوة، خارقة القدرة عميقة الغور حتى لقد تردد صدها في الكهف هادرا مدويا باعشا على الذعر. ولقد ادرك الجندي ما للملاطفة من أثر في نفسها فراح يضاعفها ويكثر منها.

ولما أبين انه طامن بحلاوة ملاطفته من ضراوتها نهض واراد أن يغادر الكهف مطمئنا الى انها لا تحس بجوع بعد ان ملأت عشة اليوم السابق معدتها من طعام. وتركته يخرج، ولكنه ما كاد يتسلق التل حتى وثبت بخفة عصفور ينتقل من غصن الى غصن، فاذا هي بجانيه تحك نفسها بساقيه وتقيب ظهرها كالقطط من شدة سرورها، ثم ألقت اليه بنظرة غدت أقل حدة ونفاذا ارسلت بعدها تلك الصرخة الوحشية الحادة التي يقارنها علماء الحيوان بالصوت المنشاري.

حاول الجندي ان يروح ويحي. فتركته يفعل ذلك مكتفية ان تتبعه نظرتها، أشبه ما تكون بكلب أمين منها يوحش ضار مخيف. ولما التفت الى الخلف شاهد من ناحية ينبوع الماء بقايا جثة فريسة. كان اكثر من ثلثها قد افترسته الفهدة بعد ان جرت البجثة الى ذلك المكان. واطمأن الجندي ووسعه ان يفسر كيف عافت الاقتراب منه ولم تصبه بأي سوء في أثناء نموه. وعندئذ جلس قريبا منها دون خوف او وجل، وشرعا يلعبان، فقبض على يدها مرة وتحسس فمها وانفها مرة اخرى، وداعب اذنيها، والقاهها على ظهرها وحك بقرة خاصرتيها الدافستين الحريزتين، ولما حاول ان يجس باطن يديها اخفت بعناية تامة مخالبها المعقوفة الحادة كالنصال المشحوة.

كان الجندي لا يزال يفكر، ويده على مقبض خنجره، أن يضمد خنجره في بطنها وهي في هذا الحال من الثقة والاطمئنان، ولكنه خشي أن تصرعه فوراً وهي تعاني آخر اختلاجة من اختلاجات الموت. ثم هو، الى هذا، أحس بان ضميره يزجره عن ذلك ويهيب به ان يعف عن ايذاء مخلوق مطمئن مسالم. ولقد خيل اليه انه قد وجد في تلك الصحراء المترامية الاطراف صديقة تؤنس وتسرّي عنه همه.

أحس الجندي، في أواخر النهار، أنه قد ألف تلك الحالة الخطرة، وسكن الى مخاوفها ومراجعتها، وفي النهاية اعتادت الفهدة أن تنظر اليه كلما سمعته يصرخ

بصوت مرتفع- منيون- اسم علم أطلقه عليها ومعناه ظريفة- وعند مغيب الشمس أرسلت من حنجرتها مرارا صوتا عميقا كله أسى وكآبة.

وكأنته ما كانت رغبة الجندي في أن يظل يقظا حذرا، مرهف السمع والبصر فقد تغلب عليه سلطان الكرى فنام، ولما استيقظ لم ير الفهدة، فصعد التل وارسل بصره الى بعيد فرأها تقفز وتوثب، وما ان لحته حتى أقبلت ممرعة اليه فتلقاها بالملاطفة والتربيت رقة وعذوبة وطفق هو يخاطبها رفيقا بها كأنها حيوان أليف.

مضت أيام على هذه الحال أتاحت للجندي ان يتأمل عظمة الطبيعة في الصحراء. وقد أطلعه الصمت المطبق على كل اسرارها وشمله سحرها، واكتشف في طلوع الشمس وغياها مناظر خلابة لم يعرفها قلب بشر. وكان اذ يمر عصفور يرف بجناحيه- وقد كان هذا نادر الحدوث- يرتعش بدنه لذة وسرورا، وإذا شاهد السحب تتداخل وتتبدل ألوانها ويتعاقب بعضها اثر بعض في رحلتها عبر الصحراء أحس ان قلبه يمتلىء غبطة وسرورا. وفي الليل كان يتأمل ما يفعله ضياء القمر المنسكب فوق محيط الرمال. ثم امتلأ فؤاده بحبة الفهدة، اذ كان لا بد له من عاطفة جميلة يأنس بها قلبه في تلك الصحراء، وسواء كانت ارادته المصممة هي التي غيرت من طبع وقيسته، او كان الغذاء الوفير الذي تجده في أطراف الصحراء، وقد امتلأت بأشلاء القتلى من ضحايا المعارك الدائرة رحاها هنا، هو الذي فعل ذلك، فان الفهدة أبقت على حياة الجندي وراعت حرمتها، وهو بدوره لم يعد يحذرها ويخشها بعد الذي رأى من تألقها.

وكان الجندي يمضي اكثر وقته نائما، ولكنه كان مرغما ان يكون منتبها شأن العنكبوت في نسيجها، لكي لا تفوته فرصة الخلاص اذا ما مر احد عند حدود الاتفاق، وقد مزق قميصه وثبته فوق عودين اقامها في رأس نخلة باسقة ليكون كالراية يشاهدها من بعيد المسافر المأمول.

وكان في الساعات الطوال التي يتخلى عنه في أثنائها الامل والرجاء يتلهى
بملاعة الفهدة. وقد ادرك في النهاية كيف يميز بين مختلف نبرات صوتها ومعاني
نظراتها، وغدت لا ترمجر ابداً وهو يمسك بخصلة الشعر في نهاية ذيلها الرهيب
لكي يعد ما يزينه من دوائر بيض وسود. وكان يلذ له بصورة خاصة ان يشاهدها
في حال لعبها ومرحها فكانت خفتها ورشاقة حركتها تدهشه دائما. وكانت تشير
اعجابه بمرونتها ولينها حين تقفز او تزحف او تنزل فوق الرمال او يتداخل بعضها
في بعض او تتدحرج او تريض او تنطلق في كل اتجاه. وكائنه ما كانت سرعة
انطلاقها، وكائنه ما كانت قوة الانزلاق فوق صخر «القرانيت» فقد كانت تقف
فجأة وبحركة واحدة اذ تسمعه يناديها «مليون».

ولكن كيف انتهى امر هذين المخلوقين المتآلفين؟ لقد حدث هذا على نحو من
سوء التفاهم وقد رواه لي ذلك الجندي القديم فقال: لا أدري، ذات يوم، أي ألم
سببته لها، فالتفت الي وقد استشاطت غضبا وخذشت ساقي بأنيابها، فتوهمت
عندئذ انها تهم ان تفترسني فأغمدت خنجري في عنقها، فهوت تتقلب وقد
اطلقت صرخة جمد لها قلبي، ثم رأيتها تتخبط وهي ترسل نحوي نظرة خالية من
الغضب. وشد ما تمتيت آنئذ لو استطيع ان ارداها الى الحياة بأي ثمن.. واستقر
في روعي انني انما قتلت في الواقع انسانا حيا.. ولقد وجدني الجنود الذين هرعوا
الي عندما شاهدوا رايتي فوق ذؤابة النحلة الباسقة ميلل الوجه بالدموع.

اندره موروا (فرنسا)

بعد عشر سنوات

- أتدري يا «برتران» من حدثني في الهاتف صباح اليوم؟
- ومن أين لي أن أعلم؟
- كان ينبغي ان تعلم ذلك بالغريزة.. انها امرأة أحببتها كثيرا..
- وهل في الدنيا امرأة سواك أحببتها كثيرا؟
- يا لك من جاحد يا برتران! وبياتريس؟
- أية بياتريس؟
- أية بياتريس؟.. انك رائع التمثيل حقا.. الم تعد تذكر قط بياتريس ده سولج؟
- آه.. بياتريس هذه.. كنت أحسبها في الصين او اليابان او في أي مكان آخر يعلمه الله.. ليست تقوم برحلة حول العالم؟
- لقد فعلت ذلك.. وعادت مساء أمس الى «الهافر»
- ولماذا اتصلت بك هذا الصباح؟

- لكي تجدد الصلات.. بعد غياب طويل.. وانها لتريد ان تعود فترى
أصدقاءها.. فهذا أمر طبيعي..

- لم أكن أدري اننا أصدقاءها..

- برتران!.. اني لتعاودني الذكرى.. أما كنت اوشك ان اتركك بسبب تلك
المرأة؟..

أجل.. كنت أقول لنفسي: «إذا لم يعد يريدني.. إذا كان بحاجة الى اخرى..
فلماذا تراني اتشبث به؟ ليس لنا أبناء.. واحسب ان من واجبي أن أتواري..»
ولقد ذهبت الى أبعد من هذا فرأيت صديقي «لانكره» لأسأله كيف يمكن ان
يجري الطلاق دون صخب او ضجيج، وقد أصفى لانكره الى قصة شقائي ونصح
لي بالصبر ثم هدت لي التضحية بالغة القسوة فبقيت..

- لحسن الحظ..

- أجل.. لحسن الحظ.. ولكن من كان في وسعه أن يتوقع، يا عزيزي، أن
شفائك سيكون سريعاً هكذا؟.. هل نسيت أنك، قبل عشر سنوات، لم تكن
لتستطيع ان تعيش ساعة واحدة بعيداً عن بياتريس، وانك كنت تترقب كل يوم
نداءها الهاتفى لك، وانك بكلمة منها كنت تتخلى عن أهم مواعيدك، وتخلف
اشد وعودك ضناً بها؟ آه.. بالرنين الهاتف الصباحي ذاك.. انني لا أزال اسمعه
حتى الآن.. كان في كل مرة يخفق له قلبي.. وكانت خادمتنا اميلي، اذا ما
جاءك نداء الهاتف وانت لا تزال في غرفة نومك، تحاول ان تجد عبارة الشعور
بالذنب والمشاركة فيه فتقول لك في غير حذق: «هناك من.. يظلمك.. يا
سيدي..» وعندئذ يبدو عليك الارتباك.. ويلوح عليك الزهو بسذاجة.. ما كان
أنقطع هذا كله!

- لا بد هذا كان، بصورة خاصة، مضحكا.

- دون شك، ولكنني كنت أشد تعاسة من ان المح الجوانب المضحكة في الموقف.. اتذكر يا برتران؟ انك لم تكن تهتم بشيء قط في الدنيا اهتمامك ببياتريس.. كان اسمها اذا جرى به حديث سرعان ما تتغير ملامحك. وكان هذا، لمن يراك، مؤثرا ومؤلما في آن واحد.. كنت تحب الاشخاص اذا كانوا يعرفونها، وتحب الاشياء لانها كانت تهواها.. ولقد رأيتك، وانت أعقل الرجال وأقلهم اعتقادا بالخرافات، تهتم فجأة بـ «فقراء الهنود»، والعراقات والسواحر وصانعي المعجزات.. أجل كنت تهرع معها الى أماكن تلفيق الاكاذيب الغربية.. ثم، وانت الرجل الذي حال بيني وبين اقتناء الحيوان، كنت تنفق الساعات لتختار لها قطا فارسيا تحب أن تقتنيه.. على كل فالامر بسيط: لقد كنت رهن اشارتها.. وكان في وسعها ان ترمي.. إليك فتهرع إليها ككلب.

- انك تبالغين..

- لست أبالغ.. كنت تبدل وتغير من مشروعاتك ثلاث مرات في اليوم الواحد وفقا لنزواتها.. ان اجازاتنا نفسها كانت تؤجل نزولا على أهوائها.. وذات صيف ذهبت بي حتى أعالي الشمال، وأنا التي تخشى البرد أكثر من خشيتها الموت، وما كان ذلك الا لان بياتريس ارحلت الى بلاد النرويج على باخرة آله و«جيمس» وكنت أنت ترجو، على الاقل، ان تلمحها مصادفة عندما ترسو البخرة في احدى الموانئ.. وشد ما بكيت وانتحيت في تلك الرحلة.. كنت مشلوجة الاطراف، مريضة، موهنة قانطة.. ولكنك لم تر ذلك.. بم تفكر؟

- أحاول أن استعيد مشاعري في ذلك الوقت.. لقد كنت مجنوننا بحب هذه المرأة حقاً.. واني لأتساءل عن السبب..

- لا تكن فقط يا برتران.. لقد كانت خلافة ولا تزال..

- ان في باريس الف امرأة أجمل منها.

- ربما.. ولكنها كانت ذات ملاحظة حلوة.. تكاد تكون طفلية.. ملاحظة خاصة
بها وحدها.. وكانت راجحة العقل..

- اتعتقدين ذلك؟

- كنت انت الذي يؤكد لي ذلك..

- وهل كنت قاضيا منصفا؟ انني لو رأيته الآن لما عرفت ما اقوله لها.. وما
أحسب الا انها تحيا على بضع حكايات استمدتها مني، ويضع قصص اقتبستها
من «ذلك الرجل» سلفياتي هذا مزيج حقا..

- هل تذكر يا برتران يوم ان اجرى لها الطبيب «غودان» عملية جراحية؟

لقد كنت شاحب اللون من الاضطراب فأثرت اشفاقي.. وحاولت في ذلك
اليوم ان اتسامى.. وتحدثت في الهاتف، انا نفسي، ثلاث مرات لأعلم انبا ما في
المستشفى.. وكانت تلك تبشر بالخير.. فنقلها اليك قائلة: «لا تجزع يا عزيزي..
ليس الامر خطيرا...»

- لقد نسيت..

- يا للخسارة.. فلم يبق اذن من أشرف عمل قمت به في حياتي حتى ذكرى
واحدة؟..

وقل يا حبيبي.. هل نسيت ايضا انك اردت ان تنتشر يوم فرت مع
«سلفياتي»؟

- ما اردت الانتحار.. بل لقد شرعت في كتابة رسالة تنبئني فيها بقرارك..

وقد اعطيتني هذه الرسالة ذات يوم وانت تقوم بترتيب اوراق لك.. اتريد ان تراها؟

- لا اريد...

- بل تريد.. وستراها. هاكها.. اقرأ: « يا عزيزي الصغيرة.. أنا أعرف أن ما سأقوله سيؤلك أشد الالم..واني لارجو صفحك.. فما عدت بمستطيع ان اعيش.. الا اني اريد، قبل أن اسدل الستار، ان اشرح لك أشياء كثيرة ما كان ينبغي ان تفهميها.. ويبدو لي انني سأخفف من ألمك اذ أبدي لك ان زواجنا كان دائما غير ما كنت تتصورين.»

- ان هذا يؤذيني يا ايزابيل.

- اتعتقد ان هذا كان يلذ لي؟. ولكن اسمع ايضا ما كتبت في هذه الرسالة: «اليك سر موقف كان غالبا ما يبدو لك غريبا.. انني في لحظة لقائنا ، انت وانا، كنت أحب بياتريس ده سولاج. فلماذا جعلت يومئذ الاحقك واطارحك الغزل.. ثم تزوجتك؟ كان ذلك لان بياتريس نفسها كانت قد تزوجت، لأنني كنت ارجو ان انسأها، لانني كنت أجد فيك حنانا لم تعطني هي اياه قط، واخيرا فلأن الانسان ليس بسيطا، ولانني كنت أعتقد صادقا ان..» حسبك يا ايزابيل..

- انني لا أحرق أي شيء اطلاقا.. ثم ان هذه الرسالة.. قراءة هذه الرسالة من أسباب السلامة لي ولك.. واكراما لك أترك منها صفحتين، ولكن اسمع ما يلي:

«ان خطيتك الكبرى، يا ايزابيل،- ولقد كان لك انت ايضا في هذه المغامرة المؤسفة اخطاء- ان خطأك البالغ كان في تلك الزيارة الغريبة التي قمت بها لبياتريس لكي تتوسلن اليها ان تجعلني استئس من حبها، فتد بذلك زوجك

إليك.. وبومذاك لجحت نجاحا باهرا يا ايزابيل المسكينة. ولقد ألقيت أشد الندم
في قلب امرأة طيبة جدا في واقع الأمر.. وأفلعت في فصم عراها مني، ولكنك
في الوقت نفسه قطعت ما بيني وبينك.

مسعاك ذاك يا ايزابيل هو مسمى بقيت أجهله دائما، ولكنني استطعت أن
أبينه من ألف دليل- أحسست أن بياتريس تنفلت مني وتنزلق نحو «سلفياتي
وسبب من مسعاك أريد أن أموت..»

- يالها من لهجة مسرحية كريهة...

- لم تكن هذه غير مسودة رسالتك.. يا برتران.. ولكنني أريد أن تصفي إلى
الفقرة الأخيرة منها: «لا تأسفي على شيء. إن حياتي، على أي حال، كانت قد
انتهت.. وما وددت أن أبلغ الشيخوخة أبدا.. فاستقبلي هذا الحادث بصدق
استقبالي إياه.. وستجدين الحب أيضا، يا ايزابيل، وإنك لخليقة به، فاغفري لي
أنني لم أعرف كيف أجعلك سعيدة. أنني ما خلقت للزواج بتاتا، غير أنني انطويت
لك على قيد الحياة، فإني كنت سأتعلق بك أكثر فأكثر. وكلمة أخيرة: عندما
تعود بياتريس وحدها أو مع سلفياتي، أرجو أن تحسني استقبالها..»

- أين هذه الورقة، أتراني كتبت حقا هذه الحماقات؟

- أجل يا برتران.. خذ وشاهدها بأمر عينك..

- ما أغرب هذا! أقسم لك أنني لا أستطيع حتى أن أجد ذكرى الرجل الذي
فكر هذا التفكير.. «وما وددت أن أبلغ الشيخوخة أبدا» وهأنذا يا ايزابيل
العزيرة، على عتبة هذه الشيخوخة..

- أتراك غير راض عن الحياة؟

- كلا. بل أنا سعيد أن اشيخ بقريك..

- وهذا يدل، يا برتران، على أنه لا ينبغي أن نموت حيا، ولا أن نستيش من ظفر..

- اترين، يا ايزابيل، ان الامثلة تصلح ان تكون ادلة وبراهين. في دنيا العواطف كل شيء كان ممكنا.. ان مسعاك عند بياتريس كتب له التوفيق.. وكان يمكن كذلك ان يكتب له الإخفاق.. وكان هذا المسعى يمكن أن يقتلني..

- يجب أن نحازف.. وانك الان لاثم وأقوى ما تكون حياة.. ولكنك لم تقل لي ما ينبغي أن اجيب تلك السيدة الجميلة..

- ماذا عساها تريد؟

- ان ترانا.. في دعوة منا للغذاء او العشاء.. او ما تريده انت..

- ستروي لنا قصة رحلتها حول العالم.. بالي.. آنغور.. هونولولو.. سيكون هذا باعشا على ملل قاتل.. جدي عذرا ما..

- مستحيل يا برتران.. ستحسب انني حاكمة.. ثم ان رؤيتها ستبهجنني..

- وأي سرور ستجدينه في لقاء امرأة تقولين انت انها عذبتك عذابا شديدا؟

- هو السرور الذي يجده المرء اذ يرى نفسه فوق الارض الثابتة بعد قلقلة السفر في البحر.. ان مرأى بياتريس- وهي تذكرني بهمومي الماضية- يجعلني أكثر تذوقا ومتاعا بطمأنينة حياتي الراحنة.. ثم انني اجدتها غاية في اللطف.. صديقتك تلك..

- هل تكرهينها؟

- كنت أكرهها يوم كانت تجري وراءك.. يوم كانت تعصف بك.. يوم كانت تحتل منزلي.. أما الآن فهي في نظري امرأة لذيلة.. واعترف أنك كنت ذا ذوق سليم جدا.. وهذا يسرني حقاً..

- أنك تعلمين يا إيزابيل، أنني في هذه اللحظة متعب جدا واخشى ما أخشاه هو تلك الأحاديث العقيمة.. فلا تفرضها علي..

- سأجنبك إياها كلها.. ما خلا هذا اللقاء.

- لن تقولي، يا إيزابيل، أنه يجب أن استقبل السيدة «مولج» لارضيك وأبهجك...

- بل هذا ما أقوله يا برتران!

فيرونيك اليه (فرنسا)

هدية

من خلال النافذة غمرت الشمس سجادة الارض والاثاث وطاقة زهر الليلكى
كما غمرت قلبي.. وكانت النار تشيع الدفء في هذا كله ايضا.. وجلست أنا بين
أشعة الشمس ولهب النار.. ورحت استنشق اريج الزهر ورائحة الشمع البكر الذي
صقلت به أرض البيت الخشبية. انه بيت «برنار».. هذا البيت الذي حلمت سنين
طوالا بأن أسكنه..

في هذا المساء يعود «برنار» الى بيته. وثمة متسع من الوقت لكي أصبو،
على هيئة ومهل، الى الماضي..

.. كنا - برنار وأنا- في السنة الاولى من سنوات دراسة الطب. وكنا عاندين
من السينما وجماعة من الاصدقاء، والليل أخذ يرخي سدوله، ورذاذ المطر يبلل
وجهي.

وكننت صامتة أصغي لصوت برنار يعلو غيره من الاصوات. وكان في صوته
رنه لم اكن قد تبينتها من قبل. وكان انفعالي اشد من ان ادرك، منذ ذلك المساء،
انني كنت احبه.. كنا، هو وأنا، نقيم في حي واحد. وما اكثر ما كان تنقلنا هناك
يجمع بيننا. وكنا نحب الكتب نفسها واسطوانات الموسيقى ذاتها، كما كنا نحب
الجبل والريف. وكننت انا أقرأ ما في نفسه، ويقرأ هو ما في نفسي.. يقرأ كل

شيء، الا هذا الحب القوي العميق الذي كنت اكنه له، والذي كان- منذ سنوات- يملأ حياتي حتى اكسبها كل وزنها وكل قيمتها..

قبل الامتحان النهائي ببضعة أيام قال برنار بلهجة جد طبيعية:

- سرف أتزوج وشيكا يا كلير..

كنا نسير جنيا الى جنب في الشارع.. كذلك المساء القديم الذي شرعت أحبه فيه.. الا ان المطر- في هذا المساء- ما كان يهطل على الارض الصلبة.. وكان الليل دافئا.. وجعل برنار يحدثني عن «نيكول». وكان يقول انها جميلة، وذكية وطيبة.. وانني لا بد ان احبها حين أعرفها.. شد ما كان قاسيا لا يدرك ما يقول..

وبعد ذلك أصبحت اراها معه كل يوم.. وما استطعت ان اجدها جميلة ولا ذكية، ولا طيبة.

كانت فارعة القد، سمراء اللون، فائضة البشر والمرح.. وكانت تزعم أنها مخيرة صحفية غير اني لم أقرأ لها أي مقال. وكانت تحب المجتمع، والحفلات وأحدث أنواع التبرج.. وكانت تبسم متسامحة، متساهلة، للملابس برنار المهمة، ونشاطه ومحسه لعمله كطبيب ناشيء في الحى ولحيه.. وهذا ما لم أطلقه منها..

وفي ليلة خطبتهما نفسها، سألتها:

- لماذا تراك تتزوجين برنار؟

ولم تحب على الفور. وانما اتخذ وجهها سمة الرصانة الجادة ثم راحت تهمس:

- انه أفضل مني كثيرا.. منذ ذلك اليوم بدت لي أقل غباء.. انها، عبر

انزعاجها، تعجب به.. وعساها تحبه أيضا.. ولكنني كنت أحس أن برنار لم يكن سعيدا، وكان موعد الزواج يقترب.. فكيف يسعه أن يفهم أخيرا؟ وخلافنا لكل منطق تزوجها.. تزوج «نيكول».. وعلق أحدهما الآخر.. وارتبطا للأبد.. وفي ليلة زواجهما رحت أجوب شوارع المدينة وطرقاتها ناضبة الدمع. زائغة القلب.. كنت أتألم.. وكنت قد أصبحت طبيبة لمدارس الحى.. وسأرى برنار أكثر الوقت.. وكان هذا يفزعني..

وكان مرضاه لا يتركون له وقتا للراحة في ليل أو نهار.. وسرعان ما تسرب الملل إلى قلب نيكول.. وجعلت تخرج وحدها، وتتمادى في ذلك أكثر فأكثر.. ثم سافرت. لا ريب في أنها تذرعت بعملها الصحفي. كانت قد طلبت من برنار أن يصحبها، ولكنه أبى.. أن مرضاه قبل كل شيء.. حتى قيل امرأته نفسها.. إلا أنه ظل يتلقى فئاتا من حنانها، هذا الحنان الذي أضحت تقدمه له بحساب.. وكان هو يدفع، دون أن يرتعش له هذب، ثمن فساتينها وترفها وأسرانها دون حساب.. وكنت أنا أجدها مبذرة، تافهة.. وكان برنار يبدو حيالها وجلا ودون ما حماية أبدا.. وكان موقفه هذا، أكثر من أي شيء آخر يقصي عنه نيكول.

لقد عمل دائما متواريا.. تائها بين كتبه.. عائشا مع مرضاه وكانت له روح رسول من الرسل.. أما هي فلم تكن لها روح تابع من التابعين..

وفي يوم من أيام السبت وجدت في صندوق بريدي رسالة قصيرة منه: «تعالى فانتى بحاجة إليك».

وذهب إلىه، في بيته، ووجدته ينتظرنى في مكتبه ضائعا، منسحقا، ومد لي يده بكتاب من نيكول تقول له فيه:

«لماذا نستمر يا برنار، في هذا التمثيل الزائف؟ اننا ولا رب نشقى كلانا.. لقد حسبنا أن احدهنا يحب الآخر.. ولكنني اجد انني اعذبك بقدر ما تستمني..

فالأفضل ان نفترق.. ولهذا فأنا راحلة الى الهند هذه الرحلة التي ستدوم ثلاثة أشهر.. والتي لم توافق عليها.. ولكنك ستوافق عندما تملأ رثتيك أخيراً بالهواء الطلق، كما كنا، أنا وأنت، غلاً رثتيناً بهذا الهواء قبل ان نلتقي.. وكما غدوت ولا سبيل الى ذلك وأنا معك على الرغم من أنني كنت احبك.. فوداعاً.. ولا تبغضني..»

وفي خلال شهرين كان برنار يأتي ليصطحبني لدى خروجي من عيادتي.. حتى لقد أهمل عمله، لا شيء الا لكي يحدثنني عنها.. واستعدت معه في كثير من الرقة والعذوبة صداقتنا القديمة.. ولكن عيشاً انتظرت ان اجد في صوته ذلك السأم الذي لا يريد ان يأتي.. انه لا يزال يحبها دائماً..

والآن.. فقد اخفت الشمس سحابة.. وغدا الجو أقل دفئاً.. فأرثت النار.. ولن يلبث برنار ان يكون هنا..

ومن جديد أحس بهذه الصدمة وبهذا الخوف وبهذا الالم.. كان قد مر على الحادث الذي وقع خمسة عشر يوماً.. ولكن يبدو لي كأن ذلك كان في الأمس فقط:

كان برنار ينتظرني في وقت خروجي من عملي. وركبت معه السيارة.. فاهتسم لي وانطلق بالسيارة صامتاً. ثم قال:

- بعد شهر ستعود.. اترأها تأتي لثرائي؟

ويدأ لي صوته دافئاً.. فهل أصبحت نيكول ذريعة للقاءاتنا؟ كان الجو لا يزال بارداً، وقد تأخر الربيع.. وكنت قد سئمت تلك الايام المتشابهة التي كانت تطول وتتصرم الواحدة تلو الاخر دون ما خطرة زائفة.. دون ما جديد.. وما ادري الا انني ارسلت صرخة مدوية وسط قعقعة صدام محطم عنيف مروع.. وفتحت

عيني لارى برنار منكفئا لا حراك فيه فوق مقود السيارة.. وتجمعت حولنا جمهرة من المارة.. ثم أغمي علي..

وفهمت، فيما بعد، ان سيارة نقل تعطلت كوابعها فصدمتنا بعنف، ولم أصب انا بغير رضوض، أما برنار فقد نقل الى المستشفى وبقي فيه تحت المراقبة.. وانا أعلم الان انه بخير.. وفي هذا المساء يعيدونه الي.. ولكني، منذ خمسة عشر يوما، ما فتئت ارجف خوفا عليه.. واني لارعاه واسهر عليه.. أحبه.. كما أحببته في السابق.. اني ما عدت اخفي هذا.. لقد كان وجهه يستضيء كلما زرتة في المستشفى.. وما كان هذا بداعي الصداقة وحسب.. انه لا يذكر «نيكول» الان، لا يذكرها في حديثه ابدا.. ولقد ابرقت لها بالحادث.. ولكنها لم تحبب.. وباركت صمتها في أعماق قلبي..

انني الان وحدي. وما عادت بي من قوة لاكافح ضد حبي.. انني اشعر الصباح واضع كربين للشاي فوق نضد خفيض ووعاء السكر وتلك الباقة الصغيرة من اذاهير البنفسج التي اشترتها منذ قليل.

وعلى حين غرة تصافح سمعي قرعة الجرس الصغير.. ويخفق قلبي بشدة بالغة.. فتكون قد حانت الساعة.. وأهبط سلم البيت راftح الباب..

ولكن من أرى؟ انها «نيكول».. واستند الى الباب.. ولا اجد ما أقوله لها.. ماذا تراها أتت تريد؟ لقد سبق وأخذت كل ما يخصها.. وانه ليبدو عليها انها تعبى.. وتدخل دون ان ادعوها الى الدخول.. ولكن.. صحيح.. انها في بيتها وتجلس قريبا من النار.. وتنزع قفازيها.. ثم تقول في أسى:

- كيف حاله؟

- بخير.. وشكرا.. ولكنها لا تأتي بأي رد فعل.. بل غضي قائلة:

- عدت في اول طائفة .. كنت أخشى ان اصل متأخرة جدا ..

- ولكنك تأتين مبكرة جدا ..

وترفع رأسها في دهشة .. انها لا تدرك .. ما فيها من سوء وانما هو ذهول مطلق عن كل اهتمام بما يتعلق بها .. وتابعت تقول وهي تنظر من حولها ..

- اشكر لك ان قمت بتعهد البيت .. وبرعاية برنار .. متى ترى يعود من المستشفى؟

- بعد ربع ساعة ..

فتتنفس .. وتنهض .. فتتنظر في المرأة .. وتتزين .. ثم تنظر الي أنا .. محرجة .. أجل هو ذاك .. وتعود من جديد فتجلس قرب النار .. انها متعبة وحسب ..

وأترك انا الحجرة .. وأذهب في هذا الليل الذي يغمر الحديقة ..

ماذا تراها تريد؟ انها امرأته .. وستظل كذلك .. ولهذا السبب عادت وفية ، واقل سوماً مما كنت ارجو .. ومع ذلك اذا كان برنار لا بد ان يختار الان .. اترى اكون انا التي يحبها ؟ سيجدني هنا انتظره عند باب حديقته .. وعندئذ سيأخذني في احضانه يرفق .. وأذهب انا به دون مشقة الى بيتي ..

ولكن اايكون هذا سرقة .. كانت نيكول قد تركته .. نيكول زوجته التي تنتظره الان بمسرة وراء النوافذ المغلقة ، نيكول التي يسمعها ان تظل - لو أردت أنا - الحب الوحيد في حياته .. الحب الوحيد كهذا الخاتم الذي وضعه في اصبعها ذات يوم ..

انني خائفة.. خائفة من نفسي.. أناكون شجاعة وابتقي على حبيهما بارادتي
انا، اترى اكون شجاعة فلا أدمر هذا الحب؟ وفجأة أهرب.. وتمر سيارة اجرة
فأستوقفها..

وانا ادرك الان انها بطولة ان اريد البقاء: «صديقة» وحسب.. لا ريب في
أنهما الان في حجرة الاستقبال.. وبخار الشاي يتصاعد من كوبيهما.. وستكون
هي رقيقة معه اذ انها قد رجعت اليه.. وهو.. انه سيأخذها في أحضانه..

فيرونيك الييه (فرنسا)

أهـاء ١

المرأة العجوز تتكلم وقد رفعت وجهها نحو «فلورانس»، انني لا اسمع كلماتها ولكنني اراها، ألمسها، وأجد ان لها عذوبة شعرها الاشيب الفضي، ورجاجة عمرها الطويل. وتصغي «فلورانس» الى هذه الكلمات، ويبدو في نظرتها التأثر العميق، تأثر اولئك الذين يتلقون الكلمات الطيبة. وأبي هو الآخر يلقي بسمعه الى المرأة العجوز وينظر الى فلورانس. ان وجهه هو وجه الحب نفسه، وخلفهما ينهض الوعاء الصيني النفيس الموضوع على حافة المدفأة ذات قطوف وأرج..

ان جماعة من الراقصين والراقصات ينقلون خطاهم الرشيق وسط عجير الازهار، ودخان السكائر، والاحاديث المتبادلة، والنظرات المتألفة. ولقد ذهبت المرأة العجوز، ولم يبق أمام الوعاء الصيني الذي يضم باقة زهر العسل غير أبي.. أبي الذي ينحني الان نحو فلورانس ويعدق فيها النظر دون ان يتكلم، ثم يضع راحة يده على خصرها، ويمضي بها بين الراقصين..

ابن عمي «جاك» مال بقامته نحوي وراح ينظر الي، انه يوشك ان يدعوني الى الرقص من جديد. كلا.. ان قلبي لا يطاوعني... فأتارك القاعة وأصعد الى غرفتي حيث انضو ثياب الرقص وأخلع حذائي ذا الكعب العالي.. وعندئذ تزول

ارتعاشة الرقص التي كانت تخفي عني المي.. وسرعان ما أرتدي مبدلاً، ثم انظر في مرآتي، وأعقص شعري اربعة أو خمسة دبابيس، عندئذ أحس انني اريد ان ابكي..

حقيبتى معدة، وتنورتي معلقة تنتظر، وأنا أهىء نفسى للسفر، فهل ثمة شيء من سوء تفاهم؟ هل أنا هي التي تزوجت منذ قليل؟ ولكن لا سبيل الى زواج بدون زوج.. ولا يمكن ان اكون عروسا وحدي.. وأنا أحس الليلة اني وحيدة.. ولقد غدوت امرأة وما أزال في الوقت نفسه طفلة.. ولكني امرأة لا زوج لها، وطفلة دون أب.. وأبى في القاعة، تحت، لا يدري انني وحيدة أبكي من قسوة الوحدة.. فلورانس الفريدة، التي لا يملأ مكانها أحد، فلورانس التي اكتشفتها في قيعان الاودية وكأنها زهرة خرقت برأسها طبقة الثلج وطلعت.. فلورانس صديقتي: هي الاخرى لا تحس بوحدتي.. انها الان يهددها الختان الذي فقدته ثم وجدته.. انها ترقص وأنا أبكي.. أجل فلورانس عروس هذا اليوم.. عروس ابى..

واظل قائمة وسط غرفتي. هل هي الموسيقى التي تجعلني اتماسك هكذا؟ ربما كان هو الحزن، وانني لاتشبث بالموسيقى مرة وبلاسى مرة تشبثي بهذين اللذين شد ما يخيفني ان اغادرهما او افقدتهما اليوم) وأقترب من النافذة، واتكىء بجيبيني على زجاجها، ومرة أخرى ارى بعين خيالي كيف بدأ كل شيء.. وكيف يمكن ان ينتهي..

كان ذلك في يوم بارد ماطر في أواخر أيام الاجازة أيام الاجازة المدرسية، وكنت اتشأب من الملل، فقد قرأت كثيراً كثيراً، وتصفحت كتباً، وأغفيت، وحلمت حتى امتلأت عيناى وامتلاً رأسى بصور جميع الاودية والصفوح والتلال التي رواها المطر، وراحت تشأى لعيني، من وراء زجاج النافذة، خضراء مزدهرة وصاعدة هابطة الى ما لا نهاية.. ثم علق نظري ببناء طاحون «بارو» القابع كعش

صغير بين العشب حيث يتلوى النهر كأنه حية تسعى..

وكان بناء الطاحون مسكونا، وكنت أنا أعلم هذا، فقد تحدثت به القرية كلها، وكانت تقيم فيه امرأة وحدها. كان زوجها قد قضى نحبه بعد بضعة شهور من زواجهما، وكنت أعلم أنها تؤلف كتباً، فأحببت أن أعرفها.. وعلى حين غرة تملكنتني الرغبة في أن أقطع اليها هذا الوابل من المطر الذي يفصل بيننا.. فنهضت ورحت أهبط السلم ركضا، ووضعت على كتفي فراء الراعي على صدر سهول فيحاء. وانطلقت الى تلك الناحية التي يتلوى فيها النهر، واجتازت الجسر، ومررت تحت النوافذ المزدانة بستائر بيضاء نقية ناصعة وطرقت الباب، فانفتح على الفور، فأدهشني الامر حتى سمعت المرأة الشابة تقول:

- كنت انتظرك..

كانت جميلة، جميلة من قمة رأسها حتى أخمص قدميها.. جميلة كنور ساطع.. وقلت:

- انا ابنة ذلك البيت- هورتوك-

والقيت بنظرة الى بيتنا القائم في رأس ربوة عالية. وقالت هي:

- اعرف ذلك..

وأخذت عن كتفي فراء الراعي الذي يتقطر منه الماء، وعلقتة قريبا من الباب، ثم فتحت بابا آخر، هو باب المطبخ القديم في بناء الطاحون، وكانت فيه مدفأة حجرته تحتل نصف الجدار وتتعالى فيها السنة اللهب، وكأننا ارادت ان تعتذر عن اشتعال مثل هذه النار في شهر أيلول فقالت:

- أشعلتها لكي تتجفني..

ثم ضحكت وعادت تكرر قولها:

- ما دمت كنت في انتظارك

وجلست أنا قبالة النار ولم أقل شيئا خشية ان ادمر هذا الانجذاب الذي تراءى لي أشبه ما يكون بوجود أمي التي لم يقدر لي ان اعرفها قط.. وقدمت لي المرأة الشابة حليباً ساخناً وشطائر من الخبز القمر المدهون بالعسل الاشقر..

ولما خرجنا من بناء الطاحون كان الليل قد لف الوجود كله... والان فانتني أبتعد عن النافذة، والموسيقى تعود فتحثوني وتهدهدني فأكاد أتهاوى.. ولكن ها هو سريري يرحب بي، فألوذ به كما كنت افعل في الماضي لكي أبكي... واتذكر..

وفي الغداة صعدت التل الى بيتنا.. وكان ابي قد انطلق يعود مرضاه، ولما فتح لها الباب تأدى الي صورتها الدافئة، اللين، فهبطت درجات السلم اربعاً اربعاً للقائهما، وقالت:

- انني أنا فلورانس..

لقد سحرني ان اعود فأراها بهذه السرعة، واجدها ماثلة تماماً للصورة التي لم تفارق خاطري منذ يوم أمس..

وجعلت تنظر حولها، ووجدتني متلهفة على احساسني بالسعادة التي نعمت بها في مبنى الطاحون: الاعمدة الخشبية الواطئة، الجدران المبيضة بالكلس، النار التي كانت تتوقد في المدفأة.. أما هنا فان الجدران جد عالية بين طابق وآخر، والقاعة تتمطى وتوسع طولاً وعرضاً بأرضيتها الخشبية المصقولة الملمعة، حتى ليكاد المرء يرى صورته معكوسة عليها.. وعلى حين غرة شعرت بالوجل والتهيب

حيال صور أجداد أُمي المعلقة على الجدار في اطاراتها المذهبة، وهذا الاثاث الفاخر الذي يرجع الى القرن الثامن عشر والذي اختاروه هم وظل محفوظا لي انا الى اليوم.. وانتظرت ان تتكلم فلورانس، واخيرا قالت:

- ما أحلى الحياة هنا.. انه ليخيل الي انني عدت الى بيت أُمي وأبي..

فالتفت اليها فوجدت في عينيها هذه النظرة التي اعطتني اياها منذ لقائنا الاول يوم أمس. فزال ارتياكي تماما وعرضت عليها قائلة:

- أتريدان ان تشاهدي البيت؟

- أوه! أجل.. أجل.. ما اكثر ما رأيته في خيالي...

وابتسمت لي، فذهبت بها الى غرفتي..

يبدو بيتنا، من الجنوب، بناء متجهما رابضا فوق ربوته، في غمر من أشعة الشمس، وأمامه الفضاء المترامي، وتنداح حديقته التي لا سور لها حتى تتصل بما ينبسط حوله من سهل مربع وأودية ذات قيعان مزدهرة... انه بيت أُمي الذي ورثته عن آبائها.. أما من الشمال فهو بيت «برجوازي» هادى، مستكين يمارس فيه والدي مهنته كطبيب فتتجمع من حوله القرية كلها حتى تصبح معه وكأنهما جسد واحد.... وأنا ابنة هاتيك الاودية والسفوح والتلال، وابنة هذا الرجل في آن واحد....

ودوت بفلورانس في غرف المنزل جميعا، ولما دخلنا حجرة ابي أريتها صورة شاحبة، باهتة هي صورة أُمي.. ولاول مرة في حياتي وجدت الجراءة لكي اتساءل قائلة:

- لماذا تراها ماتت.. وأنا ما أزال في أشد الحاجة اليها؟

وبعد فترة صمت أجابت فلورانس ببطء:

- لست ادري.. انا نفسي تساءلت أياها وأياها بعد وفاة زوجي: لماذا تراه
مات؟ لماذا ولم أكن في غنى عنه؟ والان فأنني تعلمت ان اعيش وحدي.. غير
انني ما ازال لا أعرف الجواب عن هذا السؤال ابدا..

كان من صفاتها هذه الصراحة النادرة المثال، المطمئنة، التي لا تجدها كثيرا
عند الكبار من الاشخاص، والتي لا تزعم ان لكل سؤال جوابا عندها..

كانت اجازتي المدرسية قد تقضت الا من ايام قليلة متبقية.. وقالت لي ذات
مساء:

- لماذا تأخرت كثيرا قبل ان تأتي لزيارتي في مبنى الطاحون؟

وأجبتها:

- ولكن.. انت نفسك.. لماذا لم تصعدي من واديك السحيق لزيارتي؟

- كنت انتظرك..

وانه ليخيل الي انني أعيش مرة أخرى تلك الايام الاخيرة التي تصرمت. كنا
نتطلق معا، وقد استبد بنا الجوع والظمأ الى القضاء الرحيب والرياح الهوج، ولا
يحول دون هذا حائل من مطر أو سحب حبلى مريدة.. وكنا نضرب في كل اتجاه،
وكل مكان، فنحن فوق القمم الشامخة مرة، وفي احضان الاودية مرة اخرى، وعند
مداخل الغابة حيناً، وعلى الجسر الكبير حيناً آخر.. هكذا دائماً في القضاء
الرحيب، وتحت سماء عارية لا حدود لها، ولا نكاد نتلاقى، الا نادراً، في بيتها
او في بيتنا.. فقد كانت هي تريد ان تنطلق هذا الانطلاق بعد عكوفها ساعات
وساعات على تأليف كتبها... وانا كنت اريد، في اطواء نفسي وقرارة روحي، ان

احتفظ بها لي وحدي.. بعيدا عن أبي، وعن الناس أجمعين...

هل كنت جزعة خائفة؟ لست ادري. لقد كان هذا كله منبعثا من اللاشعور، ومن قوة غامضة لا ادركها، وما حاولت ان اتبينها الا في هذه الليلة.. ليلة زفافهما التي تركتني وحيدة.. مضعضة..

وكانت قد اعطتني جميع مخطوطاتها فانطويت على نفسي ورحت أقرأها في غرفتي، ولقد وجدت فيها حقيقتها، والنور الطاغي المنبعث منها.. لقد وضعت نفسها كلها في مؤلفاتها في هذه المؤلفات كما رأيتها وعرفتها: جميلة، رائعة خلاصة، في مبنى الطاحون.

وجاء يوم العودة الى المدرسة فغادرت الهواء الطلق، والسماء العريضة ومنزلنا، وفلورانس.. وعدت الى المدينة.. ومن المدينة جعلت ابعث الى فلورانس برسائل مطولة أصب فيها موجا من الذكريات، والمشروعات، والافكار، والآراء، التي لا نهاية لها.. وكأنها أشبه ما تكون بشلال الماء المنصب فوق دولا ب الطاحون في بيتها.. وكانت هي تكتب الي رسائل مقتضبة، مركزة، ساحرة المضمون، منبثقة كلماتها من القلب كما تنبثق ازهار البرية من طباق الثلج المتراكم..

أعادني عيد الميلاد الى قريتي، ذات الشجر الذي تعرى اخيرا فتبدى في اشكال غريبة فاتنة متمايزة يحيط بها عشب الشتاء الوحشي.. وعدت فوجدت منزلنا، وأبي، وقد غمر قلبي سرور لا عهد لي به.. ومنذ اليوم الاول من وصولي تحرر والدي من مرضاه بأسرع ما وسعه ذلك، وجاء ليراني في مكتبة البيت وسألني عن عملي، وعن رفيقاتي، ثم تابع حديثه عن عمله هو، وعن القرية، وعن عيد الميلاد الذي كنا نستعد للاحتفال به في الغد، وقال فجأة:

- فكرت اني سأبعث السرور في نفسك بدعوة فلورانس لتقضي ليلة العيد

معنا..

فلورانس! انه يدعوهها هكذا دون تكلف.. كنت في الصيف الماضي قدمتها له على عجل، وحدثته عنها قليلا جدا، وكنت جد مبتهجة ان يكون ابي لي وحدي طيلة ليالي اجازة الشتاء هذه.. وان انفرد بصديقتي فأجدها جالسة عند مدفأتها في مبنى الطاحون بعد ظهر كل يوم.. ولكن ابي شوش هذا كله، وأفسد عليّ مسرتي.. كنت لا أريد أن نكون ثلاثنا معاً، وانما مبتغاي أن أكون معه مرة، ومعها هي... معها هي وحدنا مرة.. ولمع أبي خيبة أمني فقال:

- الست مسرورة؟

- بل انا ولا شك مسرورة..

غير ان ضوء النهار بدا لي كالخا من وراء زجاج النافذة.. ومن وراء اول يوم من أيام اجازتي..

وجاءت فلورانس فقبلتني بحنانها الذي أعهدته فيها، وسلمت على أبي سلامها على صديق مألوف.. واذن فهما قد تعارفا جيدا.. واني لارى بينهما ما هو أكثر من لقاء سريع في فترة فراغ متاحة بين مريض ذاهب وآخر مقبل من زبائن والدي.. وأدركت أنه يحس جبال فلورانس من السحر والروعة ما أحس به أنا.. وتبينت ذلك من اضطرابه ازاءها، ومسرته التي يداخلها الارتباك.. ومما اكتشفته من عودة الشباب اليه.. فغدا هكذا متألقا، نشطا، خفيفا، نضر المحيا، حلو النظرة.. وعلى الفور أحسست بصدمة هزت كياني وابتسدت لها اطرافي جميعا.. وما استطعت ان اوجه لهما أي سؤال.. ثم أي حق لي في ان اقتضيهما أي حساب؟.. واجتمعت بعد ذلك بفلورانس في مبنى الطاحون، وحدثتني عن والذي بمدة ظاهرة جرحت قلبي.. ورددتني الى شعور بالوحدة ما عانيت مثله من قبل.

عدت الى مدرستي الداخلية مسكينة، يتيمة، وقد فقدت ايضا صديقتي..
وجعلت أحلم بقلما ماتهما.. وأسأل نفسي: أهو ابي يذهب الى مبنى الطاحون؟

ام ان فلورانس هي التي تصعد الى منزلنا؟ ولكن هذا كله ما كان ليكريني
اكثر من نظراتهما التي تطفح حبا..

وكنت أرى في منامي، كل ليلة، حلما واحدا لا يتغير: نسير ثلاثتنا معا
نحو الجسر الذي لا حواجز له. ولا يتسع لغير اثنين يسيران فيه متحاذيين..
ونتقدم ثلاثتنا، ثم لا يعود ثمة مكان لغير أبي وفلورانس فيمران معا واسقط أنا
في مياه النهر لانه لا مكان لي بينهما.. ويستمر ابي وفلورانس في سيرهما دون
ان يلتفتا الي.. وأظلم انا أصرخ واستغيث.. ثم أصحو من نومي..

وسأبت دراستي، وعدت لا أكاد اتناول شيئا من طعام.. وكتبت الى ابي
انبشه بأنني لن ارجع الى البيت في اجازة اعياد «الكرفنال» متذرعة بتأخري
الطاريء في الدراسة.. وأجابني والذي دون ابطاء وأصر ان أعود، وقال انهما-
هو وفلورانس- يدخران لي تبا عظيمًا سيملا قلبي سعادة ومسرة.. وانفجرت
ياكية بعد أن قرأت هذا الجواب.. وانساب الدموع على وجهي.. كما تنساب
الآن.. في هذه الليلة. وها هي شقيقات الاسى تعاودني. لقد انتهى كل شيء.. ولن
أكون قط روح هذا البيت.. ان شهادتي تتضاعف.. سأرحل في القطار، يجب ان
ارحل والا افلتت مني موعد هذا القطار..

انتي أوقت الزمن وأنا قابضة في سريري.. لا ازال اتشبث ببضع لحظات
اخرى، هي الاخيرة بالطبع، وأنا لاثثة في قرارة طفولتي، دون أن التحرك. دون ان
أفكر، دون أن أتألم.. وأنا مغمضة العينين..

الموسيقى صمتت... اصوات تنهامس من حولي.. وثمة خطوات تقترب..
ويد احدثهم طامتت من حدة النور الساطع.. واني لاسمع صوت فلورانس تقول

لابي:

- دعها .. دعها.. لقد جرحناها جرحا بالغا هذه الليلة.. ولن تكون من بعد طفلة..

لقد ادركت.. اجل.. قد فهمت مرة اخرى..

أبي ينسحب، وتبقى هي لحظة أخرى بقربي.. اوه! ليتني كنت ما ازال في العاشرة من عمري ،اذن لارقيت في احضانها وهتفت: «أما».. ولكن لا.. لا أستطيع.. وهي التي قالت: «لن تكون من بعد طفلة..» وانما يجب ان نبقى صديقتين.. قد يمكن هذا معها.. انه ممكن.. معها.. هي.. لقد أطفأت النور، وما يجب ان يقال أي شيء آخر.. سأنام هنا هذه الليلة.. وهذا كل شيء.. وغدا ارمحل.. ربما من يدري؟

جنيت نويلاتش (فرنسا)

وداع المرأة المجهولة

بتؤدة وتمهل نزعَت المرأةُ الشابةُ قفازيها فبانَت يداها البديعتان، وأصابعها المستطيلة الدقيقة، وأظفارها المصقولة اللامعة، ثم وضعت القفازين الى جانبيها على المقعد، وراحت تفك ازرار سترة «الثنورة» التي ترتديها والمصنوعة من «التويد» وقيما هي تتغنى بلحن حديث اجالت المشط في شعرها فأعادت اليه ترتيبه وتناسقه، وكان لشعرها شفاقة ولين يلائمان تماما الوجوه الشابة النضرة كوجهها هي. انه وجه امرأة في الثالثة والعشرين او الخامسة والعشرين، يعكس البراعة واللامبالاة معا ممتزجتين بشيء من الحيوية والانطلاق. واخيرا جلست مرتاحة في المقعد الذي احتلته وحدها في مقصورة القطار المنطلق بسرعة نحو مدينة «تولوز».

كان المسافرون قلة نادرة في ذلك الوقت من السنة وفي اواسط الاسبوع، فلا يكاد المرء يجد ظاهرة خاصة تلفت نظره، وهكذا فقد أصبح في وسعها ان تفيد من هذه الساعات القليلة التي تستغرقها الرحلة فتسترخي وترتاح تماما، ذلك ان السير المستمر في ممرات قطار «المترو» بهاريس، والساعات العديدة التي قضتها في العاصمة وهي تنتقل بين المحلات الكبيرة لشراء ما تحتاج اليه قد أجهدتها حقاً، وانها لمفتقرة جدا الى الراحة والاسترخاء.

بعد ان القت نظرة سريعة على ما يبدو لها من مناظر الضواحي الباريسية التي تعرفها جيدا، راحت «هيلين» تتأهب لاغماض عينيها، وعندئذ استرعت انتباهها ورقة بيضاء مطوية ومتروكة على المقعد المقابل. وقد يكون هذا امرا عاديا او مبتذلا، الا انها كلما حدقت النظر في الورقة ازدادت يقينا ان فيها شيئا خارقا، ومن هنا كانت شدة انجذابها اليها. واستوت هيلين في جلستها وتناولت الورقة وهي تفكر: «ربما.. ربما.. من يدري؟» ثم بسطتها فوجدت ثلاث وريقات مخطوطة يبدو منها جميعا انها رسالة واحدة قد اضعها او أنسيها أحد المسافرين. وبدافع غريزي عادت فطرت الوريقات الثلاث فقد كان الكتمان من طباعها وكانت تتحرج جدا ان تقرأ ما لا يخصها. ومضت لحظات عاودت خلالها التفكير وقالت في نفسها: «الافضل ان اطلع على ما في الرسالة، فربما اعانتي مطالعتها على اعادتها الى صاحبها» واجالت عينيها في اسطر الرسالة بتهيب، وارتباك كاد يبلغ حد الاضطراب وهذا ما قرأته في الرسالة:

«انت ايها الانسان الذي أجهل من هو، عندما تقرأ هذه الكلمات، فلن اكون-دون ريب- من هذا العالم الذي يدعى عالم الاحياء. انني منطلقة في هذه اللحظة نحو مصيري، ولكي أهدىء من جزعي فأنتني أجد حاجة ملحة، في هذه اللحظة بالذات، ان أبوح لاي كان بما أحس به. وان هذا ليمدني بالعون ويخفف عني ما أعانيه ويريحني. انا امرأة مريضة مرضا موثسا لن ابرأ منه. وقال لي الاطباء ان حظي من الشفاء ضئيل جدا لا يعدو الواحد في المئة، اذا اجريت لي عملية جراحية. فلا بارقة لي من امل اذن، وما جدوى الاتكال على المصادفة، والمصادفة ما خدمتني طيلة حياتي مرة واحدة. وكان في وسعي ان لا احاول شيئا، وان أقبل ايامي الاخيرة الباقية لي في الحياة على علائها ثم تنتهي أيامي نهايتها الخفية وأنا في سريري وحولي وجوه احبائي المتشعبة بالحزن رغم اهتمامتهم المفتصية. ان زوجي وابنائي واحبائي كلهم يجهلون الحقيقة المروعة. لقد كانت رحلتي هذه في نظرهم ليست أكثر من رغبة مني في دخول احد

المستوصفات لكي اوضع تحت المراقبة الطبية لبضعة أيام وحسب، وعندما انتهى
الفحص الطبي وعلمت الحقيقة فاني لاكذب اذا ما زعمت انني تلقيت النبا
بشجاعة.. كلا، فقد خفت، خفت خوفا شديدا، حتى لقد ارتعد بدني من الخوف..
ودام هذا لحظات طويلا.. ثم، وشبنا قشينا، استبان لي ان آلامي يمكن اختزالها..
وفكرت في ذلك الحظ الضئيل الناح لي، فتشبث املِي فيه وكأنني شخص
معكوم عليه بالاعدام، لكنه بظل موقنا بالعفو عنه حتى اللحظة الاخيرة التي
تسبق اعدامه. وهذا، على التأكيد، من طبيعة الانسان، وانا لست اكثر من
مخلوقة مسكينة شأن الآخرين، لا افضل منهم ولا أسوأ. ومع ذلك فاني اعتقد
انني أفلحت في هذه الايام الاخيرة في التغلب على خوفاي حتى اللحظة الراهنة،
هذه اللحظة التي يحملني فيها هذا القطار عبر نفق لن اخرج منه حية..
وعاودني الخوف من.. ان نظري لا يستطيع ان يثبت للمناظر التي يطويها القطار
طيا اذ لحظات من حياتي تملأ هذه المناظر وتحجبها عن ناظري فلا ارى غير هذه
اللحظات.. ويشراي لي مولد ابني البكر، والفرح الذي غمرني بمجيئه الى
الدنيا.. شد ما كنت اراه جميلا.. ويا لروعة الذكريات التي استشعرها الان،
والتي كانت تروى لي في كل عيد ميلاد له.. انني كلما فكرت في هذا كله احس
كأنني واقعة تحت تأثير مهدى، يفوس بي في لجة من حلاوة وتنغم وتطرب..
ويعتريني الحنين الى تلك الاوقات الهائلة فأتمنى أن أعيشها ثانية.. واستشعر
انني سأكون اكثر قدرة على تذوقها والمتاع بها، لان من خصائص بني الانسان
جميعا انهم لا يتذوقون تذوقا كاملا مسرة اللحظة الراهنة، وانهم لا يتفطنون الى
روعتها وشمولها الا بعد انقضاءها وفوات الاوان.. وكنت اريد، قبل مغادرة
البيت، ان اوصي اولادي بما ارى كما يفعل كل الذين يقومون برحلة طويلة، غير
انني لم اجد الشجاعة فماذا تراهم كانوا يظنون؟ ان القلق والاسترابية كانا خليقين
ان يلا تفكيرهم، ومع ذلك فاني لاحب لهم ان يكونوا رجالا بوسائل، أقربا، في
التصام، شرفاء في المعاملة، جادين في عملهم، وطيبين القلوب، فان والدهم وانا

قد نشأناهم وفق هذه المبادئ.. واني لاعتقد اليوم، ان تنشئتنا هذه قد آتت اكلها ولا ريب. غير ان الحياة مليئة بالمكاييد والفخاخ المنصوية التي كنا نجعلها او نتجاهلها ونحن بعد في طراوة العمر رغم تحذير من هم اكبر منا سنا. واني لاحب لهم- اذا ما ترددوا ذات يوم في سلوك الطريق التي يجب ان يسلكوها- ان يتكهنوا بما كنت انصح لهم به لو كنت على قيد الحياة. وانا لا أزعم انني بلغت حد الكمال.. لا.. وانما اعتقد ان في وسعي ان اقول انني بذلت الكثير من الارادة الطيبة في كل ما كنت المجزؤه.. وانت يا من سيقراً هذه السطور: انني اجهل ما يكون حكمك علي.. فريما ضحكت.. وربما هزئت كتفك معتقدا ان التي كتبت هذه السطور قد فقدت توازنها.. اما اذا كنت رهيف الحس، رقيق القلب، او كنت قد بلوت الالم وعرفته فقد ترثي لحالي.. ولكن ما اهتمامي بما عسى ان تفكر؟ انني الآن أقل خوفا..»

رفعت هيلين رأسها، وكان الانفعال قد انعكس على محياها فشحب لونها مما قرأت، فأرسلت نظرة تائهة على مناظر الريف التي يمر بها القطار.. واذن فقد كانت هي التي اختارها القدر لكي تكون القارئ المجهول لرسالة تلك المرأة المنكودة الحظ.. كانت هيلين أشد اضطراباً من ان تستطيع تحليل عواطفها في هذه اللحظة.. وبدا انها عاشت، على الرغم منها، اللحظات المؤثرة التي يعيشها المحامون والكهنة الذين يتلقون الاعتراف. وفكرت دون ان تأتي بحركة:

«لقد عرت تلك المرأة المجهولة نفسها تعرية تامة..» وعلى حين غرة اشتهدت ان تبكي.. وعندئذ نهضت وانزلت زجاج نافذة القطار فدخل تيار من الهواء في المقصورة فعبث بشعرها وارغمها ان تسبل جفניה.. ويهدوء أخذت الوريقات وراحت تمزقها برفق وبما يكاد يكون تعظيماً واجلالاً.. ثم ارسلتها من نافذة القطار مزقاً صغيرة تطايرت مع الريح بحركة بطيئة راقصة، وانيقة حزينة في آن واحد، كأنها ورق الشجر في الخريف ذهبت بها الريح، ثم حطت بهدوء فوق سياج

من الزعرور كان يمتد في تلك الناحية، على طول خط السكة الحديدية، فأتبعتها هيلين نظرها هنيهة وكأنها أشلاء ذلك البوح المؤثر، ثم بدت، من بعد، أشبه ما تكون بزهرات، زهرات صغيرة، دقيقة، بيضاء.

وعادت هيلين لرفعت زجاج نافذة القطار، ورتبت خصلة من شعرها كانت قد تهاوت فوق عينيها، وجلست وقد أمالت رأسها وأغمضت عينيها، وراحت تستعيد في ذاكرتها ما قرأته في تلك الرسالة.. حاولت ان تتصور شخصية المرأة المجهولة صاحبة الرسالة. وبدون أي سبب تراحت لها تلك المرأة سمراء ذات محيا رقيق وهي، ولا شك، زوجة وام عطوف خلقت لكرّ شمع من حولها الحب والحنان، ولا ريب في أن وجهها الدقيق المعارف قد ترك المرض فيه ميسمه.. وماذا ترى كان مصيرها؟ هل هي أنفادت من ذلك الحظ الضئيل الذي تبقى لها.. ام تراها..؟

وفكرت هيلين بالآلام والوجاع التي لا محصى، والتي لا بد انها منبئة في انحاء العالم خفية، مجهولة، لا يعلم بها احد.. وعندئذ أحست انها تقدمت في العمر بضع سنوات، وكأنها هي نفسها قد عاشت بعض مأساة تلك المرأة التاعسة!

وتراءى لها ان بلمهنية شبابها قد غاضت وامحت.. فهل يكون هذا هو ما يسمونه تجارب الحياة؟.. كانت السماء، في الخارج، صافية زرقاء الاديم، والشمس أخذت تميل الى المغيب ببطء والقطار يتابع رحلته الى مدينة «تولوز» بدقة ونظام وصلاية كأنه لعبة نموذجية للاطفال..

على حين غرة قرع باب المقصورة ثلاثا فانفتحت المرأة الشابة وثابت الى نفسها، فانفتح الباب وسمعت صوتا يقول: «تذاكر.. تذاكر..» وبدا لها مراقب التذاكر أنيقا، معتدل القامة في بزمته وهو يقوم بمراجعة تذاكر المسافرين قبل وصول القطار الى المحطة المقبلة. ومدت له هيلين يدها بتذكرتها تأنه النظر.

غائبة الذهن، فثقبها الرجل ومضى واعدتها هي الى محفظة جلدية لم تعلقها.. وتلبثت نظرتها تتفحص صورة فوتوغرافية داخل المحفظة، انها صورة شاب جميل، بهي الطلعة، وايتسمت هيلين لهذه الصورة، وبدا لها «برنار» في بهرة خيالها.. لقد تعارفا منذ سنوات طوال، ودرسا الحقوق معا في الجامعة قبل ان تفرق بينهما الحياة.. وغدا الشاب من بعد محاميا لامعا، في حين استطاعت هي ان تشق لنفسها طريقا في دنيا الصحافة.. وقد اتاحت لهما هذه المصادفة ان يستعيدا ذكرياتهما المشتركة، وحوادث حياتهما الجامعية، وتولدت بينهما، على الاثر مودة عميقة. وقد التقيا كثيرا فيما بعد، وكان واضحا ان برنار المجدب الى هذه الفتاة الجميلة، الذكية، المثقفة.. وهيلين- من- ناحيتها- أحسّت بصدقة قوية لهذا الفتى، ولهذا السبب كانت كثيرا ما تقبل دعواته التي يوجهها اليها، فكانا يذهبان معا الى المسرح او السينما او يجلسان يتحدثان في أحد المقاهي كلما اتاحت لهما ذلك ظروف عملها. وبكلمة موجزة فقد غدا برنار فارسها الذي لا يفارقها.. ويوم طلب منها ان تتزوجه لم ينجأها الامر اطلاقا. ولم تجبه هي بالرضى اجابة سريعة، عفوية، وانما سألته ان يمهلهام مدة للتفكير.. كانت تنتظر هذه اللحظة منذ طويل.. وعندما جاءت تولتها الحشية، خشية ان ترتبط الى الابد.. فقد كانت تعتبر الزواج أمرا خطيرا جدا، بل أجل شأنا من ان تتقبله هكذا مستهينة به، ودون ان تكون واثقة من حقيقة عواطفها. ثم ان هيلين كانت تعيش حياة النساء العاملات المتحررات، وكانت مهنتها تدر عليها دخلا طيبا، يتيح لها هذا العيش المادي الرغد الذي تنعم به.. وقد كانت تخرج كثيرا برفقة العديد من المعجبين بها، وما كان اعجاب اولئك الرجال ليسوعها بل كان برضي غريزتها النسوية. والواقع انه كان من العسير جدا ان تودع فجأة هذا كله في سبيل الزواج..

كان برنار قد تقدم بطلب يدها منذ ثلاثة شهور، ولم تعطه هي أي جواب. وكانا يلتقيان من حين الى آخر الا ان هذه اللقاءات لم تتعد قط حدود الصداقة،

وعلى ان برنار كان دائما حفيا بها ، يحيطها بالرعاية والعناية دون وناء .

ولا شك في انه ينتظر وصول القطار هذا المساء ، ويترقب ان تهل عليه منه ، وهو صيفاف يدها الممتدة اليه ، ويحمل حقيبتها ، ويتأبط ذراعها بمودة وصداقة .. هذا ما كانت هيلين تتخيله وهي تتأمل صورة برنار في استقبالها فأن وجوده لخليق ان يزودها بما تحتاجه من قوة ، وهي ستغضي له بما تجدد .. وستروي له القصة التي عاشتها في رحلة عودتها هذه .. وهو سيفهمها على التأكيد ، ذلك انه هو نفسه في ممارسته لمهنته ، كل يوم ، لا بد انه يطلع على الكثير من يؤس الناس .. وعلى الفور ادركت انه ما لم يكن الى جانبها في الحياة .. فستحس بفراغ عظيم من حولها .. وما أكثر ما تلاقي ذوقاها وأفكارها على وفاق في حكمهما على الحوادث والاشخاص .. وما خالفها ابدا الا مزاحا ودعابة .. ان الحياة قصيرة جدا .. فلماذا الانتظار ؟ واتضح لها ان السعادة قريبة منها ، الى جانبها .. دائما .. ومنذ أمد طويل .. ولكنها لم تدر او لم ترد أن تقطف ثمرتها .. وعادتها عبارة في رسالة المرأة المجهولة « لا يتذوقون تذوقا كاملا مسرة اللحظة الراهنة .. » وراحت هذه الكلمات تتراقص أمامها مختلطة بصورة برنار .. واتضح لها كل شيء . فقررت ما تريد في التو واللحظة : عندما تلتقي به هذا المساء . ستقول له انها قبلت أن تكون امرأته ، وكانت تردد في نفسها هذه الكلمات التي ستقولها .

وأحست فجأة انها انكفأت قليلا الى أمام ، فنظرت في ساعة يدها فوجدت على دهش منها ، انها وصلت .. فما اسرع ما مر الوقت ! فتهيأت على عجل ، وتناولت حقائبها وهبطت من القطار .. وان قلبها ليخفق بشدة ، والافكار المجنونة تتدافع في رأسها : ماذا لو لم يكن برنار في انتظارها ؟ .. ماذا لو ان صبره نفذ ؟ .. ماذا لو أنه وجد امرأة اخرى ؟ .. وانه لا يزال حرا ، وهي ما قيدت بشيء حياله .. وعندئذ داخلها الخوف .. وسارت مع المسافرين متجهة الى باب الخروج . وسرعان ما وجدت نفسها بين حشد من المستقبلين : هذا ينتظر قريبا له ، وذلك

يترقب صديقا، وغيره يبحث عن وجه يعرفه.. ودارت نظرتها في وجوه ذلك الحشد من الخلق، ولم تر الوجه المرجو.. فأحسَّتْ بمنتهى القنوط.. وضغط الهم والضيق على قلبها.. وعلى حين غرة امتدت يد قوية فأمسكت بها، وهتفت: «برنارا»، ودون أن تفوه بكلمة أخرى ارتقت في أحضان الشاب.. لقد خطت يد القدر مصيرها: وانها لتدرك الآن أين هي سعادتها، ذلك أنها عرفت شقاء امرأة غيرها...

جنيت نوبلالتش (فرنسا)

يوم زفافها

بعد بضع ساعات يكون كل شيء قد انتهى، لقد كانت الشهور التي انقضت طويلة جدا. وأحس السيد «شارل درسيو» بأن شيئا قد خف عن صدره لان هذا الامر يوشك ان ينتهي، وكان هو، في هذه اللحظة يبدو في منتهى الاناقة، وقد رشق زهرة في عروته وأمسك بكأس في يده، وجلس في ركنه المفضل ينتظر صابرا .. الا انه، في الوقت نفسه، كان يشعر بشيء من الحجل حيال عواطفه واحاسيسه لان العروس التي توشك ان تزف كانت ابنته الوحيدة.

كان اول ما خطر على باله، بعد ان انبأته بعزمها على الزواج، ان البيت بدونها سيكون موحشا، صامتا، وشد ما سيحصل بالفراغ عندما لا يعود يسمع ضحكاتها المفردة، صوتها الرقيق الحلو النبرات.. وسيفتقد خطوتها النشطة، المتدقعة، وسيفتقد الثقة بأنها موجودة ثمة بكل مرحها، ودفء جمالها، وروعة شبابها الغنيان.

لقد فوجيء بعزمها، وما كانت قد تخطت التاسعة عشرة من عمرها. وما فكر قط أنها ستتزوج بهذه السرعة المبكرة الا انها، شيئا فشيئا، ومع مرور الاشهر، تغيرت عواطفها تغيرا غير ملحوظ لم يتبينه هو الا بصعوبة. ليس في وسعه ان يذكر أمرا يعينه، ولا يستطيع ان يقول انه في لحظة من ذلك اليوم أخذ

يرى «اليزابيث» في ضوء جديد، مفهوم جديد.. لقد أحبها دائما حبا عميقا، وكان يعنى لها كل سعادة الدنيا.. ولسوف تترك فراغا في حياته وكان مجرد التفكير في هذا يؤذيه.. ومع ذلك سيكون مسرورا حقا عندما ينتهي كل شيء.. فما في مقدوره ان يفعل شيئا.. وانفتح باب الحجرة، ودخلت منه امرأته «هيلين» وفي عينيها الرمايتين بارقة قلق. وسألته وهي تغلق الباب:

- ماذا دهاك يا شارل.. ولماذا تراك تختبئ هنا؟

وقال شارل:

- بدأت أحس بالوحشة.. واني لانتظر بكل بساطة الذهاب الى الكنيسة. غير انه كان قليل الامل في ان تكتفي هيلين بهذا التعليل.. وهو ما استطاع قط ان يخفي عنها شيئا ذا بال..

جلست «هيلين» وخلعت حذاءها.. وقالت: «ان قدمي هاتين ستقتلاتني.. ولكنني لا استطيع ان انقم عليهما، فقد بالفت في ارهاقهما منذ الساعة الخامسة صباحا.. أحضر لي ما أشربه يا شارل.. وحسبي جرعة واحدة..» ثم مالت الى الامام وراحت تدلك قدميها.. واردفت تقول: «هناك أمر يعذبك وشقيقك.. أياكون ذلك لان «ليز» ستتركنا؟ قال شارل موافقا:

- ليس هذا هو الامر بالضبط، ان مثله يحدث لجميع الآباء... ونحن لا نملك أبنائنا بصورة كاملة، وانما هم ودائع عندنا الى أجل.. هذا كل ما هنالك..

- واذن.. ماذا دهاك؟ لم يكن يحب ان يتكلم، غير انه لا يملك الخيار.. وفكر: ربما كانت هيلين أقدر منه على فهم ما يجد.. وقال:

- انها اليزابيث.. فهي تشغل بالي.. فأما انها تغيرت في هذه الاشهر

الاخيرة.. واما انني لم أعد أراها كما كنت دائما أراها..

- بالطبع تغيرت! فقد كبرت.. وبعد ساعة تصبح امرأة متزوجة..

- ليس هذا وحسب.. ان فيها الآن قسوة لم الحظها في السابق قط.. وما ادري من اين اتت بهذه القسوة.. انها لم تأت بها منك انت على أي حال.. وكائننا ما كان الامر فان الارشد ان تتخلص منها والا فقدت احسن ما في الدنيا..

واحتجت هيلين قائلة:

- ولكن يا شارل.. ليس هذا هو الوقت المناسب..

غير ان شارل قاطعها قائلاً:

- اسمعي الان.. منذ اللحظة التي اتبأنا فيها اليزابيث بأنها مستزوج «غليوم» لم اكف عن ملاحظتها عن كسب.. ولاحظت «غليوم» كذلك.. واصدقاهما.. واني لاجد ان فيهم جميعا شيئاً من ادعاء ومباهاة.. واجد فيهم فتورا.. وثقة مطلقة بأنهم من جيل آخر اعلى وارفع.. واننا، نحن، لسنا اكثر من بقايا متهارة.. ان هذا يزعجني..

وقالت هيلين بهدوء:

- انك تبالع.. على أي حال فنحن نتحدث عن ابنتنا ليز.. لا عن اصدقائها..

- حسن جداً.. سأحدث عن ليز وحسب..

وشرب شارل جرعة من كأسه وعاد يقول وقد زوى ما بين عينيه:

- انت تعلمين انه كان من رأيي ان تنتظر قليلا هي وخطيبها ما دام «غليوم» لم يتم دراسته.. وحتى لقد أبديت ملاحظتي - التي لا تزال قائمة - انه لمن الصعب ان يدرس المرء وله أولاد في البيت.. وليز تقول..

- قالت ليز انها لن ينجبا اطفالا قبل ان يتم غليوم دراسته الجامعية.. وانا لا ارى في هذا كله الخطأ الذي تراه انت.. وانما هو عين الصواب.

وقال شارل:

- حسن جدا.. ربما كان هو الصواب.. الا انني لا استطيع ان اجده ملائما.. وانت لم تكوني تتكلمين هكذا قبل زواجنا.. وحتى بعده.. انك لم تتوقعي كل شيء.. ولم تكوني على صواب.. كنت مغرمة بي.. وكان غرامك كأنه حالة مشعة تكتنفك.. وكانت سعادتك يطفح بها محبك.. وهذه السعادة لست اراها ظاهرة على محيا ابنتنا ليز.. كيف ترينها تستقبل غليوم عندما يأتي؟ انهما لا يتعانقان اذ يقبل احدهما الآخر كما كنا نفعل.. وكل ما يفعلانه انهما يتبادلان قبلة سريعة مبتذلة كما يفعل أبناء وبنات العمومة.. وأيديهما لا تكاد تتلامس.. وهذا كل شيء.. واني لاتساءل: هل هما حبيبان حقا؟

قالت هيلين:

- انهما متحابان جدا.. وانت تنسى انهما من جيل جديد له افكاره الجديدة.. وابناء هذا الجيل متحفظون، وهم لا يستخرجون مشاعرهم ليضعوها أمام العيون.. وربما كانوا قد تعبوا منا ايضا.. انهم...

وقاطعها شارل هاتفا:

- حذار.. لا تحاولي ان تقنعيني بأنهم متهيبون، وقلما يحبون التظاهر

والادلال بذواتهم.. انهم اكثر تظاهرا وادلالا بذواتهم، امام الناس، منا نحن في ايامنا.. وانت تعرفين هذا تماما.. فهم يسيرون في الشوارع وقد احاط الفتى كتفي فتاته بذراعه.. ويتبادلون.. الغزل في السيارة والسينما، وعلى مقاعد الحدائق العامة.. ولا يبالون ان يراهم الآخرون..

قالت هيلين:

- هذا كله سطحي.. وهو ما يراه الناس.. والواقع ان الكائنات البشرية لم تتغير كثيرا في هذه السنوات القليلة.. هؤلاء الشبان والشابات لا يزالون يكونون في أعماق نفوسهم مشاعر الخوف نفسها وأحاسيس التردد وعدم الثقة ذاتها التي كنا، نحن نكتنّها في نفوسنا..

وقال شارل:

- اترين هذا حقا؟ ربما كنت على حق.. ولكن فلنعد الى ليز.. هل تعتقدين انها تدرك تماما ان زواجها يجب ان يدوم الحياة كلها.. اعني هل هي تريد حقا ان يدوم ابدا؟ يبدو لي كأنها هي تقوم بتجربة ما.. كأنها هي تود ان تلعب دورا سرعان ما تنبذه بعد ان تكون قد شبعت منه.. وبصراحة فقد خيبت ظني.. انه لا يبدو عليها انها تعي ذلك.. انها تتزوج.. فهي لا تأخذ الامر مأخذ الجد ابدا..

واجابته هيلين:

- انك تخطئي.. في ظنك.. فهي تأخذ الجهد الخالص.. وهذا الزواج، من ناحيتها هي، هو زواج العمر.. وانا واثقة ان غليوم يفكر مثلها.

- أرجو ان تكوني على حق.. انما انا اصدر حكمي في ضوء ما ارى.. انه يبدو لي ان اهتمامهما بزواجهما هو بقدر الاهتمام الذي يبذلانه لشراء شيء ما

من دكان ما، وربما كانا أكثر تحكماً لشراء آلة غاسلة منهما لهذا الزواج.. فهل كنت هكذا أنت؟

فقال هيلين وهي تبسم:

- كلا.. لست أذكر انني كنت هكذا.. وقال هو كلا بالطبع. لم تكوني فاترة، ولا هادئة، ولا منطلقة دون ما قيد.. لقد كنت متوقفة الاعصاب لا يقر لك قرار كأنك قط صغير.. وأنا ايضا كنت كذلك.. كان يملكني خوف ازرق من ان تتركيني.. ولكن هذين الاثنين.. ما هي عواطفهما.. ما هي مشاعرهما؟ لسنا ندري عنها شيئا.. وهما لا يريدان ان ندري.. لقد وضعانا في الجانب الاخر.. واقاما بيننا وبينهما حاجزا.. وغدونا لا نستطيع الاقتراب منهما.. لقد جعلت ابنتنا ليز مسافة تفصلنا عنها كأنما هذا كله.. كأنما سعادتهما.. ومستقبلها لا يعنيتهما شيئا.. وهذا لما يمض حقا.. اذ كنا- ليز وأنا- جد متحدين الى ان ظهر غليوم.. وها هي الان تنبذني خارج نطاقها.

وقالت هيلين:

- انها لا تترك خارج نطاقها كما تتوهم.. ان بينكما من الحب ما لا يمكن ان يحدث هذا معه.. وهي لا تفعل اكثر من ان تحتفظ بعواطفها لنفسها. هذا كل ما في الامر. ان مشاعرها اعمق، واكثر شبها بما حلمت دائما ان تكون من ان تتقاسمها وأي انسان آخر..

وقال شارل موافقا:

- هذا كله غريب في نظري.. فأين اذن روعة الخيال.. والرقعة.. والروعة.. والسحر.. وكل هذا الذي عرفناه وخبرناه انت وأنا؟ ما كان أعظم اعتزازي وامتناني انك وعدت ان تكوني زوجتي.. ان التفكير بأنني كنت سأمتلكك ما

فأارقني قط.. وفي بعض الاحيان لم أكن لاصدق ان هذا كله واقع ملموس..
وانني أنا الرجل الذي وقع عليه اختيارك.. وكنت أخشى ان اجيء ذات يوم لأراك
فيستقبلني والدك ويقول لي انك غيرت رأيك ..

قالت هيلين:

- لم أغير رأيي أبدا.. ولا اعتقد ان ليز ستغير رأيها.. ثم انتعلت حذاءها
ونَهَضَتْ وهي تقول:

- سنذهب بعد دقائق.. فلا تعذب نفسك يا شارل.. وأرجوك ان لا تبدي
لايئتنا ليز شيئا مما محس به.. ان هذا اليوم كله لها.. ولنحاول ان لا نفسده..

فقال شارل مكتئبا:

- لقد انتزعا كل ما فيه من سحر. فماذا بقي لهما؟

فطمأنته هيلين:

- بقي لهما كل شيء... وبقيت لهما اشراقة كل لحظة.. ولكن من العسير
رؤيتها.. وانما ينبغي ان نترصدها..

كان شارل وهو جالس قبالة زوجته يفكر في حلالة الحياة معها، ويتصور ما
فعلته لكي يكون عيشهما رغدا.. وعلى حين غرة ساوره اسف هو مزيج من مرارة
وحلاوة، فهو يذكر الى أي حد كانا متوفزي الحس يوم زفافهما، وإلى أي حد كانا
متهيين لطيفين، في تلك الليلة.. وامتلاً صدره اسى وهو يفكر في ان ابنته ليز
توشك ان تفقد تجربة من احلى تجارب الوجود.. اذ ان هذه القسوة، وهذا النضوب
العاطفي - فيهما معا - قد يفلق دونهما ابواب المسرات جميعا.

وأنفتح الباب مرة أخرى، وظهرت ليز، ممشوقة هيفاء رائعة الطلعة في ثوب الزفاف، ثم أغلقت الباب وبقيت مستندة إليه بظهرها وهتفت أبتاه... .

ونهض شارل ببطء وراح يحدق في ابنته.. رأى مجيها وقد اخذت تعود اليه الرقة والعذوبة بصورة خفية، وشاهد نفسها يختلج قليلا، وعينيها تصبحان اكثر عمقا، كأنها هي ترشك ان تبيكي.. وقفز قلبه في حنايا صدره.. أجل.. هل هي العلامة المنبئة التي طالما انتظرها.. هذه الخطيبة الجميلة عادت، من جديد، ابنته.. الحلوة، المستضعفة، الواثقة من حبه، التي هرعت اليه لتجد الحماية والمواساة.. انها، هكذا، ما اكثر ما كانت تتجه اليه حتى قبل بضعة أشهر فقط عندما تستنجد به ليغيثها.. وفكر شارل:

«شبان وشابات هذه الايام شد ما هم معرضون لاسباب الضعف.. ولكنهم يحاولون، يائسين، اخفاء لحظات الضعف هذه..»

وقال برقة:

- يا عزيزتي.. يا صغيرتي ليز المعبودة..

واقترعت منه، وسمع هو ما يشبه ان يكون انينا، هو في الواقع مزيج من شهقة وضحكة فأحاطها بساعديه، ووضع خده على خدها، فأحس أنها ترتعش..

وقال:

- ماذا بك... قللي ماذا بك يا ليز؟

ورآها بعين خياله اذ كانت طفلة تصاب بهرح في ركبتها فتقزع اليه، وترقي في أحضانه وعندئذ يمتلىء قلبه حبا.. ورحمة بها، وتفهما لحالها.. حتى ليفيض هذا الحب.. ويطفح.. فيكاد يؤذيه.. ولم تكن لتحتاج ان تقول له شيئا..

وقالت ليز وهي تخفي وجهها في كتف والدها:

- انتي خائفة.. الم تكن تدري اذن؟. الم تر؟. لقد كنت مذعورة..

فقال:

- مذعورة؟ لماذا؟.

وفكر في ذات نفسه: دعها تتكلم.. دعها تتكلم.. فهذه أحسن الوسائل..

وقالت هي:

- مذعورة من هذا كله.. الزواج.. مغادرة البيت.. الذهاب للإقامة مع رجل لا أكاد أعرفه.. ليس في هذا مخاطر وتبعات يا أبي؟. وافترض ان شينا ما لن يأخذ مجراه الصحيح!. فماذا يحدث؟

وقال شارل:

- أوكد لك ان كل شيء سيكون على ما يرام.. أنك محبين غليوم اليس كذلك؟ وانت تدركين انه هو الفتى الذي تريدينه؟ فأرسلت نفسها عميقا وقالت:

- اجل. انه هو الذي اريده. وسأحاول ان اكون المرأة التي يريد ان اكونها.. ولكنني مع ذلك لا ازال خائفة فقال شارل:

- وأمك ايضا كانت خائفة.. فيما مضى.. وظلت خائفة طيلة اسابيع قبل الزواج.. ولكي أكون صريحا، كنت انا ايضا خائفا..

وقالت ليز غير مصدقة:

- انت؟ كنت خائفا يا ابي؟..

- كنت أخشى أن يصيبها الملل مني.. وكنت أخشى أن لا تسير الأمور كما كنا نشتهي.. ولكن هذا لن يلبث أن يمر وينقضي.. وحيشما يكون الحب لا يكون خوف ولا ريب.. ويغذ الإنسان سيره في طريقه وهو يبني حياته للأفضل.. وهذا الأفضل يمكن أن يكون طيبا بصورة خارقة.. وهذا ما فعلناه أمك وأنا.. وما ستفعلينه أنت..

وابتعد عنها قليلا ليملاً عينه منها وهو يتسمم.. فبادلته الابتسامة متألقة.. وقال:

ستكونين موفورة السعادة.. لقد شغلت بالي هنية.. اما الان فلا.. انني كلي ثقة بك..

فتشبث به، وقبلته وهي تقول:

- شكرا يا ابي.. شكرا لكل شي..

وتراجعت خطوة، وسوت ثوب زفافها ووضعت ذراعها في ذراعه، وقالت بنبرة واضحة، واثقة «لقد آن لنا ان نذهب».

سارج ليفار (فرنسا)

الدموع الحلوة

كانت الرياح تصخب في الخارج وتدوي دويًا بصم الأذان، والعاصفة الضارية تنقض على البيوت والأشجار فتوشك أن تقتلعها، وكانت مياه النهر تهدر تحت الجسر، وتتلطم، وتريد أن تقوض الجسر وتنطلق في جنون فتكتسح القرية النائمة على سفح الجبل.

كان بيتنا منعزلاً عن بيوت القرية يواجه العاصفة في تلك الناحية الموحشة قبل أن تواجهها البيوت الأخرى المتقاربة، التي كأنما يلوذ بعضها ببعض لتتقي هذا الهول المروع. وكانت الساعة قد جاوزت العاشرة ليلاً، وزوجي يجلس أمامي صامتاً صمته المطبق. لقد لزم هذا الصمت منذ طويل. وكان كل ما يقوله كلمات سريعة متقطعة، ثم يعود إلى صمته. حتى آثار الحنان التي كنت المحها في عينيه أحياناً أصبحت أقتدها في هذه الأيام، وحل محلها ما يشبه السخريّة والاستخفاف..

ما أقسى أن نعتاد سؤال عيون الآخرين أن تهنئنا سعادة يوم من حياتنا.. ولا ريب في أنه يأتي يوم لا تعود فيه هاتيك العيون ترضى أن تمّ علينا بهذا الفتات من مائدتها الحافلة بزيادة الحب والرحمة والتعاطف.

كنا قد غادروا المدينة وجئنا إلى هذا البيت الريفي لكي نغضي فيه اجازة

نهاية الاسير. وقد اردت انا هذا ، على امل ان لمجد هنا ما يشير ذكرياتنا الماضية ويحرك ما ركد من عواطفنا ، فان الماء والشجر والظلال والأفياء وشروق الشمس وغروبها ورائحة الريف ، والجبل المزدهر خليقة كلها ان تهز الحس وتوقظ المشاعر الهامدة وتبعث الاحلام الهاربة. وكنا في أواخر الخريف، وقد فاجأتنا العاصفة على غير ما كنا نتوقع، ومع ذلك فأن شيئاً من هذا لم يحرك في زوجي، اللاتذ في صحته الاهدي وفي سخريته الجارحة، هذا الشعور الجميل الذي كنت أرجوه، ولم ينتزع من فمه المقل تلك الكلمات العذبة التي كان يحن إليها قلبي المسكين.

وقلت لكي أمزق اسداف ذلك الصمت:

- ما كان ينبغي ان نأتي.. فألقى الي نظرة طويلة، متهكمة، صامتة، ثم انفرجت شفاهه عن هذه الكلمات المثقلة بمعاني السخرية والتأنيب والشماتة:

- انت اردت هذا..

وكنت غيظي وقلت:

- ولكن الجسر يوشك ان ينهار تحت الحاح المياه الطاغية..

فقال وهو يتشأب ويمد رجليه الى امام:

-أوه: في وسعنا ان نعود الى المدينة من طريق اخرى.. انني أحس بوضوح انه ما من شيء عاد يربط بين قلوبنا. وغدا كل ما تفعله ان تأكل وتشرب وننام ونشعر بالبرد والحر.. لا شيء، غير هذا.. فلا عواطف. ولا حب.. ولا مشاعر..

ويدا لي فجأة ان نسمة مقرورة نفذت من اسفل الباب، فجمعت حول عنقي وصدري اطراف الشال الابيض المصنوع من الصوف. وعاد زوجي الى كتابه

واستغرق في قراءته.

وفكرت ان انهض لاعداد فراش النوم وقدم الماء والدواء المنوم الذي اعتدت تناوله. وكان هدير المياه المتدفقة في الخارج يقرع اذني قرعا مزعجا لا يحتمل. وعلى حين غرة تملكتني الخوف بدون سبب، فلا شك في ان جنون المياه الطاغية قد اثار ذعري.. واني لاحس بأن كارثة ما لا بد من ان تقع في هذه الليلة.

وفي هذه الاثناء طرق الباب. فتتنفس الصعداء، فلقد أضناني عذاب الصمت والانتظار. وكنت اسمع اندفاع الماء وهجومه على أنقاض الجسر، فيخيل الي ان آلة جهنمية هي التي تدوي في قاع الوادي الشائر المائج.

ولم يتحرك زوجي، فقد كان سادرا في قرارته. وشرعت انضو ثيابي لاندرس في فراشي. وطرق الباب مرة اخرى. وعلى الفور تناول زوجي المصباح، ونهض دون ان يلقي الي نظرة واحدة. ودلف نحو الباب، وبقيت انا قرب مقعد الجلوس، دون أن أبدي أي اهتمام. ان ثمة لحظات ينطوي فيها الانسان على عذابه وشقائه الخاص، فلا يعوذ تهمه تعاسة الآخرين. ومع ذلك فقد كان الرجل الذي طرق الباب يقول:

- أهل القرية يريدون متطوعين.. فاذا استطعت ان تأتي فأحمل معك شيئا من أدوية الاسعاف.. فقد أنهار الجسر وحمله السيل الجارف.. وبناء الطاحون في الجهة المرتفعة من البلد يوشك ان ينهار هو الآخر:

ومضى الرجل.. وبقي الباب مفتوحا.. فدخلت منه الريح وملأت البيت كله.. وتناول زوجي معطفه الواقى، وانتعل حذاءه، أما انا فقد أخفيت رأسي بالشال اتقي به عصف الرياح. وقال زوجي:

- أما أنت فلا يجب أن تخرجي

وقلت:

- بل اخرج.. فانا ممرضة.. وقد يحتاجون الي

وعاد هو يقول:

- اذن.. تدثري جيدا..

وتناولت حقيبة الاسعاف الصغيرة، وانا احسن ان الهدوء قد اخذ يشيع في نفسي واحساسى. لقد آن لى اخيرا ان اواجه أمرا عظيما يوازي شقائى الكبير.

ورحنا نتلمس طريقنا فى الدرب المؤدى الى السيل... وكان زوجى يساعدنى وقد نسيت ان آتى بالمصباح الكهربائى ولم يعد فى الامكان ان ارجع الى البيت. وسمعت من خلفنا اصوتا تقول:

- لقد بقى فى بناء الطاحون الذى يوشك ان ينهار طفلان.. شيء عجيب.. فقد نسيهما ابراهما فى ذهلهم.. فخرجا بايديهما الكبيرين وتركوا الصغيرين وقالت اصوات اخرى:

- احد الطفلين رضيع فى الشهر الثامن عشر من عمره.. وما يزال حطام الجسر يحول دون اندفاع الماء الذى يشرب شيئا شيئا خلال بناء الطاحون الواهى الذى اصبح معزولا الان.. تحت رحمة المياه العاتية.. واحسست فجأة بذراع زوجى تنسحب من ذراعى، وخيل الى انه انطلق الى حيث لا ادري. وكان المطر يلا عيني، واحاول عيشا ان اقوم بعمل ما. وراحت حقيبة الاسعاف التى احملها تحت ابطى ترهقنى دون ان يكون لها نفع مرتقب، فلم يكن ثمة جرحى او مصابون غير طفلين سيقضيان نحبهما حتما اذا ما انهار بنا الطاحون.

وقال صوت قريب منى:

- يجب اخراج هذين الطفلين.. ثم سمعت عويلا يمزق نياط القلب.. لقد كان عويل الام الوالهة.. فهل يسعني أن أعنى بها؟ واقتصرت منها، فاذا هي قد تقوس ظهرها كأنها تنوء تحت عبء ثقل يكاد يسحقها.. فاحطتها بذراعي، وأراحت هي رأسها على كتفي، وطفقت تبكي بكاء غزيرا.. بكاء مرا.. مؤثرا ولم يكن ثمة انسان يشرف على عملية الانقاذ.. ولم يسمع صوت يأمر بشيء.. وكانت اشباح السكان تروح وتجيء، وتشرك في فوضى واضطراب عند حافة الماء الذي كان ما يزال يرتفع حتى يبلغ الركب.. وكانت الدقائق تمر.. وحقيبة الاسعاف تحت ابطي دائما.. ورأس المرأة المولهة فوق صدري، ومع ذلك فقد سمعت صوتا يعلو جميع الاصوات فانتفض قلبي.. انه صوت زوجي يطلب من متطوعين اثنين ان يخوضا الماء المتدفق ويأتيا الى جانبه.

ولم اكن لادري الى أي حد سيدوم هذا الانتظار بعد ان سمعت صوت زوجي، ولم اكن اعرف ماذا ستكون افكاري، لو بقيت لي أفكار تعرف، في هذه الحال من الالم الممض الذي يكاد يكتم أنفاسي..

كان كل ما ادركته ان «الصمت الثقيل» قد ذهب وانقضى. واني عدت اسمع اصواتا تتكلم.. وتعلن عودة الرجال من الطاحون ومعهم الطفلان الصغيران.. وان ساعدي الايسر انتزع صيحات الالم من فمي لفرط ما ألمتني حقيبة الاسعاف، وفجأة تركتني المرأة التي كانت متكئة على كتفي كل هذا الوقت.. وأحسست ان رجالا يتقدمون وهم يحملون المصابيح..

كان يمكن أن اظل كذلك ساعات طويلا وانا اعاني الالم في كتفي وساعدي، وكان صوت زوجي هو الذي أتاح لي ان اخرج من حالة الشلل التي كنت فيها، فقد سمعته يقول:

- انني جريح.. ساعديني.

وانقضت ساعات.. وخرج الطبيب من بيتنا.. والقيت في الموقد بعض الحطب والاعواد اليابسة.. فاشتعلت النار وتصاعد لهبها المزغرد.. وفي نفس اللحظة انبثق في نفسي نور الامل.. وكان زوجي ممدداً فوق السرير وقد عقد النوم اجفانه، وزال عنه السوء بعناية الله ومهارة الطبيب وعودة عظمي وحناني، والتقطت عن الارض قطع القماش المبللة بالدم.. لم يكن زوجي قد أصيب بأكثر من جرح فوق عينه.. ولكن شد ما نزع من دمه.. ورحت أصغي الى تنفسه البطيء.. انني لا استطيع ان انتظر يقظته، فهو قد لا يحب ذلك.. وربما حسب انني اترقب نظرتة الاولى.. واني أعد على اصابعي لحظات السعادة التي نلتها في تلك الليلة وقد تثبت هو بي بعد ان انهكه التعب وارهقه الدم النازف من جرحه. واني لا اكاد أجد الجرأة فأسائل نفسي:

- أترى ستدوم هذه السعادة.. وهل ستنقذ حياتنا من الشقاء الذي عانيتاه وذقنا مره؟.. ان نداء خفياً يهمس في نفسي ان اطمئني بالا.. ولكن ترى ما عسى تكون الكلمات الاولى التي سينطق بها زوجي عندما يستيقظ ويفتح عينيه؟..

ثم باغتني النوم وانا لا ازال جالسة في مقعدي، ويبدو ان البرد قد اصابني عندما قفزت من المقعد وانا انتفض.. وحاولت ان اذكر.. وخيل لي انني كنت أحلم.. احلم بأن زوجي كان يكلمني ويقول:

- ما أسخفنا.. لقد كنا غرق حياتنا بأيدينا.. حياتي وحياتك.. هل في وسعك ان تفهمي؟ أما أنا فلا استطيع ان اشرح هذا لنفسى.. آه لو رأيت تلك النظرة البرينة التي صوبها الي الطفل الصغير وانا اتقدم لانتقاذه.. ثم بعد ان لف ذراعه حول عنقي وتعلق بي.. انها نظرة الضعيف المسكين الذي يسأل العون.. وكنت أنا الذي يستطيع ان ينقذه ففعلت.. لقد فعلت ذلك.. اتفهمن يا حبيبتي؟ أجل لقد انقذته. فما أعظم سعادتي.

ولكن ماذا؟ انني لا أحلم.. صوت زوجي نفسه يرتفع في أرجاء الحجرة.
صوته هو.. صوته الذي شد ما تمنيت ان اسمعه.. وان احبه.

وكان شعاع الفجر قد أضاء النوافذ قليلا.. وها هو زوجي يحدثني.. ولقد
امضيت سنتين انتظر هذه اللحظة.. ها هو يستمر في حديثه.. وأسأمت أنا
لأشاهد تمام المعجزة.. سأصمت الى ان يشتهي هو ان اجيبه.. ان الدموع التي
تسح فوق وجهي حلوة. حلوة جدا.. واني لا يبكي دون ان يسمع صوت بكائي..

للكاتب الياباني أتيدا اكيناري

أسماك الاحلام

حدث هذا منذ زمن طويل، بين سنتي (٩٢٣ و ٩٣٠). وكان يعيش في معبد «ميشي» كاهن اسمه «كوجي». ولقد طارت له شهرة في الآفاق بسبب موهبته الفنية في الرسم. ولم تكن صور بوذا هي التي يرسمها عادة، كما ينتظر من كاهن، ولا الجبال والمياه، ولا الازهار والعصافير. كان، في أيام فراغه من خدمة المعبد، يركب زورقه وينطلق مجذفا به فوق ماء البحيرة. وكان يهب الصيادين من ذوي الشباك، أو الذين يصيدون بالصنارة، درهماً بشري بها أسماكهم، ثم هو يروح يعيد هذه الاسماك الى مياهها التي ولدت فيها. وكان اذ يشهد هذه الاسماك تضطرب وتتخبط يشرع في رسمها.

وعلى هذه الحال انقضت الاعوام، وبلغ هو في فنه غاية الدقة.

وأغفى ذات يوم وهو يركز تفكيره في رسم يرسمه، فرأى، فيما يرى النائم، انه نزل في الماء وأخذ يلهو مع الاسماك كبيرها وصغيرها على السواء. وما كاد يشوب الى نفسه حتى سارع الى رسمها كما تراءت له في اغفاءه. ولما علق الرسم على الجدار هتف قائلاً: «شبابيط الاحلام» وهكذا سمى لوحته تلك. والشبوط نوع من السمك معروف.

وأعجب الناس أي اعجاب بالطابع الفني الممتاز لذلك الرسم. وتمنوا ان

يحوزوه وان يستأثروا به دون غيرهم. غير أنه- وهو الذي كان يستجيب لالتسامح ويخرج لهم طوعا واختيارا عن رسومه التي لم تجاوز الجبال والمياه والازهار والعصافير- احتفظ بلوحة شبابيطه هذه احتفاظ الحرص. وكان يمازح كلا منهم ويقول: «لا رب في انني، وأنا معلم الشريعة ورجلها، لن أعطي من لا دين لهم، اولئك الذين يجهزون على المخلوقات الحية، اسماكا قمت أنا على تنشئتها» ولقد كانت تلك اللوحة الفنية وذلك العمل الفكاهي البارع موضوع حديث الناس في الامبراطورية جميعا.

وأقبل عام مرض فيه «كوجي». وبعد أيام أغمض عينيه فجأة ولفظ أنفاسه وقضى نحيبه. توافد أصدقاؤه ومريده فبكوه وانتحبوا. غير أنهم أحسوا انه بقي في منطقة قلبه وحدها شيء من حرارة، فتحلقوا حول جسده. وانقضت ايام ثلاثة وهم أيقاظ يحرسونه. ثم بدا لهم ان يديه وقدميه أخذت تتحرك حركة خفيفة. وعلى حين غرة أرسل نفسا مديدا، وفتح عينيه، واستوى جالسا فعل من يستيقظ من نومه، ثم استدار نحو الحضور وقال: «لقد فقدت الوعي وادراك أشياء هذه الدنيا، لا بد ان اياما انقضت وأنا على تلك الحال» وأجابه مريده: «لفظ المعلم انفاسه منذ أيام ثلاثة. وقد توافد جماعة المعبد للدفن. غير أننا أحسنا ببقاء حرارة في قلب المعلم فلم نضعه في النعش، وبقينا على حراسته، وها هو الآن قد عاد الى الحياة. وانه ليبهجنا أننا كنا حكمااء فلم ندفنه». وأمن كوجي على كلامهم بإيماء من رأسه وقال: «فليذهب احدكم الى مقر السيد الماجد تيرا، نائب الحاكم، وليعلن له ما يلي «ان معلم الشريعة حي يرزق، وانكم أيها السيد الماجد مع صحبكم لتتساقون الآن خمر الارز، وتعدون لطعامكم سمكا نيئا. فلتكرموا في هذه اللحظة بايقاف وليمتكم والذهاب الى المعبد، وسوف تروى لكم هناك قصة نادرة المشال» ثم سأل الرسول ان يراقب حال القوم هناك وهو يفضي اليهم بهذا القول. ولا شك في ان حالهم ستكون مطابقة لما أقول.

انطلق الرسول مشغول البال الى المقر المذكور، وبلغ ما قبيل له وهو يراقب نائب الحاكم وشقيقه الاصفر «جورو» و«كاموري» صديقهما، وغيرهم، فرآهم وقد جلسوا متحلقين وراحوا يتساقون خمر الارز، كل شيء كان كما وصف المعلم. وتأكد الرسول مما رأى وقد تملكته الدهشة. وعلم جماعة نائب الحاكم بما حدث فذهلوا، ووضع كل منهم عصريه (وقد قاما مقام الملعة) وهرعوا جميعا الى المعبد بما فيهم «جورو» و«كاموري».

رفع «كوجي» رأسه عن وسادته، وهي من قش، وشكر لهم ان يحملوا مشقة المجيء، وعندئذ هناك نائب الحاكم يعوده الى الحياة، غير ان «كوجي» طفق يقول: «أرجو ان تتكرم أيها السيد الماجد بالاستماع الى ما سأقوله لكي تأكد من صحته. ألم توص «بونشي» الصياد بأن يأتيك بسمك؟» فانفض نائب الحاكم وقال: «لقد حدث هذا فعلا. فكيف علمت به؟»

وقال «كوجي»: «ودخل هذا الصياد باب بيتك وهو يحمل سلة فيها سمكة طولها أكثر من ثلاثة اقدام. وكنت أنت، أيها السيد الماجد، مع شقيقك الاصفر الحكيم في الحجرة الجنوية وقد جلس كل منكما الى منضدة الشطرنج الخفيفة. وكان «كاموري» الى جانبك يراقب سير اللعب وهو يقضم خوخة بأسنانه. ولقد أبهجتك ان جاءك هذا الصياد بتلك السمكة الكبيرة فأعطيته ملء طبق خوخا، ثم مددت له يدك بكأس من خمر الارز، وزينت له أن يشرب الخمر مرات ثلاثا. وقد أخرج الطاهي السمكة مزهوا بها واعدها نبتة. هل من خطأ فيما قلته حتى الآن؟»

عندئذ أخذ جماعة نائب الحاكم يلحون على كوجي، وقد تملكهم الذهول والاضطراب، ان يذكر لهم ما دعاه الى الانضاء لهم بهذا الوصف الدقيق. وهذا ما رواه كوجي لهم:

في هذه الايام الاخيرة ابتلاني المرض بآلام مبرحة. ولم أتبين اني قد مت ولكي أهدى. من شره الحمى التي انتابتني استعنت بعصاي، وخرجت، ولاح لي ساعثنذ كأنتي أنسيت علتي، وخامرني شعور العصفور المجوس في قفصه وقد أفلت منه وراح يضرب في عرض السماء. ولا أدري أية جبال ولا أية قرى مررت بها، ثم وجدت متفلاً الى ضفاف الماء. ولدى رؤيتي مياه البحيرة الخضراء خطرت في ذهني، الذي لم يعد يعي حقائق الاشياء، فكرة السباحة في تلك المياه. فخلعت ملابسي وتركتها هناك، ويوثية واحدة غصت في الاعماق، ثم أخذت أسبح هنا وهناك، أنا الذي لم يألف الماء منذ عهد الطفولة. ومع ذلك فقد كنت الهو فيه واضطرب على هراي. واني اذ افكر في هذا الامر ليخيل الي ان ذلك كان وهما في حلم غير معقول. وعلى أي حال فما من شبه بين سباحة المرء على سطح الماء وبين رشاقة وخفة السمك. وقد وجدت قريباً مني سمكة كبيرة جعلت تقول: « ان ما يتحمناه المعلم يسير هين. تفضل وانتظر قليلاً » ورأيت السمكة تنطلق في الاعماق. وما هي الا ان أقبل على رأس حاشية كبيرة من الاسماك شخص يمتطي ظهر السمكة الكبيرة آنفه الذكر. وقد ارتدى ثياب الحفلات، ووضع على رأسه قبعة، وجعل يعمل مجاذيفه على سطح الماء حتى اقترب مني، فالتفت الي وقال: « وان الكاهن المحترم. بأمر من آله البحر، كان قد حاز فيما مضى فضائل عديدة، بسبب تحريره الكائنات الخفية، وهو الان يود ان يلج الماء ويضرب مع الاسماك فيه. فليمنح. وقتاً ما، رداءً شبروط مذهب، ولينق لذائذ امبراطورية المياه. بيد ان عليه ان يحترس من ان تدير رأسه رائحة الضعم الشهية فيفقد حياته معلقاً بصنارة الصياد! »

«وبعد ان قال هذا مضى واختفى. وتطلعت أنا الى بدني فبهت وتولاني الدهول. فقد تبين ان جسدي اكتسى بقشر سمك ذي هريق ذهبي واستحلت الى سمكة شبروط.»

«وجعلت، حتى دون ان يعتريني العجب، احرك ذنبي وزعانفي واضطرب في الماء كما أشاء. وفي يادى الامر تركت الامواج التي تشيرها الريح المنحدرة من جبل «ناغازا» لحملني. وفيما كنت اعبث على شواطىء ماء «شيغا» عدت فغصت في أعماق المياه التي تنعكس على صفحتها صورة جبل «هيرا» فزعا من ذهاب المارة ومجيشهم، اذ يبلون فيها ذيل ثيابهم. الا انه كان عسيرا علي أن اختفي في تلك المياه لان نيرانا اوقدها صيادو «كاتادا» كانت تجتذبي اجتذابا ودون وعي مني. وكان القمر يسير متمهلا في قبة السماء العالية يغمر بضيائه الصافي كل منعطف من عديد منعطفات المرافىء التي لا حصر لها!!

«وشد ما بهرت ناظري جزيرة «اوكي» الصغيرة، واختها جزيرة «شيكوبو» اذ كانت الامواج لا تنفك تمكس ظل سورهما الاحمر.»

«وما زال ذاك دأبي حتى خرجت من ذهولي، وان بين أعواد القصب، وهبت الريح الاتية من «ايوكي» وخرج زورق «آ سازوما» للتجذيف فوق القمر من الماء. وكنت لا اكاد التحجب مجذاف «يابازيه» المستطيل الذي يدفع به عابره الا لاقع تحت رحمة حراس جسر «سيئا» ومطاردتهم الدائبة، مرات لا أعلم عددها.»

«وجعلت، اذا اشتد حر الشمس، أصبح على سطح الماء.. واذا هبت الريح عنيفة مروعة أغوص في الماء الى أعناق سحبة.»

«وعلى حين غرة أخذ الجوع يفري أحشائي، فرحت أبحث عن ضياء هناك. فلا أجد شيئا. وفيما كنت مندفعا في بحثي كمن مسه عارض من جنون. وقعت فجأة على الصياد «بونشي» وقد ألقى بقصبة صيده الى الماء.. وكان الضعم في صنارته تنبعث منه رائحة طيبة. غير ان تحذير آله البحار كان لا يزال عالقا بذهني، فقللت في نفسي: «انني أحد مريدي بوذا. واذا كنت لن اجد ما اتبلغ به برهة من زمن، فما بالي أذل نفسي فابتلع طعما للأسماك؟» ثم اهتمدت. واستبد

بي الجوع واخذ يتعاطم ويشدد، وعيشا حاولت اقناع نفسي والتماس وجوه الصواب. ولم يعد في مقدوري ان اصبر. واقتضت انني سأزدد ذلك الطعم، فهل معنى هذا انني لا بد ان أقع، وبكل غباء وجهل، فريسة صنارة الصياد؟ ثم انني اعرف هذا الرجل الصياد ويعرفني، فماذا ثمة ما يمكن ان أخشاه؟ ووضعت حدا لهذا كله فابتلعت الطعم. وعلى الفور سحب الصياد «بونشي» خيط صنارته وأمسك بي. وهتفت أنا قائلا: «حسبك يا هذا ماذا تراك تفعل؟» الا انه مضى في عمله وكأنه لم يسمع شيئا. ولقد لف حباء حول خياشيمي، وربط زورقه بأعواد القصب، ودسني في سلة وعاد اليكم. وكنت انت أيها السيد الماجد على وشك ان تلعب الشطرنج مع أخيك الاصغر في الحجرة الجنوبية. وكان «كاموري» الى جانبيك يأكل فاكهة. ربا رأيتم السمكة الكبيرة التي أتى بها «بونشي» اعجبتكم بها كل الاعجاب. وفي تلك اللحظة رفعت عقيرتي أخاطبكم: «هل نسيتم انتم جميعا (كوجي)؟ فكوا عني اساري ودعوني أرجع الى المعبدا» وجعلت اردد قولتي هذا دون انقطاع. ومع ذلك لم تلقوا الي بالا. وكنتم لا تنفكون تصفقون فرحين مفتبطين. وراح الطاهي يعصر عيني الاثنتين بين اصابع يده اليسرى، ثم تناول يميناه سكينا مشحذة الحد جيدا، ووضعني على الرضم وشرع يقطع لحمي. وصرخت من الالم صرخة مدوية. واعولت وقلت: «هل رُئيت قط يد ترفع على مرید لبوذا؟ الغوثا الغوثا» ولكنكم لم تصفوا الي أبدا. وأخبرا خامرني الشعور بأنني قد قطعت. ثم صحت من حلمي..»

قال الحاضرون وقد بهتوا وبلغ منهم التأثير مبلغا عظيما: «وانا بعد التفكير والتروي في ما رواه المعلم، لا ريب في اننا شاهدنا، اذ ذاك، قم السمكة يتحرك عدة مرات، ولكن دون ان يخرج منه أي صوت..»

وعلى الفور ارسلوا، على وجه السرعة، خادما الى البيت، وأمره ان يلقي في ماء البحيرة ما تبقى من لحم السمكة النيئة.

ويرى «كوجي» فيما بعد، من علته، وتوفاه الله بعد عمر طويل. وعندما أحس بدنو أجله تناول عددا كبيرا من اللوحات التي رسم عليها شابا يبطه وجعل يبعثها في ماء البحيرة، وكانت سرعان ما تنفصل عن ورقها أو حبرها الذي رسمت عليه، وتعود إليها الحياة وتروح تضطرب في الماء. ولهذا السبب لم يبق للأجيال شيء من تراث «كوجي» الفني. غير أن مريده وتلميذه «ناريمستو» ورث عنه موهبته الممتازة وطارت له شهرة في ذلك العهد. وقد جاء في قصة قديمة أن «باريمستو» رسم ديكا على حائط قصر «كان اين» فشاهد الرسم ديك حي، فما كان منه إلا أن سدده إليه ضربة غاضبة من إحدى رجليه!

جدي والعصافير

كنا كلنا، نحب العصافير، وكانت امي تحفظ أغنية حول مجيء طير السنونو فتشدها في الشتاء بلوعة وأسى، وتنشدها في الخريف وفي حلقها غصة، وتنشدها في الربيع رخيمة الصوت كأنه الماء يتحدر برقة وعذوبة، وجذتي العجوز شد ما ابغضت جارتنا، فأبغضناها معها. لان تلك المرأة كانت تتصيد العصافير، عصافير اللوري بنغ منصوب بحذق ثم تروح تحمرها وتتناولها. وزيادة في النكاية كانت لا تفتأ تتباهى بحذقها ومهارتها. ولا تنفك تفتن في وصف ما تحب من لذة في تذوق لحم هاتيكي العصافير الصغيرة. ولكننا كنا نشيح عنها ونصه آذانتا دون ما تقول.

ولقد أفلحت مرة واحدة في التحدث إليّ حديثها ذاك ونحن في الحديقة. ولقد كان جدي نفسه اشبه ما يكون بعصفور، فقد كان منيف القامة، هزيلا، اقنى الانف، منحرف العينين. وكانت كثفاه وذراعاه المرثقة بقفص صدره تشكل قوسا، ولكأنما هو يستطيع ان يبسطها جميعا كطير خرافي ضخم من الكونسر. أجل فقد كان هو افضلنا حبا للعصافير. وكان له منها نحو خمسين عصفورا في غرفته: بعضها حر طليق، وبعضها محبوس في أقفاصه. ولست مستطبعة، الى اليوم ان ادرك كيف امكن ان يموت وتلك الطيور تنتظره وتشرقب قدمه، لقد كان في حجرته خمسون قلبا مضطربا لا يكف عن خفقان، حتى بعد ان نقلت جثته الى

مقرها الاخير.

كان الشعروو والقرقف يفردان بمرح ومسرة، اما صبيحة الكناري فقد كانت عنيدة مصرة وراعشة مهتزة، تهدر في حلقه كالماء المتدفق لا ينفك يشب من حجر الى حجر، وكان طير السماني يلزم الصمت الا ان عينه وطيرانه كانا اكثر مرحا من صفييره وان كان رقيقا حلوا. ولكنني لن اجد العزاء قط عن موت امي. فقد تخطفتها النية في الربيع، يوم كانت تستطيع ان تنشد اغنيتها ملء حنجرتها، ومن صميم فؤادها ابتهاجا بعودة السنونو. أترى قد تحطمت حقا، وبمثل هذه الفجأة، سلسلة الآلام والأفراح التي صاحب نشيدها اولى خطوات عمري؟، كنت ما أزال صغيرة السن يوم فارقطني. كنت في الحادية عشرة وربما كان هذا هو السبب في انني لا استطيع التسليم بموتها. لا.. ما كان يجب قط ان تقضي نحبها ابان الربيع.

كنا، אחتي وأخي وانا، ننفق الايام والليالي في حجرة جدي. وكان هو الذي فتح عيوننا على اوليات الحقائق والاهام جميعا. ذلك انه كان يريد ان نكون شرفاء، وكان يروي لنا قصص الحب بين رجال ونساء وكان اولئك الرجال والنساء يظفرون بالسعادة، السعادة دائما بعد المصائب والمحن.. كانت النساء في قصصه اميرات يهرب بهن لصوص شرفاء من حماة المساكين والمستضعفين.. او هن قد كن من الرقيق فاستطاع النجاة بهن فرسان ذوو شوارب مفتولة. وكان جدي يحب المسرح حبا جما. ولن انسى ابد الدهر صوته العاطفي وهو يحدثنا عن بداية ممارسته لفن التمثيل. وفيما بين فواصل المسرح، وفي ذلك الجو الخلاب كان كل منا يتصوره على هراء في لحظة لقائه- معها- وقد تزيأ بزي الفرسان، حسبما يقتضيه دوره، وقال لها: كوني امرأتني! فأسر قلبها بتفخيم لهجته- ويا لروعة نطقه تلك الكلمات امانا- واستحوذ عليها بطلاء وجهه بالمساحيق وبشاربيه الكبيرين المستعارين.. ثم عاد فقال: «ولقد شحبت تماما وتزوجتني..» وكنا لا

نستطيع ان نجيد صلة ما بين الوجه الشاحب وراء فواصل المسرح، وبين ما يبدو على جدتنا من اعياء، الا اننا فيما بعد، استطعنا ان ندرك ان مثل هذه الامور قد تكون وقعت له حقا

وكانت اجمل العصافير هي التي وضعت في الاقفاص: عصافير الكناري، وببغاء زرقاء اللون، وشحرور ذو ريش لامع السواد، وحساسين، ولقالق، ودويريات وسماي. وكان ذلك الشحرور وقحا، فيحدث ان يحبس كما لو كان هو الاخر عصفورا نبيلًا.. وكان جدي لا يتناول طعام غدائه الا مع طير السماي. وكان هذا الطير مرحا اليقا، محببا فيروح ينقر كل ما يقدم له وهو يرسل صفيرا حادا دلالة على عرفان الجميل.. وكانت سائر العصافير لا تأكل اللحم، وانما هي اشد ما تقبل على الشحم. وكان جدنا يقت لحم العصافير ويشمنز منه ويقول مراراً: «ان لحم العصافير لا يهب المرء غير القلق والاضطراب، اليس حسبنا اننا نرى السنونو والقالق، وذكر البط ترحل الى الجنوب في الخريف؟»

ونساء الدار ما كن يحبين ممارسة اعمالهن البيئية في تلك الحجرة، فقد كانت الرائحة التي تنبعث منها جد كريهة، كأنها حديقة كاملة من حدائق الحيوان.. وكان هو يحمل دائما في جيبه ملبسا يفوح منه اريج البنفسج والصايون، ويروح يوزعه علينا، وكنت استشعر ان شذا ذلك الملبس اللزج ينبعث من كيانه كله. وكان جدي في الماضي يحسن صنع اخذية الفلاحين، اما في ذلك العهد والى بعد ما يسعنا ان نتذكر، فقد كان لا يمارس أي عمل. وكان يفكر ان يعيش من غلة بستانه. وكان يذبح خنزيرا مرة في السنة فيبيع من لحمه، ومن أمعانه المحشوة باللحم والافاريه وكان يستقدم غيرنا من الاطفال، فنكون جميعا حوله، عشرة او اكثر. وفي هذا القطيع من الاولاد والبنات كان اختياره لا يقع الا على شقيقتي «تساركا» وكان لا يبالغ في تدليلها حتى لم يعد للحسد والغيرة وزن عندنا، كانت «تساركا» في نظره مخلوقا أعلى، وكان لطفه الفائق، والمستديم، نحوها

هو الدليل القاطع على ذلك.

كانت عصافير القرقف الصغيرة لا تني تصفر دائما قائلة: تشين.. تشين.. تشين.. دوديش.. تشين.. دوديش.. اما الكناري فيفرد قائلا: كالي، كالي، كالي.. كالي.. تشين.. كالي، كالي، كالي.. لين.. لين.. لين.. غير ان البغاء كانت أعقل عصافير الحجرة جميعا وقلما تصيح، ولكنها كانت اذا صاحت أخرست الاصوات الاخرى.. وما كانت تعيد شيئا ما او تكرر، وكان هذا هو البرهان على ذكائها.. وكان في وسع الشحور ان يتغنى مئات المرات بلحنه القصير المبتذل، ذلك اللحن الذي يصفربه الصبية وهم يتنادون.. وما يدري أحد اذا كانوا قد سمعوه من الشحور نفسه، ام ان الشحور هو الذي تعلمه منهم!

وكانت عصافير الدّوري لا تفتأ تردّد بمناسبة وبدون مناسبة زقزقتها المرحّة:
تشيك تساب.. تساب.. بمسرة دائماً، وينهم مستمرّ يجعلها على استعداد ان
تخطف شيئاً ما من أي طبق تراه.. تلك الدويريات.. انها والله لعصافير بحق..
وكانت نساء الدار يقلن بغضب: «ولقد يحسب المتشككون اننا نوشك ان نلتهم
هاتيك العصافير.. ولذلك ما كان ينبغي له ان يحتفظ بها في حجرته.. وما اكثر
ما نراه منها في الساحات هنا وهناك..»

ولست اذكر الان ما اذا كانت فصول الصيف حارة في طفولتي.. غير اننا كنا نذهب للسباحة في نهر «المورقا». وهناك، في ماء النهر، كانت أختي «تساركا» محوّر كل انتباه.. وكان جدي قد بدأ يعلمها السباحة هي اولا. وكان هذا كله سرا مكتوما، لان آياتنا وأمهاتنا كانوا لا يدعونا نذهب الى حيث تطيب السباحة، أما جدنا فكان قد قرر ان يعلمنا هذا الفن.. ويعلمنا كيف نخرج ظافرين منتصرين من مهالك الدوامات، وكان يقول: «ليست دوامة الماء بذات خطر على من يحسن السباحة.. وانت اذا ما اخذت بها فما عليك الا ان تعوم على ظهرك فتهزك شيئا ما ثم سرعان ما تلقظك.. وما اعظم ما كنت اجد من

مشقة في التدريب على السباحة، وكنت لا اكاد ارفع قدمي حتى يطير صرايبي
فرقا.. وما زال الى اليوم يتولاني هذا الخوف نفسه كلما همت اسبح.. ولا اكاد
اتصور ان خمسة او ستة امتار تفصلني عن القاع حتى يعصف بي الخوف، فألوذ
بالفرار واخرج من الماء الى ضفة النهر لاهثة مبهورة الانفاس.. وانه ليخامرني
مثل هذا الاحساس وأنا في الطائرة.

ولذلك فاني أفضل السفر بالطائرة ليلا فأشعر كأنما انا في سبارة ركاب
كبيرة، فالطائرة تحدث الضجيج نفسه، وترتج ارتجاج السبارة الكبيرة، واکون
فيها فلا اری شيئا، سوى انني اتمرك وانزلق هنا وهناك..

كانت تساركا، اشجعنا، وكانت تجازف بدخول الدوامات مع جدنا، وكذلك
كان يفعل الفتیان. ولكنها هي التي كان يسعها ان تثلب في الماء مدة أطول،
وما اكثر ما كانا، هي وجدي، يخرجان راغمين من الماء معا وقد هدهما الاعياء،
وخارت قواهما فيترقبان على الارض مغيظين محنقين.. ومع ذلك فقد كانت
«تساركا» لا تفارق جدنا، فهي في النهر معه ابدا، وكانت مياه النهر لا تكاد
تصيبها بالبرد بسبب من بدانتها، اما جدنا فما كان بحاجة الى الحركة وبذل الجهد
الا قليلا، اذ ان مياه النهر كانت طيبة ذلولا حباله، وكأنما كان لا يغادر الماء الا
لارضاءنا، ولا يخرج منه الا بعد ان يكون آخر واحد منا قد بلغ ضفة النهر..
وتساركا كانت هي الاخيرة في معظم الاحيان.

كنا نزداد جرأة يوما بعد يوم، فالصبية يفوضون، وتساركا مع جدها يعيشان
ويتظاهران بالفرق، ويفوضان كليا في اعماق الماء، وكان لا يد للذي يخسر في
هذه اللعبة ان يخنفي تحت سطح الماء ولا يظهر للعيان غير اصابه على شكل
مروحة، فعل الفريق الذي يبحث عما يتكىء عليه لينجو....

في أصيل ذلك اليوم أخذت الامور مجراها على هذا النحو. وكانت الشمس

قد غريت، وأصبحت أنا بالبرد، فأخذت ارتدي ملابسني، وانطلق الصبية يتراكمون في السهل. وبقيت تساركا في الماء مع جدي، وكانت الدوامات والموجات القصار المتقاطعة تنتشر حولها، وكانا هما مندفعين في عبثهما، ولعبهما، بعنف وجنون..

وكان يبدو عليهما كأنما هما يتصارعان حقا. وربما ابتلعا قدرا كافيا من الماء في أثناء صراعهما ومحاولة كل منهما ان يدفع رأس الآخر ويدسه في الاعماق.. وكنت انا واقفة اشاهدهما، وقد عادا لا يضحكان، وإنما طفق كل منهما يهزأ بالآخر ويسخر منه بحركات وجهه، ورأيت تساركا تخرج لسانها له.. وعلى حين غرة امتدت اليها كف جدنا الضخمة واطبقت عليها، وراحت بقوة تدفع بها الى ناحية معتمة كأنما تريد ان تدسها في اعماق النهر. واستمر اللعب على هذا النحو ويدا ان تساركا قد غضبت حقا، وكانت قد عادت تطفو فوق الماء، وأحاطت بعينيها دوائر زرق.. وخيل الي أنها شبعت لعبا.. وكان الصبية لا ينفكون يتراكمون ويلاقح بعضهم بعضا، وبقيت انا وحدي كأنما قد تسمرت في الارض، مسحورة بلعبهما في الماء، وان حركاتهما قد تباطأت وتراخت، وكان رأسهما يختفيان بالتناوب ثم سرعان ما يلوح انهما يتأرجحان على نقط واحد كأنهما صبيان في أرجوحة، فيكون هو فوق مرة وهي تحت، وتكون هي فوق تارة وهو تحت تارة.. وانتهى هذا التأرجح فجأة، ورحت أشاهد- مفعورة الفم- دوائر الماء وقد هدأت وامحت وعادت صفحة النهر لمساء، ناعمة، وما ثمة من شيء غير رأسها هي، رأسها وحده..

ورأيت تساركا تدفع الماء من حولها بذراعيها، وتخفض من ثم رأسها وتتفحص الاعماق.. وكان هو، جدي، قد اختفى.. حدث هذا في غمضة عين.. وصحت: «تساركا!» وتدافع الصبية واخذوا يصرخون هم أيضا: «تساركا»، وانطلقوا يوضون في الماء.. في حين كانت تساركا تتجه الى ضفة النهر، ولم

تخرج من الماء الا بجهد ومشقة. وبعد قليل استطاع الصبية بمعونة احد الرجال ان ينتشلوا جثة جدنا العجوز من الماء. وقد حاول الرجل الغريب ان يعيد الحركة الى رثتي جدي، وان يفرغ جسده المنهوك من الماء، ولكن جدي ظل بيننا، في السهل، ازرق اللون زرقة ضاربة الى السواد، ولا حياة فيه.. وراحت تساركا تتمتع موجهة كلامها الى الرجل: «لقد أخذته من شعره.. أخذته من شعره... ولكنه أغلق فمها براحتة وقال لها بلطف: «اسكتي.. وهيا الى البيت..»

لم يكن الصبية يعلمون كيف حدث هذا كله.. ولا كان الرجل يعلم كذلك.. ولم نفه، تساركا وانا، بكلمة واحدة عن ذلك للعب الويل في الماء، كأنما كان ذلك اتفاقاً قام بيننا. وصرخت أُمي تقول- وكانت ما تزال على قيد الحياة:- «كيف أمكن ان يحدث هذا.. قولوا..» كلا. ما كان الصبية ليعلموا شيئاً.. أما نحن، اختي وانا، فلم يسألنا أحد أي سؤال.. وعادت أُمي تسأل:

- لماذا لم تصيحوا فوراً؟

واجاب الصبية:

- لقد صحتا.. لقد صحتا

وجاءت العاصفير فحطت على الجثة المسجاة

ولم أقل لاحد كيف لاقى جدي حتفه.. وكنت، على الارجح، خليفة ان اروي، ذات يوم، ما حدث لامي.. ولكن الله توفاهها بعد ذلك بقليل.

دافني دي موريبه (انكلترا)

قبيلة أخرى

لما تركت الجيش تعطلت عن العمل قليلا، ثم عملت على طريق «همبستد»، في «كراج» بأسفل عقبة «هافر ستوك» قرب مزرعة «تسالك»، وكان هذا العمل يلائمني، وما اكشر ما أحببت ان تدور يدي بالمحركات، وأظل اتشم رائحة البنزين وأنا مستلق تحت السيارة احاول اصلاحها، ولا ينني الملفك في يدي أديره هنا وهاتنا، وقد ازدادت ملابس العمل التي ارتديها اتساخا وتراكت عليها بقع الشحم والزيت.

وكان صاحب الكراج رجلا طيباً، بطيب العيش معه، وكان يودني ويعلم أنني حاذق وأنه يدانيني مهارة وقدرة، ولهذا كان يدع لي معالجة السيارات المعطوبة وإصلاحها.

ما كنت اقيم عند امي، فقد كانت تقيم في مكان بعيد لا يسعني الذهاب اليه والعودة منه كل يوم.. فاستأجرت غرفة عند اسرة «تومبسون» وكانت دار تلك الاسرة لا تبعد اكثر من عشر دقائق مشيا على الاقدام عن مكان عملي. أما هو- السيد تومبسون- فقد كان يصنع الاحذية في تلك الناحية، وكانت زوجته تهتم بشؤون البيت وتطهو الطعام فرق دكان زوجها.. وكنت اتناول معهما وجبتي الغداء والعشاء، ولما كنت الوحيد الذي يقيم معهما، فقد أصبحت وكأنني بعض

هذه الاسرة الصغيرة.

واني لاحب عملي وانصرف اليه ولا اجد بعد ذلك امتع من الجلوس في مقعد مريح ادخن سيكارتتي وأقرأ في صحيفة يومية او استمع الى قطع الموسيقى من المذياع. وكنت آوي الى فراشي مبكرا. ولا احسبني شغفت يوما بالنساء ولا احببت اللحاق بهن. وقد كان هذا شأني حتى يوم كنت في الجيش بمدينة بور سعيد..

أجل كنت أجد مسرتي في تلك الدار، دار تومبسون، وتنقضي الايام على وتيرة واحدة فلا ينتابني الملل أبدا.. حتى كانت تلك الليلة الفذة.. ومنذ تلك الليلة لم تعد الامور سواء. فيا للعجب..

في مساء تلك الليلة ذهب تومبسون وزوجته في زيارة لابنتهما المتزوجة في ناحية «هايفيت» وعرضا علي ان ارافقهما فأبيت لكي لا ازعجهما، وفي ذلك المساء ذهبت الى السينما بعد انتهاء عملي.. وتطلعت الى الاعلانات الكبيرة في الخارج فوجدت فتى شديد المراس قد دفع خنجره في بطن أحد الهنود الحمر.. انه من أفلام الرعاة التي احبها، فدفعت ثمن التذكرة ودخلت.

هناك قاعات للسينما تعمل فيها فتيات وكأنهن قد تخفين بقبعة مخملية وزى غريب.. أما تلك الفتاة فلم يبد عليها انها متخفية بشيء.. وقد كانت نحاسية الشعر، زرقاء العينين، عابسة الاسارير وكأنها لن تبسم الا اذا استزلنا لها القمر من عليائه.. ولم يكن بدنهما ناصع البياض كالخليلب، وانما كان احابها أملس، حار المجس، رائع الملمس كأنه احاب خوخة نضرة.. ولم تكن متزوجة.. فتاة هيفاء حقا، صغيرة القد، وكانت سترتها المخملية الزرقاء مقدودة عليها بصورة تدعو الى الاعجاب، وسألتها عن الفيلم فقالت انه من النوع الذي تستعمل فيه المدي والخناجر، وفي وسعك، اذا برمت به، ان تغفو قليلا: فضحكت

غير انني تبينت انها رزان.. وذات جد خالص..

وحدثت في عينيها، فرأيت فيهما ما لم اكن قد رأيت من قبل وما لن اراه من بعد.. رأيت ما يشبه ان يكون كسلا وخمولا، وكأنها قد أفاقت من حلم طويل وسرها أن تراك.. ان للقطط مثل هذه النظرة عندما تسبح لها ظهرها براحة يدك، فتروح تهزهر لك وتلتصق بك، وتدعك تفعل ما تشاء.. ألقت الي نظرة كهذه.. وخيل الي انني ارى ابتسامة ما مختفية وراء قمها.. وتنتظر فرصتها..

واضأت لي الطريق بمصباحها اليدوي، ثم اجلسني في مقعد خلفي.. وانا امرؤ لا يحب العطور ولا يطبقها، ومن ورائي، في العتمة، تأدى الي أرج حلو خفيف- لا كهذه العطور الثقيلة الكريهة- كأنه ينبعث من هاتيك الازهار التي تباع في الاحياء الرفيعة المترفة.. وادرت رأسي ابحث عن مصدر العطر..ولقد كان شذاها هي.. أجل هي وقد جلست خلفي تماما.. وسمعتها تهمس في الظلام:

- اذا تماديت في التلفت فلن تفهم قصة الفيلم... وتضيع عليك نقودك. ولما انتهى عرض الفيلم تأخرت وكنت آخر من خرج. وبحثت عنها حتى رأيتها تخرج من باب خلفي، فبقيت في الشارع انتظرها وانا احسب أنها ستكون في زمرة من الرفاق والرفيقات... ولكنني ما لبثت ان رأيتها تغذ السير وحدها، وقد ارتدت معظفا واقيا من المطر ودست يديها في جيبه. دون ما قبعة على رأسها، وتبعتها حتى احدى محطات (الأوتوبيس) فركبت احدى السيارات وصعدت انا وراها، وجلست على مقعد واغمضت عينيها، رأtnي فابتسمت وقالت:

- مرحبا ايها الرجل المجهول، وأخرجت انا سيكارة لازيل قلقني.. وقدمت لها سيكارة اخرى فرفضتها، وعادت فأغمضت عينيها.. ولما لم يكن ثمة احد يرقبنا غير شاب قوي الملامح من الطيارين، وكان عاكفا على صحيفته اليومية يقرأها في مقعد أمامي، فقد مددت يدي فأمسكت برأسها واملته على كتفي، ثم

أحطت خصرها بساعدي، وأنا أحسب انها ستتملص وتغلظ لي القول، ولكن لا.. فقد ندت عن حنجرتها ضحكة صغيرة، والتصقت بي مرتاحة في جلستها وقالت:

- انه لا يقع لي كل ليلة ان يصحني أحد في وحلتي.. وفوق هذا يجعل من نفسه وسادة لرأسي.. ارجو ان توقظني عند اسفل العقبة، قبيل الوصول الى المقبرة..

ولم اكن لادري عن أي عقبة تتحدث.. والى أي مقبرة تشير.. ومضت لحظات، وازددت انا جرأة فشددت على خصرها، وادنيتها مني، واسندت رأسي الى رأسها.. حتى لكأننا عاشقان والهان..

وطالت الرحلة.. وحدثنني نفسي ان اقبلها.. وتهيب في بادى الامر.. ثم قلت: لا تكن سخيفا.. واخذت رأسها، من فوري، فأدبرته نحوى، ورفعت ذقنها بيدي، وقبلتها قبلة مستغرقة، وقد شاركتني التقبيل في كثير من الرضى والرغبة.. وبلغت السيارة العامة نهاية رحلتها فنزلنا معا، وكان المطر يساقط رذاذاً وكان الشارع واسعاً، عريضاً، ودكاكينه مغلقة، وسألتها اذا كان هذا هو المكان الذي تريده فقالت وهي ترسل نظرة شاردة من فوق كتفها:

- ربما كان هو..

ثم تأبطت ذراعي وعادت تقول:

- ليتنا نتناول قهوة بالحليب أولاً..

أولاً! ماذا تراها تعني؟ وعلى أي حال لا بأس ببعض القهوة الساخنة، ولا ضير كذلك في بعض الشطائر مع القهوة، وحشنا خطرنا إلى مقهى صغير لم يكن

أغلق ابوابه بعد.. وكان في المقهى سائق السيارة العامة، وقاطع التذاكر، وذلك الشاب الطيار الذي كان يجلس امامنا في السيارة... .

ولاحظت ان صغيرتي كانت تمحّد النظر في الشاب، الطيار مفكرة متأملة كأنها كانت تعرفه سابقا، وكان هو ايضا ينظر اليها وما كان هذا ليسوءني، وإنه لمن بواعث السرور أن تلفت فتاتي الأتظار، ثم أدارت له ظهرها وتشاغلّت بشرب قهوتها الساخنة.. وفعلت أنا مثلها.. مزهوا.. وقلت انهم سيعتقدون اننا زوج وامراته.. وجعلوا يتحدثون، وقال قاطع التذاكر للفتى الطيار:

- عليك ان تكون حذرا متبها وانت في بزتك الرسمية هذه.. والا انتهيت كما انتهى الآخرون، وليس من الحكمة في شيء ان تسير مختالا وحدك هكذا في مثل هذه الساعة المتأخرة..

وتضاحكوا جميعا، ولم انهم انا شيئا.. كنت أحسبهم يتمازحون.. وقال الشاب الطيار

- لست فتى غريبا.. فأنا اعرف الناس.. والمربين منهم خاصة.

فقال سائق السيارة:

- هذا على الأرجح ما كان يقوله الآخرون.. ولكن انظر ما حدث لهم.. ان ثمة ما يدعو الى التفكير والتحسب.. ولكن لماذا تراها لا تختار غير الطيارين؟ واجاب الآخر.

- انه بسبب من لون بزتهم العسكرية.. فانه يرى في الظلام.

واشعلت انا سيكارة، وقال صاحب المقهى الصغير وهو يمّح فنجانا فارغا ويعلقه وراء ظهره:

- في رأيي ان الحرب هي التي افسدت النساء.. حتى ان الكثيرات قد
اختبلن او جنن.. حتى عدن لا يعرفن الشر من الخير..

فقال قاطع التذاكر:

- بل هي الرياضة البدنية التي أفسدت كل شيء، فقد نمت عضلاتهن
حتى أصبح في وسع الفتاة ان تلقي الفتى ارضا وكأنها وحش صغير.

وقال السائق:

- هذا صحيح.. والشر يأتي من مساواة الجنسين.. ومن حق التصويت للمرأة
خاصة.. وما كان ينبغي لهن..

وقال الشاب الطيار مستخفا:

- ليس حق التصويت هو الذي أحال النساء شرسات متمردات.. فهذه هي
طبيعتهن، وانما في الشرق وحده يعرفون كيف يروضون النساء.. انهم
يحتجزونهن.. وهذه هي الطريقة الصحيحة لكي نأمن شرهن..

وشدتنى فساتي من كمي، وكانت قد انتهت من شرب القهوة، ثم اشارت
برأسها الى الشارع، فخرجنا معا فرأيت الشاب الطيار يتبعها نظرة وسرنا في
الشارع، ولا ينفك المطر ينهمر، ثم أصبحنا امام المقبرة.. فتوقفت ونظرت الي
وابتسمت وقلت انا:

- وماذا ترانا سنفعل؟

وأجابت:

- ان القبور تكون احيانا مسطحة

فقلت جازعا:

- ثم؟

فأجابت:

- نستطيع ان ننام فوقها. ودخلنا المقبرة.. وجعلت تسير بي بين القبور..
وما لبثت ان تمددت فوق أحدها.. وقد وضعت ذراعيها تحت رأسها واغمضت
عينها.

لم اكن اتوقع شيئا من هذا.. وانما كنت احب ان نسير معا حتى باب بيتها
ثم نتواعد على اللقاء.. وقلت لها:

- سيملكك ماء المطر اذا بقيت مستلقية هكذا.

وأجابتنى:

- لقد اعتدت هذا.

وفتحت عينيها وصويت نظرها اليّ فرأيت حدقتيها تبرقان في ضوء مصباح
يتأدى اليها نوره باهتا من بعيد.. انهما لم تعودا عيني القطة الحاملة.. كان
فيهما حنان، لطف، وأسى.. وقلت:

- هل تعودت ان تنامي تحت المطر؟

وأجابتنى:

- هكذا نشأت.. كانوا في الملاهي، يسموننا: أطفال الحرب الضائعين.

- الم يرحلوكم؟

- كنت انا اعزود دائما

- اليس لك أهل؟

- كلا. ان القبيلة التي دمرت بيتنا قتلت أمي وأبي أيضا.

- وهل أنت تعملين في السينما منذ زمن طويل؟

- منذ ثلاثة أسابيع فقط.. ولكنني سأستبدل به عملا آخر.

- ولم؟

- انها اعصابي.. فما عادت تتحمل..

وعلى حين غرة رفعت يديها واخذت وجهي بلطف ورقة وقالت:

- ان لك وجهها جميلا.. وحدثتها عن نشأتي، وعن عملي، وعن دار أسرة تومبسون وعن حياتي اليومية، وعن وحدتي، وما ارجوه من جها.. وعن حياتنا الزوجية المقبلة.. وسعادتنا.. ولست ادري: هل هي أصغت الى ما قلت أم لا.. غير انها سألتني فجأة:

- الم تعمل في الطيران أثناء الحرب؟

- كلا.. وانما كنت اعمل في غرفة الآليات.. انهم جنود عقلاء.. موزونون..

فقلت:

- هذا يمررتني حقا.. وانك! لرجل طيب..

وتساءلت: اترأها عرفت أحد اولئك الطيارين المشهورين.. فكان هو سبب

ضباعها؟ وتذكرت صورتها وهي تنظر الى الشاب الطيار في المقهى الصغير..
كانت كأنها تفكر.. كأنها تتذكر.. وسألته:

- لماذا تراك نائمة عليهم؟ وماذا دهاك من الطيران؟

- لقد دمر بيتي..

- انهم الالمان.. أما طيارونا فلا..

- جميعهم سوا.. جميعهم قتلة..

وقررت في ذهني ان اجعل منها حبيبتي وزوجتي.. احميتها.. وادراً الشر
عنها.. وانحيت وأخذتها بين ذراعي.. ورفعته الى صدري.. وقلت:

- اسمعي.. لقد اشتد هطول المطر.. سأذهب بك الى غرفتي.. والا قضيت
نحبك من البرد وانت مددة هكذا..

ولكنها ابت.. وقالت يجب ان تعود وحدك.. وستغضبني اذا رفضت. وكانت
عينها تيرقان.. ثم اردفت:

- يجب ان تعود.. وتركني هنا.. ولا تلتفت وراءك ابدا.. ولا تهتم بي..

ولما قلت لها انتي سأبحث عنها مساء الغد في دار السينما لم تجب بشيء..
وانما هي ابتسمت فقط، وكانت قد اعتدلت جالسة دون ان تتحرك، وراحت تنظر
الي، ثم أغمضت عينيها.. والقت برأسها الى الخلف وقالت: «أعطني قبلة
أخرى..»

وتركتها كما ارادت.. وعدت ماشيا الى غرفتي في دار اسرة تومبسون..
وفي الغداة اشترت لها حلية صغيرة جميلة بكل ما ادخرته من مال.. ولما ذهبت

مساء الى دار السينما اذهلني انني لم اجدھا.. ولما سألت عنها قيل لي ان البوليس جاء فاقتادھا.. وقد استدعى مدير الدار ايضاً.. للتحقيق معه..

وحسبت انها حاولت الانتحار بالموت بردا حيث تركتها في المقبرة، ولكنهم ادركوھا.. وهم الان يحققون معها.. وامضت يومي مهموما مفتما، وصورتها لا تزال في مخيلتي.. وقلبي يخفق بحبھا..

وقبيل انتهاء وقت العمل جعلت اتجاذب الحديث مع صاحب «الكراج»

وسمعته يقول:

- وهذا شيطان آخر مسكين قد قتلوه.. انه الثالث في ثلاثة اسابيع.. وجدوه كما وجدوا الآخرين وقد اخترقت المديّة أحشاءه فقضى نحبّه في المستشفى.. لكأنما المقصودون هم الطيارون انفسهم.. اجل ان ثلاثتهم من الطيارين.. وفي كل مرة وجد الطيار القتيل قريبا من المقبرة.. ويزعم البوليس ان القاتلة امرأة.. وهم جادون في إلقاء القبض عليها قبل أن ترتكب جريمة رابعة.. واذن فليس الرجال وحدهم قد أصيبوا بالجنون الجنسي، فالتساءل أيضاً مصابات بهذا الجنون فيما يبدو..

وانطلقت انا الى الشارع.. واشترت صحيفة يومية وقرأت فيها أن الطيار أفاد، قبل وفاته، ان احداً من.. تحككت به فتبعھا.. وكان قد رآھا قبل ذلك في مقهى صغير تشرب القهوة مع رجل آخر. وحسب انها تخلصت من رفيقها لانھا مالت اليه هو.. ولكنها ما ان سار معها خطوتين حتى استلت مديّة مشحونة واغمدتها في صميم بطنه.. وقالت الصحيفة ان الطيار ذكر اوصافا مفصلة للقاتلة، وان البوليس يرجو الرجل الذي كان معها في المقهى ان يظهر نفسه ليساعد في التحقيق.

والقيت الصحيفة.. ورحت أسير هاتما على وجهي في الشوارع حتى خارت قواي.. ولما عدت الى غرفتي وجدت السيدة تومبسون قد وضعت قرب السرير زجاجة «تيرموس» مليئة بالشاي والى جانبها آخر طبعة من احدى صحف المساء..

كانوا قد القوا القبض عليها.. ولم أقرأ المقال.. ولا الاسم.. ولا أي شيء آخر.. وانما جلست على سريري، وفتحت الصحيفة.. ورأيت في وسط الصفحة الاولى رأيت صغيرتي، فتاتي.. تنتظر الي بعينها.

وأخرجت من جيبى العلبة الصغيرة.. الهدية التي اعدتها لها.. وفتحت العلبة.. وتناولت الحلبة الذهبية.. انها قلب صغير احسست كأنما هو يخفق باستمرار في راحة يدي.

سي. ب. دونيل (امريكا)

الخاتمة

مثلما كانت (الفيلا) البديعة بأزهارها الصارخة لا تطابق ما كان يتوقعه فكذلك كانت صاحبها قد ادخلت عنصرا جديدا في حسابها.. لقد كانت السيدة (شالون) - وهي في الاربعين من عمرها- لا تنتمي الى أي نوع من المجرمين.. وهي ما كانت (كليوباترا) ولا كانت ربة جعيم شرسة. وانما هي- فيما قال لنفسه- أشبه ما تكون بـ (مينيرفا) ربة الحكمة والجمال فعينها واسعتان، صافيتان، ازهى قليلا من زرقة البحر الابيض المتوسط الذي يبدو متألقا من نوافذ غرفة الاستقبال العريضة التي اجتمعا فيها. ثم قال في نفسه بعد تفحص أعمق لشخصها، انها ليست بالتمام والكمال كربة الحكمة مينيرفا.. فان مخمل خديها المتوردين الناعمين يجعل من يرنو اليها يحسبها فتاة في الثامنة عشرة من عمرها.. واكتمال تكوينها ورقتها وحلاوتها تدعو الى اشتهاؤها، وهي لو كانت كغيرها امرأة فظة غليظة، ولها وزنها نفسه لحسب من يراها انها تخطر حشا نحو البدانة، اما السيدة «شالون» كما تبين بغريزته، فان جسمها لراسخ حقا كتلة وقدا، وستكون حين تبلغ الستين من عمرها مثلما هي الان دون زيادة أو نقصان..

وقالت له:

- أتحب كأسا من كونيالك ديبرنيه أيها المفتش ميرون؟

وفيما كان هو يتحدث تهيأت هي لتصب له كأساً من الخمر. وكان رد الفعل الذي ادى به الى التردد قد اضاء عينيه ببريق عابث، غير ان تربيته الحسنة حالت دون ظهور ابتسامة الاستخفاف على شفتيه وقال:

- وشكراً..

وعلى الفور استاء من نفسه، فقد وضع في كلمته من قوة العزم اكثر مما يجب.

ويقصد لا يكاد يبين فان السيدة «شالون» شريت هي أولاً وكأنها تريد ان تقول: «انت ترى يا سيد ميرون انك لا تجازف بشيء» وكان هذا منها دهاء، بل مزيداً من الدهاء.. ثم قالت بابتسامة صغيرة ودون مواربة على الاطلاق:

- جئت تراني لانني قتلت زوجي الاثنين بالسم.. أليس كذلك؟

وقال هو:

- سيدتي..

ثم تردد من جديد وعاد يقول مندهشاً:

- سيدتي... انني

الا انها أجابته بهدوء:

- لا شك في انك مررت بالمحافظة قبل مجيئك.. ان «فيلفرانش» كلها واثقة من انني انا القاتلة..

- سيدتي.. لقد أتيت لاسألك السماح باستخراج جثة السيد «تشارلزوسر»

المتوفى في شهر يناير سنة ١٩٣٩، وجثة السيد «اتيان شالون» المتوفى في شهر
مايس سنة ١٩٤٦ لكي يجري الخبراء تحليل احشائهما، ولقد سبق ورقضت هذا
الاستئذان للرئيس «لوشار» من مركز بوليس منطقة سكتك.. فلماذا؟

- ان «لوشار» لا يتصف باللباقة والكياسة.. فاعتراضي الاشمئزاز منه..
على نقيضك انت.. وانا انا ارفض موقف الرجل ولا اتأبى على القانون.

وحملت الكأس الصيرة الى شفتيها المكتنزتين.. ثم قالت:

- هذا الاستئذان لن ارفضه لك انت ايها المفتش ميرون..

ويدا في نظرتها اليه ما يشبه الاعجاب فقال مفتش البوليس:

- انك تطرئني يا سيدتي:

ولكنها اردفت تقول بلطف:

- ذلك انني واثقة كل الثقة ان الجثتين قد نبش عنهما واستخرجتا سرا..

فأنا اكثر الناس معرفة بوسائل وأساليب البوليس الباريسي..

وانتظرت ان ترى الاحمرار يعلو خديه، وهي تتظاهر بأنها لا تلاحظ شيئا من
هذا القبيل. وتابعت كلامها كأن لم يقطع شيء.. - وقد اتم الخبراء تحليلهم
فازدادت حيرتكم لانكم لم تعجبوا شيئا.. وانت، انت الذي لم يهتم بهذا الموضوع،
فأنك تريد ان تزورني.. وان تعرف طباعي وانت تعلم الى أي حد استطيع ان
اقالك نفسي.. وان تتبين مدى ما يمكن ان يتاح لك من فرص لتجربي الى حديث
يعطيك أدلة ارتكابي الجريمة..

وقد أصابت ملاحظتها الهدف الذي ارادته بدقة عظيمة، ظن معها انه

سيكون أغبى الاغبياء لو تجاهل انه قد تأثر حقاً.. ولذلك فقد رأى ان الصرامة
اولى واحق فقال:

- ان ما تقولينه صحيح تماما.. صحيح بالحرف الواحد.. ولكن..

ونظر اليها بانتباه وعاد يقول:

- ان المرأة حين تفقد زوجين بلغا سنا معينة، دون ان يكونا هرمين مع ذلك،
على أثر اضطرابات معوية، وقبل ان يمضى عامان على زواجهما من كل منهما، في
حين لا وارث لثروة كل من الزوجين غير ارملته.. انك تدركين ما أقول بالطبع..

- أجل ..

ودلفت السيدة «شالون» الى النافذة مما اتاح لاستدارات جسمها ان تبدو في
منتهى روعتها واغرائها، وقالت:

- أحب أيها المفتش ميرون، ان أدلى لك بالاعتراف الذي تريده؟ كاملاً؟

ويدت مشيرة كل الاثارة.. وذات انوثة قاهرة، وكان لرنه صوتها ما يشبه
الملاطفة، او المداعبة الآسرة.. فأدرك ميرون ان عليه ان يكون شديد الحذر
والاحتراس. فقال بكل ما استطاع اصطناعه من قلة الاهتمام:

- هذا اذا اردت انت يا سيدة «شالون»

لقد كانت امرأة خطيرة.. خطيرة الى أقصى حد.. وقالت

- واذن.. فاني سأمنحك هذه المتعة..

ولم تكن السيدة شالون تبتسم، ومن النافذة المفتوحة تصاعدت اليه نفحة من

الهراء محملة بالاريج.. ربما كان أريج الحديقة، وزيادة في الحيلة والحذر لم يتأهب لتسجيل اية ملاحظة وهو لو فعل ذلك لما وافقت ان نتحدث بما يريد من طلاقة وحرية، وسمعها تقول:

- اترك قليل المعرفة بقن الطهو يا سيد ميرون؟

- انني من باريس كما تعلمين واهل باريس اصحاب فن في طهو وطبخ.

- وانت كذلك في الحب ايضا؟

- قلت لك انني من باريس.

- واذن...

ثم استنشقت هواء ملأ صدرها وعادت تقول:

- أستطيع ان أقول لك انني أنا «هورتانس اوجيني فيلوروا» زوجة «ويسر» ثم زوجة «شالون» قد قتلت ببطء عامدة متعمدة وباختباري التام زوجي الاول «ويسر» البالغ السابعة والخمسين من عمره، كما قتلت فيما بعد زوجي الثاني «شالون» البالغ من العمر الخامسة والستين.

- لسبب ما دون شك..؟

اكان هذا حلمًا يحلمه.. ام تراها قد جنت جنونا مطبقا؟ ومضت هي تقول:

- لقد تزوجت. السيد «ويسر» خنزير.. خنزير لا حد لرغباته الجائعة.. كان فظا غليظا، ايها المفتش، وكان دعيًا، غائصًا في قمامة رذائله، وكان يسرق الفقراء ويجردهم من كل شيء.. وكان يخدع الابرياء.. وكان شديد النهم والشراسة.. وكان رجلا حقيرا وله عادات تشمئز منها النفس.. وباقتضاب كانت

فيه جميع العيوب القبيحة المشيرة، دون ان يتصف بشيء من حنان او رقة او حرص على كرامة سنه.. ويسبب من هذا كله كانت معدته في حال سيئة..

وكان مفتش البوليس قد درس قضية السيد «ويسر» ووضعه في مدينة باريس واستطاع ان يكون لنفسه صورة مشابهة عنه، فأمن على ما تقول ثم سألهما:

- والسيد شالون؟

- كان أكبر منه سنا.. كما كنت انا اكبر سنا لما تزوجته..

وسألها مرة اخرى في شيء من السخرية؟

- وهو أيضا كان ذا معدة سيئة؟

- بكل تأكيد.. وربما كان الاصح ان تقول انه ضعيف الارادة.. وربما كان اقل حيوانية من ويسر.. بل ربما كان أسوأ.. في الواقع.. كان يعرف عددا كبيرا من الالمان.. والا فلماذا كانوا- في عنفوان احتلاله - نرنسا في أثناء الحرب- يجهدون لكي يقدموا لنا اطيب الطعام وافخر الشراب مما لا سبيل الى الحصول عليه، في حين كان يغمى على الاطفال جوعا كل يوم وهم في الشوارع؟ ربما اكون مجرمة ايها المفتش، غير اني ايضا فرنسية.. وقد قررت- دون ما رحمة- ان شالون يجب ان يموت كما مات ويسر..

وقال لها بصوت هادئ، لكي لا يزعجها في اعترافها:

- وكيف كان ذلك يا سيدتي؟

فالتفتت اليه وقد استضاء وجهها بابتسامة حلوة:

- لعلك تعرف تلك الاطباق الشهية مما يقلى، او يحمر، وما يحشى على الطريقة التركية، وربما ذقت الدجاج المطهو على الطريقة الهندية، وديك الحبش المحشو بالكسنة، والعجة النابولتانية والطواجن ذات البهارات والافاويه، والرقائق الدسمة، والمعجنات اللذيذة ..

- حسبك ايها السيدة شالون.. لقد اثرت في شهية مجنونة..

- لقد سألتني عن وسائلتي في قتل ذئبك الرجلين.. ايها المفتش ميرون..
وانني استخدمت هذه الاطباق الشهية ومئة اخرى غيرها.. وفي كل من هذه الأطباق كنت أخفي قطعة من..

وأمسكت عن الكلام فجأة، وبذل المفتش ميرون جهدا خارقا ليظل ساكنا هادئا وهو يشرب آخر جرعة من كأس، وحال بقوة خارقة دون ارتجاف بده، وهو يسألها:

- كنت تخفين قطعة من أي شيء ايها السيدة شارلون؟

- لقد تحريت كل ما تريده عني.. فأنت تعلم اذن من كان ابي..

- أجل.. انه جان ماري فيلوروا.. من سادة العارفين في فنون ما يؤكل وما يقدم على الموائد..

- وكان رحمه الله يعتبرني، وانا بعد في الثانية والعشرين من عمري، نظيرته في فنون المائدة..

-عظيم جدا.. واني لاتحني أمامك يا سيدتي.

وادارت له السيدة شالون ظهرها.. فأذهلته كفتاها، ولم يستطيع ان يمتنع عن

تأمل قدها.. وردفيها.. وسمعها تقول وهي تطل على البحر:

- كنت ادس لهما قطعة من فني.. ولا شيء غير هذا.. لا شيء غير هذا ايها المفتش.. قطعة من فن الطعام الجيد.. الذي لا يعرفه غير مشاهير السادة من الطهاة.. واي رجل من طراز «ويسر» او شالون كان يسعه ان يقاوم؟ كنت اقدم لهما ثلاث او اربع مرات في اليوم هذه الاطباق الشهية الغنية بما لذ وطاب من بين الالذ والاطيب، وكنت أنوع هذه الاطباق تنوعا مدهشا.. وكنت ارغمهما ان يأكلا حتى يتخما.. وحتى يستغرقا في النوم استغراقا.. وان يحتسيا من النبيذ ما يدفعهما الى مزيد من النهم.. فكيف استطاعا، في مثل سنهما، ان يعيشا مدة اطول مما قدرت لهما؟

وساد الحجرة صمت ثقيل. ثم قال مفتش البوليس:

- والحب يا سيدتي.. واني لارجو معذرتك.. فانك انت اشرت اليه في حديثك..

- أما بشأن الحب.. فان غذاء غنيا جدا كالذي ذكرته لك يهيء الامر لممارسة الحب.. او لشيء شبيه به.. كانا هما يسميانه حبا. وكنت انا طوع ارادتهما.. وما كنت لاثبط عزيمتهما ان يبحثا ايضا عن بعض الصديقات الصغيرات، وهكذا قضى كل منهما نحيبه: السيد ويسر في السابعة والخمسين من عمره، والسيد شالون في الخامسة والستين. وهذا كل شيء..

وساد الصمت مرة اخرى، صمت مليء بالترقب. ونهض المفتش ميرون على حين غرة، وبشدة جعلتها تنتفض وتستدير وقد شحب وجهها.. ثم قال:

- ستتبعينني الى مدينة نيس هذا المساء..

- الى مركز البوليس ايها المفتش؟

- بل الى «الكازينو» هناك لنشرب الشمبانيا على أصدقاء الموسيقى.
وسنواصل حديثنا..

- ولكن، أيها المفتش ميرون!

- أصفي لي يا سيدتي. انا غير متزوج.. وفي الأربعين من عمري.. وقد
قيل لي انه لا بأس بشخصي.. واستطعت ان ادخر بعض المال.. ولن اكون زوجا
مرموقاً، ولكن لن اكون زوجا تزدرينه على كل حال..

وحدق في عينيها وقال:

- اشتهي ان اموت انا ايضا. ثم اعتدل جيداً ليظهر جمال قامته في حين
كانت السيدة شالون ترمقه معجبة به ومستصربه رأيه باخلاص.. ثم قالت:

- ان الطعام الجيد اذا ما تناوله المرء باعتدال لا يمكن ان يكون بالضرورة
وخيم العاقبة، والان.. اترى ان تقبل يدي ايها المفتش ميرون؟..

وانحنى على يدها يقبلها بشغف عظيم..

ف. غراي (امريكا)

الحقيبة

- الم يصل بعد مسجل العقود؟

كان هذا هو السؤال الذي وجهه «ر. س. راندولف»، ملك الفولاذ الى المعرضة الجالسة الى جانب سريره.

واجابت وهي تمهد وسائد هذا الرجل المريض:

- لا يد ان يحضر السيد «كنوكس» في لحظة او اخرى.

وبعد مضي بضع دقائق كان السيد كنوكس ينقر على باب الغرفة متأذنا بالدخول، فhez السيد راندولف رأسه راضيا وهو يرسل نظرة خاطفة الى ساعة الحائط.

قال المليونير للسيد كنوكس مسجل العقود وقد ارتسمت على شفتيه ابتسامة خفيفة:

- لم يبق لي متسع من الوقت، والوقت كما تعلم ذلك جيدا، هو الشيء الوحيد الذي لم امتلكه على وجه التقريب، وانا- لهذا السبب - لا زوجة لي ولا ولد.. فما كان في الوقت سعة لزوج.. ولقد استدعيثك لان الأطباء هم الان

الذين لا يريدون ان يدعوا لي وقتا لاعيش.. وانا قد نظمت كل الامور المتعلقة بمعظم ثروتي ومصانعي.. واليوم بقي علي الوفاء بدين شخصي.. واني لشديد الاهتمام به اهتمامي بمصانعي. اترى تلك الحقيبة الجلدية المعلقة على الحائط هناك؟ وبهت مسجل العقود ثم قال:

- أهى تلك الحقيبة العتيقة البالية؟

ثم اردف يقول بلا نباهة:

- حسبتها تخص الممرضة..

وأجابت الممرضة ممتعة:

-أرجوك يا سيدي.. من تراه تطاوعه نفسه على استعمال مثل هذه الحقيبة؟

ثم غادرت الغرفة بإشارة من المريض.

وقال المليونير بابتسامة رقيقة:

- أجل. ان هذه الحقيبة قديمة وبالية.. الا انها لعبت في حياتي دورا خطيرا.. وانت تعلم يا صديقي المكان الذي هاجرت منه الى الولايات المتحدة، ولقد استحوذ الصحفيون على تاريخ حياتي كله.. ونبشوه نبشا.. بل هم قلبوه ظهرا لبطن.. باحثين مدققين.. الا ان ثمة امرا واحدا لم يتحدثوا عنه.. هو.. تلك الحقيبة. وحقيبتى تلك رقت عليهما ملقاة على مقعد في «هوبوكن ستيشن» التي تبهر منها البواخر العابرة.. وفي ذلك العهد كانت الحقيبة جديدة.. وكانت نموذجاً متقنا للحقائب التي يستعملها أولئك التافهون أبدأ، عارضو السلع وغاذج المصنوعات من التجار الجوالين. وانا نفسي عند وصولي الى نيويورك، كنت احد أولئك المرهقين الذين لا يجدون الى الراحة سبيلا.. وكان في هذه الحقيبة بعض

النماذج. اترك تدري ما هي؟.. كلا، اذن فاعلم انها كانت المثال الاول لآلة حلاقة اتماتيكية ومعها عدة رزم صغيرة ملأى بالشفرات.. وبعد لحظات تأدت الي صيحات تقول ان جثة غريق قد انتشلت من نهر الهيدسن.. وسمعت لفظا تبينت منه ان الغريق يمثل مصنع وعرضت نفسي لكون ممثلا له.. فقبل عرضي.. أرجو ان لا تسيء الحكم علىّ يا سيد كنوكس.. فقد بحثت حتى عرفت عنوان اسرة الفريق المتوفى، وبقيت طيلة حياتي شديد العناية والاهتمام بأفراد تلك الاسرة.. وبالطبع فانه لم يسعني الاخذ بأيديهم ورعايتهم الا بعد انقضاء بضعة أشهر.. ولقد كانت البداية عسيرة، فقد كان الحلاقون- ومنذ ذلك الحين- يمتلكون، بالاضافة الى اعمال مهنتهم، وكالات لمصانع مشابهة. ولهذا السبب كان العمل شاقا وقاسيا في وجه الجوالين الذين يمثلون ذلك المصنع بالذات.. حتى كتب له الفوز على منافسيه..

ولقد حملت الي تلك الحقبة اليمن والخير.. فازدهرت أعمالي واتسعت، وبعد وقت ما استطعت ان تكون لي حصة في ذلك المصنع.. ثم اصبحت، فيما بعد، مديرا عاما له، وما انقضت بضعة سنوات حتى غدت رئيسا لمصانع آلات الحلاقة مجتمعة. غير ان الحقبة لم تفارقني قط.. بل ظلت تصحبنى في حلي وترحالي دون انقطاع..

وقال مسجل العقود:

- والآن.. ماذا ترانا سنفعل؟

- لقد قررت في وصيتي ان هذه الحقبة يجب ان توضع ليلا- يوم وفاتي- على المقعد نفسه الذي وجدتها فوقه فيما مضى بـ «هويوكن شيشن» وستكون بكل ما فيها من نصيب من يجدها سواء قدمها للبوليس او احتفظ بها..

وبعد اسبوع قضى المليونير السيد راندولف نحيبه، ونفذ السيد كنوكس

مسجل العقود وصيته الاخيرة: ففي حوالي منتصف الليل وضع الحقيبة على المقعد الموجود في الناحية الشمالية من مرفأ البواخر العابرة..

وقد وجد الحقيبة سائق سيارة عائد الى بيته بخطى ثقيلة بعد انتهاء عمله، ففتحها واستخرج منها آلة حلالة عتيقة صدنه وراح يتفحصها في ضوء مصباح العمود الكهربائي، ثم أعادها الى الحقيبة.. ولما كانت هذه الحقيبة رثة مهلهلة فقد تركها حيث كانت ومضى وكان الذي لمحها بعد ذلك نادى لأعمل في بار مجاور، ففتحها وأخرج، منها مرآة صغيرة ثملقاها.

ومر زنجي يأتيه رزقه من عمله ليلا في أحواض السفن فرفع الحقيبة، ونظر في محتوياتها فأخذها وألقاها على الأرض، ودس في الحقيبة قميصه الملطخ ببقع الزيت الذي يرتديه في أثناء عمله، ومضى بها تحت ابطه ثم ركب قطار «المترو» الذي حملة الى حي «هارلم» حيث يقيم- مع زوجته وأولاده الثلاثة- في شقة صغيرة مؤلفة من حجرتين.. وفي الغداة باعها لقاء بضعة سنتات لأحد تجار الاشياء القديمة، فأخذها هذا ونظفها ولمع جلد لها بمادة خاصة ثم عرضها، ظاهرة للعيون، في واجهة دكانه..

واشترى الحقيبة بحار فوضع فيها اشياء القليلة وذهب بها الى باخرته التي أبحرت في المساء نفسه الى مدينة جنوا..

وعندما أبحرت الباخرة عائدة من جنوا الى أميركا كان على ظهرها أكثر من ألف مهاجر بينهم اسرة ايطالية اصلها من «ليفورن»، وكانت هذه الاسرة مؤلفة من الزوج وامرأته ووالد هذه المرأة وابنائهما الستة الذين تتراوح اعمارهم بين السنة الثانية والخامسة عشرة..

ولما اقتربت الباخرة من ميناء نيويورك قدم البحار حقيبتة هدية لاصغر الذكور من ابناء رب الاسرة الايطالية، وهو أسود العينين وفي الثامنة من عمره..

ووضع «غابريلو» الصغير في الحقيبة قميص نومه المرقع وزوجين من الجوارب ثم مضى مزهواً والحقيبة تحت إبطه، وغادر الباخرة مع أسرته إلى محجر في «إيليس آيلاند». وبعد مرور خمسة عشر يوماً من الحجز الصحي سمح للمهاجرين بالاتجاه إلى نيويورك: وقد دبرت شركة الملاحة أمر إيوائهم الأيام الثلاثة الأولى. وفي هذه الأثناء جعل «غابريلو» الصغير يتفحص حقيبته بفضول شأنه في هذا شأن جميع الأطفال، ولقد تفحصها بدقة من هنا وهناك حتى انشقت بطانتها البالية من أولها إلى آخرها.. وعلى الفور انزلت من البطانة المشقوقة ورقة خضراء سقطت على الأرض.. فأنحنى غابريلو والتقط الورقة ذاك! هي «شيك» مدعوك تماماً.. فذهب الصبي من فوره حاملاً ما وجده إلى والده.. وقرأ الوالد في الورقة التي مد الصبي بها يده ما يلي: «على بنك نيومور شانت أن يدفع لحامل هذا الشيك مبلغاً وقدره أربعمئة وثمانون ألف دولار»..

وأخفى والد غابريلو في جيبه الورقة الشمينة.. وهو يدير بصره بحذر واحتراس فيما حوله..

ولكن ما من أحد لاحظ أنه دس في جيبه شيئاً.. ولم يجد الإيطالي بعد ذلك المرأة ليتقدم بالشيك إلى البنك.. وما استطاع أن يمتنع عن التفكير بأن هذا الشيك بالمبلغ الهائل المذكور فيه لا بد أن يكون مسروقاً، أو على الأقل قد فقده صاحبه واعتقد، دون أي ريب، أن كل من يتقدم بهذا الشيك ليقبض قيمته سيلقى عليه القبض حتماً.

وغادر غابريلو وإبواه مدينة نيويورك إلى «غولدن ويست» حيث وجد الأب عملاً له..

وانقضت سنوات ثلاث لم يجد أحد خلالها المرأة ليتقدم بالشيك إلى البنك. وروى الإيطالي قصة الشيك ذات يوم لأحد زملائه في العمل، فقال الرجل:

- ان امرك مضحك حقا ، فما عليك الا ان تقول انك وجدته ، فاذا كانت قيمة الشيك لا تزال قائمة- وهو ما لا اعتقده- فان لك الحق بمكافأة قدرها خمسة في المئة على الاقل..

ولقد يحدث في الحياة ما قد يبدو غير ممكن.. فان البنك الذي تقدم اليه الايطالي بالشيك اتصل على الفور ببنك «نيومور شانت» بمدينة نيويورك مستوضحا الامر، فعلم أن هذا الشيك بموجب وصية لا غبار عليها قابل للدفع لحامله فوراً ودون اي تحفظ..

وهكذا هيبت في الايدي الخشنة القاسية لافراد تلك الاسرة الايطالية البائسة ثروة مقدارها (٤٨٠ . ٠٠٠) دولار، أو على الاصح في يدي غابريلو الصغيرتين، وهو الذي التقط الشيك الذي سقط من «حقيبتة» ولقد اقتسم، بأمانة، المبلغ الجسيم مع افراد أسرته.. وكانت الحقيبة قد اتت شوطها المقدور لها.

واليوم فان هذه الحقيبة ترى معلقة على جدار غرفة المدير العام لمصنع من أهم مصانع السيارات الاميركية.. أجل.. المدير العام الذي ليس سوى غابريلو الصغير ذي العينين السوداوين وكان قد جاء منذ سنوات الى الولايات المتحدة دون ان يكون في جيبه «سنت» واحد. وما دام غابريلو على قيد الحياة فان «الحقيبة» لن تغادر مكانها.

ف. ويستون (امريكا)

اللقاء المريب

كان الأقرىز ادنىء، في واجهة الطابق السادس والعشرين من العمارة الضخمة الشاهقة، ضيق لا يتجاوز عرضه الاربعين سنتمترا وكان الرجل واقفا فوقه بين نافذتين، ووجهه يسل على الفراغ تحته. وكان يتأمل - من علو سبعين مترا - المارة الذين الهبتهم الشمس بحراراتها، ويسط راحتيه معتمدا بهما على الحائط. وكانت وجوه الناس ترتفع الى السماء مشرّبة نحو تلك البقعة البيضاء، المسمرة على شكل صليب، الى واجهة العمارة المغيرة، فتبدو تلك الوجوه وكأنها بحر مائج متلاطم. وكان هذا البحر يتضخم ويتعاظم، وينداح موجه على الطرقات، وكلما توافدت جماعات جديدة كانت تضطر ان تغير مواقعها، وتنتقل بعنف هنا هناك، كفراش مذعور تطارده ايدي المتجمهرين، كان هذا كله يبدو غاية في الضآلة، وكأنه أمر لا حقيقة لوجوده. وكان الرجل قليل الاهتمام بالوجوه المروعة التي تتراعى له كل لحظة من النافذتين، عن يمينه مرة وعن شماله مرة اخرى: لقد أطل أولا عامل الكهرباء وقد زوى ما بين عينيه فتأمل بنظرة غير مصدقة ما ترى في بادىء الامر، ثم استحالت الى نظرة منكرة، قبل ان يهرول منذرا بالخطر.. ثم جاء بعده عامل المصعد، فهتف بصوت أجش:

- أترى ان تشب؟ انك لن تنجو ابدا من وثبة كهذه..

ويعد لحظة أطل رأس وكيل المدير بدوره، فأخذت الستائر تتطاير في وجهه الحليق التنظيف ويدت عليه امارات الحنق وقال:

- عفوك يا سيدي..

غير ان الرجل، الذي رشع نفسه للانتحار، محا وجود وكيل المدير من عالمه بحركة من يده.. الا ان الوكيل عاد يقول واثقا من نفسه، معتدا بمبادئه:

- ان مشروعتك جنون مطبق..

واخيرا ظهر مدير الفندق نفسه، بوجهه المستدير الاحمر. وجعل يراقب الرجل بضع ثوان قبل ان يسأله؟

- ماذا تراك تفعل ثمة؟

وأجابه الرجل:

- اريد ان اثب..

فقال:

- من انت، وما اسمك؟

فأجاب:

- اسمي كارل آدمز..

واردف مدير الفندق يقول:

- فكر قليلا يا صديقي..

وكان ذقنه السمين المزدوج يرتعش وهو يتكلم، ووجهه يحتقن بسبب الجهد الذي يبذله لكي ينحني فوق النافذة. ورد الرجل قائلاً:

- لقد فكرت جيداً.. فدعني وشأني..

وتعاقب على النافذتين طبيب، وكثيرون من أعضاء إدارة الفندق، وقس.
وقال القس متردداً:

- أرجع فسوف ندرس المشكلة معاً. وأجاب آدمز:

- ليس ثمة ما يقال. وعاد القس يقول:

- أتريد أن أساعدك لتعبير النافذة؟ وقال آدمز:

- إذا حاولت أنت الاقتراب أو أي شخص آخر، فاني سأقفز فوراً..

ومضت برهة دون أن يزعجه أحد.. ثم بدا في إطار النافذة وجه عسكري
المرور، وراح يتأمل آدمز، لحظه بنظرة لا تخلو من قحة، ثم قال:

- ويعد.. ماذا دهاك.. يا صديقي؟..

فالتفت إليه آدمز، وتفحص وجهه وسأله:

- ماذا تريد؟

فقال عسكري المرور:

- كنت تحت.. فتوديت.. ويقال أنك تريد أن تشب. إن هذا غير صحيح..

اليس كذلك؟ فأجاب آدمز:

- بل هو صحيح.. وعندئذ دفع عسكري المرور غطاء رأسه الى الخلف بحركة سريعة من يده، ثم جلس على حافة النافذة، وقال:

- انك تعجبيني.. هل لك بسيكارة تدخنها؟ واجاب آدمز:

- كلا..

وأخرج عسكري المرور سيكارة واشعلها، ثم استل منها نفسا عميقا، وعاد فأرسله في ضوء الشمس وقال:

- يا له من يوم جميل..

وأجاب آدمز وهو ينظر اليه:

- يوم جميل.. يصلح للموت. وسأله العسكري:

- الك امرة.. وامرأة؟ فقال الرجل:

- لا.. ليس أحد..

غير انه فكر في قرارة نفسه: «لقد كان لي زوجة.. منذ امد بعيد..» وفي الواقع لقد غادر بيته في الصباح ذاهبا الى عمله. وعند الباب قالت له «كيرين» الى اللقاء.. انها لم تقبله.. فقد عادا لا يقبل احدهما الاخر اطلاقا. الا انها كانت لا تزال امرأته، ولم يكن هو يحب غيرها. وقد احتمل صابرا ان تتحدث بحرية عن عشيقها «ستيف».. وكان هو على علم بكل شيء، منذ امد طويل.. ودون ان يلتقي به، كان يعرف عن ذلك الرجل كل شيء.. يعرف وجهه، وعاداته، مهنته، وساعات عمله. ولقد عاش ظل «ستيف» شهورا طويلة في عقر داره.. وبالامس عاد الى بيته في الساعة السادسة، فلم يجد فيه زوجة ولا أثرا للحب..

لا شيء على الاطلاق سوى زجاجة (غاردينال) فارغة ورسالة، وبيتا صامتة وجثة امرأته كيرين مسجاة فوق الاركة. لقد تركت على الوسادة رسالة مكتوبة بعناية وتفكير وتوضيح. وكان فحوى الرسالة ان خليلها «ستيف» قال لها انه لن يستطيع ان يهرب معها. وهكذا فقد ذاق مرارة الخيانة بدورها.. الا انها لم تصبر، ولم تطق الغدر فانشجرت. وغادر هو البيت ثانية وراح يذرع الشوارع حتى موهن من الليل.. وعلى مهل يزغ في ذهنه مشروع هو هذا الذي يوشك ان ينجزه الان. وكان قد أم هذا المحي من المدينة، واختار فندق «الامباسدر» ولم يكن يهمه ما فيه من ترف واسباب راحة. وانما الح ان تكون الغرفة، التي يريد، في طابق عال. وكان يدرك ان الحوادث ستجري أخذاً بعضها برقاب بعض على النحو الذي وضع له خطته. وقد انتظر هذه الساعة من النهار ان تكون حركة مرور السيارات على أشدها أمام الفندق، ويكون عسكري المرور قد نهض ثمة يؤدي واجبه في مراقبة حركة المرور.. وعندئذ قفز من نافذة غرفته الى هذا الاقريز النائي الذي يقف عليه في هذه اللحظة.

لقد غدا الشارع الان مظلماً من كثرة الذين احتشدوا فيه. وكان رجل البوليس يرد تدفق الجماهير لكي يفسح مجالا يقع بالضبط تحت الاقريز الذي اعتلاه آدمز.. وكان في وسعه ان يرى رجال المطافئ وهم يمدون شبكتهم تحته، في حين يبدو هو اشبه شيء بموقد اسود اللون مما يستعمل لتحمير اللحم، وقد صيغ من وسطه بدائرة حمراء تحيط به.. وكان آدمز يدرك ان شبكة رجال المطافئ لن تكون ذات مفعول بالنسبة لجسم يهوي من الطابق السادس والعشرين، كما كان يعلم ان أحداً ما لن يستطيع الوصول اليه. وحتى سلالم رجال المطافئ كانت أقصر بكثير من ان تبلغه، كما ان اقريز الطابق السابع والعشرين- الذي يعلوه مباشرة- كان يحول دون اية محاولة انقاذ تأتيه من أعلى. وراح آدمز يحدق النظر حوله بنهم.. ولم يعد يحس بالدوار كما احس به لحظة ان قفز من حافة النافذة الى الاقريز النائي، تحتها. وكان يقف في وهمه انه

قريب من العماائر الاخرى القائمة حوله. ومن جديد عاد عسكري المرور الى الظهور.. وكان آدمز يعلم انه لا بد ان يعود. وقال العسكري وهو يعود الى الجلسر على حافة النافذة:

- انك في الواقع تقدم لي، بتصرفك هذا، خدمة ما.

وسأله آدمز.

- وكيف كان ذلك؟

واجاب عسكري المرور:

- كان ينبغي في مثل هذا الوقت ان اكون عادة تحت، في الشارع، انظم حركة المرور، واذا كنت الان هنا في هذا الوضع المريح فان الفضل في هذا يعود اليك..

فقال آدمز.

- أصبح هذا؟ ورد العسكري قائلاً:

- أجل..

فقال آدمز.

- الافضل اذن ان تكون هنا، لانه ما من حركة مرور من أي نوع الان في الشارع وضحك عسكري المرور وقال:

- ان كل اولئك الناس تحتنا ينتظرون ان تشب. انهم يتسمنون ذلك. وهم مقتنعون انك واثب لا محالة. ولذلك فهم لا يريدون ان يفوتهم هذا المنظر. وانك

مستخيب املهم ولا ريب.

وعندئذ ارسل آدمز بصره الى اسفل نحو الجماهير المتلاصقة المتراسة وقال له
عسكري المرور.

- انك لا تستطيع سماع أصواتهم من هنا.. الا انهم يهيبون بك ان تثب..

وسأله آدمز.

- اتظن ذلك؟ فأجابه:

- أجل. انهم يحسبون انك مدين لهم بذلك ما دمت قد جعلتهم ينتظرون
طيلة بعد الظهر.

وقال آدمز.

- لكأنهم حشد من الذئاب الجائعة..

وأجاب العسكري..

- وما من موجب لان تقفز غير ان تشيع في ابدانهم القشعريرة التي
يتوقعونها..

ونظر عسكري المرور الى وجه آدمز وحسب انه يلمح فيه ايماضة ارتياب،
فعاد يقول له ببطء وبصوت مقنع.

- هيا.. تعال.. وليذهب هؤلاء الناس الى الشيطان.. وأجاب آدمز:

- لعلك على حق.. فقال العسكري.

- لا رب في اني على حق.. وترنح آدمز قليلا، ثم استند الى الجدار،
وغطى عينيه براحة يده.

وسأله العسكري. ما بك؟ فأجابه آدمز:

- انه شيء من دوار. أستطيع ان تعطيني يدك؟

وتطلع عسكري المرور الى العمارة المقابلة، فوجد عددا من مصوري الصحف
واقفين على سطحها، وآلات التصوير بين ايديهم استعدادا للعمل في الوقت
المناسب.. فيا لها اذن من صور رائعة ستظهر في صفح الصباح.

وعندئذ قال:

- انني آت اليك، فتماسك ريثما اصل.

وانطلقت من حناجر الجماهير صرخة فزع، فقد قفز العسكري من فوق حاجز
النافذة الى الافريز الثاني، حيث وقف على بعد خطوات من الرجل. وكانت
الجماهير تراقب عسكري المرور وهو يقترب منه بحذر، ويمد اليه يده. ومد آدمز هو
الآخر يده نحوه. وقال:

- كنت أعلم أنك ستأتي. ولهذا السبب اخترت هذا المكان.

وسأله العسكري، وهو يحرص على حفظ توازنه فوق الافريز الريب:

- ماذا تقول؟

وقال آدمز:

- أيها العسكري انني أعلم من أنت.. انك «ستيف».. وانا ادعى آدمز،

ولقد كانت كيرين زوجتي.. أنها انتحرت في الليلة الماضية.

وعندئذ امتنع لون العسكري وحاول ان يتراجع، الا ان الاخر كان قد أمسك بيده واطبق عليها.. ثم.. ثم.. لم يحدث اكثر من دفعة واحدة مفاجأة أعقبها التواء يائس للمقاومة..

ثم فقداء - معا - توازنهما وهويا من حائق نحو الجماهير الصاخبة.. ولقد كان آخر ما وعاه العسكري «ستيف» هو احساسه بيد صلبة قاسية، مطبقة على يده كحاشة.... .

جون آيدايك (امريكا)

عزيزي الكسندروس

هذه ترجمة رسالة كتبها «الكسندروس كوندوريوتيس» وهو صبي معوز، محتاج، يحمل رقم ٢٦٥١١ في حركة إشاعة الأمل وهي منظمة خيرية دولية رئاستها في مدينة نيويورك.

تموز سنة ١٩٥٩

عزيزي: مستر ومسر بيتلي

يا أبوي الاميركيين، إنني أبدأ كتابي بالسؤال عن أخباركما وصحتكما، ثم انبئكما انني بخير وصحة طيبة، فحمدا لله وشكرا، واني لارجو مثل هذا لكما. حفظكما الله، وأسبغ عليكم الصحة والعافية ووهبكما السرور والبهجة والسعادة. في هذا الشهر انتظرت بفارغ الصبر أن أتلقي منكما رسالة، ولكن هذا لم يحدث لسوء الحظ، فقلقت واضطريت، وما أشد اشتياقي الى أخباركما أيها الابوان الاميركيان العزيزان. انكما تهتمان حقا بأمرى، وأنا أتلقي مساعدتكما كل شهر، الحُر هنا شديد في هذه الفترة من السنة، إذ إننا في قلب الصيف. ان الكبار البالغين من الناس يقولون ان العمل في الحقول متعب وشاق.. أما أنا، عندما لا يكون علي ما أعمله في البيت، فاني أهرع الى شاطئ البحر لكي أسيح وألهو في الماء مع رفاقي.. وان البحر في هذا الوقت رائع حقا.. وهذه هي

الاخبار: العطلة المدرسية مستمرة الى ان نعود الى مدارسنا، ويومئذ نعكف على دروسنا بحرارة ونشاط جديدين. وفي هذا اليوم الذي اكتب لكما فيه رسالتي هذه تسلمت «الدولارات الثمانية» التي بعثتها بها الي عن شهر تموز فشكرا كثيرا.. وسأشتري بهذا المبلغ كل ما يلزمي، وسأشتري كذلك دقيقا لحبنا اليوم. وقبل ان انهى رسالتي فانني ارسل اليكما تحية جدتي وشقيقتي، وانتظر ان اتلقى جوابا منكما، واطلع على أخباركما، وأعلم كيف تقضيان فصل الصيف، ولكما سلامي ووافر محبتي.

ابنكما، الكسندروس.

جواب «كنيث بينتلي» والد أميركي يحمل رقم ١٠٦٣٨

عزيزي الكسندروس.

٢٥ أيلول

نحن جميعا أسفون لانزعاجك اذ لم تلتق منا رسالة لك. وبالطبع نحن لا نكتب بصورة منتظمة كما تفعل أنت. الا ان المنظمة- ذات الاسم الطنان التي تتولى ايصال الرسائل الى اصحابها- تبدو لنا بطيئة غاية البطء. وانه ليلوح لي أن عملها يستغرق ثلاثة أشهر على الاقل. ربما ان يريد المنظمة يمر بالصين أولا

انك تصف ببراعة صيف بلادكم اليونان. أما في نيويورك فالفصل خريف. ان شجيرات الشارع الصغير الكتيب الذي أسكن فيه منذ اليوم أخذت أوراقها التي لم تبق بعد تشعب ويعثر بها الاصفرار، والفتيات الجميلات اللواتي تزdan بهن الشوارع الكبيرة اخذن يضعن من جديد القبعات على رؤوسهن. الشوارع الرئيسية في نيويورك تتجه من الشمال الى الجنوب بحيث يكون ثمة جانب تضيئه أشعة الشمس وجانب في الظل، وفي هذه اللحظة فان المارة يقطعون الشارع ليكونوا في ضوء الشمس، اذ لم يعد الجو حارا جدا في هذا الفصل من السنة. السماء زرقاء صافية شديدة الزرقة. وفي بعض الامسيات- بعد ان اكون

قد تناولت عشائني في «السنك بار» أو في أحد المطاعم- أسير بضع خطوات حتى «ايست ريفر» لكي أرى السفن تمر وأشاهد «بروكلين» التي هي آخر حي من هذه المدينة العظيمة..

المسز بينتلي وأنا لم نعد نقيم معا. وما كنت أحسب أنني سأقول لك هذا، إلا ان العبارة كأنما جاءت عفواً الخاطر على أصابعي فدققتها بالآلة الكاتبة، ولست ارى في هذا أي سوء. وربما تتساءل لماذا تراني اكتب اليك من نيويورك وليس من «غرينوتش». ان زوجتي السيدة بينتلي مع رتشارد والصغيرة «أمندا» يقيمون في بيتنا الجميل في غرينوتش، وآخر مرة رأيتهم فيها كانوا على أحسن ما يرام. ستدخل أمندا، هذه السنة، بستان الاطفال: كانت ثائرة مهتاجة لانها لا تريد ان ترتدي البنطال، وانما هي تصر على لبس الفساتين، لان هذا في رأيها هو الذي يجعل البنيات الصغيرات ظريفيات جدا. وامها غير راضية، وعلى الاخص في يومي السبت والاحد، وفيهما تلعب أمندا كل الوقت في سحابة من الغبار مع اولاد الجيران. ورتشارد يحسن السير جدا الان وهو لا يحب ان تهرأ به اخته. وهذا أمر لا غبار عليه بالطبع. وانا اذهب لأراهما مرة في الأسبوع وأسلم بريدي، وكانت رسالتك الأخيرة إحدى هذه الرسائل التي وجدتتها هناك، وقد سررت بقراءتها كل السرور. وطلبت مني السيدة بينتلي ان اكتب اليك آخر مرة. وفي الواقع لست اعتقد انها هي التي كتبت اليك فان الكتابة تشق عليها، مع انها هي التي خطرت لها فكرة الاشتراك في منظمة «الامل» هذه، وهذا لا يمنع ابدا انها تحبك كثيرا، وانها، بصورة خاصة، كانت جد سعيدة ان تعلم انك تنوي العودة الى المدرسة بحرارة ونشاط جديدين...

تحدث الناس كثيرا في الولايات المتحدة عن رئيس حكومة روسيا السوفياتية، السيد خروتشيف، انه رجل فصيح وخطيب مفوه، وممتلئ ثقة بنفسه. وهو في لقاءاته مع رجال السياسة عندنا- اولئك الرجال الذين يماثلونه

فصاحة وقوة عارضة وامتلاء بالثقة- وجد «حكا ودعكا».. وعلى الاخص فوق شاشة التلفزيون حيث كان في وسع الجميع ان يروه. وقد كان همي الوحيد أن يجد مصرعه، غير اني اعتقد ان هذا لا يمكن ان يحدث. ان وجوده هنا أحدث رد فعل يبعث على الضحك.. كأنما قد ابتلع كل منا قطعة من النقود. ولكن الاميركيين في رغبتهم الملحة في تحقيق السلام مستعدون ان يتحملوا بعض هذه المحن الصغيرة.. فقد يكون هذا مما يمكن ان يجدي قليلا.. وستعرف- كما سيعلمونك في المدرسة- ان الولايات المتحدة عاشت طيلة اعوام عديدة في عزلة تامة. وعلى الرغم من اننا دولة كبرى وذات نفوذ عظيم فاننا ما نزال نحفظ بأمنيتنا. التي ربما كانت صيبانية، ان تدعنا الامم الاخرى وشأننا، ويومئذ تشرق الشمس..

الفقرة السابقة ليست ممتعة، ولا هي ذات نفع، وربما تطفئ الشخص الذي سيترجم لك رسالتي هذه الى لفتك اليونانية فحذفها ولم يذكرها لك، انني مصاب بركام حاد تضاف اليه جميع هذه السكاثر الكثيرة التي ادخلتها، وهذا من شأنه أن يشوش أفكارى وعلى الاخص وانا جالس هكذا دون أن آتي بحركة...

ويضايقني انك ربما تسائل نفسك: «أهكذا اذن أن السيد بينتلي والسيدة زوجته هما اللذان يرسلان اليّ من أميركا الرسائل اللطيفة والهدايا الجميلة انما يرويان لي الاكاذيب؟» غير أنني لا اريد ان تقلق وتضطرب، وربما كان في قريتك ازواج وزوجات لا ينفكون يتخاصمون، ولكنهم مع ذلك يستمرون في الاقامة مع بعضهم البعض.. ولكن في اميركا حيث نجد أحدث المؤسسات الصحية وأعظمها كمالا، واشد السيارات سرعة، واجمل الطرق، لم نعد ندري كيف نعيش في اوضاع لا تلائمنا، علما بأن وضعي الجديد في الحياة غير مريح وغير ملائم، وانني لاعترف بهذا ولا أخفيه. وعسى، في سياق دراستك التي ارجو ان لا تنقطع، ان يدعوك الكهنة والراهبات الى قراءة الالبادة، تلك الملحمة الشعرية الاغريقية العظيمة، وستجد الشاعر «هوميروس» يروي فيها قصة «هيلانة»

التي هربت من زوجها وذهبت مع حبيبها «باريس» لتقيم مع الطروديين.. ان شيئا من هذا قد حدث في أسرة «بينتلي» مع فارق واحد هو انني، أنا الرجل، قد غادرت بيت الزوجة وذهبت لاقيم مع الطروديين.. وتركت زوجتي في البيت مع ولدي الاثنين.. انني لا ادري اذا كانت الالياذة مما تتضمنه مناهجكم الدراسية، وانه ليدهشني ان اعلم ذلك.. ولا بد ان موطنك، اليونان، شديد الاعتزاز ان أخرج للعنينا هذه الرائعة الادبية التي لا ينفك الناس جميعا يقرأونها ويعجبون بها. أما في الولايات المتحدة فان كبار الكتاب ينتجون آثارهم الادبية فلا يعجب بها أحد لانها تشعرك بالاسفاف والانهطاط..

غير اننا لا نروي لك الاكاذيب: فالسيدة بينتلي زوجتي وأمندا ابنتي ورتشارد ابني وأنا كنا جد سعداء، وما نزال اليوم، الى حد ما، سعداء.. ارجو أن تستمر في ارسال خطاباتك الرائعة الينا فيحملها البريد الى «غرينوتش» ويتاح لنا جميعا ان نستمتع بها.. وسنظل نرسل اليك بانتظام هذا المبلغ من المال الذي يدعوك الى شكرنا بهذا اللطف الجميل، الا أن هذا المبلغ الذي نهيك اياه لا يمثل حتى ربع ما تنفقه في استهلاك مختلف المشروبات الكحولية.. وان لنا لكثرة من الاصدقاء الذين يساعدوننا في احتياجاتها.. وهم، في الأعم والأغلب، اناس مملون، ولقد يكونون مناط اعجابك انت، أما أنا فما عدت أطيعهم.. وعلى أي حال فانك أنت ستنال اعجابهم اكثر مني... .

أنا مسرور غاية السرور أن تقيم قريبا من البحر فيسعدك ان تسبح وتنعم بالإرتخاء بعد جهدك الشاق الذي تبذله في الحقول.. واذا سألت عني فانا قد ولدت في أرض أميركية بعيدة جدا في الداخل تقع على مسافة الف وخمسة كيلو متر من أقرب شاطئ، او تزيد.. ولم يداخلني حب البحر الا بعد ان كبرت وتزوجت. ومن هذه الناحية فان حظك أفضل من حظي، وانها لنعمة كبرى من نعم السماء ان يكون الانسان قريبا من البحر، وما أكثر ما يهزني السرور كلما

فكرت بهذه المسرة التي يجدها اولادي اذ يتراكمضرون على رسال شاطىء
غرينوتش- وهو شاطىء جميل وان لم يكن فسيحا جدا- ويجدون امامهم ذلك
الافق العريض الهادى....

ويجب ان امسك عن الكتابة الان اذ ينبغي ان اذهب لتناول العشاء في
المخارج مع امرأة شابة، وانه ليسرك ان تعلم، دون ريب، أنها من أصل يوناني
وان تكن قد ولدت في اميركا.. وانها ذات جمال باهر هو من جمال أصلها
الاغريقي ولا شك.. وانني لاشعر انني قد أثقلت جدا على الشخص الذي سترجه
لك هذا الخطاب الى اليونانية. أطيع تمنياتي الى جدتك التي رعتك واهتمت بك
منذ وفاة امك، والى شقيقتك التي تحمل في قلبك حبها والاهتمام بسعادتها
وعافيتها. المخلص «كنيث بيتلي».

ملحوظة: عندما أعدت قراءة هذه الرسالة تبين لي، مع الاسف، انني كنت
سيء الظن بهذه المنظمة الممتازة التي تتيح لنا هذا الرباط من الصداقة معك،
والتي توصل اليها رسائل المتعة التي يسعدنا ان نلقاها ونقرأها ونعيد
قراءتها. واذا كنا لا نكتب اليك بمثل ما نود من موالاة الكتابة فالذنب ذنبنا
نحن واننا لنسألك الصفح..

(قصص مترجمة)
ملاحم من الغرب

المقدمة

لست كثير الرحلات، على خلاف ما يعتقد الكثيرون، ولقد اوتر ان ابقى حيث انا. وانه ليعز علي أن افارق بيتي وعاداتي والوجه التي الفتها والحي الذي اقيم فيه، ولا يكاد يفريني شي، إلا أن أعود ارى من احب من ولد وزوج وصديق، ولو فترة يسيرة واياما معدودة، فما بالك بالشهرين والثلاثة؟ وما أكثر ما اقول في نفسي: ان الدنيا مبسوبة امامك، وهذه المكتبة عامرة بكل كتاب يحدثك عن الدنيا وأهلها، واحوالها واطوارها، واناسها، وتقاليدها اولئك الناس، وعجائب طباعهم، ومختلف ألوان فنونهم وثقافتهم. ترحل وتحجب الآفاق، وقد تهبط على القمر ايضا، وانت جالس في قعر بيتك، وفي هذا الركن من مكتبتك، فلا تنفق مالا، ولا تتعرض لشاعب السفر، ولا تضطر الى تغير ما اعتدت من امرك، ولا تقيم في الفنادق، ولا تنام في غير فراشك، ولا تفارق من تحب... .

ومع ذلك فقد خرج الزمام من يدي وقمت برحلات طويلة، وأخرى قصيرة في شرق وغرب. وشاهدت ملامح من هذه الدنيا التي يقع في وهم ابنائها انهم مختلفون شكلا، لونا، وطراز حياة، واسلوب ثقافة وفن... وهم لو غفلوا لأدركوا أن فيما هو دون ذلك مما لا تعظم زنته في معايير النفس الانسانية واهوائها وغرائزها وخيرها وشرها على السواء.

وفي رحلتي الى بعض اقطار الغرب كانت لي وقفات طويلة كثر فيها القول، واتخذ مما كانت تقع عليه العين سببا لفكرة في الادب أو رأي في الفن أو

خاطر اوجت بها آحوال في الحياة الاجتماعية في هذه العاصمة او تلك.

وما قيمة ما ترى، إن لم يثر ففكر ويحرك خاطرك ويفتح لخيالك افقا جديدا
للتأمل واستشراف ابعاد للحياة والوجود والقيم العليا، التي آمن بها الانسان في
مسيرته الجاهدة نحو الافضل والاكرم لانسانيته؟

ثم كانت لي وقفات اخرى قصار فلا اكاد اثلبث عند شيء من الاشياء،
فكانت الصورة العابرة تكفيني، والنظرة الخاطفة تغنيني عن كثير، ولذلك جاء ما
كتبته في هاتيك الوقفات ايماءات واشارات، وما كان في الوسع ان افعل غير
ذلك، والا ثقلت وطأة هذا الكتاب على قارنه في عصر اميز بميزاته السرعة، ويوم
زار «اندريه جيد» شيخ كتاب فرنسا وسيد الكلمة المضيئة فيها، يوم زار بلاد
المغرب اصدر حول رحلته كتابا كان معظم مادته ايماءات واشارات. ولقد سماه
كذلك، لا لأنه كان يؤثر السرعة ويأخذ، فيما يكتب، مأخذا، بل لانه كان يعتقد
ان الايماءة ربما كانت ذات دلالات اوقع في النفس واشد تأثيرا وابلغ تعبيراً.

وهذا الكتاب، في مجمله، ملامح لا اكثر ولا اقل. وكل رجائي ان يجد فيه
القارىء متعة ساعة من زمن يرى فيها الاشياء من خلال نظرتي اليها، ويشاركني
التفكير احيانا، او يخالفني في نظرة وفكر، وان له لمزاجا آخر، وثقافة اخرى
تغنيانه عما يقوله الآخرون، وان كان لا يضيره ان يسمع اصداً غير ما الف من
نفسه، وغير ما اعتاد من سواه... .

«م. س»

ملاح من لندن

هين تصطب لك لندن

-١-

أصبحت الدنيا صغيرة الرقعة. ووصفها الكاتب الانجليزي «ه. ج. ويلز»
بعبارة موجزة فقال انها قريتنا الكبرى.

وهو لو عاش وشاهد الطائرات النفاثة والصواريخ وكوكبات الفضاء والهبوط
على القمر لوصف الدنيا بأنها حارتنا أو بيتنا الكبير... .

وما ركبت طائرة الا تبادرت الى ذهني عبارة لخالد الذكر خليل السكاكيني:
فقد ركب الطائرة في الثلاثينات من هذا العصر، ولما ارتفعت به، وحلقت، صغرت
الدنيا في نظره، ثم علت وضريت في أجواز الفضاء حتى لم يكد يبين من الدنيا
شيء لناظريه، وعندئذ قال: «فتحت نافذة الطائرة وصقت على الدنيا»

وفي العبارة مفالطة واضحة فما في الامكان فتح نافذة في طائرة وهي في
كبد السماء... ولكننا نقبل هذه المغالطة لما في عبارة السكاكيني من سخرية رائعة
بهذا الكوكب الذي ركبه وأهله الغرور، وهو، مع ذلك، من الهوان بحيث لا
يكاد يبدو للعين شيء من معالمة اذ تنظر اليه من ارتفاع يسير.

ومن عادتي وانا في الطائرة، اني الصق عيني بزجاج احدى نوافذها لأرى
كيف تبدو الدنيا وأهلها والطائرة آخذة في الهبوط رويدا رويدا.. مدن وشوارع

ودروب أشبه بلعب الأطفال. ويتراءى لك الانسان بحجم الاصبع أو حبة البندق، وتلوح لك السيارات المنطلقة على شريط رقيق من الارض المعبدة كأنها نمل تدب في كل اتجاه... .

وفي رحلتي الاخيرة كانت لندن عاصمة بلاد الانكليز هي وجهتي. وأقبلنا على الريف الانجليزي، ودانت الطائرة حتى انكشف لنا هذا الريف بشجره وغاباته وأرضه الخضراء وببوته الريفية ذات الأجر الأحمر وكأنها جميعا صور بحجم الكف الواحد...

وحتى لندن نفسها بعماثرها، وإبراجها ومداخل مصانعها، وطرقها وناسها، وسياراتها، كأنما مستها يد ساحر فتدخل بعضها في بعض، وتضاللت عاصمة الملايين التسعة حتى خيل الي أن في الامكان جمعها في قبضة اليد الواحدة، أو رفعها على راحة اليد كأنها نموذج مصغر لمدينة... .

بضع ساعات فقط كانت كافية لانتقل قدمي من عمان وأعود فأحطها في قلب لندن. وفي المستقبل قد يكفي بعض ساعة ليحملك بساط الريح من أطراف قارة الى أقاصي قارة أخرى، فالدنيا ليست قريتنا وحسب وانما هي حارتنا الصغيرة، أو زقاق في حارة اذا شئت.

لا ريب في أن الانجليز في بلادهم قوم مهذبون جدا، ورفيقو الحاشية، وهم على استعداد للتعاون معك الى أبعد حد ممكن باعتبارك سائحا يؤم بلادهم، ولا بد أن يخرج منها وقد احتقب الكثير من متاجرها، وانفق الكثير كذلك في فنادقها ومطاعمها وملاهيها، هل كانت هذه هي حالهم قبل أن تضمر الامبراطورية التي لم تكن تغيب عن أطرافها الشمس؟ أم ترى أن فقدان العز القديم قد بدل حالا بحال؟

ومهما يكن من أمر فما تزال لندن هي تلك العاصمة الضخمة التي يحدثك

كل شيء فيها عن عظمة سابقة. كل ما تراه كبير، وضخم، وراسخ، وقد لا يستدعي اعجابك شيء. كمنازلها الحمراء ذات الحواشي البيضاء والنوافذ والشرفات الانيقة. لقد استغل الانجليز الآجر الأحمر فصنعوا منه هذه المنازل البديعة.. وما أكثر وكعهم بالحدائق كبيرة وصغيرة، في الشارع، والحي، وحول المنازل.

لا بد من شجرة في مكان ما، وفي زاوية ما، وعند النواصي، ومفارق الطرق.. هذا اللون الأخضر يهواه الانجليز، وتزدان به بيوتهم.. ومن قال لك ان لندن مدينة عابسة، متجهمة رداء فقد أخفى عنك الحقيقة.. انها من فرط انتشار خضرتها وشجرها الوريق تكاد تصفق لك ضاحكة، مشرقة الاسارير. وقد لا يكون هذا شأنها في الشتاء، مع الضباب والمطر، والثلج والبرد.. ولكن أرني في أوروبا مدينة لا تعاني من مثل هذا في فصل الصواعق والبروق؟

وما كنت في يوم كاتب رحلات وانما انا أختزن صوراً مما أشاهد، وانطباعات مما ينعكس على الحس والشعور، ليكون مادة لقصة أكتبها أو عمل روائي أعد له العدة. ولذلك لم أفعل ما يفعله غيري من تدوين الملاحظات والمذكرات في كل مكان يزوره.. حديقة «هايد بارك» الشهيرة دخلتها وجست خلال أشجارها، وغاياتها، ورأيت ما بها وبحيراتها بل واستلقيت على عشبها، واستمعت الى بعض الخطباء في طرف منها. ولكني لم أدون شيئاً في مفكرة أو نحوها.. وما جدوى ذلك ان لم استطع اختزان هذه الصور في مطاوي النفس؟ لقد أعجبني خطيب هندي، كان يتحدث عن التمييز العنصري، والتمييز الطبقي، باعتبارهما سبة العصر، ولطخة سواد في جبينه.. كان يتدفق في حديثه تدفقاً، ويجتمع من حوله الرواد، ويصفون اليه، وتسمع رقعة المتجمهرين، وهو لا ينفك يتحدث بطلاقة، وقوة، عميق الحجة والبرهان، وكان يناقش، ويجيب على الاسئلة، ويلقى الكثير من المودة والاعجاب..

وفي جانب آخر كان يتحدث بهودي اسرائيلي على الارجح. كان يذكر الاساطير، والخرافات، وكان في حديثه كأنه يساوم ويماكس، اجتمع حوله عدد قليل، وكان يبدو أن الفضول هو الذي دفع بهم الى استماع هذيانه.. وكان كلما ارتج عليه يشد أزره مخلوق آخر من بني جلده.. وانطلقت في أرجاء الحديقة العظيمة، وغبت ساعتين، وعدت ادراجي، فاذا الهندي الاسمر المثقف لا ينفك يتحدث، وقد اتسعت الحلقة حوله حتى شملت المئات.. وكان الآخر، الاسرائيلي، لا يزال يبحث عن عباراته وكلمات المساومة والمماكسة وقد انفض من حوله المستمعون.. لا يتلبث أحدهم الا لحظة، ثم يمضي غير عابىء وغير مهتم.. صورة ما أصدقها لباطل يترنح على شفتي متحدث صفيق، ثقیل الدم، تقابلها صورة الحق لا مراء فيه، يجتذب الناس من بعيد، ويستبقيهم حول خطيب بارع القول، قوي الحججة واضح الشفافة لا يكاد يجد عسرا في تأييد ما يقول بشعر ونثر وكلمات لكبار أدباء العام، وشعرائه، وحكمائه الذين أحبوا الانسان ووجدوا في أي تمييز عنصري أو طبقي لعنة الاجيال.

...وجانب آخر في حياة لندن

-٢-

تستطيع أن تسير في شوارع لندن وميادينها وساحاتها ساعات طوالا دون أن تعلق بعذائك ذرة غبار واحدة. النظافة، هناك، تدعو الى الاعجاب، على خلاف ما تعجده في باريس مثلا، واستثنى من شوارع لندن وميادينها حي «بيكاديللي» وما يتفرع منه من أزقة، ومعابر، بما في ذلك أزقة «سوهو» ولقد يكون العذر أن هذه كلها أحياء الملاهي والفجور.. انها في الليل كتلة من أضواء وألوان وقماثيل وتشكيلات وإعلانات وأنباء داخلية وخارجية تجري في أشرطة من الكهرباء على واجهات المعابر.

ومامن عاصمة كبيرة تخلو من دور الملاهي، ولكنهم في لندن يكمنون لك عند أقواء الأزقة وتمتد نحوك يد مطلقة، أو باسم مترفق يدعوك الى الدخول في هذا الملهى، أو ذاك في الأزقة والدروب: (سيدي تفضل) (لا تفوت عليك هذه المتعة أيها السيد) - (تعال.. أنظر.. وأمرح) وهكذا تتوالى النداءات الخافتة لتريك أنواع التعري والافتتان به، والاعراء المتعادي في عرض الاجساد بأوضاع وتشكيلات تذهب الى أبعد من حد الاثارة.. مصحوبة بالكلمات والعبارات الفاضحة.. والموسيقى العريضة هي الاخرى تزيد النار ضراما... .

انه خروج بعيد المدى حتى في مجال اللهو.. لا يقابله الا جنوح طائفة كبيرة

من الفتيان والفتيات تلحق بها في كل درب ومتجه، بل هي تصدمك حينما ذهبت وفي أي مقهى جلست، ان شبان لندن وصباياها يحملون الراية عاليا، راية «الهركلة» المزرية، وراية الملابس المسوخة، وراية الازياء الغريبة، والشعور القذرة المسترسلة.. هذا كله أشبه بأعياد المرافع أو- الماسخر- تقليعات من كل صنف وطراز....

وتتساءل: لماذا تراهم يفعلون كل هذا بأنفسهم؟ وقد لا يعينك كثيرا ان تبحث عما يختفي وراء هذه الظواهر من انحلال لا حدود له ولا سدود.. ولكنك سرعان ما تذكر أن قصة التعهر «عشيق اللادي تشاترلي» لمؤلفها الانجليزي «د. ه. لورنس»- وهو غير لورنس العرب بالطبع- قد منعت وحرمت طيلة أربعين عاما، ثم أبيضحت منذ سنوات.. ويعود السؤال يلح الحاحه على ذهنك: بلاد التقاليد.. وبلاد البيوريتانزم والتشدد في المحافظة.. ماذا دهاها؟

غير أن الكثيرين، من الانجليز أنفسهم، يرون رأيك ويتسممون، وقد يقول لك بعضهم: هذا كله لا نقر شيئا منه.. اننا ندينه.. ثم ان هو الا جانب من حياتنا، وليس هو كل الجوانب.. الجانب السيء.. كما عند جميع الامم.

وثمة من يقول لك: أولئك الشبان بشذوذهم، وعراهم هذا، وعنفهم، يحسن أن نتفاضى عما يفعلون.. فلنتركهم ينفسون عن أنفسهم.. والا كان الانفجار.. انهم مجرمون أصلا.. وهذا الذي يظهرون به يكسر شوكة اجرامهم.. وهو أجدى على المجتمع.. وتريد أنت أن تصدق، وقيل الى الاقتناع.. لولا أن ما تقع عليه عينك يتعدى هذه الفئة من الشبان والصبايا الآتين.. الى الحياة الفنية نفسها، والى المسرح والى الكتاب، والى الزاد الثقافي كله.. ولكن لهذا حديثا آخر.. ثم ان الجريمة موجودة كما ان المجرمين العشاء موجودون، وهذا يضعف من حجة القائلين ان لأولئك الشبان والصبايا في خروجهم وشذوذهم منصرفا عن الاجرام.

وصحيح أننا شاهدنا في أربع عواصم أخرى، صورا من هذا الشذوذ ولكن شتان بين لندن وباريس الغانية للعب التي تبدو محتشمة بالنسبة لما رأيناه في لندن.

مهما يكن من أمر فإن هذه التقاليع التي أخذ الشبان بها أنفسهم، وهذا التعري الفاضح الذي تتظاهر به الصبايا في أوضاع وصور وأشكال يراد بها أن تكون مشيرة غاية الاثارة لا تلبث أن يكون لها رد فعل مناقض، إنها تثير فيك القرف، والاشمزاز، وتوحي لك بأن المرأة قد ترخصت في كل شيء، وأنزلت بدننها في سوق النخاسة.. ورحم الله زمانا كانت المرأة فيه، باحتشامها وحيائها وملابسها اللينة الكاسية، تحملك على أجنحة الخيال الجميل، وتشعرك بأن الجمال غال ونفيس ومصون، وإن دون الوصول الى مفاتنها أهوالا ومشاق، مما يجيش عاطفتك ويدفع بك الى قراءة الشعر والنثر الجميل والاستمتاع بآيات الفن على اختلاف شكوله وأنماطه، لانتك موقن في قرارة نفسك أن الشعر والفن وحي رفيع من وحي المرأة أولا وآخرها....

وهل يكون ما نرى من انحطاط القيم الفنية، والثقافية أيضا، بسبب من ترخص المرأة وتبذلها، وشذوذ الشبان، حتى لم تعد هناك فضائل خلقية وجمالية يعتد بها؟ وقد تطالبني بالدليل والبرهان.. فأذهب اذن الى معارض الفن الحديث وهو سخف وتخليط لا أول له ولا آخر.. ثم شاهد المسرحيات الساقطة حيث يمارس العمل الجنسي كاملا على خشبة المسرح، واسمع سعار موسيقى الادغال الافريقية.. انها جميعا تحدثك عن انحطاط القيم وضياح ما جهد الإنسان، على الألبام، في تركيز قواعده وأصوله في فن وفكر..

إذا تركنا هذا الجانب في حياة لندن، فإن كل شيء فيها يبهرك، ونال اعجابك.. نوافيرها، تماثيلها، عمائرها التاريخية، شوارعها وميادينها العريضة، والمحتشحات من نساتها؛ والجادون من شبانها، وبصورة خاصة بيوتها الحمراء

ذات الحواشي البيضاء، والشرفات الفنية التي تبلغ البراعة في هندستها، وتشكيلاتها مبلقها.. هذا كله يقتضيك الوقوف، والتلبث، والتمتع بمشاهدته واستيعلاء جماله.

حديقة «كيو غاردن» في أطراف لندن- قد لا تجد ما يماثلها اتساع رقعة واحتشاد شجر وعشب وزهر، وكثرة برك وبحيرات وانتشار تماثيل... وربما كانت هذه الحديقة الوحيدة من نوعها بوجود النباتات الاستوائية فيها.

لقد جعلوا لهذه النباتات بيوتا كبيرة من زجاج، واحتفظوا لها بحرارة معينة تشبه الى حد بعيد حرارة ومناخ منابتها الاصلية.. انها وحدها، متعة نادرة في بلاد البرد الشديد، والثلوج، والضباب.. أمضينا فيها يوما كاملا ما كان أقصره على الرغم من أن الشمس لم تكن تغيب عن سماء لندن- في شهر تموز- قبل التاسعة والنصف ليلا..

عجيب أمر أولئك الانجليز: انهم ينقلونك، وأنت في قلب لندن العاصمة التي تعيش فيها كل هاتيك الملايين، الى أقبيا الرف، وظلاله الوارفة، وعشبه وماته وضياهه ومراح غيده وحسانه، ومغدى طيره وأنسامه..

في متحف وبرلمان

-٣-

بدا لي، وأنا في لندن، أنني لم أعن في قليل أو كثير بحياتها الادبية، أو اذا شئت الثقافية بمعناها الواسع. غير أن هاجسا في نفسي ردني عن التفكير بشيء من هذا، فقد كنت عاهدت نفسي، وأنا في الطائرة، أن لا أقرأ ولا أكتب طيلة هذه الرحلة. وقلت أنني في اجازة حتى من الكتاب والقلم، أو قل أنه هروب من كل ما يقرأ القارئون ويكتب الكاتبون، وأنا أحدهم. وهل كثير على من قضى من عمره أكثر من ثلاثين عاما وهو يقرأ، ولا يكاد يضع القلم من يده، أن ينسى هذا العناء أو يتناساه أياما مهما تطل فهي قليلة، قصيرة في عمر انقضى أكثره في الكد والتعب؟ ثم هل يجب أن أكون في لندن نفسها لكي أقرأ أدب الانجليز وألم بما ينبغي أن أ ألم به من ثقافتهم؟ أنني أفعل ذلك، وأنا في عمان، فليس في الدنيا بضاعة توزع بسرعة، وتنتقل من قطر الى قطر بدقة ونظام كالكتاب، والمجلة والصحيفة، وفي عمان قرأت الكثير من هذا الادب الانجليزي، فما حاجتي أن أعكف عليه وأنا في عاصمتهم؟

تلك والله تعلات. وليس أسهل من أن يجد المرء لنفسه المعاذير اذا أراد أن يتخفف من أعباء ومسؤوليات وواجبات.

ثم قلت لنفسي، هناك مالا يصح تجاهله وتناسيه على أي حال وهو، بعد، لا

بقتضي العكوف ساعات طوالا على كتاب. وربما كان فيه متاع للحس ونزهة للغاظر.. وهذه هي متاحف لندن الفنية، وعماثرها التاريخية، وأنت كنت تحب أن تشاهد برلمانهم العتيق، وتتمنى أن تحضر اجتماعا، أو إذا شئت جلسة لمجلس العموم.

ودخلنا المتحف.. انه ردهات واسعة، وأنيقة، ونظيفة ككل شيء هناك. ولكنه لا يبلغ ضخامة اللوفر في باريس، وليس له هيئته، ووقاره، وازدهام الآثار الفنية من مختلف الحضارات فيه.. ان الانجليز وان شاركوا في فن الرسم، وأبدعوا.. غير أنهم لم يبلغوا من هذا مبلغ الامم اللاتينية كالفرنسيين والاطاليين. وقد أكون مخطئا، ولكن هذا هو الذي قام في ذهني منذ طويل. ولهذا السبب بدا لي أن أحسن المعروضات من روائع الفن، في ذلك المتحف، هو من المقتنيات غير الانجليزية الاصل. وصحيح، بالطبع، ان معروضات المتاحف خليط من شمول الفن وانماطه في مختلف العصور وشتى الامم، ولا تقتصر على روائع البلد الذي يقوم فيه المتحف، ولكن صحيح أيضا ان هذا البلد يملك أجمل ما أبدعه أصحاب الفن فيه. ومع ذلك فقد كانت لوحات «رنوار» الفرنسي هي التي استوقفتني قبل غيرها، كما استوقفت أكثر الزائرين. احدى هذه اللوحات اسمها الراقصة ذات الصناجات - الفقاشات - واخرى أيضا، تقع الى جانبها، اسمها الراقصة ذات الدف. وواضح أن احداها تكملة للآخرى، وجو اللوحتين شرقي خالص ربما استوحاه رنوار من بلاد المغرب، في نهايات القرن التاسع عشر. أهما ما في اللوحتين أنهما تشعان على قاعة المتحف التي عرضتا فيها ضربا من الضياء الباهر، وتملآن الجو كله بالمسرة، وتقدمان انطبعا لاوضاع راقصة غاية في دقة الالتفات نحو مواضع الفتنة والجمال... ودرنا في المتحف طويلا دون أن نثليث الا برهة هنا هناك، ثم تعود أقدامنا تتجه الى لوحتي رنوار، ولوحة أخرى لفنان فرنسي هو «اينغر» من القرن التاسع عشر أيضا، واسم لوحته «السيدة الجالسة».

هي كلمات عابرة، في هذا المجال، ولا يدخل في طوقى أن أقارن، وأفاضل بين فن وفن، فما أنا من أصحاب الاختصاص، وإن كنت أتذوق ما أرى في ضوء معلومات قليلة، ومعرفة يسيرة لا تتعدى مدارس فن الرسم واتجاهاتها.

وإذا كان الانجليز لم يبرعوا تلك البراعة المميزة في الرسم، فقد تفوقوا في بعض منجزات النحت، وأبدعوا في الشعر إما ابداع، وفي فنون المسرح لهم مبتكرات في الاخراج، والكثيرون من مؤلفيهم المسرحيين اتوا بما يستدعي أعظم الاعجاب منذ شاعرهم الكبير شكسبير، الا في هذه الايام.. فقد استجاب المسرح الى غوغائية الجنس، وجنون الخروج على كل القواعد والاصول دفعة واحدة.. وما أهمية ان أذكر لك هنا أسماء المسرحيات وأسماء أصحابها. وما أراني أكتب بحشا في هذا أو غيره، وإنما قد ترسبت في ذهني صورة عن المسرح الانجليزي الحديث تغم البال حقا. وإن بعضها بين يدي وأنا أكتب هذا الخطرات. انها ليست فنا، ولا شيئا يمت الى الفن الاصيل بصلة، وإنما هي، في أكثرها، سعار جنسي، وتخليط عجيب، وجنون مطبق. وهذا القول ينسحب أيضا على المسرح الفرنسي، والمسرح الايطالي، والمسرح الامريكي، انسحبه على الرواية، والقصة. والفنون التشكيلية.

قال لي أحدهم: اننا نعانى من الافلاس في هذا كله.. ولذلك ترك الحبل على غاربهِ لكل رقيق أو عديم الثقافة، أو مريض النفس ان يكتب ما يشاء له، أو ينتج من أسباب الفن الاخرى ما يلوح في أفق نفسه بعد أن يكون قد القي جانبا، بركلة من قدمه، كل القواعد والاصول متجاوزا كل الحدود.

ونسير متجهين الى البرلمان القديم، وكنا نعلم انه أبر البرلمانات.. بعد نكتبنا ببلادنا فلسطين، لم أعد أنظر الى هذه المؤسسات نظرة من يترقب منها الانصاف، وكلمة الحق. وإن للسياسة ورجال السياسة لمداخل ومخارج مؤسدة حقا. والجلسة التي حضرناها زادني يقينا، وربما أعجبك الاطار دون الصورة. وقد كان الاطار

هو قاعة مجلس العموم، كنت أصدق النظر فيها من إحدى الشرفات العالية المحيطة بها، وهي شرفات للزوار، والصحفيين، ومراسلي وكالات الأنباء.. خيل الي أنني في القرن الخامس عشر، يوحى لك بهذا جو البناء القديم، وأثاث القاعة.. أما النواب، على قلة عددهم يومئذ، فقد أحسست حقا كأننا هم في غرف نومهم الخاصة، أو على الأقل في مكاتب أعمالهم.. يستطيع أحدهم أن يرفع قدميه على طاولة وسط قديمة، ويستطيع أن يستلقي، ويتكى، ويتخذ أي وضع يشاء. وقد أمضيت نصف ساعة وانسحبت بهدوء من بين حشد من الزوار يملأون الشرفات، ورحلت أنحدر من حيث أتيت، وفي الخارج تنفست الصعداء، وجعلت أدير عيني من جديد بالبناء الكبير القديم وباحاته وأبراجه المشوقة، وطابع القدم الذي يتميز به... إنه حقا أبو البرلمانات، ولكن عندما يناقش القضايا الخاصة ببلاده.. وربما كان خيرا من هذا كله أن نقف نسرح النظر بتلك التماثيل والنوافير التي تنفجر مياهها عاليا في الفضاء.. تلك النحوتات الرائعة أمرت بصنعها الملكة فكتوريا تخليدا لذكرى زوجها الذي انطوت له على أعظم الحب.. منحوتات جديدة حقا تمثل ذلك العظيم.. وقد ذهبت فكتوريا، وبقيت صور هذا الفن قائمة تتحدى غدرات الزمان.. التاريخ، وأثارا تتحدث عن عز زائل. لا تزال نظرية مؤرخنا الفيلسوف ابن خلدون في نشوء الامم وارتقائها ثم زوالها صادقة كل الصدق. اننا بحاجة ان نرجع اليها أحيانا فنجد فيها عزاء وسلوى.

في رهاب سفارتنا

- ٤ -

كنت حريصا على زيارة سفارتنا في لندن لأكثر من سبب، فهي منزلنا الاردني في بلاد الانجليز. ثم أنني سأشعر كأني في عمان وأنا في سفارتنا. وقد صبح هذا تماما. كان جوها هو هذا الجو السمح الذي نعرفه في بلادنا. وشد ما كان اشتياقي الى تلك الوجوه الاردنية المحببة والى الكلمات الحلوة ترحب بك بحرارة رائعة تخرج من القلب بعفوية أصيلة لا ريب فيها. وتناولت بلهفة فنجان القهوة - سكر قليل - الذي قدم الي. كان قد طال العهد بيني وبين قهوتنا اللذيذة. وكانت عيون الاصدقاء الاردنيين تتطلع الي بهذه المودة الجحيلة الصادقة التي تجدها في المقهى، والشارع، وحيثما سرت في أرجاء أردنا الغالي.

وكنت واثقا اني سأجد سفيرنا الامتاذ صلاح أبو زيد، وأسألم منه هذه الطلاقة في الحديث. ان أبا عماد يعرف كيف يضع الكثير من روحه ومشاعره في الكلمة التي يقولها.. ولكن هيهات، وما من سبيل الى رؤيته، فقد كان مريضا، وأجريت له عملية جراحية، ومنع المستشفى زيارته. هكنا اذن أكون في لندن ولا أستطيع لقاء أبي عماد!

مكثت في سفارتنا أكثر من ساعة، ثم ودعت الاخوان وخرجت أجوس خلال ذلك الهي السكني الذي تتخلله وتحف به حدائق صغيرة مونة الزهر، تهفو منها

نسائم رحية محملة بالعطر والشذا.. ثم انتقلت الى الطريق العام حيث تهدر السيارات، وعلى الاخص الباصات الحمراء ذوات الطابقين. يبدو أن الانجليز يحبون هذا الطراز من السيارات التي تصعد الى الطابق الثاني منها على سلم صغير ضيق يقتضيك جهدا ومشقة. وفي أكثر العواصم الكبرى التي زرتها لم أجد هذا النوع من السيارات. ربما كانت لها مزية واحدة هي أنها قليلة الطول، وكأنما قد استعاضوا عنه بهذا الطابق الثاني. انها فكرة حسنة أن يشغل الفضاء حيز كان يشغل به الارض.

وركبت احدى سيارات الاجرة أو التاكسيات. انها من أجمل وأفخم أنواع السيارات، أما أدب سائقها فما وجدت شبيها له في أية عاصمة أخرى. ثم أنت واثق تماما انهم لن يغشوك، ولن يستلبوا من مالك ما لا حق لهم فيه.. وقد رأيت من غش ولصوصية بعض سائقي سيارات الاجرة في غير العاصمة الانجليزية ما أدهشني.. ركب احدى هذه السيارات الى محطة فكتوريا، وأردت قطع تذكرتين الى بايس ولم يقع في حسياني أنني سأجد طابورا من السياح يقطع علي الطريق ويضطرنني الى الانتظار ساعات.. وفتقت لي الحيلة أمرا تقدمت به للمسؤولين فسهلوا لي ما كان صعبا، واستطعت الحصول على التذكرتين في أقل من ربع ساعة. أم تراك تعتقد انني كنت سأنفق ثلاث ساعات أو أربعا حتى يأتي دوري، وأنا الحريص على دقيقة أن لا تذهب سدى لا في لندن وحسب، بل في كل بلد آخر أزوره؟.

وفي ذلك اليوم دعاني القسم العربي في اذاعة لندن الى شرب الشاي، والتحدث من وراء الميكروفون بضع دقائق، وقد سعدت حقا بوجود اخوان لنا هناك منهم الاستاذ الشاعر سعيد العيسى، والاديب الرقيق الحاشية الاستاذ سامي حداد، والقصصي السوداني الاستاذ الطيب صالح وغيرهم، وكانت جلسة ممتعة على قصرها، وسئلت أن أقول شيئا عن زيارتي، وانطباعاتي عن لندن

والعمل الاعلامي في بلادنا ، فسجل هذا الذي قلته وأذيع فيما بعد. وأبى الاستاذ سامي حداد الا أن نكون ضيقه حتى موهن من الليل، فدار بنا في سيارته في كثير من أرجاء لندن، ودعانا الى الغذاء، ثم الى سهرة التقيت فيها بفتاة على جانب كبير من الثقافة. وتحدثنا طويلا، ولا أدري كيف دار الحديث حتى شمل قضيتنا.. وذهلت اذ رأيت الفتاة تسألني لماذا لا تريد أن نعيش مع الاسرائيليين في محبة وصفاء ونسيان للعدوان والأحقاد وحقن للدماء، لقد استطاعوا في أوروبا، أن يرسخوا هذه الصورة في الاذهان.

وجدت مثل هذا في باريس، وفي ميونخ، وفي مدن ايطالية زرتها، انهم يحدثونك بضرورة هذا التعايش ببساطة، كأن المسألة من البدهيات المفروغ منها.. وأمضيت ساعة كاملة أشرح للفتاة المثقفة بالانجليزية مرة وبالفرنسية مرة حقيقة الاوضاع.. وبطلان المزاعم الصهيونية، وتغريها الاعلامي.

وقد قام في نفسي انها ليست براعة الاعلام وحسب. إن الامر أبعد من هذا. اليهود موجودون في كل مدينة أوروبية. لا في العواصم وحدها. ووجودهم في تلك المدن قديم جدا. ولهم فيها تجارات واسعة، وصلات، ونفوذ، وما أسهل أن يبت المؤمنون بالصهيونية أفكارهم بين أصدقائهم، وجيرانهم، وكل من لهم به صلة. والناس في أكثر الاحيان بسطاء يصدقون ما يسمعون، ويتأثرون به، لا سيما بعد أن اضطهدت الفاشية والنازية اليهود قبيل الحرب العالمية الثانية، وفي أثنائها، ثم ان فكرة الناس عن قضيتنا شاحبة، أو هي معدومة. وهم يعطفون على اليهود هذا العطف الخاص الناجم عن هاتيك الاضطهادات، ولا يدركون ان للعرب وطنا قد استلب ونهب، وتشرد أهلوه تحت كل كوكب. بل ربما اعتقدوا نقيض ذلك، ولاح في خيالهم أن العرب انما يريدون أن يأخذوا وطن اسرائيل عنوة واقتدارا، وماذا تفعل اسرائيل غير أن تتحصن وتستقوي لكي ترد العدوان المرتقب؟.. هذا ما تجده في عامة الناس، أما مشقفوهم، والمهتمون بالقضايا

الدولية فاولئك قد لعب الاعلام الاسرائيلي بعقولهم بما يصطنع من وسائل،
ودهاء، وقلب للحقائق، ونفوذ في دوائر الاعلام الكبرى كالصحافة، ووكالات
الانباء، والاذاعات والتلفزيون، ومختلف دور النشر، ودوائر المال والاعمال..
وحيال هذا كله، ومهما فعل الاعلام العربي فان تأثيره، وفعاليته، سيظلان
محدودين، فما بالك اذا قصر، أو أهمل، أو بهظه العبء؟ ثم كيف يسعك أن
تقتلع، أو على الاقل تخلخل تلك الجذور المغروسة في التربة الاوروبية منذ قرون؟
أذكر اني كنت في مدينة بشمال ايطاليا.

وسألت:

- هل عندكم يهود؟

قالوا:

- بل عندنا كبار التجار من اليهود.. الى جانب صغارهم.

وذهبوا بي الى بعض المتاجر الكبيرة، وقالوا انها نموذج من تجارة اليهود
ومحلاتهم.

قام هذا كله في نفسي بما في التخيل والتفكير من سرعة. والتفت الى الفتاة
الانجليزية المثقفة، وقلت في ابتسامة مرة:

- سيطول الامر جدا.

- يطول.. ماذا تعني؟

- هذا الصراع..

وأن لنا أن نغادر لندن وأمضينا اليومين الاخيرين في معاودة استجلاء جمال

حدائقها، ونوافيرها، ورياضها الموثقة.. وعدنا الى شوارع متاجرها الكبيرة وبصورة خاصة شارع اكسفورد.

وكانت التنزيلات تصخب صخبها هناك، وقد تدفقت الانجليزيات وغيرهن يشترين منها أصنافا وشكولا من الملابس الانيقة، بأسعار منخفضة مقبولة

..غير أن الحيرة تعتريك.. لا ريب في أن بعض هذه المتاجر الضخمة يملكها يهود، وبعضها الآخر يشاركون فيها، فكيف السبيل أن تعرف هذا من ذاك، ثم تجد المتاجر الاخرى التي لا ترى بأسا في انفاق بعض مالك على مشتريات منها؟

قلت لك لقد آن لنا أن نغادر لندن، فودعنا بعض الاصدقاء، ومنهم الشاعرة سلمى الخضراء الجيوسي، وقد كانت ولا تزال عاكفة على اعداد رسالة الدكتوراة في الشعر العربي الحديث وشقيقها فيصل الخضرا الذي يعمل في بنك الكويت بلندن، والصديق المهندس السيد فؤاد الحديدي، وكنا قد التقينا به في الفندق فأكرم وفادتنا، اتنا لن ننسى حفاوة أولئك الاصدقاء بنا في لندن، وهي حفاوة ومودة وصداقة خالصة أهدت في نفوسنا أثرا لا يزول.

وركبنا أحد هذه التكسيات الانيقة المريحة الى محطة فكتوريا، وكانت الساعة قد تجاوزت الثالثة بعد الظهر، ووقفنا على الرصيف الكبير ننتظر القطار الذي سيقلنا الى الشاطئ، الانجليزي، ومنه نقطع المانش الى باريس.

هرب فيتنام في قطار لندن !

- ٥ -

في الساعة الثالثة والربع من بعد ظهر اليوم الثاني من شهر تموز تحرك القطار بنا من محطة فكتوريا بلندن متجها الى الشاطيء الانكليزي عبر مسافات كبيرة من الريف. والقطار مريح ونظيف، ولا تلقى فيه غير المودة والعون من الركاب. كل واحد مستعد أن يقدم لك المعلومات التي تريدها، وكل رجل يتطوع أن يساعدك في حمل هذه الحقيبة أو تلك، ويتحدث اليك في كثير من الأدب والاحترام، والابتسامة الجميلة لا تفارق شفثيه. والسيدة تصغي اليك باهتمام ملحوظ، وتشرح لك ما قد ترى انه يحتاج الى شرح مما تقع عليه عينك هنا وهناك على امتداد الخط الحديدي من مناظر، وقرى، وسهول، وتلال وغابات.

كان، الى جانبنا في المقصورة، فتى اميركي، لعله في الخامسة والعشرين أو تزيد قليلا، شاب فارغ الطول، عريض اللواح، نشط الحركة، خفيف الظل والروح، وجلس، مقابلا له، رجل انكليزي في نحو الاربعين حسن السمات، فيه وقار ظاهر، يتحدث اليك بلغته الانكليزية اذا شئت، أو بالفرنسية، فهو يتقنها ويتأقن في التحدث بها، وقد علمنا أنه رجل أعمال تكثر تنقلاته بين انكلترا وفرنسا، ولكن أعماله الكثيرة تستدعي اقامته في باريس، وكان عائدا اليها بعد رحلة قصيرة الى لندن. أما الشاب الاميركي فكان قد غادر بلاده لكي لا يعود اليها أبدا.. كان يتدفق في الحديث، وفي نبرته غضب هادى، ونقمة عميقة.. انه

لا يريد هذه الحرب، حرب فيتنام، وقد تمرد عليها وعلى القتال في صفوف
المحاربين هناك، ولقي من ذلك عنتا شديدا، وسجن، لكنه ظل مقيما على رأيه،
بل هو قد ازداد إيمانا به ورغبة عن هذه الحرب.

وقال انه اختار باريس ليقيم فيها، وهو ان لم يعرفها من قبل فهو واثق انه
سيجد في رحابها الحرية أولا، ومجالا للعمل والعيش الكريم، ثانيا... واذن فهذا
الفتى حريص على حريته، وحريص على أن يمارس هذه الحرية المنشودة، فهي أم
الحريات كما علمه التاريخ.. وهو فتى قد نال حظا طيبا من العلم في الجامعة،
ويقول ان أمثاله كثيرون لا يريدون هذه الحرب، ويجدون فيها مضیعة للمال
والارواح والافتئات على حريات الآخرين...

وقد استمعت اليه بهضب بمثل هذا الحديث، متحمسا غاضبا، مؤمنا أشد
إيمان بما يقول. وأحببت أن أسأل الى نفسه، عبر حديثه الطويل، الى مرقفه أو
على الأقل رأيه في هذا الذي تلقاه منطقة الشرق الاوسط من زور واثم. فقال.

- تلك قضية أخرى.

- كيف والوزر في هذه... وتلك... واحد؟

- افصحوا لاسرائيل مجالا.

- نفسح لها مجالا... وقد أخذت بلادنا كلها؟

- بلادكم؟ من قال هذا؟ انهم يدافعون عن بلادهم ووجودهم... وانتم تريدون
أن تلقوا بهم في البحر...

وضريت كفا بكف، وقلت في نفسي لا حول ولا قوة الا بالله. ورحت أشرح
الاضاع كما هي، وعلى حقيقتها المعروفة، وقد حز في نفسي أن يكون الشاب

الذكي، الناقم، الفاضب، مخدوعا بدعايات السوء التي تملأ بلاده، وتؤخذ على علاتها دون أن يكلف أحد نفسه حتى مجرد النظر فيها، والاستراية بصحة مضمونها، ما دامت صادرة من جانب واحد على الأقل. وهل يصح أن لا نسجع الصور الآخر..؟ اليس تفضي بذلك الأساليب العلمية؟ وهو شاب جامعي قد عوده أساتذته أصول البحث، وتشدان الحقيقة في حيلة وحذر وحياذ دقيق، والمأم كامل بجوانب الموضوع كله ما أتبعته له أسباب ذلك؟

وفكر الشاب قليلا ثم قال:

-أعدك أن أفعل بعد أن أستقر... إنني مقبل على ما أجهل كما ترى...

وعدت أسرح النظر، من خلال نافذة القطار، في هذه الصورة الباهرة من الريف الانكليزي. إنه حقا متعة للنظر والحس لا تدانيها متعة، في مثل هذا الفصل من السنة، وربما في كل الفصول.

كل شيء أخضر متألقي ريان إلى أقصى ما يمكن أن يمتد إليه بصرك. لا يأخذ طرفك إلا بمطارف موشاة تغطي الأرض كلها: سهولها ووهادها ورباها، وحدائقها وغاباتها.

ما أجمل وأبهى عناية أولئك الانكليز بالشجر المشمر وغير المشمر. وإنه ليجتلب لك هذا النظام الدقيق في الغرس الرائع المقدرة أبعاده تقديرا متناسقا بديعا في أشكال هندسية روعيت فيها المسافات والأبعاد، فلا يجور فيها جانب على جانب أو صف من الشجر على صف. وللشجر غير المشمر قيمة ووزن كبيران.

وهو مورد رزق ومادة لصناعة مريحة هي صناعة الأخشاب. غير أن شجرة واحدة لا يمكن أن تقتلع أو تنشر الا وتكون أخت لها نمت الى جانبها، واستطالت، وملأت الفراغ.

ثم ان عينك تحتار حقا في أي من هذه البيوت الريفية أجمل وأوقع أثرا في النفس. انها تقسم وسط المزارع والغابات، كأنها قد غرست هي الأخرى وغت وترعرت وكانت لها هذه الألوان الزاهية، وفي هذه البيوت ما بني، من طابقين، من قطع الآجر الأحمر، أو من الخشب الصقيل. وقد افتنوا افتنانا معجبا في صنع الشرفات، والأجنحة، والأقاريز، والحواجز، وجعلوا من التوافذ بأشكالها الهندسية المختلفة حدائق صغيرة تطل منها عيون زهر وورد قائم أو مائل على فروعه الخضر. وانه ليقع في روعك انه لا يمكن أن يكون أجمل وأبدع وأكثر نظافة من هذه البيوت، وربما لا يضاهيها غير البيوت الريفية الالمانية.

مر نحو من أربع ساعات والقطار منطلق بنا على حافة هذا الريف المزدهر، فلا تكاد عينك تقع على صخر أو حجر عار لا تكسوه الخضرة المخملية.

تركنا القطار الى سفينة صغيرة ستعبر بنا المانش الى الشاطي، الفرنسي. وكانت قد انقضت عشرون عاما أو تزيد دون أن يتاح لي ركوب البحار، وأنا ابن المدينة التي ترسو على شواطئها السفن من كل نوع وحجم. في فصل الشتاء، كانت تجتمع على سواحل يافا عشرون سفينة كل يوم، وربما أكثر أو أقل، غير ان البحر كان يغص دائما بهذه السفن لنقل الملايين من صناديق البرتقال، ولا أذكر، منذ وعيت على الدنيا، الا أن هذه السفن كانت تملأ بحر يافا. وتلأ تصويري أخيلة ورؤى وأساطير.. وشببت عن الطوق، وركبت هذه السفن وعرفت قصة البحر في جميع أطواره وأحواله، والهمني من قصصه وحكاياته واساطيره ما أثرى قلبي.

ولهذا كله كان ركوبنا تلك السفينة الصغيرة مغامرة صغيرة ما كان أعظم شوقنا اليها، ومتاعنا بها. قطعت بنا السفينة بحر المانش في نحو ساعة ونصف الساعة، ونحن لا نملك نصعد الى سطح الباخرة مرة فتطمنا الريح، ويتصاعد إلينا الرذاذ، وترسل نحن النفس على سجيته فلا نجد في الريح والرذاذ وقطع

الغيم السابحة في السماء غير ما يشير المسرة في نفوسنا، والفرحة في قلوبنا، ومرة نهبط الى صالونات الباخرة فنشرب القهوة المعصورة، والشاي، وتدخن، ولكن أنظارنا تظل، مع ذلك، عالقة ب تلك الكوى في جدران السفينة نشاهد من خلال زجاجها البحر وهو يرغى ويزيد، وينشق أمام الباخرة فائرا محتدما يتكرر موجه بعضه فوق بعض...

ونزلنا أخيرا على الشاطيء الفرنسي، وركبنا القطار ثانية، من محطة «كاليه» لكي ننفق أكثر من ثلاث ساعات على حافة الريف الفرنسي. وهو على خصبه، وجماله، وشجره وعشبه ومياه بحيراته وانهاره لا يضاهي الريف الانكليزي اناقة، وثراء وعناية، وتبدو بيوته متواضعة اذا ما قورنت بالبيوت الريفية الانكليزية... ومع ذلك فهو أقرب الى القلب، وانك لتعش له وتلقاه لقاء الصديق القديم... اترى كان ذلك لأن في هذا الريف مشاهه بعيدة أو قريبة من ريفنا؟ قد تكون المبالغة في نشدان الكمال مما يبهر الخاطر ويثير الاعجاب دون أن يعلق بالقلب. ولذلك أحببنا هذا الريف الذي لا تعدم العين، في هذا الجانب منه أو ذاك، مظهرا ان لم يدل على آثار النعمة والجاه والشراء، فهو يحدثك عن جهد انساني، وكد يد صادقة العزم في استئداء الأرض الطيبة المعطاء، دون ازدهاء أو ادعاء... ومع ذلك فان فيه لرقاعا ممتدة، وأفاقا عريضة، وسهولا ممرعة لا يبلغ الطرف مداها، وهي جميعا تنبض بالحياة، وتنبيء بهذا الحب للأرض، والتعلق بها، والمتاع بعطائنها. وقد قيل ان كل فرنسي، بعد الستين من عمره، ينسحب الى الريف فيقيم في بيت هادىء في قرية أو مزرعة، وذلك بسبب من الحب العميق في قلب الفرنسي لأرضه وريفه وأريعه.

وأرسل القطار صفيرا طويلا ادركنا معه أنه أشرف على نهاية رحلته.. ثم لم يلبث أن دخل باريس من محطة الشمال وقد تجاوزت الساعة الحادية عشرة ليلا.

ملاح من باریس

وفدت باريس ملكنا

-٦-

ما أن ركبنا السيارة ووضعتنا فيها حقائبنا الكثيرة، وما أن انطلقت قليلا حتى خفق قلبي، كما يمكن أن يحدث عندما نلتقي وجها لوجه بصديق عزيز قديم. وتذكرت ما أنا مدين به إليها، حتى قبل أن أعرفها. أنا مدين لها بهذه اللغة التي تعلمتها طفلا، ومدين لادبها وفكرها وحياتها العقلية الفنية، ولفنها وذوقها. ولما عرفتُها وعشت في ربوعها ازدادت ديناً لها. ما أحببت لغة قط- بعد لغتنا العربية- حبي لغة باريس. لست أجهل السر، فإن فيها مشابه وملامح وسمات من فصاحة لغتنا العربية وجمالها وروعة ادائها. لغة أصول، وقواعد، وعقل، يحدثك عن هذا كله المستعربون من المشرقين. وأنهم ليعشقون لغتنا عشقهم للفتهم.

وهأنذا أعود إليها من جديد. وألقاها من جديد. ويخفق مني القلب. وتحديثي زوجتي فما أكاد أعني ما تقول. وكانت عيني تقع على معالم منها والسيارة تخطف بنا خطفا. ميدان الكونكورد شعلة أنوار، ثم هذا هو «الانفيلد» بقبته العالية، وفيه يرقد نابليون، وبعض من كبار قادة فرنسا وعظمائها. ثم تنعطف السيارة قليلا وتدخل حي «لاموت بيكيه» الذي حجزت فيه، من لندن، غرفا لنا، ورأيت بعين خيالي تلك المأوى "جوز، مديرة الفندق، وهي تلقانا مرحبة بنا. كنت قد عرفتُها وكانت قد تجاوزت السبعين، أتراها ما تزال نشطة، قوية،

عصبية المزاج، نافذة الكلمة كعهدي بها ؟

ولم يخب ظني، كأنني لم أفارقها ولم أفارق فندقها الا يوم أمس، فلم يحدوب لها ظهر، ولم تتعقد لها عظام، ولم تعر يدها ارتعاشه، وإن استحال شعر رأسها كبة من شيب ناصع البياض.

لا أدري لماذا جعلت أقارن بين مديرة فندقنا في باريس وقد تجاوزت الثمانين، وما تزال مع ذلك قوية البنية، شديدة الاسر منتصبه العود، عصبية المزاج، عنيفة القول إذا أرادت، رقيقة الحاشية حلوة الحديث حين تعنف بها وتعلو نبرتك على طبقة صوتها لكي تضع حدا لغورة غضها الذي لا تعلم له سببا، أقول لا أدري لماذا جعلت أقارن بينها وبين مديرة النزل الذي حللنا فيه بلندن، فقد كانت رقيقة، مهذبة، عطوفا، تليي رغباتنا بمجرد اشارة أو إيماء، وكانت اذا حدثنا أمطرتنا بوابل من كلامها المتداخل السريع، فكأن كلماتها انصاف أو أرباع كلمات عباراتها رموز عبارات أو أطيافها، ومع ذلك نفهم عنها، ونبادلها الحديث، ونضحك ملء أشداقنا لانهماكها في العمل وصعودها وهبوطها السريعين بين طوابق نزلها الخمسة....

والمقارنة بين مدام كلير الفرنسية العجوز، وبين جوسي الانجليزية الشابة ليست سهلة أو يسيرة، الا اذا صح ان لقاء شتاء العمر يبيع من هينات الأمور.. وهينات، فان «جوسي» في السادسة والثلاثين لقاء، مقدودة، وسط بين طول وقصر، مرمرية الالهاب، يضرب شعرها الى حمرة داكنة اذا انعكست عليه أشعة الشمس سطع وتألّق. وهي ذات بدوات ونزوات ولكنها تستطيع أن تكظم غيظها، ولا تترك من محياها غير ما تحب من بشاشة ومودة. وكان أمرها مع زوجها عجيبا: يغادر النزل مبكراً، ولا يلم به الا هنيهات في أثناء النهار، ولا ينفك يعمل من أجل فندقه في الخارج، وقد ألقى العبء كله على زوجته في ادارة شؤون الفندق، وخدمة النزلاء، واعداد الفطور لهم، لا يساعدها في ذلك غير

بنتين من الخدم ساعات معدودات، احدهما اسبانية شوهاء بلهاء وأخرى ايطالية، فيما أحسب، نشطة، ذكية، خفيفة الحركة، ولا تكاد تنتهي من عملها ضحي حتى تبادر الى مغادرة الفندق للعمل في غيره، بخفة وحيوية ظاهرة كأنها لم تعمل، ولم تتعب الى درجة الارهاق الشديد.

و ذات يوم وسوس لي الشيطان أن أوقع بين جوسي وزوجها فقلت لها:

- أراك تقتلين نفسك في العمل من الصباح الى المساء. انك تنتحرين يا هذه. وزوجك يروح ويجيء لا يكاد يلقي اليك بالا، بل أراء يغلظ لك القول أحيانا. فهلا رحمت نفسك؟

وارتعشت أهداب جوسي وعقدت ما بين حاجبيها وقالت:

- أترى الامر كذلك؟

- هذا واضح لكل ذي عينين.

ومضت وهي تهمهم وتغمغم، ويذا لي كأنما هي قد دبرت أمرا. وفي عصر اليوم التالي رأيتهما وقد اتخذت كل زنتها، وصفت شعرها، وتبرجت، وأتت بامرأة عجوز أعطتها أجرا وعلبتين من السجائر الفاخرة، وسلمتها زمام الفندق وانطلقت وهي تسحب كليها وراعا، ولم تعد الا بعيد العاشرة مساء.. وظل هذا شأنها طيلة الايام التي تبت لنا في لندن، وأدركت أنا أن كلامي قد فعل في نفسها فعلة، ولم أدرك أن صديقنا المهندس السيد فؤاد الحديدي قد وسوس له الشيطان بمثل ما وسوس لي فرئى لحالها هو الآخر وقال لها، قلبي، مثل قلبي، فطفح كيل الصبر عندها، ورأت أن خير دواء هو أن تمنح نفسها هذه الاجازة اليومية.. وهي في أتم زنتها.. وليذهب زوجها الى جهنم، كما يقول الانجليز. ومن بدري، فلعلها قد استمرت هذا الكيد، وتنادت فيه، وأسرفت حتى لا يكاد

زوجها اليوم يسك بزماسها أو يردّها الى القصد والاعتدال.. ووزر ذلك وإثمه عليه هو، ولولا غلظته، وانفاقه يومه خارج الفندق لما خطر لنا أن نحدث زوجته الجميلة بما حدثناها.. وما كان حديثنا الا رثاء لامرأها ورحمة بها.. أي والله..

وبعد فهل تصح المقارنة بين عجوز دردرس في باريس، وبين هيفاء غيداء، متوقدة الاحاسيس في بلاد الانجليز؟

واستطعنا، في النهاية، أن نظامن من حدة مدام كبير، حتى اسلست قيادها، وخففت من غلوائها، وخصصت لي ولأسرتي غرفتين، وهي موقنة انها تفعل ذلك اكراما لزيون قديم، كانت لا تفتأ - في الايام الخالية - تتحدث عن ابن وحيد لها يوم ترملت وهي بعد في الثلاثين من عمرها، وقامت على تربيته وتنشئته حتى أصبح ضابطا كبيرا وجدته في نحو الخامسة والاربعين من عمره وليس على كتفه غير لحمة بيتمة.. ولكن تزينه دماثة محببة ولطف وابناس لا تجد مثلها عند امه التي ريته....

في اليوم التالي من وصولنا الى باريس ذهبت وزوجتي لاستقبال ابنتينا في مطار أورلي، وقد استقلنا الطائرة من عمان برفقة شقيقتهما. كان المطار قد تم تجديده في سنة ١٩٦١، وفي تلك السنة ركبت الطائرة من أحد مدارجه الى عمان. وفي هذه المرة اتسع الوقت أمامي لالام بمختلف مبانيه وعمائره وباحاته وصالواته ومتاجره ومدارجه. قد لا يضاهيه سعة وابهة ونظاما غير مطار روما. وفي مثل هذه المطارات الكبيرة يأخذ بلبك اقلاع طائرات وهبوط غيرها بصورة متوالية تدبر رأسك، ويخيل اليك أن ثمة أسرابا من طيور لا تنفك تحط وتشيل باستمرار مذهل. وصحيح انني شاهدت مثل هذا في مطار أورلي أشد، والاقلاع والهبوط أكثر أخذًا بلبك من أي مطار سواه.. انه مطار يليق حقا بمدينة النور، وعاصمة السياحة، والمؤتمرات الدولية وغير الدولية من كل نوع وطراز.

وقد امضينا سهرة جميلة ومتواضعة في مقهى يحي «لا موت بيكيه» وابي ولدنا «سري» الا ان تكون السهرة بما فيها من عشاء ونزهة على نفقته.. وهو لا يقيم في باريس، عادة، غير ليلة، ثم يعود في اليوم التالي الى عمان مع «عالية» الخير، الميمونة الغدوات والروحان.

وغدت باريس ملكنا، وهي تلقى كل سائح وعابر بشباب دائم، خالد، وتفتح له أحضانها، وتكشف لعينه المتطلعة عن كل مفاتها، على أن يكون جيبك عامرا أبدا، والويل لك اذا نضب منك الجيب، أو كنت شحيا تقبض يدك، فانها عندئذ تشيع عنك، وتصد، ولا تمنحك من نفسها الا بقدر ما تمنحها من جيبك. وقد راعنا، في أول الامر، ان باريس تبدو محتشمة شديدة الاحتشام والحياء بالنسبة الى لندن.. وها هن غبيدها وحسانها رائحات غاديات ومقبلات مديرات وقد لامست فساتينهن وتنايرهن الركب أو انحدرت عنها قليلا.. وبدت على وجه باريس مسحة من كآبة.. ان الابتسامات الحلوة هي الابتسامات، والرشاقة والخفة والظرف طابع كل ما تقع عليه العين.. ولكن احساسا خفيا يوحى اليك ان وراء هذا كله ما يشبه أن يكون هما مكتوما.. فهل غادرها الى المصايف والشواطىء أصحاب الترف، والمرح، وذوات الخفة والدلال، في هذا الوقت من الصيف؟

وقيل لي بل انها تنطوي على جراحات لما تندمل، ولقد عانت الكثير في سنة ١٩٦٨ من اضراب، وقمرد، وغوغائية شوارع، ومبادين وصلت الى حي جامعتها (السوريون) وظلايها وطالباتها، وقد اضطرب اقتصادها، بسبب من هذا، بعض اضراب، وتعطلت الاعمال.. والفرنسي ذو حساسية خاصة في كل ما له علاقة باقتصاده وأعماله ومصدر رزقه.. فكيف تريده مرحا، منطلقا وقد كابد من هذا كله وعانى منه ما عانى؟

وسرنا في بعض أسواقها متمهلين نلقي نظرة هنا ونظرة هناك، واذا كنت تزهّد في مشاهدة واجهات الازياء في أي بلد تزوره، فان هذه الواجهات، في

باريس، تستوقفك، وتشدك اليها لترى ما فيها من ذوق وجمال واغراء وفن في العرض لا تحس مثله مدينة كباريس.. وفيما نحن كذلك استوقفتنا سيدة عجوز، وقد فتحت ذراعيها وراحت تهضب بكلام مشير، فيما ترقرت الدموع في عينيها، وما من أحد غيري في الاسرة بتكلم الفرنسية، ولما استطلعت أمر السيدة أدركت أنها أخذت بعيون من معي وقالت: هذه عيون من الجزائر ولا ريب.. أجل من الجزائر.. ويكت السيدة التي أنفقت عمرها هناك.. وطيببت خاطرها بكلمات سريعة، وقلت لها نحن من الاردن يا سيدتي.. أما الجزائر فبورك لاهلها بها. ولا يحزنك انها محجرت، ودفعت ثمن حريتها دماء مليون شهيد. وما قيمة ما فقدت هناك اذا قيس أو وزن بقطرة واحدة من هذه الدماء الغالية. ثم مضينا وقد عقدت الدهشة السنتنا.. وفي الوقت نفسه أدركت وجها آخر من تلك الكآبه التي أحسست بها منذ وطئت أقدامنا أرض باريس.

قبر نابليون

-٧-

كان الانفليد، وفيه قبر نابليون، أقرب ما يمكن أن نراه، فهو في طريقنا، وبينه وبين فندقنا مسيرة دقائق معدودات، ولولا أفراد أسرتي لما فكرت في زيارته، فقد شبت من مشاهدته في السابق، ثم أنا رجل سيء الظن بالفاتح الكبير، والعجيب أن عددا من كبار المؤرخين الفرنسيين قد تناولوا نابليون، بمناسبة مرور مئتي سنة على مولده، بالنقد اللاذع، وكشفوا في مقالات مستفيضة عن جملة عيوب ونقائص في خلقه لا محل لها هنا، غير اني أذكر اني قرأت قبل بضع سنوات قولاً لكاتب فرنسي مرموق جاء فيه أن نابليون، يوم كان ضابطاً صغيراً، توسل بخليفته جوزفين- وكان لما يتزوجها بعد- لتسعى له عند بعض ذوي النفوذ لكي يجعلوا منه ضابطاً ذا رتبة عالية وقد حدث هذا، أي أنهم رقوة الى تلك الرتبة، غير أن جوزفين دفعت الشمن.. ولم يخجل نابليون.

ينهض قبر نابليون البني على قاعدة خضراء، ومن فوق هذا كله ترتفع قبة عالية تراها، من مسافات بعيدة في باريس، منحوتة، مزخرفة، مرصعة بالالوان، وفي الليل تكون شعلة من الاضواء الباهرة.

ولكي تشاهد القبر لا بد أن تطل عليه من فوق دائرة واسعة من منحوت الرخام لانه يجثم في قاع من الارض. وفي وسعك أن تسير مع جمهرة السائحين حتى تنحدر الى هذا القاع فيكون القبر بقاعدته وناووسه البني المنحوت على

مرمى ذراع منك. وعندما تعود صاعدا تواجهك كنيسة تتلألأ بالانوار المنسكية على ذهب الصليبان، وشمعدانات المذبح، واطارات اللوحات الفنية التي تمثل قديسين وأصحاب مآثر في الدين. وفي أرجاء المكان قبور من منحوتات رخامية غاية في الدقة والبراعة لقادة جيوش وحرب، في تاريخ فرنسا القديم والحديث.

والانفليد بعد هذا قصر قديم واسع الأرجاء مترامي الاطراف متعدد البنايات والاجنحة، وقد اختص كل منها بعرض هذه الناحية أو تلك من تاريخ فرنسا الحربي، ومخلفات لحروب وغنائم المعارك الشهيرة من أسلحة واعلام، وحتى في الفناء الواسع، وعند مدخل الانفليد، تجد دبابه ضخمة من غنائم الحرب العالمية الثانية، ولا أدري ما جدواها هناك، وقد أكلها الصدأ وبدت كلعب الاطفال بالقياس الى أسلحة هذا الزمان.

وفي الطابق الارضي، في مدخل من حنايا وأقواس، كنيسة أخرى رحيبة أجري فيها، يوم زرنا الانفليد، أكثر من زفاف ديني.. وفي رحاب الفناء المغروش بالعشب وقفنا مع الواقفين لنشاهد عروسين تم اكليهما في الكنيسة، وقد وقفا مع الادل والاصدقاء يتلقيان التهاني، فيما يصورهما المصورون، وقد سمعت همسات ضاحكة تذكر جمال ما ارتدت العروس في يوم زفافها.. كأنها براعة تفصيل فستانها الابيض وطرحتها المناسبة أعلق بالعين من نظرة جمالها هي، ولين أهابها.. وكانت الهامسات المرحات صابا ونساء في أواسط العمر، وقلت متضاحكا: لماذا لا يفعل مثل هذا الرجال؟ وبدا لي أن هم الرجل أن يجتلي محاسن المرأة، ومواطن حسنها، ومكامن قنتتها في وجه صبيح، وقد رشيق، ولا يأتي جمال فستانها أو تنورتها أو وشاحها الا في المكان الثاني، ويقدر ما تستطيع هذه الشباب إبراز خصائص الجمال.

وتعود الى نابليون، فقد كان زير نساء وكانت فتوحاته في هذا الميدان أعظم من فتوحاته في المعارك والحروب، هذا في تقديري أنا، وربما في تقدير بعض

المؤرخين والادباء... وأنت اذ تقرأ تاريخه يتصاعد الى أنفك، باستمرار، عطر هاتيك الغراميات، فكأن نابليون لم يكن له من شاغل غير ايقاع الغيد الحسان في شرك حبه.

كان لا يستطيع أن يجد مخدعا لاحداهن مرصدا دونه. والمرأة، في كل زمان ومكان، تهز العظمة كيائها، وتستلب لبها. وتستهيها، بصورة خاصة، بزة القائد الكبير. أما أن يكون نابليون هو ذلك القائد، وأما أن تكون الحسناء الفيدا هي المرأة الفرنسية التي جعلت من الحب قوام حياتها، وأبدعت منه - وفيه - البدع والفنون، فتلك والله، هي قصص الغرام التي لا تفوتها ولا تدانيها قصص أو أساطير.

ومع ذلك لا نملك الا أن نتساءل: لو لم يكن نابليون هو ذلك القائد الفاتح، وهو ذلك الامبراطور الذي جعل شغله الشاغل تحطيم عروش أوروبا وتيجان ملوكها واقناء زهرة شباب فرنسا في حروبه، أكان يجد سبيله الى قلوب أجمل نساء زمانه، وأكثرهن فتنة وأرفعهن منزلة؟

ثم.. ما من واحدة منهن اقامت على حبه والوفاء له. كن يخنه، ويبعثن بين جنوده وضباطه عن الفتيان الاشداء ليلقين بأنفسهن في أحضانهم....

حتى جوزفين التي - قيل - انها أخلصت له، لم تقم له على ود، ولم ترع لحبه حرمة، فخانتة.. وكانت تغتحم فرص وجوده مع جيشه في المعارك وتدخل الى مخدعها المعطر عشاقا معاميد.. وكان قلبه يحدثه بما تفعل في غيبته فيكتب لها رسائل ملتهبة لا تخلو من شك يفري قلبه..

ولما ركب الطموح طلق جوزفين وتزوج سنة ١٨١٠ ماري لويز ارشيدوقة النمسا وابنة امبراطور المانيا فرنسوا الثاني.. في وسعك أن تزور في ضواحي باريس بيت جوزفين المعروف باسم - مالميزون - فكله ذكريات وحكايات غرام،

وتصعد اليك من مخدعها بقايا من عطر هاتيك الغراميات..

وماري لوبز التي أنجبت له ابنه نابليون الثاني - النسر الصغير - ماذا فعلت عندما أسر نابليون ونفي الى جزيرة القديسة هيلنا؟ تزوجت مرة وثانية من ضابطين من أصحاب الالقاب النموية وكان أحدهما أعور، ولا يصلان، كلاهما، الى حذاء نابليون.. وزيادة في النكاية رفضت أن تتسلم قلبه الذي أوصى بوضعه في وعاء فضي وتقديمه لها.. وأكثر من هذا: أهملت ابنها منه، أهملت النسر الصغير، فكأنما ليست أمه، وقد نشأ الفتى في البلاط النموي مهينا، مستباح الكرامة، مهبض الجناح، لا ينفك كل من حوله يبت في نفسه بعض والده.. الى أن توفي بقصر شومبيرون وهو في الحادية والعشرين من عمره، وكان دا السل قد مزق رثتيه، وهو الذي أطلق عليه والده لقب النسر الصغير منذ ولادته، وسماه ملك روما، ونودي به امبراطورا بعد سقوط أبيه.. ولعلك، اذا زرت فيينا، أن تعرج على قصر شومبيرون وتقضي بعض وقتك في حدائقه المترامية، وتصعد الى غرفه وابهائه وقاعاته، فتطالعك منه ذكريات شجية، وربما تمثل لك وكأنه نموذج مصغر لقصر ملوك فرنسا-فرسايل-. أجل هكذا بدا لي، بل أن فيينا نفسها ما أشبهها بباريس، وربما أحسست انها، الى اليوم، لا تنفك لمحاكي باريس رقة وعذوبة واغراء.. ولكن هيهات.. وشتان..

وقلت، ونحن نغادر الانفليد، ما ينبغي لنا أن نغمط نابليون حقه. ومع أنه ليس بحاجة الى مثلي ينصفه، فلا بد أن أقول أنه كان ذا عبقرية عسكرية قل مثالها، وكان على جانب عظيم من الذكاء المشرق، وصاحب مقدرة على العمل تبعث على الدهور. شهد له بذلك خصومه قبل محبيه.. ولكن أترى ذلك الكورسيكي كان فرنسياً حقاً؟ هناك من المؤرخين الايطاليين من يدعيه لايطاليا.. وهي ليست دعوى، وانما حقيقة فقد ولد في اجاكسيو وهي محافظة في جزيرة كورسيكا، الايطالية، وان عداها الفرنسيون من أملاكهم..

وفي هذه الاثناء مررنا بـ «القصر الكبير» بقبابه وواجهاته الزجاجية، فوجدنا العمل فيه قائما على قدم وساق، كما يقولون ليكون معرضا من معارض الاحتفال بمرور مئتي سنة على مولد نابليون.. وقلت لزوجتي: غضي الى «الشانليزيه» نشاهد متاجره وواجهاته الانيقة ومقاهيه الباذخة ثم نصل الى قوس النصر، وهو مأثرة من مأثر نابليون.. وحششنا خطانا بين ممرات ودروب يحفها الشجر الوريق، والنوافير التي تفرش من مائها المنبثق مظللات بعضها فوق بعض، ثم انعطفنا شمالا فاذا نحن في وسط الشانليزيه الذي يوج بالخلق فكأنه معرض كل جميل وأنيق في باريس.. وسرنا في اتجاه قوس النصر. وأبيات من شعر فكتور هوغو تتردد في خاطري، وهي من قصيدة يخاطب فيها نابليون بعد أن ولد له النسر الصغير وقال ان المستقبل لي:

مولاي!..

ليس المستقبل لأحد.

أما المستقبل لله وحده..

قوس النصر

- ٨ -

عندما بلغنا قوس النصر في «الأنوال» بباريس جلسنا نستريح على مصاطبه العريضة، وأمامنا شعلة اللهب التي تعلق قبر الجندي المجهول، شعلة لم تنطفئ، أبدا منذ انتهاء الحرب العالمية الأولى الى اليوم وإلى ما شاء الله. انها رمز للخلود، والتكريم، وهدية مضيئة ومتوقدة من الوطن الى كل جندي بذل حياته وجاد بنفسه دفاعا عن ثراه.

كان السياح يتوافدون أفواجا وينثرون في أرجاء القوس الفخم، الضخم، ويأيدبهم آلات التصوير يلتقطون صورا من هذه الزاوية أو تلك، ثم يعودون فيعلقون آلاتهم في أعناقهم. أكثرهم أمريكيون وألمان، وما من شيء يدل على السائح هذه الايام كملايه البيطة وحذائه الصيفي المفتوح من كل جانب. ولحيته النامية، وآلة التصوير المعلقة في عنقه. والسائحة صبية كانت أو عجوزا فانها قد تخففت، هي الأخرى، من وقر الملابس الانيقة، كما تخففت من أسباب الزينة والتبرج، ولا تأخذ عينك منها غير فستان بسيط، صغير، قصير، يكشف عن الذراعين والصدر والساقين الى ما فوق الركبة، وقد يكشف أيضا عن معظم الفخذين، وتحمل هي الأخرى آلة التصوير معلقة في عنقها، حتى لو كان معها صديق أو حبيب.

لقد غدت السياحة شيئا متاحاً للجميع لكل الطبقات ولكل انسان، وقد كانت في السابق حلما عزيز المنال لا يستطيع تحويله الى حقيقة غير القادرين من الاثرياء.. ولهذا أسباب كثيرة ربما كان أقربها سهولة النقل والسفر، فالطائرة تنقلك اليوم الى أي مكان في الدنيا في ساعات قليلة، ومعنى هذا ان اجازتك القصيرة لا يضيع منها شيء، في حل وترحال كما يقولون.. ثم أن دخل الفرد في الغرب قد ارتفع كثيرا بعد الحرب العالمية الثانية حتى أصبح في وسعه أن يقوم برحلة سياحية طويلة أو قصيرة وفقا لامكانياته المادية، حتى أن بعضهم من غير القادرين، يسافر ويسبح ويصل الى أقطار بعيدة بالمجان أو ما يشبه المجان.. انهم أولئك الذين تراه في الطرقات ينتظرون سيارة يرضى صاحبها أن ينقلهم الى بلد ما أو مدينة ما مشكورا، وثوابه ابتسامة، وعبرة لطيفة.. وقد صغر العالم وتقاربت أجزاؤه وأقطاره إما تقارب، حتى غدت السياحة ميسورة الى أبعد حد ممكن، أي أن عشرات الملايين من رجال ونساء أصبحوا يمارسونها. أقول عشرات الملايين، وربما كان الاصح أن أقول مئات الملايين، اذا أدخلنا في الاعتبار الاحصاءات في كل من الاقطار الأوروبية السياحية كإيطاليا، وفرنسا وإسبانيا في الدرجة الاولى، ثم تأتي بعدها أقطار سياحية أخرى ولكنها أقل نسبة، كالمانيا، واليونان والبلاد الاسكندنافية، والاقطار الأوروبية الشرقية، والشرق الاوسط، بما فيه الاردن.

ويقدر ما تكون البراعة قوية وحاذقة ومفتنة في الترغيب والاغراء بقدر ما يكون الاقبال السياحي على بلد من البلدان، ويضاف الى هذا، بالطبع إيجاد جو سياحي ملائم ومريح كوفرة الفنادق السياحية، وأسباب الترفيه. وسهولة النقل، وحسن الاستضافة، حتى لقد اعتبرت السياحة صناعة ذات أصول وقواعد واختصاصات.

ربما أثار دهشتك أن تشاهد جمعا غفيرا من السياح المحتافس من الجنسين،

بمظهرهم ومظهرهن المزري والشعور القذرة المسدلة على الوجه والكتفين، واللحي العريضة في وجوه أصحابها كأنها (المخالي) في رقاب الخيل أو الحمير، أضف الى هذا كله ما يلبس السائحون والسائحات من المرقعات: ومن أزياء الازمنة الغابرة، أو حتى ما يتوهمون من أزياء القبائل البدائية التي ما تزال تعيش في متاهات الغابات والادغال.. هذا فريق من السياح لا يبعث على العجب وحسب بل أنه يشير التساؤل في كثير من القضايا السياسية، والاجتماعية، والحياتية. ولقد نحب أن نقول مع القائلين انهم صنف من الناس يحتجون على مآسي عصرهم، ومظالمه، ولا أخلاقيته السياسية والاقتصادية، ويتخذ احتجاجهم أو رفضهم لروح العصر، ظهورهم بهذه الثقيلات.. ولكن ماذا نقول في انحلالهم الخلقي، واختلاط بعضهم ببعض على شريعة الغاب، وإقبالهم العجيب على المخدرات والمغيبات؟ ألا يضيفون- بهذا كله- مأساة جديدة مروعة الى مآسي عصرهم؟.

مالنا ولهذا.. لقد جئنا سائحين ومتفرجين، وهذه احدى صور سياحتنا، لا نستطيع أن نقف عندها أكثر من لحظة، ونقول فيها كلمة عابرة ربما أغنت عن الاطالة، ثم غضي، ولكن الى أين؟ ان قوس النصر ما يزال أمامنا، بنقوشه، ولوحاته الحربية المنحوتة في جدرانها، تاريخ حروب فرنسا في عهد الجمهورية ثم الامبراطورية من خلال ثلاثئة وستة وثمانين قائدا خاضوا هاتيك الحروب مع ذكر أهم الانتصارات.

كان نابليون هو الذي أمر بتشييد هذا القوس العظيم في سنة ١٨٠٦ واستمر العمل فيه زمنا طويلا، ويبلغ ارتفاعه نحو من خمسين مترا وعرضه قريبا من ٤٥، أما سمكه فأكثر من اثنين وعشرين مترا. وهو بنقوشه وزخارفه تحفة فنية وهندسية لا مثيل لها في العالم على كثرة ما نشاهد من أقواس النصر في بعض العواصم الاوروبية ومدنها الكبيرة. في ميونيخ مثلا تجد قوس النصر، وفي لندن

كذلك، وفي غيرهما، إلا أنها جميعاً تبدو كالإقزام حيال ذلك القوس العملاق الذي يتوسط ساحة الاتوال بباريس حيث يتفرغ اثنا عشر شارعاً كبيراً في دائرة هندسية تمسك أعجائبك، إذا ما نظرت إليها بصورة خاصة، من خلال زجاج كوى طائرة محلقة.

لم يكتب نابليون أن يرى هذا القوس الذي أمر بتشييده، وإن كتب لجثته أن تمر من تحته محمولة في تابوت بعد أن جيء بها من منفاه في جزيرة القديسة هيلانة، وقد مرت أعوام طويلة على دفنها في تلك الجزيرة إلى أن وافق الانجليز في النهاية على نقل نابليون إلى وطنه. ويومئذ احتفلت فرنسا احتفالاً مهيباً بعودة رفات القائد العظيم والامبراطور الذي ما أكثر ما قوض من عروش، وقد انتشع قوس النصر بالسواد، ومر النعش والموكب من تحته، ثم دفن نابليون في الانفيلد، وأقيمت من فرقته قبة عظيمة.

أمضينا ساعتين مع قوس النصر، وشاهدنا أكثر ما فيه من نقوش ومنحوتات لاشهر الفنانين، وتأملنا طويلاً الشعلة الخالدة فوق قبر 'جسدي' المجهول وقد وضعت فوقه أكاليل من الزهر، في ذلك اليوم، قدمتها بعثة دبلوماسية أو عسكرية. ثم ابتعد الجو، وأحسننا أن دلف الصيف قد أخذ يتحول إلى ما عهدته منذ طويل من برد الشتاء في باريس، فغادرنا قوس النصر ونحن لا نملك نلثفت إليه بين خطوة وأخرى، وغابت الشمس، وسطعت أنوار الشانزليزه وتلاألت واجهات متاجره الانيقة، وانتشرت في كل مكان كاللؤلؤ حسان باريس الخفيفات، الرشيقات، ذوات القدود الهيفاء، وغصت المقاهي بهن وبين معهن من شبان، وبينهم جميعاً عجائز من الجنسين، ونساء ورجال في أواسط العمر.

مقاهي باريس لا تضاهيها مقاهي أية عاصمة أخرى جمالاً واناقة وكثرة، حتى ليلتصق المقهى بالمقهى وقد ازدان بالانوار والمرايا والمقاعد الوثيرة، وشاع الذوق الجميل في كل ما تقع عليه العين، وربما كان أجمل ما في تلك المقاهي أن

لكل منها « تراس » أو فسحة مظلة أمامه تمتلئ ، هي الاخرى بالرواد ، ولا ينبغي لك أن تعجب من جلوس المرأة في المقهى وحدها ، تدخن وتشرب القهوة أو قدحا من جعة أو كونياك ، فالمساواة بين الجنسين تبيع ذلك ، وأكثر منه .. ولا تأخذك الدهشة اذا وجدت شابا يقبل فتاته وتعاطبه هي التقبيل في المقهى ، وفي الطريق أو في قطار المترو ، أو عند الحواجز المطلة على نهر السين ، وفي كل مكان ، انه أكرم للحب ، ولما بين المرأة والرجل ، ان لا يكون مثل هذا الابتذال هكذا على قارعة الطريق .. ولكنك في بلاد الحرية ، وللحرية فيها مفاهيم غير ما ألفت واعتدت ، فلتغض من بصرك اذن ، وان هي الا أيام تألف بعدها هذه المناظر ، ولا تعود تثير فيك دهشة أو عجبا أو استهجانا ..

وانتهينا الى فندقنا ، وأخذت سماء باريس ترسل ، رذاذها ، ولن يلبث أن يغدو وابلا لا تدري كيف تنقيه ، فالارشد اذن أن نهبط الى احدى محطات قطار المترو فنركبه الى حي لاموت بيبكيه ، حيث يقع فندقنا وحيث تلتقنا مدام كلير مديرة الحيزيون ، فلا تدري أهى غاضبة ساخطة ، أم ساكنة راضية ، أم منظوية على نفسها تجتر أحلام ثمانين عاما تقضت فيما تعلم ولا تعلم من أمرها .

بين برج وتصر

-٩-

الشتاء في قلب الصيف: هذا ما اهدتنا اياه باريس في شهر تموز. ولكنها كانت هدية مزعجة لم نرحب بها كما لم يرحب بها احد، ولا الفرنسيون انفسهم، كان المطر غزيرا متدفقا كأنما السماء ما أمطرت قط في العاصمة الفرنسية، ثم جادت أخيراً بهذا الوابل لم ينقطع في ليل أو نهار ثلاثة أيام كاملة، جادت بها بعد طول انحباس وبعد جفاف هدد الزرع والضرع كما يقال.. كأنما هذا الماء المنصب بقوة وشدة بأس: سهام أو رماح لا تدري كيف تتقي طعنها اذا غامرت وخرجت لامر لك..

وهكذا حبسنا مطر باريس، في عز الصيف، فلم نكد نفارق الفندق الا هنيهة هنا وهناك. ثم صفا الجو وتبدد الغيم وان أبقى المطر لذعة من برد شاعت في الجو كله، حتى لقد اضطررت أن أتدثر بملابس الشتاء الثقيلة، وقلنا نذهب لنرى برج ايفل، ونركب بعض مصاعده الى احدى طباقه الثلاث.

في البطاقات الملونة وغير الملونة يرمز برج ايفل الى باريس. ويرمز اليها في اعلانات السياحة وشتى وسائل الدعاية لها، وهو كذلك يرمز اليها في الرقاع الملصقة فوق قوارير العطر، وفي الكثير مما تنتججه فرنسا وتصدره الى الخارج. وفي أذهان البعض، اذا ما ذكرت باريس، تتمثل مدينة النور بهذا البرج الذي

يبدأ - من قاعدته أو سيقانه الأربع المربعة - عريضا، ضخما، جاثما كالطود، ثم يعتريه التحول شيئا فشيئا كلما أمعن في الارتفاع حتى ينتهي برأس مدبب كرأس الدبوس - فيما يقع في روعك- وعندئذ تتذكر أن هذه القمة الدقيقة ترتفع عن سطح الأرض ثلاثمائة متر كاملة غير منقوصة، وهي التي تريك باريس مبسوطة كالصفحتين، أو تحت البرج إذا شئت.. حتى قصر شايبو الفخم المقابل له لا يبدو لك- من هذا العلو الشاهق- الا كبطاقة البريد أو أصغر. أما نهر السين فلا يترأى لعينك الا كشرط فضي عرضه بضعة سنتيمترات تسبح فيه بواخر كالذبابات، والسيارات المنطلقة، والخلق وهم يغذون السير ما أكثر ما يقع في وهمك أنك تستطيع أن تمد يدك وتتناول حفنة من هذا كله تملأ بها راحة يدك. ثم تبسطها وتروح تنفجر كيف يدب الخلق كالنمل وتروح السيارات وتجيء كأنها خرزات صغيرة ذات ألوان وشيات..

أمضينا في البرج ساعة من زمن، وجلسنا في مقاهيه ومطاعمه، وتنقلنا في أرجائه الواسعة، ومن خلال مناظيره المثبتة في الأركان شاهدنا باريس كلها من جهاتها الأربع. كانت كنيسة «السكريه كور»- أو كنيسة القلب المقدس- تلوح عالية متطاولة في «مونغارتر»، وتتميز بأبراجها وقيابها، وكأنما هي تهيمن على المنطقة كلها. ولا غرابة في ذلك، فهي قائمة فوق جبل ولا سبيل للوصول إليها الا بالقطار الهوائي.

ولم نستطع أن نمكث زمنا أطول لشدة البرد، فغادرنا البرج العنيد، ثم سرنا طويلا في أرجاء- شان دي مارس- الذي ينهض فيه هذا البرج وقد اتخذ اسم مهندس الباراج- غستاناف ايفل- وكان قد فرغ من صنعه سنة ١٨٨٩، وأكثر الناس في أنحاء الدنيا نموا المهندس واسمه وعادوا لا يذكرون غير البرج وهذا الاسم الذي لصق به كأنه، منه، قطعة حديد.

وجلسنا عند بركة من برك الشان دي مارس فالمقاعد ميسرة هناك لكل غاد

ورائع، وتذكرت مواقف لادباء مشاهير من هذا البرج. أكثرهم استقبحه في حفلة افتتاحه، وأنهى باللائمة على المسؤولين الذين أمروا بإقامته، وكان منهم الكاتب القصصي الشهير «غي ده ميسان» فما أن وقعت عينه عليه، وهو ما يزال في العرية التي أفلته، حتى قفل راجعا وهو يلعن البرج ومن أقامه وأشار بصنعه، فما هو الا حديد متشابك بلا ذوق أو فن أو حتى مسحة من جمال مهما تكن ضئيلة.. ربما كان هذا هو احساسي أنا أول مرة شاهدت فيها هذا البرج في السابق. وكنت أوثر لو أقاموا بدلا منه احدى عمائر الفن والتاريخ الضخمة كتلك التي أمر بتشبيدها الملك عمانئيل في روما، فضمت من التارخ القديم والحديث أنصع صفحاته محفورة في الرخام، أو ناطقة في تماثيل ذات شكول وألوان.

في غمرة هذا الاحساس نسيت ألف موطن من مواطن ذكريات التاريخ التي أقيمت في باريس، فما بال الادباء، بل ما بالي أنا أضيق ذرعا بهذا البرج العجيب؟ انه، مع كا ما قيل فيه ووجه اليه من نقد، ما يزال يرمز الى باريس، وما يزال ملايين السباح يتوافدون لمشاهدته، والصعود اليه، وانفاق الوقت في رحابه الواسعة..

كان ما يزال أمامنا الكثير الذي لا بد أن نشاهد أو نشاهد بعضه في باريس. ووجدتني أحن الى قصر «اليونسكو». كنت قد أمضيت بضعة شهور فيه أعمل وأتدرب من الصباح الى المساء. فلي ثمة أصدقاء، ومعارف، وذكريات. الدنيا كلها تجتمع في اليونسكو، أعني أن موظفيه وموظفاته خليط من كل الجنسيات والبلدان. وهو منظمة عالمية، تابعة للامم المتحدة، ترعى العلوم والفنون والاداب والتربية والتعليم، ولها مشاريع عديدة أفادت منها الاقطار النامية خاصة.

ولما زرناه كان أكثر الاصدقاء من موظفيه قد غادروه معتزلي الخدمة، أو منتقلين الى بلاد اخرى لليونسكو. عرفت السيد «ماهو» - مديره الحالي - عن كشب.. وكان يومئذ أحد مساعدي المدير العام السيد «فيرونيزه» ولما استقال

انتخب المسيو ماهو مديرا مكانه. وهو على جانب كبير من الحيوية والذكاء.

كان من الاصدقاء الذين زرتهم، هذه المرة، الدكتور خلدون الكنانى وهو يشغل منصبا هاما في اليونسكو، بقينا في مكتبه ساعة استعدنا فيها الذكريات، وتحدثنا في أكثر من موضوع، والرجل لبق، ومخلص لعمله، وعلى جانب كبير من الثقافة والالام بشؤون اليونسكو. سألته عن الصديق الاستاذ جلال زريق، وكان مديرا لدائرة الترجمة إلى اللغة العربية في المنظمة فقال لي انه اعتزل الخدمة منذ زمن طويل، وهو يقيم الآن في بيروت.. جلال زريق: انك اذا عرفته مرة فلن تنساه أبدا. كنت، في اليونسكو، أهرع اليه في مكتبه كلما أحسست بالفرة. فتحدث طويلا، وأروي له صورا من حياتي في باريس فيضعك ويقول: زدني.. زدني..

وقد كان أديبا، وشاعرا، يوم التقيت به في القدس أيام الشباب، وكان خدين ابراهيم طوقان وصديقه وكنا نذكر ابراهيم ونستحضر صورته، واحاديثه ومفاكهاته وشعره. وكان جلال يمك عن الحديث بين لحظة واخرى فتشجيه الذكريات ويطلق برأسه، فأصمت أنا حتى يعود فيثوب الى نفسه.. رحم الله شاعرنا ويلل ثرى قبره بأندا الخلد.

ودعنا الدكتور خلدون الكنانى، ورحنا نطوف بأرجاء قصر اليونسكو، وقاعاته. وحضرنا جانبا من مؤتمر دولي لبحث شؤون الاسرة ومشكلاتها في هذه الايام، ثم وقفنا طويلا عند اللوحة الجدارية الكبيرة التي رسمها «بيكاسو» لليونسكو ولم يضع عليها توقيع.. انه يوقع منجزاته الفنية أحيانا، وأحيانا لا يوقعها، ولا سبب لذلك فيما تحسب وتظن، الا أن يكون شذوذ الفنانين وغرابة أطوارهم.

لوحتة الجدارية هذه من الفن التجريدي. فيها الاصفر والبني والاسود

والابيض. ألوان لا تسر العين اذا استغلق عليك فهم اللوحة. وقد قيل- تبريرا
لفن الرسم الحديث- ان الالوان وجمالها وتألفها وبراعة تظليلها واشاعة التوازن
بين الاشكال تطرب العين كما تطرب الانغام الموسيقية الاذن. ربما كان هذا
صحيحا، وعسى أن تكفي به ولا يعود موضوع الاثر الفني يهكم في كثير أو
قليل. وفي لوحة بيكاسو لا تجد حتى هذا الذي يسر العين ويبهجها... ومع ذلك
فان ألوانا قد شاهدها، وحاولوا عبثا أن يفسروها لانفسهم ولغيرهم.. انها لوحة
بيكاسو والسلام. وربما كان هو نفسه أول من لا يفهم منها شيئا..

وفي حداثق اليونسكو شاهدنا بعض التماثيل والمنحوتات الفنية.

انها كتل من الصخر، ولكنها في أشكالها الحديثة تعبر عن شيء ما، عن
جلسة لانسان، عن قوام في وضع معين، وأنت لا تخطيء ذلك في أكثرها. وفي
بعض الطباق السبع من مباني اليونسكو تجد لوحات جدارية أخرى لغير بيكاسو.
انها من الفن الحديث، ولكنها بألوانها الزاهية ويظلالها وأشعتها، تبهر العين
حقا، وتحب أن تقف عندها طويلا تتأملها وتشعر بمثل هذه الهزة التي تعتريك اذ
تسمع نغما جميلا أو تقرأ قصيدة من هذا الشعر الذي وصفه ابن قتيبة الدينوري
في كتابه الشعر والشعراء فقال:- وَضُرِبَ منه- أي الشعر- حسن لفظه وحلا.
فاذا أنت فتشته لم تجد هناك طائلا كقول القائل:

ولما قضينا من منى كل حاجة

ومسح بالأركان من هو ماسح

وشدت على حذب المهاري رحالنأ

ولم ينظر الغادي الذي هو رائح

أخذنا بأطراف الاحاديث بيننا

وسالت بأعناق المطي الاهاطح

وذكرتنا هذه الفنون التي رأيناها في اليونسكو أن علينا أن نزر متحف
اللوفر، قبل أن نغادر باريس، ولقد تفوتنا أشياء، ولكن لا ينبغي أن نغفل أعظم
متحف للفنون في العالم.

في هرم اليونانيزا... ووقفه عند الحسابين

بالبطاعون في يافا

- ١٠ -

توقعت كل شيء الا أن يبلغ الازدحام في قصر اللوفر هذا الحد المذهل حقا .
كان يجب أن أتوقع توافد السياح والسائحات على متحف الفن العالمي في مثل
هذا الوقت من فصل الصيف والسياحة .

لقد ضاقت بهم قاعاته وابهاؤه وممراته على رجليها . حتى الطابق الارضي ،
حيث احتشدت تماثيل الرخام والبرونز من مختلف العصور لربات فتنة وجمال ، قد
غص بالرواد .

أما القاعات المخصصة للآثار المصرية فما كان يمكن أن تجد فيها موطنا
لقدمك الا بصعوبة بالغة.. ما أعجب هذه الفنون المصرية الفرعونية ، بل قل ما
كان أعجب صبر الفنان المصري الذي استطاعت انامله الشاعرة ان تنحت التمثال
الكبير بمثل هذا الاتقان البارع ، كما استطاعت أن تصنع التمثال الصغير الدقيق
المعبر بأعجاز فني يستوقفك رغما عنك ، ويدعوك الى تأمله والافتتان به
والاعجاب بالفنان العبقرى الذي صنعه غاية الإعجاب .

كيف تسريت كل هذه الكنوز التي لا يكاد يأخذها حصر الى هذا المتحف
العريق ؟.

ويتشتي فكرك، عندئذ، الى المسلة المصرية التي تتوسط ساحة الكونكورڤ.
وتتساءل : أترى الذي جاء بها هنا، هو الذي جاء بكل تلك الاثار الباهرة في
متحف اللوفر؟.

حتى رأس نفرتيتي أخذ من مصر في يوم من الايام. ومعذرون أولئك الذين
استولوا عليه وهربوه الى أوروبا انه رائعة فنية لا شبيه لها أو مثيل، لو استطعت
أنا ان أتناوله وأخفيه دون أن يلحظني أحد لفعلت.. ولما أحسنت بحرج أو اثم،
فكيف بأولئك الذين كانت تلك الكنوز بين أيديهم، وفي متناولهم، بل كيف
بأولئك الذين وجدوها مخبوءة في قبور، ودهاليز حفروا عنها، وكشفوا ما فيها؟.

ويزداد الازدحام ويتعاطف، ويجرفنا تياره فلا نستطيع أن نقف حيث يطيب
لنا الوقوف، ولا أن نتأمل ما نحب تأمله على مهل ويهدوء.

وعلى أنني أطلت الوقوف مرات عند هذه الاثار في غير هذه الزيارة، فقد
كنت أتمنى لو أتيح لي ولاسرتي أن نقضي يومنا مع هذه الاثار نتذوق التمتع بها
على هيئة من أمرنا. ولكن هيهات، وهذا الموج من البشر يحول بتدفقه بيننا وما
نريد.

ولنصعد، اذن، هذا السلم الرخامي العريض، ولندخل هذه القاعات الباهرة
وهذه الأبهاء الباذخة لكي نشاهد آيات من تراث الرسم منذ عهد النهضة
الاوربية الى هذا العصر الحديث. ويلقاها في القاعات والأبهاء هذا الموج الهادر
نفسه من الخلق، انه، مثلنا، يتحرك، ينساح، ويتسلق هذه الطباقي، ثم ينداح في
كل مكان فلتنقع اذن باختلاس النظر الى هذا الرسم وذاك. ،ولنكتف باللمح،
ولنحت خطانا دائما مرغمين غير مخيرين، فهذا الموج من الادمين يدفعنا دفعا لا
هوادة فيه.

وماذا تراك تستطيع أن تفعل غير أن تلقي مثلا نظرة عجلى على لوحة

تتويج نابليون للرسام العبقري «دافيد» وحسبك انك استطعت أن ترى هذا الحشد العظيم- في الرسم- من أمراء ونبلاء وقواد وشخصيات وجماليات حتى لتعلق عينك بمطرزات ثيابهم، وشغوف ما ترتدي السيدات. وحسبك ان شاهدت نابليون يتناول التاج من البها لكي يتوج به نفسه، بمثل تلك العظمة ومثل ذاك الشموخ.

والا يكفيك أن ترى في ناحية أخرى «مدام ركامبيه» على متكتها في جلسة الدلال والفتنة؟ انها هي الاخرى لوحة فنية نادرة من ريشة الرسام «دافيد». كان رسام نابليون في عهد الامبراطورية غير أن ريشته بلغت من نقاء المذهب الكلاسيكي ما لم يكن فيه مطمع لطامع، لقد خلس هذا المذهب من افتعال القرن الثامن عشر. وقد مات سنة ١٨٢٥ عن سبعة وسبعين عاما. لوحته هذه- مدام ركامبيه- خلدت جمال تلك المرأة التي انعقد على مفرقها، في عصرها، تاج الجمال والحب، وكان صالونها الشهير ملتقى العظماء ورجال الفكر والفن. لا أعلم ان رسما استطاع أن يثبت على القماش مثل هذا الجمال ومثل هذا الدلال، ومثل هذه الانوثة، الا أن يكون منافستها أمنا حواء في سقف كنيسة الستين بالغاتيكان.

وكانت وقفة قصيرة أيضا عند لوحة المصابين بالطاعون في يافا..

وثمة نابليون بوناپرت ومعه قواده يشاهدون ما حل بأولئك المصابين. انها للرسام «غرو» الذي تتميز لوحاته الفنية بالحرارة وروعة الحركة، كما كانت إرهابا بالفن الرومانسي حتى دون أن يدرك هو ذلك أو يسعى اليه..

المصابون بالطاعون في يافا: كأن مدينتنا الجميلة، عروس البحر الابيض، ليست الآن مصابة بما هو أشد هولاً وفتكا من الطاعون. الى متى تبقى أيتها الجميلة، بل يا أجمل الجميلات، في ذل الاسر والهوان؟ لقد نكأت تلك اللوحة

جراحات في قلوبنا.. انه ليل الطفيان وعذاب كل القم الانسانية على أيدي
الطغاة في عصر الامم المتحدة. ونشدان أسباب الامن والسلام في ربوع العالم،
إنها خرافة الأقوياء، يأخذون بها الأمم والشعوب. الليل، ليل الظلم والاستبداد
والتسلط والتحكم بمصائر الناس والاطوان، طويل ولكنه سيزول. في التاريخ حتى
القريب منه، دروس وعبر. ولكن حين يعسى القلب لا يتعلم درس ولا تجدي
عبرة... .

لو أردت أن ترجع الى الشروح لاقتضاك الامر أسابيع وربما شهرا. وهل
يسعك أن تقرأ قصة الانسان في يوم أو يومين؟

فلنمض وأيدنا على قلوبنا من شدة الألم ووقع الذكرى. ولكننا واثقون ان
الطاعون الحديث في يافا وفي كل أرضنا المحتلة ميسزل، سيسمحى، يقتاله
النسيان يوم نسترد الوطن، كل الوطن، وأن كره طغاة القرن العشرين وزبانية
اذلال الشعوب الطامعون في ثرواتها وكنوزها وأوطانها.

وغضى عبر التاريخ فالنق تاريخ مرسوم بألوان وظلال وأفياء: ملوك،
وأمرأ، وفرسان، وقديسون، وملائكة، وشياطين، وجميلات من كل العصور،
ومعارك طاحنة. قصة طويلة يروي الفن فصولها، وأحيانا جزئياتها، ولا يغفل
الشحاذين والرعا، والشائرين، وقصص الحب، والفروسية، والخيانة والغدر،
والاسطورة. وقصص الارياب، وكل ما امتلأ به خيال الانسان. كل أوها،
وأساطيره، وحكاية حياته، تحدثك به هذه الالوان القاتمة المريده حينا، والزاهية
المتألقة حينا آخر. مهما تزر من متاحف الفن سيظل «الوفر» أعظمها، وأغناها،
لن تستطيع أن تقضي منه وطرك في يوم أو اثنين، لو أردت أن تتعلم، وتدق.

وها هم أفراد أسرتي يلحون بأصوات خافتة: انهم لم يروا، بعد، لوحة
الموناليزا، أو الجوكوندا. قالوا: ما ههنا من اللوفر الا أن نراها، ونقف عندها. كل

ما شاهدنا، من قبل، كان صورا منسوخة عنها. ولكننا نريدها هي، بلحنها وشحمها.. وضحكت طويلا.. تلك المرأة التي تجاوزت العصور، وسخرت بفعل الزمن وغدراته ما تزال ريانة الاهداب، نضرة المحيا، رائعة الجمال، خلابة الابتسامة انها معجزة الفن، وآية «دافنشي» الفنان العالم، المشرح، ولدته أمه سفاحا، فأهدى الانسانية صورة أجمل امرأة. أو تريدونها بشحمها ولحمها حقا؟ انها ليست أكثر من ألوان على خيش أو قماش، أما هي نفسها فريما عاشت حلما في رأس كبير رسامي عصر النهضة. ولكن هيا بنا اليها. انها هناك حيث يزداد ازدحام الوافدين. حتى المختافس والهيبيون قد وقفوا عندها، لوحة صغيرة اذا قيست بتلك اللوحات العملاقة التي تلتهم جدران القاعات في اللوفر. ربما كانت أصغر لوحة هناك. ولكنها أكبر أثر فني يزهي به اللوفر. هاتان هما عيناها.

ما أشبهها بربة بيت ترحب بك، في دارها، بهذه الابتسامة الخفيفة المحيرة، وهذه النظرة العطوف المتحفظة، الضاحكة في آن واحد، وقد عقدت يديها الطريتين فوق صدرها في دعة، وسكون، وثقة... .

هل يستطيع الحب أن يفعل هذا كله؟ الحب الذي ملأ قلب ليوناردو دافنشي لهذه المخلوقة.. لقد صنع شيئا أجمل من الحب. وأجمل من الجمال نفسه. ولماذا نذهب في التفسير الى أبعد من هذا؟ حبنا منها الجمال، والوداعة، وسكينة النفس، والابتسامة أو على الاصح طيف هذه الابتسامة، التي خلبت الالباب. لا نريد أكثر من هذا. لا نريد أن نفهم، لا نريد أن نذهب الى أبعد مما يقع في النفس أول وهلة..

وقالت زوجتي: مساكين الرجال.. ألوان على قماش ذهبت بألبابكم.

قلت: ولكنها الموناليزا.

قالت: ليست أكثر من امرأة، كما ترى. وانما هي اوهامكم أضفت عليها

هذه الهالة العجيبة.. أتدري؟ مدام ركاميه أجمل منها، وأحلى، وأروع فنا..
قلت: لا.. لا.. انت واهمة.. أهكذا تفجعينني بها؟ اتقي الله.. ألم
تستعجلي رؤيتها؟

قالت: أردت أن أرى فيها الاسطورة التي صنعتها أروهاكم.. أيها الرجال..
لوت قدمها ومضت عن الجوكوندا ولكنها عادت تلتفت اليها مرة كل
خطوة. وضحكت وقلت: أراك تلتفتين اليها قالت: لأزداد يقينا بأنكم راهمون..
تعال نرى هناك تلك المطرزة.. وسرت ذاهلا الى لوحة «فرمير».. الى تلك المرأة
التي أكببت على خيوط ذات ألوان تصنع منها ما تحب النساء أن يصنعه من
مطرزات. انها - كما سماها صاحبها - صانعة الدانتيل، تخرج المخرمات من بين
أناملها تنطق بالجمال، والجهد المبذول والصناعة المتقنة. ما أشبهها، في جلستها
واكبائها وأنايتها، بشاعر يستلهم الرحي. ويفرغ جهده في تحكيك شعره، وصقله،
والعناية به، ليجر الخناس مروقاً، صافياً، لا تشويه شوائب العجلة والاهمال.

أنامل ماهرة يتقطر منها الفن. وجلسة توحى بالكد، والجهد، والهدوء وإرادة
صنع شيء يتع ويسر ويفيد.

ألست تراها أجمل من تلك.. وأعرق تعبيراً عن الجهد، في طمأنينة وعزم،
ودأب، شأن كل من يريد أن يصنع شيئاً متقناً وجميلاً.. اما الموناليزا..

ولم أستمع الى بقية حديث زوجتي وذكرت قول احدها، بعد أن رأيت
الجوكوندا أول مرة قبل بضع سنوات: امرأة عادية.. لا يميزها شيء عن سائر
النساء..

لا شك في أن الرجال وحدهم هم المعجبون برائعة دافنشي.

أما المرأة.. فقد ترى فيها منافسة خطيرة وإن كانت صورة، وإن كانت ألوانا
على قماش..

فما أعجب طبائع النساء!

في وداغ باريس

- ١١ -

بقيت أشياء ومعالم لم نرها في باريس. وقد غدت أيام بقائنا في مدينة النور قليلة. شرعنا نفكر بالرحيل، ونتخذ له الترتيبات اللازمة. ان اثني عشر يوما في العاصمة الفرنسية لا تكفي.. أحسست أن في موقعي شيئا من الانانية فاذا كنت قد عرفت باريس ومعالمها ومسارحها ودار الاوبرا فيها، ومتاحفها وقاعاتها الموسيقية، وحدائقها الشهيرة، وقصورها، وحياتها الفكرية والادبية في غير هذه الزيارة، وخلال اقامة طويلة، فان من حق أسرتي أن ترى أكثر مما رأيت وأنا أيضا بحاجة الى تجديد صور قد أخذت تبهر في ذاكرتي. ولكن ما العمل وبرنامج رحلتنا لا يبيح لنا أن نبقي في باريس مدة أطول؟ ربما كانت الايام القليلة المتبقية كافية للقاء نظرات سريعة هنا هناك: الحي اللاتيني، بوليفار سان ميشيل، البانتيون- مدفن العظماء- والصوريون الجامعة القديمة العتيقة. وهناك حدائق فرسايل والتويلري، واللوكسمبورغ، ومونمارتر والطاحونة الحمراء، وسان جرمن دي بري. وهذه السفن النهرية التي تشق عباب «السين» وتترك الكثير من قصور باريس القديمة، وقناطرها، وجسورها الضخمة. انها رحلة جميلة، وهادئة، فيها ترويح عن النفس، ومتعة للعين وراحة..

وتساءلت: لماذا لا نأكل الفول والحمص والبصل في مطعم «رشيد»؟ رشيد اللبناني يقع مطعمه الصغير في شارع صغير الى يمين البانتيون.. من هناك تستطيع أن تذهب الى معهد «أولم» العريق، انه دماغ فرنسا المفكر في شؤون

التربية والتعليم، وهم الذين يعدلونها إذا ما احتاجت الى تعديل، وهم الذين يجددونها، وفقا لروح العصر، اذا كان لا بد من تجديد. تلك الاحياء القديمة في باريس لها روعة خاصة حتى الحى اللاتيني بأزقته، ودرويه، وحاراته- اذا صح التعبير- يأخذ بلبك، عرفت هناك مكتبة مفتوحة ليل نهار، انها لا تغلق أبوابها أبدا، اسمها «مسرة القراءة» كنت أرتادها وأشتري منها كتباً قديمة وجديدة، حتى أصبحت صديقا للمكتبة التي لا تعرف النوم أبدا.

وها هي لا تزال كالعهد بها، تمر بها خلال الأزقة والدروب في الحى اللاتيني، كأن شيئا لم يتغير، كأن السنين لم تمض. تستوي اللحظتان: المحاضرة والغابرة، وتلك التي ما تزال في عالم الغيب. وكذلك الانسان، انه هو نفسه دائما وتزام الاقدام لا ينقح. كل ما يحدث أن واحدا يذهب وواحدا يجيء. والركب مستمر، بغد السير.

قبل شهر شهدت هذه الاحياء، وشهد الشارع الكبير-بوليفار سان ميشيل- جموع الثائرين من طلاب وطالبات، هنا جيهم، وهنا مراح شبابهم، وفيه مقاهيهم، لقد حولوه الى جبهة قتال، في قضية خاسرة كانت الايدي الغادرة ورامعا اثارة وتحريضا. وتريد أن تأسف، تريد أن يفهم الطلاب أنهم أكرم من أن يتخذوا اداة في خدمة الحاقدين، وان علمهم وأسائرتهم أعز من أن يكونوا ذريعة في الايدي المشيرة، الايدي الفوغائية. ولكن ما جدوى الاسف وقد حدث ما حدث؟.. قيل انها ثورة على المناهج والاساليب. قيل ان الغرض من كل ذلك التمرد، والخروج حتى عن حدود المنطق والعقل، كان رغبة في التجديد، وطلب قيم جديدة.. هذا في الظاهر فقط. ولكن الحقيقة كانت للاخراج، لخلق البلبه، ووضع العصي في الدواليب كما يقال....

لم أعرف مكانا كالبانتيون تجهماً وأريدادا. انه لا يشير فيك غير مشاعر ريدا: رسومه، لوحاته، ممراته، مدافن العظماء، والصمت، والسكون، والاضواء المحافضة تضطرك الى السير على رؤوس أصابعك. قد تقضي فترة تقصر تطول، ولكنك ترتاح حين تخرج وتستقبل المرح والبهجة، وضوضاء الحياة، وتزاحم الناس، وانتشار المقاهي والبارات، هنا يلتقي الموت والحياة، وليس بينهما الا خطرة كما في عيش الانسان: خطرة فقط بين حياة وموت.

نحن لسنا بحاجة الى فولك وحمصك ويصلك يا رشيد. سنمر بمطعمك دون أن نلتفت. ما جئنا باريس لناكل حمصاً وفولاً. ذات ليلة، فيما مضى، أكلنا عندك حتى أتخنا. وقال أحد الرفاق: نعود الى سكنا سيرا على الاقدام لكي نشط عملية الهضم. وسرنا ساعتين، حتى وصلنا الى حي لاموت بيكيه. سحفظ لك انك، يا رشيد، عرفتي بجورج شعادة. في تلك الايام كان مسرح فرنسا- الاوديون- يمثل مسرحية «الرحلة»، وكانت الاعلانات الضخمة تتحدث عن هذه المسرحية. وسألتك: من يكون جورج شعادة؟ وقلت أنت انه لبناني.. وعدت أسالك: لبناني مقيم في باريس؟ كلا مقيم في لبنان ويزور باريس بين حين وحين.. هكذا اذن: المسرح العريق يعرض مسرحية لاديب عربي يكتب بالفرنسية. لا بد من مشاهدة «الرحلة». شيء عظيم. أسلوب جديد في التمثيل. وشعر بتقطر من كل عبارة. شعر خافت الجرس، يأتي من الاعماق، ومن دنيا الاحلام، وينسكب في النفوس كقطر الندى. لهذا كله كانت المسرحية تناقش كل يوم خميس في المسرح نفسه. باب النقاش مفتوح للجميع. هذا مجد أدبي رائع، مسارح المجتثرا، وألمانيا، وسائر العواصم الكبيرة تعرف شعادة، وفنه المسرحي الجميل. ما كان أعظم اعجابي واغتيابي. وتساءلت: ماذا نفعل نحن؟ قصارانا أن نكتب مقالا، أو ننشر كتابا لا يحس به أحد.. وتكون بعد هذا، ادعاءات طويلة عريضة تضيق بها وبالآداب والفكر.

وقد يبعث الاسى في نفسك انك اذ تنفر من كل هذا الادعاء تجد واحدا من مشاهير القصة والرواية ينهض من يتهمة بالسرقة والسطو على قصص الآخرين، وهو لا يكاد يعرف كيف يتفني التهمة.. اقرأ صحف القاهرة لتجد هذا الذي يحزن ومعض.. هل يظل بعضنا يعيش عالة على الانتاج العالمي.. ثم يريد أن نتفخ له في الابواق وندق الطبول؟ لا أحب أن أذكر الاسماء لانني لا أريد، ولا أهوى التشهير. حسبه انهم هناك، قد ضبطوه.. والعجيب أن صحف القاهرة ومجلاتها كانت تطالب لذلك الكاتب بجائزة نوبل.. فيا للسخرية.

يجب أن غمضي. ليست قضايا الادب هي التي تهمني وتشغل بالي. أنا هارب من الادب، والكتابة، ومن الفارغين الذين يطلبون لانفسهم ويزمرون، وينشرون لذواتهم ضروب الدعايات. ما أشبه ذلك بالاعلان عن الاحذية، وشورية ماجي، وويسكي الحصان الابيض.. فلندع كل هذا. لا يمكن أن يبقى الا الجدير بالبقاء. اناس يلهون ويعبثون. فلنتركهم لشأنهم، أليس كذلك يا رشيد، يا بائع الحمص والبقول والكفتة والكباب في باريس، وبجوار الباتيسون؟ ربما كانت بضاعتك أفضل مما يكتبون..

من حدائق فرساي، الى حدائق التويلري، الى حدائق اللوكسمبورغ، أحببنا هذه الاخيرة. انها تقع في صميم حي الطلاب. هي صديقتهم، ببركها، وبحيراتنا، وشجرها، وقنايلها، ودروب التزهة فيها. لله أولئك الناس في باريس. كأن الذوق موقوف عليهم. حدائق لندن، وميونخ، وفيينا، وروما عظيمة حقا، وباهرة، ولكن الذوق في حدائق باريس هو الذي يستوفقك، هو الذي يشير اعجابك وعلا قلبك بالمسرة. ليس الذوق الا لمسة اخيرة من يد فنانة تضفي على الحديقة وعلى

واجهات الدكاكين، وعلى المقهى، والشارع، والبناء، وعلى ما ترتدي المرأة، وما يلبس الرجل، وما يقدم من طعام، وما تشاهد العين من منجزات الفنون، شيئا هو غير الجمال وغير الابداع. ربما كان أعز مثلا من هذا وذاك. هذا الشيء لا تستطيع أن تفهمه الا اذا قارنت بين المرأة هنا، والمرأة في أية عاصمة أخرى. قد لا تكون الباريسية هي الاجمل. ولكنها هي الاكثر ذوقا. أتكون هي اذن مصدر الذوق في الحياة هناك؟.

هو ذاك.. انها مصدر هذا الاشعاع. وكان الحب فيها هو مادة هذا الاشعاع. انها ترضعه مع حليب أمها، وعندما تكبر تكبر معها الفتنة، ويكبر الحب، ويتبلور الذوق، ويصبح هو سمة الحياة..

وتذهب الى «موفارتز»، الى أحياء الرسامين، وأزقتهم والدكاكين التي اتخذوها محترفا لهم: كل شيء قديم: الدروب، الحارات، الابنية، الارض المبلطة، المخارج والمداخل، ومع ذلك فالذوق الجميل شائع هناك، بل هو مادة العيش نفسها. ثم هذا التوافق العجيب بين الفنان بلحيته، وهندامه المهمل، وغليونه أو سيكارتة وابتسامته وأحيانا ضحكته العالية، وألوانه، واللوحة التي يجلس أمامها مستمرا في الرسم، وجماعات السياح الذين يقفون ثمة مشدوهين، أجل انه توافق عجيب بين هذا الفنان وبين كل ما يحيط به لا تستطيع ان تتصوره في غير هذه الازقة والدروب. ان الحياة تمور هنالك، ويقف الفنان فيها كملك في عالم مسحور، قد يتخذ مقعده حتى على الرصيف ولا تنفك الالوان تنقطر من فرشاته ذوبا من فن، ونبضا من حياة... .

لا نستطيع أن غضي يومنا هناك. يجب أن نغادر تلك الاحياء المحببة، فالوقت ضيق.. ونشرع نتحدر، ونجتاز الدروب ونقرأى لي صورة الاديب

الصامت، القصصي الممتاز، «مارسيل إيميه». أقام حياته كلها في موفارتر، ومنذ أكثر من عام توفي هناك، وخرج سكان الحى يشيعونه. شخوص قصصه كانت منهم: الحياز، والبقال، ونادل المقهى، والخواجهات، والموظفون، وبنات موفارتر. كان لا يحسن الحديث كأن في لسانه حبة. ولكنه اذا كتب تدفق. هو، في رأيي أبو اللامعقول في القصة والرواية، سبق كل الذين مارسوا هذا المذهب. قالوا انه ذو شطحات في الخيال والابتكار. بعض شخوصه يشق الجدران ويعبر منها والبعض الآخر يموت نهارا ويحيا ليلا، وهناك امرأة من شخوصه تتكاثر بالانقسام، ان لم يكن هذا هو اللامعقول فماذا يمكن أن يكون؟ كان يحسن كل شيء الا دق الطبول لنفسه. ومع ذلك فقد استوى على القمة، لان وراء كل قصة «لا معقولة» من قصصه: عقلا راجحا، وهذفا واضحا، وفلسفة ذات أبعاد مذهشة. انه يرقد في مقبرة موفارتر غير بعيد عن المقبرة القديمة ذات القبور والصوى الفنية التي تضم رفات أبناء العصور الغابرة، هذه المقبرة الفريدة من معالم ذلك الحى، يهرع السياح الى مشاهدتها كأى أثر آخر ذي قيمة فنية وأثرية..

لسنا من رواد الملاحى، وحبسنا من الطاحونة الحمراء أن نشاهدها ونقف عندها قليلا. برج أحمر يتهض في باريس العتيقة، وله هذه الاجنحة الحمراء هي الاخرى. تكفى نظرة عابرة اليها. وقد آن لنا أن نستريح في أحد هذه المقاهى الظرفية التي اختصت بها باريس، ونشرب القهوة المعصورة، وتظل الطاحونة الحمراء مقابل المقهى، أمانا يدور من حولها الخلق في ذلك الميدان الرحيب، وهي تنفرد بلونها وشكلها، وتجذب الانظار داعية الى الملهى الذي يحمل اسمها. وما أكثر الملاحى في باريس لمن لا يبحثون عن غيرها...

بقي لنا يوم آخر لا يكاد يتسع لتدبير أمورنا والاستعداد للرحيل الى ميونيخ، وها هم أولئك السياح الالمان يرحبون بنا ويقولون انهم سعداء ان نكون

معهم عبر هذه الرحلة الطويلة في سيارتهم السياحية المريحة.

ولجبيهم شاكرين، وتكون على موعد معهم في البكرة المطلوبة لنقطع ٨٠٠ كيلو متر عبر «اللورين»، وما يحيط به من قرى ومدن وحدائق وغابات وأنهر وبحيرات..

ووداعا يا باريس الجميلة.

ملاح المانية

في الطريق الى ميونيخ

-١٢-

كانت النية أن نركب القطار من باريس الى ميونيخ، فندخل ألمانيا من أقصى جنوبها ونقطع نحواً من ألف كيلو متر.

ولعبت المصادفة الطيبة دورها فهدتنا الى «باص» سياحي ألماني مريح أشبه ما يكون، من الداخل، بأحدى هاتيك الطائرات التي تقطع القارات والمحيطات. كان جماعة من السياح الألمان ومعهم بعض الأميركيين هم ركاب هذه السيارة السياحية الفخمة، وكانوا قد قضوا أياماً في باريس وزاروا بعض المعالم الأثرية والتاريخية فيها وفي بعض المدن الفرنسية، وعينوا يوماً للعودة الى ميونيخ، وتعرفنا، في ساحة متحف اللوفر، بالمشرفين على هذه الرحلة السياحية، وشأت المصادفة أن يكون في هذه السيارة أربعة مقاعد خالية فاتفقنا معهم أن يحجزوها لنا، فقبلوا مسرورين، وكنا نحن أشد سروراً بمرافقتهم.

وهكذا طافت بنا السيارة في قسم كبير من العاصمة الفرنسية وعبرت بنا الشوارع والميادين ساعة أو بعض ساعة ليستطيع السياح الألمان أن يلقوا نظرة وداع أخيرة على مدينة النور، ثم انطلقت من قلب باريس، ولما أصبحت في بعض ضواحيها، أمسك المسؤول عن الرحلة بمكبّر الصوت ورحب بنا بلفته الألمانية وقدمنا الى رفاق ورفيقات السفر.

وترجمت كلامه الى الانجليزية احدى السيدات فقوبل ترحيبه وشكرنا اياه وما أهديناه من سرور في صحبتهم بالتصفيق الحار. وكانت بالفعل، مناسبة متاحة لكي نحدث رفاق السفر عن الاردن، ونهضته وازدهاره، ثم ما يلقي من آثار الاعتداء الغادر، وما يواجه به هذا الاعتداء وهذا الاحتلال البغيض لبعض أرضه ولجزء عزيز من الوطن من صمود. ومرة أخرى أيقنت ان الكثيرين يجهلون قضيتنا على حقيقتها، وان الباطل قد أسدل على البصائر والابصار حجابا كثيفا دون هذه الحقيقة الناطقة. ولكنني لمست الى جانب هذا استعداد طيبا لفهم هذه الحقيقة والافتناع بها اذا ما استطاع المتحدث أن يتغذ الى قلوب سامعيه بهدوء، وصدق، وقوة حجة ومنطق. ولست أزعم اني استطعت أن أظفر بطائفة من ركاب السيارة الى جانب قضيتنا، وانما استطعت، على الاقل، أن أشعرهم بأن للقضية وجها آخر يجهلونه، وان الاكتفاء بالنظر الى وجه واحد من قطعة العملة لا يكفي، ولا يغني عن تقليبها والنظر الى الوجه الاخر.

ان في الناس استعداداً جميلاً لمعرفة الحقيقة، وهم لا يتعصبون لجانب دون الاخر، وانما هم يأخذون الامور أخذاً هيناً، وقد يصدقون ما يقال لهم ما داموا لا يسمعون غير صوت واحد يرتفع الى آذانهم. ولماذا تراهم يبعثون عن الوجه الآخر، أو الصوت الآخر، اذا كان صاحب الحق صامتا، أو غير مهتم بايصال صوته اليهم واظهار الجانب الثاني من الصورة وهو الجانب الأهم، والأحق بالنظر، والأجدر بأن يلتفت اليه؟ وقد لا يكفي ان يرتفع الصوت ليشير، ويسترعي الانتظار الى جانب الحق. وانما يتوقف شيء كثير من اثاره الاهتمام والتسلل الى العقول والنفوس على الاسلوب، وطريقة تناول، والحذق في العرض، وتقديم البرهان ببساطة، وتلطف.

وقد يعجب القارئ، اني اتخذت من شاعر ألمانيا العظيم - غوته - جسراً أعبر عليه الى أذهان رفاق السفر، وتحدثت قليلاً عن راعته - فاوست - ثم عن

- الديوان الشرقي - ومنه تشق الحديث عن بلاد المشرق، والبلاد العربية، ثم قضيتنا بالذات. وقد كان الاصفاء تاما، وأحسست اني أثرت الاهتمام لمجرد أني قارئ. لشاعرهم الكبير غوته، وما كتب عنه دارسو شعره وأدبه في أكثر من لغة.

طيلة الرحلة التي ابتدأت من الساعة صباحا، وانتهت في قلب ميونيخ عند منتصف الليل كنا، أنا وأفراد أسرتي، موضع العناية الفائقة، من أولئك السياح جميعا. أشعرونا كأننا أسرة واحدة، وكان الكثير منهم يتطوع لشرح ما نرى من غابات، وبحيرات، وأنهر، وجبال، بل أن بعضهم أبى أن يفارقنا في زيارتنا لبعض المدن التاريخية على طريقنا، كمدينتي «نانمي» و «ستراسبورغ» الفرنسيتين، حيث توقفت السيارة ساعة في كل منهما لنشاهد ما فيهما من معالم. كانت كنسية ستراسبورغ الاثرية أهم ما لفت أنظارنا قبيل عبورنا الاراضي الالمانية، دخلناها تحت وابل من أمطار الصيف وشاهدنا مبانيتها وطرارها الهندسي القديم، وصورها وقنايلها العتيقة، وخرجنا منها ولا ينفك المطر يهطل ويتصب انصبابا لا هراة فيه.

كبار وصغار

-١٣-

وعلى ذكر كنيسة ستراسبورغ الاثرية الشهيرة لا يستطيع المسافر، عبر القرى الاوروبية جميعا، الا أن يعجب للدور الذي تلعبه الكنيسة في كل قرية مهما تكن صغيرة ولا شأن لها. اذا أقبلت على القرية في فرنسا، أو انكلترا، أو ألمانيا، أو النمسا أو إيطاليا كانت الكنيسة بيناتها وجريستها المستطيلة ذات الرأس المدبب هي أول ما تراه.. وقد أدركت قول شاعر فرنسا - لامرتين - في القرن التاسع عشر، عندما وصف برج الكنيسة هذا المرتفع فقال كأنه اصبع تشير الى السماء. قول رومانسي جميل، من شاعر رومانسي عريق. ولكن الذهن يلتفت الى غير هذا من مدلولات: المنازل والبيوت أو معظمها تلوذ بالكنيسة ولا تبعد عنها الا بمقدار اتساع العمران في القرية. وقصة الحياة في كل قرية تلخصها الكنيسة تلخيصا دقيقا. ان الانسان الاوربي تتصل أسبابه بأسباب الكنيسة منذ الساعة التي يولد فيها، حتى يوم وفاته مروراً بعباده، وأعياده، وأفراحه، وأتراحه، وأزماته النفسية، والروحية، وما يعتمل في ضميره. لا يجد سبيلا للتخفف من خطاياه وشكوكه غير أن يلوذ بركن يصلي فيه ويستغفر ويعترف للكاهن بما يشغل على قلبه من خطايا ومآثم اجترحها، طمعا بمغفرة الله. والكنيسة التي استقبلته وليدا وتلقته أول صرخه يدخل بها الحياة، هي التي تدعاه، يوم يموت، وتكفنه، وتستمطر على روحه شأبيب الرحمة، وتقوم على دفنه، وقبل ذلك كانت هي التي زوجته واجرت في حرمها مراسيم زفانته، وربطت

بينه وبين عروسه رباطها المقدس الذي تلعبه في حياة الناس. فتوجه، وترشد، وتدخل البيوت معزية، ومواسية، وهي تعلم ايضا، وتنشئ المدارس، وترعى شؤون الرعية، ويسدي رجالها النصح في امور العيش جميعا. وما اكثر الكنائس التي كانت، في المدن والقرى، موئلا لرجال المقاومة السرية أبان الحرب العالمية الثانية، وفي احلك سنوات الاحتلال النازي للاقطار الاوروبية.

ولا تنفك الكنيسة تستقبل ثورة الشائرين، ونقمة الناقمين، بمثل ما تستقبل به ايمان المؤمنين من هدوء وسكينة وثقة برسالتها، وتعاليمها. والذين يزورون أوروبا ويحسبون ان الدين أصبح فيها أثرا بعد عين، يخطئون، فما تزال الكنائس الكبيرة في العواصم الاوروبية تقوم كالقلاع وتحمل الميادين الكبيرة أسماها. وإذا اختلط الناقمون المتمردون بالمؤمنين المحافظين المتمسكين باهداب الدين في المدن الكبيرة، ففي المدن الصغيرة، وقرى الريف لا يزال الناس يلوذون بالكنيسة، ويضعون حياتهم، وقلوبهم، وضمانهم وایمانهم في ظل من ظلالتها، يبتغون رضاها، وتعنو جباههم لها، ويأثرون بأوامرها. ولهذا تشاهدها، في القرية الغنية الآهلة، والقرية الفقيرة الصغيرة، هكذا ناهضة مشرئبة: لها سطوة من يطاع ولا ترد له كلمة، والبيوت من حولها يلاصقنها ما استطاعت، وكأنما هي تأخذ بأهدابها، ولا تتباعد عنها الا مكرهة.

وكانت الشمس قد مالت الى المغيب، وأمسكت السماء ما بها، وانداح الغيم، وتفرق مرقا مبعثرة في فجاج الفضاء، وتخضب الافق، ودخلنا الارض الالمانية، وقد اختلطت في خيالنا صور من هاتيك البحيرات، والانهر، والسهول الموثقة، والجبال المريعة والقرى الجاثمة في بطن جبل أو حضن سهل.

وفيما كانت سيارتنا السياحية تدرج على أرض وطنها- ألمانيا- مستأنية مرة، مندفعه، نزقة، مرة أخرى. لاح في أفق نفسي ذلك الصراع الطويل، على منطقتي الالزاس واللورين، بين فرنسا وألمانيا. هذا العداء المستحكم الذي تولدت

عنه حروب، وما أكثر ما انتقلت المنطقتان إلى هذه الدولة مرة وإلى تلك مرة أخرى، نتيجة هذه الحروب الطاحنة، نصرنا لهذه وهزيمة لتلك.. وأصبح السكان على الأيام لا يدرون أهم فرنسيون حقاً، أم ألمان حقاً. إلا أنهم، على أي حال، أصبحوا يتكلمون اللغتين معاً. بل كان منهم أديباً اتخذوا اللغة الفرنسية، مثلاً، أداة لادبهم، بل قد أضيفت آثارهم إلى الأدب الفرنسي، وإذا ما استقرت أسماحهم وجدتها أسماء ألمانية خالصة. انتهى ذلك الزمان فيما أعتقد. الالتزام واللورين الآن في حوزة فرنسا، أرض فرنسية. ومع ذلك تلتقي اللغتان على هذه الأرض. تحدثت إلى مأمور الجوازات الألماني فأجابني بلغة فرنسية أصيلة. ومحدث إلى غييري بالألمانية.. وأحببت لو أعلم شعوره الداخلي، أحاسيسه الشخصي في قرارة نفسه: هل هو يعتبر نفسه فرنسياً أم ألمانيا، أم تراه يجد أن جانباً منه ألماني والجانب الآخر فرنسي. انهم مهما يكن من أمر، أناس مؤدبون، لا يستريبون فيك ولا يخطر لهم أن يفتشوك ويتحسسوك، وينبشوا حقائبك ومتاعك كأنك لص عريق أو مهرّب خطير.

كانت ميونيخ ما تزال بعيدة. لا بد من ثلاث ساعات طوال على الأقل لكي نصل إليها. قيل لنا سنكون فيها في الحادية عشرة مساءً، ولكننا دخلناها قبيل أن ينتصف الليل. وأنت إذ تدخل ميونيخ العتيقة هذه لا بد أن تذكر اتفاقيتها الشهيرة، في أيلول سنة ١٩٣٨، كانت الاتفاقية بين ألمانيا وبريطانيا وفرنسا وإيطاليا. وقد ارتضت بريطانيا وفرنسا ضم الأجزاء التي تقيم فيها كثرة المانية من السكان في إقليم «السوديت» إلى الرايخ الألماني الهتلري. كانت هذه بداية التراجعي مع هتلر. بعدها بقليل اجتاحت جيوش الفوهرر الحدود التشيكوسلوفاكية. وأطلقت الآلة الحربية الرهيبة برأس كرأس التتين لتشعل نار الحرب العالمية الثانية وتلتهم الاقطار الأوروبية واحداً بعد الآخر..

لم تكن تلك الحرب صراعاً بين معسكرين، ونظامين، وحسب. كانت هنا

الاطماع الاستعمارية، كما كان الشأن دائما في حروب العصر الحديث. هتلر يريد تحقيق ما كان يسميه «المجال الحيوي» لألمانيا. كان كأنه يريد أن يدخل شريكا في المائدة الدسمة، العامرة بخيرات الاستعمار.. حاولوا أن يسترضوه بشيء ما، ببعض فتات المائدة الشهية، كان هو ما بدا تراخيا منهم، غير أن هتلر كان قد خطط لما يريد منذ بعيد. انه يريد المائدة كلها، أو معظمها على الأقل، بكل ما في ذلك من لذائذ وأطياب، لا مجرد أن يكون شريكا، يحظ ما، فيها.. كان قد صم أن يترك لهم الفتات، ولألف سنة مقبلة لو صحت الاحلام.

هذا كله أصبح الان بعض ذكريات التاريخ. وتغيرت الدنيا الى ما هو أشد ايغالا في التسلط، واملاء ارادة الكبار على الصغار. حتى ظلال القيم الانسانية والخلقية لم يبق منها شيء سوى اتخاذها شعارا كاذبا لا تكاد تجد يدك تنحيه قليلا حتى تبدو لك الحقيقة الذميمة. تلك القيم الرفيعة أبقاها الكبار الهيات يتلهى بها أولئك الصغار: لا بد للصغير من لعبة جميلة تنسيه حاله وواقعه.. تماما كما يكون الامر في عالم الاطفال. يقف الكبار الراشدون من بعيد يحشون الصغار على اللعب، ويقدمون لهم المزيد من أدوات العبث واللهو.. ولكن الكبار ينسون أهم ما في الموضوع، ينسون الحقيقة البيولوجية: سيكبر الصغير ويصبح له ظفر وناب وعضل متين... .

بهذه الخواطر دخلنا مدينة ميونخ قبيل منتصف الليل.

قبل أن تنفزع زاوية الانحراف

-١٤-

حتى بعد منتصف الليل تستطيع في ميونيخ أن تجد ما تريد.

هل تدعوك الحاجة أن تستبدل بعملتك عملة أخرى، المارك مثلاً؟ هذا ميسور ولا ريب. في المحطة بنك يقدم لك هذه الخدمة لقاء عمولة بسيطة. وفي كثير من المودة واللف والابتسام، فأنت زائر، أو سائح، وستنق هذه الماركات وكثيرا غيرها، هناك.

وأنت أهل لكي تسر لك الأمور، حتى ما كان صعباً منها، سيارات الأجرة تنتظر إشارة منك، البريد مستعد أن يتلقى رسالتك أو برقيتك، كل الليل أو كل النهار، وفي أيام السبت والأحد التي تتعطل فيها الأعمال وتغلق المتاجر والدوائر والمكاتب، عليك بـ «المحطة دائماً»، المكان رحيب ونظيف ومنظم، والكل في خدمتك بأدب ولطف.

لا بد للبلد السياحي أن يفعل هذا، البلد السياحي كالتاجر الناجح الذي يعرف كيف يرضي زبائنه. الكثير ينبغي أن نتعلمه في هذا المجال.. أصبحت السياحة فناً وصناعة لأنها تدر الأرباح بالملايين. وبلاد الله واسعة، وقد يفضل السائح بلداً، يجد فيه الراحة واليسر والعناية إنه إنسان مثلي ومثلك، وبالإضافة إلى هذا فهو «ذو مال» كما يقال في المدارس عند شرح الاسماء الخمسة. أم ترى

قد أنسيته.. أنستك ايها الاعيب الحياة.. وأفانيتها.. المهم أن لا ننسى ما
للسائح من حقوق في اعناقنا، حقوق يشتريها بحر ماله.. نحن بحاجة الى تفهم
البدهيّات أحيانا..



كان ابني، طالب الطب، في انتظارنا ببيته. مر زمن طويل دون أن نلقاه.
أصبح أبا في وقت مبكر، وقد عدنا بطفله معنا الى الاردن. لو تركناه هناك
لأصبح المانيا: أمه، والبشّة، والوسط، والمدرسة، ورفاق الطفولة، والحياة كلها
هناك كانت ستجعل منه غريبا عنا. في بضعة شهور استطاع أن يكتسب اللغة
العربية. ثم العادات والتقاليد والخس والانتماء العميق الى تربة الوطن، هذه كلها
أخذت تتأصل في كيانه الصغير على مهل. يقف اليوم شامخا، مندفع
الصدر، ويهتف: «أنا عربي» هذا هو الوضع الصحيح.

وتصحيح الاوضاع ذو أهمية خاصة في حياتنا، وإزالة الخطأ، وربما أخطاء
كثيرة، وإعادة الاشياء الى أوضاعها الصحيحة مما يجب أن يكون مشار اهتمام
الفرد والجماعة على حد سواء. الانحراف يحدث وريدا، دون أن ننبه أحيانا،
على الأيام بتسلل الى كل شيء. ولكن لا بد أن يظهر، أو تظهر مغبته، أو على
الأقل اثاره. المهم هو المبادرة الى تصحيح الوضع الطبيعي، الوضع الطبيعي
الصحيح والآخر غير الصحيح. قد يحتاج الامر الى جرأة. ولم لا؟ ولكن قبل
الجرأة الارادة وقبل الارادة معرفة ما نريد على وجه الصحة. غيرنا نهض من بين
الركام وعاد فأنشأ الحياة. كان الأمر أكثر وأبعد من مجرد تصحيح خطأ.



المانيا هذه التي نزورها نهضت وهي تحت أكفان الموت، من بين الخراب
والدمار قامت، وشرعت في عملية الازالة، والغسل والتنظيف، والبناء من بعد،

بسرعة، بقوة وعزيمة. وأشق من هذا إعادة بناء الانسان الالمانى الجديد. التراث العريق وحده لا يكفي. هناك آفاق المستقبل. حسب الالتفات الى الماضي أن يشعر المرء أن له جذورا عميقة في أرضه. وأنه شارك، ذات يوم، في بناء الحضارة الانسانية. من هذا يستمد دافعا وحافزا. ثم الآفاق العريضة بعد ذلك. للتطلع من خلال الحاضر وآلامه ومحنه، بل وكوارثه أيضا، الى المستقبل. والدنيا وأهلها يغذون السير، دون وناء أبدا، الى أمام. التصارع غدا سمة العصر. الانجازات الرائعة التي تتم في أيام لم يكن يتم بعضها - فيما سبق - في السنين الطوال.

والدنيا لا تقف في انتظار أحد، ولا تعباً بالملتكئين، واللاهئين، أو الهاجعين، والنايمين سعداء بقطيعة مستديم.. كل شيء بحساب في هذا البلد الأوروبي الذي تزوره، خصوصا الزمن. للدقيقة وأجزائها حساب، ما ثمة متسع للتسكع، ما ثمة مجال لاضاعة أيسر الوقت. أسبوع العمل الجاد، الدائب، المنتج الى أبعد حد: خمسة أيام لا وناء فيها أبدا. ثم لك يومان لكي تستريح. والراحة ليست نوما في أحضان الكسل والفراش طيلة النهار. انها راحة ناشطة هي الأخرى. انهم يضادرون منازلهم بل والمدينة، الى أحضان الريف، الى البحيرات، وضافا لانهر ربما الى مدن أخرى. المهم هو تغير الجو، وتغيير المناظر المألوفة وممارسة الحياة بشكل آخر جميل، وممتع، ومنطلق، وهم ينصبون خيامهم في رحاب الريف، ويقومونها قريبة من انهر وبحيرات. دخل الفرد يتيح له ذلك. ويتيح له أن تكون له سيارة، في أحيان كثيرة تكون معها، ومرتبطة بها ناقلة فيها كل ما تطيب به الحياة من مكان للنوم، ولاعداد الطعام، والاستحمام أيضا، ودخل الفرد يبيح له أيضا أن ينفق عن سعة في يومي عطلته الاسبوعية- السبت والاحد- وفي اجازته السنوية التي ربما قضاها سائحا متنقلا في غير بلاده، انها سعادة وهي حق للفرد في عتق المجتمع.

الست ترى كيف هيئت له جميع الاسباب ليكون سعيداً؟ هذه الطرقات الحديثة التي تمتد مئات الكيلو مترات، وآلافها في البلد نفسه، ثم عبره الى أقطار أخرى. هذه «الاورستادات» الهائلة. كم كلفت من الملايين؟ شبكة ضخمة يرتبط بها قطر بعد قطر. وفي سبيل انشائها شقت الجبال، وشيدت الانفاق، وأقيمت الجسور الضخمة من فوق الوديان، والمهاوي السحيقة.

ذرعنا الوف الكيلو مترات عبر هذه الطرقات العجيبة وهرعنا الى الريف، والقرى الجميلة، والأنهر والبحيرات. ولكن لهذا حديثاً آخر.

بھیرات میونخ و البجج الابيض

-۱۵-

بدأت اقامتنا في أواسط شهر تموز. ومع ذلك فقد أريدت الافاق وانتشر الغيم الاسود في فجاج السماء، وابترد الجو، ثم هطل المطر، غزيرا ثقيلا، متواصلا، وكان يصقع نوافذ شقتنا العالية بمثل السياط، وكانت الرعود تنفجر وتدوي وتهدر، وتومض البروق كأنها ألسنة الشياطين، ثم يزداد المطر انصبابا وتزداد الريح عصفا، وقلنا: هذا في إبان الصيف، فكيف يكون الأمر في الشتاء؟

وقد لزمنا شقة سكننا أياما ثلاثة، ثم صفا الجو، واعتدل، وانдах الغيم، واقلعت السماء، وضحكت الشمس، وخرجت ميونخ وقد اغتسلت وتالقت، ورف ورق الشجر أخضر مزهوا تلاعبه النسما، وتنفع من خلاله أنفاسا لا تلبث أن تنشر محملة بالطيب.

« الحديقة الانجليزية » في ميونخ تدخلها مبهورا بجمالها، ولكنك اذا أوغلت فيها ضعت، واختلطت عليك السبل، فلا يخرجك منها الا خبير. وهكذا، في كل عاصمة أوروبية، أمثال لهذه الحديقة تنقلك الى الريف ساعة أو ساعات. وفي وسعك أن تنسى فيها صخب البلد الكبير، وضجيجهِ واندفاع الناس في ارجائه فلا يكاد أحدهم يتلأأ أو يتمهل، أو يقف برهة ليلتقط أنفاسه.

وميونخ مدينة قديمة ككل مدن المانيا وأوروبا، وقد أصابها من خراب ودمار

الحرب الشيء الكثير ولكنها استطاعت أن تنهض، وتحول الانقراض بناءً عالياً.
هذه التي تحدثك عن الإرادة، والنهوض السريع، وتضميد الجراح العميقة بيد،
والبناء والتعمير وإنشاء الحياة بيد أخرى.

أصبحت تحت تصرفنا الآن سيارة ولدنا طالب الطب. سيارة واسعة تتمتع لنا
جميعاً، وما كانت رؤية العواصم والمدن الكبيرة هي التي تهمننا في الدرجة
الأولى. وإنما نحن نريد أن نرى الطبيعة وسهولها وجبالها وحقولها وأنهارها
وبحيراتها، وهذه السيارة ستسهل لنا هذا كله، فلتنخذها إذن مطية لنا ولننزع
بها الآفاق.

وأنت إذا لم تجد في ميونخ العتيقة أكثر أو أفضل أو أدعى إلى إثارة
الفضول مما وجدته في العواصم والمدن الكبيرة الأخرى، فأنك واجد حولها وعلى
مسافات تتفاوت بين الخمسين كيلو متراً أو الستين أو حتى الثلاثين والعشرين
عدداً من البحيرات لا يكاد يكون له شبهة في غير سويسرا، وأنك لتقطع المسافة
بين المدينة وموقع البحيرة، فلا تمر إلا بقرى زاهية كأنها باقات الزهور، ولا تجد
غير الورد والشجر والأرض الخضراء المونقة والسفوح التي يكسوها مخمل العشب
ومطارف الزهر.

يخيل إلي أن الأرض كلها فيما بين الاقطار الأوروبية حديقة واحدة متصلة
الأسباب، عينك لا تقع أبداً على جبل قاحل أجرد أو حجر أصم لا يكسوه عشب
ولم تزدهر فوقه نبتة، والشجر بقاماته الرشيقة العالية حشد من صفوف لا يكاد
يحيط بها النظر، قلاً الجبل والسهل وتحف بالأنهر والبحيرات.

ترددنا على البحيرات حول ميونخ مرات. كانت القرى تبهر نفوسنا. الريف،
هناك، سعيد حقاً، يتمنى المرء أن يقيم في هاتيك القرى لا يبرحها أبداً. كل شيء
يضحك لك: المنازل الصغيرة وشرفاتها، ونوافذها، وعيون الزهر المظلة منها،

وجمال النساء، ورشاقتهن، وأدب الرجال، والنظافة الباهرة حيثما درت ببصرك، كل ذلك يريح اعصابك، ويفسرك بالسعادة.. وينعقد لسانك من الاعجاب والانبهار اذ تقف قريبا من شاطئ بحيرة وترسل بصرك فوق صفحة مائها فلا يرده غير كتلة جبل بعيد يلفه الضباب ويحتضن البحيرة، وكثيرا ما كان يختلط علينا الامر ونسأله: أتللك طيور رشيقة تسبح فوق الماء، أم زوارق من كل لون وطراز هي التي تحملها الريح في كل متجه، أو تسيرها آلاتها الى حيث نريد ركابها من نساء ورجال وصبية صغار يجدون فوق صفحة الماء أكبر السعادة، وأجمل الانطلاق من أسر المدينة الكبيرة وصخبها وضوضائها والسعي المستمر الذي يأكل عمر الانسان ويقتال حياته..

كنا نسير الساعات الطوال فوق ضفاف البحيرات.. أو نجلس في مقهى قريب من الماء، نرقب البجع الابيض باعناقه الطويلة ذات الانحناءات والالتواءات. ما أشبه البجعة يزورق يشق الماء. رجلاها مجذافان بارعان ربما صنعت المجاذيف على مثالها، والبجعة مزهوة بنفسها، وتبدو لك ذات كبرياء. جماعتها لا تخشى الانسان هناك، لأن الانسان يرعاها، ويترك لها كامل حريتها.

وكذلك بط الماء ما أكثره على ضفاف البحيرات، لا يفكر أحد في اصطاده. حدثني صديق عن زائر- من بلاد الله- شاهد البط على ضفة بحيرة سويسرية، فخلع حذاءه، نزل في الماء، واحتمل حتى قبض على بطة هرع بها الى الفندق الاتيق باعتزاز الصياد المغوار وقال: اطبخوها لي. اطبخوها لي... .

ذكرتني البجعيات برقصة البجع الشهيرة. انها من نوع الباليه الجميل. شاهدت شيئا يشبهها في باريس ذات يوم. ولكن رقصة البجع للراقصة العظيمة «ايزادورا دونكان» كانت هي آية هذا الفن الرفيع. ومأساة هذه الراقصة العالمية ما تزال عالقة في الازمان علوق رقصتها في التصوير والافكار: كان ذلك في العشرينات من هذا القرن وكانت في سيارتها المنطلقة، وقد لفت عنقها بورشاح

حريري، ومرت سيارة أخرى في الاتجاه المضاد فعلق بها الرشاح، واختفت الراقصة بلحظة واحدة.. ما أشبه موتها بموت البجعة التي كانت تصورها في رقصتها الشهيرة. ماتت وهي في قمة مجدها الفني. لم تشخ، ولم يقعدا العجز وأوصاب الشيخوخة. ولم تتح لها غدرات الأيام أن تأسى على ما فات.. إيماضة خاطفة تألفت في سماء غائمة ثم انطفأت. اشعاع شقت اسداف الظلام ثم خبت.. ربما كان الاكرم للفنان أن يختفي في الوقت الملائم، أو يعتزل. لا أقصد أن يموت. وإنما أقصد أن يبقى عطره، وأشعاعه، وصورة من فنه في القلوب. هذا ما فعلته غريتا غاريو أعظم ممثلات السينما. في أوائل الاربعينات، اعتزلت السينما، واختفت، واسدلت على وجهها حجابا. لا تريد أن يراها أحد. أبقت ملامح جمالها الاخاذ، وفنها الرفيع في مخيلات الملايين. انهم الآن لا يعرفونها الا جميلة ساحرة الجمال، والا ممثلة عظيمة القدر والافتنان.. وماذا كان يفيدها ان تشيخ وتقل التجاعيد وجهها، الا أن تضيف صورة الشيخوخة العاجزة، الشائنة، الى صورة جمالها المتضوي، فتختلط الصورتان، ولا يعود لها في الاذهان والمخيلات ذلك الالتحاق اذ هي حسناء، غداء، ذات سحر وافتتان؟

وما دمنا في سبيل الحديث عن الفن فان الالمان، في رأيي، أرياب ابداع عبقري في الموسيقى. أما النحت، والرسم، فما هما من مميزاتهم أو خصائص عبقريتهم. كل ما شاهدته في ميونخ يؤكد هذا الرأي. فما على تمثال، مما رأيت، مسحة من فن عريق، وما في لوحة رسم اشعاع أصالة تنطق بالتفرد والالهام العفوي الباهر الذي تجده في منجزات الفرنسيين مثلا.

حتى العمارة، فيما شاهدت من تصور قديمة، لا تحمل غير طابع التجهم، وانها لتبدو لك كتلة رابضة، راسخة، مكينة، تلقي في قلبك الرهبة أكثر مماثير مشاعر الفن الأنيق.

وهذا لا يضيرهم، بالطبع، فهم ذوو نبوغ في العلوم، وذوو اقتدار في

الفلسفة، وباعهم في هذين المجالين طويل، بل ربما كانوا، فيهما، اساتذة أوروبا نفسها.

هذه خواطر شخصية، وقد يكون لغيري نظرات أصدق وأصح. الا اني، في هذا السياق، لا انسى أنهم، أيضا، أصحاب فن عسكري وعناد، وعنزة، وتصميم، وكبرياء، وتربية صارمة. وقد كان لهذا كله، في العالم دوي أي دوي.. كما تعلم.

فيلسوف مجنون يحلم بالانسان الاعلى

-١٦-

وفيما كانت السيارة منطلقة بنا الى مدينة نورنبرغ التي جرت فيها محاكمات زعماء النازي في أعقاب الحرب العالمية الثانية كنت لا أكاد أفرق بين عبقرية ألمانيا العسكرية، وبين ملامح من الفلسفة الالمانية.

أتري أن احدهما قامت على أساس الاخرى؟

وظل السؤال يلح على خاطري، وهو سؤال طرحه، قبلي الكثيرون. وأجابوا عنه مختلف الاجابات. بل كان ثمة من قال ان بين الموسيقي الالمانى «فاغنر» والفلسفة الالمانية أسبابا ورشائج.

وأحب أن أكون واضحا فأقول، ان أقرب فلسفات القوة والدعوة اليها انما تتمثل في فلسفة «نيتشه» صاحب كتابي « هكذا تحدث زرادسترا » و « هذا رجل » وغيرهما. وأنا قارىء فلسفة أحيانا، ولا شيء غير هذا، ولا أدري كيف أغرمت بفلسفة نيتشه في صدر شبابي، حتى بلغ اقبالي عليها اني رحت أتلمس هنا وهناك، ما كتبه الكاتبون عن حياته وفلسفته، ومن جملة ما قرأت كتاب لكاتب السير والتراجم النمساوي المعروف «ستيفن زفايغ».

كتاب صغير ولكنه متفجر الاسلوب، مدوي العبارة كأنما قد كتبه نيتشه نفسه..

في نيتشه جانب من الشعر كبير ولا ريب. أسلوبه يشهد بذلك. على الاخص في «هذا رجل» فهو يكاد يكون شعرا خالصا، ولست هنا بسبيل أن أكتب مقالا في الفلسفة، ولكن نيتشه هو صاحب الدعوة الى «الانسان الاعلى»، والانسان الاعلى لنيتشه عجيب غريب. فهو قوي في بدنه، وفي عقله، وفي ارادته، وهو يرى عواطف الرحمة، والشفقة، والحنان والرقّة، والدمائة، والوداعة، وكل هذه المشاعر الانسانية اللطيفة لا تليق بالانسان الاعلى لانها ترمز الى الضعف، والاستكانة، وقيت العزيمة، وتقضي على الطمّرح، وتوهن الارادة.. والانسان الاعلى الذي يحلم به نيتشه انما يعيش دائما في خطر، وتدفعه ارادة القوة الى التفوق حتى على ذاته. أليس هو القائل: «ابنوا بيوتكم على حافات البراكين»؟ فكيف يمكن أن يكون ثمة توفيق بين هذه الدعوة الهادئة المخيفة وبين مختلف عواطف الانسان الرقيقة، ومعنى آخر: هل من سبيل الى الجمع بين الشيء وتقويضه، بين القوة- في أعلى ما يتصورها- وبين الضعف في أدنى ما يراه؟ كلا، فما ثمة من سبيل، وليذهب الى الشيطان كل ما ينم على ضعف في الانمان.. والارجع أنها دعوة موجهة الى الانمان الالمانى، ودعوة ملحة، طاغية، الى ضرورة تفوقه واستعلائه بالجسم والعقل معا.. ولهذا قيل إن هذه الدعوة المغلفة بغلاف الفلسفة قد اتخذت سبيلا الى عقول العسكريين، فافتتروا بها وأرادوا أن يحققوا مضمونها في أكثر من حرب واحدة، انتهت بالحرب العالمية الثانية وبمفهوم هتلر لفلسفة نيتشه. وربما كان نيتشه بريئا من التفسير العسكري لفلسفته. غير أن البذرة اذا أُلقيت في التربة المؤاتية عاشت، ونمت، واستقوت واستطالت وآتت أكلها، وهذا ما كان، بغض النظر عن النتائج والغايات..

على أي حال ربما كان الانسان الاعلى الذي دعا اليه وتنبأ به نيتشه هو انسان المستقبل. وربما بدت مقدماته في أيماننا. انه عقل وفكر وارادة قبل كل شيء. علوم العصر وتكنولوجياه تبشر به. أهو انسان نيتشه حقا؟ ربما، من يدري؟ غير أنه سيكون، على الأرجح، صورة معدلة عنه، مصقولة، وأكثر اشراقا،

وبعيدة عن أية نزعة عنصرية، وغير مجردة من أبهى ما في الانسان من العواطف
والمشاعر الكريمة.

انا في طريقنا الى نورنبرغ، مدينة محاكمة زعماء النازي في أعقاب الحرب
العالمية الثانية.. وهذه الخواطر تدور في ذهني، وتختلط بغيرها، وتبدو لي المرأة
الالمانية في غير الصورة التي استقرت في خاطري عنها قبل الحرب الثانية. انها
منطلقة الآن. أتراها لم تعد ربة البيت المثالية التي عرفناها من خلال ما قرأنا
وسمعا يبدو أن التيار جرفها. تيار القلق الذي يسيطر على النفوس في أوروبا.
وربما كانت أحق من غيرها ان تشكر لعالم ما قبل الحرب. وهل ترى اكتوت امرأة
بنار هذه الحرب بما اكتوت به المرأة الألمانية؟ وعندما تهتز القيم وترتج كيف تنجو
هي، بل كيف لا تكون الاشد تعرضا لهذا الارتجاج؟ والمستقبل؟ انه أشد هولا من
كل ما مضى. في هذا عذر كبير لكل ما تراه العين في أوروبا من شذوذ وانحراف
وتحطيم لقيم سابقة، ربما قامت على الكذب، والنفاق، واستغلال الناس زمنا
طويلا..

وتعود الصور والخواطر يتداخل بعضها في بعض في ذهني. وأرى نيتشه في
بهرة خيالي مسكينا، تاعسا، مريضا، محطما الاعصاب، يبحث عن أسبر
السعادة في ركن من مقهى يشرب فيه كوبا من جعة، ويستمتع الى الحن موسيقى
جميل. وأراه يحسب نفسه أسعد الناس أن تتاح له فرصة الارتحال الى مناطق
الدفء والشمس في ايطاليا أو جنوب فرنسا. وأراه أخيرا قد جن ومات مجنونا
مخلقا وراءه مخطوطات كثيرة لم يقدر لها النشر إلا بعد وفاته: هذا الانسان
المريض المجنون، هو صاحب فلسفة القوة والحالم بالانسان الأعلى... وابتسم. انه
مع ذلك ، عندما يصنفونه في قائمة الفلاسفة المتشائمين. وهو في حقيقة امره
تشده أقوى الاسباب الى أستاذه، ومواطنه الفيلسوف «شوننهور»، شيخ
المتشائمين وأكثر الفلاسفة اربادا تفكير.

ولكن لا بد أن ندع فلسفة القوة والانسان الاعلى، والعالم ارادة، وقد قلت لك أنني قارىء فلسفة أحيانا لا أكثر ولا أقل، وقد أخطئ وأصيب. وهذه هي نورينبرغ تبدو لنا ملامحها، وقيل أن ألفت بانظاري إليها أحس في نفسي بما يشبه الهمس، في تساؤل لا أدري مؤداه، أهو استنكار، أهو تعجب، أم تراه هو السؤال والجواب معا: ألم يكن شونهور عدو المرأة اللدود، حتى كان الكلب أفضل منزلة منها في نفسه، ألم يكن مريده نيتشه عدوا للمرأة كذلك؟ ومن ترى يبلغ به بغض المرأة والزراية بها هذا الحد؟ الاسوياء، الاصحاء بدنا وعقلا لا يفعلون ذلك، وويل للناس من فلسفة غير الاسوياء، وغير الاصحاء...

وأخيرا هذه هي نورينبرغ. هنا حوكم زعماء النازي وحكم عليهم بالاعدام فانتحر من استطاع الى الانتحار سبيلا، ونفذ حكم الاعدام بأخرين، وسجن سجننا مؤيدا واحد فقط، لا يزال الى اليوم رهين المعاييس: رودلف هس. قلعة بأسرها وجيش من الحرس، والجند يقومون على حراسة رجل يسير الى قبره، وقد علت به السن حتى غدا حطاما بشريا لا يشير غير مشاعر الرثاء، والعجب أن تحشد لحراسته كل هذه الحشود.

المدينة عتيقة، ورحيبة، ونظيفة، وأناسها مهذبون. مظاهرة طلاب وشبان كانت أول ما رأينا، تغلب عليها البوليس، واستطاع أن يحصر المتظاهرين، ويضرب من حولهم نطاقا. لم نعلم السبب، ولكن عندما غادرنا المدينة، عصر ذلك اليوم، كان البوليس قد استراح وفرق المظاهرة. في نورينبرغ قد تجدد من يدلك على أماكن قيل أن اليهود عذبوا فيها أيام الحكم النازي، وأن أثار التعذيب باقية حتى اليوم... غير أنك تشيع بوجهك مترفعا، وتتساءل: لو امكن أن يزور الزائر محاييس اسرائيل ويرى المعذبين من ابنائنا واخواننا هناك: ألف جدار وألف زنزانة وألف نافذة ستحدثه عن أثار تعذيبهم والتككيل بهم.

استطعنا أن نتجول في المدينة ساعات، ورأينا قديمها وحديثها، وإبراجا

وكنائس أثرية فيها ، وحدائقها المنسقة ، انها كأية مدينة أوروبية ، لولا شهرتها بسبب المحاكمات التي جرت فيها . ليت الضمير الغربي يستفيق ويدرك أن مثل هذه المحاكمات أولى بها زعماء العصابات الذين يستولون على أوطان الآخرين ، ويشردون أهلها ، ويغتصبون ثرواتها وخيراتها ، ويجترحون من المظالم ويصطنعون ثرواتها وخيراتها ، ويجترحون من المظالم ويصطنعون من ألوان التعذيب وضرويه ما لا يكاد ما اجترحه النازيون أن يكون شيئا مذكورا .

ملاحج من فينا

من مفااتن «فينا» الى رحلة الهبوط

على القمر

-١٧-

لا بد من زيارة النمسا، يجب أن نعيش أياما في «فينا» واذا أمكن بعض المدن الاخرى. ستكون هذه هي المرة الثانية التي أزور فيها العاصمة النمساوية. بضعة أيام فقط ثم نعود الى ميونيخ، والمسافة الى فيينا ليست طويلة. والسفر على تلك الطرق نزهة ومتعة. وقد وصلنا الى فيينا في يوم قانظ، وفي الوقت الذي يخرج فيه الموظفون من مكاتبهم، ويغلق أصحاب المتاجر دكاكينهم، ويهرعون الى بيوتهم أو الى المقاهي والبارات. وهكذا أعطتنا فيينا من نفسها صورة مزعجة: الزحام شديد. والناس يتدافعون بالمناكب والسيارات صفوف بعضها وراء بعض لا تكاد تجد بينها فرجة تمر منها. والعرق يتقصد من الجباه غزيرا، ولا تكاد نسمة هواء واحدة ترطب الجو.

تعلمنا من أسفارنا أن نلجأ الى فنادق خارج عاصمة البلد الذي نزوره، وانك لتجد الفندق المريح التنظيف والخدمة الممتازة في قرى الريف القريبة التي تبعد عن العاصمة ستة أو سبعة كيلو مترات، وانت الرابع، لأن هذا يوفر عليك ٥٠ في المئة، على الاقل، من أجور فنادق العاصمة، وأنت الرابع مرة أخرى أن تخلد الى الراحة والنوم الهنيء، في احضان الغابات أو على ضفاف البحيرات.

في الايام القليلة التي أنفقناها في فيينا استطعنا أن نشاهد حدائقها

الانيقة، وقماثيل أباطرة، وملوك، وعباقرة موسيقى تنهض في قلب هذه الحداثق الجميلة. والكاتدرائية هناك ذات فن معماري رائع بأبراجها وجرسياتها وأقواسها وحنايها، هي في بعض ذلك كأنها من المخزومات الدقيقة التي تقفن بصنعها أمهر المطرزات. وانك لترى مشابه من هذا حتى في دار الاوبرا. ولفيينا، في الموسيقى ودنيا الانغام والاحان، تاريخ فذ لا يكاد يكون له من نديد. وإذا استمعت يوما الى أعذب وأبدع الحان الفالس فاعلم انها ان لم تكن آتية من فيينا، فهي على الاقل متأثرة بها وأخذة من نبيعها ومنهلها. وهل تراك نسيت «الفالس الكبير» لشتراوس؟ كانت الدنيا، دنيا ما قبل الحرب العالمية الاولى، اذا ما رقصت كان ذلك على أنغام فيينا. تلك كانت أيام عز باذخ وامبراطورية شامخة، وصالونات وأبهاء وقصور كأنها هي صنع جن لا إنس.. يضيئها جمال الاميرات والغواني المشرفات، يرقصن على أصداء هاتيك الانغام في أحضان قواد وضباط الامبراطورية وشبانها المفتونين.. لم يبق من هاتيك الايام الخوالي غير عطرها، غدت النمسا، اليوم، دولة صغيرة. ليس وراها غير امجاد الماضي. والمستقبل؟ بيد الله كما قال فكتور هوغو لنابليون. حسبها انها ضمدت جراحاتها، وحسبها هذا الهدوء الذي تنعم، في ظلاله، بحياة لا عسر فيها. الملايين من السياح الذين غصت بهم ارجاؤها يحملون اليها ما يزيد حياتها رغدا، وفي مطعم قصر «شامبرون» الفاخر لم نجد مائدة لنا الا بمشقة. السياح الاميركان، الالمان احتلوا كل شبر. وجبة الغداء هذه كلفتنا مبلغا طائلا. ثم جئنا خلال القصر وابهائه. هنا عاش ابن نابليون، النسر الصغير. وهنا ذاق مذلة اليتيم. جده امبراطور النمسا رغم حبه اياه وحده عليه، لم يستطيع، مع الآخرين، الا أن يعمل على محو كل شيء في نفسه يتعلق بهوالده. وانصرفت أمه الغادرة الى أحضان عاشيقها. فترة مؤسمة حقا في تاريخ الفاتح الكورسيكي. وما أكثر النصال التي تكسر بعضها فوق بعض في قلبه بعد أن هوى من قمة مجده. وأفل نجمه.

شامبرون بحدائقه، وقماثيله، وبركه، صورة مصغرة وأنيقة عن «فرسايل»

قرب باريس. كانت فيينا، وربما لا تزال، تقلد باريس، حتى رقة نسائها وغانياتها ما أشبهها بركة الباريسيات، وأناقتهن ونزقهن.

في وسعك أن تزور حديقة الحيوان قرب قصر شامبرون. زرافات ثلاث اعجبت بهن.. ذوات أعناق جميلة. لا أدري لماذا لم يخطر لأحد أن يشبه المرأة الجميلة ذات العنق المنصوص بالزرافة الرشيقة.. أوصيك إذا زرت تلك الحديقة أن تدخل قسم الأحياء المائية. ستجد نفسك أمام لوحات باهرة من ألوان هاتيك الأحياء ما دق منها وما كبر. الطبيعة فنانة مبدعة ولا ريب. والا فكيف تأتي لها أن تصيغ هاتيك الأحياء بكل هذه الأصابع والشبكات، وكيف تأتي لها أن تبعد كل هذه الاشكال الهندسية من مخلوقات المياه حتى أدق الدقيق منها. لم يفعل الانسان شيئا غير أنه أوجد لها مستقرا يماثل بيئتها الاصلية. فرق ما بين الانسان الفنان، والطبيعة الفنانة: انها لا تنفك تكرر ذاتها الى ما لا نهاية، أما هو- الانسان الفنان- فإنه متجدد أبدا، وفنه يتجدد معه. نادرا ما يكرر صورة من فنه.

كانت المدينة الثانية التي زرتها هي «غرادس»، هنا تخف وطأة الزحام، وتتخذ الحياة لونا أقرب الى السكينة والهدوء. لا يزورها السياح الا العدد القليل منهم. ومع ذلك فهي مدينة رحيبة، تلقى فيها ما لقيته في فيينا من رقة، ودماثة، وأدب، الطبيعة منحولها تأخذ بلبك. في ضواحيها وجدنا فندقا في منتهى النظافة والخدمة الطيبة، في هذه المدينة انفقنا أياما ثلاثة، ارتاحت فيها أعصابنا من زحام فيينا وضوضائها وتدفق السياح في كل مكان فيها. في اليوم الثاني تناولنا طعام الغذاء في مطعم على رتبة عالية في إحدى ضواحيها. استغرقت جلستنا نحوا من ساعتين، وكان ما شاهدناه من قمة تلك البروة شيئا نادرا. كانت الطبيعة المحسنة قد زينت الافاق بكل مباهجها ومفاتيحها، بكل عشبها، وزهرها، وشجرها، وأغدقت الماء فوق النبات، وضحك الزهر، وغرد

الطير، واهتز الشجر من نضرة ورواء. الكثير من الصور، في هذه الرحلة، وأمحي من أذهاننا، الا هذه الصورة فما تزال عالقة بقلوبنا الى اليوم.

وكان قد آن أن نعود الى المانيا، الى ميونخ. ليلة وصولنا كانت المانيا مشغولة بأنباء نزول رجال الفضاء الاميركان على القمر لأول مرة. كل محطة تلفزيون اتخذت للأمر عدته. عدد من العلماء استدعوا الى كل محطة لكي يحدثوا الناس عن هذا الانجاز العظيم. كنا، في ميونخ، حائرين أي المحطتين نشاهد برنامجها. هنا علماء، وهناك علماء، وهنا أجهزة وهناك أجهزة، ويبد كل عالم مؤثر وحوله رسومات وخرائط فضاء، ويستمر العرض، والشرح والتفسير، ومتابعة الرحلة الفضائية الجبارة لحظة بعد لحظة. ويلي ذلك نقاش قصير بين العلماء، ثم يعود الشرح والتفسير. المهم أن تعيش الساعات الأخيرة وكأنك مع رجال الفضاء أنفسهم. وقد استطاع العلماء، في كل محطة، أن يوجدوا ملايين المشاهدين في جو هذه الرحلة، حتى لحظاتها الاخيرة، بأسلوب علمي رائع.

لا ادري الى أي حد يبلغ الاهتمام، في بلادنا العربية، بامثال هذه المنجزات العلمية، لا أدري الا اننا نسمع بأنبائها من الاذاعات، وعلى شاشات المحطات التلفزيونية نشاهد ما يكون حدث، بعد حدوثه، بأيام أو اسابيع. مجرد عرض بلا شرح، أو تبسيط المعلومات، أو إثارة الاهتمام بهذا الذي يحدث مما قد يكون له أكبر الأثر على حياة الانسان في مستقبل غير بعيد.

الواقع ان اهتماماتنا العلمية شاحبة، مهزوزة، ويعيد عن فكري أن يكون عندنا رجال فضاء، أو نقوم بإنجازات علمية في أي مجال، ولكن في الواسع أن تكون لنا اهتمامات علمية، ومتابعة للتطورات العلمية، وتفهم حسن لما يحدث. ان الطابع العام للثقافة، في هذا العصر، علمي. حتى الادب يتخذ صبغة علمية. لم يعد مجرد كلام جميل. الكثير من تخلفنا يعود الى هذا النقص المروع، وتنعكس منه بعد ذلك ظلال قاتمة ... وكثيرة حتى على أخص خصائص حياتنا

ووجودنا.

كنت أعتقد ان الجامعة، أية جامعة في أي بلد عربي، هي التي تنهض بهذا العبء، هي التي تخلق الجو العلمي، والثقافة العلمية، وهي التي تضيف هذه السمة على المجتمع، وكما انها حارسة الفكر والرأي، فهي التي تطور الثقافة العامة، بحيث تواكب روح العصر لا تتخلف عنه أبدا ان لم تسبقه الى آفاق جديدة .

بكل اخلاص اقول ان ميولي واتجاهاتي الشخصية كانت، في مراحل الدراسة، تسير في خط علمي لا ريب فيه، ثم لا ادري كيف انحرف الاتجاه الى الأدب. أنا واثق ان الذنب ليس ذنبي: البيئة، والوسط، والمدرسة، والثقافة السائدة هي المسؤولة. وما آسف لشيء أسفي لهذا التحول.

يخيل الي اننا ما نزال «متفوقين» داخل كهوف ضيقة ومظلمة، وما أشد حاجتنا الى ان نفتتح نوافذ عريضة على الدنيا المتطورة من حولنا بتسارع عجيب. أما من نسمة هواء وشعاع شمس تنير هذه الكهوف؟..

ملاح إيطالية

في الطريق الى المدينة التي أهرقت

«سافونارولا»

-١٨-

كنا نود أن نزور مدنا وأماكن أخرى في ألمانيا، فرانكفورت مثلاً، ويون، وحتى برلين الغربية. غير أنه لم يبق أماناً متسع من الوقت وفي برنامج رحلتنا أن نزور إيطاليا، فلا بد، إذن، من الرحيل.

أعددتنا كل شيء لكي نغادر ميونخ مع بزوغ الشمس. حتى وقود السيارة لرحلتنا كلها في إيطاليا استطعنا أن نؤمنه بـ «كوبونات» نحصل بموجبها على الوقود بأسعار مخفضة في أي مكان من إيطاليا.

هذه المئات من الكيلومترات التي منقطعها لتدخل البلاد الإيطالية من شمالها لن تشق علينا. فالطرق رحيبة والسيارات تنطلق في اتجاه واحد ذهاباً وإياباً. انها «الاتوسرادات» التي أنفقت مئات الملايين في صنعها. والواقع أن الرحلة فوق هذه الطرق ممتعة قائمة بذاتها. وانت، طيلة القوت، مشتبك بحوار مستمر مع الطريق.. لها لغة خاصة تحدثك بها هذا الحديث الصامت الجميل. كأنما هي تأخذ بيدك برفق ومودة. هل أنت تحتاج الى الهاتف لامر ما؟ انه أمامك على بعد بضعة كيلومترات. إشارات الطريق تنبهك اليه وكذلك على مكانه. وانك لواجده باستمرار بعد كل عشرين كيلومترا. ولعلك تريد أن تعرف أين أنت، والمسافة التي قطعتها، والمدن أو القرى التي ستمر بها. في الطريق من الاشارات

واللوحات ما يقدم لك هذه المعلومات بطريقة عين. أم تراك قد تعبت قليلا فأنت بحاجة الى بعض الراحة. حسن. هذه هي الطريق تقول لك ان امامك مكانا في وسعك أن تقبل اليه لتجد مقاعد وماء، وقطعة من العشب الاخضر. هذه الحديقة تجد مثلها بعد كل ثلاثين كيلومترا.. وتريد أن تنزود من الوقود وان تجلس في مقهى أنيق. الطريق تنبئك بما تريد، وترشدك الى محطة الوقود، والى المقهى المريح، هذا الحوار بينك وبين الطريق لا ينقطع أبدا. انك لا تشعر بالوحدة. ولا يخامرك الاحساس بأنك ربما انقطعت، أو اختلطت عليك السبل.

وتداخل في حوار الطريق حوار من داخل النفس. وتساءلت أكثر من مرة: ماذا تراني قرأت من الادب الالماني الحديث؟ القليل الذي لا يغني. أدب ما بعد الحرب العالمية الثانية لم أقرأ منه الا أوشالا. أكان ذلك اهصالا مني؟ أكان خطأ؟ أترى أن هذا الادب لم يبلغ من القوة والخصب بحيث يفرض نفسه على قارىء من غير الالمان؟ حتى «برتولت برخت» الكاتب المسرحي الكبير أديب ألماني مخضرم، انه ممن فروا من وجه النازية، اني أذكر له مسرحية «الjasوس» صورة رهيبة في ظل الحكم النازي. حتى الابن الصغير كان يتجسس على أمه وأبيه وينقل أخبارها الى الغستابو.

كنا في صدر الشباب، أنا وأبناء جيلي نحب شعر «غيت» ونعجب برأئته «فاوست» ونفهمهما على نحو ما، وكنا نقرأ شعر هاينه، وشيلر، غير أننا كنا في الوقت نفسه نقرأ شكسبير، ونقرأ راسين، وكورنيل، وموليير، كنا منصرفين الى الكلاسيكيين، والرومانسيين، ولما آن لنا أن نقرأ الادب الحديث، قرأنا لهذا الرعيل من الادباء الالمان الذين كان يتزعمهم «توماس مان». وأين اليوم، في الادب الالماني بعد الحرب العالمية الثانية، عمل أو أثر أدبي شامخ كـ «الجيل السحري» لتوماس مان؟ وأين في كتاب التراجم والسير من يشبه أو يداني «اميل لودفيغ» الذي كتب سيرة النيل، والبحر الابيض المتوسط، وكليوترة؟ لم

يكفه أن يعيد الى الحياة أشخاصا من التاريخ، فأعاد اليها حضارات ومدنيات، من النعمة التي لا تنفك تتردد في ثناياه. «الجليل السحري» فلسفة من الدرجة الاولى، فلسفة الذين يعيشون في الاعالي. عالم المصدورين، هو عالم التأمل في حياتهم وحياة الاخرين، معهم في الاعالي، أو تحتهم حيث يدب سائر الناس.

ومن التأمل تنبثق الفلسفة. على كثرة ما ترجم الى العربية لم يجرؤ قلم على نقل الجبل السحري الى لغتنا. كان أديبنا الكبير المرحوم عادل زعيتر خليقا بمثل هذه الترجمة، وقادرا عليها ولكن الآجال بيد الله.

صور كثيرة من هذا الادب الالماني في فترة ما بين الحربين العالميتين، تراءى لي، ولكن الطريق تلهيني، وحوارها لا ينفك يشغلني، هذه المروج، وتلك الجبال، والانهر، والبحيرات تتبدى لنا قريبة دانية حيناً، وبعيدة قاصية حيناً آخر وما أعجب تلاعب الظلال عليها ومن حولها فهي مضبنة متألقة من ناحية ومن أخرى تنتشر الظلال وتمتد الافياء، ويترأى لك العشب خضيلًا، قائما، وتأخذك الحيرة بين اشراق وعبوس، وترفع بصرك الى السماء فاذا حشود من السحب تزحف في فجاجها على هيئة ومهل. وانك لتدرك من اربادها وسواد حواشيتها انها جلى لن تلبث أن تريق ماها، والطريق تنحدر الآن انحداراً مروعا الى السهول الايطالية، وهي تحاذي جبال الالب الشاهقة، والنهر من تحتك لا ينفك يسير معك أو تسير أنت معه مسافة طويلة، ثم يختفي ليعود فيظهر مرة أخرى مثبتا وجوده، وما تزال السيارة تنحدر وتنحدر، رتضيقي الطريق، ويتجهّم وجه السماء، وتهولك جبال الالب، وتلوح لك، من بعض نواحيها، انها لفرط استقامتها جدار أملس أخضر اللون، ذاهب في السماء الى مالا نهاية.

ويقول ولدنا طالب الطب وهو يسوق السيارة حذرا متأنيا: عسى أن نبلغ السهل قبل أن قطرنا هذه السحب الدكناء وينتهي هذا الانحدار المخيف، وتدرج

السيارة في سهل أفصح، ويبدأ المطر رذاذاً ثم ينهمر. ماذا؟ بل هو ينصب انصباباً، ما رأيت في حياتي قط مثل هذا الانفجار الغاضب. وقال ولدنا: لا خوف علينا ما دمنا في رحاب هذا السهل، وقلت أنا: بل هناك كل الخوف. ألسنت ترى السماء لا تمطر بل تضرب بمائها وترشق بسهامها، وتصب وابلها حتى لتكاد تغرقنا؟ مل بنا إلى تلك السقيفة نلوذ بها إلى أن تهدأ ثورة الطبيعة. ومال بنا إلى سقيفة مصنع للسيارات فاحتمينا بها ساعة كاملة، ووجدنا من دماثة أصحابها ومردتهم ما أنسانا ذلك الخوف الذي ملأ قلوبنا. وعاد المطر فأصبح رذاذاً، وانطلقت بنا السيارة ثانية، وعلى الرغم من شدة المطر وتدفق المياه، فقد كان الجو دافئاً وما هي إلا أن ابتلعت الأرض هذه المياه جميعاً، وتفرق القيم وذهب أباديذ ممزقة، وسطعت الشمس ضاحكة مشرقة، كأنما كانت في حفل من زينتها ويهرجها.

نحن الآن في الأرض الإيطالية. وقفنا عند الحدود هنيهة. كان السؤال الوحيد الذي وجه إلينا هو: «هل معكم سجناء أجنبية؟» قلنا: «لا» قالوا: «سيروا اذن». وانطلقنا دون أن يفتشنا أو يستريب بنا أحد. هذا يشعر بأن لك كرامة، وبين أن تكون مشبوهاً وغير مشبوه بعد كبير ليس من السهل تجاوزه. ورحم الله بلادا كل من يمر بها أو يزورها مشبوه، وكاذب، ومحتال، وموضع ريبة على كل حال.

القرى والمدن الإيطالية الصغيرة التي يمر بها السائح نظيفة وجميلة، وأهلها يتكلمون الألمانية إلى جانب لغتهم. أما دورهم ومبانيهم ففيها مشابه واضحة من الأسلوب الماني. حتى إذا ابتعدت عن هذا الشمال الإيطالي، اختلف الأمر فأخذت تطالعك ملامح الحياة الإيطالية اللاتينية الخالصة. ربما كانت أقرب إلى مزاجك وأوثق صلة بعاداتك وتقاليده. كانت وجهتنا مدينة «فراره» القديمة. ولدنا طالب الصيدلة هناك في انتظارنا. وكل ما في خاطري من تلك المدينة

العتيقة هو أنها مستط رأس الواعظ الراهب الديني «جيروم سافونا رولا». كان في زمانه- القرن الخامس عشر- أحد دعاة الديمقراطية في مصالحة بين الحق الالهي في الحكم والحق الديمقراطي وان له لمواعظ وخطبا يحفظها التاريخ، أحنقت عليه حكام عصره في فلورنسا فاتهموه بالهرطقة وحكموا عليه بالحرق فأحرق.

لما دخلنا فراره وقعت عيني أول ما وقعت علم،؟ تمثال لهذا الراهب الدومنيكاني المصلح الثائر، في أحد ميادين المدينة: في عصر أحرقوه، وفي غيره أقاموا له تمثالا كأنما هو تكفير إثم.

من القصر الماسي الى شواطئ الادرياتيک

-١٩-

فرارة مدينة عتيقة جدا، ربما لا يزيد عدد سكانها على مئة وخمسين الفا. غير أن لها جامعة عريقة، ومتاجر وصناعة، وفيها اثار ما تزال باقية من عصر الاقطاع. وسكانها أناس طيبون، فيهم دماثة، ورقة، ولطف، ومبادرة جميلة الى تقديم العون والمساعدة.

زرنا قصر الحاكم الاقطاعي، لا تزال على ما كان عليه تلك الايام الخوالي. حتى الخندق الذي يحف به ويظل ممتلئا بالمياه لكي يعزله عن المهاجمين، اذا وقع هجوم، موجود هو الآخر كما كان في العهد الفابرة.

انه قصر كبير وله ساحة واسعة، وأروقة، وطباق عليا وابراج، ولا تعدم أن تقع عينك هنا وهناك على أدوات التعذيب ووسائلها التي كانت معروفة في عصر الاقطاع، وهناك متحف أيضا يحدثك كل ما فيه عن ذلك العصر. حسبك ساعة من زمن لتزوره وتحوس خلاله.

وثمة قصر آخر عجيب، بسميه بعضهم القصر الماسي، والسبب ان حجارتها كلها منحوتة على شكل من قطع الماس.

وتقف حباله ذاهلا متسانلا، ثم لا تلبث أن تجد من يحدثك حديث اسطورة شائعة هي ان الذين شيّدوا هذا القصر وضعوا في أحد حجراته ماسة كبيرة

الحجم، وكان هذا هو سبب بنائه بحجارة على شكل قطع الماس، ولكن أحدا لا يدري في أي حجر ترقد هذه الماسة الاسطورية النفيسة.

كاتدرائية فرارة آية في فن العمارة، وما يزينها من لوحات وصور وآثار فنية، وثمة أداة تشبه سماعة الهاتف اذا اسقطت في ثقب فيها قطعة من النقد أخذت تهمس لك على الفور بتاريخ هذه الكاتدرائية وبما فيها من نفائس الرسم والنحت ومخلفاتها الاثرية. وهمسها يتأدى اليك باللغة الاوروبية التي تفهمها أو تتقنها، ومعنى هذا ان ثمة عددا من هذه الهواتف خصص كل منها لاحدى اللغات الشائعة.

وقد ذكرني هذا بمتحف اللوفر بباريس. هناك تستطيع أن تشتري بثلاثة فرنكات اداة تسجيل، على شكل سماعة الهاتف أيضا، وتذهب بها لتقف قبالة لوحة الجوكندة فتحدثك هذه الآلة، اذ تضعها على أذنك، عن اللوحة الشهيرة وتاريخها، وحياة- دافنشي- الفنان العبقري الذي رسمها وما وقع لهذه اللوحة من مغامرات ومؤامرات سرقت فيها مرة وثانية ثم استردت. ثم حديث شهبي وطلبي عن هذه المرأة المحيرة ليس بابتسامتها الغامضة فقط، بل بجمالها أيضا، وحب دافنشي لها، وما قاله عنها كبار الكتاب، والفنانين ومشاهير الرجال.. انها رحلة جميلة مع الجوكندة عبر العصور.

وكنتم أحسب ان البرج الايطالي المائل لا يوجد في غير «بيزا» وهو برج يهولك منه أنه يوشك أن يقع أو ينهار بين لحظة واخرى، ولكنه لا ينفك ثابتا راسخا، فلا تدري: أتكذب ما تراه عينك أم تؤمن ان هذا البرج المائل اسطورة من الاساطير، ولقد وجدت في فراره برجا آخر مائلا. انه برج احدى الكنائس هناك، عاليا في الفضاء نحووا من عشرين مترا أو تزيد. ان نظرة واحدة تنبئك بأن البرج مائل حقا، وسرعان ما تروح تقارن، ولو بالفكر والخيال بين البرجين المائلين، في بيزا وفي فرارة، وتساءل عن السر، ولماذا اختصت ايطاليا بالبروج المائلة: "أهو

خطأ في البناء. أم أنها طبيعة الارض، أم ترى هي مصادفة ليس من حسناتها الا أن تشير العجب وتجذب الزوار والسياح؟

وعلى ما في فرارة من آثار الماضي ومخلفاته، وعلى ما فيها من حداق صغيرة ولكنها جميلة ومنسقة، فليس ثمة ما يفريك بالبقاء فيها الا أنك قريب من مدن السواحل وشواطئ بحر الادرياتيك. ثم انك تستطيع أن تغادرها صباحا لكي تزور مدنا أخرى شهيرة كفلورنسا والبندقية وغيرها.

وأنا رجل مولع بالبحر، والشاطئ، وأنسامه الرخية، ولا أعدل بمنظر المرج يتلوى ويتداخل بعضه ببعض ثم يتكسر مرغبا مزيدا، فائرا، منظر آخر في الدنيا. ومرجع هذا اني ولدت ونشأت في مدينتنا الجميلة- يافا- المكبلة بقيود الأسر والاحتلال، رد الله غريتها، وفك عنها قيودها واغلالها بعزائم أبنائها الغر الميامين. ولا أدري- حتى في صدر الشباب وزهرة العمر- الا اني خدين البحر، ونجيه، المأخوذ بسحر آفائه واصطفاء موجه، وامتداد صفحته الزرقاء حتى تلامس طرف الافق البعيد فيما يقع في الحس ويتراءى للعين الواهمة.. وما أكثر الصداقات التي عقدتها مع الصيادين ذوي الشباك، والمراكبية الاشداء، ولا حديث لنا غير البحر وجماله وأهواله أيضا ومغامراته.

وهكذا كان همنا، خلال الاسبوعين اللذين انفقناهما في مدينة فرارة العتيقة، أن نغادرها صباحا لنهرع الى شواطئ الادرياتيك فننق يومنا فوق رمالها، أو سباحين متخبطين في المياه الادرياتيكية وأمواجها الفائرة المتقلبة تطورنا وتنشرنا وتقذف بنا وكأن الواحد منا ليس أثقل وزنا من ريشة في مهب الرياح الهوج..

وكان يقع في وهمي اني عدت الى عهد الشباب، وان هذه المياه، وهذه الرمال انما هي بحر يافا ورمال شواطئه، ثم سرعان ما أثوب الى الحقيقة المرة وأتساءل: أين نحن من يافا الحبيبة، المجادة، ذات النضال والكفاح، وإين نحن من شاطئها

وبحرها وسمائها وعبق زهر البرتقال تنفحه من مغارس الطيب في أرضها أم الخير
والبركات؟ ترى أنعود يوما الى هاتيك الجنات؟ ان زقزقة عصفر في سماء
بلادي، أو على فئ من شجرها الوريقي، لاجمل وأعز من كل هذا الذي تقع عليه
عيني في بلاد الناس، بلاد القرياء...

وعلى بحر الادرياتيک تقع مدينة البندقية، المدينة التي كأنما قد انبتتها
«نايتون» اله البحر عند الاغريق القدامى، فخرجت من بين زبد واشداق موجه
واستقرت على حافة من مصطخب مائه فلا تنفك، على الدهر، تعصم منه
بقنوات وأزقة ودروب من ماء تعبها «الفوندولات» رشيقة، خفيفة، مناسبة
كالعهد بها منذ أقدم العصور. ان رحلتنا اليها لن تستغرق أكثر من ساعتين في
السيارة، أفلا نزورها ونقضي فيها يوما على الاقل؟ الى اللقاء اذن في البندقية،
وبصورة خاصة عند منعطف جسر التنهيدات هناك.

مدينة الغندولات الكسولة وجسر التسهذات

- ٢٠ -

قطعنا المسافة بين «فرارة» والبندقية في ساعتين. ومررنا ببضع مدن، لم نتلبث فيها سوى دقائق، ثم كان علينا بعد ذلك، أن نقطع البحر لكي ندخلها. الزورق البخاري الكبير يتسع لحشد من الناس قاعدين أو واقفين. في نحو عشر دقائق ينقلك المركب البخاري الى البندقية، لقاء أجر معقول. ولكن قبل هذا كله عليك أن تجد مكانا لسيارتك. لن تدخل المدينة قبل أن تجد هذا المكان، بين ألوف السيارات التي ضاقت بها الساحات، والباحات، والمواقف وكلها سيارات السياح الذين يتوافدون إلى المدينة التي أنبتت نفسها هكذا فوق العديد من الجزر الصغيرة وسط مياه الادرياتيک.

أمضينا أكثر من ساعة حتى استطعنا أن نركن سيارتنا بين حشود السيارات المترصة ثم ركبنا الزورق الكبير إلى البندقية. هل كان في البندقية، يومئذ، مئة ألف سائح وسائحة؟ كان هذا هو تقديري أنا، وليس من طباعي أن أميل إلى المبالغة؛ الطرقات، والدروب، والازقة والساحات، والجسور مزدحمة كلها بالرواد، هذا اذا استثنيت الموجودين داخل الكنائس، والمتاحف، والمقاهي والبارات وراكبي الغندولات..

أصبح ركوب الغندولات تجارة. أولئك النوتية بملابسهم وقبعاتهم التقليدية

يغرونك بالركوب. كلماتهم وإشاراتهم وحركاتهم تعافها نفسك، فقد اكتسبت الصبغة التجارية المفتعلة. هذا الغندول بحيزومه المشرب المستدق المزخرف، وهذه المجاذيف المنقوشة الرأس، المصنوعة على مثال المجاذيف القديمة التي افتن بنحتها وصقلها فتانو البندقية في العصور الخوالي، ما تزال هي نفسها التي يستعملها النوتية في هذه الأيام. صناعات يدوية متوارثة عبر الأجيال. في وسعك كسائح أن تشتري غاذج صغيرة لهذه الغندولات في دكاكين البندقية. ولكنك إذا أردت أن تركيب الغندول ليعبر بك بعض الأزقة والدروب المائية فانك لا تفعل ذلك إلا على مضض... تشعر، على الفور، أن الغندول الشهير، الرومانسي، المقترن في ذنك بالليالي المقمرة، والغناء الشجي والموسيقى الحاملة، قد انقضت أيامه، وفقد شاعريته، وغدا شيئا تجاريا مهجورا.

مهما يكن من أمر فإن لك منصرفا عنه إلى قصور المدينة، قصور حكامها وإمرائها (دوجاتها) السابقين، وكاتدرائياتها، وباحاتها، وطابع القرون الوسطى الذي لا ينفك ماثلا في كل مكان.

وفيما كنا نحث خطانا إلى ساحة كاتدرائية «سان مارك» كانت ألحان «الغندولبير الكسولة» تتردد في خاطري للموسيقار «منتوفاني»، إنها ألحان جميلة تصور النوتي وقد استند إلى حافة الغندول وأخذ يعمل مجذافه يشق به الماء لركبه في كثير من البطء، في كثير من الأناة والتراخي - صورة رائعة للكسل المتشادي، فقدت هي الأخرى سحرها.. ربما بقيت أوبريت «ليلة في البندقية» للفنان العبقري (شتراس) أجمل ما قدمته الموسيقى عن البندقية.. هذه الألحان تبرز في نفسك لحظة ثم تختفي أمام الواقع التجاري الشائع لغندول العواطف والشعر والاحلام..

وندخل ساحة الكاتدرائية العتيقة (سان مارك) أو القديس مرقص. إنها تلك

الساحة التي لا بد أنك رأيت صورها مع الكنيسة في البطاقات. بقدر ما كان يزدهم ألوف السباح فيها يزدهم الحمام الاليف على أرضها. وقد تحط حمامة على كتفك، وربما حطت على يدك لتلتقط بعض الحب في راحتك. بكل الثقة الممكنة، بكل الاطمئنان، يفعل الحمام هذا. يا لهذا الطائر العزيز ما أجمله، ما أحلى هديله، ما أقربه الى القلب. وانها لسبة في جبين الانسانية أن تمتد اليه أو الى صفاره بد تذبجه للاكل. أما رأيت غزله وحبه الرائع لانشاء انه الطير العاشق حقا. انه أكثر وفاء حتى من الانسان نفسه. وما أعظم حبه لصفاره وحنوه وعطفه. ما رأيت طيرا مثله يدأب بمثل صبره ومعاناته على تعلم صفاره كيف تلتقط الحب.. وفي كل عاصمة زرتها وجدت ساحات وباحات يختلط فيها الحمام بالخلق وهو آمن مطمئن.. الا في البلاد التي تذيب الحمام وتأكله، والعياذ بالله..

كاثدرائية سان مارك هي أكبر وأضخم كاثدرائيات البندقية. قبابها أبراجها، جرسياتها، مداخلها ومعايرها أبوابها، جدرانها، كل ما فيها فن خالص من فنون العمارة التي تزخرف، وتنقش، وتجعدل الرخام، وتصنع الاقواس والحنايا، مما لا قبل لقتاني العصر الحديث به. كل ما في المدينة، القائمة على المياه، بني وشيد وفق هذا الطراز الفني، وقد امتلأت الكاثدرائيات، والقصور بتحف نفيسة من رسم ونحت، لا يكاد يأخذها حصر، ولا تكاد تضاهيها في هذه الموروثات الفنية غير فلورنسا..

أردنا أن نستريح قليلا فلم نجد مقعدا واحدا خاليا في المقاهي القائمة على أطراف الساحة، لقد احتلها السباح الامريكيون والألمان، فاضطرونا أن نجلس على بعض المصاطب.. انني أرجع الى صورنا في تلك الجلسة فأضحك طويلا.. أن خلقا كثيرا غيرنا افترض تلك المصاطب، دون أن يكون ذلك ملفتا للنظر.

جسنا خلال الازقة والدروب، ما أشبهها بأزقة ودروب القدس القديمة، بل لقد

حسبتني لحظة اني في قدسنا ، غير أن أهل البندقية جعلوا من بعض المحلات مطاعم أنيقة، وضعوا موائد طعام خارجها ، وزينوها بالزهر ، والشمع الاحمر ، انها براعه في جذب السياح الذين امتلأت بهم هذه المطاعم. مرة أخرى أقول هنا ان السياحة صناعة يجب أن تكون ذكية وقادرة على الابتكار . أمامنا الكثير نتعلمه من الآخرين. ومن جملة ذلك هذه الاشياء التي تباع للذكرى هناك وتحمل طابع المدينة وملامحها ومعالمها . كثيرة هي هذه الاشياء ، ومتعددة الانواع والنماذج والزائرون يقبلون على شرائها إما اقبال. ويغري يشرائها انها رخيصة زهيدة الثمن. حتى نماذج القوندولات يجد منها كل حسب قدرته الشرائية. وهذا كله يفسر لنا دخل ايطاليا من السياحة دخل ضخم يحسب بمئات الملايين من الدولارات.

وينقضي معظم النهار ونحن نتنقل بين الازقة والدروب والقصور والكاتدرائيات والساحات، ثم نأخذ أهبنا للعودة، وفمر عند جسر، انه جسر التتهيدات.. وما كان هذا الجسر للماشقين كما قد يتوهم الكثيرون .. انه جسر الظلم، والقهر، والتعذيب، جسر المضطهدين والمحكومين بالاعدام، والتنهدات هي تنهداتهم، وهذه السجون التي نطل عليها من فوق الجسر هي سجونهم، وهذه النوافذ والقضبان الحديدية الفليضة التي تسدها هي نوافذهم وتنهداتهم، في ظلام العصور..

وقفنا طويلا على هذا الجسر، والتقطنا صورا له. وفي هذه الاثناء تراجعت الرؤى في بهرة خيالي.. المخاطرات، والمغامرات، والانسائس، والمزامرات، وصراع الحريات، وتناحر الاسر العريقة على الحكم والجاه، والتشكيل بالانسان اذا ما اشرباً لئسمة هوا نقي.. حتى الفنان في هاتيك الايام لم ينج من المطاردة، والاشتباه، والتعذيب، ولو كان هذا الفنان هو (ميكل آنجلو) نفسه، أو (رقائيل) أو دافنشي.

قلت في نفسي وقد أخذت طريق العودة: «إذا كانت هذه السجون قد أصبحت اليوم مجرد آثار تتحدث عن الماضي والغابر من العصور، فإن أشباهها لها ما تزال قائمة وتعمل فعلها في بلاد لا تنفك تتطلع الى بصيص ضئيل من النور، النور الذي كان إنسان العصور الوسطى يتلمسه ويتطلع اليه...»

وما أكثر جصور التهنيدات في دنيا الله.

هناك ترك العرب بصمات شخصيتهم

وجيناتهم الوراثية

- ٢١ -

لم يبق من الايام المخصصة لهذه الرحلة الا القليل. يجب أن نودع قراره، وشواطئ الادرياتيک، والمدن القريبة: البندقية، بادوا، بروجيا، فلورنسا ... وفي النفس مشاعر مختلفة أثارها القديم والحديث من مظاهر العمران في هاتيك المدن العتيقة التي ينبض في عروقها دم الحياة المعاصرة أعنف وأشد ما يكون.

تقنيا لو أن في الوقت سعة لنزور الجنوب الايطالي. كنت أحب أن أزور نابولي، فما زالت في النفس رواسب من قصة « غرازيلا » للشاعر الفرنسي الرومانسي «لامرتين». كانت نابولي، وكان بحرها، وكان صيادوها ومراكبهم، هذا كله كان جو تلك القصة الجميلة. ثم الحب الساذج، الصادق الرومانسي الحالم. كنا نقرأ لمارتين في مطالع الشباب. ثم بقيت هذه الصور البهية عالقة بالقلب الى اليوم..

وكنت أحب أن أعيش ساعات في كاري. قصة الطبيب السويدي «أكيل مونتي» الذي وصف ذلك الجو بما لم يستطع أي كاتب- محترف- ان يفعله. انها قصة «سان ميكيله» أو القديس ميخائيل، لقد مزج فيها الواقع بالحلم، والحقيقة بالأسطورة. وترجمت قصته الفذة الى أربعين لغة.

ولكن هيهات. لم تبق الا أيام، لا تكاد تكفي لروما وحدها. لا بد أن تقطع، في السيارة الى روما، خمسمئة كيلو متر. وقد غادرنا فرارة مع أول خيوط الفجر، اتنا في أواخر تموز، ومع ذلك فان المطر لم ينقطع الا قبيل ان نصل الى روما. كانت السماء كأنما تريد أن تفرغ ما بها. وكانت هروق. وعود، وكان ضباب كأنما نحن في قلب فصل الشتاء. انبعثت من راديو السيارة أغنية ايطالية وألحان موسيقية، كلها رقة، وعذرية. قالت زوجة ابني الالمانية: أولئك الايطاليون.. يا لهم من عاطفيين.. هذه موسيقى ما أحببتها قط..

وسألتها:

- وكيف تكون الموسيقى أذن؟

هل سمعت موسيقى «فاغنر» الالمانى؟

-أجل-

- هكذا تكون الموسيقى.

ذهلت لحظة. انها الموسيقى الهادرة، المدوية. موسيقى الابطال، تماما كفلسفة نيتشة فيلسوف الالمان. القوة، ودائما القوة حيث لا محل للعاطفة. تلك ملامح أمة ولا ريب.

وقلت:

- ولكنني أحب هذه الألحان الحلوة، الرقيقة، انها لا تبكي، ولا تندب، ولكنها تجعلني أحلم هنيئة.. في أحيان أخرى موسيقى فاغنر.. لست أكره البتة شيئا. الآداب، الفنون، تراث انساني مشاع، وهذا التراث متعدد الشكول، والالوان، والسمات. وجمالها نابع من تعددها.. وهذا التعدد يحمل لمحات

وأقباسا من عبقرية كل أمة، ومن خصائصها، ومميزاتها. وانقطع الحديث فقد دخلت السيارة نفقا طويلا. ثم توالى الانفاق. انها طرق «الأتوسترات» ولقد شقوا لها الجبال. وأقاموا في المهاوي السحيقة اعمدة ودعائم عملاقة نصبت فوقها الجسور الكبيرة. وهكذا من طريق على جسر جبار، الى طريق في نفق بقلب جبل، حتى لا تكاد تحصى الى أن تطل على مشارف روما.

من عاداتي السيئة انني اذهل، في كثير من الاحيان، حتى عن نفسي. وفي فترات الذهول هذه لا ارى، ولا اسمع شيئا حتى لو دوت الرعود وهدرت المدافع، لشدة استغراقي في عالمي الداخلي. انها عادة سيئة كما قلت، ولكن الان، وفي مثل سني، لا املك تغيير عاداتي مع الاسف. وهكذا انصرفت الى التفكير في الادب الايطالي، والفن الايطالي. وقد كنت مولعا، في ايام الشباب، بقراءة «الكوميديا الالهية» للشاعر العبقري دانتي الليفييري. وقد احببت فردوسه، ومظهره وجحيمة، وصوره الشعرية الخالبة حيناً، الرهبة حيناً آخر، وعلى الاخص في الجحيم. وما أكثر ما قبل حول رحلة دانتي هذه الى العالم الآخر، ولكن الثابت فيما قرره دارسو الكوميديا الالهية انه اقتبس صورا، في جحيمة، عن القرآن الكريم، وربما أيضا عن شاعرنا المعري، صاحب رسالة الغفران، ولقد سبقه الى مثل هذه الرحلة. الايطاليون قوم فنانون عباقرة في النحت، والرسم، والموسيقى، وليسوا كذلك في الادب، اعني انهم لا يحتلون المنزلة الاولى. ومع ذلك فقد لمعت في سماء الادب الايطالي أسماء عالمية. دانتيو مثلاً الشاعر، القصصي، الطيار، المحارب والقارئ الذي وضع موسوليني في يديه قيودا من ذهب، وأسكنه قصرا باذخا، واحاطه بكل ألوان البذخ والترف، لكي يبعده عن طريقه..

الجانب السياسي في حياة دانتيو يبهت كثيرا، وان كان ذا ألوان صارخة هو الآخر، ليظل الشاعر، والقصصي المبدع هو الذي يستدعي الاعجاب.

وينعطف تفكيري، والسيارة لا تنفك منطلقة تخطف خطفا في طريقنا الى روما، الى الاديب العظيم «لويجي بيراندللو». ليس المهم أنه نال جائزة نوبل في الثلاثينات من هذا القرن، المهم هو أديبه: قصصه القصار، ومسرحياته.

بيراندللو جدد، حقا، في القصة القصيرة، غير أن تجديده في القصص التمثيلي هو الاهم، هو الذي بهر أوروبا كلها. كان هذا التجديد في المضمون أكثر منه في الشكل. وكان ازدواج الشخصية وغرائب هذا الازدواج هو الذي أغرم بيراندللو في وصفه، وتحليله وتقديم صور غريبة منه، في تمثيلياته الباهرة كـ «سنة أشخاص يبحثون عن مؤلف» و «أيفلين» وغيرها. رعا من عالم الجنون قد استمد صوره وموضوعاته، وقد عايش الجنون جنبا الى جنب، وكان يشاهد أفاعيله كل يوم في زوجته التي كان يأبى دائما ادخالها المصحات العقلية. لقد كان هذا الاديب الصقلي طرازا وحده في الادب الايطالي. ويقال ... أجل يقال انه من أصل عربي، أو على الأقل يجري في عروقه دم عربي. وقد استدل بعض الكتاب والنقاد على ذلك من هيئته وسحته المستطيلة المنتهية بلحية صغيرة تستدير حول ذقن عربي مديب، كأنه يدوي أصيل. ولا غرابة في هذا فقد احتل العرب صقلية، وكان فاتحها زيادة الله الاغلبي، ولا يزال الكثير من الآثار العربية ماثلا فيها.. ذلك مجد عربي قديم من أمجادنا الكثيرة، والامجاد في تاريخ الامم والشعوب حوافز ودوافع، فما لنا نتغنى بها، ولا يكون أمرنا معها الا كما يفعل وارث سفينة بدد ثروته الطائلة ثم قعد يذكر العزّ الذاهب، ويتحسر على ما فات؟ أذكر أنني مشترك بمجلة شهرية أوروبية مخصصة للتاريخ، ان ثمانين في المئة من أبحاثها ودراساتها تتناول تاريخ ذلك البلد الاوروبي منذ أقدم العصور، لا للمباهاة والازدهاء، ولكن لكي يظل القارىء موصول الاسباب بتاريخ أمته، مرتبطا به، متلاحما بأحداثه، ومتخذًا، من هذا كله، حافزا للحاضر والمستقبل.

وقد لا يكون بيراندللو وحده هو الذي تصله بالعرب والعروية وشائج الاسباب. هناك الكاتب القصصي الكبير «جيوفاني فيرغا» مؤلف تلك القصة العظيمة «المعلم دون جيزوالدو» انه من الجنوب أيضا وتعد قصته من عيون الادب الايطالي. انها لا تصور صعود رجل شعبي الى قمة الثروة والجاه بكده، وعرق جبينه، وفطنته وحسب، بل انها تعرض لوحة متعددة الالوان لتقاليد وعادات الجنوب الايطالي، وما أشبه الكثير منها بتقاليد وعادات عندنا في البلاد العربية. ولا يؤخذ على مؤلفها جيوفاني فيرغا غير تأثره الواضح بقصة «أوجيني غراندي» لطيب الذكر «هونوريه دي بلزاك» أعظم قصصي فرنسا في كل العصور، وصاحب سلسلة روايات «المهزلة الانسانية».

ورما كان آخر من قرأت له من أدباء الجنوب الايطالي «جوزيبي توماسي دي لامبيدوزا» وأرجو أن تغتفر لهذا الاسم طوله الظاهر فهو مؤلف تلك القصة الفريدة «القط البري» وأقول فريدة لانه كتبها وبقيت عنده كمخطوطة. ولم تنشر الا بعد وفاته. قيل أنه لم يكتب غيرها، غير أنها أحدثت دوبا عظيماً وترجمت الى جميع اللغات الحية ووفعت اسم مؤلفها الى القمة. وقد قرأتها في طبعتها الاولى المترجمة وأنا بباريس قبل تسع سنوات. وبين «فيرغا» و «لامبيدوزا» مواطن كثيرة للمقارنة بين أثريهما القصصيين، لا مجال لذكرها الآن، غير أن لامبيدوزا قدم لنا هو الآخر صورا أخاذة من الجنوب الايطالي من أخلاق وتقاليد وموروثات تنبض بالحياة، وتجيد مشابه منها في دنيانا نحن. على أي حال لقد ترك العرب، هناك، بصمات شخصيتهم، وحتى «جيتاتهم» الوراثية، فكان من ذلك، أولئك الادباء الذين يرى البعض أنهم من أصل عربي، وكانت آثارهم الادبية التي تذكرنا بتقاليد لنا وموروثات.

وخطر لي «البيروتو مورافيا» من المتأخرين المعاصرين، ولكنني لا أحب أدبه، وربما مال الى مجازاة السوق الأدبية الرائجة في قصصه الجنسية، لعله تاجر

أدب وقصص قبل أن يكون فنانا أصيلاً.. وأصبح من ذهولي فاذا بالسيارة
تصعد بنا الطريق إلى روما الخالدة..

وكانت نهاية المطاف

-٢٢-

للمرة الثانية أرى روما. من أسمائها « المدينة الخالدة » ومن الأمثلة الشائعة « كل الطرق تؤدي الى روما » عشت زمنا في جوها القديم، جو الدسائس، ومؤامرات الاسر العريقة حول الحكم، ما أكثر ضحايا نهر التيبر في هاتيك الأيام. يومئذ، في مطلع الثلاثينات من هذا القرن، كنت أضع كتابا عن كبير فناني النهضة « مايكل أنجلو »، وقد أنهيت هذا الكتاب ونشرته فصولا في مجلة عربية شهرية، وضاعت مجموعة هذه المجلة، فضاع الكتاب معها..

وهكذا فترت همتي عن مواصلة الكتابة، فقد كنت أنوي اصدار كتب ثلاثة، أحدها عن أنجلو، وآخر عن « رفائيل » الفنان الكبير والثالث دراسة مستفيضة عن عصر النهضة نفسه. ولذلك حشدت لهذه الكتب الثلاثة، المصادر الضرورية وعشت حقبة في جو روما، وفلورنسا، والبندقية وغيرها. لم نعد نملك، في هذه الأيام، عزيمته وتصميم عهد الشباب. تلك أيام تقضت، ما كان أحلاها وأشهاها كما يقول الشاعر. وهي أيضا لم تترك لنا سوى أن نتمناها، ولكن هيهات.. هيهات..

كان « موسوليني » قدرا من أقدار روما. وقد غير، وبذل، وركب صهوة جواد مدة، ومدفعا مرة أخرى، ملوحا بأمجاد قديمة، وفتوحات.

بدء نهايته كان يوم احتل الحبشة، ويوم أراد أن يمد سلطان روما بعيدا جدا وراء الحدود، لقد خيل اليه ان التاريخ يعيد نفسه حقا.. مع الحرب العالمية الثانية انهارت أحلامه، وكل شعاراته الزائفة، ومعها القمصان السوداء، والأشداق المنفوخة، والتعاضم، والصدر المتقرب، وخطب الصراخ، والزعيق، والتهويش. بدأ مخلوقا صغيرا، هلوغا، ساعة اقتيد الى حتفه، فعلق من أسفل الى أعلى، وصق على جشته الباصقون.. نهاية دراماتيكية حقا. وكان بعد ذلك كل ما كتبه الكاتبون وما يزالون يكتبونه الى اليوم. على الاخص معاشقه وغرامياته، ومقتل خليلته «كلارا» معه، في اليوم نفسه والساعة نفسها.. كان هذا وفاة منها.. وفاة حتى الموت..

انها روما الخالدة.. تعصف في ارجائها الاحداث تقصر أو تطول، ويذهب الحالمون بالعظمة، والفتوحات، وتبقى هي وعلى قمها ابتسامتها الساخرة، ما أشبهها بابتسامة المرأة ذات الجمال الباهر التي تعرف أن لها من حسنها ومن حليها ومطارفها، ما يزرى بكل ثمين ونفيس. وما هذه الحلي والمطارف غير مخلفات فنونها في متاحف، وكاتدرانيات وكنائس وقصور.

ذهب الطفافة، وذهب موسوليني، وبقيت الآثار الفنية التي ولدتها أنامل مبكل انجلوا في رسوم وتمائيل، والتي أبدعتها عبقرية رفائيل، وهذا الرهط الكبير من فنانين عصر النهضة. العديد من سياح الدنيا يستلقون على أرض الكنيسة «السستينية» لكي يشاهدوا الخليفة في سقفا، يوم الحشر والحساب في جدرانها. وأية عبقرية كانت تستطيع غير عبقرية انجلو أن تصور أمنا حواء بمثل هذا الجمال، بمثل هذه الرعة، بمثل هذه الانوثة الطاغية؟.. سعداء هم البشر الذين ولدتهم هذه الأم العارية، المضطجعة هكذا على أحد جانبيها. وماذا تكون الجبو كندا، محفة اللوفر، اذا قورنت بهذه الأم التي خرجت من أحلام وألوان انجلولتكون عزاء عن كل القبح والدمامة في الدنيا؟ هذا الحشد من الخليفة -

السعداء منهم في جنات الخلود والاشقياء الذين سيكونون طعاما وزقوما للجحيم - عراة كلهم، فلا جلايبب، ولا طيلسانات، ولا حتى الغلالات الرقيقة الشفافة.. هكذا أردتهم يا أنجلو، هكذا جردتهم وعريتهم ليكون الجمال هو مطلق التكوين، مطلق الشكل غير المستور، أردتهم كما خلقهم الله، على غير ما فعل مواطنك ومعاصرك «روفائيل»، كان مولعاً بالتناسق والتوازن واللفظ والرقعة الماثلة في العديد من العذارى في لوحاته الشهيرة، ربما كانت «البيسانية» من أروع آثاره. إنها ملك متحف لوفر، وليست الشقة بين روما وباريس بطويلة. نساء وعذارى وروفائيل كاسيات كلهن، وفي جوهن ذلك الاشعاع الخلاب. ومن خلال جلايببهن تستطيع عينك أن تستشف كمال الأجسام.. وما أعجب أمرك يا أنجلو، حتى قائلك آيت إلا أن تكون عارية، مجردة، وحتى «الليل والنهار» في تشالك الرمزي عاريان.. عند «موسى» تراجعت قليلاً وأحبك كنت تريد نحتة عازياً هو الآخر، ولكنك أحجمت ولم تعر منه إلا ساقاً والساعدين.. ومن أجله، لكي أقف عنده طويلاً، دخلت كنيسة القديس بطرس في الفاتيكان، تلك التي صنعت أنت قبتها المدهشة، فكنت فناناً، ومهندساً، كما أنت شاعر، ومحِب للحرية في أيام التكنيل بها وبدعاتها.. وهل عبثاً نشاهد شخوصك تشرب أبصارهم وأبدانهم في توتر شديد إلى بعيد، وأحياناً إلى أعلى؟ أكان هذا من فرط احساسك بالأغلال في داخلك، فعبرت عن ارادة التمرد في أعماق شخوصك بارادة الانعتاق التي كأنها تومض في حدقات عيونهم. أتذكر ذلك الحوار الطويل بيني وبينك. في مطالع الشباب، أتذكر اني عشت في صحبتك، وفي عصرك، ومعك حتى وأنت فوق «الصقالات» العالية ترسم لوحات الخليقة، ولم تستطع ارادة السيد الكبير الرهيب أن تشبك عن أن يخرج كل هؤلاء البشر، من شفافية أحلامك، عراة كما هي الشمس عارية، كما هو الضياء عار، كما هي الطبيعة في سهل وجبل وبحر عارية في تمام كمالها..

ولا بد أن نمضي يا أنجلو، أن نودعك، نودع فساتيكانك، ونلقني إليك

بالتحية، ومع التحية ابتسامة الرجاء في أن نعود فنتفلك.. أم تراك لا تريدنا أن نرى «الكوليزيوم» وآثاره الشاخصة ومدرجه الذي كان يتسع لثمة ألف مشاهد في صراع الأبطال فيما بينهم، أو من ضواري الوحش، إلى أن جاء زمن كان يلقي فيه بالمسيحيين الأوائل لتلتهمهم هاتيك الضواري، ولا بد أن ترى أطلال «الفوروم» وآثار المعابد الوثنية والقصور العتيقة، والأقواس الباقية التي جاء قوس النصر في باريس على مثالها..

معذرة إليك، فنحن نريد أيضاً أن نشاهد ذلك الأثر الفني الحديث الذي ينهض غير بعيد عن الكوليزيوم، وفيه قبر الجندي المجهول، ومنحوتات ضخمة لبعض أمجاد روما، سنستريح هناك ساعة، ثم نغضي إلى ينبوع الأمان، في تلك الحارة القديمة. ما أعجب ما تحف بهذا ينبوع من تهاويل ومنحوتات، المهم أن نلقي ببعض القطع الفضية أو حتى النحاسية في البركة الكبيرة، ونتمنى الأمنيات كما تفعل حشود السياح، ونضحك من أنفسنا، ومن غيرنا، وتؤخذ لنا الصور للذكرى، فالذكريات كما قال أمير شعرائنا: «صدي السنين الحامي» ولن ننسى أن نشاهد تلك المنحوتة الهائلة التي تجسد اسطورة تأسيس روما.. كان، فيما تروي الاسطورة، رومولوس هو مؤسسها، وأول ملك عليها (٧٥٣ ق-٧١٥ قبل الميلاد). وقد أرضعته مع أخيه أو توأمه رموس ذئبة، ومن ثم تبناه وأواه راع من الرعاة فشب والبطولة ملء برديه وأخذ الملك قوة واقتداراً.. والمنحوتة الضخمة تمثل الذئبة وهي ترضع الشقيقين التوأمين..

وهاتيك الملاعب الرياضية، في أطراف روما يتماثلها وساحاتها ومدرجاتها، ألا ترى يا أمجلو أنها تستحق نظرة؟ يقال أن موسوليني هو الذي أنشأها في هذه الرقعة الرحبة.. أصحيح هذا؟ ستوضع، إذن في ميزان حسناته عسى أن يخف شيء مما يشغل كفة السيئات..

ما أكثر ما يتداخل قديم وحديث في روما. وما يتفك نهر التيبر فيها يجري

كما يجري الزمان عبر قرون وعصور وأجيال وعبر وأحداث جسام أو غير جسام، ولا يبقى من غبار السنين إلا ما صنعت يد فنان، أو أبدعته عبقرية أديب، شهادة على ما كان وما قد يكون.

... وكل الطرق تؤدي إلى روما، وحتى هذه الطريق الطويلة التي تفضي، آخر الأمر إلى المطار الدولي الكبير.. وها هي طائرتنا الميمونة الغدوات والروحاح جائئة في الانتظار.. ثم ها هي تخلق بنا وتشق الفضاء، ونعيش معها في رحاب السماء ساعات ثم تطامن من ارتفاعها، ويبدأ الهبوط وريداً، وتعود نرى الناس كالنمل، والمنازل كخلايا النحل، ثم يكبر كل شيء، ويعظم، وتحط سفينة الفضاء في مطار عمان.. أمحي من القلب والفكر كل شيء، ولم يبق إلا هذا الحنين إلى الوطن، واننا لندلف على ثراه، ونعانق الأهل، ونسعد بنسمات الغروب تهفو على وجوها وتملأ قلوبنا غبطة ورضى.

قصص مترجمة منشورة في جريدة الدفاع على حلقات

أبي راسبوتين

كتبها ابنته ماريا راسبوتين

من كان «راسبوتين» الذي قتله، قبل خمسين عاما الأمير الروسي «فليكس يوسوف»؟

التاريخ يقدمه لنا ، حتى اليوم، بلامح مكبر، عرييد، فاجر، فاسق، خالع العذار. وأحيانا بلامح جاسوس، في جميع الأحوال يصفه بأنه «روح الشر» التي كانت تسيطر على أسرة امبراطور روسيا، وتفرض نفوذها على الامبراطور والاميرة التاعسين.

غير أن «ماريا» ابنته تحجبه حكم التاريخ وتقول. كان والدي رجل خير وقداسة! وإنما كانت المعجبات الآفات يتهاقن عليه ويبذلن كل ما في وسعهن لكي يفتنه عن نفسه.

وكان راسبوتين قد اكتشف في نفسه وهو ما يزال شابا، مواهب القدرة على الشفاء.. ثم أصبح، من بعد، أحد أولئك الرهبان المشردين.

وقد بسط عليه الفراندوق «نيكولا» والفراندوقة «أناسطاسيا» جناح حمايتهما ، وسمحا له أن يقيم ، مع أفراد أسرته، في «سانبيترسبورغ» ثم قدماه إلى القيصرة وكانت قريبة لليأس والألم بسبب إصابة ولي العهد بتوبة نزيف

كانت تهدد حياته. وبدور أن راسبوتين استطاع أن يزيل مخاوف القيصرة ويشفي الكسيس ولي العهد. وهكذا بسط القيصر والقيصرة بدورهما جناح حمايتهما عليه.. والآن تعال معي لنرى ما تقوله ابنته «ماريا» «المغرب»

-١-

كان يحتشد ، كل يوم ، جمع من الحلق في شقتنا التي كنا نقيم فيها بمدينة «سانبتر سبورغ». وكان النظر يقع في هذا الجمع، على الكثيرين من المعجيين بقدس «الأب» والكثيرين من أصحاب الحاجات الذين كانوا يتوافدون طلبا للعطاء، والصلات، أولالإحسان، أو للتوصيات يحملونها إلى ذوي النفوذ من كبار الشخصيات.

وكان بعضهم يريد الترفيع في سلك الجيش، وكان البعض الآخر يسعى إلى الحصول على حماية سياسية، وغيرهم كان يجهد لكي ينال عقود التعهدات من الحكومة.

غير أن الأكثرين كانوا يأتون ليسألوا قدس «الأب» أن يمنحهم الشفاء والعافية لهم ولمن يحبونهم من أقرباء أو أصدقاء أعزاء..

وهؤلاء جميعا من أغنياء أو فقراء، من شبان أو شيوخ، كانوا يخرون جاثين على ركبهم أمامه، ويروحون ينادونه بلقب «الأب المقدس»، يضرعون إليه أن يشفع لهم عند الله.

وكان «الأب» يأخذ بأيديهم وينهضهم، وهو مدرك لدى تعاستهم وبؤسهم، ويقول لهم أنه ليس قديسا من القديسين، وإنما هو رجل مبارك، قد خصه الله ببركته فهو يحاول أن يعمل بمشيئته... ثم يبسط يديه فوق رؤوسهم، ويباركهم، وتتلو صلاة قصيرة على نية شفائهم. أما إذا كان من المعوزين المحتاجين فإنه كان

يمد يده إلى جيب مسوخته ويخرج منه بعض المال فيدسه في أيديهم!

وكان يأتي، بعد هؤلاء، أشخاص يسألونه هبة أو صلة أو قرضا من مال.. وكان «الأب» يصغي إليهم بهدوء، وفي أغلب الأحيان كان يحدق النظر في وجوههم ويعينهم فيما هم يتحدثون.. وكان إذا ما وجد في جيوبه بقية من مال يعطيهم إياها دون أن يوجه إليهم أي سؤال، أو يأخذ منهم أي إيصال... وإلا فإنه كان يكتب على ورقة بضعة كلمات لصديق ثري من أصدقائه يرجوه فيه أن يرى ما عسى أن يستطيع تقديمه لصاحب الحاجة.

وما كان يحال أبدا دون أي إنسان ومقابلة «الأب» على الرغم من أن الانتظار كان في أكثر الأحيان طويلا واحتشاد الخلق كثيرا بل متدفقا.

وما أكثر ما كان يحدث أن يضطر الوافدون إلى الوقوف صفوفا متراسة في سلم البيت، فيضيق السلم بهم، وعندئذ تمتد صفوفهم حتى تصل إلى الشارع العام.. وكانت شقتنا تقع في الطابق الثاني من إحدى العمارات وتطل على فنائها. وكان أحد رجال البوليس يقف ثمة دائما مستظلا بالمدخل المسقوف لكي يحفظ النظام في الصفوف المتراسة لأولئك الوافدين.

وكنا: أختي «فرقارا» وأنا ننطلق إلى مدرستنا من سلم آخر مزوي عن الأنظار لكي نتجنب أن يستوقفنا المنتظرون من أصحاب الحاجات ويتسولوا إلينا أن نتيح لهم مقابلة «الأب» قبل غيرهم..

وكان الكثيرون من تلاميذ الأب ومريديه لا يحتاجون إلى أي شيء، سوى تقوية معنوياتهم الروحية في الدين بالاستماع إلى ما يقدمه «الأب» من شرح وتفسير. وكان بعضهم يقضي ساعات عديدة كل يوم في شقتنا لحضور المقابلات ومساعدة «الأب» فيما يريد، في حين أكون أنا وأختي فرقارا في المدرسة..

ويحسن أن أذكر هنا اسم السيدة «غولوفين» زوجة المستشار القومي «غولوفين» وابنتها الجميلة الرقيقة «مونا» فقد كانت في الطليعة من تلاميذ «الأب» ومريديه ومريداته.

وقد كانت «مونا» عريقة المولد وتنتمي إلى أسرة من عليبة القوم. وكانت خطيبة الأمير «نيكولا يوسوف». وقبل قليل من موعد زفافها إليه أصيبت بصدمة مروعة فقد قتل خطيبها الأمير في مبارزة سببها امرأة أخرى! وعندئذ راحت تلك الفتاة الباهرة الحسن تنشد العزاء في رحاب الدين عند قدس الأب!

وكانت «مونا» ووالدتها تزوراننا يوميا، وكنا نحن نحلها من قلوبنا منزلة الأعزاز والأكرام.

وكانت «مونا» الجميلة الساحرة هي التي وجهت إلى الأب الأمير «فليكس يوسوف» الأخ الأصغر لخطيبها القتل، فكانت بهذا، ودون أن تدري، هي التي أدت إلى تلك المكيدة الرهيبة التي قتل فيها والدي.

وقد كان من بين مريدي ومريدات «الأب» كذلك : الكونتيسة «اغناطييف» التي كان لها «صالون» شهير يتردد عليه الكثيرون وتجري فيه أحاديثهم الكثيرة حول السياسة والدين.

ومن الزائرات المواظبات أذكر الأميرة «تيتيانا شاكوفكايا» والسيدة «سولوفيف» وكذلك أسرة بيستوكور والراهبة القديمة «اكولينا نيليشكانا» وكانت الراهبة «اكولينا» في طليعة السيدات اللواتي عني بهن الأب وعالجهن.. وفيما بعد طلبت إعفاها من مراثيق الرهينة لكي تنصرف إلى العناية بالمرضى وقد أجيب طلبها، وذهبت إلى مدينة «سانبيتر سبورغ»، وكانت فتاة جميلة.

متزنة، أوقفت نفسها على مهمتها كممرضة فنجحت فيها نجاحا كبيرا. وكانت تعرف اسم «الأب» وعندما سمعت أنه موجود في المدينة هرعت إليه لكي تكتحل عيناها برؤيته ثانية. وكانت تفرغ من عطشها بعد ظهر كل يوم تهرع دائما إلى زيارتنا. ومع أنها كانت باهرة الجمال رائعة الوداعة فقد كانت مشتتة الفيرة وذات طبع يحب الامتلاك قبل الآخرين. ولذلك كانت ترى أنها أحق من أي إنسان بصداقة «الأب» والمنزلة الأولى الأثيرة عنده..

وفي ساعة شرب الشاي كانت تجلس عند قدميه وتسند رأسها على ركبتيه.. وكانت تبذل جهد المجاهد لكي تبعد عن «الأب» كل من يريدون أن يظلوا قريبين منه متدائنين إليه.. ولما كانت تهتم عائدة إلى منزلها كانت تأخذ دائما بعض الملابس المتسخة وتعيدها في الغداة نظيفة مكيوة..

وما ظل من ريب على الإطلاق في أنها قد أحبت «الأب» حب هوى مبرح قائم على الحبازة التامة غير أن «الأب» لم يصدر منه قط ما يمكن أن يترك مجالا للتفكير في أنه كان يبادلها هذا الحب.. وإنما هو كان يعاملها تماما معاملته لجميع أعضاء «بلاطه»، باستثناء «آنا فيريوفا» التي كان يبدي لها دائما أعظم المودة والحنان..

وما أسرع ما غدت هذه الراهبة السابقة «اكولينا» والقيصرة صديقتين حميمتين، وكانت «اكولينا»، نزولا على رغبة القيصرة، هي التي قامت بمراسم تنظيف جثة الأب، بعد اغتتياله وتشويه جسده، وإلباسه ملابسه وسائر ما يجب للميت قهيدا لدفنه..

-٣-

كل هاتيك النساء، وما فيهن الغراندوقات «انطاسيا» و«ماليثا» وآنا فيريوفا، والأمير «دولغو روكايا» و«مدام» «بيستولكور» وفتاة أخرى غريبة

الأطوار شاحبة الوجه اسمها « ماشا »، هاتيك النسوة جميعا هن اللواتي كن يؤلفن
النواة لما كان يسمى « بلاط النبي ».

وكن يأتين، كل يوم، إلى شقة سكنتا محملات باللفائف والسلال المايشة
بالهدايا وبما لذ وطاب من الأكال وصنوف الحلوى والخمر واللطائف.. ويجلسن في
حجرة الطعام حيث يحرقن دائما أن يكون « السمو فار » الكبير ملينا بالماء
الساخن ليستطعن أن يقدمن إلى « الأب » أكواب الشاي كلما أتاحت له مقابلاته
بعض لحظات الراحة والفراغ.

وكانت « أنا فيروبوفا » كلما منعتها شواغلها أن تجيء، إلى شقتنا، تصل
هاتفيا مرتين في اليوم، مرة باسم القيصرة ومرة باسمها هي شخصا.

وكانت الغرفة الخاصة بـ « الأب » وهي في الوقت نفسه غرفة عمله ومكتبه،
تؤدي إلى حجرة الطعام. وكان « الأب » ينام فوق سرير صغير ضيق. وفي
« بروكوفسكوييه » كان ينام دائما على الأرض كما تفعل أمنا. والسرير الضيق
المذكور كان هبة لـ « أنا » من صاحبي الجلالة القيصر والقيصرة. وقد رأت أن
تقدمه للأب صديق صاحبي الجلالة لكي يتخذة لنومه، إذ كان من غير السانغ
اللاتق أن ينام على الأرض مباشرة.

وقد كان الأب، رجل أخلاق وروحانيات في الدرجة الأولى - إلا أنه كان
قويا، شديد الألواح، عظيم المنة والبأس. وقد بلغ من العمر أشده.. وما كان
ليكون رجلا لو لم يقع، تحت سحر الغواية، في غرام بعضهن. وهو الذي كان
يحيط به ويكتنفه أبدا هذا « البلاط » من المعجبات الفاتئات.. ولكنني أستطيع
أن أؤكد أن شيئا من هذا.. لم يقع قط.. في البيت..

وكنا نحن، ابنتيه، نعود من المدرسة لتناول طعام الغداء الذي كانت تعده
نسوة ذلك البلاط الأتيق، العطر، وكان « الأب » لا يتناول غير السمك، والبيض

والفاكهة، والحبز الأسمر، وفي بعض المناسبات كان يرحب بكأس خمر، إلا أنه كان يشرب مقادير هائلة من الشاي.

وإذا كنت أصراً، هنا، على ذكر عاداته الشخصية فما ذلك إلا بغية أن أدهض تهجحات وأكاذيب قاتل والذي الأمير «فليكس يوسف» الذي كان يدعي أن «الأب» تناول الحلوى المسمومة في الليلة التي اغتاله فيها هو وأشياعه..

وكان «الأب» يبدأ نهاره مبكراً جداً، فينهض في الساعة السادسة، وبعض قداماً صباحياً، ثم يتناول فطوراً دسماً وسحياً فيما أقرأ أنا له فصلاً من التوراة. وعلى الرغم من أنه كان قد تعلم القراءة إذ ذاك.. فإنه لم يصبح أبداً قارئاً سريعاً.. وبعد هذا كان يستقبل الوافدين الجالسين منهم في غرفة الاستقبال.

وفي الساعة العاشرة كان يتلقى المحادثة الهاتفية المعتادة يومياً مع (تزار سكويه سيلو) مقر القصر وأسرتة، ثم يرتاح بضع دقائق، يتناول بيضة مسلوقة، ويشرب الشاي مع أفراد بلاطه من النساء، ويعود من ثم إلى مقابلاته.

وفي الثانية بعد الظهر كان ينهي تلك المقابلات، ويشارك في تناول طعام الغداء، ثم يذهب إلى الحمامات التركية. فقد كان الحمام التركي هو شهرته الوحيدة.. ولم يكن ليمضي يوم واحد على الطريقة التركية، ويعقب ذلك عطلة فرك وتدليك سريعة ثم الماء البارد من الرشاش.

-٤-

كان النمامون يشيعون عن «الأب» أنه كان رجلاً قذراً تتراكم الأوساخ على جسده. وليس ثمة ما هو أشد بهتاناً من هذه الإشاعات والأقاويل. والصحيح أن

«الأب» لم تكن لتأخذه رحمة في كل ما يتعلق بنظافة الجسد. وكان يرى أن صحة الإنسان تتوقف على نظافته.

ودليل على ذلك أن «الفراندين» الرقيقتين «انساطسيا» و«مالتيزا» وهما كرمتا ملك، ما كانتا لتضفيا عليه حمايتهما» وما كانتا لتتيحيا له الدخول في أشد الأوساط الرفيعة المغلقة دون أكثر الناس لو لم يكن «الأب» متصفا بنظافة دقيقة صارمة.

ثم يجب أن لا ننسى أن صاحبي الجلالة القيصرية قد ارتضياه صديقا؟ وأنه كان من المقربين جدا إلى القصر، وكان «الأب» يتناول عشاء على مائدة القصر، وكان يحتضن ولي العهد أو يجلس على سرير، وبالطبع فإن القيصرية، وهي امبراطورة روسيا كلها وحفيدة الملكة فكتوريا ملكة الانكليز، ما كان لها على التأكيد، أن تسمح بوجود إنسان قدر تشمئز منه النفوس إلى جانبها.

كان الأب، بعد عودته من الحمام التركي، يغير ملابسه. وقد استمر يرتدي طراز زي الفلاحين، غير أن ملابسه أصبحت تفصل من أقمشة أقل خشونة وأكثر جودة ونفاسة.

وكان بعد أن يفرغ من ارتداء ملابسه ينطلق إلى دار صديق أو قصر آخر من أصدقائه: حيث يشرب الشاي، ويتناول طعام العشاء من بعد، ويشارك في نقاش حول الأمور الدينية، وكانت هذه الاجتماعات ذات أثر بالغ في العاصمة وكانت أنبأها سرعان ما تنتشر، ذلك أن وجود «الأب» في هاتيك الاجتماعات ومشاركته في المناقشات التي تدور فيها كانت مما يصبر إليه الكثيرون.

وكان «الأب»، مرات عديدة في الأسبوع، يقضي عصر اليوم في «تسادكويه سولو» مع «آنافيرووفا» ثم لا تلبث القيصرية أن توافيهما، وعندئذ تجري مناقشات قوية ذلك أن «الكسترا» القيصرية كانت على صلة عميقة بجميع

القضايا الدينية.

وذات يوم جعلت القيصرة تتشكى من حالة ولدها الصغيرة. وكانت صحتة في الواقع، قد تحسنت، غير أنه لم يكن قد نال الشفاء النهائي رغم عميق إيمان القيصرة وصلواتها الكثيرة، وهتفت تقول:

-لقد سبرت غور قلبي ونفسي، أيها الأب المقدس، ولكني لم أستطع أن أجد الخطأ الذي يحدث كل هذا الألم وكل هذا العذاب لولدي المسكين البريء. فلماذا يشيح الله عني برجهه في حين أقوم على خدمته بكل صدق نية وطوية؟

عندئذ رفع الأب إصبعه الضخم الأسمر وريت به على ظاهر يد القيصرة وغاص بنظره في عينيها الاثنتين ثم قال:

-إننا نخدم الله بصورة أفضل إذا قمنا على خدمة أبنائه البشر. فهل فعلت كل ما يدخل في وسعك أن تفعليه لخدمة شعبك؟ وماذا ترى قد حدث لأقرباء القيصر والدنا ولشقيقه ولعمه الوحيد الذي بقي له؟ ألم ينفوا من وطنهم الذي يحبونه بناء على إصرارك وإلحاحك أيتها الأم الصغيرة؟

وعلى الأثر ظهرت في وجه القيصرة الجميل بقع النمش الصغيرة الحمراء البشعة التي تشوهها كلما غلبت على أمرها أو تملكها الغضب. وقد اعتدلت قليلا في جلستها، ثم تهاوى جسدها على الأريكة وراحت تقول:

-إنك تحدثني عن أولئك الناس لقد أسأؤوا إلى اللياقة والكرامة إذ تزوجوا نساء مطلقات رغم أوامر صاحب الجلالة القيصر. ويجب أن ينالوا العقاب على معصيتهم وسلوكهم الشائن.

-وهل خصك الله بانتقامه أيتها الأم الصغيرة؟ إنه وحده هو الذي يعاقب العصاة والمذنبين من عباده. واذكري أيتها الأم، أن الله قال: «اصفح واغترف سيعا وسيعين مرة.. وإذا لم تكن رجىما ف...»

غير أن القيصرة قاطعتة قائلة:

إن الرحمة تعني أنه يجب أن نحسن إلى الفقراء ونساعد المصابين، ولكنها لا تعني أن علينا أن نغفر للخطاة الأبقين، وعلى الأخص إذا كانوا من عائلتنا.

وكان وجه القيصرة قد اشتعل احمرارا، وصوتها ارتعش من الغضب. وعندئذ نهض «الأب علامة على انتهاء الحديث.. وكان هو وحده، في الامبراطورية جميعا، الذي يجزؤ أن يبيع لنفسه أن يفعل ذلك: لقد فعل ما يفعله القيصر وما يفعله الملوك المتوجرون حين ينهضون معلنين بذلك انتهاء المقابلة أو الحديث مع الآخرين.

وعاد الأب إلى بيته، وبعد قليل سمعنا رنين الهاتف، وكانت المتكلمة هي «آنا فيريوفا» غير أننا، نزولا على أوامر الأب، أجبناها أننا لا ندري أين هو. واستمرت «آنا» تتصل بنا هاتفيا طيلة الليلة كلها على أمل أن تجد الأب... وكانت جلالة القيصرة قد اضطربت أشد الاضطراب بسبب العبارات التي سمعتها منه، وكان هذا هو ما قالته «آنا». وقد طلبت منا أن نخبره بأن عليه، فور عودته إلى البيت «أن يذهب إلى القصر» ولكن الأب لم يلب هذا الطلب إلا في ساعة متأخرة جدا من الغداة، وبعد أن ألحت «آنا» في ضرورة حضوره مرارا كثيرة.

وكان القيصر نفسه هو الذي تلقاه، وصافحه بحرارة وقال له:

- شكرا لك، أيها الصديق، شكرا. إن جلالة القيصرية هي التي تقدر لك صراحتك وتشددك.. وإننا لسعداء كل السعادة أن نجد واحدا مثلك... لا يشق ثياب الكهنوت لكي يجري في أذيال ثياب الملوك... واحدا يفعل ما يرى أنه يجب أن يفعله حتى لو كانت أعماله التي تصدر عنه ستجر عليه ذهاب الحظوة أو النفي..

وقد ابتهج «الأب» كثيرا بكلمات القيصر هذه.

والواقع فإنه على الرغم من امتنان القيصر للمعون الذي قدمه الأب برعاية ولي العهد والعمل على شفائه من أمراضه فقد ظل على نقيض القيصرية، يعيدا عن أن يتخذ من الأب مستشارا أو موصيا لسره...

وقد أحدثت كلمات الأب أثرها، وآتت أكلها، فلم تمض أيام حتى عفا القيصر عن شقيقه الفراندوق «ميشل» وزوجته، فظهرا في «سانتر سبورغ» واتخذها مقرا لهما، ثم لم تلبث العلاقة القديمة بين الأخوين أن عادت إلى ما كانت عليه من قوة وعمق. وقد يحسن هنا أن أقول أن الفراندوق ميشيل قد قتله الشيوعيون بعد الثورة البلشفية..

وكان ميشيل فيما سبق أكثر أعضاء الأسرة القيصرية شعبية، وكان ضباطه ورجاله يعبدونه، ولما عفا عنه القيصر عاد على رأس فرقته العسكرية التي احتفت به احتفاء عظيمًا بلغ حد الهذيان.

ومع ذلك فما أندر ما كان الفراندوق وزوجته يذهبان إلى القصر، وفي حدود علمي فإنهما لم يستقبلا في البلاط إلا في مناسبات قليلة نادرة هي اجتماعات العائلة المالكة التي لم يكن ثمة مناص من حضورها.

ونزولا على إرادة «الأب» كذلك فقد عاد إلى روسيا من المنفى عم القيصر
الفراندوق «بول» وزوجته الأدنى منه نسبا الكونتيسة «هوفانغلسن»

وقد خلع القيصر على الكونتيسة لقب «الأميرة بالي» وهو لقب قديم وذو
شرف رفيع. وشيد الزوجان لهما قصرا بديعا فأقاما فيه مع أولادهما الثلاثة، ثم
سرعان ما أصبحا من أفضل وأقرب الأصدقاء إلى «الأب»

إلا أن القيصرية لم تستقبل أحدا من أولئك المنفيين العائدين إلى وطنهم
الاستقبال الحسن المرجو. كانت لا تزال حاقدة نائمة، وكانت ترى أنها ذهبت بعيدا
جدا بالموافقة على عودتهم، ولذلك فإن الموجدة التي كانت تنظري عليها ضدهم لم
ينقص منها شيء قط. وفيما عدا الفراندوق «بول» عم القيصر، فقد كان
العائدون من المنفى جميعا يجهلون أنهم مدينون للأب بعودتهم.. وكانت
آنافيريوبفا هي التي أعلمت بذلك الفراندوق «بول»، غير أنها كانت من كراهة
الآخرين ومقتتها إياهم بحيث لم تبح لهم بكلمة واحدة. وبالطبع فلم يكن واردا
على الإطلاق أن يعلمهم «الأب» نفسه بذلك...

ولا بد أن أذكر هنا أنه تحت تأثير الامبراطورة الوالدة انضم إلى أعداء الأب
كل من الفراندوقين: «نيكولا» و«بطرس» وكان موقفهما العدائي هذا يشير
غضبي أنا، إلا أنه كان يضحك الأب فيقول:

-إنهم أناس طيبون. وهم لو كانوا يدركون ما هم مدينون به إلي لأخذهم
الارتباك وإنه ليضحكني أن أراهم يعنفون بي وينظرون على الغيرة من الصداقة
التي يوليني إياها صاحبا الجلالة القيصر والقيصرة...

كان صاحب الغبطة «هيرموجين» أسقف «سارتور» شخصية كبيرة مرموقة،
وقد كان هذا الأسقف مرحا باستمرار، ضاحك السن أبدا. إلا أنه كان إلى هذا
رجل كنيسة عظيم الطموح. وكان يحب «الأب» وتسره صحبته، وكان يجله

باعتباره من رجال الله، ولكنه عاد فانطوى له على حقد قاتل عندما لم يستطع أن يقنعه أو يرغمه على إطاعته في بذل نفوذه لدى القيصر فيما يتعلق بالشؤون المالية للكنيسة وكان هذا الأسقف نفسه هو الذي، بتوجيهات اللجنة المركزية للاتحاد الحق للشعب الروسي، عرض مبلغ خمسمئة ألف روبل على «الأب» لكي يترك اللجنة المذكورة ويغادر «سانبترسبورغ» ولا يعود إليها قط، ولا يحاول على الإطلاق أن يتصل بالقيصر والقيصرة.

ولتوضيح ذلك أقول أن «الأب» في عمله مع هذه اللجنة استطاع أن ينفذ إلى أسرار كثيرة منها بيع الأراضي التي تخص الكنيسة، وسوء استعمال الأموال والممتلكات الكنسية، وكل ما كان يرتكب من تزوير وفساد حول تعيينات رجال الكنيسة الأرثوذكسية..

وقد كان المبلغ الذي عرض على «الأب» جسيما، غير أن المال لم يكن ليعني شيئا في عين الأب.. ولذلك فقد رمى بالمبلغ الكبير في أكثر ما يسعه من احتقار وازدراء.. وعندئذ أخذت الضغوط في أعنف صورها الممكنة تتوالى عليه إلى حد التآمر على قتله.

-٧-

وقد دعي «الأب» ليشترك في اجتماع للجنة المركزية عقد في قصر الاسقف وكان قد اجتمع ثمة نحو من اثني عشر عضوا من أرفع رجال الكنيسة منزلة ومعهم بالطبع، الاسقف «هيرموجين» وفي حجرة خلفية بعيدة عن حجرات القصر وغرفته وقاعاته انقضوا فجأة على «الأب المقدس» وقد شمررا عن سواعدهم وراحوا ينهالون عليه ضربا وركلا وسبا ولعنا..

وقد دافع عن نفسه ما وسعه ذلك غير أنه كان وحيدا وكان أعداؤه من الكثرة بحيث استطاعوا أن يبطحوه ويواصلوه ضربه بوحشية خارقة، وقد أمروه

أن يغادر المدينة من توه، وأن يقطع علاقته بأسرة القيصر ويستقبل من اللجنة، ثم عرضوا عليه مرة ثانية مبلغ الخمسمئة ألف روبل، وهددوا بضروب من العقاب الرهيب الذي يمكن أن يصل إلى حد القتل إذا هو لم يخضع لما يريدونه..

غير أن الأب المقدس.. استطاع أن يصل إلى الشارع وينادي حوذا دون أن يحس بعنف الضرب الذي تلقاه.. ولحسن الحظ فإن «أنافيروفنا» كانت عندنا في البيت عندما عاد الأب وآثار الضرب المبرح والدماء ظاهرة عليه. وعلى الرغم من قنمته واحتجاجة فقد أبت «أنا» إلا أن تستدعي له طبيبها الخاص الذي غسل جروح «الأب» وضمدتها، ثم اضطر أن يقطب له جرحا غائرا في جبينه أحدثه صليب الأسقف.. وقد ظل أثر هذا الجرح ظاهرا حتى آخر أيام حياته.

وكان الأب لا يريد أن يصل الحادث إلى علم صاحبي الجلالة لكي لا تقلق القيصرة أو تضطرب غير أن «أنا» أخبرتهما بما حدث للأب بصورة مفصلة، ولم يلبث القيصر أن اهتم بالأمر كل الاهتمام، وأمر بإجراء التحقيق الذي أسفر عن إبعاد الأسقف «هيرموجين» إلى أبرشية صغيرة في أقاصي «سبيريا» كما أبعاد غيره إلى ناحية أخرى من سبيريا، ونال الآخرون جزاء ما فعلت أيديهم عقوبات مختلفة.

وفي أثناء هذه السنة نفسها ١٩١٢-١٩١٣ حل بالأب شقاء آخر. فقد اندلعت نار الحرب في البلقان، وهي حرب بدأتها ضد تركيا: بلغاريا، والصرب، ومونتينيغرو، واليونان.

وقد كانت الغراندوقسان «انسطاسيا» و«ماليتسا» كرميتي ملك «مونتينيغرو» تريدان هما وزوجاهما الفراندوقان «نيكولا» و«بطرس» أن تلقيا روسيا بنفسها في أتون هذه الحرب كائنا ما كان الأمر. ولم يكن أحد ليتوقع أن حرب البلقان سنة ١٩١٢ ستفضي إلى قيام الحرب العالمية الأولى.

وكان القيصر على وشك إعلان الحرب على تركيا بتأثير ضغوط مستمرة ملحة من قبل العسكريين، وأسرته ورجال السياسةالذين كانوا جميعا يأملون أن يستوثقوا من وضع «الدردنيل» تحت المراقبة، وهو حلم قديم شد ما داعب خيالهم. وكان الاب المقدس.. يمقت الحرب بكل قلبه، وكل عصب من كيانه، ومن أعماق نفسه وفكره.. ولم تكن الحرب في نظره غير مذبحة وحشية لا تفتقر إلا إذا كانت ضرورة الدفاع في وجه المعتصين هي التي تدعو إليها.

ودون أن يسأله أحد رأيه فإن الأب خف إلى القصر وطلب أن يقابل القيصر، وما أن سمح له بذلك حتى دخل الأب، في الموضوع مباشرة.

ومن عادته أنه كان يرفع عقيرته عندما يدخل في نقاش أشير لديه، بل كان صوته يعلو ويرتفع حتى ليغدو دويا. وفي تلك اللحظة جعل يروح ويحي في مكتب القيصر يخطرات واسعة وهو يضرب راحة يده اليسرى بقبضة يده اليمنى، وهو يلقي بالأسباب التي تدعوه أن يعارض في دخول روسيا الحرب...

-٨-

كان الأب بصر قاتلا للقيصر:

-إن الحرب إساءة بالغة نحو الله. وهي نكال لشعبه! إنها مذبحة للأبرياء في سبيل مصلحة عظيمة هذا العالم، إن الناس العقلاء ينبغي أن يسروا خلاقاتهم بطريقة مسيحية ولن يكون في الحرب غالب، ولكن يكسب منها الأفراد. إن روسيا لم تنفض يديها من حرب مدمرة إلا منذ قليل. ولقد وصل رفاه الشعب وازدهاره الآن إلى أعلى قمة عرفها التاريخ فلا تدمر ما أمكن أن يكسبه جذك بالعناء ولم يؤت أكله إلا منذ وقت قريب انس هذا الهول المفزع وأعلن بجرأة أنه لن يكون ثمة دخول في حرب. ولقد جاء في وصايا الله قوله: «لا تقتل» فحاذر وأطع أمر الله وإلا عرضت عرشك للضياع. إن الحرب تأتي بالثورة دائما.

وعلت شفتي القيصر اهتسامة خفيفة، وأصغى للأب بانتباه ورقة تعبير على ملامحه. وبعد برهة نهض ومد له يده وقال:

سأضع براهينك موضع التقدير والاعتبار، وسأفصح عن قراري في هذا الموضوع عندما أنتهي من بحثه. والآن فهل ترى أن تذهب وترى الكسيس ولي العهد؟ لقد طلب أن يراك. وبعد ثلاثة أيام من هذا الاجتماع بين القيصر والأب ظهرت صحف الصباح معلنة أن القيصر قد أعلم «الدوما» -البرلمان- أن روسيا لن تتدخل في حرب البلقان.

ولما انتهى هذا النبأ إلى علم الفراندوق نيكولا كاد يختنق من السخط والغضب. وعلى حين غرة اقتحم علينا حجرة الطعام وراح يشتم الأب.. وكان شعره الأشيب ولحيته البديعة ووجهه الجليل تكسبه ملامح زعيم.

وعلى الرغم من الإعجاب الذي كنت أحمله له، فقد كنت أخشاه قليلا. ولم يكن هذا هو موقف الأب الذي حاول أن يشرح له الموضوع، كما فعل أمام القيصر غير أن الفراندوق راح يصيح ويسب ويلعن دون أن يصغي لما يقوله الأب، وفي النهاية اضطر الأب وقد قللكه الغضب هو الآخر من موقف الفراندوق الذي لا يليق برجل مسيحي، أن يبادله صياحا بصياح.

وبادرت أمي، وقد ذعرت أيما ذعر فذهبت بي إلى غرفة الأب وتركت الباب مواريا... وكان الفراندوق لا ينفك يصرخ ويرأر قائلا للأب وهو يخاطبه باسمه المجرد: - يا غريغوار ايفموفيتش لست أكثر من خنزيرا إنك ناكِر قَدْرَ الجميل، وبدوني وبدون الفراندوقة«انسطاسيا» لما كنت شيئا مذكورا، لما كنت غير راهب حقير شريد طريد... إنني أنا الذي حمل إليك الثروة والنفوذ والشهرة. إن «انسطاسيا» تولست راکعة أمام القيصر لكي يستقبلك. وماذا كافأتني أيها الخنزير؟ كافأتني بأن حرمتني أن أنهي حياتي كجندي نهاية مجد وفخار بتأثيرك

على القيصر أن لا يعلن الحرب... أجل... هكذا كانت مكافأتك لي!

ومن الباب الموارب رأيت الأب يتهاوى على الكرسي أمام المنضدة، ثم جلس
الفراندوق في مقابله. وقال الأب:

-إننا جميعا نذكر فضلك. إن آل راسبوتين جميعا يعرفون جميلك يا
غراندوق بكل تواضع، إن حياة مشفانية بأسرها لا يمكن أن تكافئك أنت
والفراندوق انسطاسيا لما طوقتما به عنق راسبوتين الذي أنقذتما حياته.. غير أنك
تطلب مني أن أسير في الاتجاه الذي يناقض أخص معتقداتي وأعزها على نفسي،
وأن أتجاهل وصايا الله الذي قال: «لا تقتل». وإنك لتسألني أن أعصي الله»

-٩-

بذل الفراندوق «نيكولا» جهدا واضحا لكي يضبط نفسه ثم أجاب قائلا:
بصوت أكثر هدوءا:

-أنا الابن الأصفر للقيصر نيكولا الأول، وكان اسكندر الثاني أخي،
واسكندر الثالث ابن عمي، والآن أنا عم القيصر الحالي. فمن يهمة أكثر مني
مستقبل روسيا وسمعتها؟ لقد كانت تركيا عدوتنا دائما، وقد أبت علينا مدخلا
إلى البحر الأبيض المتوسط ومنه إلى سائر المياه الدافئة. وتركيا ليست أمة
مسيحية، إنها أمة كفار عصاة غير مؤمنين يكرهها الله، وقد كان في إمكاننا أن
نخرج ظافرين من حرب القرم لو لم تنضم إلى تركيا انكلترا وفرنسا ضدنا، وكان
أبي هو الذي يقود الجيوش الروسية التي حلت بها الهزيمة يومئذ. وهكذا فإن شرفه
ظل إلى اليوم بلا انتقام له...

ثم قفز الفراندوق واقفا على قدميه وصاح بصوت مشغل بالانفعال:

-إنني سأنتقم لتلك الهزيمة، وسأرد المارقين إلى الدين... هذا ما كان يريده الشعب الروسي دائما، وسأكون أنا الذي ينتقم له وعلى يدي يكون خلاصه...

ونهض الأب بدوره وقال بهدوء: وتصبح قيصره. أليس كذلك؟ إن هذا هو ما تريده: أن تصبح بطلا شعبيا، وتخلع قيصرنا وقيصرتنا، وتغدو امبراطورا، لأنك تدرك أن الحرب تحمل الثورة دائما في أطرائها، وتحدث الانقلابات.

فقال الفراندوق نيكولا:

القيصرة مجنونة، ويجب أن تحبس في دير. والقيصر يحبها حبا مبرحا. إن روسيا بحاجة إلى زعيم وإلى سيد.

وأجابه الأب حاسما مقاطعا:

-ولن يكون هذا بمعاونتي أنا. إنني أحب أبانا القيصر وأمنا القيصرة، أحبهما ما دمت على قيد الحياة.

وقاطعه الفراندوق ملمحا:

-تماما.. تماما.. ما دمت على قيد الحياة.. وقد لا يكون هذا طويلا.. إن غراندوقا مثلي لا يقبل الإهانة من فلاح مثلك.

ثم خرج صاحبا مرغيا مزبدا من بيتنا.

وأقبل علينا الأب في غرفته، وجعلنا هو وأمي وأنا نبكي وننتحب طويلا.. كان الأب في الواقع قد أحب الفراندوق نيكولا حبا عميقا، وكان الفراندوق يستقبله دائما بالبشاشة والمرح ويقبله مدوية على الخدين. وكنا أمي وأنا نحب زوجته الفراندوقة انسطاسيا وننزلها من قلبنا منزلة عزيزة.. وكان هذا كله لا

يكاد يترك لنا مجال التغلب على أُلنا.

ويعد هذا بقليل جرت أول محاولة لاغتيال الأب! كان عائدا من قداس الصباح وقد اتخذ الطريق الذي اعتاد سلوكه دائما في مثل ذلك الوقت وسمع خلفه عربة يعدو بها خيلها بسرعة جنونية، وما كاد يلقي بنظرة سريعة من فوق كتفه حتى كان الحوذي قد أرخى أعنة الخيل لتدهم الأب، ولم يجد متمسعا من الوقت لأكثر من أن يلقي بنفسه على باب كبير في الطريق من الأبواب التي تدخلها العربات وكادت الخيل والعربة الثقيلة أن تدهمه وتطويه تحت عجلاتها. وقد خرج من هذه المكيدة بقطعة سلخت من رأسه ومعها بعض شعره، وربما حدث له هذه الإصابة بضربة من حذوة حصان، أو من الحافة الحديدية لإحدى العجلات...

ولما علمنا بما وقع له وبأنه قد غبا سالما معافى قلنا إنها إحدى المعجزات الربانية، غير أن الأب اهتسم وأجاب قائلا:

-لقد كانت هذه أفضل مناسبة رائعة لموتي . إذ كنت ساعتئذ قد حاولت قربان الرب وأصبحت في حالة النعمة الإلهية التي يحلو معها الموت...

- ١٠ -

كان ولي العهد، وهو في العاشرة من عمره إذ ذاك، بصحب والده القيصر إلى رحلات الصيد، عندما لا تكون الرحلات شاقة أو مجهدة. وفي أثناء إحدى هذه الرحلات سقط الطفل عن جواده وأصيب بجرح بالغ في عانته. وكان هذا أول حادث يفعله منذ سنتين ونتج عن الجرح دمل متقيح. وكان الطبيب الدكتور «بودكين» لا يفارق القيصر أبدا، وقد استنجد بكبار الأطباء المختصين من الألمان والبولنديين فلم يستطيعوا أن يفعلوا شيئا ووقفوا عاجزين حيال هذه الإصابة المروعة. وارتفعت حمى الطفل، وغاب عن وعيه، وبقي في غيبوبة تامة

ثلاثة أيام متوالية وكان الجميع يتوقعون موته في لحظة أو أخرى.

وكنا نحن في «بوكروفسكوي» وهي قرينتا بيسييريا. وقد وصلت برقية القيصرة إلينا متأخرة. وجاءت في البرقية هذه الكلمات فقط: «الأطباء عاجزون ياتسون، صلواتك وحدها هي مناط أملنا»

قرأت البرقية للأب، فطلب أن أحسبه إلى غرفة الاستقبال حيث تهيمن ايقونات المسيح والعذراء وصور القديسين. وكان ثمة مصباح صغير، وهو من هدايا القيصر والقيصرة، دائم الاشتعال أمام هاتيك الصور والايقونات المقدسة.

وقد كتب لي أن أشاهد ثمة منظرا صروعا بلغ من رهبته في نفسي أنني لا أذكره إلى اليوم، ألا ويقشعر بدني وتتأبني رعدة باردة تسري في بدني كله. وقد قال لي «الأب»

- ماريا، يا حمامتي، سأحاول الآن أن أقوم بأصعب الشعائر وأشدّها خفا... وينبغي أن ألجئ فيها، فلا تخافي ولا تدعي أحدا يدخل، وإذا ما فقدت وعيي فأرسلني «ديتري» إلى دائرة البريد لكي يرسل بالبرقية التالية إلى صاحبي الجلالة: «لقد سمع الله دعاءكما، وسينجو ولدكما ويظل على قيد الحياة»، ثم تنفس الأب عميقا وقال: «في وسعك أن تبقى إذا أردت، ولكن لا تكلميني ولا تلمسيني، ولا تأتي بأية حركة. عليك بالصلاة فقط»

ثم خر على ركبتيه أمام الايقونة وشرع يتلو صلاة الشفاء ويقول:

- إذا كانت هذه إرادتك يا الله فدعني آخذ عن ابنك الكسيس ولي عهد القيصر أوجاعه وآلامه. وهبه قوتي يارب، لكي ينال بها الشفاء.

وقد بدا على «الأب» ما لم أعهد فيه قبلا من غرابة الأطوار، وتراءى لي

أنه مريض واهن شديد الإعياء حتى تملكني الخوف، فوضعت راحة يدي تحت ذقني وضغطت بشدة لكي تصطك أسناني، وغدا مستحيلا أن أركز تفكيري في الصلاة.

وأخذ صوت «الأب» يضعف، واضطر أن يكف عن النطق، وغدا وجهه أبيض كقطعة من الثلج، ثم تغضن وتلوى وتعوج وتشوه تحت تأثير ما يعاني من ألم، وغدا تنفسه لهاثا متقطعاً، وتقطر العرق من جبهته وسال على خديه، وأضعت عيناه كقطعتي زجاج جامدتين لا تريان شيئا. ثم انقلب على ظهره فوق الأرض. وبقيت ساقه اليسرى منطوية تحتة، وبدا كأنه يتخبط فيما يشبه احتضارا رهيبا مخوفا. وألقي في روعي أنه سيموت فوراً، غير أنني تحاملت على نفسي وذهبت إلى المطبخ وطلبت من ديمتري أن يذهب إلى دائرة البريد لإرسال البرقية، ثم حضرت الشاي وحملتة إلى «الأب» وكان ما يزال فاقدًا وعيه، وجثرت إلى جانبه وحاولت أن أصلي.

وبعد مرور وقت طويل فتح عينيه وابتسم.

- ١١ -

قدمت للأب الشاي وكان قد ابتعد، فشربه بنهم. وما هي إلا أن عاد إلى حالته الطبيعية، وقد أبى أن يذكر شيئا عن كل ما وقع واكتفى بأن يقول:

- إن الله هو الذي أذن بشفاء الطفل وبعد سنتين من هذا كتب لي أن أرى الأب مرة أخرى وهو يستفيق من غيبوبة تشبه الموت كادت تؤدي بحياته، وفي هذه المرة أيضا لم أستطع أن أنفذ إلى ذلك السر الخفي الرهيب...

وفيمما بعد شرح لي «بادامبير»، وهو عطار وخبير بالأعشاب من «التبيت»، كيف أن «اللسا» في زمانه كانوا يأخذون في صميم أبدانهم أدواء

المرضى الذين يقومون على علاجهم. وكانت أجسامهم القوية المثينة تتغلب على الداء مهما يكن. وكان هذا يتيح للمرضى أن يدخلوا دور النقاة ويستعيدوا عافيتهم.

على الرغم من تحذير الأب فقد أعلن القيصر الحرب على ألمانيا. وقد ضاقت عائلة القيصر ذرعا بإنذاراته وتحذيراته المتتالية فلم يعد القيصر يستدعيه إلى القصر.

وقد ظل «الأب» في أثناء خريف سنة ١٩١٤ ملتزما جانب الصمت، غارقا في تأملاته، محزوننا. واهن النفس، ذلك أن العواطف العارمة التي أثارها إعلان الحرب، والمشاهد الحماسية الملتهبة التي تبدت بها الجيوش الروسية المنطلقة لخوض غمرات القتال، ومرأى الرايات والأعلام وهي تتقدم الجيوش أثرت كلها في «الأب» وأفقدته الأمل وثبطت عزيمته وأوهنت قواه... وكان يعلم أن القليلين هم الذين سيعمدون أحياء من كل أولئك الذاهبين إلى الحرب. غير أن الملتفين حوله من المريدين القدماء ازداد عددهم بوجود وجوه جديدة بينهم، وقد ظلوا جميعا أوفياء له، وبلغ عدد المراجعين وطالبي مقابلاته من الكثرة بحيث اضطر الأب أن يستخدم اثنين من الموظفين..

ولما سمح للأب، أخيرا، بدخول القصر، استقبله القيصر بمثل الحرارة التي كان يستقبل بها في السابق، ثم أجلسه إلى منضدة انتشرت عليها شتى الخرائط والوثائق وهتف يقول له:

- أيها الأب المقدس! لقد أتيت في الوقت المناسب لكي تشاهد معي أمرا عظيما، فقد حققت جيوشنا نصرا عظيما، ففي «غاليسيا» غدونا ننتقل من ظفر إلى ظفر، ولقد احتللنا «برودي» و«باش» و«تارنوبول» و«بريزداني» و«جاروسلو». واستولينا على «المبرغ» وآبار بترولها العظيمة وقد كانت هذه

الآهار تزود ألمانيا بالبترول. أفلا تهنتني أيها «الأب»؟

ولكن الأب ابتسم بأسى، ثم قال:

- ما هي خسائرنا في الرجال من قتلى وجرحى، وأسرى؟ وكأفأ أزال هذا السؤال سكرة القيصر:

- كانت خسائرنا فادحة، فادحة جدا، ولكن.. غير أن وجهه عاد فاستضاء من جديد وراح يقول:

- لقد عانى النمساويون مما هو أشد وأنكى، ففي «راوينا روسكا» فقط أفنينا منهم مئتي ألف رجل وأسرا مئة وعشرين ألفا.

وأجابه «الأب» قائلا:

- إنهم جميعا أبناء الله. إن أرقامك التي ذكرتها لا تملأ قلبي سرورا أيها الأب الصغير، فمتى سيوضع حد لهذا الحقن العظيم ولهذه المذبحة المروعة؟ نحن اليوم في قمة مجدنا، وعما قريب ستدور الرياح على غير ما نحب.

- ١٢ -

ابتسم القيصر ابتسامة المتسامح وقال:

- لا شك في أنك استمعت إلى تلك الأحاديث التي يدلي بها ذلك الجبان «ويت» ولكن يحسن أن تعلم أن كل شيء يجري وفقا لخططنا. ولذلك يعد أن وثقنا من النصر العظيم، فإننا شرعنا أنا و«بوليلوغ» في وضع مشروعات خاصة تتعلق بالتعويضات التي سيكون على الأعداء أن يقدموها لنا، فاسمع، أو على الأصح دعني أبين لك.. ونشر القيصر نيكولا خرائطه وأوراقه وراح يضع

بقلم من رصاص، خطوطا ويرسم صلبانا صغيرة.. وكانت عيناه تتألقان حماسة
في وجهه الملتهب احمرارا.. وطفق يقول:

- لقد وعدنا إيطاليا أن نعطيهما «فالونا» مكافأة لها على دخول الحرب
وسنقتطع من النمسا حتى نحصرها في حدود «البيترول» الألماني و«سالزبورغ»
فقط. أما أراضي بولونيا التي كانت ألمانيا قد وضعت يدها عليها فستصبح لنا،
وكذلك بروسيا الشرقية، وستنال فرنسا الالزاس واللورين، ويجب أن نعطيهما
أيضا جميع الأقاليم الألمانية الأخرى، ستكون هناك تعديلات أخرى غير هذه...

وكان الأب قد استشاط غضبا ولم يستطع أن يكبح جماح سخفه أكثر مما
فعل فقاطع القيصر قائلا:

- إنك تبيع جلد الدب قبل أن تقتله، أيها الأب الصغير!

وقال القيصر:

- علنا أن نقبض عليه ونسحقه. إن الله معنا!

ونهض وراح يذرع الحجرة، وهو لا ينفك يضرب راحة يده اليسرى بقبضة يده
اليمينى على عادته في مثل هذه المواقف الشديدة الحرج. ثم صرخ بصوت هادر:

- لا تحدثنى عن الله! إن روسيا دخلت هذه الحرب ضد مشيئتها! والويل لمن
لا يريدون أن يروا هذا. هذه الحرب ليست حريا مقدسة. إنها حرب تجارية، أشعلت
نارها على أمل اجتلاب المنافع والمكاسب. وكلماتك نفسها أثبتت لي ذلك. وأنت
تعرف حدودنا وإمكاناتنا فليس ثمة من ذخيرة، والبنادق قليلة، وما من أطباء،
وجنودنا غير مدربين... وإن إرسال رجال من غير سلاح إلى القتال يشكل جريمة
قتل. قتل أبنائك! أنت والدنا، وقيصرنا، وإن الاستمرار في هذه الحرب المخيفة

سيؤدي إلى دمارنا، ودمارك أنت، ودمار روسيا كلها. وإني لعلى علم بهذا كله،
بقدره الله وأمسك الأب قليلا، ثم عاد يقول:

- أصغ إلي، أيها الأب الصغير، إن الأقوياء قد انتفخوا غرورا وكبرياء.
وإن اليوم الذي ينزل فيه غضب الله كأنه مبيض الرعد قريب. إن المسيح لا
يستطيع أن يتحمل صراخ الظلم الذي يرتفع إليه من هذه الأرض الروسية. وأنا
أمتنا لك بأن انتقام الرب سيكون رهيبا. وإني لأتوسل إليك باسمه أن لا تواصل
هذه الحرب وأن لا تعرض مستقبل روسيا لأخطار لا يعلمها إلا الله.

وعندما أنهى الأب كلامه ظل القيصر جالسا، وقد أضحى وجهه كقطعة من
مرمر وخوت عيناه وتجمدت أطرافه وبدا كأنه عاد لا يفقه شيئا..

بعد هذا تحافى صاحبا الجلالة عن الأب. غير أن «آنا فيريوفا» ظلت تتصل
بنا هاتفيا كل صباح وتزورنا عدة مرات في الأسبوع. وكنا نتناول طعام العشاء
أسبوعيا معها، ولا شك في أنها كانت تنقل أحاديثنا كلها إلى القيصرة.

وكان الأب لا ينفك أبدا يحدثها عن ضرورة إنهاء الحرب وإحلال السلام،
وإذا لم يكن ذلك ممكنا فيجب الحصول على أسلحة فعالة لمواصلة القتال. وعندما
سأته الأوضاع العسكرية قرر القيصر أن يعفي عمه الفرانديك نيكولا من منصبه
ويحتل مكانه رئيسا للعمليات الحربية. وهكذا تبوأ القيصرة كرسي القيصر
على رأس الحكومة.

- ١٣ -

عينت القيصرة حاكم «نيجنني نوفغورود» السابق - الكسيس خروستوف -
وزيرا للداخلية. وكان «الأب» يكره خروستوف، فامتنع عن العودة إلى القصر
حين عدنا من سيبيريا. وكان الأب يجهل أن وزير الداخلية كان يبادل الكراهية

مثة ضعفها، كما كان يخشى جانبه أيضا.. فحاول أن يقتاله خشية أن يبيط الأب اللثام عن أعماله الإجرامية أمام عيني القيصرة وقد استعمل لذلك قاتلا مأجورا اسمه «بوريس رزيتسكي»، غير أن امرأته وشت به. وكان لهذا القاتل المأجور سرايق قضائية كثيرة فألقي في غياهب السجن على ذمة إدانة سابقة. وعندئذ قرر «خروستوف» أن يقضي على الأب عن طريق بعض أعوانه، فدعا الأب لتناول العشاء على مائدته، وكان بيته منزويا عن الأنتظار لوقوعه في شارع هادئ تظله الأشجار.

وكان المتفق عليه أن يقوم القتل بمهاجمة الأب في لحظة خروجه من بيت «خروستوف». وبعد أن يقتلوه فإن عليهم أن يلقوا بجثته في نهر «نيفا» غير أن غريزة الأب نبهته إلى الخطر الذي سيعرض له فلم يذهب إلى مكان تلك الدعوة.

ولكن خروستوف لم يتوان، عن اصطناع وسيلة أخرى لقتل الأب، فرشا «كوميباروف»، وهو رجل بوليس قديم ومن هيئة حرس الأب لكي يدس له السم في النبيذ، غير أن هذا الرجل لم يجد نبيذا بسبب حظه في تلك الأيام فدس لنا السم في الحليب وقبل أن تقدم الطاهية «كاتيا» فطور الصباح قدمت لقطط البيت بعض هذا الحليب، وقبل أن يتاح لنا الوقت الكافي لشرب الحليب نفقت القطة جميعا بفعل السم. وهكذا أنقذت حياة خمسة أشخاص هم: الأب و«فارفارا» و«كاتيا» و«دونيا» وأنا..

وكانت المؤامرات المدبرة لخلع القيصرة من الكثرة بحيث لا أستطيع تعدادها. ومن هذه المؤامرات كان تدبير القبض عليها لدى قيامها بالتفتيش في مقر القيادة العامة، ثم حبسها في أحد الأديرة أو نقيها إلى «ليفادا» حتى نهاية الحرب. وبناء على هذا كان القيصر سيرغم على النزول عن العرش.

فلم يكن إذن مما يبعث على الدهشة أن يشعر القيصر والقيصرة، أنهما

أصبحا منمزلين منبوذين.. وقد بدا لهما أن «الأب» هو الرجل الوحيد الذي يستطيعان أن يتجها إليه في تمام الثقة... وقد أطلقا عليه منذ ذلك اليوم لقب «الصديق» وازدادت مودتهما له في شهر كانون الأول من سنة ١٩١٥ عندما وقع لولي العهد حادث جديد..

-١٤-

كان الطفل ولي العهد في القطار الذي يقل والده نحو أركان حربه. وكان مطلا يتطلع من النافذة. وعلى حين غرة استعمل السائق كوابح القطار لأمر ما، فارتج ولي العهد، ثم ارتطم بأحد الأعمدة الحديدية التي يستعين بها الركاب على الصعود إلى القطار، فجرح في أنفه، وتبع ذلك نزيف دموي حاد. وقد اتصل القيصر هاتفيا من إحدى المحطات بالقبصرة لينبئها بما حدث ويهينها لما هو أسوأ. واستدعت القيصرة الأب هاتفيا على الفور. وقد سمعت رنين الهاتف المتواصل في بيتنا حوالي الساعة الواحدة بعد منتصف الليل. وقالت له القبصرة عبر أسلاك الهاتف:

- يجب أن تنقذه أيها الأب المقدس، إنني أرجوك، بل أتوسل إليك، لقد أنقذت حياته في مرتين سابقتين، فأنقذه مرة أخرى.

وجأ الأب أمام الايقونات والصور المقدسة وصلى طويلا وبحرارة عظيمة.

وبعد مرور وقت خيل إلينا أنه لا نهاية له خرج الأب من غرفته وهو يترنح، وكان شاحب الوجه، غائر العينين وكأنه صورة معبرة للموت نفسه. ومد يده فتناول سماعة الهاتف، فقد كان الخط مفتوحا بيتنا وبين القبصرة باستمرار كما أنها هي نفسها لم تترك السماعة لحظة واحدة، وقال الأب:

- سيعيش ولدك!

وقد اضطررنا إلى مساندته قبل أن يقع على الأرض، لأنه كان قد أغمي عليه.

وعندما وصل القطار مع ضحى ذلك النهار كانت الحمى التي انتابت ولي العهد قد زائلت، وعاد إلى القلب خفقانه الطبيعي، واسترجع الطفل وعيه وفارقه غيبوته..

وقد أعلن الأطباء، وأعلن القيصر نفسه أن التحسن الذي طرأ على صحة ولي العهد بدأ يتضح في نحو الساعة الواحدة والنصف بعد منتصف الليلة السابقة.. أي اللحظة التي شرع الأب فيها يصلي..

وفي عيد الفصح سنة ١٩١٦ ألقى الأب في نفوسنا الذعر الشديد... وكنا، مع أسرة القيصر، قد استمعنا إلى القداس، وكان «الأب» معنا، وكذلك فرقارا، وأنا فيروبوفا، وفيما كانت جماعتنا تقرأ أمام الكنيسة المفضلة عند القيصرة أرسل الأب فجأة صيحة مكتومة، وهرب الدم من وجهه، وأطبق أجفانه، ثم انزلق إلى أمام كائنا قد أغمي عليه... فهرعنا إليه جازعات، ونحن نصرخ ونصيح، ثم ساعدناه على النهوض. وبعد انقضاء بضع ثوان همس قائلا:

- لا تخفن يا حماماتي.. لقد تكشفت لي الرؤيا، بكل بساطة، عن مشهد رهيب.. فقد رأيت جشتي ممددة في هذه الكنيسة نفسها، وأحسست-في مدى دقيقة واحدة- إحساسا ملموسا بالاحتضار وكأنني في النزاع الأخير فصلين من أجلي.. ويا ما أشد لحظة الاحتضار هذه التي عانيتها! أجل. صلين لأجلي، أيتها الصديقات، فقد دنت ساعتني..

إلى هنا ينتهي ما كتبه ماريا عن والدها الراهب المخيف راسبوتين. إنها صورة من خلال مشاعر الابنة. فهل هي الحقيقة نفسها أم أن ثمة وجها آخر للحقيقة؟ ثم كيف قتل ذلك الراهب ولاقى حتفه بصورة مروعة؟ هذا ما سترويه هذه المسلسلة في حلقات قصيرة ابتداء من غد.

بذكر الأمير «فيلكس يوسيوف» قاتل راسبوتين، في مذكراته، رحلة له إلى الولايات المتحدة في سنوات الثلاثين من هذا القرن. ولأسباب مختلفة فإنه يذكر أن الأمير لا يحتفظ، من هذه الرحلة بذكرى جلية واضحة، غير أنه لا يزال يذكر بصورة خاصة، تلك الصدمة المؤلمة التي أحدثتها في نفسه نساء أمريكا بفضولهن الجامح نحوه.

ومن أمثلة ما تعرض له أن سيدة أميركية هرعت إلى زوجته الأميرة «ايرينا» وألحت كل الإلحاح أن تفرس رأس أصبعها المدبب في ركبته.. وقالت الأميركية تعتذر عن عملها هذا: «إنني فعلت ما فعلت لأنه لم تتح لي قط، في السابق، أية فرصة للاقتراب من أميرة وصاحبة سمو حقيقية من لحم وعظم».

وفي مرة أخرى وجد الأمير يوسيوف وزوجه في حفلة استقبال كبيرة من حفلات المجتمع في نيويورك وقد ضاق الأمير بفضول المدعوين وتجمعهم حوله وحول زوجته وتوجيه نظراتهم الشديدة إليهما فتهاياً لاتصراف هربا من هذا الإزعاج عندما خيل للسيدة الأميركية صاحبة الدعوة أنها تستطيع أن تسوي الأمور بتقديم الأمير وزوجه إلى حشد المدعوين والمدعوات بصوت رنان فقالت وقد رفعت عقيرتها: «أقدم لكم الأمير والأميرة راسبوتين..»

وكانت هذه زلة كبرى وخطأ فاحشا. وكيف يمكن أن يكون الأمير يوسيوف هو راسبوتين نفسه؟ ولكن من ترى يستطيع أن يذكر يوسيوف دون أن يذكر راسبوتين؟ إن ارتفاع منزلة راسبوتين بصورة لا يكاد يصدقها العقل لا يمكن أن تكون منفصلة، في الذهن عن نهايته المفجعة وعن الشخص الذي صنع هذه النهاية.

وفي هذه الأسابيع الأخيرة مرت خمسون عاما على ارتباط اسمي راسبوتين والأمير يوسيفوف ارتباطا وثيقا ودخولهما التاريخ معا، كما كان يحدث أيام السفن الشراعية حيث كان يربط القاتل والقتيل معا بحبل شديد ويلقيان إلى قاع البحر.

كان راسبوتين فلاحا غليظا، أميا، غير مثقف، وسكيرا عرييدا داعرا، وقد تزوج فلاحا مثله من قرينه «بروكوسكوي» فولدت له: ثلاث بنات. وكان الأمير يوسيفوف خارق الجمال كما يمكن أن يكون في النادر جمال رجل. وكان يصغر راسبوتين باثنتين وعشرين عاما، وقد بلغ ذروة المجد عندما تزوج إحدى الغراندوقات فجعل منه هذا الزواج صهرا للقيصر.

وقد قيل إن راسبوتين كان راهبا داعرا. ربما كان الصحيح أنه داعر، ولكنه لم يكن راهبا بالمعنى المفهوم في هذه الكلمة، وربما كان لقبه هو «خادم الله»... أو المتزهده السائ. وقد كتب القصصي الروسي العظيم يصف هذا النوع من خدام الله فقال: إنه رجل يمتص روحك ونفسك وإرادتك. إنك تتخلى عن أرائك بين يديه بطاعة مطلقة واختيار تام، وأنت إذ تعمل ذلك إنما تريد أن تصل إلى طاعة عميقة تقود خطاك إلى كمال الضمأنينة والسلا إلى خالص الحرية والصحة والعافية».

وقد كان ضعف القيصر. وكانت طيرة القيصة وإيمانها بالخرافات، كانت هذه كلها هي التي جعلتهما يتخليان عن إرادتهما ويضعان مصيرهما بين يدي فلاح سيبيريا الخبيث الماكر...

ترك راسبوتين أسرته وانطلق زاعما أنه إنما يستجيب لنداء الله، فراح يجوب

أنحاء بلاده روسيا سنة بعد سنة، وينتقل من دير إلى دير ومن صومعة إلى صومعة وهو لا ينفك يحفظ التوراة والأنجيل عن ظهر قلب، ويصطنع مواهبه في الاستهواء، والتنويم المغناطيسي وشفاء الأمراض. وكان راسبوتين ذكيا، عارفا بأسرار النفس البشرية، وكان محدثا، وراوية، ومستطلعا للغيب، وصانع معجزات.. وباختصار الكلمة كان يملك كل ما يؤهله لينال إعجاب بلاط القيصر الذي كان يعج يومئذ بالدجالين والأدعياء والمشعوذين وأذكىء المحتالين الذين يوسعهم أن يبلغوا مآربهم ويستغلوا غفلة الامبراطور وزوجته الامبراطورة!

وقد انقضت أعوام طوال ما أكثرهم توالى خلالها الشكايات، وضروب التذمر والتقد والتجريح على راسبوتين، غير أن القيصر والقيصرة لم يصغيا لشيء من هذا كله اعتقادا منهما إلى أن الحسد البغيض هو الباعث، كما قد تكون الدسائس السياسية هي الباعث أيضا.

وكان نصيب كل الذين تعرضوا لراسبوتين وأرادوا أن يقاوموه أو يصدوه ويقفوا في وجه نفوذه العظيم في بلاط الامبراطور كان نصيبهم النفي. والتشريد والتنكيل، أجل لقد حطم متاوتيه جميعا دون رحمة ولم يستثن من ذلك حتى أعضاء أسرة القيصر..

كان بيت راسبوتين لا يخلو إطلاقا من حشود الوافدين صباح مساء. وكان رجال البوليس يقفون على بابه ويسجلون بدقة أسماء الوافدين والوافدات، وبصورة خاصة النساء، الكثرة الكثيرة من النساء، منهن العواهر والبغايا.. ومنهن الممثلات والراقصات.. وبينهن كذلك الكثيرات من نساء المجتمع ممن كان هو يأتي بهن، أو يأتيهن من تلقاء أنفسهن لكي يأخذن عنه أسباب العلم من «دين راسبوتين» الذي كان ينعي على البدن شهواته ونزواته.. أو كن يأتيهن لبيذلن له أنفسهن و يذقته المتعة كما يشبعن نهمهن مما كان يبذله لهن.. وأعجب، بعد هذا

لتنافسه وأدعائه الفضيلة، وهو الشهري الشيق الداعر الفاجر..

وكان من الواقدين عليه، كذلك أصحاب المطالب والتوسلات والوساطات. كانوا سيلا من الخلق. من الأصاغر والأكابر على حد سواء... وكان راسبوتين يتبدى سخيا كريما حبيبا، هازنا ساخرا حيناً آخر.. وكان شيطاننا يعرف كيف يبتز من الأثرياء ليعطي الفقراء والمعوزين ليزلوا له ويكونوا من «معاصبيه»... وكان الكثيرون يخرجون من حضرته... فإذا هذا قد نال ترقية إلى رتبة أعلى في الجيش، وذاك تقدم غيره في سلك القضاة، وثالث غدا وزيرا، وتلك غدت خادمة في قصر الخ،

كان الهاتف في مسكنه يعمل دائما وفي كل يوم وكل ساعة ولا يكون الاتصال إلا مع قصر الامبراطور، وإذا كان في قريته بقضي فترة رياضة روحية... كان البرق يقوم مقام الهاتف.. وكانت الرياضة الروحية ذريعة يتخذها عندما يكون مهددا بفضيحة ما أو عندما يكون في حالة حرد على «البابا» و«الماما» وهما القيصر والقيصرة...

وكانت «الماما» بصورة خاصة هي التي لا تطيق بعباد الصديق الكبير الذي هو راسبوتين.. أما القيصر فقد كان يبدو مذعنا، راضخا، قابلا للأمر الواقع..

-١٧-

وإنصافا لراسبوتين نقول أنه عارض معارضة شديدة في دخول روسيا الحرب العالمية الأولى. وقد ناشد القيصر أن لا ينساق مع دعاة الحرب، وأنذر بالمعن والولايات، ولكن معارضته لم تنفع. والكل يعرف ما حدث بعد ذلك. ففي سنة ١٩١٦، أي بعد مضي سنتين على اشتعال نار تلك الحرب المدمرة المميتة، استطاعت الجيوش الروسية أن تنقض على «بروسيا» وعلى «النمسا» ثلاث مرات، وثلاث مرات ارتدت عن مراقعها، ومع ذلك فقد كانت البلاغات تشيد

بالنصر المזור فيعقبها ما يشبه الهذيان من الحماسة والبهجة.. وكانت خسائر روسيا في سنة ١٩١٤ ثلاثمئة ألف قتيل، وفي سنة ١٩١٥ كان عدد القتلى والمجرى مليوني جندي ومليوناً وثلاثمئة ألف أسير، وفي سنة ١٩١٦ فقدت روسيا مليوني رجل أيضاً.

في هذه الفترة الحرجة من تاريخ روسيا التقى الطريقان: طريق راسبوتين وطريق الأمير فيلكس يوسوف، وقرر يوسوف أن يقهر مجدي راسبوتين، أن يرغ أنف ذلك الفلاح الغليظ الماجن الداعر الذي مكنته جرأته ووقاحته أن يقف موقف المعارضة في دخول الحرب والإنذار بالويل والثبور وعظائم الأمور..

وتظاهر الأمير يوسوف أنه بحاجة إلى مواهب راسبوتين في الشفاء.. فدخل في زمرة مريديه، وأصبح مقرباً من الرجل التقى الورع.. وصبر على تحمل تلك الجلسات الطويلة التي كان يحس في أثنائها أن راسبوتين يريد أن يستولي على إرادته ويذبح روحه بنظرات عينيه الزرقاوين الرهيبتين.. ولكنه كان قد قرر اغتياله، وقبل أن يساعده في ذلك: الفراندوق ديمتري، و«يوريشكيفتش» والكاهن «سوخوتين» والطبيب «لازوفير».

و ذات ليلة دعاه الأمير يوسوف إلى قصره، وكان يجذبه إلى ذلك القصر وجود الأميرة «إيرينا» الجميلة زوجة يوسوف.. وشرب راسبوتين كثيراً وتناول الحلوى مع النبيذ، وكانت هذه الحلوى وكان النبيذ مسمومين.. ولاح ليوسوف أن السم لم يفعل فعله في راسبوتين فطار صوابه واعتزم أن يلجأ في القضاء عليه إلى العنف، فتناول مدسه وأطلق عليه رصاصة في القلب مباشرة، فتهادى راسبوتين على السجادة المفروشة، وراح المتآمرون يهني بعضهم بعضاً، وصعد يوسوف إلى الطابق العلوي، وبقيت جثة راسبوتين متروكة حيث هي.. وانقضى بعض الوقت، وعاد الأمير يوسوف فهبط إلى الطابق السفلي.. وما كاد يلتقي نظرة سريعة على الجثة الكبيرة المسجاة حتى انتفض جسمه كله، لقد أخذت الجثة

تتحرك، ثم نهضت واقفة، وهجمت عليه وتناولته من مخرقه.. ثم حاولت أن تهرب، ففتحت باب الحديقة على الرغم من أنه كان مغلقا بالمفتاح، وراحت الجشة تنرنح، وتلهث، ثم انطلقت تعدو وهي تصرخ وتصرح..

-١٨-

وجعل الأمير «يوسويوف» يصيح ويطلب النجدة، وهرع «بوريشكيفتش» فلهق بالجشة وعاجلها برصاصة في الرأس.. وكان يوسويوف قد جن جنونه فأخذ يضرب الجشة بقدميه ولما تعب تناول عصا غليظة وانهاه بها على الجشة.. وتجمع زملاؤه المتآمرون وفيما كانوا يرفعون الجشة لإلقائها في نهر «نيفا» تطرح يوسويوف على أرض القبر تحت القصر وراح في سبات عميق..

مرت جريمة قتل راسبوتين يهدوء، ولم ينل الجناة أي عقاب صارم، فقد أرسل الفراندوق «ديميتري» إلى الجبهة الفارسية، ونفى الأمير يوسويوف إلى أملاكه في القرم. أجل لقد كان الذين قتلوا راسبوتين من علو المنزلة بحيث لم يستطع من ييدهم الأمر أن يذهبوا في العقاب إلى أبعد من هذا.

أما من الناحية السياسية فقد قضى الأمر، وكأنما كان مقتل راسبوتين احتجاجا صامتا ولكنه بليغ. حتى الأوساط الأكثر تعلقا بالتقاليد والقيصر لم يعودوا يعترفون بالسلطة العليا. ورسخ الاعتقاد العميق في جميع الأوساط بأن راسبوتين كان يضاجع القيصرة حقا.

والعجيب أن جماهير الشعب اعتقدت، بكل بساطة، أن طبقة النبلاء قد قضت على الفلاح الوحيد الذي استطاع أن يكون مقربا من القيصر... إلا أن راسبوتين لو قدر له أن يعيش أكثر مما عاش لكان هذا الشعب الجاهل نفسه هو الذي قضى عليه- والأعجب من هذا أن يكون راسبوتين قد قتل بيد رجل ما كان شيء في حياته السابقة وفيما بعد ذلك يشير إلى أنه سيقوم بعمل رهيب

كهنا...

والى اليوم، بل إلى تاريخ نشر هذه الحلقة الأخيرة من سلسلة راسبوتين، فإن الأمير فيليكس يوسوف لا يزال على قيد الحياة، ولكنه يعيش في شبه عزلة وقد أدركته الشيخوخة وحطت عليه الأمراض. إنه اليوم في «باريس» التي اتخذ منها مقرا لمنفاه.

ومنذ مقتل راسبوتين وإلى هذه الأيام أخرجت عشرات الأفلام السينمائية التي تروي حياته وتصور قصة مقتله. ويعد اليوم المخرج والممثل السينمائي الفرنسي الشهير فيلما جديدا عن حياة راسبوتين.

والجدير بالذكر أن الأمير يوسوف أقام بعض القضايا ضد بعض الذين حاولوا أن يشوهوا حقيقة مقتل راسبوتين، وفي كل مرة كان يوسوف يربح هذه القضايا.

وفي أحيان أخرى كانت الشركات السينمائية تتخذ منه مستشارا فنيا، ويعود الفضل إليه إذ استطاع الممثلون أن يمثلوا أدوارهم في الأفلام أو المسرحيات بصورة أفضل وأقرب إلى الحقيقة، وبصورة خاصة ما فعله يوسوف في ليلة السابع عشر من كانون الأول سنة ١٩١٦ وهي الليلة التي قتل فيها راسبوتين وما أنكر الأمير يوسوف جريمته أبدا. وهو يجد مبررا لجريمته ليس على المستوى السياسي وحسب، بل على المستوى الإنساني نفسه! وهو يقول أنه يقتله راسبوتين قد خلص نفس هذا الراهب المتزهّد من القوى الشيطانية التي استحوذت عليه.. ويقول أيضا أن روح ذلك الراهب قد هدأت وذاتت طعم السكينة، ولذلك فهي لا تتفك تسهر عليه وتحميمه منذ خمسين عاما حتى هذه الأيام.. ويقول كذلك: لقد شفيت ذلك الراهب... وأنا فخور بذلك..

جواسيس في خدمة الكرملين

-١-

انضم الرجل ذو «الكسكيت» الرياضي إلى ذلك الحشد من الناس الذين كانوا يتفحصون اللوحة الكبيرة التي تشير إلى مواعيد وصول القطارات في محطة «واترلو» بلندن. ولم تقض لحظات حتى أعلن مكبر الصوت ما كان ذلك الرجل يبحث عنه:

- إن القطار الآتي من «سالبسبوري» والمتنظر وصوله في الساعة الثانية والدقيقة الخامسة عشرة سيتأخر ثلاثين دقيقة أخرى، فیدخل رصيف المحطة في الساعة الثانية والدقيقة الخامسة والأربعين.

فاستدار الرجل عندئذ، ثم اتجه نحو شاب قوي الملامح يضع على رأسه قبعة مستطيلة الشكل ويستند إلى ستمسينة أمام مدخل الرصيف رقم ١٤.

وهكذا فإن ما أذاعه مكبر الصوت وصل إلى أسماع خمسة عشر شخصا كانوا يتظاهرون باللامبالاة، غير أن حواسهم جميعا كانت متيقظة وترصد كل حركة ونأمة، وإن كانوا متفرقين، فيما يبدو وقد اختلطوا بجمهرة المسافرين بعد ظهر ذلك اليوم الكئيب، وهو يوم السبت السابع من شهر كانون الثاني سنة ١٩٦١.

ولما علم أولئك اللندنيون، الذين جازوا لاستقبال أصدقائهم أو أقاربهم، تأخر

القطار عن مواعده أذعنوا للأمر الواقع، وعبروا عن إزعاجهم بنفس طويل خافت أرسلوه من صدورهم.

ولكن أولئك الأشخاص - الخمسة عشر- احتاجت أعصابهم قليلاً لتأخر القطار.. ذلك أن العملية التي كانت على وشك الكشف عن أخطر شبكة تجسس منظمة على مستوى عال: قد قدر لها أن تتأخر هي أيضاً نصف ساعة بتمامها..

وفي الواقع كان أولئك الأشخاص من رجال المخابرات الذين يقومون بمهمة الكشف عن عمليات التجسس وقد أتوا ليشاركوا، في ضوضاء المحطة وصخبها، في الفصل الأخير من ملاحقة قضية تجسس كبرى دامت أكثر من عشرة أشهر..

وكان كل من أولئك الرجال قد احتل مكاناً استراتيجياً على أرصفة المحطة وفي قاعاتها الواسعة، ومداخلها المتعددة لكي يستقبلوا، كما يجب أن يكون الاستقبال، اثنين من المسافرين تائهين بين خمسمئة مسافر يقلهم ذلك القطار المنطلق نحو مدينة لندن آتياً من «ساليسبوري»..

وقد انتشر نبأ تأخر القطار من شخص قريب إلى آخر غير بعيد: فالرجل ذو «الكسكيت» الرياضي همس به لزميله الذي يعتمر القبعة المستطيلة، وهذا نقله، بدوره إلى بائع صحف عند المدخل الرئيسي المؤدي إلى شارع «واترلو» وقام هذا بدوره فوصل الخبر إلى شخص آخر من أولئك العمال، ثم تأذى النبأ أخيراً إلى مفتش التحري والاستخبارات ذي الشعر الأشيب الذي كان يدير حركة المطاردة، وهو يدخن غليونه في سيارة واقفة قبالة «أولد فيك»، وهو مسرح شكبير الشهير في لندن.

غير أن مفتش «سكوتلاند يارد» هذا لم تطرف له عين. فإن تأخر القطار لم يأخذه على غرة من أمره.. بل راح يتساءل هو ورجاله من الحيلة التي سيلجأ إليها الشخصان المشبهان المقلان مع القطار المتأخر عن مواعده.

دخل القطار المحطة في الساعة الثانية والدقيقة الخامسة والأربعين، وفيه الشخصان المنتظران، يتبعهما اثنان من رجال الاستخبارات لم يفارقاها قط منذ بدء رحلتها... ..

كان الشخصان المذكوران موظفين محترمين من المدنيين في البحرية، وهما يعملان في شؤون الدراسات السرية في قاعدة «بورتلاند» البحرية على بحر المانش... ..

وكانت هذه الحركات والنشاطات الغريبة لهذين الشخصين هي سبب تنظيم عملية استقباليهما على هذه الصورة في محطة «واترلو»، وقد جاء إلى لندن ليقضيا فيها، خفية، إجازة نهاية الأسبوع.. وهما رجل وأنسة، أما الرجل فيدعى «هاري هوغتون»، وأما الأنسة فتدعى «إيثل غي» وقد هبطا على رصيف المحطة دون أن يساورهما أي شك في الفخ الذي نصب لهما... ..

وقد قاما فور وصولهما بما يقوم به عادة أي اثنين في الدنيا بعد رحلة طويلة شاقة، فذهبت الأنسة «غي» لتقضي حاجة.. في منافع المحطة، واشترى «هوغتون» صحيفة يومية راح يطالع عناوينها في انتظار رفيقته «غي»، ولما عادت إلى قاعة المحطة خرجا معا صاعدين السلم المؤدي إلى طريق «واترلو» وفي إثرهما رجلا الاستخبارات اللذان تبعاهما منذ ابتداء رحلتها.. ..

وعلى الفور ترك بائع الجرائد زبائنه فجأة، وعلق الرجل الذي يعتمر القبعة المستطيلة شمسيته في ذراعه، وراح الرجل الذي يضع «الكاسكيت» الرياضي يسير متمهلا أمام الشخصين المشبهين.. أما سائر الرجال، الخمسة عشر، فقد تأهبوا للعمل.

وعلى حين غرة وقعت المفاجأة المذهلة، ذلك أن «هوغتون» و«غي» اللذين لم ينحرف سلوكهما قيد أنملة واحدة خلال الأشهر العشرة التي كان يقتفي أثرهما خلالها.. قد اختلف موقفهما فجأة.. فرما قد أحسا بالخطر، وربما أرادا أن يتخذا إجراء احتياطيا إضافيا بصورة مرتجلة، بل رما رغبا فقط في أن يقتلا الوقت في انتظار الساعة المتفق عليها للقائهما وجها لوجه مع: الخيانة..

وعلى أي حال فقد كان الذي قاما به فورا ودون سابق إنذار أنهما اندفعا بقوة إلى السيارة العامة التي تسير على الخط رقم (٦٨) والتي أخذت تتحرك بهدوء من مكان وقوفها قبالة المحطة، ولم يكن ثمة غير رجل واحد من الخمسة عشر رجلا.. فلو أخفق في ركوب السيارة العامة فإن الشخصين المشبوهين سيفلتان حتما من شبكة الملاحقة المضروبة حولهما.. وكان هذا الرجل رياضيا بارعا فقفز، بل كاد يطير، لكي يلحق بالسيارة التي بدأت تنطلق بسرعة متزايدة.. وقد أفلح فوثب إلى درجة الركوب في السيارة..

وهكذا بقي «هوغتون» والأنسة «غي» تحت حراسة عين يقظة.

وبعد انقضاء عشرين دقيقة هبطا من السيارة قريبا من سوق صغيرة صاحبة في الحمي الواقع على طريق «وولوث» وراحا يتنقلان، دون هدف معين، بين الدكاكين والمحوانيت، ولكن عين رجل «سكوتلانديارد» الوحيد كانت لا تنفك تتبعهما في ثقة واطمئنان إلى نجاح عملية القبض عليهما..

-٣-

وفي ميدان واترلو، كان قد انضم رجلا الاستخبارات اللذان رافقا «هوغتون» ورفيقته «غي» منذ ابتداء رحلتهم في القطار، إلى الأربعة عشر شخصا الآخرين، وقد أذهلهم جميعا ما قام به الشخصان المشبوهان من ركوبهما السيارة العامة فجأة وهي تتحرك لتنتقل في الخط الذي تسير عليه. ولم يجرؤا مع ذلك

على الاعتماد عن أماكنهم ليلحقوا بـ«هوغتون» و«غي» لأن المعلومات المعطاة لهم تقول أن البرهان القاطع الذي يفتقر إليه المسؤولون والذي يثبت اشتراك الشخصين المشبوهين في أكبر عملية تجسس: سيجدونه قرب المحطة لا في مكان غيره..

وفي هذه الأثناء كان المشبوهان يسيران في سوق الحمي الذي نزل فيه، وقد أنفقا خمسا وعشرين دقيقة وهما يُحاذيان ربات البيوت اللواتي كن يشتريين ما هن في حاجة إليه من السوق المذكورة. وقد انحدرا على هذا النحو، حتى وصلا إلى «إيست ستريت» وتوقفا قليلا لكي يستمعا إلى هنر أحد الحمالين، ثم عادا إلى شارع «وولورث» ليركبا السيارة العامة، وكانت هي نفسها سيارة الخط (٦٨) فعادت بهما إلى حيث ركباهما من قبل قرب المحطة، أي إلى المكان نفسه الذي دبر فيه أمر استقبالهما من قبل دوائر الاستخبارات المقاومة للتجسس..

هبطا من السيارة العامة إذن في ميدان واترلو، واجتازا الشارع في اتجاه مسرح شكسبير، وكانت الآتسة «غي» تحمل في ذراعها سلة من خيزران فتبدو كأنها تقوم بمشترياتها بكل بساطة ربة بيت نشيطة وحريصة على أن تقوم بمهمتها على وجه الدقة... غير أن هذه السلة كانت تخفي البراهين والأدلة القاطعة على تواطئها مع جاسوس روسي خطير...

في هذه الأثناء كان «جورج سميث» مفتش الاستخبارات الأشيب الشعر، ومنظم ومدير العملية كلها، يقف على الرصيف المقابل. حيث يراقب المشهد جميعه. وقد قللكه الشعور بأنه يقبض على الانتصار في هذه العملية الدقيقة بيديه الاثنتين.

وفي الواقع كان ثمة شخص آخر جديد. هو الممثل الثالث والأخير في المسرحية التي توشك أن يرفع عنها الستار.. كان هذا الشخص واقفا وكأنه قد

غرس غرسا أمام مسرح شكسبير.. إنه رجل أسمر اللون، قد التف بمعطفه القاتم، وقد حملته إلى هذا المكان سيارة.. دون أن يشعر بأن ثمة عيوننا يقظة كانت لا تنفك ترقب حركاته وسكناته هو الآخر، في الوقت الذي كان فيه زميلاء المشبوهان يتجولان في سوق «ووارث».. لقد كان ينتظر أمام المسرح، ويتأمل الإعلانات التي تتحدث عن قرب عرض مسرحية «حلم ليلة صيف» لشكسبير، ولم يخالجه أي شك بأن رجال سكوتلاند يارد واقفون له بالمرصاد..

واقترب «هورغتون» والآنسة «غي» من الرجل، وتبادلا معه، في مرورهما، نظرة سريعة دون أن يتوقفا.. فسارع وتبعهما.. فبادر مفتش المخابرات وسار في إثرهم بدوره.. فتحرك رجاله في إثره.. وظل الموكب سائرا على هذه الصورة حتى قطع نحو خمسين مترا.. ثم غذ الرجل الذي يرتدي المعطف القاتم السير ليلحق بـ«هورغتون» والآنسة «غي».. ولم يكن هذا الرجل ذو المعطف سوى الجاسوس الروسي الخطير: «غوردون لونسدال»

-٤-

أبعد «غوردون لونسدال»، ذو المعطف القاتم، ذراعيه ومسك بكنتفي «هورغتون والآنسة (غي) بحركة ودية.. فانبعثت منهما معا صيحة دهشة.. غير أن الرجل تقدم بأدب جم وتناول السلة من الآنسة «غي» كما يمكن أن يفعل رجل مؤدب شهم تأبى عليه شهامته أن يدع سيدة تحمل شيئا ما وهو موجود.. ثم توسط الاثنين وسار بينهما وهو يعلم تماما أن رزمته أسرار الأميرالية البحرية البريطانية موجودتان في قاع تلك السلة البريئة المظهر.

وفي هذه الأثناء كان مفتش (سكوتلنديارد) قد قدر أن بينات الاشتراك في جريمة التجمس بين الأشخاص الثلاثة غدت كافية.. فحث خطاه، بدوره حتى تجاوز الأشخاص الثلاثة ثم استدار معترضا سبلهم وقال لهم:

- لحظة من فضلكم.. إنني أوقفكم باسم القانون.. ولم يكذ الأشخاص الثلاثة يشوبون من دهشتهم التي عقدت ألتتهم حتى كان رجال مقاومة التجسس الآخرون قد أحاطوا بهم... وأقبلت إحدى سيارات سكوتلاند يارد- وكانت قبل هذا واقفة تنتظر في نقطة استراتيجية ملائمة- فوفقت قريباً منهم...

وبدا التضعضع على «هوغتون» والأنسة «غي» ولكن «لونسدال» عاش حياته منذ طويل في ظل رهبة مثل هذه اللحظة لم يضطرب ولم يوجل... وكان مفتش سكوتلاند يارد قد دأب على عمله بصبر وأناة وإصرار عشرة شهور كاملة لكي يصل إلى هذه النتيجة، ولذلك كان يعرف أي واحد من هؤلاء الأشخاص الثلاثة هو الأكثر أهمية وخطراً.. فبادر إلى الإمساك بذراع «لونسدال» ودفع به إلى داخل سيارة البوليس، وقال له بلهجة طافرة:

- بالنسبة لك أيها الفتى.. فإنني سأذهب بك إلى سكوتلاند يارد.. أعني سنكون معا.

أما «هوغتون» و«غي» فقد دفعا إلى سيارة أخرى دون احتفال بأمرهما، وبعد ربع ساعة من هذه الحوادث كان المشبهون الثلاثة قد أغلقت عليهم أبواب سجن سكوتلاند يارد، ووضع كل منهم في غرفة منفصلة خاصة به..

وما هي إلا أن دخل المفتش سميث غرفة مع لونسدال الروسي، ثم اقتاده إلى إحدى غرف المكاتب وشرح يعادته قورا. وقد كان يعرف كل شيء، عنه دون أن يراه من قبل.. وقد جرى هذا الاجتماع الأول بينهما في حجرة مكتب تطل على نهر «التيمز»، وكان ما دار بينهما حوارا سريعا خاطفا أكثر منه حديثا.. وقد حذر المفتش سميث سجينه مما قد بقوله أو يفضي به، ثم راح يستجوبه عن هويته.. وما لبث لونسدال أن قدم له بكل سكية وهدوء، جواباً نه يكف عن ترديده، من وقت لآخر. في المرات الكثيرة التي استجوب فيها فيما بعد.. إذ

صرح قائلاً في منتهى الاطمئنان والارتياح:

- في وسعك أن توجه إلي جميع الأسئلة التي تريدها، وسأجيب دائماً بـ«لا».. وأذن فليس في الأمر ما يدعو إلى أن تتعب نفسك.

- ٥ -

غير أن المفتش سميث استمر يوجه إلى لونسدال أسئلته بصبر لا مزيد عليه وهو يشير إلى الأوراق المالية التي كانت في جيبه لدى تفتيشه:-

لماذا تحمل ١٢٥ جنيه استرليني من فئة خمسة الجنيهات، موضوعة في مغلف دون أن يكتب عليه عنوان ما؟

غير أن الجاسوس الروسي لزم الصمت المطبق، ولما كان أمام المفتش سميث كثير من العمل والمهام، فقد تركه وذهب ليستجوب «هوغتون» والآنسة «غي» في غرفتين أخريين. وقد كان «هوغتون» وكيل ضابط في البحرية البريطانية، وكان المفروض، في ذلك اليوم، أن يتسلم من لونسدال مبلغاً قدره ١٢٥ جنيه استرليني، ولدى أول سؤال من المفتش سميث قال هوغتون عبارة ذات دلالة بعيدة والارجح انه قالها منساقاً مع صدمة الانفعال عند اللقاء القبض عليه. هذه العبارة كانت قوله، «لقد كنت غيباً ولا ريب».. ثم سأل نفسه الى اي حد تراه قد تورط واتهم نفسه بهذه العبارة.. ثم حاول أن يتبين ذلك فقال:

- الا قل أيها المفتش.. هل كان «أليكس» يحمل معه مالا؟

وكان هوغتون يسير باسم أليكس الى لونسدال، والواقع انه زعم، فيما بعد انه عندما التقى لأول مرة بالجاسوس الروسي قدم هذا نفسه اليه باسم «الكسندر جونسون» ضابط مدرعة في البحرية الاميركية، ومرتبط بكتب الملاحق البحري

في سفارة الولايات المتحدة بلندن.

اما الانسة «غي» فقد اظهرت سذاجتها العجيبة منذ اللحظة التي تقدم فيها المفتش سميث لكي يستجوبها ، فقد قالت:

- انا لم آت بسوء..

وقد وصف تصريحها هذا ، فيما بعد ، بأنه مثير للدهشة العظيمة..

كل هذه المقابلات والاستجوابات لم تغد المفتش سميث شيئا ذا بال. الا انه لم يلبث ان انطلق دون ابطاء الى «رويسليب» في الضواحي اللندنية ، يرافقه سميه المفتش الرئيس «فيرغسون سميث» والجندي النائب «ونتربوتوم» من قسم البوليس النسائي..

وقد كان المفتش سميث يعلم ان لونسدال ، وقدغدا الان في مأمن داخل زنزانته ، كان يتردد بانتظام على بيت في تلك البلدة من ضواحي لندن.. ، ولذلك اراد ان يقف على أسباب تلك الزيارات.. ويدا له الوقت طويلا جدا وهو في السيارة التي تنهب الارض نهبا نحو «رويسليب» ومنها الى حي السكن الهاديء «غرينلي درايف».

ولما وصلت السيارة الى المكان المقصود اتضح ان الدار التي كان لونسدال يتردد عليها بصورة منتظمة ليست الا بيتا ريفيا منعزلا ، اقيم وحده في طرف بعيد من الشارع ويحمل رقم (٤٥) .

قرع المفتش سميث الباب وهو لا يدري ان في زوايا هذا البيت العادي البسيط وحناياه ومعاريه ومخابئه مجموعة هائلة من ادلة التجسس المادية المؤيدة.

كان الذي فتح الباب هو «بيتر كروجر»، وهو صاحب مكتبة ميسور الحال يتمتع باحترام الجميع.. واقبلت، كذلك، زوجته «هيلين» الا انها بقيت صامته الى ان سأل المفتش سميث عن اسماء الاشخاص الذين كانوا يترددون على هذا البيت لقضاء اجازة آخر الاسبوع.. عندئذ تكلمت هيلين وذكرت قائمة كبيرة من الاسماء لم يكن من بينها اسم «لونسدال».. فاستراب المفتش سميث بالامر، وأيقن انها تكذب، وان المصلحة تقضي بان يبحث عن كذب... وعندئذ انبأ المرأة وزوجها ان القبض سيلقى عليهما... وعلى الفور أتت هيلين بمعطف ارتدته على عجل، وتناولت حقيبة يدها، وقالت:

- احسب اننا سنتغيب مدة طويلة، فهل تأذن يا سيدي بأن احشو بالحطب موقد تسخين التدفئة المركزية؟ واجاب المفتش سميث قائلا بأدب.

- بالطبع يا سيدتي، فاني اسمح بذلك... ولكن دعيني اولا انظر في ما تحتويه حقيبة يدك هذه...

ولكن هيلين رفضت.. فاضطر المفتش، عندئذ، ان يضم قوته الى قوة الجندي النائب «ونتر بوتوم» لكي ينتزعا الحقيبة المصنوعة من الجلد الاسود من بين يدي صاحبتها..

وشرع المفتش يبحث في داخلها فاكشف ما اثار اهتمامه، فقد كان الجيب الداخلي من الحقيبة يحتوي مغلف ابيض اللون لم يكتب عليه أي عنوان.. وفي داخله رسالة من ست صفحات باللغة الروسية، وزجاجة تصوير مرجبة مطبوعة عليها ثلاث صور دقيقة جدا لا ترى بالعين المجردة، وورقة رموز سرية مكتوبة بالالة الكاتبة..

وما ان رأت السيدة هيلين ان المغلف قد فتح وبان ما في داخله حتى عادت لا تهتم بحشر الحطب في موقد تسخين التدفئة المركزية.. وسرعان ما اقتيد الزوجان- كرودجر وهيلين- الى مركز البوليس في «هايس».. وكانت الساعة وقتئذ قد جاوزت الساعة مساءً بقليل.

وقد أمر المفتش الرئيس «فيرغسون سميث» ان تفتح جميع الابواب لرجال المختصين بالبحث والتنقيب.. وهم الذين سيكشفون ما لا يخطر على بال او خيال من ادوات التجسس وادلة الخيانة متراكمة بكثرة غريبة في هذا البيت الريفي الذي تصفه وكالات تأجير البيوت بانه ملائم ومريح.

وكان اول ما فعله الرجال المختصون انهم صوروا جميع حجرات البيت في ضوء «المالغيزيوم»، وكان لا بد من مرور ساعة كاملة لاختذ هذه الصور الضرورية.

ثم كان اول ما لفت نظر المفتش الرئيس وانتباهه «قداحة» كبيرة الحجم نوعاً ما، وهي من القداحات التي تستعمل في البيوت، وكانت موضوعة في مكان ظاهر في غرفة الاستقبال..

وكان «فرغسون سميث» قد شاهد قداحة مماثلة في حقيبة اودعها لونسدال في البنك الذي يتعامل معه دون ان يدري ان البوليس قد قتش هذه الحقيبة خفية واطلع على ما في داخلها.

كانت القداحة، في الظاهر، نموذجاً عادياً جداً من نماذج قداحات «رونسون» المعروفة، وكانت تشكل دائرة من خشب ملمّع قام في وسطها الجسم المعدني الذي تتكون منه القداحة الحقيقية، وضغط المفتش الرئيس على الرافعة فاشتعلت النار وتركها فانطفأت ثم اخذ يسحب على مهل، الجسم المعدني من قاعدته الخشبية حتى انفصلا دون صعوبة، وتطلع الى داخل الجسم المعدني فلم يجد شيئاً غير

عادي على الاطلاق..

ولكن الامر كان على خلاف ما بدا في الظاهر...

-٧-

وضع المفتش الرئيس القسم الالي من القداحة فوق المنضدة، وادخل خنصره في الكرة فلم يجد اية صعوبة في اخراج الانبوب المعدني، وبدلاً من ان يجد، وراء الانبوب المعدني، قطعة ممثلة من الخشب فقد لمح، عندئذ، ان الجزء الكروي من القداحة محفور ومجوف حتى غدا كأنه قرصعة تخفي مخبئاً عرضه اثنا عشر سنتيمتراً... ووجد المفتش الرئيس في هذا المخبأ اوراقاً مرسومة تحتوي على خطة ارسال والساعات التي لا يكون فيها ارسال واث اشارات النداء، كما كانت تحتوي ايضاً على تعليمات باللغة الروسية، وغيرها كانت مخصصة للشفرة المتفق عليها.

بعد ان تم اكتشاف المفتش الرئيس لما في داخل القداحة اتجه انتباهه الى جهاز الراديو الفاخر الذي كان يحتل معظم عرض احد جدران قاعة الاستقبال، وقد اتصل بالجهاز سماعتان، كما كان ثمة سلك لدن يصل بين الراديو وجهاز تسجيل لتسجيل اتصالات الاستقبال. وكان ثمة محول يعطل بموجبه مكبر الصوت لكي لا تلتقط الاصوات الا عن طريق السماعتين اللتين توضعان فوق الاذن.

وكان في حوزة الجواسيس كذلك وسيلة اخرى للاتصال، وقد وجد رجال مقاومة التجسس البريطانيون الدلائل الاولى عليها في حجرة النوم: فقد شاهدوا، فعلاً مجهرأ وخمس صفيحات زجاجية في علبة جميلة زرقاء، قرب خزانة علبة

أقلام من قياس ٣٥ ملمتراً، وقد كانت هذه العلبة ملفوفة في رداء للبحر. كما وجدوا سلكاً كهربائياً طوله خمسة عشر متراً. وقد زود أحد طرفيه بمصباح كهربائي، كما زود الطرف الآخر بـ «بريز» للتيار...

كان هذا المصباح المتنقل بريثاً في الظاهر، ويجد المرء أشباهاً له في الف بيت من بيوت السكان، إلا أن رجال المباحث الانكليز استطاعوا به أن يهتدوا إلى أهم اكتشاف بين اكتشافاتهم الغربية جميعاً.

راح رجال مقاومة التجسس يتفحصون كتب المكتبة واحداً بعد الآخر، كانوا يتصفحون الكتاب الواحد ورقة ورقة، وينفضونه، ويدققون النظر في كل غلاف قبل أن يعهدوا به إلى ذي خبرة أوسع وأحذق.

وعلى حين غرة جا هم برهان ساحق على شكل قطعة من (السيلوفان) طليت بمادة بيضاء وقد سقطت من نسخة تورا مطبوعة على ورق الارز الرقيق جداً.

ومن أول نظرة أدرك الخبراء سر هذه القطعة، فقد كانت هي وسيلة استخبارات التجسس الروسية المستعملة لتمويه الورق الحساس الضروري لاعداد الصور الفوتغرافية الدقيقة جداً التي لا تشاهد بالعين المجردة..

انهلك رجال مقاومة التجسس البريطانيون طيلة ليلتهم في ذلك البيت المضاء، وراحت البراهين والأدلة التي تدين اصحاب هذا البيت تتكشف لهم ويتراكم بعضها فوق بعض. فسادوا وجدوا أيضاً من مذهلات وسائل التجسس؟

-٨-

وجدوا إحدى مناوئد الليل الصغيرة التي توضع عند رأس السرير، ولما

فتحوها وقمت انظارهم على قارورة وسكي مجزأة الى ثلاثة اقسام داخلية: القسم الاوسط كان مليئا بنوع من الويسكي الاسكتلندي، وكان القسم الايسر خاليا، ولكن القسم الثالث وجدوا فيه السيلوفان الابيض للصور الفوتوغرافية الدقيقة التي لا ترى بالعين المجردة.

ومن أحد ادراج هذه المنضدة أخرج أحد الرجال مصباحا كهربائيا يدويا ولكنه لا يعمل لسبب واضح هو أن احدى البطاريات الجافة كانت مزيفة وتحتوي على اوراق مليئة بتعليمات التجسس...

ومما لا ريب فيه ان مما يتزود به اي جاسوس ان يكون في حوزته مواد تصويرية فوتوغرافية. وهذا امر لم يحاول «كروجر» وزوجته «هيلين» ان يخفوه، بل على نقيض هذا كانت هيلين تعلن لكل من يريد ان يعلم انها تحب التصوير الفوتوغرافي. ولذلك فان رجال مقاومه التجسس لم يدهشهم ان يجدوا في «ستديو» وحجرة الحمام كل ما يلزم لفصل الافلام، كما وجدوا آلة تصوير ملتفة بكم مما يستعمله المصورون وهو مصنوع من القماش الاسود، وعشروا ايضا على مبرعات من خشب تتحول بها حجرة الحمام الى غرفة مظلمة لشؤون غسل الافلام وتحميضها.

وقد اتاحت هذه الاكتشافات، لاولئك الرجال. ان يكتشفوا ايضا علبة من مسحوق «التريليك» ماركة «الزهرات الثلاث».. ولقد كانت هذه العلبة تحتوي، بالفعل، بعض هذا المسحوق، الا انه كان مخبأ فيها جهاز صغير يقرأ مسجلات الافلام الدقيقة.

وتم كذلك اكتشاف المطور الذي تملكه اسرة «كروجر» هذه، في مخبأ قد لا يخطر ببال الكثيرين- ذلك ان ثمة اناساً من ذوي الحذر والاحتراس قد يخطر لهم ان يخفوا اموالهم من البنكنوت في سلة الملابس القذرة المعدة للغسل. غير أن

القليلين جداً من الناس، والحق يقال يذهبون إلى حد إخفاء مبلغ منتهي جنيته استرليني في طوايا الملابس القذرة، وقد جعلوا منها رزماً من فئات الخمسة الجنيهات.

وبعد هذا الحصاد الطيب من الاكتشافات المذهلة، لم يدهش رجال مقاومة التجسس ان يجدوا في المطبخ، عند بزوغ الفجر، بلاطة على حفرة مخبأة تفضي الى ما يشبه ان يكون مكاناً تحت الارض.

وقد كان المفتش الرئيس رجلاً واسع الخيال، فلما عثر على البلاطة المذكورة خطر له فوراً السلك الكهربائي البالغ طوله خمسة عشر متراً ويطره المصباح المتنقل، وعلى الفور وصل هذا السلك بتيار الكهرباء من اقرب ثقب، وراح يهبط في الحفرة الواقعة تحت الارض والتي يصل عتقها الى مئة وعشرة سنتيمترات تقريباً. ثم انحنى نصفين وسار خطوات حتى انبسط السلك الكهربائي وتوتر في يده، وعندئذ وجد نفسه تحت الخط العمودي للاستديو، امام كوم من الحجارة غير المنحوتة التي ستتكشف عن اعجب مخبأ وجدوا فيه اشياء قد اذهلتهم حقاً.

-٩-

جلس المفتش الرئيس-فرغسون سميث- متربعا وقد مس شعره سقف الحفرة، ثم نادى اثنين من اتباعه فأخذوا ينقلان الحجارة واحداً بعد الآخر. وقد أثار الدهشة ان هذه الحجارة لم يكن يعلوها شيء من الغبار. ثم سرعان ما شاهد الرجلان تحت هذه الحجارة قطعة مربعة من الاسمنت فرقعها دون مشقة.

وعندئذ وجدا غطاء من خشب مغلقاً على حفرة مكعبة قياسها ١٥×٤٥×٥٠ سنتم.. فاستخرجوا منها اكياسا وعليها شتى في بعضها ورق اسود، وفي البعض الآخر انسجه مشمعة وفي غيرها صفائح من البلاستيك الاخضر اللون وقد وجد رجال مقاومة التحري في علبة معدنية بحجم حقيبة يد من الجلد جهاز راديو

للارسل فائق الطاقة والقوة يستطيع ان يبث رسائله مباشرة الى موسكو.

ووجدوا في بعض الاكياس الاخرى بطارية اخرى مزودة لمصباح يد وعدسات بلورية مخصصة للصور الدقيقة التي لا ترى بالعين المجردة، وآلة تصوير مع ادواتها وستة الاف دولار من فئة العشرين دولاراً ووجدوا كذلك آلة ارسال تلغرافي تعمل بصورة آلية وتستطيع ارسال رسائل برقية طويلة بسرعة فائقة.

وفيما كان المفتش الرئيس لا يزال يتفحص هذه الفجوة تحت الارض راح أحد رجاله وهو البريفادير «اليس» يجد في البحث تحت سقف تلك الفجوة، وشرع اولاً في ازالة المادة العازلة الموضوعة بين قطع الخشب المستطيلة في السقف، الا انه ما لبث أن اكتشف ثمة رزمة من ورق قاتم ولما فتحها وجدها تحتوي على ٢٥٦٣ دولاراً وشيكات سياحية بمبلغ ٢٣٠ دولاراً وعشرة جنيهات استرلينية. وكانت هذه الشيكات جميعاً موقعة بتوقيع «كروجر» نفسه.. وقد وجدوا في اعلى السقف ايضاً السلك الهوائي لجهاز الارسال الذي عثروا عليه في غرفة الاستقبال من قبل. وكان طول هذا الهوائي ٢٢ متراً وهو طول لا ضرورة له على الاطلاق لاستقبال ما تبثه، بصورة طبيعية، محطة الاذاعة البريطانية، غير انه لا بد منه لكي يستطيع جواسيس الكرملين التقاط اوامر موسكو التي ترسل اليهم مباشرة عن طريق هذا الجهاز ذي الهوائي الطويل جداً.

كانت هذه الدلة المؤيدة جميعاً توضع اولاً باول في علب من الكرتون، وصناديق من الخشب الخفيف، ثم تذهب بها سيارات سكوتلاند يارد الى متخصصين اكثر خبرة وحكمة لفحصها.

وقد كان جهاز الارسال الذي وجد في الحفرة الواقعة تحت الارض من الادلة الساحقة التي لا سبيل الى المراء فيها، ذلك انه كان لا يحمل اية علامة تجارية تدل على المصنع الذي خرج منه، وكان تركيبه يختلف كل الاختلاف عن طراز تركيب مثل هذه الاجهزة في بريطانيا. وكان مزوداً بسماعة واحدة، ولم يكن فيه مكبر للصوت، كما كانت طريقة وصله بالتيار الكهربائي مختلفة تماماً عما هو معروف ومتداول في انكلترا، وكان يعمل بطاقة عظيمة من ١٥٠ وات، وهي كافية لكي يصل ارساله الى الاتحاد السوفياتي.

وكان الجهاز التلغرافي الآلي الذي وجد في حجرة الحمام يتيح ارسال رسائل طويلة دون موانع محمول دون ذلك، ودون الاستدلال على مكان وجوده بواسطة اجهزة مقاييس الزوايا.

- ١٠ -

كان جهاز الارسال هذا هو الذي اذهل الجمهور في الجلسات الاولى لمحاكمة اولئك الجواسيس اكثر من غيره. ولقد تأكدت نشاطات تجسس اسرة «كروجر» وعلاقاتها بالجناسوس السوفياتي «لونسدال» بصورة اوسع عندما عثر رجال سكوتلاند يارد على اكتشافات اخرى لها اهميتها وان لم تكن مثيرة مثلها.

وقد اتضح من فحص محتويات القذاحة التي وجدت في غرفة استقبال اسرة كروجر انها تحتوي على خطة محكمة لكيفية الاتصال بموسكو ونقل الاسرار اليها ومواعيد الارسال ومواعيد الالتقاط والرصد واطوال الموجات المستخدمة واشارة النداء للارسال وكانت هذه كلمات روسية هي اسماء لانهر وازهار ونباتات.

كان «المكتب الثاني» في موسكو مقتنعاً تمام الاقتناع بان شبكة التجسس

التي اكتشفت في «رويسلب» ببريطانيا، والتي نحيت بعيداً عن السفارة السوفياتية بلندن، ما كان يمكن ان تكتشف ابدا لو ان اولئك الجواسيس في دار كروجر لم يترددوا في استعمال اللغة الروسية في مختلف وسائل اتصالهم بموسكو..

واما فيما يتعلق بمختلف المعلومات التي كانت تصل الى اسرة كروجر وكيفية خروجها عن طريقهم من انكلترا الى روسيا، فقد كانت ادوات التصوير التي اكتشفت في «رويسلب» بدار كروجر تفصح عن ذلك بوضوح، ذلك ان أشد هواة التصوير شغفاً بهوايته ما كان ليسعه ان يشتري كل تلك الاجهزة والالات التصويرية الممتازة الدقيقة الصنع النادرة المثال جودة صنف واتقان اداء..

وما لا شك فيه ان وثائق القاعدة البحرية في «بورتلاند» والتي كان ينقلها «هوغتون» والانس «غي» اللذان القي عليهما القبض في مستهل هذه القصة، مما لا شك فيه ان هذه الوثائق كانت تسرق ثم تصور بألة تصوير من ذوات ٣٥ ملمتراً، ويجري بعد هذا تصويرها مرة اخرى تصويراً دقيقاً لا يرى بالعين المجردة حتى ان الصورة منها لا تزيد عن حجم نقطة صغيرة في صفحة مطبوعة.. ثم كانت هذه الصور البالغة الصغر ترسل الى الخارج تحت طابع بريد ملصق على مغلف رسالة، او بين صفحات كتاب.

وبالفعل كان كروجر يلجأ الى هذه الحيلة الاخيرة اي انه كان يدس صوره، التي لا يزيد حجمها عن حجم رأس دبوس صغير، بين صفحات الكتب ذلك ان تجارته كانت تتيح له جميع الفرص الممكنة لارسال رزم بريدي الى جميع انحاء العالم. وفي معظم الاحيان كان الذين ترسل اليهم هذه الرزم ليسوا غير «صناديق بريد» لعملاء صفار من الروس كان عملهم ان يحلوا تلك الرزم ويعيدوا صرها

ورزمها ويغيروا العناوين، ثم تتكرر هذه العملية من بلد الى بلد حتى تصل رزم كروجر في النهاية الى روسيا نفسها حيث يتسلمها من هم في انتظارها...

كانت اذن آلات التصوير وادواته المختلفة تستخدم لاعداد وسائل خروج المعلومات السرية، التي تجمعها شبكة الجواسيس، من بريطانيا اما جهاز الارسال اللاسلكي فقد كان متاح لهم، عن طريقه وفي حالات الضرورة السريعة الملحة، الاتصال المباشر بموسكو لنقل رسائل مقتضبة ومتعلقة بامور منظمة التجسس نفسها.

وقد بينت مجموعة وسائل وآلات التصوير واجهزة الارسال واللاسلكي، بصورة قاطعة، ان دار كروجر التي تحمل رقم ٤٥ في «رويسلب» كانت تقوم بدور خطير رهيب هو دور المركز الرئيسي لنقل المعلومات والاسرار وشها او ارسالها بشتى الطرق الى موسكو.

-١١-

وقد اظهرت المبالغ الطائلة، من العملة الاميركية والانكليزية التي اكتشفت في تلك الدار، ان كروجر وزوجته كانا يقومان بدور اصحاب «بنك» لشبكة التجسس، فان منظمة من هذا النوع لا شك في انها تحتاج الى مكان يكون في متناول اليد ويعد الجواسيس فيه المال النقدي الذي قد يحتاجون اليه في حالة اضطرارهم الى الاختفاء او الهرب السريع اذا ما حاقت بهم الاخطار.. وهذا المكان.. بل هذا «البنك» كان دار كروجر نفسها في «رويسلب»..

واذا كانت هذه المكتشفات الخطيرة التي تحققت في دار اسرة كروجر قد كشفت النقاب عن الدور الذي كان يقوم به كروجر وزوجته وبصورة خاصة

علاقتهما بالجاسوس السوفيياتي «لونسدال» فانها، بالمقابل، لم تلق اي ضوء على ماضي هذين الزوجين...

ولم يجد المحققون، في بحثهم الدقيق، اية شهادة ميلاد، ولا اية وثيقة زواج، ولا أية بطاقة عسكرية، او اي دليل من هذه الادلة التي تروي الحوادث الكبرى في حياة كل انسان. ان بيت اميرة كروجر لم يبع بأي شيء، ولم يقدم لرجال سكوتلاند يارد اية قصاصة من ورق ما عدا أربعة جوازات سفر (منجزة حسب الاصول ومعدة للاستعمال، وكان اثنان من هذه الجوازات قد وجدا في داخل احدى حقائب اليد التي تستعملها زوجة كروجر وكانت الحقيبة مخبأة في غرفة النوم، وكان هذان الجوازان مستخرجين باسم « بيتر » و « هيلين » كروجر، وكانا يحملان طوابع زيلاند الجديدة كما كانا صادرين عن سفارة نيوزيلاندا في باريس. الا انه اتضح، فيما بعد، ان الجوازين قد تم حصول الزوجين عليهما هنا على شهادتي ولادة مزورتين ...

اما الجوازان الآخران فقد كانا صحيحين ورسميين حقا، وبخضان المدعورين: موريس ولينا كوهين.. وقد أصدرتا بصورة صحيحة وحسب الاصول من الولايات المتحدة واستخدمهما الجاسوسان كروجر وزوجته للهرب من اميركا في سنة ١٩٥٠ عندما اكتشفت دوائر الاستخبارات الامريكية علاقتهما بحركة تجسس اسرة «روزنبرغ» المعروفة في الولايات المتحدة اذ ذاك.. وراحت تجد في اثرهما.

والواقع انه في شهر تشرين الثاني سنة ١٩٥٧، قد تم في نيويورك اكتشاف الجاسوس المدعو « اميل غولدفوس » وهو مصور في المدينة المذكورة وحكم عليه بالسجن ثلاثين عاما. وكان «غولدفوس» المزعوم هذا هو في الواقع الكولونيل الروسي « رودولف ايفانوفتش آيل » رئيس شبكة التجسس السوفيياتية في اميركا في ذلك العهد. غير ان دوائر الاستخبارات الاميركية المعروفة بـ « أف. بي. أي. » وجدت في حوزة ذلك الجاسوس الخطير مسروقات من صور سرية

ذات قيمة عالية لموريس ولينا كوهين.. وكانت موضوع اشتباه قوي منذ «قضية روزنبرغ» التي مر ذكرها.

وهكذا فان اليهوديين موريس ولينا كوهين تخفيا تحت اسم: بيتر وهيلين كروجر ونجحا في الهرب من اميركا، والاقامة باسميهما الجديدين، في بريطانيا مدة خمس سنوات طوال مارسا خلالها مهمتهما في التجسس في الارض البريطانية دون ان ينكشف امرهما حتى كانت هذه القضية التي فضحتهما وكشفت وأثبتت جاسوسيتهما الخطيرة سابقا ولاحقا..

-١٢-

كان الطابع الاشد اثارا للدهشة والعجب من غيره، في قضية التجسس هذه، هو وفرة أدلة الادانة والاثبات التي اكتشفت في بيوت مختلف المشتبهين وليس في دار اسرة كروجر وحدها.. وصحيح ان الزوجين لم يكن في وسعهما ان يتحاشيا الاحتفاظ بالكثير من رسائل وادوات التجسس كآلات التصوير، واجهزة الارسال الخاصة بالاتصال بموسكو، غير ان رجال سكوتلاند يارد لم يخذعهم التفكير بان الشركاء الاخرين قد يحجمون عن ان يبقوا في حوزتهم اشياء يمكن ان تؤدي الى كشفهم وتشي باعمال التجسس التي يمارسونها.. ولذلك فان رجال مقاومة التجسس الانكليز داهموا منازل الشركاء الاخرين دون ونا، فأظهرت تحرياتهم في كل منزل ادلة وبراهين ثابتة على الخيانة..

ولقد كشف اولئك الرجال في بيت «لونسدال» نفسه، وهو الجاسوس السوفيياتي الذي كان يمارس التجسس مهنة واحترافاً والذي كان يقيم حتى يوم القاء القبض عليه في شقة مؤلفة من ست طبقات في عمارة تدعى «البيت الابيض» وتقع قرب «ريجانتس بار» وكانت هذه الشقة مؤلفة من «ستديو»

وحجرة حمام، ومطبخ ومؤجرة لقاء تسعة جنيهاسترلينية في الاسبوع. وكانت تأتي، كل يوم، خادمة من العمارة تمهد السرير، وتنجز الاعمال المنزلية، ولكن هذا كله يمنع مستأجرها ان يحتفظ في شقته هذه باشياء وادلة مؤيدة شبيهة بتلك التي وجدت في دار كروجر، وبعد ان القى المفتش «سميث» القبض على كروجر وزوجته.. خف الى عمارة البيت الابيض وراح يفتش فيها ويتحرى، وما لبث ان المجذب نظره فوراً الى قطعة رسم صيني مصنوعة من قماش على شكل مستطيل ومعلقة فوق السرير. وكان الرائي يشاهد في القطعة المذكورة قطعاً في حالة وثوب وقد رسم باللون الاسود على ارضية من ورق... وقد اثبت في اعلى هذه القطعة من الرسم وفي اسفلها قطعتان من خشب لبسطها جيداً حسب الطريقة المألوفة في الخرائط التي تعلق على الجدران، غير ان احد طرفي هاتين القطعتين الخشبيتين كانت سرعان ما تنفتح بفعل نابض داخلي لدى الضغط على رأس دبوس كان يبدو بين نقطتين في لفافة القماش التي كسيت بها قطعنا الخشب...

وكان لقطعة القماش الصينية المرسومة على هذا النحو انبوب من ورق مقوى-كرتون- تلف وتوضع فيه. فوجد رجال سكوتلنديارد في خزانة الغرفة هذا الانبوب الكرتوني وغطاه، ولدى البحث تبين ان احد قسمي الانبوب خال، اما الاخر فقد كان يحتوي على مبلغ الف وثمانئة دولار في رزمتين كتبت على احدهما عبارة «الف دولار» وكان فيها هذا المبلغ فعلاً، أما الرزمة الاخرى فقد كتبت عليها هذه الاشارة: «٢٠٥٠» التي قد تعني خمسين ورقة نقد من ذوات العشرين دولاراً.. الا ان الرزمة لم تكن تحتوي على أكثر من ٨٠٠ دولاراً.

وبعد هذا وجد سميث قداحة ماثلة للتي سبق ووجدها في بيت كروجر، وقد كان تجويفها السري يحتوي على مفاتيح للرموز في اوراق صغيرة مطبوعة للاستعمال مرة واحدة فقط في فك رموز الرسائل السرية، وقد كانت تلك الاوراق الصغيرة مصنوعة من قشارة خاصة سريعة الاحتراق. وقد عرفها رجال مقاومة

التجسس الانكليز فوراً، اذ ان المكتب الروسي الثاني يزود بها جميع عملائه الى الخارج.

-١٣-

بعد ذلك فحص المفتش «سميث» جهاز الاستقبال، فوجده جهازاً عادياً مما يباع في الاسواق، الا انه كان ذا طاقة عظيمة ومزوداً بكل التحسينات وفيه محول شبيه بما وجده المفتش سميث في الجهاز الذي اكتشفه في مسكن اسرة «كروجر» وكان من مزاياه ان فيه مجزئاً كهربائياً لكي لا يستقبل الصوت الا على السامعتين المثبتتين على ظهر صندوق الجهاز.

وكان من الاكتشافات اكتشاف له فائدة كبرى وإن كان في ظاهره بريئاً لا يشير استرابه، إنه مجموعة من ورق الرسائل المستعمل في البريد الجوي. وكان بين هذه الأوراق مسودات رسائل مكتوبة بخط اليد وموقعة باسم «غوردن» مرة أو «لونسدال» مرة أخرى.

وقد كانت الفائدة من مسودات الرسائل هذه أنها أتاحت لخبراء الخطوط أن يؤكدوا أن الرسالة المؤلفة من ست صفحات والمكتوبة باللغة الروسية التي وجدت في حقيبة يد زوجة «كروجر» لدى تفتيش منزل هذه الأسرة كانت بخط لونسدال نفسه.

ووجد المفتش سميث شيئاً آخر بريئاً في مظهره هو الآخر، إلا أنه ساعد العدالة على إفحام الجاسوس الروسي الكبير لونسدال وزميليه اليهوديين - كروجر وزوجته - وقد كان هذه الشي - آلة كتابة من نوع «روبال»

والمعروف أن حروف ألة كتابة تشتمل فيها دائماً بعض العيوب الصغيرة التي يمكن ان تظهر لدى الفحص المجهرى. والتي يتضح منها نوع العمل الذي

انجز بها. وعن طريق اكتشاف هذه الآلة اقام الخبراء الدليل على أن لونسدال قد استعملها في كتابة رسالة «الشفرة» التي وجدت ايضا في حقيبة زوجة كروجر لدى تفتيشها.



وقد وجد المفتش سميث، بعد هذا، علبة من مسحوق «التولك» ماركة «باردلي» شبيهة بتلك التي فحصها المحققون في منزل «روسلب» وكانت هذه العلبة ذات اقسام ثلاثة داخلية، فكان احدها يحتوي مسحوق «التولك» فعلا، اما الثاني فقد اختبأ فيه جهاز قارىء، للاقلام الدقيقة المعروفة، باسم «ميكرو فيلم» وهو عبارة عن منظار مكبر صغير الحجم، اما القسم الثالث فقد كان يشتمل على خطط ثلاث للارسلال اللاسلكي تبين مواعيد الارسلال باليوم والساعة وكل التفاصيل والتعليمات اللازمة.

ووجد سميث كذلك مصباح يد كهربائيا اثبت ولف الروس بتزويد جواسيسهم بجميع الوسائل والادوات وفيما عدا ان هذا المصباح كان اسود اللون فقد كان مائلا للمصباح الذي وجد في غرفة نوم كروجر لدى تفتيشها، وكانت احدى بطاريات المصباح محفورة لكي تستعمل كمخبأ...

-١٤-

وقد كان مما عثر عليه المفتش سميث ايضا حزام مبطن اسود اللون، استعمل لاختفاء أوراق مالية كان مجموعها ثلاثمئة دولار، واسفر التفتيش في شقة لانسدال عن وجود أسلاك لهوائي اجهزة الارسلال والاستقبال، وآلة تصوير ممتازة، وسماعتين معدتين كقطعتي غيار اذا ما حدثت وأصيبت بعض الساعات الاخرى بالعطب.

وقد اثار الدهشة والذهول وجود علبة صغيرة خضراء اللون في خزانة ملابس لونسدال. وكانت هذه العلبة تحتوي على وثيقتين اتاحتا لرجال مقاومة التجسس ان يتعرفوا الى هوية لونسدال الحقيقيه، ويكتشفوا كيف استطاع ان يستولي على اسم رجل شريف من سكان كندا.

وكانت الوثيقتان عبارة عن: جواز سفر رشادة ولادة للرجل الذي يحمل اسم لونسدال حقاً، وقد كانت هاتان الوثيقتان صالحتين، غير ان رجال البوليس الكندي استطاعوا بتحقيقاتهم ان يظهروا ان الجاسوس الروسي قد استحوذ على الوثيقتين بصورة غير مشروعة بقصد استعمالها كهوية جديدة له... وكان اخر الاكتشافات هو ما اعترفت زوجة كروجر به، فيما بعد وهوان لونسدال قدقابلها في يوم القاء القبض عليها وعلى زوجها نفسه. وقد تبين ذلك من ايصال صادر عن محلات «سلفريدج» بخصوص مبيعات منزلية باسم المستر كروجر ومؤرخ في ٧ كانون الثاني.. وقد اكتشف هذا الايصال في زجاجة دواء كانت موضوعة فوق احد رفوف المطبخ.. واذن فان لونسدال قد قابل كروجر وزوجته في هذا المحل بالذات وسلمهما مغلّفاً للرسائل المكتوبة باللغة الروسية ورسالة الشفرة الاخرى. وذلك قبيل القاء القبض عليهما في منزلهما...



وما من ريب ابدا في ان الطابع العجيب الذي اتسم به اولئك الجواسيس، فيما كان يرى رجال مقاومة التجسس على الاقل، هو انهم كانوا حريصين ان لا يلقوا بأي شيء ولا يتخلصوا من اي شيء مهما يكن يسيرا او تافهاً، كما كانوا مفرمين بتكديس كثير من الاشياء والادوات التي كانت هي نفسها هي الادلة التي تفقأ عين من يراها وتثبت اتهامهم الصريح بالجاسوسية، هذا الاتهام الذي ادى الى ادانته...

ومع ذلك فقد كانت محتويات حقيبة هيلين كروجر هي التي أسفرت عن أكثر المعلومات عن لونسدال. وقد سبق وأشرنا الى ان المفتش سميت عندما اراد الذهاب بكروجر وزوجته الى مركز البوليس، حاولت هيلين ان تتخلص من مغلف ابيض اللون لم يكتب عليه اي عنوان على الاطلاق، وكان هذا المغلف يحتوي على لوحة صغيرة موجبة لثلاث صور دقيقة مما لا يرى بالعين المجردة، وعلى رسالة اخرى مؤلفة من ست صفحات ومكتوبة باللغة الروسية.

-١٥-

وقد تبين لدى التدقيق والدراسة ان الصور الدقيقة التي لا ترى بالعين المجردة كانت رسائل موجهة الى لونسدال، اما رسالة الشفرة فقد كانت موجهة الى موسكو وكان يجب ارسالها عن طريق جهاز الارسال، اما غير ذلك فقد كان من الاشياء التي تملكها الجاسوسة شخصياً.. ذلك ان للجواسيس، كساتر الخلق، حياتهم الخاصة، فلا غرابة في ان تكون لهم ايضاً اشياؤهم الخاصة..

وما لا بد من قوله هنا ان جميع الجواسيس في هذه القضية، باستثناء لونسدال، لم تكن لهم علاقة ما بحقيقة المهام الملقاة على عاتق الجاسوس الروسي أو رؤسائه في الكرملين فيما عدا انهم كانوا ينفذون ما يؤمرون به، او يُليهم عليهم لونسدال. باختصار الكلمة كانوا اداة طيعة في يد لونسدال وحسب.

ولقد كانت الصور الدقيقة الثلاث التي لا ترى بالعين المجردة موجهة الى اونسدال كما قلنا، وكانت الرسالة المؤلفة من ست صفحات بالروسية جوابه عليها منه.

وقد اعاد لونسدال تلك الصور الثلاث الى اسرة كروجر لكي يتم اتلافها في منزل الاسرة نفسه لان الاسهل دائما التخلص من مثل هذه الاشياء التي لم يعد لها لزوم في بيت سكن مستقل منه في شقة مستأجرة في عمارة كبيرة. غير ان

كروجر لم يتلفها لسبب ما ، ربما كان الأرجح أنه لم يجد الوقت الكافي لاتلافها ، او لانه هو وزوجته لم يتوقعا مدهامتهما هكذا وعلى حين غرة ودون اي سابق علم.

وهكذا اظهر مجموع هذه الرسائل الثلاث، دون اي خطأ ممكن على الاطلاق ان لونسدال كان روسياً، وله زوجة وأولاد في روسيا، وله زوجة وأولاد في روسيا، وبیت خاص به في ناحية ما وراء الستار الحديدي، وانه كان يمارس مهنة التجسس بحذق ومهارة منذ سنوات عديدة.

وقد اكتشف امر لونسدال قطعاً بسبب حماقات وقلة ذكاء اولئك الذين كانوا يعملون معه. اما هو فقد قام بدوره بمهارة فائقة لا مثيل لها الى حد يستدعي الاعجاب، وقد انجز اعمالا باهرة وبالفعة الصعوبة والمشقة كلما كان ذلك ممكناً.

وكان وحده، بين سائر اولئك الذين كانوا يعملون معه، في قضية التجسس هذه، الذي كان يعمل لبلاده ويضحي بنفسه في سبيلها. اما «هوغتون» وخطيبته الانسة «غي» فلم يكن يهمهما غير الاستيلاء على المكاسب المالية. وبقى كروجر وزوجته- او على الاصح موريس كرهين ولينا كرهين وزوجته وهما يهوديان كما سبق القول- فقد كان دافعهما الى التجسس الادعاء المريب بانهما يخدمان قضية عادلة وان كان الأرجح انهما كانا ايضا يجريان وراء النافع الخاصة.

غرام جورنغ نائب هتلر

للمؤرخ: برنار يورنغ

اولئك الذين خاضوا حرباً مروعة سالت فيها دماء الملايين ودمرت مدن وازهقت انفس ما كان ارحم قلوبهم! فقد كان «هيملر» رب عائلة كله طيبة ومودة ورحمة وكان هتلر يحب الاطفال حباً جماً، وكان غورنغ زوجاً مثالياً قل انداده من الازواج... وما اكثر ما تشير فضولنا هاتيك النساء اللواتي شاركن اولئك الرجال حياتهم، فمن هن؟ وكيف كانت حياتهن، وماذا كن يخفين في طوايا قلوبهن؟ وسبق للدفاع ان قدمت لك في مسلسلاتها ايضاً بروان وحياتها المؤسسية المروعة مع الزعيم النازي «غوبلز» وتقدم لك اليوم ملامح اثنتين اخريين من هاتيك النساء، هما زوجتا «غورنغ»... وانها لاكثر من قصة غرام، واكثر من حكاية حب... انها تباريع قلوب ثلاثة لا تمجد ما يماثلها في غير أشهر قصص الحب التي صاغتها اقلام كبار الكتاب في العالم.

- ١ -

في عصر ذلك اليوم من ايام الشتاء كانت الريح تهب وتصفربهشدة خلال شبه الجزيرة الاسكندنافية، وقد جاء الى مطار ستكهولم شاب سويدي، هو الكونت «اريك فون روزن»، يسأل اذا كان ثمة طيار يسعى ان ينقله بالطائرة الى قصره ويمتلكاته في «روكستا» القريبة من «سباريكولم».

وعلى الرغم من سوء الاحوال الجوية فان أحد الطيارين كان على اتم الاستعداد للمجازفة والقيام بهذه الرحلة الجوية، وكان هذا الطيار ضابطاً المانيا استقر في السويد بعد انتهاء الحرب العالمية الاولى ولم تقض ايام حتى التحق كطيار بشركة الطيران السويدية «سفانسك لوفترافيك»، وقد كان اسم هذا الطيار الشاب الجريء «هيرمن غورنغ».

ويادر الرجلان فقفزا الى قلب الطائرة، وكان لا بد من الانطلاق في غاية ما يمكن من السرعة ليكون الوصول قبل الغروب. وقد كانت هذه العاصفة لا تنفك ترج الطائرة وتهز راكبيها هزاً عنيفاً، وتصيبهما بالدوار.

واخطأ غورنغ الطريق، ودار بالطائرة بعض الوقت فوق مساحة كبيرة من الارض المكسوة بالثلج، ثم انتهى بالهبوط، دون ضرر، فوق بحيرة «هافن» السويدية المتجمدة .



كان الليل قد ارخى سدوله، واصبح من قلة التبصر، والتعرض للخطر ان يعود غورنغ بطائرته الى مطار ستكهولم. وقد بادر الكونت (فون روزن) فعرض على الضابط الطيار ان يستضيفه في قصره القديم من قصور العصور الوسطى ذات الحجارة الحمراء، وقبل غورنغ الدعوة، وما هي الا دقائق حتى وجد نفسه جالساً في مقعد وثير، ويديه كأس خمر، قرب مدفأة تتوقد فيها شعاليل النار، وجعل غورنغ يدير عينيه فيما حوله، وكانت القاعة الكبيرة التي يجلس فيها مزدانة الجدران بصنوف الاسلحة القديمة وغنائم الصيد المحنطة، وكان يقوم على رأس السلم الفاخر العريض حارس ضخّم الجثة هو دب معشوّ بالقش كان الكونت «روزن» نفسه قد اصطاده ونصبه هكذا على رأس السلم وكأنه ديدبان مخيف.

وفيما كان غورنغ يتأمل هذا الوحش الضاري المحشوّ قشاً كانت امرأة نحيلة

الجسم دقيقة التكوين تخطر مقبلة نحوه، انها شقيقة زوجة صاحب هذا القصر، وكانت تدعى «كارين» وهي ابنة البارون «كارل فون فوك» ولعلها قد ورثت شعرها الاسود الحالك وعينيها الواسعتين الدعجاوين عن امها المنحدرة من اصل ايرلاندي. وكانت هذه السيدة في سنة ١٩١٠ اي قبل هذه الليلة باثنتي عشرة سنة، قد تزوجت ضابطاً في الجيش السويدي اسمه «نيلزفون كانترو» ثم انجبت منه ولداً يدعى توماس.

وبدت «كارين» لعيني غرونغ رقيقة عطوفا، عاطفية المزاج والواقع انها كانت واهنة الصحة، وتآلم بصمت من كثرة غياب زوجها.

وما ان وقعت عينا هيرمن غورنغ عليها حتى احس انه منجذب اليها بقوة خارقة. وكانت «كارين» من ناحيتها تنطوي على اكبر الاعجاب بالمانيا الكبرى. وقد صدمتها هزيمة المانيا سنة ١٩١٨، وكان مجرد ان ترى بطلا من أبطال الجو في هذه الحرب كافيا للتأثير على روحها العاطفية الرومانتيكية. وبدا لها هذا الطيار الذي حط بطائرته، قبل قليل، فوق بحيرة «بافن» المتجمدة، كأنه ملاك.

-٢-

ترددت «كارين» في اعطاء غورنغ الجواب على طلبه الزواج منها. وعلى الرغم من مزاجها العاطفي فقد كانت ترى ان هذا الضابط الالمانى، الذي تكبره بخمس سنوات، لما يزل بلا ثروة وبلا مركز. وهي حتى لو اغفلت هذه الناحية، فكيف يسعها ان تطلب الطلاق من زوجها؟!.

غير ان كل شيء لم يلبث ان تم على احسن مايرام، فقد كان الضابط «نيلز فون كانتزو» - زوج كارين - رجلاً شجاعاً وكريماً. ولما علم من زوجته انها ترغب في الطلاق فانه لم يكتف بان يعيد اليها حريتها وحسب ولكنه، اضافة الى هذا، وهبها مبلغاً كبيراً من المال يمثل قيمة جزء من املاكه، ثم تعهد ان يدفع لها نفقة

تكفيها.. فبرهن بهذا كله على انه رجل حصيف بعيد الادراك.

اما «كارين» فكانت قد ذهبت الى المانيا لكي تتعرف الى اسرة هيرمن غورنغ، وهناك انشرح قلبها لوالدة غورنغ، حَمَاتِهَا المقبلة وأحببتها حباً جماً. لم تعد هناك اية عقبة تقوم في طريق زواجها، وعين ليوم الزفاف اليوم الثالث من شهر شباط سنة ١٩٢٣ وبعد مراسم الزواج اقيمت مأدبة زفاف حافلة في فندق «بارك هوتيل» بمدينة ميونخ جمعت زملاء غورنغ القدماء في الحرب، لا سيما وقد كان يعتبر بطلا من أبطال الطيران الالمانى.. وانطلق الزوجان من ثم، لقضاء شهر العمل في «بيريشزيل» في جبال الالب البافارية.



ومرت الايام هادئة، حلوة، لا جديد فيها، وانما هي شهر عمل متصل... وبعد انقضاء بضعة اسابيع عاد غورنغ الى مدينة ميونخ لكي يشترك في مظاهر احتجاج ضد مشروع محاكمة الزعماء العسكريين الالمان، وفي هذا الاجتماع كان الكثيرون من الضباط موجودين بأرديتهم الرسمية. وقد رقف في ركن من القاعة رجل ضئيل يرتدي معطفاً قصيراً عتيقاً، وله شارب كث، وتتهدل على جبينه خصلة من شعره... وقف غورنغ يتحدث مع هذا الرجل، وافقه على التقدمة على معاهدة «فرسايل» الجائرة، ثم انتهى الحديث بينهما وقد اصبح غورنغ أسير شخصية هذا الرجل المجهول وشديد الاعجاب به.. اجل لقد وجد الطيار الشاب الجريء: سيده.. ولقد احس، منذ ذلك اليوم وكما قال فيما بعد، احس بالفريزة بان هذا الرجل «هو الزعيم الذي تفتقر اليه المانيا..» ولما عاد غورنغ الى جبال الالب البافارية حيث كانت تنتظره كارين زوجته حدثها عن لقائه بذلك الرجل المجهول: ادولف هتلر، وانهى حديثه قائلاً :

—انا، منذ اليوم، لهذا الرجل ومعه قلباً وقالياً.

وهكذا دخل غورنغ المعترك الحزبي وغدا شيئا فشيئا رئيس فريق من الانتصار الهتلريين. وفي هذه الاثناء كان الزوجان قد غادرا عشهما في جبال الالب البافارية واقاما في منزل قريب من مدينة ميونخ. وقد اصبح هذا المنزل الذي قامت كارين على ترتيبه والعناية به قدر استطاعتها مركزا لاجتماعات رجال النازي.

وفي شهر كانون الثاني التالي، قدمت تلك المرأة الجميلة الشابة الى هتلر الذي كان له تأثير عميق عليها... وهكذا فان كارين المولعة بالغيبيات سرعان ما ابدت اشد الاهتمام بقضية الاشتراكية الوطنية.

ولا شك في ان كارين كانت زوجة مخلصة، ومتفانية الى ابعد حد، ولما وقعت اضطرابات ميونخ في شهر تشرين الثاني سنة ١٩٢٣ علمت ان زوجها اصيب بجرح بالغ في رأس فخذه، وعلى الرغم من انها كانت مريضة في فراشها فانهما سارعت الى عيادة الطبيب التي نقل اليها غورنغ خفية وراحت تساعد اعوانه لكي يجتاز الحدود الى «اينسبروك» بالنمسا حيث وقفت نفسها على العناية به. وكان غورنغ يتألم من جرحه المأ فظيعة، فكانت ترأفه وتهدي، من ... نوبات اله وهذيان، وعندما قاتل للشفاء جعلت تعينه على محاولة السير على قدميه معتمداً على عكازين.

وفي تلك الاثناء ذاق الزوجان مرارة ايام عسيرة شديدة العصر، من مصاعب مالية وهموم اخرى عديدة، ثم لم تلبث السلطات في النمسا ان رأت وجوده غير مرغوب فيه، فاضطر ان يلجأ الى ايطاليا، وتبعته كارين في منفاه الاختياري الجديد.

-٣-

اخيراً وفي ربيع سنة ١٩٢٥ تسلم هيرمن غورنغ وزوجته مبلغاً كافياً من

المال مكنهما من الارتمال من ايطاليا الى ستوكهلم عاصمة السويد، وقد كان في مرجوهما يومئذ ان يجدا امامهما باباً جديداً للسعادة، غير ان غورنغ كان قد تعود تعاطي المورفين لتهدئة آلامه ثم غدا لا يستطيع التحلي عنه. وقد ذهلت اسرة زوجته امام وجهه الشاحب، وبدانته البادية، وانحطاط قواه...

اما زوجته كارين فقد كانت مضطرة ان تبقى نائمة في سريرها معظم الوقت بسبب اصابتها بداء السل من ناحية وبالقلب من ناحية اخرى. وقد روي ايضا انها كانت ذات استعداد للصرع...

ولم يكن هذا نهاية هموم المرأة الرقيقة، العطوف، فقد كانت تريد أن تأتي بأبتها «توماس» الى بيتها. ولكن طلبها عندها لم يصادف غير الرفض بالطبع، وعلى الاخص ان زوجها الذي اصبح مدمن مورفين اخذ يزداد احتياجاً يوماً بعد يوم. وكان، اذا افتقر الى هذا المخدر، يصاب بنوبات تفزع كل من حوله وتقلأ قلوبهم ألماً له وإشفاقاً عليه...

وجاء يوم اضطر فيه الطبيب ان يدخله مستشفى المجانين في «لانغبيرو» بالسويد. وقد بلغ به عنف نوباته الجنونية ان القائمين على خدمة المستشفى كانوا يلبسونه قميصه بالقوة. ثم بدأت معالجته، وازالة تسمم المورفين من جهازه، وكان شفاؤه بطيئاً غير انه تم له الشفاء في النهاية، وما كاد يغادر المستشفى حتى علم بان الحكومة الالمانية قد اصدرت عفوها عنه. واذن فقد استطاع ان يذهب الى برلين، غير انه اضطر، والاسف يلاً قلبه، ان يترك زوجته كارين مريضة في ستكهولم ومع ذلك فانها لم تستطع الا ان تكون الى جانبه عندما انتخب عضواً في «الرايخستاغ» - البرلمان - الالمانى - في شهر حزيران سنة ١٩٢٨، وفي شهر كانون الاول استطاعت كارين ان تهيم منزلها ولزوجها يستقبلان فيه كبار اعضاء الحزب النازي...

وقد ابهجها وملأ قلبها مسرة تألق نجم الاشتراكية الوطنية، غير ان اضطرابها الى الانهماك في حياة المجتمع اتعبها وانهاك قواها. وعلى الرغم من انها امضت بضعة اسابيع للراحة في احد المصحات فقد ظلت صحتها تتدهر يوماً بعد يوم. فقلق غورنغ واضطرب، واستدعى لها امهر الاطباء، ولكن كل شهر يمر كان يزيدها ضعفاً ووهناً وانحطاط قوى وعافية..

وفي ربيع سنة ١٩٣١ استقدم غورنغ احد كبار الاختصاصيين لمعالجة زوجته. وذات يوم اغشى عليها، وفيما بدا انها كانت غائبة عن وعيها تأدى اليها صوت الطبيب الاختصاصي الكبير وهو يشرح لزوجها، بصوت خافت، سوء حالتها.. وادرك غورنغ مما قاله الطبيب ان زوجته لن تعيش طويلاً. ولما ثاب اليها وعيها كانت قد أدركت ان مرضها قد قضى عليها قضاء الرهيب.

وبعد ايام هتفت تقول لشقيقتها: انني ادرك الان ما معنى الموت.. لقد سمعت كل شيء عندما قال الطبيب لهيرمن ان لا أمل لي في الحياة.. غير انني لم اكن استطيع ان اتكلم او التحرك ساعتئذ.. ثم سمعت بعد هذا صوت هيرمن، وادركت انه لا ينبغي ان اتركه بعد..

-٤-

كان هذا أشبه ما يكون بهدنة غير طويلة الاجل- وفي شهر ايلول اضطرت «كارين» وزوجها الى الذهاب بسرعة الى السويد على اثر النبأ الفاجع الذي تلقت به وفاة امها السيدة «فوك». ولقد حزنت عليها حزناً عظيماً ولكنها كانت تدرك، في صميم قلبها، انها لن تلبث ان توافيها في قبرها... وفي هذه الاثناء اضطر غورنغ، أسفاً، ان يغادر السويد بناء على استدعائه الى برلين.

وبعد مضي اسبوعين، وكان ذلك بتاريخ ١٦ تشرين الاول سنة ١٩٣١ تلقى

برقية جاء فيها ان زوجته تعاني غصص الموت... وهرع من فوره الى السويد. الا أن الامر، في هذه الاثناء، كان قد انتهى لقد قضت «كارين» نحبها ليلا على أثر نوبة من نوبات القلب.



وانقضت سنتان، بلغ حزن غورنغ على زوجته الحبيبة في خلالهما مبلغاً عظيماً مشهوراً. وكان أصدقائه، اذ يرونه جائياً عند قبرها في مقبرة «لافو» السويدية، يداخلهم الشعور بالاعتقاد ان شيئاً ما قد تحطم في نفسه. وقد احترم الاشخاص الذين يحيطون به الملم المبرح... غير ان الحياة استمرت تغد السير في مجراها الابدی. وفي شهر كانون الثاني سنة ١٩٣٣ عين هتلر مستشاراً، وشارك غورنغ في الاحتفال بهذا النصر الباهر الذي احزته الزعيم.

وكان غورنغ في هذه الاثناء قد بلغ الاربعين من عمره، فتعاظم طموحه، وازدادت رغبته في البذخ والترف في الوقت نفسه الذي نما فيه وتعاظم شأن الحزب الاشتراكي الوطني ونجاحه الكبير.

وفي تلك الايام لم يكن احد ليشك او يجهل بأن غورنغ قد ارتبط برباط صداقة متينة ودافئة بالمثلة الساحرة الجمال «ايمي صوغان»، وكان قد التقى بها مصادفة في مدينة «ويمار» في اعقاب اجتماع سياسي عقد هناك.

في ذلك اليوم طلب زعماء النازي ان يشاهدوا بعض مشاهد التمثيليات الكلاسيكية الشهيرة المانية وغير المانية، مما يمثل أفضل فناني المنطقة. وكانت «ايمي صوغان» من الممثلات المعرفات، وقد لفتت الانظار بتمثيلها الفني الجميل في تلك الحفلات ونالت الكثير من الإعجاب والتصفيق..

وكانت «ايمي» مثل غورنغ، في نحو الاربعين من عمرها، وكانت المانية

شعراء رائعة، وجميلة فائنة، سمحة التقاطيع، حلوة النظرة، ناصعة اللون وكان المعروف عنها انها مثلت في مقدرة فنية معجبة الادوار الشهيرة في المسرحيات الكلاسيكية الخالدة كدور «مرغريت» في مسرحية فاوست لشاعر المانيا الكبير «غيتة» وديدمونة في مسرحية عطيل لشكسبير. وكانت ايمي ابنة احد تجار مدينة «هامبورغ» وسبق لها ان تزوجت احد زملائها الفنانين، كارل كوستلين، سنة ١٩١٦ ثم افترقا بالطلاق.

وقد اعجب بها غورنغ ايما اعجاب. ولم يكن اعجابه بجمالها، ورقتها، وثقافتها الادبية والفنية وحسب، بل هو قد اعجب بها، وبصورة خاصة، بعدم اهتمامها المطلق بالشؤون السياسية!

والواقع ان «ايمي» كانت جاهلة جهلاً مطبقاً في هذا الميدان. ويرى انها يوم رأت غورنغ، ماريشال الجو، لأول مرة التبس عليها الامر، وحارت بين ان يكون هو غورنغ او غوبلز..

ومع ذلك فسرعان ما تعلقت اسبابها باسباب هذا الرجل الارمل منذ اللحظة التي حدثها فيها عن زوجته الحبيبة المتوفاة.

-٥-

وبالغة ما بلغت حياة غورنغ من التألق والسطوع كرئيس ال «رايخستاغ» ورئيس للوزراء، ووزير لطيران الرايخ فانه ما استطاع ان ينسى زوجته المتوفاة «كارين».

وفي شهر حزيران سنة ١٩٣٣ ذهب الى السويد لكي يحضر حفلة زفاف ابنة اخت زوجته كارين، غير انه لم يلبث ان غادر الحفل وانطلق الى قبر زوجته فجثا امامه خاشعاً ملهوف الحس والقلب دامع العين، ثم وضع فوق قبرها اكليلا من

الزهر على شكل صليب معقوف، وهو شعار النازي ورمز الهتلرية.

في تلك السنة نفسها استملك قطعة كبيرة من ارض الريف في شمال براين قرب بحيرة «ويكرسي» وبدأ فيما بين البحيرة والغابة ببناء دار سكن مدهشة سماها بعد الفراغ من تشييدها باسم زوجته الراحلة «كارينهال» وعلى الايام اتخذت تلك الدار، بروعة بنائها، وبحدائقها الملتفة، وبأثاثها ورياشها، مظهر منازل الامراء.. وكان الذاهب اليها يدخلها عبر ممر عريض طويل محفوف بالاشجار، ثم ينفذ الى متنزه بديع التنسيق يواجه ثلاث عمارت متقاربة .

وقد جعل في العمارة الوسطى قاعة طولها ٤٥ متراً، حولها فيما بعد الى ما يشبه ان يكون متحفاً فنياً عرض فيه مارشال الجو الالماني اجمل لوحات الرسم الفنية التي وقعت في حوزته من مختلف البلدان التي خضعت لحكم النازي.. ولم تلبث تلك الدار العظيمة ان اكتسبت شهرة كبيرة في مختلف انحاء العالم بسبب قاعات الاستقبال الضخمة الباذخة فيها، وصالاتها الرخامية العريضة المنحوتة الجوانب والافاريز، ومكتبتها التي تغض بانفس الكتب واثمنها، وبكل ما كانت تزdan به من مذهبيات ومفضضات ومن سجاد نادر المشال، ومن تحف ولطائف لا تقدر بثمان..

اما جمال الحدائق زخارفها واحواضها الهندسية التي احتشد فيها الزهر صنوفاً واشكالاً، فقد كان بضاهي ابهة حجرات القصر وقاعاته، نفائسه..

وقد دعا غورنغ الى حفلة استقبال باهرة في داره تلك، وكانت الحفلة اشبه ما تكون بمأتم، ولكن اضيفت عليه جميع مظاهر الابهة والترف...

وكان ذلك بمناسبة نقل رفات زوجته الراحلة «كارين» وفي هذا السبيل كان قد اوصى على صنع نعش خاص مصنوع لشخصين. والواقع انه كان يريد ان يدفن، فيما بعد، جنباً الى جنب مع زوجته التي بلغ حبه اياها حد العبادة..

ونقلت بقايا «كارين» من مقبرة «لافو» بالسويد في النعش المذكور وقد وشح بعلم ذي صليب معقوف، واجتاز بحر البلطيق، ثم وضع في قطار ملأته الأزهار وقد بان في وسطها اكليل من من الورد الابيض ارسله غورنغ نفسه وعلق به بطاقة كبيرة كتبت عليها هذه العبارة المؤسفة: «الى حبيتي الوحيدة كارين»

وفي يوم دفن الرفات اجتمع حشد من الاصدقاء، بينهم هتلر نفسه، في دار غورنغ «كارينهاال» وكان قد أقيم في حدائق الدار قبر فخم البناء حفرت على جوانبه شعارات اسرتي غورنغ وفوك، ولدى وصول النعش الذي يضم رفات الزوجة الراحلة يادر كبار اعضاء حزب النازي وتحلقوا حوله في مظهر من مظاهر التكريم في حين كانت الموسيقى العسكرية تعزف للحن الجنائزي المعروف باسم «غروب الالهة».

ثم قام احد كبار القساوسة فأبّن الراحلة ووصفها بانها انبل امرأة في المانيا. واخيراً وفي غمرة من قرع الطبول والموسيقى الهادرة انزل النعش في اعظم مظاهر الابهة في القبر الفخم الذي كانت تنيره المشاعل.

وعندما انتهت مظاهر هذا الاحتفال المهيب بقي هتلر وغورنغ معاً بعض الوقت وهما واقفان صامتين خاشعين امام ذياك القبر.

-٦-

في الوقت الذي كان غورنغ يقوم بهذا الواجب الزوجي الرائع كانت صلته بـ «امي صوغان» قد بدأت تشيع بين الجماهير الالمانية..

وذاث يوم كان غورنغ جالساً في مقصورته بمسرح «ومار» وكان يصفي احدى صديقاته امي وهي تمثل دور «كلير» في مسرحية «ايغيموت». ومي ات ،

التمثيل، وفيما كان المفروض بايمي ان تتحدث قاتلة مشيرة الى من تحب:

- ليتني اعلم فقط اذا كان يحبني اولاً: أترى قد حبل بيني وبين ان استفسر منه عن حقيقة هذا الحب؟

وما ان نطقت ايمي بهذه العبارة على المسرح حتى قابلها المتفرجون بالاهتسام، والهمس في القاعة الواسعة كلها.. لانهم احسوا في هذه العبارة ما يعتمل في نفسها نحو غورنغ.. كأنها هي قد اعلنت فيها، حبها العميق له..

وبعد ايام لم يدهش رواد مسرح مدينة «ويمار» حين علموا ان ايمي صوتمان قد استقرت في برلين، واضفي عليها لقب «مثلة الدولة» وخصص لها راتب محترم.. واقامت يومئذ في حي «كايزر دام» بشقة اشرف غورنغ نفسه على فرشها..

ولم تمض بضعة شهور حتى قدمت ايمي الى هتلر فنالت اعجابه، حتى لقد دعاها ودعا غورنغ معها الى قضاء بضعة ايام في عش النسر الذي كان قد خصصه لنفسه. وقد قيل ان هتلر نفسه هو الذي دفع نائبه غورنغ ان يتزوج ايمي صوتمان لتكتسب صلتها بها الصورة الشرعية.

وقد تردد غورنغ بعض الوقت. وكان سبب تردده انه كان يريد ان يظل وفياً لذكرى «كارين» زوجته الراحلة. غير انه، في النهاية، تغلب على وساوسه، وقد روت ايمي نفسها كيف تقدم غورنغ يطلب يدها زوجة له. وقد كان ذلك في يوم من ايام شهر شباط ١٩٣٥.. وكان هيرمن غورنغ قد عاد يومئذ من «برخسغادن» في الوقت الذي كانت ايمي تتأهب فيه للذهاب الى المسرح لمواصلة «هروقات» احدى التمثيليات.. واحس غورنغ انه لن يستطيع ان يحدثها في موضوع الزواج دون حرج، فلم سائق السيارة التي كانت ستحملها الى المسرح ورقة مطوية في مغلف مغلق واوصاه ان يسلمها اياه في اثناء الطريق.. غير ان ايمي بادرت فاخترقت المغلف وفتحت فوراً فقرأت فيه هذه الكلمات البسيطة:

«أتريدان أن تتزوجيني في عيد الفصح؟ سيكون الفوهرر شاهد زواجنا»..
ولقد طغى الفرح على قلب إيمي فهبطت من السيارة الى الارض بسرعة وارتقت في
احضان غورنغ.. وفي هذه اللحظة ذاتها تقرر عقد زواجهما في شهر نيسان المقبل.

وفي خلال الاسبوعين اللذين سبقا حفلة الزفاف انهالت على غورنغ وإيمي
الهدايا من كل صوب. وكانت هدية هتلر لهما لوحة فنية رائعة تمثل السياسي
الالماني بسمارك بريشة الفنان الكبير «لامباخ»... غير ان عدداً كبيراً من
المعجبين المجهولين اظهروا اعجابهم وتعلقهم بمارشال الجو الالماني بأن ارسلوا اليه
مختلف الهدايا ابتداءً من نماذج طائرات صغيرة مصنوعة من الذهب الخالص او
القضّة وانتهاءً بـ «كهكة» هائلة الحجم مصنوعة من الشوكلاته على شكل قلب
ومزدانة باسم «هيرمن» بأحرف بارعة من سكر..

وقيل ان غورنغ قد عرض فيما بعد هذه الهدايا التي لا تعد ولا تحصى امام
انظار الصحفيين الاجانب مدللاً بذلك على ما يتمتع به من شعبية على نطاق
واسع في المانيا..

-٧-

كان الاحتفال بزفاف غورنغ بالفا حد الروعة ففي ليلة التاسع من شهر نيسان
ازدانت شوارع برلين بأكاليل الزهر واعراف الشجر والرايات والاعلام التي تحمل
شعار النازية «الصلب المعقوف» وقدمت دار الاوبرا حفلة رائعة مثلت فيها اوبرا
«لوهنغرين»، وحلقت في سماء العاصمة الالمانية طائرات غورنغ الجديدة وقامت
بتشكيلات لفتت الانتظار بجمالها وجرأتها وضجيجها

وانتهت تلك السهرة الباهرة بركض حملة المشاعل.

وفي الغداة، عند الظهر، ذهب غورنغ ليصحب إيمي صوغان لاقام الزواج

المدني فركب سيارة تزينها ازهار النرجس والقرنفل، واصطحب ايمي الى دار بلدية برلين ماراً بدار المستشارية. وكان هتلر نفسه شاهد الزواج، وقد قدم لامي صوفان باقة جميلة من زهر الاوشيده.

ومن جديد حلفت اسراب من الطائرات المطاردة، في سماء برلين، وقامت بتشكيلات جديدة ومظاهرة جوية خلافة على شرف العروسين. اما البركة الدينية فقد وهبها اياها رئيس الاساقفة «مولر» في كاتدرائية برلين، وذلك بعد الانتهاء من العقد المدني.

وكانت العروس التي بلغت الاربعين من عمرها، ترتدي ثوب الزفاف الناصع البياض، واعتمرت بطرحة شبكت على رأسها باكليل من الماس.

وفيما بعد تحدثت عن خيبة أمل وحيدة في ذلك الاحتفال الرائع ذلك ان زهر البرتقال الموصى عليه وصل ذابلا من ايطاليا.. فاضطرت عندئذ ان تكفي ببعض الازهار البيضاء اختارتها من باقة زهر الاوشيدة التي قدمها لها هتلر ا

وبعد الانتهاء من الاحتفال الديني اقيمت مأدبة لثلاثئة وستين مدعوا في فندق «كيزرهوف» وقد حضر المأدبة كبار اعضاء الحزب النازي، وبدا هتلر، في تلك المأدبة، على أحسن ما يكون صفاء مزاج..

وعلى حين غرة توجه هتلر الى ايمي صوفان بهذا السؤال المفاجيء:

- لو كان في نفسك امنية تتمنيها اليوم فماذا تراها تكون يامدام غورنغ؟
وقالت ايمي دون تفكير:

- ان يصبح زوجي مثلاً... ودهش هتلر لهذا الجواب وسألها:

- ولكن... لماذا هذه الامنية؟ فقالت:

- لاننا ستكون سعيدين هو وانا ليس في حياتنا الخاصة وحسب، بل وفي المهنة التي نمارسها.. ولا شك في انه يجب ان يكون في القلب كثير من الحب لكي اتزوج رجلا في اهمية هيرمن غورنغ.. ويحكم عملي، وعمله، فانا لن نرى بعضنا البعض كثيراً.. وعاد هتلر يقول:

- عجبنا! كنت احسب دائما ان مركز الزوج يحظى باهتمام الزوجة قبل كل شيء، وفوق كل شيء.. ولهذا السبب لا اريد، انا، ان اتزوج .. اذ لن اعرف ابداً اذا كانت المرأة التي ستزوجني تفعل ذلك بدافع الحب او بسبب من مركزي..

وقالت امي:

- كيف يمكن ان تفكر على هذا النحو؟ ان المرأة التي ستزوجك لابد ان تنطوي لك على اعظم الحب، اذمن هي تلك التي تقبل، طائعة مختارة، ان تصبح المرأة الاولى، في الرايخ؟

وانهى هتلر حديثه معها قائلاً:

-انك انت، منذ الان، المرأة الاولى في الرايخ، يامدام غورنغ. وفي انتظار ان تشملم مدام غورنغ مسؤولياتها الجديدة كزوجة فقد تبعت زوجها الى داره الفخمة «كارينهاال» حيث عقد اجتماع لبعض الخاصة من اصدقاء غورنغ وفيما كان اولئك الاصدقاء يرفعون كؤوسهم شاربين على صحة العروسين، فان هيرمن غورنغ اختفى بضع لحظات ذهب خلالها الى قبر زوجته الاولى «كارين» حيث جثا عند قبرها خاشعاً مستمعياً.

-٨-

امضى العروسان شهر العمل في مدينة «ويسبادن» حيث طلب من السكان

ان يظهرها محبتهم ومودتهم لما رشال الجو... وذلك بأن يتجاهلوا وجوده، وأن يمنحوا على اطفالهم ان يلتفتوا اليه او يذكروه... وبعد قضاء فترة راحة في «راغوز» عاد الزوجان ليستقرا في برلين.

وقد انفتحت امام ايمي ابواب حياة باذخة متألفة، وهي التي يتعارض ذوقها البسيط وميولها الساذجة مع ذوق وميول زوجها الذي كان لا ينفك يزداد نهماً لمظاهر الترف والتكريم العريض وقد كان غورنغ يملك الى جانب قصره في برلين وداره التي تحمل اسم زوجته الاولى «كارينهاال» فانه كان يملك ايضاً استراحة صيد في «رومنتين» ببروسيا الشرقية، ومنزلاً اقل تواضعاً في «برخسغادن» ثم ورث، خلاف هذا، قصوراً في «موثر ندورف» وفي «فالدنشتاين».

وكانت ايمي في هذه المنازل والمساكن والقصور جميعاً تساعده فوق ما تستطيع في استقبال الضيوف والزوار والاصدقاء والزملاء..

وكانت قد اعتزمت ان لا تتدخل في الشؤون السياسية اطلاقاً، ولذلك فقد جعلت تعيش من اجل زوجها فقط ومنذ سنة ١٩٣٨ وقفت حياتها على الطفلة التي انجبتها منه، وهي الصغيرة «ايدا».

لقد كانت زوجة كاملة الصفات، ابت ان تلتفت بنظرها الى اي شيء آخر من الشؤون التي كانت تهم زوجها وتستغرق جهده ووقته وعلى الاخص طموحه الكبير، ومعاونته لهتلر الى ابعد الحدود.

ومحدثنا مذكرات مدام غورنغ عن زوجها، وهذه المذكرات التي نشرت بعد موته كلها ثناء عليه واطراء لمزاياه، وتؤكد ايمي ان غورنغ لا يمكن ان يتحمل اية مسؤولية مهما تكن صغيرة من حريق الرايخستاغ، اي البرلمان الالمانى، وهي تؤكد انه لم يقبل باشعال نار الحرب، ولم يرض عن اضطهاد الشعوب المقهورة المغلوبة، وهي تصر كذلك على انه لم يكن يعلم شيئاً عن معتقلات الحرب..

ويروي التاريخ كذلك انه كان لها عليه تأثير قوي، ولقد سمعته، ذات يوم في كرينهال، يوجه نقداً مريراً الى المسيحية فاعترضت تقول على الفور:

- ولكن، يا هيرمن، ماذا تراك تقول؟ ان سماع مثل هذه الاقوال لا يطاق. انك لست كما اعرفك في مألوف عاداتك. ان هذه الحرب اللعينة اذا لم تنته وشيكا فانها ستحيلكم، انتم الرجال مخلوقات لا تطاق حقاً. انكم، في بيوتكم، غدوتم جد مختلفين عنكم عندما تنفردون بانفسكم.

وكان القلق يتعاضم كلما مر الزمن. وكانت ترى اندفاع هتلر وتهوره فتأسى، غير انها كانت شديدة الاعجاب بوفاء زوجها لصداقة الفوهرر. ومع ذلك فقد كانت تعلم ان نجم زوجها قد بدأ يشحب منذ ان توالى فشل الطائرات الألمانية.

وفي سنة ١٩٤٤ لم تعد مدام غورنغ تجهل ان ألمانيا تسير نهائياً نحو الضياع... وفي آخر عيد ميلاد شهدته في الحرب كانت في دار زوجها «كرينهال» ومعها ابنتها الصغيرة. غير انها شعرت ان بقاءها في هذه الدار لم يعد باعثاً على الامان والاطمئنان لزوجة الرجل الثاني في الرايخ..

وفي شهر كانون الثاني جاء صف من سيارات النقل لتنتقل المجموعات الفنية التي تخص غورنغ. وهي كلها لوحات حملتها هاتيك السيارات واتجهت بها جنوباً.

-٩-

في اليوم الثلاثين من شهر كانون الثاني نفسه غادرت امي نفسها تلك الدار التي احبتها والتي كانت تعلم انها لن تراها من بعد. والواقع ان غورنغ أصدر أوامره ببث اللغام في بنايات تلك الدار، واوصى بعملية النسف الفورية قبل وصول الروس اليها.

وذهبت ايمي وابنتها الصغيرة الى «اوبرسالزبورغ» حيث انضم اليهما غورنغ بعد ذلك، وهناك تعرض الى نقمة هتلر الذي اتهمه بالخيانة والعمل وسرعان ما داهم جنود الصاعقة بيت غورنغ، ووضعوا المارشال تحت مراقبتهم اليقظة وكثيراً ما كان غورنغ يخشى، اذ ذاك، ان يطلق اولئك الجنود النار عليه وعلى زوجته وابنته ويردونهم قتلى في عقر بيوتهم..

وازداد قصف القنابل واشتد ضرب برلين، وفي النهاية حصل غورنغ على اذن بالذهاب مع زوجته وابنته الى قصره في «موترندورف» وعندما وصل اليه نبأ موت هتلر خطر له ان يفاوض ايزنهاور في موضوع احلال السلام.. ولقد كان هذا منه وهماً غريباً.. وكان كل ما فعله الجنرال الاميركي عندما التقى به قرب «زيلام سي» انه ارسل به الى السجن.

وعندئذ بدأ عذاب زوجته ايمي وبدأت اوقات المحن العصيبة. وقد اوشكت محاكمات «نورمبرغ» العمل وهي لا تستطيع ان تلحق بزوجها. بل ما لبثت هي ان وجدت نفسها محتجزة، ودام احتجازها شهور اطوالا عانت خلالها من الجوع والبرد وشتى ضروب الحرمان والالام. واطلق سراحها في شهر شباط سنة ١٩٤٦، واستطاعت، هي وابنتها، ان تستقر في مكان غير بعيد عن «نورمبرغ» على امل ان تتاح لها رؤية زوجها السجين..

ولما تمت اول مقابلة بينها وبينه بعد هذا الفراق الطويل فان ايمي لم تستطع ان تشاهد زوجها الا من خلال القضبان الحديدية تحت مراقبة حارس مدجج بالسلاح.

وقد تشبثت بحبال الامل طويلاً، ان ينال زوجها رحمة المحكمة. وفي اليوم الاول من شهر تشرين الاول اضطرت ان تترك اوهايم الامل هذه فقد صدر الحكم باعدام غورنغ شنقاً..

وقد طلب المارشال السابق من قضاته ان يعدم رمياً بالرصاص. ولكن طلبه

هذا رفض. غير انه نجا من حبل المشنقة بالتجائه الى السم.. ولكن احدى لم يدر ابداً كيف استطاع الحصول على حبة السم هذه التي ابتلعها قبل لحظات من الموعد الذي تقرر فيه شنقه.

- ١٠ -

كانت ايمي، قبل ان يقضي غورنغ نحيبه بالسم باسبوع، قد ذهبت لزيارته الزيارة الاخيرة. وقد سأله مستعملة كلمة سرية متفقاً عليها عما اذا كان قد تسلم السم.. فاشار «لا» برأسه، ولكنه قال بصوت عال:

- لا تخشي ان يشنقوني. انهم يحتفظون لي برصاصة قاتلة. ثم احب ان اقول لك: ان اولئك الغرباء في وسعهم ان يقتلونني، ولكنهم لا يملكون حق محاكمتي..

وقالت له:

- أعتقد حقاً انهم سيعدمونك رمية بالرصاص؟

واجابها هو بلهجة قوية عامة:

- تستطيعين ان تثقي بشيء واحد هو انهم: لن يشنقوني.

ولما خرجت ايمي من السجن كانت زمرة من الاميركان تنتظرها ويأيدي افرادها آلات التصوير.. غير ان كاهن السجن الذي كان يرافقها استطاع ان يجد باباً اخر أخرجه منه.

وعادت مدام غورنغ الى جانب ابنتها وعندئذ بدأ انتظارها المريع. وذات صباح صافحت اذنيها الكلمات الرهيبة.. جاءت من فم غريب لا تعرف صاحبه

- لقد اعلن الراديو ان محمومي نورمبرغ قد شنقوا اليوم فيما عدا مارشال
الرايخ الذي تناول السم فقتل نجه به.

وكان ذلك يوم ١٦ تشرين الاول وقد انهارت رعي باكية شاهدة.. وكانت
ترى ان اكرم الرجال وأفضلهم قد حُكم عليه وقضى نجه ظلماً وعدواناً..

وهي تتسائل في مذكراتها: كيف امكن لرجل مثله ان يموت هذه الميتة وهو
الذي ما اكشر ما وهب من نفسه للآخرين وهو الذي كان يتضوأ فهما وادراكا
ورحمة ومحبة للآخرين؟

غير ان آلامها المبرحة لم تقف عند هذا الحد فقد كان عليها بعد بضعة اشهر
ان تفارق ابنتها وتدخل السجن بدورها قبل ان تمثل امام محكمة «غارميش»
لتميز النازيين من غير النازيين.. غير انها برئت وعادت الى ابنتها «ايدا»
وانصرفت الى تربيتها والعناية بها...

وبعد بضعة اسابيع من انتهاء الحرب ذهبت جماعة من الفضولين تزور دار
غورنغ التي كانت تحمل اسم زوجته الاولى «كارينهال»، فوجدوا تلك الدار
الفخمة اكواماً من انقاض. وكانت الحدائق الواسعة المنسقة قد صرحت.. كما ان
الروس قتلوا جميع الحيوانات النادرة المثل التي جمعها غورنغ هناك وافسح لها
المجال لكي تعدو حرة طليقة ضمن الغابة الواسعة التي تقع فيها الدار.. وان
للصوص قد جاورا وسرقوا تاهوت زوجته الشين، والضريح نفسه كان قد تهدم
وانتشرت هنا وهناك بقايا عظام تلك المرأة التي كان غورنغ قد احبها ذلك الحب
العظيم النادر المثل.. انها زوجته الاولى السويدية «كارين».

غراه غوبلز

التاريخ مليء بمغامرات هاتيك الحليلات والمخطيات اللواتي احبهن عظماء تركوا طابعهم، ان شراً وان خيراً، على جبين زمانهم، ونحن لم نعد نجعل شيئاً من غراميات الملك فرنسوا الاول، ولويس الرابع عشر، ولويس الخامس عشر، وهتلر، موسوليني الخ...

ولكن لماذا ترانا يجب ان نهمل، الزوجات الشرعيات لامثال اولئك العظماء؟ وما اكثر ما حام التساؤل حول هاتيك الزوجات اللواتي ارتبطت مصائيرهن بشخصيات التاريخ، وحول الدور الذي قمن به، وكيف كانت اخلاقهن، والى اي حد وصل نفوذهن الخ...

لقد كان لهن دائماً مكانهن في كنف الرجال الذين احتلوا موضع الصدارة... وهكذا فان لنا ان نتساءل عما كانت عليه زوجة «غوبلز»، وهي قد عاشت الى جانبه، وماتت معه، بعد ان اعطت «الموت» لاولادها بعدها؟ ربما استطاعت هذه القصة التاريخية ان تقدم لنا الجواب.

- ١ -

في سنة ١٩٢٩ خطر ذات يوم لامرأة باهرة الجمال، في الخامسة والعشرين من عمرها، ان تذهب لتحضر اجتماعاً لذوي القمصان السود في قصر الالعب

الرياضية بيرلين، ولا ريب في ان دافعها الى ذلك كان التبطل وفراغ الوقت.

كانت هذه المرأة قليلة التردد على الاجتماعات السياسية، كما انها لم تعود الا قليلا مشاهدة التظاهرات الحزبية الضخمة. ولذلك شد ما كانت دهشتها اذ دخلت القاعة الكبيرة المزدانة برايات الصليبان المعقوفة، واذا راحت تشاهد حماسه خمسة آلاف شخص تجمعوا في حلبة قصر الرياضة.

وقد رأت، في هذا المساء، رجلا قميئاً، ضئيلاً، معروفاً ونظماً بشدة اذ يسير، يعتلي المنصة، وقد بهرها منه وجهه الصارم المقدود وعيناه المتقدتان، هذا الرجل كان الدكتور «غوبلز» نفسه، وكان هتلر قد عينه، حديثاً، رئيساً «للدعاية» في الرايخ الالمانى.. وكان غوبلز مسعر رجال، وشاهدته تلك المرأة الجميلة وهو يخطب فيهب منبر الخطابة، ويكهرب سامعيه بعباراته الملتهبة التي تتخللها كلمات المدح والثناء المتدفق على «هتلر» العبقري العظيم، والخارق الذكاء، ومنقذ المانيا، كما تتخللها اللعنات الشداد يصيها صياً على اعداء النازي وخصومه ومناوئيه..

وما اكثر ما قوطع خطاب غوبلز بالتصفيق الحاد، والبالغ حد الهذيان.

واصغت المرأة الجميلة بدهشة وفضول في اول الامر، ثم بتأثر وانفعال واضحين. ولا ريب في ان الخطيب المفوه قد استولى على لبها ببلاغته وذلاقة لسانه.. اذ انها، منذ الغداة سجلت نفسها عضواً في الحزب الاشتراكي الوطني ومنذ ان تم هذا التسجيل فان زوجة غوبلز- المقبلة- قد وضعت يدها مع الايدي الاخرى في تلك الآلة الطاحنة التي ساقتها، بعد سنوات من الهول العاصف الى ان تقتل اولادها الستة وتنتحر هي نفسها...

وينبغي الان ان نعود الى عشية الحرب العالمية الاولى، حيث نرى فتاة المانية صغيرة جاثية في رجة كنيسة دير «الاورسولين» في مدينة بروكسل.. ولقد كانت

هذه الفتاة الغريبة الجميلة من انجب طالبات راهبات ذلك الدير. وكان اسمها «ماريا مجدلينا ريتشل»، الا ان الجميع كانوا ينادونها عادة باسم «ماغدا».. وقد كانت، اذ ذاك، في الثانية عشرة من عمرها، وطالبة داخلية في الدير المذكور، وكانت قدمرت خمس سنوات منذ قبلتها راهبات «الاورسلين» في معهدهن.

وانه لما يدعى الى الدهشة حقا ان يكون قد عهد به «ماغدا» الى هاتيك المربيات: ذلك ان والدها، الكاثوليكي المذهب، في حين كانت أمها بروتستانتية.. وقد انفصلت بالطلاق عن السيد ريتشل وتزوجت غيره رجلا اسرائيليا من جماعة «الفكر الحر» هو «فرايدلاندر» الشري الطائل الثراء. وقد كفلها زوج امها وعني بها. غير انه كان يستشير والدها، كلما كان لا بد من اتخاذ قرار بشأنها، وكان والدها، السيد ريتشل، مهندسا، يقيم هو الآخر في بروكسل عاصمة بلجيكا.

-٢-

كانت حياة «ماغدا» حتى ذلك الوقت تمر دون شيء يميزها. فتذهب يوم الاحد، الى بيت امها وزوج هذه الام في بيتها الفخم ببروكسل، وفي اجازاتها المدرسية كانت تجعل من نفسها نصيباً لوالدها ونصيباً لوالدتها.. مما يدل على انها تحب الاسرتين جميعاً حباً متساوياً.

وفي شهر اب من سنة ١٩١٤ كان على جميع الالمان المقيمين في بلجيكا ان يرحلوا الى وطنهم المانيا. وهكذا عادت «ماغدا» الى برلين مع امها وزوج هذه الام، واطلقت على نفسها إذ ذاك اسم «ماغدا فريد لاندر» وراحت تتابع دراستها. وكانت ترى والدها في احيان كثيرة وكان والدها يستولي على مشاعرها عن طريق تأثيره عليها.

وعلى الرغم من صغر سنها جعل والدها يعرفها بالمبادئ الكبرى الرئيسية للبوذية.. والواقع ان «ماغدا» ظلت، طيلة حياتها، متأثرة الى حد بعيد بقصائد الشرق..

وفي هذه الاثناء وقعت لها مأساة عائلية، اذ ان امها انفصلت عن زوجها الثاني، وراحت تعيش وحدها مع ابنتها. وكانت ماغدا قد بلغت السابعة عشرة من عمرها، وقررت ان تكمل دراستها في مدرسة داخلية نسوية في «غوسلار». وكانت قد غدت صبية رائعة الحسن ولها من الثقافة ورصانة الخلق ما كان يثير اعجاب وانبهار الجميع...

ومع ذلك فان هذه الفتاة العاقلة عرفت اول مغامرة عاطفية لها. كانت، ذات يوم في القطار الذاهب من برلين الى غوسلار. فلاحظ جمالها جار لها في القطار كان متكئاً على نافذة المر قريباً منها...

وعلى الفور اخذ يجاذبها الحديث، ثم قدم نفسه لها: «غونتر كاندت» من رجال الصناعة. وكان هذا الرجل اصلع قليلاً، ويبدو في الاربعين من عمره..

كان الدخول في حديث مباشر هكذا مع فتاة في قطار يمكن ان تكون له مسحة من غرابة في تلك الفترة..، غير ان السيد غونتر كاندت تبدى لها في مظهر من التأدب الكبير الى حد لم تجد معه ما يسوؤها من مبادرته الحديث معها. ثم تبينت تماماً هذا التأثير الذي أحدثته في نفس هذا الرجل المجهول. وتتابع الحديث بينهما طيلة الرحلة.

واستشار السيد «كاندت» اهتمام الفتاة الرصينة بحديثه عن مصانع النسيج التي يملكها.. وهي نفسها قالت له انها تتابع دراستها في معهد بـ «غوسلار»

وفي نهاية الحديث لم يكتفيا بالتواعد على اللقاء وحسب، بل اتفقا على ان غونتر كاندت سيزورها في معهدهما الداخلي ويقدم نفسه لادارة ذلك المعهد على اعتبار انه عمها..

وهذا ما فعله حقاً.

فجاء، ذات يوم، وهو في سيارة فخمة م نوع «مارسيدس بنز» يسوقها رجل في بزة خاصة. وحمل الخادم علباً شتى، وياقات كشيرة من الزهر، لا لماغدا وحدها، بل لها ولزميلاتها ومعلماتها.

في ذلك الوقت من الضحك والعوز والمجاعة كان مثل هذه الهدايا نعمة من النعم الكبرى، وكان نسق العيش الرفيع مما ينال الاعجاب والتقدير.

وغدت مديرة المعهد، بصورة خاصة، لا تقسم، اذا ما أقسمت، الا برأس السيد غونتر كاندت.

وعاد هذا الرجل الى المعهد مرات ومرات.. ثم طلب ان يخرج بماغدا وصديقاتها.

-٣-

وحدث، ذات يوم، ان «العم» غونتر كاندت خرج بماغدا وحدها في سيارته المرسيدس. وتبدى لها جم الاحترام والتأدب كشأنه دائماً، دون ان يخرج قيد انمله واحدة عن سلوكه الرفيع معها استطاع ان يفهمها مدى شغفه بها.. ثم شرح احواله ووضعه: فهو قد فقد زوجته منذ سنة، وله منها صبيان احدهما في التاسعة من عمره، والآخر في الثانية عشرة، ويرغب ان يتزوج ثانية.. و.. أترى ماغدا تقبله زوجاً لها؟

تلقت ماغدا هذا التصريح بهدوء، ويبدو انها كانت تتوقعه منه. الا انها طلبت ان يمنحها مهلة تستطيع خلالها ان تفكر.. وقد كان هذا من حقها على التأكد.. وعاد بها السيد كاندت الى معهدهما، وقال لها انه سيعود بعد ثلاثة ايام ليتلقى جوابها.

وفي اثناء هذه الايام الثلاثة عكفت ماغدا على التفكير، وجعلت تزن امر هذا الزواج المعروض عليها وتقلب نظرها فيما له وفيما عليه..

وعلى الرغم من انها لم تكذب تبلغ الثامنة عشرة من عمرها فانها لم تر ان تستشير احداً..

وبعد انقضاء ايام الامهال الثلاثة جاء غونتر كاندت وتلقى منها الجواب «بالايجاب»

وذهلت اسرة ماغدا اياما ذهول عندما علمت هذا النباء.. ورأى ذووها ان ابنتهم اصغر بكثير من ان تتزوج رجلا ارملا يكبرها باحدى وعشرين سنة.

اما في «غوسلار» فقد بلغ تحمس جميع من في المعهد حد الغليان من شدة الاعجاب والانبهار.. ووضحت المعلمات والطالبات والمسؤولات لا يتحدثن الا حديث الاعجاب بهذا الخطيب الثري اللينق، الجم الادب والاحترام... ولم تبق غير مديرة المعهد وحدها من تجهمت للأمر.. الذي جرى تحت بصرها وراء الستر والاستخفاء واتخاذ السيد غونتر صفة «العم» للوصول الى بغيته..

ومع ذلك فان السيد «ريتشل» والد ماغدا قام بالاستفسار وجمع المعلومات عن خطيب ابنته، فلم يسمع غير الشناء عليه والاشارة بنزاهته وشرفه وفي النهاية اعطى موافقته مشروطا ان تترث ابنته سنة واحدة قبل ان تعقد زواجها.

واعرب غونتر، هو الآخر، عن رغبتين له: ان تترك ماغدا لقبها - فرايد لاندر- الذي تحمله عن زوج امها السابق وتمرد الى لقب والدها «ريتشل» وان تعتق البروتستانتية. ووافقت ماغدا.

وفي شهر كانون الثاني سنة ١٩١٢ احتفل بزفافها الى غونتر كاندت...

كانت هدايات هذا الزواج خالصة السعادة، فأقامت ما غدا في دار باذخة مؤلفة من اثنين وعشرين حجرة تقع في ضواحي برلين... وحتت على طفلي زوجها ومنحتها من عطفها ومحبتها ما جعلهما يتعلقان بها وما ملأ قلوبهما حباً لها.

وفي نهاية ١٩٢١ وضعت تلك المرأة الشابة طفلاً سمته «هارالد».. وقد آوت، كذلك، ثلاثة أيتام- هما صبيان وفتاة- كان ابراهم شديدي الصلة بزوجها. وقد قبلت رعاية اولئك الايتام في كثير من التفاني..

ومع ذلك فان علاقة الزوجين سرعان ما أخذ يعثرها الفتور.

-٤-

وقد كان السيد كاندت رجلاً واقعياً جداً، ورجل عمل ذا هبة وسلمان، وكان منهكاً في عمله دائماً. وقد ركز عالمه كله حول معاملته ومصانعه واهمل زوجته قليلاً..

ثم كان، على الرغم من ثروته الضخمة، لا يعطيها من المال الا اللازم الضروري لادارة البيت. وكانت «ماغدا» تريد مزيداً من الحرية. وكانت لمحبتها، التي تطلعها على اسرارها، وتبوح لها بما في صدرها هي «الينور كاندت» امرأة

الاخ الاصفر لزوجها ، ولا رب انها افضت لها بخيبة آمالها..

في سنة ١٩٢٧ توفي اكبر ولدي زوجها على اثر عملية جراحية فقرب هذا المصاب بين الزوجين. ولقد حزنّت ماغدا وابتأسّت كثيرا دوغما رب فقد كان الابن مشار اهتمامها ومحبتها اما شقيقه الاصفر منه ، فقد كانت أقل اهتماماً به فوضعه والده في مدرسة داخلية.

واعتباراً من هذا التاريخ غدت اكثر رغبة في ان تنفصل عن هذا الزوج الذي يستمها.. ولكي يرقه عنها ، اخذها معه في رحلة الى اميركا ، غيران فترة هذه الرحلة لم تفعل اكثر من ان تؤخر ما كان لا بد ان يقع. ولدى عودتهما الى المانيا بادرت ماغدا وتوسلت الى زوجها ان يعيد اليها حريتها.

وقد اذهلت هذه الفكرة زوجها السيد كاندت وهو الذي لم يفكر قبل ذلك انه سيواجه يوماً هذا الاحتمال.. فرفض طلبها بحزم ، واضطرت ماغدا ان تنحني لارادته ، وعلى الاخص انها لم تكن لتملك اي سبب من الاسباب الموجبة للطلاق.

وفي هذه الاثناء وضعت المصادفات او المقادير في طريق هذه المرأة الشابة طالبا عطوف النظرة شجي الفؤاد والعجيب ان ماغدا الجادة المتزنة القوية تركت نفسها تنجذب بلامع هذا العاشق الالماني الشاب الشبيه بعشاق الاساطير ومحبي قصص الفروسية.

ومن السهل بعد هذا ان تتصور ما حدث: فقد علم زوجها بطيشها هذا فكنتم ثورته ، وكظم غيظه ، ورجاها ان تعد حقائقها. واصبح هو الذي لا يطلب الطلاق فوراً ، الا انه اصر على الاحتفاظ بطفله «هارالد» الذي وضعته سنة ١٩٢١ ، فكان إصراره هذا طعنة مزقت شفاف قلبها.

وقد فكرت طويلا ثم زينت لها نفسها الامارة ان تقوم بعمل لم يكن من

الشرف والنزاهة في شيء، فقد عادت خفية ذات يوم الى البيت بعد ان غادرت، ودخلت مكتب زوجها واستولت على رزمة من رسائل غرام كانت موجهة اليه من احدى النساء قبل ان يتزوج ما غدا، ثم ذهبت بها جميعاً الى محاميتها...

ولسنا ندري ما حدث بعد هذا، فليس لدينا من الوثائق والمستندات التاريخية ما يلقي ضياء على هذا الحادث ولم يبق الا ان يتسالم المرء: اترى المحامي هدد الزوج باثارة فضيحة ما؟ ام تراه كان بارعاً فوصل إلى تسوية مقبولة من الطرفين.

على اي حال فان الذي حدث هو انه عندما نظقت المحكمة بالطلاق خصص السيد كاندت لمطلقة ماغدا نفقة ضخمة واعطاها حق الاحتفاظ بابنها هارالد.. على ان يكون من حق والده ان يستعيده اذا ما عادت فتزوجت غيره..

فماذا فعل الشاب العاشق الولهان؟

-٥-

تقدم ذلك الشاب العاشق مدفوعاً بمشاعر الفروسية والشهامة.. وطلب من المطلقة الجميلة الشابة ان يتزوجها.. الا انه اصطدم بالرفض، ولم تثنها عن عزمها توسلاته ودموعه المسفوحة.. فمضى وفي قلبه غصة، وفي عينيه دموع.. ذلك ان ماغدا كانت سعيدة غاية السعادة ان عادت فوجدت حريتها.

بعد ان سجلت ماغدا نفسها في الحزب الاشتراكي الوطني انقطعت الى كتاب «كفاحي» الذي ألفه هتلر ووسط فيه سياسته ففرقت في مطالعته، وقد استحوذت عليها مشاعر الاعجاب به و الهيام بمحترباته. ثم عكفت على دراسة

نظريات الفيلسوف النازي «ووزنبرغ» واخذت تصفي بحماسة فائقة لخطب هتلر..
ثم عهد اليها الحزب بادارة خلية نسوية نازية.

والتقت ذات يوم، وهي تصعد السلم، بالدكتور غويلز.. فحيهاها غويلز
ومضى مسرعاً.. الا انه لم يفته ان يلاحظ جمالها الخلاب. ولما وصل الى مكتبه
سأل سكرتيرة خاصة عمن تكون.. ثم ما لبث ان وجد ذريعة ما فاستدعاها .

ولما مثلت امامه وشرح يحدثها كانت اولى كلماتها لذلك الخطيب المفوه الذي
شد ما أعجبت به انها تريد ان تعمل وان تكون ذات فعالية في الحزب الناري.
فعرض عليها عندئذ ان يتخذها سكرتيرة خاصة له.. بالاضافة الى مهمة ترتيب
وتنظيم محفوظات الحزب من وثائق ومستندات. وهي مهمة تدل على ثقة عظيمة
بها. وقد ادركت ما غدا ما لهذه الثقة من ثمن غال.

جعل غويلز، منذ ذلك اليوم. يخرج كثيراً مع هذه المرأة الجميلة الشابة، وقد
عرفها على اصدقائه، واصطحبها الى اجتماعات الحزب. وكان لا ينفك يجهد
جهده في سبيل ان يتألق ويزدهي امامها لينال اعجابها. ولقد بهرها ذكازه
النافذ، وخطب لبها ما يتصف به من مواهب الاقتناع... وغدت لا تجد اسماً تقسم
به غير اسمه هو... ولقد أياس هذا الهوى الرليد ذلك الطالب الجميل الذي كانت
ما تزال تراه وتلقاه بين حين وآخر. ثم أرهقتها عبارات احتجاجه وتشكيه فقالت
له ذات يوم انها لن تعود تراه ابداً.. فافقده الغضب صوابه فخرج الفتى من جيبه
مسدساً وأطلق عباراً نارياً في الهواء... وعندئذ قالت ما غدا ساخرة:

-لو انك احسنت تصويره الي واطلقت النار لكنت خليقة ان اثار.. اما الان
فأني اجد هذا المسدس سخيفاً ومضحكاً..

ثم انسحبت الى حجرة مجاورة وطلبت البوليس هاتفياً وهكذا مضى هذا
الفتى من حياتها وقد اقتاده بينهما اثنان من رجال الامن..

وبعد انقضاء بضعة شهور اعلنت ماغدا خطبتها الى الدكتور غوبلز.. وقد
حز هذا النبأ في قلوب افراد اسرتها جميعاً.. وارسل اليها والدها كتاباً قاسياً،
شديد اللهجة جداً مما حدا بها ان تقطع علاقتها به.. وحاول زوجها السابق ان
يحذرها من الاشتراكية الوطنية، وبصورة خاصة من غوبلز الخطيب السياسي الذي
يشير الجماهير، والمغامر الذي لا يردعه رادع والذي تريد هي ان تربط مصيرها
بمصيره.. ولكن هذا كله كان عبثاً ويدون جدوى.. فقد كانت ماغدا قد وقعت
فريسة لسحر غوبلز..

-٦-

ولقد ازداد سحر غوبلز في نفس ماغدا قوة وتسلطاً عندما قدمها الى ادولف
هتلر. حدث هذا اللقاء في فندق «كايزرهوف» وكانت ماغدا شديدة الانفعال وهي
تدنو من الزعيم العظيم.. ثم راحت تحدّثه عن كتابه «كفاحي» بلهجة مشتتة
حماسة ففتنته عن نفسه حتى لقد صرح، فما بعد، لمن حوله بان زوجة غوبلز
المقبلة امرأة ممتازة وذات شخصية استثنائية حقاً.. وعلى اى حال فقد كانت ماغدا
كلها ثقة وطمأنينة وإيمان بمستقبل الحزب النازي..

وعبثا حاولت امها ايضا، ان تصرفها عن هذا الزواج مبينة لها جسامه ما
تفقدته عندما تفلت من بديها النفقة الطائلة التي خصصها لها زوجها السابق
السيد كاندت. غير ان تلك المرأة الجميلة الشابة راحت توازن، وتوازن وتصدر
حكمها في كثير من الهدوء الواقعي فقالت: من الناحية السياسية فان ثمة
مكانين مفتوحين للوطن، فاما ان نتجاحتنا الشيوعية وعندئذ لن يكون وجود
للرأسمالية. واما ان يصل هتلر الى الحكم ويومنذ اغدو المرأة الاولى في المانيا،
كانت ماغدا تؤمن، اذن، بهتلر وصعود نجمه... وكان يبدو ان الحوادث
تقراها على ما كانت ترى..

وفي سنة ١٩٣٠ قام جهاز الدعاية الذي يديره غوبلز بعمل باهر حقاً، فأسفرت انتخابات تلك السنة عن فوز الفوهرر بثمة وسبعة نواب في الرايشتاغ ولن تقضي سنتان بعد هذا حتى يكون فوز هتلر اشد سطوفاً وتوهجاً...

وفي هذه الاثناء كانت ماغدا قد تزوجت ذلك الدكتور القومي الضئيل «غوبلز»... ويومئذ قال لها انه يريد ان يجعلها «ملكة حياتة»... الا انه اضاف قائلاً بكل تبجح انه لا يستطيع ان يعدها بأن يظل وفياً لها!

ان هذا التحفظ الذي ذكره غوبلز لم يقلق هذه المرأة الجميلة ولم يفقدها هدوها ومن اغرب ما في هذه القصة، ويدعو الى الدهشة حقاً ان الاحتفال بزواج ماغدا وغوبلز قد تم في قصر زوجها السابق السيد «كاندت» بميكلاتيورغ، وكانت غدت تتردد على هذا القصر مع ولدها هارالد الذي كان في حضانتها.

وكانت قد زارت القصر كذلك بصحبة غوبلز نفسه.. الذي لم يجد حرجاً في اصطحاب اصدقائه الهتلريين اليه، على الرغم من امتعاض «كاندت» الشديد واشمئزازه، حتى لقد عاد قليل الاهتمام بان يصبح بيته مجمع الخلان.. من فتيان الحزب الاشتراكي الوطني..

والاعجب من هذا كله ان ماغدا لم تجد اي حرج او خروج على اللياقة ان تجري حفلة زفافها الى زوجها الثاني في مسكن زوجها الاول...

ان حبها لغوبلز قد اعمى بصيرتها حقاً وجردها من كل حس..

-٧-

تم الاحتفال بزفاف غوبلز وماغدا يوم ١٢ كانون الاول سنة ١٩٣١، وفقاً للمراسم الدينية، وكانت المانيا كلها كأنها في يوم عيد، بل هي كانت في يوم

عيد على التأكيد. وقد ازدانت الكنسية نفسها بראה ذات صليب معقوف. وقد ابى السيد ريتشل، والد ماغدا، حضور هذا الاحتفال، غير ان والدتها كانت موجودة، ولم تعد تحمل- بطلب من غريلز- اسم زوجها الثاني اليهودي «فرايد لاندر»... وحضر الاحتفال، كذلك، الصبي «هارالد». «هو ابن ماغدا من زوجها الاول السيد «كاندت»

وكان هتلر نفسه شاهد الزوج.. وكان الجنرال فون «ايب» شاهد الزوجة.

وفي مأدبة الغذاء شرب المدعوون الشمبانيا الفاخرة دون حساب، وتبادلوا الانتخاب على صحة العروسين، في كؤوس من البلور الصافي التي يملكها السيد «كاندت» زوج ماغدا الاول.



ملأ السرور قلب ماغدا، بعد زواجها ان ترى بيتها وقد اصبح مركزا مهما من مراكز اجتماعات اعضاء حزب النازي.. وكان هتلر كثيرا ما يأتي الى بيتها حيث يمضي سهراته، ويظل يتحدث حديث الزعيم المتحمس ساعات وساعات.. وكانت تلك المرأة البارعة الجمال تصفي اليه بكل جوانحها، وكأنها ملهوفة الى سماع كل كلمة وكل عبارة تخرج من فم ذلك الزعيم العظيم.

كان هذا الاعجاب الشبيه بالعبادة الذي تبديه ماغدا نحو الفوهرر لا ينفك يزداد ويتعظم لكي يصبح في النهاية وسيلة من كبرى الوسائل في خدمة زوجها الدكتور غريلز وزير الدعاية.

كان الزوجان ما يزالان يعيشان شهر عسل مستمرا بكل توقده وشدته. وكان غريلز يبدو الى جانب زوجته الجميلة الأسرة كثير الرعاية لها والاعجاب بها. وكانت ماغدا لا تنفك تنادي زوجها بحنان: «ملاكي الصغير»..

في نهاية سنة ١٩٣٢ وضعت مدام غويلز بنتا سمها «هيلغا».. ثم راحت تضع بسرعة وعلى التوالي: ابنتها «هيلد» في سنة ١٩٣٤، ثم طفلها «هيلموت» سنة ١٩٣٥، ثم ثلاث بنات أخريات هن «هولد» سنة ١٩٣٧ و«هواد» سنة ١٩٣٨ وأخيرا «هايد» سنة ١٩٤٠.. وقد كان غويلز أباً ممتازاً، مزهوا بابنته وبنااته الجميلات.

كان «كاندت» زوج ماغدا الاول قد اخذ ابنه «هارالد» بموجب اتفاق الطلاق الذي تم بينه وبين ماغدا ولدى زواجها بغويلز... غير ان هارالد ظل يتردد على امه باستمرار، فسارعت الى تسجيله ضمن الشبيبة الهتلرية... وقد حاول والده «كاندت» ان يعترض، ويحتج على تأثير النازيين على ولده، ولكن دون جدوى...

وماذا كانت تستطيع نصائح وارشادات الاب ان تفعل امام جمال ابواق الموسيقى الهتلرية، والاستعراضات الباهرة ذات خطوات الاوزة المعروفة، والبيزات المتلألئة، وتلك الحماسة الشاملة المتبدية في اولئك الشبان المبهورين بعظمة هتلر...

ثم لم يلبث الموقف، بالنسبة للصبي، ان تبدل كلياً.. ففي ربيع سنة ١٩٣٤ استدعى غويلز والد الصبي، السيد كاندت وأخذ عليه بعبارات شديدة هذه التربية السيئة.. التي فرضها على ابنه فأملى عليه مبادئ... ونظريات مناقضة للافكار والمبادئ الاشتراكية الوطنية..

ثم اعلمه ان الصبي، منذ اليوم، سيكون في كنف امه فتتم هي تربيته.

-٨-

عندما احتج السيد «كاندت» وقال انه انما اخذ ابنه بموجب قرار رسمي اصدرته المحكمة.. لم يحاول غويلز حتى ان يناقشه، بل قال بلهجة جادة قاطعة

انه سيأخذ هارالد ليقيم في بيته وفي كف امه بامر من الفوهرر..

واذا كان هذا القرار لا يعجبه فستتخذ الاجراءات اللازمة لتدبير اعماله ومصنوعاته.

واستسلم السيد كاندت واستجاب لما اراده غوبلز حيال هذا التهديد المروع.

في هذا التاريخ كان هتلر قد اصبح سيد المانيا.. واعترافا منه بفضل غوبلز في انتصاره ووصوله الى كرسي الحكم بادر فعينه: وزيراً للدعاية.

وعندئذ اقام الوزير الجديد في دار رائعة باذخة تقع في الحديقة الزراعية في ستريسمنستراه الذي اصبح، فيما بعد، ميدان «هيرمنغونغ ستراه»..

وقد كانت ماغدا هي سيدة هذه الدار. وبعد ولادة ابنتها الثانية فتحت صالونها لاصدقاء زوجها.

غير ان استقبالاتها كانت بعيدة عن البذخ لان راتب زوجها لم يكن، بعد، ضخماً... وكان وزير الدعاية، اذا ما وجد في احد هذه الاجتماعات الصغيرة في بيته، يبدو مرحاً وودوداً عطوفاً على اصدقائه والمقربين اليه.. وكان احياناً يجلس الى المعزف ويروح بعزف ويغني في الوقت نفسه، منشداً بعض الاغنيات الشعبية أو الاثايد النازية..

وفي احيان اخرى كثيرة كان يعرض امام ضيوفه افلاما اجنبية او، افلاماً متنوعة، او بكل بساطة افلاما مسلية.

وكان تأثير غوبلز على الجماهير لا ينفك يعظم ويزداد يوما بعد يوم. وفي سنة ١٩٣٤ اشترى داراً بديعة دفع بعض ثمنها ودفع هتلر بعضه الآخر لصاحبها اليهودي المليونيير ، وكانت هذه الدار تقع في «سكوانثويرد» باحدى جزر بحيرة

سوانيسه» قرب برلين.. وقد وسع وزير الدعاية داره هذه واضاف اليها جناحاً خاصاً لم يكن يسمح حتى لـ «ماغدا» نفسها ان تدخله دائماً..

وقد جعل الزوجان يكشران من استقبال الشخصيات المرموقة كدوق ودوقة «وندسور»، واللورد فانستارد، وملك بلغاريا الخ... وفي شهر اب سنة ١٩٣٦ اقاما حفلة استقبال باهرة، فكانت ماغدا تستقبل المدعوين وقديدت جميلة بصورة خارقة وهي في ثوب السهرة المصنوع من «الاورغاندي» الابيض، كما كان غويلز يتألق في حلة من «الفباردين» الناصع بستره ذات صفين من الازرار.. واقبمت في حديقة المنزل المتلاثلة بالانوار خيام جهزت لهذه المناسبة، وكانت مأدبة العشاء فاخرة حقاً لهجت السنة المدعوين بالاعجاب والثناء، كما اخذت بالباهم صوراينغ النار التي كانت تطلق في السماء فتبدو في تشكيلات جد رائعة..

ولكن سرعان ما بدا للوزير الخطير.. ان هذه الدار لم تعد كافية ولا لائقة بمقامه الرفيع فماذا يفعل اذن؟

-٩-

في سنة ١٩٣٩ اشترى قصرأ اسمه قصر «سكلوس لانك» يقع عند بحيرة اخرى هي بحيرة «بوجانسيه»، ويبعد ستين كيلومترا الى الشرق من برلين..

وكان هذا القصر قد بني عند حافة غابة من غابات الصنوبر، ورأى غويلز ان يضيف اليه، بناء حديثاً مريحاً مزوداً بالتدفئة المركزية، وقاعة لعرض الافلام الخ..

بل ذهب وزير الدعاية الى ابعد من هذا، فاحتاز قصرأ بالغ الروعة في برلين نفسها، وقد عني بفرشه وتأثيئه وتزيينه حتى غدا من ابهى القصور واجملها.

وكان على ماغدا أن تتدبر الامر بحكمتها، ما دام دخل زوجها لا يزال متواضعا نسبيا... فكانت تبذل جهدها وتفعل ما يسعها ان تفعله دون ان يحالفها النجاح دائما، ودون ان تستطيع ارضا زوجها الذي كانت تشور ثائرتة احيانا فيلومها علنا، وعلى رؤوس الاشهاد دون رحمة...

والواقع ان «الملاك الجديد» قد تطور في تصرفه مع زوجته تطورا كبيرا... وكان من بوادر هذا التطور ان ذلك الحب الباهر قد طار وتبخّر.. واصبح قلما يرجو ماغدا أن تصحبه الى «اللوج» المخصص له رسمياً في المارح الكبيرة او دار الاوبرا...

وفي بادىء الامر كانت علاقاته الشهيرة بالصبايا من سكرتيراته اللواتي كن يصحبته الى جناحه الذي شيدة خصيصاً له في داره الاولى.. كانت هذه العلاقات لا تكاد تستثير الزوجة الشرعية.. غير انها راحت تضيق ذراعاً بالطريقة العلنية التي كان يصطنعها ليردها عن جناحه الخاص ويحظر عليها دخوله..

وفي سنة ١٩٣٦ ظهر غريلز علناً مع ممثلة تشيكية رائعة الجمال اسمها «ليدا باروفا»، وكانت هذه الممثلة تعيش مع ممثل زميل لها اسمه «فروليخ» له دار بجوار دار غريلز وكان يقال ان الممثل والممثلة قد قررا الزواج.. غير ان غريلز، على ما ظهر، وقع في هواها..

وقد بقيت ماغدا مدة طويلة وهي لا تعلم عن هذه العلاقة، ثم اطلعت عليها اخيراً بعد ان لم يبق احد في برلين كلها لا يعلمها..وقد تحملت ماغدا بعض الوقت وفي صمت مطبق، جميع ضروب القهر والاذلال والشعور بالمهانة ثم انفجر غضبها وهددت غريلز بطلب الطلاق.

وقابلها غريلز بما هو اسوأ وأشد، ونشب بين الزوجين صراع رهيب.. ولما وجدت ماغدا ان زوجها سادر في غيبه.. حزمت امرها وهرعت الى «هتلر» في

«برخستفادن» واططرته ان ما بينها وبين غويلز قد انتهى..

حاول الفوهرر ان يهدىء من اضطرابها ويقيء بها الى السكينة، وقال لها انه لا يسمح بالفضائع ابدا، وان وزير الدعاية الذي عليه، في خطبه، ان يتفنى ويشيد بنظام وجمال الاسرة الالمانية لا يمكنه ان يقبل بالطلاق..

غير ان هذا الذي قاله هتلر ومحاولته تهدئتها واقرار السكينة في نفسها لم يغير شيئا من افكارها واصرارها على طلب الطلاق.

وفكر هتلر.. وسأله نفسه: ماذا عساه ان يفعل؟

- ١٠ -

ترك هتلر برخستفادن وجاء الى برلين، وسأله ان استدعى غويلز وفاتحه في امر ماغدا واصرارها على طلب الطلاق، فأجاب غويلز بانه، هو ايضا، يتبنى هذا الطلاق، وقيل انه عرض على هتلر، زيادة على ذلك، ان يتخلى عن منصبه كوزير للدعاية.

في هذه الاثناء استطاعت ماغدا، بفضل معاونة «هانك» مساعد غويلز ويدافع من غرامه بامرأة رئيسه، ان تحصل على رسائل غرام عديدة تقيم الدليل على خيانات زوجها المتكررة لها.

وقد اتخذت من هذه الرسائل ذريعة لكي تنسحب وتقيم وحدها هي واولادها في بيت آخر، وابت ان تدع غريلز يرى اولاده الا على عتبة الباب الخارجي لتلك الدار، دون ان تأذن له بخطر واحدة داخل الدار.

وقد كان هذا كله فضيحة كبيرة سرعان ما شاعت انبؤها في كل مكان، واصبحت حديث برلين كلها ومثار تعليقات وأقاريل واشاعات ولغط كثير.

وراح السكان يتهايمسون بأن ماغدا توشك ان تتزوج «هانك» الذي لم تعد عواطفه نحوها خافية على احد...

وعندئذ حزم هتلر امره وقرر ان يتدخل جدياً ويضع حدا لهذا الوضع المعقد... فاستدعى غوبلز على عجل وعنفه واغلظ له القول ثم أمر بنفي الممثلة التشيكية «ليدا ياروفا» التي اغرم بها غوبلز...



وبعد هذا عرض هتلر على ماغدا ان تستمر حياتها مع زوجها غوبلز ستة كاملة، وكأن لم يحدث بينها وبينه شيء، فتظهر معه في المجتمع وفي الحفلات الرسمية... وبعد انقضاء هذه المهلة اذا وجدت نفسها لا تزال مصرة على الطلاق فان هذا سيكون من حقها الذي لا مراء فيه... وعندئذ ستعين لها نفقة كبيرة كما يكون من حقها الاحتفاظ بالولادها...

وقد نظم عقد بهذا الاتفاق وقعته ماغدا ووقعه غوبلز، كما وقع هتلر نفسه بصفته شاهداً...

وفي اليرم التالي ظهرت في مجلة «برلينر ايلوستريرت زايئونغ» صورة زاهية تظهر القوهر وهو يتسم مفتبطاً بين الزوجين اللذين تم اصلاح ما بينهما بفضل مساعيه الحميدة...

ومنذ ذلك اليوم اصبح غوبلز اشد حرصاً على اخفاء غرايباته ومغامراته العاطفية... وكان قد شعر ايضاً ان نظرة هتلر اليه قد تغيرت واصبح يسيء الظن به.. فجعل يبذل جهده لكي يستعيد مكانته وينال صفح هتلر وغفرانه.

وقد عادت المياه الى مجاريها بين ماغدا وغوبلز. وحل الوفاق بينهما محل

الخصام، وكانت نتيجة ذلك أن حملت ماغدا ووضعت بنتاً هي آخر بناتها وكان ذلك في سنة ١٩٤٠، ولقد عرفت تلك الصغيرة بأنها ابنة المصلح والوفاق بين الزوجين اللذين طال خصامهما..

وفي هذه الاثناء كانت الحرب العالمية الثانية قد نشبت، فلم تعد لقصة خصام غوبلز وزوجته ماغدا تلك الاهمية التي اصبحت عليها من قبل. وكان هتلر قد اصبح في اشد حاجة الى وزير دعايته فتناسى قصة خصامه مع زوجته وقربه ولم يعد يتجهم له..

غير أن غوبلز عاد من جديد يلقي بنفسه في احضان مغامرات عاطفية فاضحة، فهددته ماغدا بان تشكوه مره اخرى الى الفوهرر... فاجابها غوبلز هازناً:

- لم يعد عنده متسع من الوقت لكي يصغي الى امرأة هysterية مخبولة مثلك..

-١١-

كان هتلر، في ذلك التاريخ، يستعد لاعلان الحرب على روسيا.. والواقع انه كان في ذهنه من الهـ ما صرفه عن الاهتمام بشكوى امرأة يخونها زوجها، ويستـر... حـرته ومغامراته العاطفية.. وقد اياس هذا الموقف ماغدا وابطت عزيمتها، وقالت يوماً تفضي بأفكارها الى صديقتها العزيزة «الينور» شقيقة زوجها الاول «كاندت»:

- انني اراني اشيخ يوماً بعد يوم، ولقد نال مني التعب والاجهاد وليس ثمة

غير احتمالين فاما ان نتنصر في الحرب ويومئذ يصل غوبلز الى ذروة مجده فلا
اعود اصلح الا للاهمال والانتزواء، واما ان غنى بالهزيمة فتنتهي حياتي اسوأ
نهاية..

وكانت ماغدا تؤمن، حتى ذلك الحين، بإمكانات نجاح النازيين وانتصارهم..
ولكنها سرعان ما فقدت هذا الايمان وهي تسمع خطب غوبلز النارية كلما ازداد
الضغط على المانيا..

وكانت من ناحية اخرى قلقة معذبة لان «هارالد» اكبر ابنائها كان قد تطوع
في فرقة مظلات الهبوط، وكان يحارب في «كريت» وافريقيا الشمالية،
وايطاليا، قبل ان يقع اسيرا في ايدي الحلفاء...



بعد الهزيمة التي مني بها الجيش الالمانى في «ستالينغراد» غدا غوبلز وزير
الدعاية ضرورة قوية لا بد منها لهتلر، وبالمقابل فقد ادركت ماغدا وازداد ادراكها
هذا يوماً بعد يوم وضوحاً ان المانيا توشك ان تخسر الحرب...

وكانت الطائرات لا تنفك تضرب بقنابلها المروعة المدن الالمانية، وتحجبل الدور
والعصائر والمنشآت ركاما وخرائب وقد وجدت اسرة غوبلز، في برلين ملجأ امينا
ومزوداً بكل اسباب الراحة والترف... ثم ان ابنا ماغدا كانوا في اغلب الاحيان
يقيمون، بعيداً عن برلين، في هذا او ذاك من القصور الصغيرة التي يملكها
والدهم..

فماذا كانت تفعل ماغدا في هذا الجو العابس المكفهر؟ كانت تجد ما يعزيها
وليها في دراسات لم تهملها ابدا.. حتى غدت تؤمن بـ «التقمص»!

ودليل هذا انها رأّت، ذات يوم، احدى صديقاتها تبكي ولداً لها فقدته في معركة روسيا، فراحت تعزيها بهذه العبارات:

- ان ابنك لم يمّت.. وانما هو، بكل بساطة، قد اختفى لكي يبدأ حياة جديدة اخرى..

وفي سنة ١٩٤٤ اضطريت ماغدا لحركة نزول الحلفاء على شواطئ نورمانديا، ومع ذلك وفي احد ايام شهر تشرين الاول استدعى هتلر وزير دعايته في حديث هاتفى، ثم احب ان يعاد ماغدا نفسها فهرعت الى جهاز الهاتف واستمعت الى حديث هتلر، ولما اعادت السماع الى موضوعها كان محياها يتألق بشراً وسعادة...

ذلك ان هتلر قال لها ان الجيش الالماني سيحرز قريباً نصراً مؤزراً.. ويعد هذا بقليل بدأ الهجوم على «الاردن»..

وفي ليلة عيد الميلاد اعدت ماغدا لابنائها حفلة رائعة، ولما آووا الى فراشهم واطفئت الشموع في شجرة العيد اسرت ماغدا لصديقة لها:

- في عيد الميلاد المقبل.. تكون الحرب قد انقضت تماماً وعاد السلام الى ربوع بلادنا..

-١٢-

غير ان هذه الاوهام لم تدم طويلاً.. ومع ذلك فقد كانت ماغدا تبذل جهداً خارقاً لكي تظهر هادئة صافية المزاج.

في اليوم الثاني عشر من شهر كانون الثاني سنة ١٩٤٥ حدث ما ملأ قلبها سروراً.. فقد دعا هتلر نفسه لشرب الشاي في بيتها.. وهذا أمر لم يفعله منذ

سنوات طويلة.. وقد جاء معه زجاجته الخاصة لحفظ الشاي «تيرموس» وعلبة من البسكوت.

وقد استقبله ابنا، ماغدا في قاعة البيت وهم في اجمل ملابسهم.. فاحتضنهم هتلر وقبلهم ثم قدم لماغدا باقة من الزهر، معتذرا بأنه لم يجد في برلين كلها افضل من هذه الازهار المتواضعة. ودام شرب الشاي.. ساعة ونصف الساعة، وجرى الحديث في اثناء ذلك صعباً ومتعثراً. ودهشت ماغدا لما رأت في وجه هتلر من توتر وارهاق بين ظاهري.. ومع ذلك فقد تظاهرت بأنها عظيمة السعادة بزيارة هتلر هذه..

وقالت في نفسها بعد ذهابه:

- لقد فضل زيارتي على زيارة اسرة غورنغ..

وبعد بضعة ايام من هذه الزيارة اصدر هتلر أمره فعين «غوبلز»-مدافعا عن برلين- مما ملا قلب غوبلز بالزهر والخيلاء..

وفي هذه الاثناء كان الوراق بين ماغدا وزوجها تاما لا تشويه شائبة.. فما كان لاي شيء من اهمية حيال الاخطار المحيطة بالوطن.

وبخلاف معظم نساء رجالات النازي لم تعد الاوهام قملأ رأس ماغدا فيما يتعلق بسوء مصير اسرتها.. ففي شهر شباط طلبت من الدكتور «موريل» وهو طبيب هتلر، ان يعطيها سما لها ولا يئانها.

وقد قالت لاحد الاصدقاء في تلك الاثناء:

- عندما اضع اولادي في اسرتهم واروح افكر انهم لن يكونوا على قيد الحياة بعد بضعة اسابيع احس انني اكاد اصبح مجنونة من الحزن والالم..

ومع ذلك فقد كانت تحاول ان تبدو هادئة امام اولادها.

وقد شرحت لهم ان الروس يقتربون حقاً.. ولكن هتلر يحتفظ بجيش رهيب
سيجعلهم يفرون ناكسين على اعقابهم قبل ان يدخلوا برلين..

كان الالمان يتشبثون يائسين بفكرة هذا الجيش السري الرهيب... حتى ماغدا
نفسها كان يلوح عليها انها تؤمن بوجود هذا الجيش..

ومع ذلك فقد كانت كأنما تقتل دوراً في ملهأة.. وهي تعلم انها لا بد ان
تنتحر قريباً وتسوق اولادها معها الى الموت.

وقد كان آخر حديث جرى بينها وبين «الينور كاندت» اعز صديقاتها دليلاً
على ما كنت تنطوي عليه من مشاعر قبل وقوع الكارثة النهائية، فقد تقابلتا في
مصح قرب «دريسد» كانت الينور تستشفي فيه وقالت ماغدا:

- لقد خدعتك يا الينور عندما حدثك عن جيشنا الالماني السري الرهيب..
هذا كله حماقة لا ريب فيها.. فليس لدينا شيء على الاطلاق.. ان هزيمة المانيا
واقعة لا ريب فيها.. وما هي الا مسألة اسبوعين او ثلاثة على الاكثر..

-١٣-

قالت ماغدا لصديقتها الينور انه ليس ثمة من جيش الماني سري، وان هزيمة
المانيا واقعة لا محالة بعد اسبوعين او ثلاثة على الاكثر وقالت الينور:

- وماذا سيحل بكم انت وزوجك واطفالك يا ماغدا؟

فأجابت ماغدا:

- سنموت جميعاً يا النور، ولكن بأيدينا لا بأيدي العدو.. وليس هناك من حل آخر.

وعادت النور تقول

- ولكن.. لا بد من ان يكون ثمة حل.. لك .. وللأولاد على الأقل!

غير ان ماغدا هزت رأسها بعنف علامة النفي.. ثم اردفت تقول:

ان الحياة التي ستعيشونها كلكم بعد الهزيمة لن تستحق ان تعاش،
فالشبيوعية ستستولي على اوروبا كلها ان عاجلا او آجلا.. لقد كنا، في المانيا،
آخر حاجز يقوم في وجهها.. ولم يبق امام حكام الرايخ الثالث الا ان يتحملوا
عواقب ذلك.

ثم راحت محتج، وتجادل، وتحاول ان تثبت لصديقها انها ليست هي ولا
أولادها بمسؤولين عن هزيمة المانيا.. وعادت تقول:

- انك لا تدركين موقفى.. وافترضى انى سأبقى على قيد الحياة.. إنهم
سيقبضون على يومئذ.. وسيحققون معى وسألوننى عن غويلز.. فاذا اطلعتمهم
على الحقيقة.. اذا قلت لهم أى رجل كان زوجى فى الحقيقة والواقع.. فلن يبقى
احد لا يقول اننى خنته وغدرت به ولوثت سمعة والد اطفالى..

ولقد عشت فى نظر العالم جميعا- كما تعلمين- فى حالة متألقة من
امجاده..

وكنى إلى جانبى، اشاركه روعة هذه الامجاد الباذخة.. واذن فأنا باعتبارى
زوجتى يجب ان ابقى معه حتى آخر لحظة.. واما الدفاع عن اعماله.. وتبريرها
امام الاعلاء.. فهذا مالا استطيعه ابدا.. لانه سيكون ضد ضميرى.. فانت ترين،

يا النور. انه من المستحيل ان اظل على قيد الحياة من بعد...

وسألتها النور:

- والاولاد؟ ماذا سيحل باولئك الصغار المساكين؟

وقالت ماغدا

-سيموتون معنا... لانهم اجمل واعز من ان يعيشوا في عالم ما بعد الحرب.. ذلك العالم الذي سيرى في غويلز اكبر وخطر مجرم تمخضت عنه المانيا.. ولسوف يذيقون اولاده مر العذاب.. سيتقمون منه فيهم.. لا بد اذن من ان آخذهم...معي.. سيموتون معي.. نوت كلنا معا...

كانت ماغدا، بالفعل، قد حزمت امرها.. واتخذت قرارها الذي لا رجوع عنه.. انها لم تفكر قط ان تفر وتلجأ الى جنوب المانيا..

وكان اولادها ما يزالون، في مستهل فصل الربيع، يقيمون في (شواننورد) ينعمون بجمال وصفو ايام الربيع الاولى.

وفي منتصف شهر نيسان ادرك غويلز ان الروس لن يلبثوا ان يستولوا على برلين كلها.. فاتصل بماغدا هاتفيا ورجاها ان تاتي الى العاصمة مع اولاده الستة.

واعدت ماغدا العدة للرحيل... وكانت ابنتها الكبرى «هيلغا» فتاة عاقلة، وبعيدة النظر، فأدركت انها رحلة لا عودة منها.. فتشجعت، وودعت جدتها لأنها وهي تقول لها:

- سرف لا نعيش طويلا، ايها الجدة الطيبة...

فاحتضنت الجدة حفيدتها وقبلتها.. ويكت طويلاً...

-١٤-

قالت ماغدا لاولادها في صباح ذلك اليوم الباكر.

- نحن ذاهبون اليوم لزيارة عمنا ، « الفوهرر » في مقره.. الا يسركم هذا ؟

فتواثبوا جميعاً وقالوا بصوت واحد:

- ما أجمل ان نرى العم هتلر يا اماء..

وقد سمحت لهم ماغدا ان يصطحب كل منهم لعبته المفضلة.. ثم جاءت سيارتان حملتهم جميعاً مع امهم.

كان مقر هتلر يتألف من ملجأين من هذه الملاهي ، الكثيرة الواسعة التي حفرت تحت المستشارة وحدائقها المترامية.. وخصصت له ولأعوانه ولعائلاتهم ولل موظفين من مدنيين وعسكريين.. كان مقره الخاص يتألف اذن من ملجأين او جناحين احدهما اوسع من الاخر.. وقد أمر ان تعد الحجرات الثلاث الصغيرة التي يشتمل عليها الملجأ الصغير لتكون تحت تصرف اسرة غوبلز..

وما ان وصلت ماغدا واولادها الستة حتى احتلت وإياهم هذا الجناح الصغير بحجراته الثلاث.. وانهمكت من فورها في اعمال كثيرة شغلتها واستنفدت وقتها كله، وكانت لا تنفك، في بضعة الايام هذه، التي انفقتهما تحت الارض، تحمم اولادها وتنظفهم، وتغسل ملابسهم وتصلحها. وترتب الحجرات وتعنى بشؤونهم.. فكانوا، بسبب من هذه العناية الفائقة يسرون عين من يراهم نظافة

وجمالا، وكانت ابتساماتهم الرائعة التي تتألق على شفاههم جمالا واشراق
طلعة..

اما هي.. فما اعجبها من امرأة بين النساء... كانت تبدو على جانب كبير
من الهدوء والصفاء وسكينة النفس.. فلم تثر مرة واحدة.. ولم يتغير معيها
ببادة من غضب، او قلق، واضطراب كانت يهدونها و صفاء روحها مثار الاعجاب
والتقدير..

وقد قال «بولد» فيما بعد- وهو احد رفاق هتلر- «كانت السيدة زوجة
غويلز»، خلال اللحظة الحاسمة الاخيرة، هادئة ساكنة، لم تبد اي خوف او ذعر من
الموت الوشيك.. وقد كنا نلتقي بها صاعدة او هابطة فوق سلالم الملاجيء، فلا
نجدها الا انيقة غاية الاناقة، نشطة كل النشاط في حيوية باهرة.. وكانت تندفع
صاعدة درجات السلم درجتين درجتين.. وكنا لا نراها إلا متوددة، متضونة
الأسارير ولا تفتأ تبسم ابتسامتها الجميلة لكل من تلقاه..»



اما غويلز نفسه فقد كان ينفق مع اولاده اوقاتا طويلة، يلاعبهم، ويغني لهم
الاغنيات..

وكان الاولاد يذهبون ليروا «العم» هتلر مرة كل يوم يقرونه تحية الصباح..
ويداعبون كلبته المعروفة باسم «بلوندي» ثم يعودون الى جناحهم.

وعندما كان يخف قصف برلين بالقنابل، كان يؤذن لهم ان يصعدوا على وجه
الارض لكي ينعموا فترة يسيرة بالهواء الطلق والشمس المشرقة..

ونشاهد اولاد غويلز ذات يوم وهم يستنشقون الهواء في فترة هدوء سادت المنطقة بعد قصف شديد طيلة الليل... شاهدوا طائرة تحلق في سماء المدينة.. فسألوا أمهم:

- لماذا لا تهبط هذه الطائرة فنركبها... وتذهب بنا من هنا؟

فقال لهم ماغدا:

- الستم مسرورين... هنا... مع العم... هتلر؟...

غير ان هذه السكينة الظاهرة التي كانت ماغدا تتبدى بها... لم تحل دون ان تذوق مر الآلام...

وكانت تتسائل كلما اشرق صباح: افيكون هذا هو آخر صباح... وهل آن الاران لكي اقضي على اولادي بيدي؟..

وكان الروس لا ينفكون يتقدمون ويتقدمون.. وكانوا قد بلغوا «شواننورد» التي دمرت.. وقلبت رأساً على عقب... وكان قصف المدفعية عنيفاً ومروعاً حتى كان انفجار القنابل المدوي يهز ملجأ هتلر نفسه ويرجه رجاً..

اجل:.. كان الخطر المحيى يتعاظم ساعة بعد اخرى.. وفي هذه الاثناء كان هتلر منهمكاً في كتابة وصيته، وفي الاجتماع باعوانه ومساعديه وسكرتيريه.

وفي مساء اليوم الثامن والعشرين من شهر نيسان حضرت ماغدا حفلة هتلر-زواجه ما قبل الموت بايضا بروان- وفي ذلك اليوم انتزع هتلر شارة حزب النازي الذهبية المعلقة في بزته العسكرية وشبكها على صدر ماغدا زوجة غويلز

وعندئذ بكّت ماغدا ومسحت دموعها غزيرة، حارة حتى بلّلت وجهها..

وبعد ظهر اليوم الثاني كتبت ماغدا رساله طويلة لابنها البكر «هارالد» الذي كان الحلفاء قد أسروه في فرقة المظلات الالمانية، وشرحت له في الرسالة الدوافع التي حدث بها الى الانتحار مع سائر الاولاد.. وقد اعطت الرسالة الى المرأة الطيارة «هانا رايتش» التي استطاعت ان تفر من برلين على متن احدى الطائرات.

وبعد هذا سارت الحوادث بسرعة، ففي يوم ٣٠ نيسان انتحر هتلر نفسه.. وكان انتحاره مع زوجته ايفا براون علامة النهاية..

وقد امضى غوبلز وزوجته صباح اليوم الاول من شهر ايار مع اولادهما يلاعبانهم وينشدان لهم الاناشيد، ولما اقبل المساء وجد غوبلز وماغدا الجرأة الكافية لكي ينحنيا على الاسرة الصغيرة التي كانت البنات الصغيرتان الخمس واخوهن الطفل مستغرقين فيها في نوم عميق بعد ان ابتلعوا حبوب المثرم..

وعندئذ، وهم في سباتهم العميق، اعطتهم امهم السم.. والارجح انها حقنتهم به حقناً في عروقهم.. نقول الأرجح لأنه لم يحضر هذا المشهد المروع احد ليحدثنا عن تفاصيل تلك اللحظات الفاجعة الرهيبة.

وكان قد مر بعض الوقت عندما شاهدت الآتسة «شواجرمن» سكرتيرة غوبلز امرأة قد هرب الدم من وجهها حتى غدا بلون قطعة من الرخام الابيض، وتغضنت ملامحه.. وهي تصعد سلم مقر هتلر...

تلك المرأة كانت هي نفسها «ماغدا»، كانت تسير وتترنح... وتحاول ان تستند الى ذراع زوجها.. ولا ريب في انها كانت قد تناولت السم هي الاخرى... اذ انها ما كادت تصل الى أعلى السلم حتى تهاوت على نفسها... وفي الوقت

نفسه تناول غولز مسدسه وأطلق منه رصاصة واحدة حطمت رأسه فارمى يتخبط
جثة هامده...

وجاء جنديان المانيان فأحرقا الجثتين معاً..

وبعد ذلك وجد الباحثون ست جثث صغيرة مصطفة احداها الى جانب الاخرى
في اسرتها الصغيرة ١١.

أشهر قضية تسميم

انقضت مئة وستة وعشرون عاما ، ولاتزال قضية «لافادج» تشير النفوس والاذهان.

كانت «ماري لافادج» وهي في سجنها الرهيب، لا تنفك تعلن براءتها من تهمة قتل زوجها بالسم، وكانت تتلقى كل يوم كوما من الخطابات والرسائل، من جميع انحاء العالم، يشجعها اصحابها، ويبدون عطفهم عليها، واشفاقهم عليها ومودتهم لها..

فمن هي ماري هذه؟

كانت قبل زواجها تدعى «ماري كابيل»، وقد ولدت عهام ١٨١٦ في اسرة محترمة، ومعروفة، من طبقة البرجوازية الكبيرة، ولها في تاريخها صلات قرابة ومصاهرة بالطبقة الفرنسية الارستوقراطية.

وقد تيتمت ماري وهي في سن مبكرة، ولما بلغت الثالثة والعشرين من العمر، سارعت عماتها الى تزويجها ولكن لماذا تراهن قبلن، في هذا الزواج، وساطة احد وسطاء الزواج؟ ولماذا تراهن اكتفين بالمعلومات التي قدمها السيد «لافارج» عن نفسه عندما تقدم يسأل يد ماري؟

سته اشهر فقط

لقد كان مؤكداً ان السيد لافارج قدم عن نفسه معلومات كاذبة، فقد كان بحاجة الى المال لكي يدعم به اعماله وقد دام هذا الزواج ستة اشهر فقط، توفي بعدها السيد لافارج، ودفع بزوجته الى «موت في الحياة» اشد واقطع من الموت الحقيقي نفسه.. كيف، ولماذا؟ ما لم تستطع القضية ان تفسره، وتقطع عنه اللثام، ولهذا السبب اثار الحكم على ماري لافارج عاصفة عاتية من الغضب والاحتجاج.

فاذا كان السبب هو «السم» فان جثة لافارج لم يكن فيها، بعد التشريح، غبارة واحدة من هذا السم.

اما المرض، فالواقع ان السيد لافارج كان مصابا بالصرع على الأرجح ذلك أن جميع الاطباء الذين استدعوا لفحصه تحدثوا عن اصابته بمرض عصبي.

بدأت بخيبة وانتهت برضى !

ولكن ما هي الدوافع التي دفعت ماري الى قتل زوجها؟ صحيح انها اصبحت في الايام الاولى من زواجها بخيبة امل كبيرة، الا انها راضت نفسها، بعد ذلك، وقابلت سوء الطالع بمشاعر قلب رضى.. وما اكثر الرسائل التي كتبتها وذكرت فيها طيبة زوجها ودمائه.

وقيل انها قدمت له الزونيخ سماً.. وقال شهود الاثبات والاتهام انها كانت تضع فيما يشربه زوجها ذرارة بيضاء باستمرار.. . كمافا هي كانت تختار لحظات وجودهم فتضع هذه الذرارة البيضاء في شرابه على مرأى منهم.

لقد كشف تحليل اكوام الشراب عن وجود مقدار كبير من الزونيخ فيها.. ولكن، وفي الوقت نفسه، لم يقيموا في جثة لافارج على شيء من هذا الزونيخ القاتل.. فلماذا لا يكون اعداء ماري لافارج هم الذين لوثوا اواني الشراب خفية فيما بعد؟

ومن هم الذين يتهمونها ؟

حمايتها اولا، واخت زوجها ثانيا، والعميل «دنيس» ثالثا.. وقد كانوا يقولون لدانيهم خلال ثلاثة اشهر كاملة: «بعد ان يصدر الحكم عليها فاننا سندفع لكم ديونكم بعد الفوائد.»

كان التآمر واضحا عليها. وانا ما ازال من هذا الفريق الذي يؤمن ببراءة ماري لافارج.

«المؤلفة»

- ٩ -

قال أحد أصدقاء الاسرة:

- اترك تحيين، يا ماري، ان تتزوجي احد اصحاب البريد ؟

وبعد النقاش والمجدل بدأ على ماري انها لا تفكر في مثل هذا الزواج.

ثم من يكون صاحب البريد هذا ؟

انه مزارع ضخم الجسم، وقد اغتنى اخيراً وغدا ماهراً في سياسة الخيل اكثر من سياسة النساء، وهو اكثر عناية بجياده التي تجر عربات المسافرين منه بالعناية بزوجة يتزوجها.

وفي الغداة جاء السيد «مارتان» وعاد يسألها:

- اترك تفضلين ان تتزوجي احد اصحاب مصاهر الحديد ؟ وضحك الحاضرون طويلا في هادى الامر.. ثم طلبوا من ماري ان تدرس الموضوع.. فهي قد بلغت

الثالثة والعشرين من عمرها بالإضافة الى انها يتيمة.. ولا ريب في ان لها «بائعة» ولكن ليس لها ثروة ضخمة.. وهي.. بلا ريب، مليحة جذابة، ولكنها ليست باهرة الجمال على كل حال.. ولقد آن الاوان ان تنفض يديها من الاحلام، وزواج الحب الرومانطيتي الشعاري العاطفي المتبادل بين الرجل والمرأة..

زواج العقل..

وماري تعرف انه لن يجد ابداً ذلك اللقاء الساحر برجل تحبه ويحبها ويكون اشبه بشقيق لها.. رجل تبادله كل شيء، وتحبه وتحب معه كل شيء..

ولذلك فقد قبلت بفكرة زواج العقل، او زواج المصلحة. قبلت ان تتزوج رجلاً يملك مصنعاً لصهر الحديد.. اجل لم لا؟ الا تراها تخشى البعد والغربة عن مدينتها؟ ان صاحب مصنع صهر الحديد يقيم في منطقة «ليموزان» النائية والتي تبعد عن باريس نحواً من خمسمئة كيلومتر..

ولكن هذا ليس من الموانع التي تقف في طريق ماري.. فقد عاشت اجمل ايام حياتها في «ستراسبورغ»، فهي اذن لا تفرق من الحياة في الاقاليم.. وعلى هذا فليستمر طلب الزواج هذا، ولا بد من ثم ان ترى صاحب معمل صهر الحديد.. ولا بد كذلك من جمع المعلومات عنه.. وهذا ما سيكون وشيكاً..

- ٥ -

غير ان هناك شيئاً لم يقله احد لماري كابيل، وهو ان هذا الرجل الذي عرض عليها الزواج اولاً من صاحب البريد، ثم من صاحب مصنع صهر الحديد، هو رجل يدخل المجتمعات الرفيعة، متمسكاً بسلامة الاناقة والثقافة، ولكنه في الواقع سمسار زواج.

وما لا يد منه ان يكون، بعد اللقاء الاول، بين الخاطب والمخطوبة، فسحة من الوقت تتيح لكل منهما ان يعدل عن رغبته، دون ان يسيء الى الآخر... واذن فقد تقرر ان يكون اللقاء الاول بين ماري وصاحب مصنع صهر الحديد في دار الاوبرا بباريس.

وصفت ماري شعرها الاسود الجميل حول وجهها الصغير الذي تتألق فيه عيناها الواسعتان. وكان ذلك في احد ايام الاربعاء من شهر تموز، وكان الجو صحوً، والسماء صافية، والهواء عليلًا..

أو ليس هذا كله عربونا على سعادة مقبلة، وتباشر حياة هائلة؟

جلست ماري الى جانب عمته في المقصورة الخاصة بدار الاوبرا.. وسرعان ما قدم سمسار الزواج نظارة مكبرة لصاحب مصنع صهر الحديد، في القاعة، لكي يرى بها، من بعيد، هذه الفتاة التي خطبها له.. وقال له:

انها تلك الفتاة السمراء في المقصورة القريبة من المسرح، اترها تنال اعجابك؟

وما ليث شارل لافارج ان بهره ما رأى ويادر يقول- قدمني لها فوراً..

وفي فترة الاستراحة، بين الفصل الاول والفصل الثاني، كان شارل لافارج قد دخل مقصورة ماري وعمته وانحنى محبباً انحناء عميقة... وتلاعبت انامل ماري بمروحته ووجدت السيد لافارج دميم الشكل، وراحت من ثم تصفي باحدى اذنيها الى الحان الفالس، وبالاخرى الى حديث شارل لافارج الذي تشويه لهجة سكان الاقاليم.. ولكن القدر كان لها بالمرصاد لا يريم..

وفي الغداة وصلت الى عمة ماري رسالة من السيد لافارج، رسالة حارة

اعرب فيها عن لواعج قلبه.. وطلب في نهايتها الزواج بماري.. وقد ارفق السيد لافارج بهذه الرسالة رسائل اخرى من بعض رجال الصناعة والاعمال والمحاماة والذين يشهدون له فيها بالاستقامة والنزاهة، ويؤكدون انه رجل خير، وان ثروته ممتازة وراسخة الدعائم، وهي تقوم على اساس من مصنع الصهر، ومن ممتلكات عقارية في ناحية «غلاندييه»، وان اسرته على اتم الاستعداد لاستقبال العروس الجميلة التي ستحل مع افرادها على الرحب والسعة والمحبة.

فهل يكون ثمة سبيل امام مثل هذا التقديم وهذه الشهادة الطيبة؟

ولقد اقسمت ماري ان لا تصفي لغير العقل. وهذا العقل الا يحدنها بقيمة ما يقوله اولئك الرجال في رسائلهم؟ انهم ولا رب ادرى الناس بما هي الفضيلة. وما هو الحال.. وان ماري لا تريد ان ترى دمامة وجه السيد لافارج، ولا حركاته واساليبه النابية. وانما حسبها منه صدق عاطفته وجمال مراثيقه.. وانه لزواج ستيح لها ان تقيم مع اسرة ممتازة، في قصر باذج يجد اصدقاء لافارج كما يجد افراد اسرتها هي، في رحابه، حسن الوفادة والتكريم.. وسيكون لها من الخدم والطهاة عدد تختاره هي بما يلائم ذوقها ومزاجها.. وسيكون تحت امرتها جواد اصيل، وحمام رائع ومعزف تنتقل فوقه اناملها الجميلة

وتغلبت عليها نوازع الامال ومبتكرات الخيال.. ولم تعد ماري تحلم بالزواج ذي المظهر الخلاب، انما هي غدت تحلم بحياة القصر و الترف، والاسرة العظوف، والعيش الرخي الذي ينعم في ظلاله القلب والفكر والروح جميعاً.

-٣-

راح شارل لافارج يلح في سرعة زواجه. هل ثروة ماري تستدعي التفكير والترشي؟ لا... انه لا يريد ان يسمع شيئاً من هذا كله، وهو الان يعرف ماري وهذا حسب.. إن الأمر لم يعد في نظره موضوع اجتماعية، وانما هو يمت الى

القلب بأوثق صلة.. وها هي ماري قد أجابت بما يمكن ان يكون موافقة منها، واذن يجب ان تسرع، يجب ان لا تترث، يجب ان تكون موافقتها نهائية، قاطعة، ولتطبع بطاقات الزفاف، ولتنشر، ولتوزع على المدعوين.. وليتم هذا كله بعد اربعة ايام من اول لقاء بينه وبينها.

ويأتي السيد لافارج في هذا اليوم الرابع نفسه، وهو يوم احد، ويجلس في غرفة استقبال السيدة «غارا» عمّة ماري، ويبسط رسمين باللوان المائية لممتلكاته في «غلاتديه» وكان احد الرسمين يمثل قصرأ له اسطحة منبسطة ثم لا تلبث ان تستدق حتى تغدو صنوبرية الشكل تكسوها قطع «الاردواز» الضاربة الى الزرقه، وفي جنباته شرفات تستدير حولها الحواجز الانيقه، وقد تحتها منبسطات من العشب الزاهي قامت في وسطها اشجار الصنوبر الرشيقه. وفي الرسم الثاني كانت تبدو اطلال «غوتيه» الشكل، وفي نهايه ممر شاعري تكتنفه الاشجار يقوم مصنع صهر الحديد الذي يملكه السيد لافارج.

وتأملت العيون هذين الرسمين اللذين يمثلان ممتلكات لافارج العقارية القاطعة المنتظرة بسرعة لم تملك معها وقتاً للندم.

وفي يوم الخميس يصحبها شارل لافارج إلى حيث اختارت لنفسها معزفا مربع الشكل، فاشتره على الفور وأمر بشحنه الى قصره في «غلاتديه». ليشترك بحفلات استقبال الزوجين الشابين عند عودتهما.. وفي الايام التالية تطوف ماري ومع عمته بالخائطات ومحلات الازياء وبيع البياضات لشراء جهاز العرس.. وقد اراد السيد لافارج ان يكون الجهاز باذخا..

وكان شارل لافارج يمضي كل يوم، ساعتين قرب ماري يبشها غرامه.. ويعتذر لها عن استعجاله يوم السفر الى اقليمه ويقول:

- اغفري ما يبدر علي من لهفه.. ان سباق الخيل السنوي قد حدد له يوم

١٩ آب في مرائب ترويض الخيل بمنطقتنا.. فتصوري هذا.. وتصوري جمالك
الاخذ.. وانه لما يبعث الزهر في نفسي ان اقدمك يومئذ لاصدقائي ومعارفي..
واذن فلا بد ان يتم الزواج قبل يوم ١٥ آب..

وعين يوم السبت العاشر من آب موعداً لتوقيع عقد الزواج المدني.. وراحت
ماري، في هذا الجو المحموم الذي اصطعوه لها، تشتري والمرة تملأ قلبها انواعاً
من الهدايا لتقدمها لمن تحبهم.

وفي تلك الاثناء كتبت الى السيد «المور» وهو صديق قديم لاسرتها تقول،
«انني انا التي تعرفها يا سيدي صعبة المراس، كثيرة التروى والنظر في الجوانب
السبئية لكل شيء، اتزوج زوجاً سريعاً على هذا النحو: في يوم الاربعاء ارى
رجلاً فأعجبه ولكنه لا ينال اعجابي الكثير، وفي يوم الخميس يقدم نفسه الى
عمتي فيظهر المعتني جداً بذاته، ويتبدى في غاية الطيبة فاضطر الى ان اغير
رأبي فيه فأراه افضل مما بدا لي اول وهلة، وفي يوم الجمعة يطلب يدي رسمياً.
وفي يوم السبت لا اجيب بالايجاب. ولكني ايضاً لا اجيب بالامتناع، وفي يوم
الاحد، الذي اكتب لك فيه، توزع بطاقات الدعوة لحفلة الزفاف، ان الف عاطفة
وشعور تقف في حلقي وتكاد تكتم انفاسي.. واليك كل التفاصيل التي استطيع
ان اقدمها لك: السيد شارل لافارج في الثامنة والعشرين من عمره، دميم الوجه
الى حد ما، وحركاته وسكناته غليظة جافية، غير ان اسنانه كانت بديعة وناصعة
البياض، ويلوح ضرب من طيبة القلب على اساريره. ونعم بسمعة ممتازة، وهو
صاحب مصهر للحديد، وله ممتلكات، وعقارات في اقليم «ليموسان» ويحتاز
ثروة كبيرة، وقصراً بديعاً.. وهو يزور العاصمة باريس كل سنة لشؤون عمله.

وفيما عدا هذا فهو اقرب الى الاغمار من الناس، الا انه قد شغفه حبي،
وهذا يبدو لي حلواً ورائعاً.. ثم انه يحب الخيول..»

هكذا انسأقت ماري نحو سعادة الاحساس بانها محبوبة، لانها ذأقت الم الشعور، في السابق، بأنها لم تجد كفايتها من الحب والرعاية، وهي التي كانت تعبد امها، ولكنها لم تفتفر لها، فيما مضى، انها تزوجت ثانية بعد وفاة زوجها الاول.. فما احلى، اذن، ان تكون محبوبة، وان تكون لها المنزلة الاولى في قلب احد الرجال، وهي التي تشبه نبتة انتزعت، تماماً من جنتها..

ولكن ها هي عمتها السيدة «غارا» تستدعيها الى حجرة الاستقبال قبل بضعة ايام من توقيع عقد الزواج وتروح تقول لها لافارج ارمل..

وشحب وجه ماري. واحست كأنما قد انتقضت عليها صاعقة مهبية انها ليست اذن الاولى والوحيدة في قلب هذا الرجل وحسب، بل ها هي تعلم الان على وجه التأكيد التام انها ستتحذ قرب هذا الرجل المكان الذي تحتله امرأة اخرى، ترقد اليم باردة الجثة في قبرها.. ووجدت ماري كأنما قد وقعت في فخ جهنمي.. وكان اول ما بدا لها ان تهرب.. ان تفصم علاقتها ان تحطم كل شيء.. فلا زواج.. ولا حفلات زفاف.. ولا شيء على الاطلاق ومع ذلك فقد راحت عمتاها تحثانها على التعقل.. وقالتا لها ان من الحماسة تدمير كل شيء، وبذ مثل هذا الزواج المفيد في سبيل مسألة نافهة...

وعملت العمتان على تهدئتها، وازالة قلقها، وبذلتا جهدهما في تبصيرها بعواقب الجموح، وتحدثتا عن ضرورة تحكيم العقل، والاخذ بأسباب الحكمة وعدم اثارة فضيحة اجتماعية.. وعندما دخلت ماري حجرة الطعام وهي ما تزال محمرة العينين، لاحظت شحوب وجهه، وقلقه، وأثار الالم المرتسمة على وجهه.. فصفت.. وبعد ثلاثة ايام تزوجت..

في يوم السبت، العاشر من آب، تم توقيع العقد عند مسجل العقود وتبعه الزواج في دار البلدية.. وعندما طلب منها ان تجيب بالموافقة احست كأنها توشك ان تنهار.. ان حياتها كلها في كفة ميزان في هذه اللحظة.. وان الخشية لتملأ قلبها.. غير أنها تغلبت على خوفها.. وتم الزواج.. وفي المساء رقصت مع الاصدقاء الذين توافدوا لتهنئتها..

وفي يوم الاحد راحت تنهياً للرحيل في انتظار الاحتفال الديني بزواجها في يوم الاثنين. وكان يوماً مريداً، كثيباً وكانت الحقائق والصرر تملأ غرفتها.. وكانت تفكر بان خمسمئة كيلو متر توشك أن تفصل بينها وبين اولئك الذين تحدث نفسها انها لا تعلم ألا القليل عن الرجل الذي تغادر كل شيء في سبيله..

ويأتي شارل لافارج بعد الظهر ويقرع باب غرفتها.. وكانت هي تود ان لا يرى هذه الفوضى في حجرتها الخاصة، فطلبت منه ان لا يدخل.. ومع ذلك فقد دخل معلناً بمرح انه لأول مرة يستعمل حقه الذي اعطاه اياه القانون.. وسارع فاحاط خصرها بذراعه، وحاول ان يقبلها.. وراحت ماري ترتعد فرحاً ثم دفعته عنها.. دون ان يفقه من امرها شيئاً... أجل، لم يفقه ان يوم الزفاف يوم مليء بالحوادث، مليء بالاحساسات والعواطف المنهكة، وهو أشبه ما يكون بمسيرة طويلة جداً تتخلل الطريق، في اثنائها، العقبات والمنزقات..

وفيما كانت عمتاها تضعان فوق رأسها اكليلاً من زهر البرتقال كانت ماري لا تفكر الا بهذا الفراغ الوشيك وفي هذه اللحظة الحرجة يدخل غرفتها السيد لافارج ويروح يقول لها وقد قلقة الاضطراب انه سيحبها، ويحميها باسم الذين ستفارقهم.

وتقضي ماري الى الكنيسة فيتم الاحتفال الديني بسرعة، وفي هذه الاثناء

كانت ماري توارى دموعها تحت خمارها المخرم على الطريقة الانكليزية..

تتبع الاحتفال الديني مأدبة غداء فاخرة، مرحة، واتفق جميع الحاضرين من أصدقائها وصديقاتها انها رائعة وجميلة وساحرة...

- ٥ -

بعد مأدبة الغداء، وفيما كان المدعوون من الرجال يشربون كؤوس الخمر الصغيرة في حجرة الاستقبال الكبرى، اختلت العمتان بماري في غرفة المكتبة الصغيرة. كانتا تقومان بما تتطلبه العادات والتقاليد من طقوس، وكانتا تنجزان ما يجب ان تنجزه الأم في هذه الحالة، فأخذتا تبصر انها بالواجبات الزوجية التي تنتظرها.. وتكشفاً لها عما يكون بين الزوجين..

وكانت ماري تصغي ذاهلة، منهارة، ولكي تختصر هذا العذاب كذبت وقالت انها تدرك كل شيء وتعلم ما سيكون.. وعندئذ تقدمت بنشأ عمتيها، وراحتا تساعدانها على رفع اكليل زهر البرتقال عن رأسها.. ولم تلبث ان نضت ثوب الزفاف الابيض والقت به على السرير.. ثم ارتدت ثياب السفر.

ولكي تبعد ليلة الدخلة.. قدر استطاعتها قررت ان تكون الرحلة الى بيت الزوجية متواصلة دون استراحة في الطريق. الا ان هذا لم يجر وفق رغبتها.. فقد كانت خيول البريد قد أوصى عليها لتكون متأهبة في الساعة الرابعة.

غير ان السيد لافارج الذي تغيب لملاحظة معدات للسفر لم يأت في الموعد المعين. وكانت ماري قد ارتدت ملابسها ووضعت قبعاتها على رأسها على اتم الاستعداد للذهاب، وراحت تكثر من قبلات الوداع لمن تحبهم في حركات عصبية ظاهرة.. ومع ذلك فان السيد لافارج لم يأت.. ومضت ساعتان.. وقلق حوذي المركبة، وراح افراد الاسرة جميعاً يخفون عن ماري الاحساس بالكارثة من مثل

هذا التأخر في يوم كهذا اليوم.. وخارت قوى ماري فاضطجعت على سريرها ،
واعيدت الخيول والمركبة على ان تعود في الغداة..

وعندما عاد السيد لافارج قيل له ان زوجته قد داهمها التعب.. ونامت
ماري وحدها تلك الليلة.

وفي فجر اليوم الثاني حلت ساعة الرحيل الحقيقية.. وقد اختلت ماري
بزوجها في المركبة، وكانت تمنى، لأول مرة. ان ترى منه بوادر الرقة والترفيه
عنها.. ولكنه كان يغط في نومه.. وكانت هي وحدها تحلم.. وكانت تحسب انه
سرعان ما يستيقظ ويروح يحيط خصرها يذراعه ويهمس في اذنها: « احبك..
احبك.. » واستيقظ السيد لافارج فعلا.. وسارع فطبع على خدي ماري قبلتين
مجلجلتين.

وهتف قائلاً:

- هيا.. يا زوجتي.. لتتناول طعام الافطار.

روضعا الطعام بين يديهما ولكنه كان وحده هو الذي يأكل ملء راحته وملء
اشداقه فالتهم دجاجة كاملة. وشرب زجاجة نبيذ مترعة.. اما ماري فلم تتناول
شيئاً ولم تشرب قطرة نبيذ واحدة.. وقد ازعجتها رائحة الطعام فرأت ان تبعد
عن زوجها وتجلس الى جانب الحوذي.. وعادت، حوالي الظهر، فاتخذت مكانها
قرب زوجها، واخذت تحاول جرّه الى حديث يبعث الشقة والاطمئنان في نفسها
القلقة.. فتحدث عن الادب. وعن الموسيقى.. وعن التمثيليات والمسارح.. غير
ان هذا كله ما كان يشير ادنى اهتمام في ذهن زوجها.

واخذ هو، بدوره، يسألها عن الخشب، والخطب، والفحم والبيع والشراء.. فلم
تجد ماري ما تقوله له.. وهكذا عاد الصمت فاطبق عليها..

وقرر السيد لافارج ان يبيت ليلته في مدينة «اورليان» حيث تصل المركبة التي تقلهما في نحو الساعة الخامسة.. وكانت ماري قد نال منها التعب.. فطلبت اعداد الحمام لها.. وراحت «كليمانتين» خادمتها الصغيرة التي اصطحبتهما معها تعاونها على خلع ملابسها والدخول في الماء..

وفي هذه اللحظة يقرع باب الحمام.. انه السيد لافارج يريد ان يدخل وتصيح ماري..

- انتظر لحظة فاننا استحم، ولا اريدك ان تدخل..

غير انه راح يقول نافذ الصبر:

- انك امرأتى.. ولتذهب الموصافات والعادات الى جهنم.. وينس المصير..

وعادت تقول:

- بعد ربع ساعة اكون قد ارتديت ملابسى

ولكنه اخذ يعريد صائحاً:

- انى اريد الدخول لاني لم ترتدي ملابسك بعد.. أم انك تريننى ابله؟ وهل تعتقدين اننى سأسمع لباريسية وقحة ان تتلاعب بى بعد اليوم؟.. افتحي يا ماري.. والا اقتحمت الباب اقتحاماً

-٦-

انقدت عيننا ماري.. فما سبق لها ان تنازلت عن شيء بالقوة والارغام اجابته

- حطم الباب اذا اردت، ولكنى لن افتح لك ابدا..

وعندئذ راح السيد لافارج يصخب ويشتد دون اي اهتمام بمن عسى ان يسمعه ثم مضى غاضباً، ساخطاً، مستشيظاً..

وفي نحو الساعة السادسة كانت ماري قد ارتدت ملابسها، وشحب لونها من التعب والهم والقهر.. وذهبت الى لقائه، وكان السيد لافارج لا يزال تحت وطأة غضبه. ولما رآها قال بخشونة:

- وهل انتهيت، بعد، من عبث القروء الذي عبثته؟

ويله.. أليس يرى شحريها؟ أليس بدانة هاتيك النساء في منطقته يرى تحولها المختلف عن «ليموسان»..

وسرعان ما زال عنه الغضب كما يسقط القناع الزائف عن الوجه، فاحتضنها، وقبلها بلطف ورقة، وعرض عليها ان يتناولوا طعام العشاء، ثم قبل ان لا يشرب معها غير قدح من الشاي، وذهب بها الى الشرفة، وقد اخذ المساء يرخي سدوله..

وتبادر الى حس ماري شعور بالهاوية المفتوحة قديمها.. الا انها تجاهلت هذا الاحساس.. وارتضت باللحظة الحلوة الراحنة..

وتم الاتفاق على ان لا يناما في مدينة «اوليان»، وان يمضيا ليلتهما في المركبة التي ستقلهما وتتطلق بهما.. وما كان لشيء ابعث للرضا والمسرّة في قلب ماري كهذا القرار.. وانطلقت بهما المركبة متابعة رحلتها.. ووصلت بهما الى «شاتورو» حيث توقفت عند اقارب للسيد شارل لافارج.. وتبرع اولئك الاقارب فراحوا يروون لماري قصصاً وحكايات عن اعراس منطقة «ليموسان»، وحفلات الزفاف، بالتقاليد المرعية، وكيف يتدافع فتيان الشرف الى غرفة العروسين

ويعلاؤها، ووصفوا لها حساء النبيذ بالبهارات الفاخرة، وهو حساء يجب ان
يقتسمه العروسان في سريرهما.

واشأزت ماري.. واحسّت انها تكاد تتقيأ.

واقبل يوم ١٥ آب وكانت العاصفة قد اخذت تهب، فادلهم الجو، واريد وجه
السما، ثم تدفق المطر كثيفاً، غزيراً، كأنه الطوفان.. واستحالت الطرقات الى
برك يملأها الماء والوحل.. ووصلت المركبة الى قرية اسمها «اوزارش» وكان يجب
ان تتوقف هناك بضع ساعات لاصلاح المركبة..

-٧-

تساءلت ماري، وهي تدبر بصرها فيما حولها: اهذه مزرعة، ام قصر، ام
انقاض؟ ثم هبطت من المركبة واخذت تصعد سلماً صغيراً من الحجر الاسود المنزلق.
واستقبلتها حمايتها وابنة هذه الحماة، وأدخلتها غرفة استقبال إنها غرفة استقبال
مجاوذاً... وتهاوت ماري جالسة على مقعد خشبي.. وعادت تسائل نفسها: اين
تراه هذا القصر الجميل الذي تطل شرفاته الواسعة على منبسطات الارض المزدانة
بالعشب الخضيل؟.. ها هي الجدران هنا متداعية، والارض غارية، والمفروشات
تافهة حقيرة... وبينما كان السيد لافارج يحتضنها ويحيط خصرها بذراعيه وهو
يدعوها بـ «عصفورتي الصغيرة» كان الياس الكبير الحالك قد ملا نفس ماري
وتغلغل في شعابها..

وتبادر الى ذهنها ان هذا كله فخ.. نصب لها وها هي قد وقعت فيه.. اجل
لقد القى بها بين فكي فخ رهيب.. ولاح لها انها اشبه ما تكون بحيوان اطبق
عليه الفخ، وليس يطلب شيئاً غير ان ينجو ويفر..

يجب ان تهرب من غرفة الاستقبال هذه، ان تهرب من هؤلاء الناس، ان تترك كل شيء وتنطلق ناجية، هاربة، وهي تنفض ثيابها.. وتدرعت بالصداع وتطلبت ان يذهبوا بها الى غرفتها الخاصة..

لما دخلت تلك الغرفة وقفت ذاهلة مبهوتة.. أهذه غرفة حقاً؟ انها صحراء.. صحراء فيها سريران وبضعة مقاعد رديئة ضائعة في اركانها الاربعة.. وهذا ايضا يجب ان تفر منه.. يجب ان تفر نهائياً من هذا الكذب.. هذا الاحتيال.. من هذا القبح.. من اولئك الكذابين..

وكان اول ما خطر لها: ان تكتب لجميع اهلها وذوي قرياتها، اولئك الذين خدعهم ايضا وغرروا بهم كما غرروا بها.. يجب ان تكتب لهم وتطلب النجدة.. وطلبت دواة وريشة فجاءوا لها بأناء زجاجي من اواني المرمى، ولكنه قذر ومشروم.. وفيه خبز.. وكان الليل قد ارخى سدوله تماما على محلة (غلاتدييه) التي تحيط بها التلال والغابات من كل ناحية. وكانت السحب الداكنة المريدة تقطع وجه السماء.. وما تزال ماري تقول في نفسها: الهرب.. الهرب.. ويجب ان لاتنتظر شيئاً لكي تهرب.. ولاحتى عون ذوي قرياتها..

وراحت تسير في ارجاء الحجرة الواسعة ذهابا وايابا، وكانت تسمع وقع خطاها تسك سمعها لفرط خلو الحجرة وفراغها المخيف.

ثم هجمت هجوما على الريشة، والورق، فان فيهما ثمة نجاتها.. واخذت تكتب.. وكانت ريشتها تجري على الورق الازرق الباهت بسرعة. ولم تكن تكتب لاهلها، وانما لزوجها، لكي يرد اليها حريتها.. لكي يعيدها من حيث اتت.. لكي يطردها طرداً.. وعندئذ راحت تبتكر كل ما في وسعها ان تبتكره.. والصقت بنفسها تهما، فقالت ان لها عشيقاً.. وان هذا العشيق قد تبعها في رحلتها الطويلة الشاقة، رحلة زفافها المشؤم.. وقد التقت به في مدينة

«اورليان» التي استراحت فيها، ثم في قرية «اوزارش».. كتبت كثيراً.. وما من كلمة من كلماتها، وما من حركة من حركاتها، الا وكانت تصدر عن امرأة خائنة.. لا تستحق من السيد لافارج الا ان يطردها على الفور.. وابقت له في هذه الرسالة بآنتتها «دوطتها».. وقالت انها ستذهب بعيدا، الى الشرق، الى ازمير، الى اي مكان.. في نهاية الدنيا.. اما اذا حيل بينها وبين الذهاب.. فانها ستقتل نفسها دون ريب على الاطلاق..

وعندما انتهت من كتابة هذه الصفحات الكثيرة.. عاد الى خديها بعض حرارة.. ثم هبطت من غرفتها لكي تتناول طعام العشاء..

- ٨ -

كان العشاء وكأنه لا نهاية له، وكانت الشموع القليلة الكثيبة تنير المائدة، وتركوها صامتة، واخذ السيد لافارج يتحدث مع افراد أسرته باللهجة المحلية التي لا تفهمها ماري. كان صمتها تاما وشاملا، وكان بأسها بالغاً حتى ليكاد أن لا يكون له اسم معروف..

في نحو الساعة العاشرة نهض السيد لافارج عن المائدة وقال:

- هيا.. يا زوجتي.. ولتذهب الى غرفة نومنا..

وقالت ماري:

- ارجوك.. ان تتركني وحدي في غرفتي.. بضع دقائق. ولكنه قال متبرما:

- لا تزال لك هذه الاطوار الغريبة.. انني امحك ما تطلين لآخر مرة.

وعندئذ اغلقت ماري غرفتها على نفسها، واعطت رسالتها الى خادمتها

كليمانتين التي اصطعبتها معها ، وقالت لها ان تسلمها للسيد لافارج .. ومضت بضع دقائق .. وحدث ما حدث عند باب الحمام في مدينة «اورليان» .. فقد وقف السيد لافارج ، من الناحية الاخرى للباب ، واخذ يسب ماري ويكيل لها الشتائم .. ويقول متبجحاً انه بحاجة الى امرأة .. وانه سيحتفظ بها .. لانه لا يملك وسيلة الزواج بأخرى غيرها .. وفتحت ماري الباب .. ثم لاذت بفرجة احدى النوافذ .. واراد هو ان يقترب .. ويمسك بها .. ولكنها تراجعت .. وهددته ان تلقي بنفسها من النافذة العالية اذا تقدم خطوة اخرى ..

وقالت له :

- اقتلني اذا اردت ... ولكن اياك ان تمسني...

وعندئذ شحب لونه ، واضطرب ، وانطلق ينادي امه واخوته اللتين كانتا تنتظران خائفتين في الحجرة المجاورة .. وما أسرع ما تقدمتا ... وأخذتا تبيكان .. وتسألان ماري الصفح عن اكاذيب شارل .. وطفقت امه تقول وقد اخذت يدي ماري بين يديها .

- لقد احبك حباً عظيماً .. احبك حباً جارفاً .. وكان بخشى ، فرق هذا كله ، ان يفقدك ..

وقالت ماري .

- انني أصفح عن كل شيء .. ولكن يجب ان تخلوا سبيلي .. اريد ان اذهب ..

واقترب لافارج هو الآخر ، وراح يبيكي مع امه واخوته ، ويقبل يدي ماري الجائمتين .. وجعل يتوسل اليها ان تمكث يوماً آخر . او يومين .. وقال :

- وإذا لم تجدي نفسك سعيدة وإذا لم استطع ان اقتنعك بحبي، فلن احاول ان استبقيك..

وفي النهاية وقد حطم الازهاق ماري، ونال منها الهم، استلقت فوق سريرها شبه مغشى عليها لقد احتراها ذلك السرير الكبير الضخم وحدها، ولا من يقوم على حراستها سوى خادمتها كليمانتين.. وانسحبت افراد اسرة لافارج وعادوا على أعقابهم فائزين منتصرين، لقد انتهى الأمر وغدت ماري سجينه ذلك المكان الكئيب الذي زعم السيد لافارج انه قصر عظيم فاذا هو انقاض وخرائب تملأ النفس انقباضا ورهبة..

-٩-

ارتفعت الشمس في الغداة وملأت اشعتها صفحة السماء الصافية. وجاء من اعلم ماري ان زوجها مريض، فذهبت لئراه، وما ان رفت الابتسامة على شفيتها حتى شاع السرور فيما حولها وتطلعت اليها العيون.. وفي هذا اليوم تضافر كل شيء لاستبقاء ماري: اسرة لافارج، السماء الزرقاء، والنسيم المعطر والنهر المعتكر..

وفي اليوم الثاني تمائل شارل لافارج للشفاء فركب هو وماري زورقا ذهب بهما الى مصنع صهر الحديد، بينما كان الزورق ينساب على صفحة النهر جعلت ماري تمس الماء براحتيها فتجد لذلك شعوراً بالمرسة والابتهاج.

وفي المصنع احتفى العمال بها ايما احتفاء، واطربهم ان يجدها جميلة خلابة، ولم يخف السيد لافارج سروره بذلك، وراح يشرح لماري كيف يجري العمل في المصنع، ويفسر لها اسرار صهر الحديد، فاهتمت عظيم الاهتمام بما سمعت، والقت الكثير من الاسئلة وتلقت عليها الاجوبة.

ثم جاء فلاحو تلك الناحية وقدموا للعروس الشابة اكاليل الزهور مصحوبة
بتهانيتهم وتقنياتهم القلبية لها بالسعادة. وابتمت ماري، واحست، على مهل،
ان ياسها والام روحها قد اخذت تخف وتزول وطأتها عليها...

ولما عادت إلى البيت ووقعت عينها على كل صور القمح والدماثة في ذلك
البيت العتيق الكتيب اخذ السيد لافارج ببذل الوعود والعهود بان يدخل على
البيت كل التحسينات التي تريدها..

وفي النهاية وافق، مؤقتاً، ان لا يكون بالنسبة لها اكثر من اخ.. اخ
وحسب.. ولما اضطجعت على سريرها سرعان ما وجدت النوم الهنيء، القرير الذي
كانت تنعم به وهي طفلة غريرة..

ومرت الايام، واخذت ماري تتعود هذه الحياة.. وامكنها ان تروض هذا الزوج
الغليظ... بل ان تسحره.. وقد وافق على كل ما تريد لينال رضاها.. واعتزمت،
هي، ان تغير وتبدل في هذا البيت الكتيب المريد.. فوضعت لذلك الخطط
والتصاميم، واتى لها بالبنائين فجعلوا يعملون وفق ارشاداتها وتوجيهاتها..
وانها لتوشك ان تصنع من هذه الخرائب والانقاض بيتاً جميلاً تضئنه الشمس من
نوافذ حديثة عريضة، وغرفة الاستقبال الموحشة سرعان ما تغدو قاعة رحبة
زاهية، وهذه الممرات المعتمة سرف تتألق وتستضيء.. ثم انه بيت لا كتاب فيه،
واذن فلا من حجرة واسعة تكون مكتبه انيقة، وتزدان بشئى الكتب والمؤلفات.

وفي انتظار ان يتم هذا كله فقد أتى لها بالمعزف الذي اشتراه لها من باريس
ووضع في حجرتها الخاصة الواسعة، فكانت - ف - ف له عليه فيفرح ويبتهج.. ثم
كانا يقرمان معاً بنزهات طويلة سيراً على الاقدام، وغدت ماري تحب مظاهر هذه
الطبيعة التي يشيع الجمال في غاباتها ووديانها ونهرها.. كان السيد لافارج

فخوراً مزهوا فأخذ يقدمها لجميع اقاربه واصدقائه وكانت هي تهزأ في نفسها من اولئك الناس سكان الاقاليم، الا انها كانت، في سريرتها، جد مزهوة ان تشير كل هذا الاعجاب والانبهاو.

وذهب بها ذات يوم الى مرابض ترويض الخيول، واهداهما فرساً شهباء استشارت اعجابها.

وذات مساء وفيما كان الزورق يعود بهما من مصنع صهر الحديد، همس السيد لافارج قائلاً:

ماري.. اترك ستبتقين معنا؟ واجابت: احسب ان ذلك متوقف عليك . فعاد يقول: انت تعلمين انني على استعداد ان افعل كل ما يمكن ان ينال اعجابك ورضاك.. قولني يا ماري هل ستحبينني ؟...

واجابت ماري بوقار.

- اظن انني بعون الله، وبعونك انت على الخصوص، اعتقد.. انني سأحبك..

وفي المساء نفسه دعا السيد لافارج أمه ان تقدم لماري المفاتيح التي ستجعل منها سيدة القصر... وقدمت لها امه تلك المفاتيح بإذعان... اجل قدمت لها مجموعة المفاتيح التي كانت من اسباب كبريائها وازدهانها اربعين سنة او تزيد..

- ١٠ -

عندما كانت ماري تحس ان شجاعته توشك ان تخونها كلما فكرت باهلها، وبمسافة الخمسمئة كيلو متر التي تفصلها عنهم، كانت تقول في نفسها. «اريد ان اكون سعيدة، بل يجب ان اكون سعيدة» وعندئذ كانت تشيح برجلها

عن الماضي، وترمي ببصرها الى المستقبل وجعلت تكثر من المشروعات. وتهتم بمصنع صهر الحديد، وتعنى بمهنة زوجها وكانت في هذا السبيل، تجمع المعلومات والمعارف، وتدرس الكتب العلمية المتعلقة بهذه المهنة. وكانت تريد ان تكون على علم بكل شيء.

وكان السيد لافارج بحسب انه اهتم الى وسيلة لمضاعفة الانتاج بتخفيض الايدي العاملة وزيادة العمل الالي مما يؤدي حتما الى تخفيض الاجور.

وتحسنت ماري لهذا المشروع وراحت تحضر التجارب التي كان زوجها يجريها، وتنسخ ما يلقى عليها من نتائج تجاربه، وهي نتائج سيودعها رسمياً ليسجل حقوق اختراعه، وتحصل بذلك على شهادة رسمية تحمي حقوقه في هذا الاختراع.

ومضت الايام بماري بين معمل صهر الحديد وتحويل البيت الكتيب الى سكن حديث بهيج، والقيام بنزهات فوق صهوة فرسها والاحاديث العائلية مع زوجها.. مضت الايام بها بسرعة جعلت تفكر معها: كيف امكنها، ذات يوم، منذ بضعة اسابيع او بضعة اشهر ان تخشى السأم والملالة... وساءلت نفسها: أتراها غدت تحب لافارج؟... انها لتفسح له المجال ليحبها.. الا يقدم لها، كل يوم، الدليل تلو الدليل على حبه اياها؟ الم يكتب وصيته التي جعل فيها من ماري وارثة ثروته كلها؟..

وماذا فعلت هي بالمقابل؟

لقد دونت وصيتها هي الاخرى وجعلت فيها من حق شارل لافارج ان تعود اليه غلة حصتها من املاك اسرتها... ولقد عهدت بهذه الوصية طي مغلف سري مختوم..

ومع ذلك فان ثمة امورا كثيرة ما كانت ماري تستطيع ان تتصورها ،
او تراها بعين خيالها او بصيرتها ، لانها ما كانت لتريد ان تراها وهي مأخوذة
بجمال سعادتها الطارئة.

والواقع فان اسرة لافارج كانت قد زينت لشارل الذهاب الى باريس ليأتي
بزوجة غنية، زوجة تستطيع ان ترفد بمالها اعمال مصنع صهر الحديد المشوكة على
الفرق... ولم يفكر احد انه سيقع في هوى تلك الزوجة.. وعلى الرغم من هذا فان
مشروع الاسرة لم يتغير وهو: ان يجردوا ماري من مالها.. وكان هو السبب الذي
جعل شارل يكتب وصيته سالفة الذكر التي قابلته بمثلها..

وقد حدث ما هو انكى من هذا، فقد كتب شارل، خفية، وصية اخرى تلغي
الوصية الاولى، وتجعل امه وحدها هي وارثة ثروته. ولم تعلم ماري شيئا عن هذه
الوصية الثانية الا فيما بعد..

اجل .. ان هذا كله ما كانت ماري تستطيع ان تتصوره او تراه بعين
بصيرتها او خيالها.

وشيشا فشيشا، وبصورة غير محسوسة تكون ثمة فريقان، او جبهتان
متعاديتان: الام من ناحية وحولها اسرة لافارج، ومن ناحية اخرى شارل لافارج
نفسه ومعه ماري.

وكانت امه تجمع حاشيتها واعوانها في غرفتها الخاصة لا تستقبل فيها احداً
غير المقربين اليها، وهي حجرة يختلط فيها الادmirين بالدجاج والديوك الرومية،
شان، القرويين، وتعكف فيها الام على صنع طعامها الخاص بيديها، وتدور
الاشباح والشياطين والخرافات.

ومن ناحية أخرى كانت ماري وكان زوجها شارل منصرفين الى بحث مشاريع المستقبل.. ولا ريب في ان شارل كثيراً ما كان يتجاذبه هذا الفريق.. وذاك الفريق.. فيكون عند امه وحاشيته مرة.. ومع زوجته مرة..

- ١١ -

واستقر الرأي على ان يسافر شارل الى باريس لكي يحصل على الشهادة الرسمية باختراعه، ولكي يحاول الحصول على قرض يمكنه من استغلال هذا الاختراع الجديد.. وتدخل ماري في هذه اللعبة الخطرة، فتكتب الى اصديقاتها، وإلى ذويها، تشرح لهم مشروعات السيد لافارج وتشهد بنزاهته وصدقه، وتشيد بمزاياه وعبقريته.. لقد جعلت من نفسها داعية لاختراعه ومروجة له..

ولما حانت ساعة الرحيل، كان الوداع مؤلماً الى حد جعل ماري تغطي صهوة فرسها الشهباء، وتلحق بعربة البريد التي كانت تقل زوجها شارل..

وهتف هو بها.

- تعالي معي يا ماري. فنذهب الى باريس معاً..

غير انها هزت له رأسها بالنفي وقالت

- لن يكون هذا معقولاً.. افلا يجب ان ابقى لكي اقوم بالاشراف على العمل بدلا منك حتى تعود.

في هذه الاثناء كان قد ظهر في محيط اسرة لافارج متقحم جديد انه رجل يدعى «دنيس» يعمل سمساراً لبيع المصنوعات الزجاجية في باريس. وقد قدمه شارل لافراد اسرته قبل رحيله الى باريس بقليل على اعتبار انه رجل ثقة وقد

جعل له صلة بمصنعه... وبيته على السوا..

الا ان ماري لم تقل اليه، ولم تجد فيه صفة واحدة من تلك الصفات التي زعمها له السيد لافارج... بل هي وجدت مساعيه في رفع التكلف في البيت بغيضة مقية، وسارعت فاعلنت فتورها حياله، لكي يلزم مكانه لا يتعداه.. وحصلت من زوجها على وعد قاطع بأن لا يدخل هذا الرجل المقسم حجره الاستقبال ابداً.. وكان هذا وحده كافياً ليصبح ضيفاً يستقبل في اية لحظة في غرفة السيدة لافارج الام..

وهكذا فان ماري لم تستشعر مدى الحقد الذي انطورت عليه اضالع هذا الرجل ضدها...

لزمت ماري غرفتها الفسيحة حيث يترأى لها المعزف الاسود الكبير في ضوء الشموع الموقد وكأنه نعش رهيب.. وجعلت ماري تكتب لزوجها الرسالة تلو الرسالة.. وكانت حين يتقدم الليل تعكف على معزفها، لكي تنجو من احساسها بوطأة الوحدة، وتوقع بعض معزوفات شومان الشجية وغيره من الموسيقيين.

وفي الصباح كانت تبعث برسانلها الى قرية «اوزارش» لكي تصل الى السيد لافارج في باريس بسرعة. وفي كل صباح كانت تنتظر نافذة الصبر الرسالة اليومية التي كان هو يرسلها اليها من باريس.

وكانت كل رسالة من هذه الرسائل مليئة بعبارات الحب والهيام، وياخباره في باريس.. وكان يقول لها في رسائله ان المساعي التي يقوم بها طويلاً جداً، وهي تتطلب صبراً لا نهاية له، والناس هناك يعدون، ويعدون، ويخلفون وعودهم.. وان الشهادة الرسمية بالاختراع لا بد ان ينالها قريباً.. اما قروض المال.. قاله اعلم.

ولكن ماري لا تتردد، فتعود تكتب موصية بزواجها اصحاب النفوذ والكلمة المسموعة.. واصفة اختراعه انه عظيم.. ولا مثيل له.. وكان هو لا ينفك يسألها المزيد من هذه التوسلات لرجال ونساء من ذوي النفوذ.

وكانت ماري تحس بصغار نفسه، وخسته في هذا الذي يلح في طلبه منها.. كانت تحس بهذا كله فتخجل ويعلو الاحمرار خديها..

ثم تعود وتتمالك نفسها.. وتقول في نفسها انها يجب ان تكون سعيدة حيث ارادت لها الاقدار ان تكون.. وكانت تعود فتتشبث بكلمات الحب والحنان التي كانت تطفح بها رسائل شارل لافارج اليها... وتحبب عليها بما يماثلها رقة وحنانا..

وكانت ماري لا ترى، او هي لا تريد ان ترى ان تبادل هذه الرسائل كان يلقي ببذور الفيرة المدمرة في قلب السيدة لافارج الام. فقد كانت ام شارل تحمل الى كتبتها، كل صباح، البريد الواصل من باريس.. وتظل واقفة مجللة بردائها الاسود الذي لم تفارقه منذ وفاة زوجها.. وكانت ماري تتسلم منها رسائل شارل فتفحصها وتقرأها، ولا تنبس بكلمة واحدة.

-١٢-

كانت ماري تفض رسائل زوجها وتقرأها ولا تنبس بكلمة واحدة. وعندئذ تسالها امه:

ماذا تراه يقول؟

وتحس ماري، انها مضطرة ان تقرأ بصوت جهير بعض الفقرات فتستمع السيدة لافارج الام:

ما اشد رقتة نحوك.. وماذا تراه يقول عني؟

راحت ماري، بعد هذا تخفي عن حمايتها الكلمات والعبارات اللطيفة الرقيقة التي يخصصها بها وتشكى امه وتقول: انك لا تثقين بي يا ماري فتخفين عني كل شيء..

وفي احيان اخرى ايضا كانت ماري تلقي في موقد النار الرسائل التي كانت تتلقاها من عمتهيا واصدقائها. ولكن السيدة لافارج الام لا تغتفر لها هذا لم تعد تغتفر لها شيئاً. بل هي قد اوضحت قمقتها وتنطوي لها على الحقد والكراهية وكانت ماري من ناحيتها تبتهج وتسرا ان تسدد مثل هذه الضربات الى هذا الفضول الذي يبتدي في سكان الاقاليم وتزدريه هي كل الازدراء غير انها لم تكن لتدري انها بهذا تحفر بيديها الهوة السحيقة التي يوشكون ان يدفعوا بها فتهدى الى قرارتها.

قررت ماري ان تبحث عن مرسوم لها صورتها لكي ترسل بها الى زوجها المتغيب في باريس. فاستدعت فتاة من العوانس مشهورة بحذافة الرسم في «غلاتدييه»، اسمها الانسة «بروس» فكانت ماري تجلس قبالتها كل صباح وتروح الانسة بروس ترسمها.. ثم تنسحب الرسامة، بعد الظهر، وتنسل داخله حجرة السيدة لافارج الام حيث تغلق الابواب ولا، تدري ماري ما يدور ثمة من احاديث.

ولكنها ما كانت لتهتم بهذا كله، وانما هي كانت تشغل ذهنها الف فكرة تتلهى بها لكي قلا هذا الفراغ الكبير الذي يفصل بينها وبين زوجها والذي لم يعد محتملا لكليهما..

وقد ارسلت له صورتها التي رسمتها لها الانسة بروس، ثم جعلت تبحث اليه بنوع لذيذ من قطع الحلوى التي تجيد صنعها، واتفقت معه في احدى رسائلها،

على ميعاد - كل مساء وفي ساعة معينة - حيث يقفان ويروح كل منهما يتأمل نجمة يعينها فيكون هذا بمثابة لقاء يومي بينهما.. بل ذهبت الى ابعد من هذا واوعزت له ان لا يتناول قطع الحلوى المرسلة له الا في ساعة معلومة كل مساء، وهي الساعة نفسها التي تروح هي تتناول فيها قطعاً مماثلة من هذه الحلوى.. فيكون لهما من وراء هذا كله تواجد غرام، وموافاة حب وهيام.. ولكن الامر لا يتم على نحو ما تخيلته ماري.. فقد كان زوجها لا يكاد يعود مساء الى غرفته في فندق وقد نال منه التعب والارهاق، حتى يستسلم لنوم ثقيل بعد ان يكون قد تناول قطعة من هذه الحلوى.. ولكنه لا يلبث ان يستفيق مذعوراً ويروح يتقيأ باستمرار ومضي ليلة من اسوأ الليالي.

وفي الوقت نفسه كانت ماري لا تنفك تعينه وتشد ازره بصورة رائعة. ولقد كتبت له تقول في احدى رسائلها المرسلة اليه في مطلع شهر كانون الاول لا تنس انك السيد الوحيد المتصرف بعوائد املاكه في باريس وغيرها.. وان ما املكه هو لك. فافعل ما تشاء، ولك ملء الحرية في ان تقترض او تبيع فانا موافقة سلفاً على كل شيء...»

أليس هذا السخاء كافياً للتعبير عما تملكه في قلبها من مودة للسيد شارل لافارج.

وذات صباح حملت امه الى ماري تفويضاً لا بد ان توقعه قبل ارساله اليه في باريس، وكان هذا التفويض هو الذي يتيح له ان يعقد قرضاً هو بحاجة اليه، وكان الموضوع الذي يجب ان توقع فيه مشاراً اليه بصليب صغير، وكانت ماري توقع في العادة دون أن تقرأ نص ما توقع عليه... ولكنها لا تدري، هذه المرة، كيف بسطت الورقة تحت ناظرها وأخذت تقرأ فيسها.. وكانت كلما قرأت ازدادت شحوباً وارتعاشاً.. واحست من جديد انهم قد نصبوا لها فخاً رهيباً.. ذلك ان النص الذي وقعت عليه لم يكن تفويضاً لزوجها.. وانما كان وصيتها..

وصيتها نفسها..

واتضحت لها الحقيقة المروعة، الحقيقة التي تفقأ العين..

ذلك ان السيدة لافارج الام كانت قد فتحت وصية ماري التي ائتمنتها عليها مختومة في مغلف مغلق، وسلمتها لاحد رجال القانون وطلبت منه ان يجري فيها التبديل والتغير الموافقين للذين يجردان شقيقتها السيدة «فيولان» من حقها في وراثتها، ويحصر هذا الحق جميعا في اسرة لافارج وحدها دون منازع.

وصرخت ماري غاضبة، مهتاجة، وقذفت حماتها بنعوت الاحتقار والازدراء.. وراحت هذه تترجف وتقول:- رحماك يا ماري.. لا تقولي شيئاً من هذا لاني.

-١٣-

تألكت ماري نفسها، وكظمت غيظها اخيراً واجابت حماتها العجوز:

- لن اقول، ياسيديتي، شيئاً... ولست اريدك ان تحمري خجلاً وعاراً امامه...

غير ان العجوز لن تلقي سلاحها من بعد، ولن تعترف بالهزيمة في هذا الصراع المرير....

اجل ان هذه الوصية التي ارادوا الحصول عليها بالكر والدهاء... لابد ان تكتبها بجلء رضاها. وقالت لها حماتها:

- واذا وضعت يا ماري ولدك لك... انراك محرمينه ايضاً من ميراثك؟

وهفت ماري منسحقه:

- اذا اقدر لي ان اضع ولداً... فشقي ياسيديتي ان كل ما املك يكون نصيبه... وعندئذ قالت المعجوز:

- ثقي، يا بنيتي، بخبرتي وتجاربي... ان عينيك المتعبتين... وآلام القلب تتناوبك... هذه كلها خير دليل على انك حبلى... واخيرا اعلن السيد شارل لافارج عودته من باريس. وعين لذلك موعداً هو الثالث من شهر كانون الثاني. وقال في رسالته: «سأصل في الضحى. واريد ان تقع عيناى، اول ما تقعان. عليك انت.. فكروني وحدك.. وحتى بدون امي.. اعلمي على ان يكون هذا كله كما اريد...»

ولكنه وصل قبل مواعده.. وكان الصبح لما يتنفس بعد، في الثالث من شهر كانون الثاني، عندما انحنى السيد شارل لافارج على سرير زوجته وياقظها بقبلة طبعها على صفحة وجهها. وفتحت ماري عينيها.. أهر، حقاً، المائل امامها؟ ولكن.. لماذا تراه قد هزل.. وارتخت، هكذا، معارف وجهه؟ وارتسمت في عينيها امارات القلق والالم... وواحت تسأله عن هذا كله بلطف ووقه.. وألحت في السؤال واضطر ان يتخفف مما يكتمه في صدره.. وافضى لها بكل شيء... فهو، في اثناء اقامته في باريس، لم يكن ليتلقى رسائلها الجميلة وحدها، ولكنه كان يطلق رسائل كثيرة اخرى من امه، وشقيقته، وفي هذه الرسائل كانتا تنقلان له كل كلمة تقولها ماري، وكل مسعى، وكل حركة من حركاتها، وتخبر انه بكل رسالة تطلقها، وتعلقان على هذا كله وتفسران الاشياء على هواهما، وقروها، وتذكران ما كان وما لم يكن...

وذهلت ماري... وشرعت تبين له زيف ما كانتا تخبر انه به، وتوضح بطلانه، وتقضي، بهذا، على جميع الشبهات، وعلى ما امتلأت به نفس شارل من غيره،

وهم، وغصص... سَمَت ايامه ولياليه في باريس...

ولم يذهب شارل لشحية امه الا حوالي الظهر، وكانت هي قد راحت تنتظره منذ الصباح الباكر.. وشدماحز في نفسها تأخره عن موافاتها، فأنبته لعدم اهتمامه بها، وقلة اكترائه بشأنها..

وعلى الفور احس انه متعب، وانه بحاجة الى النوم، فطلب من ماري ان ينام في غرفتها ليكون قريباً منها. وانتابته، بعد الظهر، نوبات من التقيؤ.. وعندئذ نطقت امه بكلمة رهيبة مروعة.. فقالت: انه السم..

واستدعى الطبيب «باردون» ففحص السيد شارل لافارج، وقال انه مصاب بمرض عصبي، وبالتهاب في الحلق لا خطر منه، ونصح للمريض بالهدوء والسكينة..

وجعلت ماري من نفسها ممرضة لزوجها، فلم تعد تبارحه.. وجعلت تحادثه عن مشاريع المستقبل وعن اعماله.. وكان هو قد حصل على الشهادة الرسمية باختراعه.. واذن.. فهذا انتصار اول له.. لا بد ان تتبعه انتصارات.. بعد ان تزول من الطريق كل صعوبة، في حينها، من الصعوبات والمعوقات..

ويروح شارل فيغمز يدي زوجته تقييلا، وينادي امه ويقول:

- اترين عظيم جهالي؟...

وفي اكثر الاحيان كان يأبى ان يتناول اي دواء ما لم تعطه اياه ماري نفسها... وكانت ماري تسر وتبهج لانه يفضلها على امه وشقيقته...

- ١٤ -

في هذه الاثناء كانت تكثر الجلبة حول سرير شارل لافارج، وتزداد الحركة عن

لا ينفكون يروحون ويجيئون، ويحرمونه بجلبتهم وحركتهم من الهدوء والنوم المنشودين، فهذه امه.. وهذه شقيقته.. وزوج هذه الشقيقة وشريكه، والسمسار دنيس.. كلهم يروحون ويجيئون حوله، ويتحدثون، ويتساءلون، ويتهامسون، ويدور في احاديثهم ذكر المال، والاعمال، وما يجب من تفويضات.. وتوقيعات، انهم جميعاً يفكرون كثيراً بالمال.. اجل انه المال.. المال دائماً.. وفي الوقت نفسه اخذت الجرذان المويوة التي تملأ ذلك البيت العتيق، تعيث في كل مكان، وتثير الفوضى والاضطراب حتى في غرفة المريض نفسه.. وكان السيد شارل لافارج يتوسل الى ماري قائلاً:

- خلصينا من هذا الوباء يا ماري.. خلصنا منه..

وتقرر القضاء على هذه الجرذان بقتلها.. وات ماري بمادة الزرنيخ من صيدلية في بلدة «اوزارش» القريبة.. ولم تكف هذه الكمية الاولى من الزرنيخ.. للقضاء على الجرذان.. بل ان الجرذان، وقد تكاثرت جداً، لم تعد تمس الزرنيخ.. وجعلت ماري تأتي بمقادير اخرى اكبر واوفر من الزرنيخ ولا هم لها الا ان تقضي عليها وتخلص البيت منها..

و ذات صباح، وفيما كان السيد لافارج متكئاً يستريح فوق كتف ماري الجالسة حده، اقتحمت الغرفة عليهما شقيقته كالمجنونة التي فقدت صوابها، ثم القت بنفسها على شقيقها، وأيقظته بصراخها ويكائها، وهي تقول:

- انك على وشك ان تموت يا شارل.. وماذا تكون الحياة بدونك؟ سألحق بك الى القبر.. ولكنك لن تموت الا في أحضاني.. ونهضت ماري مضطربة، وحاولت ان تهدى هذه المرأة الباكية... في حين كان شارل يلتفت نحوها وقد توترت ملامحه من الهم والغم وقال لماري:

- لقد اخفيت عني هذا.. واذن.. فلا بد من ان اموت ؟؟ وصاحت ماري:
- انت لست في خطر... ولكن مثل هذه المشاهد... ستقضي عليك حتماً...
وجاء من ذهب بشقيقته من الفرقة.. وبقي هو مغموماً بهمس قائلاً:
- آه.. يا ماري المسكينه.. لا مفر من الموت اذن.. شدا ما حبيتك..

وازدادت حالته، في الغداة، سوءاً... واتوا له بطبيب آخر.. هو السيد
«ماسينا»... وقال هو الآخر انه مرض عصبى.. وذكر، مؤكداً، انه ليس في خطر
على الاطلاق... ومع ذلك فقد كانت السيدة لا قارج الام لا تنفك تحاول بجميع
الوسائل ان تبعد ماري عن سرير ابنها وتقول لها

- لقد نال منك التعب... ولقد هزل جسمك... ويجب ان تستريحى.. ولكن
شارل كان يئن قائلاً:

- فلتبق ماري الى جانبي.. فهي وحدها التي تستطيع ان تواسيني وترفق
بى..

وعندئذ كانت امه تنفجر قائلة:

- انكما تريدان، انت وهي، ان تطرداني.. انا عارفة.. ولكنني سأدافع..
وسأعرف كيف ابقى.. وهكذا تجمعت حول سرير المريض: مظاهر العنف، والحقد،
والمقت، والصراخ، وراحت تندفق من حوله كالسيل العرم.

وفي احيان اخرى كانت العجوز تنسحب الى حجرتها الخاصة فتأدى الى
السمع محادثات... ومداولات... وكان صوت السمسار «دنيس» يعلو جميع
الاصوات...

وفي هذه الاثناء كان شارل لافارج لا يتناول الا القليل من الطعام... وكانوا يعطونه النبيذ الاحمر الكاوي.. فكانت ماري تأخذ بقايا هذا النبيذ فتطبخها وتقول:

- انهم يعطونه نبيذا... في حين ان حنجرته في اشد حال من الالتهاب...

-١٥-

كانت ماري نفسها تشكو من ألم معدتها منذ امد طويل. ولكي تخفف من هذه الالام كانت تستعمل نوعا من الصمغ العربي فتهدأ وتستكين..

ولهذا كانت تمزج هذا الصمغ المفيد عدة مرات كل يوم فيما كان يتناول زوجها من سوائل.

وتعبت ذات يوم فتولت شقيقة زوجها صنع نوع من الحليب لها فشرته كله في حين كان زوجها يبدي رغبته في ان يشرب بعدها، نصف هذه الكمية. فاضطروا لكي يرضوا السيد لافارج ان يضعوا له من جديد كمية اخرى من هذا الحليب. ولما تم اعداد هذا الحليب كان شارل قد اخلد الى النوم وعندئذ وضعوا الرعاء الممتلىء بهذا حليب قرب ماري غير انها اعادته فيما بعد الى المطبخ عندما تبين لها انه قد ابرد..

وكانت الامور المالية لا تنفك كل يوم الشاغل الاكثر لافراد هذه الاسرة وقد طلبوا من ماري ان توقع لهم على سندات غير مؤرخة بمئات من الفرنكات وكان لا يمر يوم الا وتشعر ماري فيه انها تكثر فيه وتكثر حركات الذين يأتون ويذهبون ويضطربون في ارجائه جميعاً.. والانكى من هذا كله انهم كانوا سرعان

ما يصمتون ولا تعود شفاههم تنطق بكلمة واحدة كلما اقتربت منهم او لمحوها
آتية نحوهم.

و ذات يوم وفيما كانت ماري تضيف ذرارة من الصمغ الى كمية الدواء الذي
عليه ان يتناوله اسرعت امه حانقة، ظافرة، متوعدة فانتزعت من يد ماري الملعقة
والدواء معاً وهتفت وهي تريهما لابنها :

- اياك ان تتجرع شيئاً من هذا الدواء خاصة.. لقد وضعت فيه مسحوقاً
ابيض أُلْم ترها تفعل ذلك يا بني اياك... اياك..

وعندئذ القى السيد لافارج نظرة حزينة، يائسة، منكسرة الى ماري، ثم اشاح
بوجهه..

ما لبث السيد دنيس، السمسار وصديق شارل لافارج وعدو ماري، ان جاء
واستقر عند سرير المريض.. ويبدو أن شارل لافارج نفسه طلب ذلك والع فيه...
واصر ان لا يفارقه ابداً...

وبعد ذلك بقليل طلب السيد لافارج ان يساندوه، ثم تماسك واستدعى ماري
الى جانبه، وامسك بيدها وراح يتوسل اليها هامساً.

- دعيهم يفعلون ما يشاؤون... ولكن لا تتركيني..

وانصاعت لارادته، ولبثت يقربه، وراحت تفكر، وتطيل التفكير في حال
زوجها وما آك البه من سوء يزداد يوماً بعد يوم، حتى غدا لا يكاد يتماسك،
وكأنما كانت الحياة تنسل رويداً من جسمه الناحل..

وجاء طبيب اسمه «فلينيا» من اصدقاء الاسرة في زيارة خاصة. وشاهد ما حل بالسيد شارل لانفارج، وتفحص حاله، وعجب من تفاؤل الطبيب «باردون»... وقال انني غير راض ولا متفائل من ابتعاد اطرافه وخدرها، وانني لجازع حقاً من ضعف نبضه فلماذا تراكم لا تفعلون له شيئاً؟... وصرخت ماري تقول:

- ارجوك يا سيدي احرم الرجاء ان تقنع حماتي بان تأتي لشارل بطبيب اخر غير السيد «باردون»...

واستولت الدهشة على «فلينيا» وهدق النظر في وجه ماري ثم قال:

- حماتك تقول انك انت التي تعارضين في استدعاء طبيب اخر غير الدكتور باردون...

غير ان ماري انتفضت مذعورة، واختلجت شفتاها غيظاً، وانكرت بشدة ان تكون قد عارضت... وقالت :

- بل ما اكثر ما ألححت عليهم ان يستدعوا طبيباً آخر فلم يسمعو لي يا سيدي.. فأرجوك رجاء صادقاً من القلب ان تقنعهم انت بضرورة استدعاء طبيب آخر.. او اكثر من طبيب.

وعندئذ عهد الى الممسار دنيس ان يذهب الى مدينة «لويرسك» غير البعيدة ويعود بطبيب آخر. وانطلق دنيس الى هذه المدينة وغاب يوماً ثم عاد ومعه طبيب اسمه «لسبناس».

واكب الطبيب الجديد يفحص السيد شارل لانفارج، ويقلبه ظهره لبطن، ويحسه هنا وهناك، وينظر في عينيه ولسانه، ويستمع الى دقات قلبه، ويفحص

نبضه باهتمام مصطنع، ثم قال بوقار، وبصوت جهير:

- ان السيد لافارج يسير الى حتفه مسموماً..

وعندما اقترت ماري من زوجها شارل، بعد هذا بقليل، دفعها عنه حانقا مغيظا، وهو يتمتم بكلمات غير مفهومه، وكأنه يهذي ولا يتكلم.. ويهمس ولا يفصح..

وكان افراد اسرة لافارج قد تجمعوا كتلة واحدة عند موقد النار وعلى افواههم ابتسامة ظفر، وانتصار، وشماته بالغة.. وقالت شقيقة بنيرة ذات مغزى رهيب:- اذهبي ونامي يا ماري.. فانت متعبة، وشقيقي يفضل ان نبذل، نحن، عنايتنا له.. بدلا منك..

وتدهورت صحة شارل لافارج... ومن عجب انه، كما قال الطبيب الذي جاء به دنيس السمار وعدو ماري، يسير إلى حتفه مسموماً... ومع ذلك فان هذا الطبيب لم يكلف نفسه باعطائه ترياقاً ضد السم!..

شاهدت ماري على وجه زوجها الشاحب امارات الموت... فهلعت... واغمي عليها... واخذت تهذي هذيانا متواصلا.

-١٧-

غدت الاسرة كلها لا تبارح غرفة شارل لافارج الذي انهكه المرض ويرى جسمه حتى غدا وكأنه من الاشباح.

وتوافد الاصدقاء، وجعلوا يأتون ويذهبون، ولا ينفكون بتهامسون، ويرقبون في ريبة وتوجس كل حركة تبدو من ماري.. ثم يمضون وهم يهزون رؤوسهم.

وغدت ماري لا تستطيع ان تقترب من سرير هذا الرجل الذي شغل حباً بها.. والذي ربما يدفعون به الى القبر وهم يقولون له ان زوجته هي التي قضت عليه بالموت.

ثم ذهب افراد اسرة لافارج الى أبعد من هذا فاحتجزوا ماري في غرفة اخرى.. فما اكثر ما بكّت حتى غرقت في دموعها المسفوحة، وتلفت صحتها، وغابت عن الوجود وقتاً لا تدري مداه.. ولما عاد اليها وعيها بعد ليلة من العذاب المبرح كان شارل لافارج قد فارق الحياة وفي يوم وفاته نفسه فقد ارتقى زوج اخت شارل لافارج بين ذراعي ماري وهو ينشج ويبكي احمر بكاء ويتوسل اليها ضارعاً لكي توقع تفويضاً على بياض...

في هذه الاثناء كانت السيدة لافارج الام تفرغ الخزائن والادراج من كل ما فيها ولما تبرد جثة ابنها... وقد جمعت كل ما وجدته من فضيات ثمينة وتحف نادرة وارسلت به الى ابنتها.

وفي الغداة احتالوا على ماري بحجة ولائيات التهمة على ماري قامت النساء، في هذه الاسرة، سرا بتحليل اكواب شرب الحليب، والعلب الصغيرة التي كانت ماري تضع فيها الصمغ العربي.. واسفر التحليل المخبري عن وجود مادة الزرنيخ في تلك الاوعية جميعاً..

وقد وُجد الزرنيخ كذلك في فئجان موجود في درج خاص بماري... يلاحظ ان هذا الدرج كان مفتوحاً، وفي متناول الجميع...

اوغلت اسرة لافارج في اتهام ماري انها كانت ترسل الى زوجها، في باريس قطع الحلوى المسمومة.. وهي القطع التي أدت، في بادىء الامر الى التقيؤ الاولى عند شارل لافارج..

ثم عملوا على نشر اشاعة حول ان ماري تأبى بشدة تشريع جثة زوجها.. ماري كانت ترفع عقيرتها بأن الامر على نقبض وتقول ان التشريع وحده الذي يمكن ان ينقذها من هذه الاتهامات الظالمة..

كانت في هذه الفترة اشبه بسجينة في ذلك البيت المرید، وكانت في ايامها وسط اسرة تمتعتها، وتحقد عليها اشد الحقد، فتلوذ بصلاتها وتسال الله ان يكون معينها ونصرها.

وذهبت اسرة لافارج في ايدائها ابعد من هذا فرضت سندات مزورة موضع التداول عن طريق السمسار دنييس.. وكانت هذه السندات استحق دفعها.. وعندئذ، ولكي تلوث ماري الاسم الذي تحمله اوعزت إلى وكيلها موثق العقود ان يدفع قيمة هذه السندات المزورة وتكون اسرة لافارج هي المستفيدة وحدها... وفي هذا وحده الدليل على سمو تلك المرأة.. كما كان آخر عمل حر قامت به.. قبل القائها في غياهب السجون..

على ان التشريع لم يسفر عن وجود اثر للسم في امعاء السيد لافارج فان الزرنيخ الذي وجد بكميات كبيرة في الحليب الذي لم يشربه السيد لافارج، والزرنيخ الذي وجد في الاوعية التي تستعمل للمريض، والزرنيخ الذي كانت تظهر آثاره فوق خزانة ماري ذات الادراج، والزرنيخ الذي كان منتشراً بوفرة من حولها... وكذلك الرسالة المجنونة المؤرخة في ١٥ آب والتي هدت فيها بالانتحار سماً، والاتهامات المتكررة التي ما فتئت السيدة لافارج الام وابتنتها توجيهانها ضد ماري اذ تقولان انهما شاهدتا بأع عينيهما ماري وهي تضع مسحوقاً ابيض في السوائل التي كان يشربها السيد شارل لافارج.. هذا كله حرك قاضي التحقيق الى بلدة «غلاندييه» ليحقق في هذه القضية، كما ادى الى تدخل النائب العام.. وكان نتيجة لهذا التحقيق العاجل ان نقلت ماري الى سجن التوقيف، ولقد كان سجنها قبل ذلك: مملكات زوجها نفسها بغاباتنا، وخرائبنا،

ومياه نهرها.

وجرت المحاكمة التي تنعتها كاتبة هذه القصة بانها قذرة، ونظر فيها قضاة ذور عقلية غليظة متحجرة.. وبعد جلسات طويلة، ومجادلات بيزنطية، واتهامات ظالمة صدر الحكم على ماري بالسجن المؤبد مدى الحياة.

وقد قضت ماري سنوات طويلا في سجنها الرهيب الى ان فتحت ابواب هذا السجن بعفو عام اصدره نابليون الثالث، فخرجت ماري محطمة الروح والجسد وهي لا تنفك تنكر تلك الجريمة وتعلن براءتها منها.. وما هي الا اشهر قليلة حتى قضت نحبها.

لقد انقضت، الى اليوم، مئة وستة وعشرون عاما، وما تزال هذه القضية المذهلة تشغل بال الناس، وما تزال موضوعا لتقاش وجدل طويلين.. وما زال هناك من يؤمنون بان ماري قد قضت على زوجها بالسم، ومن يؤمنون بانها بريئة وان اسرة زوجها هي التي دبرت لها هذه المكيدة . وقد الفت في هذه القضية الكتب العديدة واصبحت من القضايا التاريخية الشهيرة.. وسائل نفسك ايها القارئ الكريم: اتراها حقا سُمّت زوجها.. ام انها بريئة ذهبت ضحية الكيد والتآمر؟ وهل انت من مؤيدي مدام لافارج.. ام من مدينيها؟ واعلم انه ما زال لها مؤيدون عديدون، واعداً وخصوم كثيرون حتى يومنا هذا.

الجاوسان الخليان

-١-

صب «بيتر فاست» الماء المعدني في كأسه التي كان فيها مقدار كاف من منوم قوي ثم شرب جرعة كبيرة. ولم يلبث النوم الشديد ان اخذ بفعل فعله فاحس بيتر فاست بقاعة الاستقبال الواسعة في «الفيلا» تميد به وتدور حوله... الا انه استطاع، فيما يشبه الحلم، ان يلمح قبالته، من الناحية الاخرى للطاولة الخفيضة، الكأس الثانية وفيها المخدر دون الماء.

ولقد كان من العبث ان يقاوم بيتر فاست تلك القوى الخفية الكامنة في المخدر والتي جعلت تضغط على اجفانه ضغطاً قوياً، فأغمض عينيه، وانزلق رأسه فاصطدم بالطاولة، غير انه لم يحس بأي ألم لان المخدر كان قد تم مفعوله فيه فاستغرق في سبات عميق. وكان الليل، في الخارج، تنيره النجوم المتلامحة، وكان الرجال الذين يحدقون بالفيلا يستطيعون ان يمحضوا في مراقبتهم على هينه ومهل كانوا منبطحين تماماً كأنهم جنود يحاربون في ارض عراء، وكانت اجسامهم قد التصقت بالارض حتى غدت وكأنها قطعة منها. وكانوا مزودين باجهزه تنيع لهم ان يتبادلوا الحديث، بصوت خفيض، مع جميع المراكز التي تتشكل منها تلك الدائرة المدققة بالفيلا.

وكانت هيئة القيادة مختفية تحت الشجر وفي حوزتها جهاز مزدوج للارسال

والاستقبال معاً. وكان احد الرجال يتسمع وغطاء رأسه قد هبط فوق اذنيه، ولكنه كان، كلما رشقه رئيسه بنظرة متسائلة، يجيبه بالنفي دائماً بحركة من رأسه، لانه لم يكن يسمع شيئاً.

ونظر قائد الفرقة في ساعة يده الفوسفورية الوجه وقال بلهجة انكليزية منبثقة من « اكسفورد » مباشرة:

- لا تزال هناك خمس دقائق متبقية وكانت هذه الدقائق الخمس طويلة جداً وبدأت الاشياء والرجال كأنما قد جمدوا في مواقفهم واطاعهم تلك الى الابد.

وفي قاعة الاستقبال بالفيلا كان بيتر فاست غارقاً في نومه او تخديره ويده اليمنى قابضة على كأسه بحركة مضحكة أنه يخشى اذا استفاق ان لا يجد كأس «السكوتش» الذي يحبه.

وحول الفيلا لم تعد الات الاتصال تتناقل شيئاً من الحديث وبدأت بهيئة القيادة كأنما قدت من صخر. كانت السحب رعداً تتراكض وكأنما القمر نفسه يتراكض هو الآخر ولكن بصورة لا تراها العين إلا لهاماً..

واخيراً رفع القائد رأسه وقال:

- لقد حانت الساعة لتنفيذ الخطة، ثم لا تنسوا اننا نريدها حية.. وعلى الفور تمزق الصمت وثم تناقل القائد هنا وهناك واخذت دائرة الرجال تضيق شيئاً فشيئاً.

ولم يكن ليتحرك شيء في داخل الفيلا، ولم يشق الفضاء كما لم يزعم الرجال المهاجمين اي عيار ناري مصدره الفيلا الساكنة، وجعل اولئك الرجال يستعملون بمهارة المفاتيح المقلدة لفتح الابواب، والقاطعات الماسية لقص زجاج

التوافذ.. وانتهى بهم الامر الى ان يدخلوا القبلا ثم يلتقوا جميعاً في قاعة الاستقبال الواسعة حيث كان بيتر فاست لا يزال مستغرقاً في نومه العميق. وهتف القائد قائلاً:

- لقد ظفرت به تلك اللعينة! ثم اندفع نحو بيتر... الا انه بعد ثانيتين راح يطمئن رجاله بقوله:

- انه لم يفارق الحياة.. فتشوا البيت كله.. اذ لا يمكن ان تكون قد تمكنت من الخروج..

-٢-

ولكن وأسفاه! فما كادت تنقضي عشر دقائق بعد ذلك حتى اضطر اولئك الرجال ان يروا الحقيقة السافرة، ذلك ان تلك المرأة كانت فعلاً قد هربت.. فقد اكتشفوا في قبو القبلا باباً يقضي الى ما يشبه ان يكون نفقاً قطره متر واحد يؤدي في نهايته الى السهل، على مبعدة ثلاثين متراً وراء الحلقة التي كان اولئك الرجال قد شكلوها واحتلوها بكل نشاط واهتمام.

وكان من العيب تعميم الانذار عن افلاتها هذه المرة ايضاً. لقد كان اي انذار لا يجدي نفعاً مع امرأة خطيرة ككاتيا.. ثم انه لا بد قد مضى وقت طويل عادت فيه الى لندن حيث اتخذت دون شك، احدى هاتيك الهويات والاسماء المستعارة الكثيرة التي في حوزتها.. ولعلها، في هذه الساعة، قد جلست بهدوء واطمئنان لتشاهد ما يعرضه جهاز التلفزيون كآية امرأة انكليزية شابة تنتمي الى اسرة طيبة. ونقل بيتر الى لندن هو الآخر في سيارة «جاغوار» سريعة يقودها رجل يوثق به.. وكمن خلف هذه السيارة رجال آخرون مزودون بأسلحتهم الاتوماتيكية الرهيبة محسباً من ان تكون «كاتيا» قد بشت عدداً من اصدقائها الاعزاء لا بد ان يلتقوا مصارعهم في التور واللحظة. ووصلت السيارة التي كانت تقل بيتر فاست

الى المنزل الشخصي الذي يقيم فيه «ن.ن.» دون ان يشعر بذلك احد على الاطلاق.

ولقد كان شرفا عظيما وتادراً جداً ان يحظى المرء بالاستقبال في المنزل الشخصي للسيد «ن.ن.» فقد كان «ن.ن.» هذا هو الرئيس الاعلى لجميع دوائر ومنظمات التحري السرية الانكليزية. وما كان احد ليعلم باسمه الحقيقي والارجح به ان حرفي «ن.ن.» الانكليزية يعنيان «رجل بلا اسم» دخل ثلاثة رجال اشداء، ويكل رفق وضعوا بيتر فاست في سرير كبير مريح، وعندما لم يبق في الحجرة احد، اقبل اخيراً «ن.ن.» ليزور هذا الشاب الذي كان يعتبره افضل واذكى رجاله. ومن بعيد راح يتأمله ويفكر طويلا. ولم يكن بيتر منيف القامة، غير انه كان رائع الجمال، وبصورة خاصة عندما يكون نائماً.

وكان لا بد ان تكون العين ذكية جداً ونفاذة جداً لكي تستطيع ان تكتشف في التقاطيع الجميلة المتناسقة لهذا الوجه الوضيء: ملامح جاسوس قدير خطير يستطيع بكل سهولة ان يعبر الستار الحديدي الذي يفصل روسيا عن غيرها من بلدان اوربا ويعود من ورائه كما يشاء وحين يشاء كما يركب غيره بسهولة ويسر قطار «المترو» تحت الارض ويخرج منه في اية محطة يريد..

وقال «ن.ن.» في نفسه وهو لا يزال يتأمل بيتر فاست: «ما اشبهه بصورة دوريانغراي» التي وصفها الروائي «اوسكار وايلد» في روايته الشهيرة. اجل، وبدون جدال فانه جميل، بل رائع الجمال، بهاتين الشفتين القرمزيتين المتقوستين بمنتهى الرقة والنعومة، وبهاتين العينين الزرقاوين اللتين تشعان ذكاءً وصدقاً، وهذا الشعر الاشقر الذي يتوج رأسه.. وما احلى هذا التعبير على وجهه الذي يوحي بالثقة والاطمئنان من اول نظرة..

كان بيتر في الرابعة والعشرين من عمره، وكان قد دخل الخدمة في دوائر التحري قبل هذا بثلاث سنوات. وكان يتيماً غير أن والده كان صديقاً حميماً ومن اعز اصدقائه «ن.ن» الذي اهتم كثيراً بأمر بيتر فاست الشاب الغريب الاطوار. نقول غريب الاطوار لانه كان يوحى احياناً برودود فعل تبعث الشك في صفاء الطوية التي تنعكس على محياه الا انه كان يقال، عندئذ انه يتحلى بكل بساطة بذكاء لماح، اذ انه من غير المعقول ومن غير المفهوم ان تكون ردود الفعل المذكورة من ادلة خلق فاسد..

وكان قد تلقى تربية وتعلوماً استثنائيين. وكان يتحدث بعدة لغات ويتقنها الى حد الكمال، وبصورة خاصة اللغة الروسية، والفضل في هذا يرجع الى امه التي كانت من مواليد «فلاديمير» التي تبعد مسافة مئتي كيلومتر الى الشرق من موسكو.

وقد جرى تدريب بيتر فاست تدريباً خاصاً فاصبح يسبح ويعوم وكأنه «نيتون» اله البحر، ويمتطي صهوة الجوادو كأنه فارس من بواصل فرسان القفقاس على نهر «الدون» الروسي، ويقارع بالسيف كأنه الفارس «دارتنيان» في قصة الكسندر ديماس «الفرسان الثلاثة»، وقد اتقن حركات (الجودو) التي يستطيع بها ان يتغلب على العتاة الاشداء، وكان يسعه ان يفلق قطعة من الحطب بضربة واحدة من حافة يده كأني خبير يحترم نفسه في هذا النوع من المهارة كما كان يستطيع بأي سلاح ان يصوب ويصيب الهدف على بعد الف متر من امام. ومن خلف ظهره..

وكان، في اثناء عطله، قد حمل الى «ن.ن» معلومات واسراراً مثيرة لم يسمع بها احد، وانما جرى ذكرها همساً على الشفاه في اشد قاعات قصور «

الكرملين « الروسية سرية.

ولم يكن يشوب هذه الصورة المكتملة لبیتر فاست غير ظل قائم واحد، ذلك انه كان يعترض طريقه دائماً جاسوس آخر يائله قدرة وقوة. وكان هذا الجاسوس الذي أصبح لا سبيل الى القاء القبض عليه: امرأة اسمها « كاتيا » ..

مرت هذه الافكار والصور جميعاً في ذهن « ن.ن » وهو واقف الى جانب هذا الشاب المستغرق في نومه والذي يسط عليه حمايته وأسباب مودته وعندئذ قام « ن.ن » بحركة رهيبة من شأنها ان تشير الرعدة في اشد القلوب جرأة.. فقد اقبل على ملابس بیتر فاست يفتشها تفتيشاً دقيقاً فوجد في الجيب الايمن جهاز الارسال الصغير ولا يزال يعمل بحالة جيدة، وان كان بیتر لم يسعفه الوقت، ولا ريب، في ادارته واستعماله ثم وجد سجائر، وقداحة ذهبية، ومشط. ومحسّس بعد ذلك بطانة السترة، وعندئذ اضاقت وجهه المليء بالتجاعيد الكثيرة كأنه وجه الحيوان « وحيد القرن »... لقد كانت في البطانة رزمة كبيرة سمیكة.. اجل ان مبلغ الخمسين الف جنيه استرليني لا تزال في مكانها داخل تلك البطانة.

ظل بیتر فاست مستغرقاً في نومه الثقيل هذا مدة اثنتي عشرة ساعة متواصلة، وعندما فتح اخيراً عينيه الزرقاوين كان اول ما شاهده هذه النظرة الرمادية العطوف المصوبة اليه من عيني « ن.ن ».

-٤-

راح « ن.ن » يوجه الى بیتر فاست اسئلة متلاحقة:

- كيف تجد ذلك الآن ايها الفتى؟

- انه صاف تماماً

- اترك قادراً على ان تتذكر الحوادث؟

- اجل ياسيدي، وعلى اكمل ما يكون التذكر.

- اذن سأراجع على مسمك ما كان من الامر كله.

- انا مصغ اليك كل الاصفاء ياسيدي

- اتصلت بك « كاتيا » في برلين الغربية لتعلمك ان في امكانها ان توافق على ان تصبح جاسوسة مزدوجة واشترطت لذلك ان ندفع لها الثمن الذي تريده... وقد طلبت منك، وبالهاتف دائماً، ان تكون موجوداً في موعد معين في فندق « البط المنتوف الريش » بمدينة « تشيشتر » بمقاطعة « ساسكس »، وقد وضعنا في ذلك الفندق أحد رجالنا، وقبل وصولك بقليل الى الفندق تلقى الرجل مكالمة هاتفية. كانت « كاتيا » هي المتحدثة بلهجتها التي توحى الى السامع انها تغني اكثر منها تتحدث، وقد ضربت لك موعداً للقاء في تلك « الفيلا ».. وعلى الفور استقينا معلوماتنا الخاصة عن تلك الفيلا، فعملنا بسرعة ان امرأة ما قد استأجرتها قبل ثلاثة اشهر، ومن ثم سلمناك مبلغ خمسين الف جنيهه استرليني.

وعند هذا الحد من الحديث هتف بيتر فاست جازعاً.

- النقود! ناولني سترتي يا سيدي.. انني لا استحق العذر.. كان علي ان اذكر هذا المبلغ منذ اللحظة التي صحت فيها وتناول « ن.ن » المترة وناولها بيتر فاست فأخذها هذا وسارع الى البطانة فانزعها بحركة عصبية فسقطت منها على الفور دفعات من اوراق النقد الجديدة الاخاذة وراحت تنتشر فوق السجادة البديعة من صنع القيروان..

وقتم بيتر فاست:

- الحمد لله.. انها لم تسرق المال فيالها من امرأة عجيبة غريبة الاطوار.

رعاد « ن-ن » يقول:

- ولم تكن لنا اية ثقة في تلك المخلوقة ذات الشعر الاحمر المتوهج الذي يشبه، فيما يبدو، حمرة معتقداتها ومبادئها.. وقال بيتر مؤمنا على قول الرجل الخطير « ن-ن »:

- وانها لكذلك ياسيدي.. وبما اجمل شعرها الاحمر المتألق انها واللة لامرأة هائلة، وما أكثر ما تثير من فتنة واغراء..

واردف « ن-ن » يقول:

- ولاننا لم نكن نشق بها فقد حاصرنا تلك بالفيلا.. وكان معك انت جهاز الارسال والاستقبال معاً.. وقد انتظر رجالنا الذين احدثوا بالفيلا ساعة كاملة، ولما لم تصلهم انباء منك فقد اضطروا ان يتدخلوا فداهموا الفيلا.. والان قل لي ما حدث بالضبط.. عندئذ مر بيتر فاست بيده البديعة فوق عينيه ثم قال:

- استقبلتني أحسن استقبال، وكانت باهره الجمال، وقد انسدل على قدمي الاهيف فستان انيق عاري الصدر والذراعين من « الساتان » الذي.. فقاطعه « ن-ن »

- هذا لا يهمني فقال بيتر فاست:

- الحق معك يا سيدي.. ولقد دخلت هي في الموضوع مباشرة فسألتني باقتضاب: « كم ؟ » فقلت لها: ...ألف جنيه استرليني فانفجرت ضاحكة عندئذ وقال « ن-ن »

- اترها قد ضحكت حقاً ؟

اجل يا سيدي.. وقد انفرجت شفتاها عن اسنان لؤلؤية تتألق .. فقاطعه «
ن.ن » مرة اخرى وقال

- اختصر...

فقال بيتر فاست:

- قالت اريد مثني الف جنيه استرليني للعمل معكم مدة سنة واحدة فقط...
وهذا المبلغ، ايضا، ليس باهظاً كما قد تتوهمون

وعجب « ن.ن » وقال كالمبهوت:

- مثنا الف جنيه ؟

-5-

اجاب بيتر فاست على دهشة « ن.ن » واستهواله المبلغ الذي طلبته
« كاتيا ».

- اجل يا سيدي. لقد طلبت مثني الف جنيه لقاء عملها معنا لسنة واحدة
فقط على اعتبار انها جاسوسة مزدوجة تقدم خدماتها لنا وللآخرين ايضا.. وقال
« ن.ن » بعد ان عاد وقالك نفسه:

- وبعد ؟

- وبعد، فقد حضرت كأسين من « السكوتش » ببديها الاثنتين المندستين
في قفازين اسودين، وشربت هي اولا.. فلم احترس.. ولم اتوجس.. لقد شريت

كأسها غير ممزوج بالماء.. اجل بدون ماء او ثلج على الاطلاق.. اما انا فقد اضفت الماء أو الثلج الى كأسى.. ولا بد ان المختر الشديد كان في احدهما.. اعني في الماء والثلج.. فقال «ن.ن»

- كان في الماء ولا ريب

وفكر هنيهة، ثم اضاف قائلاً بلهجة صارمة:

- قلت لك دائماً ان لا تشرب الخمر ممزوجة ابداً.. ثم بعد ؟

- قالت لي قبل ان ابل شفتي من الكأس : طلبت منك ان تأتي الى هنا وحدك، يا بيتر فاست، ولكن رجالاً من دوائر كم يراقبون الان الفيلا ويحدقون بها.. ومع ذلك فانهم لن يظفروا بي كما تتوهمون.. وتقم «ن.ن»

- لقد صدقت تلك المرأة الداهية.. فاننا لم نظفر بها كما قالت.. وسيشق عليك العمل يا فتاي المسكين، لانه لا بد لك منذ اليوم ان تضاعف جهدك فتكون في غنى عن خدمات «كاتيا» ان العمل مع الجواسيس المزدوجين يخفى، دائماً اسراً المفاجآت..

بعد انقضاء خمسة ايام على هذه الحوادث كانت هذه المرأة الباهرة الجمال، الخلابه الملامح، موجودة في مكتب الرئيس الاعلى للمخابرات السرية الروسية، الذي يحتل في بلاده منصباً يماثل منصب «ن.ن» في انكلترا. وكان هو الآخر لا يحمل اسماً معروفاً، وانما كان الروس يسمونه «صاحب الرقم الاول». غير انه كان اصغر سناً من زميله الانكليزي وفي وسعه، بكل ارتياح، ان يتفق بضع ساعات مع «كاتيا» في خلوة تامة.. غير ان تلك المرأة الساحرة، الباهرة الحسن كانت من شدة الحفاظ على شرفها واحتشامها بلغت حداً هو اقرب الى الاساطير.. حتى انه ما من انسان يستطيع ان يزعم انه رآها ولو مرة واحدة

بلباس الاستحمام والسباحة في البحر، وحتى ثدياها الناهدان الراسخان فانهما لا
يبرزان لعين الرائي الا لأنها تحبك بأناقة وانسجام، اعلى فستانها حول صدرها،
وسألها رئيس الاستخبارات الروسية قائلاً :

- لماذا لم تأخذي منه مبلغ الخمسين الف جنيه استرليني . انه لما يبعث على
السرور والرضا ان يغتم الانسان مثل هذا المبلغ من الانكليز . وعلى الاخص في
مثل هذا الوقت الذي يبذلون فيه اعظم الجهد في سبيل ان يقتصدوا الكثير من
نفقاتهم..

- حدث انني سمعت حركة في الحديقة ساعتئذ

- ولماذا لم تقتلي هذا الـ « بيتر فاست » الذي ما اكثر ما ازعجنا ؟

- لم اقتله لانه جد مغرم بي !

- آه... يا سلام !

- مغرم جداً .. الى حد الوله والهيام

- وهل انت واثقة تماماً يا كاتيا !

- كل الثقة

- حسن . في هذه الحالة اذن...

- في هذه الحالة لن آتيك بخمسين الف جنيهني ولكن بمشتي الف..
وسترى..

- اذن ادع لك ان تقومي بلعبتك على النحو الذي تريدان يا كاتيا...

كان لا بد من انقضاء ثلاثة اشهر طوال لكي يوقن «ن.ن» ان «كاتيا» ماهرة حاذقة الى حد الاعجاب. حدث هذا ربما بعد اسبوع من انعقاد اجتماع غاية في السرية في احد منازل مدينة « شيلسي ». وكان المعنيون بهذا الاجتماع قد قدروا انه يستحيل ان يستطيع اي عدو او خصم اكتشاف هذا المنزل الذي لا يلفت الانظار بشكله، ولكنه مع ذلك هو مكان اجتماع ألمع الاذكيا في مخابرات بريطانيا السرية وهم لا يلجأون الى الاجتماع فيه غير مرة واحدة كل اربع سنوات.. اما في الاوقات الاخرى فانهم يعقدون اجتماعاتهم السرية هذه في مدن: ليفربول، ابردين، يا رموث الخ...

وفي اجتماع « شيلسي » هذا اتخذت قرارات خطيرة برئاسة «ن.ن» وكان بيتر فاست حاضرا، وقد ابتسم مرتاحاً عندما رأى تفاصيل الخطة الاقتصادية التي وضعت في هذا الاجتماع والتي من شأنها، اذا ما نجحت، ان تكلف الروس مبالغ جد باهظة، فتكون درساً مفيداً جداً لهم لن ينسوه ابد الدهر...

ولكن... يا للجنة!

ان تلك الخطة البارعة اخفقت اخفاقاً ذريعاً لان الروس كانوا على اطلاع تام على تلك الخطة، وقد انعكست الاية تماماً فكلفت الحكومة البريطانية نفسها مليونين من الجنيهات الاسترلينية ! كيف امكن ان تنكشف هذه الخطة وتسرّب تفاصيلها الى الخارج، وهي الخطة التي انبثقت عن تفكير «ن.ن» العميق ونبوغه الخارق ولم يعلم بها غير رجاله الخمسة المقربين؟

وقد جاءهم الجواب عندما قلبوا ذلك المنزل الصغير في « شيلسي » رأساً على عقب فوجدوا جدرانه جميعاً محشورة بالمسجلات الدقيقة الخفية.. وحتى لقد وجدوا قصاصة ورق صغيرة معلقة باحد هذه السجلات الخفية وقد كتبت عليها

بخط مائل بصورة غريبة هذه السطور المذهلة: « كان الافضل لكم لو انكم اعطيتموني ما كنت طلبته وهو مبلغ متني الف جنيه. اما الان فلن تستطيعوا ان تتجنبوا هذا النوع من المتاعب المرهقة التي اسببها لكم الا اذا دفعتم لي اربعمئة الف جنيه - كاتيا » وعندئذ كان لا بد من عقد اجتماع خطير على أعلى المستويات، وقد حضره عدد كبير من الوزراء فاحاطوا بـ «ن.ن» ولم يبدأوا الحديث والمداولة الا بعد ان جاء : امهر الخبراء ففحصوا كل شبر، بك كل غلطة في قاعة الاجتماع فحسباً دقيقاً جدياً.

وبدأ احدهم الحديث فقال: -

- يجب ان نصفي نهائيا هذه المرأة.. يجب ان نزيلها من طريقنا واقترح آخر فقال:

- ما علينا الا ان نوصل الى علم الرئيس الاعلى للمخابرات الروسية السرية وهو المعروف برقم واحد ان « جاسوسته » كاتيا هذه خائنة... قد عرضت ان تعمل معنا كجاسوسة مزدوجة... وهم سيقومون تجاهها بما يجب، ويريحوننا منها بالقضاء عليها وتصفيتها...

غير ان «ن.ن» أبدي اعتراضه فقال ان الروس اولا، لن يصدقونا، ولن يروا فيما ستعلمهم به غير مناورة خادعة مضللة وانتم تعلمون أنهم يعتقدون باننا لا نحجم عن اي عمل يخدم مصالحنا.. ليس لها غير رغبتين: ان تحصل على مبلغ الاربعمئة الف جنيه استرليني، ثم تفرح تفرل خيوط الحب والغرام مع بيتر فاست..

وقال احد الوزراء:

- انك تمزح ولا شك ياسيد «ن.ن» ان هذا الحب ليس اكثر من فخ منصوب.

واجاب «ن.ن» .

- ولكن بيتر فاست قال لي انه قرأ هيامها به في عينيها ، وانتم تعلمون ان هذا الشاب الخارق المواهب لا يخطئ ابداً...

-٧-

قال وزير آخر يسأل «ن.ن» : ماذا ترى اذن ؟

واجاب «ن.ن»

- ارى ان يعود بيتر فاست وهذه المرأة فيتصلا ، ولا بد لنا من ان نتبع لها الحصول على مبلغ الاربعمئة الف جنيه استرليني ، كما نتبع لها فرصة حب بيتر كما تريد ، هذا اللهم اذا كان هو لا مانع عنده . اجل . اني انصح بهذا كله علماً بانكم تدركون مبلغ حظري وتوجسي من الجواسيس المزدوجين...

كان دخان السجائر قد تكاثف في جو غرفة الاجتماع حتى اضحى لا يكاد احدهم يرى الاخر ، وعندئذ استطاعوا ان يقرروا اقتراح الرجل الرهيب « ن.ن ..ولكن ، مع ذلك ، فيالها من مبالغ جسيمة هذه الاربعمئة الف جنيه! ولا بد ان يكون المرء قد صار وزيراً مراراً لكي يستطيع ان يستخف بها ويسمح باعطائها لجاسوسة تعمل لحساب اكثر من دولة واحدة ، حتى لو كانت هذه الجاسوسة امرأة بارعة الجمال لماحة الذكاء! في الغداه ، استدعي بيتر الى مكتب « ن.ن » . ولم يكن هذا المكتب . كما قد يحسب البعض ، عش نسر يقوم في قمة ناطحة سحاب ، وانما هو يقع في قبه غائص في اعماق الارض بحيث تخشى الجرذان نفسها ان تهبط اليه .

دخل بيتر المكتب واخذ يستمع الى ما يقوله « ن.ن » ، وما استقر عليه الرأي في الاجتماع السري الاخير. وبعد ان فرغ « ن.ن » من كلامه، قال بيتر:

- هذا جميل جداً، اعني صعب جداً، واخف الى هذه الصعوبة ان علي، ايضاً، ان اعثر عليها. فين هي الان؟ اتراها في ستوكهولم. ام في مدريد، ام في سنغافورة، ام في بوينس ايرس؟ على اي حال سأترك لها رسالة في كل مكان... بعد مرور اسبوعين وصلت الى منزل بيتر فاست في لندن رسالة مؤرخة في روما، وكان قد مر بها لفترة قصيرة قبل بضعة ايام. وقد كان خط هذه الرسالة مائلاً، وراسخاً هو الاخر. وجاء فيها ما يلي:

« عزيزي بيتر: انا موافقة، وأنتظرك يوم ٢٤، اي بعد ثلاثة ايام، في تمام الساعة الثامنة مساءً سأكون على ظهر يخت في خليج نابولي في ايطاليا وستعرف اليخت من لونه الابيض كما ان اسمه مكتوب عليه وهو « سورانت » ولا يمكن ان تخطئ. وأكون وحدي على ظهر اليخت، وكنت واثقاً ان تكون وحدك انت ايضاً، اذا ما اردت ان لا يتحقق المثل القائل: « رؤية نابولي وبعد ذلك مرجحاً بالموت ». كن وحدك ومعك مبلغ الاربعمئة الف جنيه استرليني ولست اريدها اوراق نقد، بل بما يعادلها ويساويها من الماس الخام، وستشرب قدحين من الشمبانيا معاً، ولا شك في انك تعلم ان الشمبانيا لا تمزج بالماء. اقبلك وفي انتظارك: كاتيا ».

دبر « ن.ن » الحجارة الماسية المطلوبة بما يساوي اربعمئة الف جنيه استرليني، ثم ارسل تهيدة طويلة وسلمها الى بيتر فاست وقد بهرت الانتظار بتألقها العجيب. وقال له:

- وعلى اي حال فلن نكون بعيدين... سأذهب بنفسى الى نابولي ولا ريب في انك تحمل جهاز الارسال الذي زودتك به. فاذا مادعت الضرورة استعمل

الجهاز في استدعائنا ، هذا سيكون البخت محاطاً هنا وهناك بالزوارق الخفيفة التي تستعمل للنهر والمتعة..

وقال بيتر:

- موافق. ومنذ هذه اللحظة وزع رجالك في المراكز التي تريدها. ولكن يجب ان لا يتبعني احد على الاطلاق، اذ من يدري.. فرما كنت انا مراقباً... ربما اخذوا يراقبونني حتى في هذه الساعة نفسها...

-٨-

وصل بيتر فاست وحده الى نابولي، وفي اثناء النهار جعل يتأمل البخت الابيض البديع بمنظار مكبر جداً. ولكن شيئاً لم يتحرك على ظهره. ومن ثم ركب زورقاً من زوارق التجذيف اخذ يشق الماء به الى البخت المنشود. وقد شاهده « ن.ن » بعينه الاثنتين يصعد الى البخت، اذ كان متمدداً فوق الشاطئ. كما كان يفعل وهو شاب منذ أمد بعيد سعيد..

وكان البخت يبدو شعله من انوار باهرة كأنما يوشك من فيه ان يحتفلوا بمناسبة سعيدة غاية السعادة، غير ان مدخته كانت قائمة قتام مياه البحر التي اخذت تتحول الى اللون الاسود مع هبوط الليل.

وكان الوقت يمر، و « ن.ن » يشمل المشهد وكأنه امام عينيه، وتبقى في قرارة نفسه، ويكل تواضع وفرط حنين، لو انه الان مكان بيتر فاست... وشاهده بعين خياله وهو يخرج من جيبه كيساً صغيراً مليئاً بقطع الماس المتوهج... وخيل اليه انه يرى عيني كاتيا الساحرتين المتألفتين تألق الماس الذي يبههر النظر... ورأها تمد يدها بدلال الجمال الاخاذ وتتناول هاتيك القطع من الماس وقد تضوأ محياها بنور ابتسامة ساطعة... ثم ها هي تفتح ذراعيها البضتين لغريها

وحبيبها في آن واحد، ثم سرعان ما تتمازج تهديدات العاشقين الرائعين بهمسات البحر المشترك في مؤامرة غرامهما والتستر عليهما... وقد انتظر « ن.ن. » طويلاً، بل طويلاً جداً، وعلى حين غرة انتفض انتفاضة هائلة، ذلك ان صوت بيتر فاست انبعث فجأة من جهاز الاستقبال والارسال الذي يحمله « ن.ن. »، وكان صوت بيتر خافتاً، لاهثاً، قلقاً الى حد الموت! وقال الصوت :

- سيدي : لقد غدرت بي كاتيا. أخذت قطع الماس. وفي الوقت الذي خيل لي معه انني اوشك ان اتناول شفتيها بفضى استعداداً لقبلة حارة مستغرقة.. في هذه اللحظة المخرجة جاءني ضربة على راسي صعقتني.. ولما ثبت الى رشدي وجدت نفسي مقيد اليدين، موثق القدمين.. وكانت هي امامي وعلى شفتيها ابتسامة ساخرة حرقت قلبي كانها جمرة من نار.. وكان امامي كذلك جهاز الارسال فوق طاولة.. وسمعتها تقول لي: استدع رجالك يا حبيبي اذا شئت.. ولكن خبرهم ايضاً ان اليخت لن يلبث ان ينفجر متطايراً شظايا في الفضاء.. واليك فاسمع : وسمعت يا سيدي نابض القنبلة الموقته في داخلها : « تيك .. تاك » .. ومن ثم ذهبت كاتيا يا سيدي ، ذهبت ولا شك مع زمرة من الرجال الضفادع .. ابحت عنها، يا سيدي ، واقبض عليها وانتقم لي منها ولكن اتوصل اليك ان لا ترتكب حماقة المجيء الى هذا اليخت الذي هو، منذ هذه اللحظة ، لحد وقبر.. انني اسمع حركة القنبلة.. سينفجر اليخت بين لحظة واخرى.. وداعاً.

واستولى الذعر على « ن.ن. »... وراح ينظر الى البحر، ومرت دقيقة واحدة... وكان رجاله من حوله يسكرون انفسهم.. وعلى حين غرة حدث ما يشبه ان يكون وميض برق عظيم .. وبعد نصف ثانيه تأدى الى مسامع « ن.ن. » ورجاله صوت الانفجار ، ذلك ان اليخت « سوران » كان مرابطاً على مبعدة ١٦٥ متراً عن الشاطئ..

وقد تطاير اليخت متناثراً في الفضاء الف قطعة وشظية ملتهبه تساقطت

جميعها على صفحة البحر الصامت وكأنها آخر شرارات صواريخ الزينة والاعیاد...

وبعد انقضاء بضعة اسابيع كان بيتر فاست الرجل الخامس والعشرين الذي يمنح، بعد وفاته، الانشودة ذات اللونين الازرق والاحمر القاني لـ « وسام الاستحقاق ». وبعد انقضاء بضعة اسابيع كذلك كان شاب يكتب مذكراته وهو في دارة بديعة بمدينة « ريودي جنيرو » وهي مذكرات كتب عليها : « أن لا تنشر الا بعد وفاته ». وكان شو هذا الشاب ذا خصل سوداء ، وكانت عيناه زرقاوين شديدي الزرقه ، ويبدو عليه انه على جانب عظيم من الصراحة والبراعة ، وقد أطلق شاربين كئين أخفيا شكل فمه الرائع التكوين .: وكانت مذكراته مهداة الى : « ن-ن » ..

ونحن لو انحنينا قليلا فوق كتفي هذا الشاب لأمكننا ان نقرأ السطور الاخيرة من مخطوط مذكراته هذه « .. كنت قد وضعت مجلات امام جهاز الارسال في اليخت، وراح القسم الاكبر الذي لا تسجيل عليه من الشريط يدور ويدور في جو من الصمت المطلق . ونزلت انا وفرقة رجالي من ضفادع البحر الى الماء ، ثم سرعان ما انتقلت الى مطار نابولي ، عندما بدأت انت ، يا سيد « ن-ن » تسمع الجزء المسجل حقا من الشريط الذي سمعت منه ندائي الاخير اليك ، واخباري اياك بان القنبلة المؤقتة ستنفجر هي واليخت بعد دقيقتين اثنتين. وانت ترى ان كل شيء قد تم كما اردت انا بموجب توقيت دقيق .

اجل ان بيتر فاست ، والياسوسة الجميلة كانتا لم يكونا غير شخص واحد... ولقد كنت على حق يا سيدي . في تخوفك من الجواسيس المزدوجين ... اجل كنت على حق يا سيدي ... »

وفيما كان هذا الشاب الجميل الذي اتخذ لنفسه اسماً جديداً هو « بيدرو »

يصرف من حين الى آخر في اسواق ومحلات بيع المجوهرات في مدينة « ريودي
جنيرو » قطعة نادرة المثل من قطع الماس الوفيرة التي في حوزته ، كان « ن.ن »
الرئيس الاعلى لرجال الاستخبارات السرية البريطانية، وزميله الروسي « رقم ١ »
قد اطلقوا المشات من رجالهما في اعقاب الجاسوسة الحسناء « كاتيا » تلك
الجاسوسة الجميلة التي لا وجود لها الا في دنيا الخيال....

جبل الأفاعي

- ١ -

كنا جماعة من الاصدقاء ، وقد ذهبنا نستطلع أمر ذلك الرجل العجوز المتزهّد الذي جعل ، من سطح قبر كبير مخروطي الشكل تغطيه الاشجار ، مستقراً له وسط ذلك السهل الأفيع الممتد من مدينة « كان » حتى بلدة « نابول ».

وفي عودتنا جعلنا نتحدث عن اولئك الموحدين أنفسهم المتزهدين ، ولكن من غير المتدينين المتنسكين ، فما اعجب امرهم ! وما كان اكثرهم في الماضي ، غير ان هذا النوع من المنفردين بانفسهم في صوامعهم قد اخذ يقل في ايامنا حتى ليكاد يتلاشى . وكنا نبحث عن الاسباب النفسية التي تدفعهم الى هذا التزهّد ، ونجهد انفسنا في تحديد طبيعة الهموم والاحزان التي كانت تدفع باولئك الرجال الى الوحدة والانقطاع . فقال احد رفاقنا فجأة :

- لقد رأيت اثنين من اولئك المتقطعين : رجلاً وامرأة . ولا بد ان المرأة ما تزال على قيد الحياة . وقد كانت ، منذ خمس سنوات مضت ، تقيم بين الخرائب والاطلال في قمة جبل اجرد على سفح « سوريكا » يبعد نحواً من عشرين كيلومتراً عن العمار . كانت تعيش ، وكنت اذهب لرؤيتها . ولا شك في انها احدى سيدات المجتمع برفات ، وكانت ، كلما زرتها

تقابلني بادب ، بل بكثير من اللطف . غير انني لا اعرف عنها شيئاً . اما الرجل
فهو الذي سأروي لكم قصته .

اذا التفتم الان رأيتم هناك ذلك الجبل المستدق القمة والذي تكسوه الاشجار
فيما وراء بلدة « نابول » انه يجثم وحده هناك ، متقدما على قمم منطقة «
استيريل » ويطلق عليه سكان هذه النواحي اسم « جبل الافاعي » . هناك كان
يعيش الرجل المنقطع الذي احدثكم بقصته ، وقد اتخذ من جدران معبد صغير
قديم متهدم مأوى منذ اكثر من اثنتي عشرة سنة وقد اعتزمت ان اتعرف اليه بعد
ان سمعت الكثيرين يتحدثون عنه ، فامتطيت صهوة حصاني وانطلقت الى مدينة
« كان » في صباح يوم من ايام شهر آذار . وفي بلدة « نابول » تركت فرسي
ورحت اتوكل الجبل سائراً على قدمي ، وكانت تغطيها النباتات ذات الارباع ،
ووجدت مسالكه وعرة تكثر فيها الحجارة ، وسرعان ما تلمع العين الحنشان
الطويلة تناسب فوق الحصى ثم تختفي بين الاعشاب . ومن هنا كان اسم جبل
الافاعي الذي اطلق عليه بحق .

ولقد يبدو لك ، في بعض الايام ، ان هذه الزواحف انما تتوالد تحت قدميك
عندما تصعد المرتقى المواجه للشمس . وانها لمن الكثرة بحيث لا تطارحك قدماك
على السير فتشعر بالضيق والحيرة لا بدافع الخوف من هذه الحيات فانها لا تؤذي
. وانما يستولي عليك ذعر خفي غيبي لا تدري له كنهها . ولقد استشعرت اكثر
من مرة انني اجوس خلال جبل مقدس من جبال العصور الموهلة في القدم : جبل
عجيب ، معطر الارجاء مليء باسرار غيبية ، تعمه الافاعي والحيات ، ويتوجه
معبد قديم . وهذا المعبد لا يزال موجوداً الى اليوم ، او على الاقل قيل لي انه
ما يزال قائماً ، ولم احاول ان اعلم اكثر من هذا لثلا اقصد الصورة التي تكونت في
مخيلتي عنه .

رحت اتوقل الجبل اذن بحجة اني اريد ان اقنع ناظري برؤية ذلك المشهد
الفريد . ولما بلغت قمته شاهدت حقاً ان ثمة آثاراً واطلالاً ورجالجالسا على حجر
هناك . كان في الخامسة والاربعين من عمره لا اكثر ، على الرغم من ان شعر
رأسه كله كان أشيب ناصع البياض ، غير ان لحيته كانت لا تزال سوداء على وجه
التقريب وكان الرجل يرت بيده على ظهر قط متكور فوق ركبتيه ، ولا يبدو
عليه انه رآني لو اهتم بي . وقمت انا بجولة خلال الاطلال ، وكان قسم منها
مغطىً ومغطى باغصان الشجر والقش والاعشاب والحصى ، فادركت انه اتخذ
من هذا المكان سكناً له . ثم عدت أدراجي ماراً من ناحيته.

كان المنظر ، ثمة ، رائعا . فالى اليمين جبال « استيريل » ذات القمم
المستدقة ، ثم البحر ، من اسفل ، يمتد الى ما لا نهاية حتى يصل الى السواحل
الابطالية البعيدة . وتقوم قبالة مدينة « كان » جزر « ليران » الخضراء المنبسطة
فتبدو كأنها تطفو فوق الماء . وتقدم لك آخر جزيرة منها ، في عرض البحر ،
منظر قلعة ضخمة وذات ابراج مسننة قد ارسيت اسسها في اعماق المياه نفسها .
وهمت قائلاً :

- ما اجمل ما ارى !

فرقع الرجل رأسه وقال :

- شيء جميل ولا ريب . ولكنه يفقدو رتيباً مملاً اذ تظل تشاهده طيلة يومك
. واذن فهو يتكلم ، ويتحدث ، ويصيبه الملل هذا الرجل المنقطع . لقد اصبح في
قبضتي منذ الساعة ..

ولم اتلبث طويلاً في ذلك اليوم . وقد حاولت ، فقط ، ان اكتشف في
ملاححه آثار ابتعاده عن الناس وعن الحياة فبدا لي كأنه انسان قد تعب من

الاخرين وسئم كل شيء ، وزالت عن عينيه غشاوات الاوهام والضلال فكره نفسه
وكره كل شيء آخر.

غادرته بعد حديث معه استغرق نصف ساعة ، غير اني عدت بعد اسبوع ثم
بعد اسبوع آخر ، ثم جعلت ازوره كل اسبوع ، فلم ينقض شهران حتى غدونا
صديقين . في امسية من امسيات شهر أيار رأيت ان الوقت قد حان ، فأخذت
معي طعاماً وزاداً ونبيضاً على نية تناول طعام العشاء معه فوق جبل الافاعي .

ولقد كانت امسية من امسيات الجنوب التي تنفخ عطراً وطيباً من مغارس
الزهر المنتشر في تلك الناحية انتشار سنابل القمح في الشمال . وفي هذه المنطقة
من البلاد تصنع معظم العطور وأنفسها مما يعطر ابدان النساء وثيابهن ... كانت
من الامسيات التي تعقب بشذا البرتقال من مغارسه التي لا تحصى في الحدائق
والبساتين ومنحنيات الادوية ... انفاس مضمخة بالعطر تشيع في الاجسام نشوة
واضطراباً وتبتعث احلام الحب حتى في صدور الشيوخ الطاعنين في السن ...

وقد استقبلني الرجل المنقطع المتزهده بفرح ملحوظ ، ورحب بأن يشاركني
طعام العشاء.

وقدمت له شيشا من النبيذ الذي انقطع عن شربه منذ زمن طويل فانتعش
واخذ يتحدث عن ماضيه . ويدا لي انه قد عاش حياته كلها في باريس عيشة
الرجل الاعزب المرح . ووجهت اليه هذا السؤال بغتة :

- اية فكرة غريبة أتت بك لتقيم منقطعاً عن الدنيا فوق هذه القمة العالية

فاجاب على الفور :

- اواه : ما كان ذلك الا لأنني اصبت باقسى واشد هزة يمكن ان تزلزل كيان

انسان . ولكن لماذا تراني اخفي عنك حكاية هذه المأساة ؟ ربما رثيت لحالي لو حدثتك بها .. ثم .. انني لم احدث بها احداً قط .. على الاطلاق .. وشد ما اريد ، ولو مرة واحدة ، ان اعرف رأي رجل آخر فيها .. وكيف يكون حكمه عليها .. ولدت في باريس ، وقد ورثت عن ابوي بعض مال اتاح لي دخلاً دائماً ..

واستطعت الحصول على وظيفة متواضعة وهادئة بفضل مساعي من يهتمهم امري . وكان دخلي الخاص ومرتبتي من الوظيفة قد جعلاني شاباً غنياً بالنسبة لغير المتزوجين .

وكنْتُ ، منذ سن المراهقة ، قد عشت حياةً فتي اعزب ، وانت تدري ما هي ، كنت حراً ، طليقاً ، بلا اسرة ، وكنْتُ قد قررت ان لا اتخذ زوجة شرعية قط . وهكذا كنْتُ انفق ثلاثة اشهر مع احداً منهن ، وستة مع اخرى ، وستة كاملة بدون صديقة محتاراً ايهن اخذ واياهن ادع لمتعة ليلة عابرة بين حشد الفتيات المعروضات لاخذ وعطاء ..

كانت هذه الحياة المتذلة ، تلامني وترضي اهواني وما استقر في طباعتي من حب التنقل من هوى الى هوى ، ومن متعة الى اخرى . كنْتُ اعيش في صخب الميادين الكبيرة ، والمسارح ، والمقاهي ، خارج بيتي دائماً حتى لا يكاد يكون لي بيت . كنْتُ احد اولئك الالاف الذين يعيشون عانين في بحر الحياة والذين يرون في جدران باريس وكأنها جدران العالم جميعاً ، لا يهمهم شيء ولا يستأثر بقلوبهم عاطفة . كنْتُ مثال الشاب الاعزب الطيب بدون مزايا وبدون مسا .. وهذا كل شيء . وانني لآزن نفسي وزنها الصحيح .

ومنذ العشرين حتى الاربعين من عمري جرت حياتي بطيئة مرة وسريعة مرة دون ان يقع فيها حادث بارز .

وما اسرع ما تمر الاعوام الرتيبة المتشابهة في باريس فلا تترك في النفس ذكرى من هاتيك الذكريات التي تصبغ من معالم حياتنا وتاريخها . انها سنوات طويلة ، تقضي على عجل مبتذلة ، مرحة ، نشرب فيها ، ونأكل ، ونضحك ولا ندري لماذا تمتد شفاهنا نحو كل ما يذاق ، ونقبل دون اشتهاى اي شيء .. وقد تكون شابا او عجوزا ولكنك لا تفعل ما يفعله الآخرون فتظل دون ارتباط بشيء ، دون جذور ، ولا اصداقائك ، ولا اهل ، ولا زوجة ولا اولاد ..

بلغت الاربعين اذن برفق وسرعة .. ولكي احتفل بهذه الذكرى منحت نفسي وحدها - فقط - عشاء سخياً في مطعم فاخر ، ولقد عشت عيشة انفراد في الدنيا ، فرأيت ان احتفل بذكرى مولدي الاربعين منفردا كذلك .

وبعد العشاء ترددت فيما افعله . واحببت ان ادخل احد المصارح ، ثم خطر لي ان ارجع الى الحى اللاتيني حيث درست الحقوق فيما مضى ، فاجتزت باريس ودخلت دون سابق تفكير احدى هذه الحانات التي تقوم بالخدمة فيها قتيات حسان .

- ٢ -

كانت الفتاة التي قامت على خدمتي في الحانة صغيرة السن ، وجميلة ، ضاحكة الفم والاسارير . وطلبت لها شيئاً تشربه فرضيت على الفور . وقد جلست قبالي ، ونظرت الى بعينها المدرية وهي لا تدري اي رجل انا بين الرجال .. كانت شقراء ، بضرة لا يستعصي عليك ان تدرك انها ذات بدن وردي مكتنز يختفي وراء ثيابها .. وهمست في اذنها بكلمات حلوة معسولة مما يقال لهاتيك المغلوقات . ولما كانت رائعة ساحرة خطر لي فجأة أن آخذها واذهب بها .. مختتماً بذلك احتفالي ببلوغ الاربعين .. ولم اجد منها الا سهولة ومطاطعة ، فقد كانت حرة من اية علاقة منذ خمسة عشر يوماً .. وقبلت ان اذهب بها ، بعد

انتهاء عملها ، الى اسواق « الهال » حيث نتناول شيئاً ما مع طلوع الفجر .
ولقد خشيت ان تنفطت مني - فانت لا تدري ما يمكن ان يحدث في هذه الحانات
ومن قد يدخلها ، وما يمكن ان يهب في رأس امرأة - فبقيت في الحانة انتظرها
طيلة السهرة ...

وكننت انا ايضا ، اذ ذاك ، بدون امرأة ، وتساملت ، وانا اشاهد تلك
الصغيرة الحلوة السائرة في اول طريق الحب ، عما اذا لم يكن الافضل ان اتخذها
بعض الوقت لقاء مبلغ معين ، انني اروي لكم ، هنا ، احدى هذه المغامرات
اليومية من حياة الناس في باريس ، واغفروا لي ذكر هذه التفاصيل النابية ..
فان اولئك الذين لم يحبوا ذلك الحب الشعري انما يختارون النساء اختيارهم
قطعة من لحم في دكان اللحام ، دون اهتمام باي شيء آخر سوى نوع اللحم
وجودته ..

ذهبت بها ، اذن ، الى غرفتها التي تقيم فيها ، فأنا رجل يحترم فراشه
الخاص ... وكان مسكنها هذا مسكن عاملة فقيرة في الطابق الخامس ، غير انه
نظيف ومرتب ، فأمضيت ثمة ساعتين تمتعتين تبدت خلالهما تلك الصغيرة في
غاية اللطف والركة .

وفيما كنت اهم بالذهاب دلفت نحو مرقد النار لاضع على حافظته تلك الهدية
من نقود معلومة ... بعد ان تواعدنا على اللقاء مرة اخرى ، وكانت هي قد بقيت
في السرير .. وقد رأيت على حافة الموقد ساعة تحت كرة من زجاج ، ومزهرتين
وصورتين احدهما قديمة جداً ، وقد انحنيت ، دون قصد ، متفرساً في تلك
الصورة فذهلت اياماً ذهول وارتع علي فلم أفهم ... انها صورتي ... بل اول صورة
لي ... منذ كنت طالباً في الحى اللاتيني ... اختطفت الصورة اختطافاً لا تفحصها
عن كسب .. انها صورتي دون اي ريب .. واحسنت رغبة في الضحك لغرط ما
بدا لي الامر مضحكا وغير متوقع .. وسألتها .

- من عساه .. يكون .. هذا السيد ؟

فأجابت :

- انه ابي .. ابي الذي لم اعرفه .. وقد تركت لي امي صورته وأوصتني ان احتفظ بها فقد تنفغني ذات يوم .. وترددت قليلا .. ثم جعلت تضحك . وعادت تقول .

- ولكنني لا أدري فيما ستنفغني .. ولست اعتقد انه سيأتي لكي يتعرف علي . ودق قلبي بين ضلوعي بشدة وسرعة أشبه ما يكون عتفاً بجواد جامح .. وأعدت الصورة الملقاة على حافة الموقد ، ووضعت فوقها ، دون ان أدري ما افعله ، ورقتي نقد من فئة المئة فرنك كانتا في جيبي ، وادبرت وانا اقول صانعا . الى اللقاء .. » وسمعتها هي تحجب : « الى يوم الثلاثاء اذن .. » وهبطت السلم وانا اتحسس طريقي .. ولما صرت في الخارج كان المطر ينهمر ، فانطلقت واسع الخطى في احد الشوارع ... وجعلت اغذ السير مولهاً ، مستطار اللب ، محاولاً ان اذكر ! أهذا ممكن حقا ؟ اجل ، لقد تذكرت فجأة فتاة ما ، كانت قد كتبت الي تقول ، بعد نحو شهر من القطيعة بيننا ، انها قد حملت مني ... وقد مزقت او أحرقت تلك الرسالة ، ثم نسيت الامر كله ... وكان يجب ان ارى الصورة الاخرى على حافة موقد النار ، فهي ولا شك صورتها ... ولكن اتراني كنت سأعرفها ؟ انها صورة امرأة عجوز فيما بدا لي ..

وبلغت رصيف النهر وجلست على مقعد هناك ، وكان المطر لا ينفك ، ينهمر ، وكان اناس يمشون بين حين وآخر وقد بسطوا مظلاتهم فوق رؤوسهم وبدت لي الحياة دميعة ومشيرة وملبشة بالمآسي والمخازي ، والبأساء قصدا او بدون قصد ... ابنتي اذن؟ اترأها كانت ابنتي هذه التي احتوتها بين ذراعي؟ وباريس ، باريس الكبيرة ، المظلمة ، الجهماء ، المرحلة ، الكثيبة ، السوداء ، ببيوتها المغلقة ،

ملينة يمثل هذا ، ملينة بالفجور ، والسفاح . والرذيلة ، واستباحة المراء عرض بناته ... ؟ وتذكرت ما يقال عما يحدث تحت الجصور والقناطر من مزيقات .

وانا .. قد فعلت دون ارادة مني ، دون علم ، ما هو اشد نكرا مما يجترحه اولئك الاخساء الادياء .. دخلت فراش ابنتي ؟ كدت القي بنفسي في النهر .. كنت كمن اصابه مس من جنون ا وبقيت تائها مشرداً حتى طلع النهار ، ثم عدت الى مسكني لاديم النظر وافكر . وقمت عندئذ بما بدا لي انه الارشد والاكثر حكمة : فرجوت مسجلا للعقد ان يستدعي تلك الصغيرة ويسألها في اي الظروف سلمتها امها صورة الرجل الذي تحسب انه ابوها ، زاعما ان صديقا كلفني بهذه المهمة .

ونفذ مسجل العقود اوامري ، فعلت ان امرأة قد عينت والد ابنتها وهي على فراش موتها وامام كاهن ذكر له اسمه . وعندئذ ، وباسم ذلك الصديق المجهول ، تنازلت لتلك الفتاة عن نصف ثروتي ، اي نحو مئة واربعين الف فرنك ، ولكنها لا تستطيع ان تنال غير ربعها فقط . ثم استقلت من وظيفتي . وهأنذا الان ... لقد وجدت هذا الجبل اذ كنت اضرب في ارجاء الشاطيء ، فترقلته ، واقمت منقطعا في قمته ... ولكن الى متى ؟ لست ادري .. فما رأيك في ... وفيما فعلت له :

- لقد فعلت ما كان يجب ان تفعله .. وربما كان غيرك اقل اهتماماً بهذا المقدور البقيض ..

وعاد هو يقول : انا اعلم هذا . ولكنني كنت على وشك ان افقد صوابي .. ويبدو ان لي نفساً حساسة على غير علم مني .. انني الان اخشى بارس خشبه الاقنياء المؤمنين نار جهنم .. لقد تلقيت ضربة شديدة فوق قمة راسي . ضربة شبيهة بسقوط حجر على الرأس اذ يمر الانسان في شارع ما .. وانا اليوم احسن

حالا .. وغادرت ذلك الرجل المنقطع في صومعته ، وقد هزنتي حكايته هزاً ، ثم
عدت فرأيتـه مرتين آخرين ، ثم ارحلت لانني لا امكث في الجنوب بعد نهاية شهر
ايار ..

ولما عدت في السنة التالية لم اجد الرجل في جبل الافاعي ..

ثم لم اسمع من يتحدث عنه ..

بطل وفنى في شياى هاسوى

-١-

فى مستهل سنة ١٩٤٢ غادرت السواحل الهولندية سفينة شرعية تحمل عدداً من الهاربين الهولنديين . وعلى مسافة ٨ كيلو مترات من الشواطىء البريطانية أوقفت مدرعة انكليزية حربية هذه السفينة الشرعية وأجرت تحقيقا مع ركابها الفارين ثم ساقتها الى احدى الموانىء . وقد كان الركاب جميعاً من الشبان الهولنديين وعددهم اربعة عشر شخصاً، ومعظمهم قد ولدوا أو عاشوا فى البلاد التى كانت تعرف، اذ ذاك، باسم الهند الهولندية .

وبصفتهم لاجئين غرباء قد وصلوا الى انكلترا، كان لا بد بصورة آلية، من ارسالهم الى المركز الرئيس للمراقبة فى لندن، وهو المركز الذى عرف باسم « مدرسة الملكة فيكتوريا الوطنية فى واندسورث » وكنت انا قد اسسته بمساعدة احدى زملاء . على نية ان يجمع فيه جميع القادمين الغرباء لدراسة امورهم وفحصها جيداً .

وقد جرى استجواب الشبان الاربعة عشر منفصلين ولم اتردد فى تصديق حقيقة هربهم، كما شر حوها لى، من هولندا التى كان الالمان قد احتلوها .

لقد كانوا يريدون الانخراط فى الجيش لكى يشاركوا مشاركة فعالة فى

النضال ضد الالمان المكروهين .

وقد سنلوا، بالطبع ، عن الطريقة التي استطاعوا بها ان يهربوا . وقد روى جميعا القصة نفسها . وبدا من حديثهم ان خطة الهرب قد دبرها ونفذها شاب اسمه « بولهوف » وهو خلّاسي، اي من اب هولاندي كان يعيش في الهند الهولاندية ومن ام مالبيزية ..

وقد كان « بولهوف » هذا، فيما قاله اصدقاؤه، طالباً لما غزا الالمان هولاندا في سنة ١٩٤٠، وقد كان الالمان بحاجة الى شبان ذوي مقدرة وكفاية لكي ينهضوا بالاعباء الادارية المدنية في البلاد، ولذلك فقد عينوه في وظيفة بمكتب خدمات التمرين بـ « روتردام » فقبلها على الفور . وقد كان قد اتم الحادية والعشرين من عمره في ذلك الوقت .

ومن موظف صغير رفع، بعد مضي ثمانية عشر شهراً من العمل والنشاط، الى منصب مساعد مدير عملية التمرين جميعاً . وبهذه الصفة كان تحت امرته المباشرة اثنان وسبعون موظفاً كان معظمهم شيوخاً ويصلح كل منهم ان يكون أباً له .. ولقد كان واضحاً جداً انه اما ان يكون خارق الذكاء او.. وما كدت اصل الى هذا الحد من التفكير حتى اشتعلت في ذهني شرارة من نور احمر محذرة بالخطر ..

ولما انبأني صديق له كان قد اتصلت اسبابه به صلة وثيقة بانهما لما كانا في الهند الصينية فان بولهوف، وكان اذ ذاك في السابعة عشرة من عمره، تقدم لامتحان شهادة الدراسة الحقوقية في تلك البلاد، وبعبارة اخرى اصبح محامياً في وسعه ان يمارس عمله في الهند الصينية، لما انبأني صديقه بهذا كله ازداد اعجابي به وتقديري اياه .

ولما اضاف هذا الصديق نفسه ان بولهورف، وهو في السادسة عشرة من عمره، كان احد الذين انشأوا حركة الشبيبة الاشتراكية الوطنية في الهند الهولندية، ثم كان من قادتها ازددت اعجابا بمواهبه، الا اني لم انشرح لذلك لان تلك الحركة كانت توائم تماماً حركة الشبيبة النازية في المانيا، بل كانت ايدي النازيين انفسهم تساند الحركة المذكورة وتدعمها . وعندئذ ازداد توهج الشرارة الحمراء في ذهني في مزيد من الالحاح والانذار بالخطر.

-٢-

بعد ان جمعت مختلف قصص الشبان الاربعة عشر، اتضحت لي طريقة » بولهورف « في تدبير وتنظيم حركة فراهم .

وكان اول ما فعله انه اشترى سفينة شراعية مزودة بمحرك اضافي مساعد . ثم استغل منصبه الرسمي الكبير فاستطاع ان يزود المركب بالحروقات الراقية، ويغلاؤه بالمؤن والاطمعة وغير ذلك مما لا بد منه في الرحلة .

ولما حان الوقت لصعود الهارين الى ظهر السفينة الشراعية فان بولهورف لم يتكلف حتى ان يتم الامر خفية او يضمن عليه ضربا من الترميم الخادع .. فقد أتى ياولئك الاشخاص واحداً واحداً الى ظهر السفينة بصورة علنية، وفي وضع النهار، وقد اركبهم سيارة رسمية من سيارات مكتب التموين .. واذن فيولهورف اما انه كان يبدي بسالة منقطعة النظير، بعمله هذا، واما انه كان لا يهمه ان يلفت نظر الالمان اليه لسبب بسيط هو اتفاهه التام مع القستابو الالماني ..

ولكي نختصر قليلا هذه القصة الطويلة، يمكننا ان نقول، دون تلوؤ ان اربعة مراكب شراعية ملأى بالفارين الهولانديين ويتدبير من بولهورف استطاعت ان تبلغ الشواطئ البريطانية فيما بين صيف سنة ١٩٤٢ وشهر آذار سنة ١٩٤٤ . وكان

مجموع عدد الشبان الهولانديين الذين وصلوا الى انكلترا بهذا الاسلوب سبعة
وثمانين هارباً من الاحتلال النازي .

ولقد رووا جميعهم دون اي استثناء القصة نفسها وعلى افتراض ان بولهورف
كان حقاً عميلاً المانياً فان فيما دعا الى مزيد من العجب والدهشة ان التحقيق
اثبت ان اولئك الرجال جميعاً كانوا من غلاة الوطنيين المتحمسين ..

وقد اخبرني الشبان الذين وصلوا الى انكلترا في اخر رحلة هرب في مستهل
ربيع سنة ١٩٤٤ ان لهيروف نفسه سيكون في عداد القادمين على ظهر المركب
المقبل ..

وقالوا ايضا انه كان على عجل من امره لكي يأتي الى انكلترا ويتصل
مباشرة بدوائر المخابرات السرية ويعد هذا يعود الى هولندا لكي يواصل معركته
الفردية ضد الالمان ..

واعلموني كذلك انه خلال المرات الاربع التي وصلت فيها مراكب الهرب
سائلة من كل اذى الى انكلترا فان مركبين آخرين حاولا الفرار من هولندا الا
انهما اضطرا الى العودة من حيث ابعدا بسبب صعوبات قاهرة، وهذه هي الحوادث
الغريبة التي رافقت اولى هاتين المحاولتين الفاشلتين : كان بولهورف قد اعد
المركب اعداداً كاملاً بما في ذلك ما يلزمه من مؤن وطعام ومحروقات كالعادة،
وقد مهد له لكي ينطلق في رحلته في ليلة حالكة الظلام من نقطة هادئة في
الساحل الهولندي تقع بين « شفينجنج » و « هوك »

وقد كانت الليلة هادئة ساكنة، وكل شيء على احسن ما يرام . وبعد ابتداء
الرحلة بقليل اعترضت المحرك برادر خلل اثار القلق، ثم ما لبث ان تعطل تماماً
وعاد لا ينتفع به، وازداد سوء الحظ استشرأف فهبّت على المركب رياح جد عنيفة .

وقد قضوا ليلة ليلا، في مكافحة العاصفة، غير ان الرياح العاتية، لسوء الطالع، اعادت المركب الى مرفأ هوك الهولاندي ...

-٣-

قام المسؤولون عن المركب، وقد ايقنوا بسوء المصير، بسحبهم الى الرصيف وربطه هناك، ثم انحدر الشبان الهاربون الى البر وهم يتوقعون ان يلقي الالمان القبض عليهم بين لحظة واخرى . ولكن احداً على البر لم يرفع في وجوهم اصبعاً . ولم يصدقوا انهم قد نجوا فعلا فسرعان ما تفرقوا واختفوا وذهب كل الى بيته ..

انهم لم يسمعوا صوتاً واحداً يأمرهم بالوقوف، ولم يروا اشارة واحدة تدل على ان هناك من يريد اللقاء القبض عليهم بل اكثر من هذا فان كل الجنود الالمان الذين مروا بهم لم يلتفتوا اليهم ولم يكثرثوا بهم .

وكنت أنا لا استطيع اطلاقاً ان افترض ان السلطات الالمانية يمكن ان تكون مهمله متهاونة الى هذا الحد، او من الغباء بحيث تتساهل وتغض النظر عن اتخاذ احتياطات الامن البدائية في مثل هذه الحال . فبدا لي، اذن، ان بولهورف كان على اتفاق مع هاتيك السلطات وانه نظم تلك الرحلة بموافقة الالمان انفسهم .

وقد عزز وجهة نظري هذه ما رواه لي اللاجئون الجدد حول الرحلة الثانية الفاشلة، اذ ان بولهورف لم تشبط عزمته الرحلة الاولى التي اخفقت فأعد رحلة اخرى مماثلة بعد شهرين، غير ان السفينة لقيت ما لقيته زميلتها من سوء الجو والعواصف وهبوب الرياح فاضطرت ان تعود من حيث اقلعت .

وفي هذه المرة لم ينج الفارون بجلودهم كزملاتهم في المرة الاولى، فقد استطاع حرس الشواطئ، من الالمان ان يلقوا القبض عليهم جميعا وهم يوشكون

ان يغادروا مركبهم .

وقد عكف رجال الغستابو على استجوابهم، حتى ان الكثيرين منهم قد عذبوا ونكل بهم فباح احدهم تحت صنوف التعذيب والارهاب بكل شي، حتى باسم بولهورف نفسه بصفته مدير رحلة الهرب هذه .

وكان المنطق يدعو رجال الغستابو ان يقوموا بعمل واحد لا ثاني له وهو القاء القبض على بولهورف في الحال . الا ان شيئا من هذا لم يحدث، حتى ان الالمان لم يفتشوا مسكنه، واستمر بولهورف في عمله الرسمي بكل برود اعصاب كما واصل اعمال التهريب الخفية كما كان يفعل في السابق ..

ولم يكن في وسعي أنا الا ان اصل الى نتيجة منطقية واحدة تؤيدها قصة فشل الرحلة وهي ان بولهورف كان عميلا المانيا دون ادنى شك، وقد اعدت الرحلتان المذكورتان ودبر امرهما بالاتفاق الكلي مع الالمان .. هذه القصص جميعاً زادت من رغبتى وتلهفى ان التقى ببولهورف وارى اذا كان في استطاعة ان ينجر من شبكة البراهين المثبتة التي كنت قد انتويت ان احيطه بها فيشخاذل، ويضعف امام الادلة الناطقة . ويوح لي بانه بالفعل عميل الماني ...

ولما كنت واثقاً ان اليوم الذي سأراه فيه وجهاً لوجه غير بعيد، جعلت ارد ما نفذ من صبري في انتظار ذلك اليوم الموعود ...

-٤-

وقد حدث بالفعل، في اواخر ربيع سنة ١٩٤٤، ان سفينة صغيرة غادرت الساحل الهولاندي ليلا متجهة نحو الغرب وفي صباح اليوم التالي شاهدها بارجة من هوارج البحرية الملكية البريطانية فساقتها محروسة حتى احد الموانئ الانكليزية . وقد نزل الهارين الهولانديون - ومن بينهم بولهورف نفسه - وبعد

ان تناولوا الطعام واخذوا حظهم من راحة جيء بهم الى مركز « واندسورث » وهو المركز الذي انشأته انا وذكرته سابقاً واسمه « مدرسة فكتوريا الملكية الوطنية » وفي النهاية اخذ بولهورف الى مركز القيادة العامة للامن الهولاندي في بريطانيا والواقع في حكم الاجرامات الروتينية المعتادة . وهكذا فقد وضعت قضيته، رسمياً، بين يدي انا .

واذن ففي يوم بديع من اوائل ايام صيف سنة ١٩٤٤ اي قبل نزول قوات الحلفاء على شواطئ « نورماندي » الفرنسية ببضعة اسابيع، وجدت نفسي اقف وجهاً لوجه لأول مرة مع بولهورف . ولقد وجدتني، في الواقع، امام اخطر واصعب قضية تواجهني على الاطلاق في اثناء عملي في مقاومة التجسس وتطلب مني حلاً سريعاً وكشفاً عن الاسرار الكامنة وراء هذه الشخصية الهولاندية العجيبة .

وما ان وقعت عيني عليه حتى وجدت فيه حقاً ملامح الهولاندي الخلاصي الذي اختلطت فيه الدماء الاروية بالدماء الشرقية، كانت معارف وجهه اوروبية بلا ريب، غير ان له عينين سوداوين براقيتين وبشرة سمراء بما ورثه عن امه المليزية . وكانت قدماه وبداه صغيرة دقيقة، وكانت له قامة قصيرة دون متوسط القامات، وكان نحيلاً ساطع الاسنان .

ومن المعلومات التي كانت في حوزتي فيما يتعلق بمهنته كنت اعلم مسبقاً انه ذو ذكاء لمّاح، غير انني لم اكن اتوقع ان اجد فيه هذه البقطة العظيمة التي تنبعث من شخصيته بقوة باهرة وتشي بها عيناه اليراقتان المتوقدتان نباهة وألمعية وشرعت احادثه فقلت له :

- يا سيد بولهورف . لقد فحصت جميع اقوالك، ويبدو لي كل شيء فيها، على وجه التقريب، واضحاً بسهولة، ومع ذلك فشمة بعض نقاط تظل غير مفهومة وكأنه لا تفسير لها .

وقد رأيت ان اوجه اليك اسئلة ارغب في ان تجيب عنها بصورة مرضية اذا استطعت، فقال وهو يعنني رأسه احتراماً

- اتفقنا اذن . منذ بضع سنوات فقط كنت احد رؤساء حركة الشبيبة الوطنية الاشتراكية، او قل انك كنت رئيسها الوحيد في الهند الهولندية . ومع ذلك تزعم انك كنت دائماً شاباً هولاندياً وطنياً متحمساً لوطنيته . فكيف تفسر التناقض البين الواضح بين هاتين الظاهرتين المتناقضتين حقاً ؟

فقال يجيبني :

- ان هذا سهل، يا سيدي، فلم اكن غير فتى صغير في تلك الفترة التي انضمت فيها الى حركة الشبيبة الوطنية الاشتراكية الموالية للحركة النازية الهتلرية . وكنت اعتقد ان الامر لا يعدو ان يكون حزبا وطنياً خالصاً . ولا تنسى يا سيدي ان آلافاً من الهولنديين الآخرين الذين لا يشك في وطنيتهم قد فعلوا مثلي، ولم يكتشفوا خطأهم الا فيما بعد . وبعد ان مضى وقت ما على انضمامي الى حركة الشبيبة المذكورة بدأت اتوجس منها واستررب فيها . وعندما اجتاحت الالمان البلاد الهولندية في هذه الحرب ادركت حقاً انهم اوغاد

- وهذا سبب من الاسباب التي دعنتني الى الاندفاع في تنظيم حركة تهريب الشبان الهولنديين عبر الساحل الهولندي الى انكلترا . وقد كان هذا مني انتقاماً من خداع النازيين وبهتانهم وكذبهم .

والحق ان جوابه هذا كان مقنعاً، ويمكن ان يكون صحيحاً وحقيقاً .

وقلت له :

- هذا حسن . واليك الان السؤال الثاني .

وجهت الى بولهورف السؤال الثاني فقلت :

- انت لا تزال شاباً في ريق الشباب ولست في نظر النازيين واحداً من ابنا الجنس « الآري » الذي يزهون به . بدليل ان والدتك مليزية ، وبدليل سحتك ولون بشرتك وعينيك .. ومع ذلك ما كدت تعمل موظفا صغيرا في وزارة التموين ، في مدينة روتردام ، حتى رفعت من وظيفتك الصغيرة الى منصب مساعد مدير ، وذلك في مدة لا تتجاوز الثمانية عشر شهراً ، فكيف تفسر لي هذا الامر الغريب ؟

فراح يجيبني دون ان يتردد لحظة واحدة :

- وهذا ايضا ، يا سيدي ، بسيط جداً فانا اولا وفيما اعتقد ، دون زهو او مباهاة ، املك قدرة خاصة في اعمال التنظيم الاداري . غير انني ادرك جيداً انه كان لي ان اتقدم هكذا سريعا دون مساعدة احدهم واشير الى اسمه بحرفي « م.ل. » الذي كان مشرفا على اعمال الادارة . وقد كان يعلم انني أمقت النازيين مقتنه اياهم ، وكان كذلك ، على اطلاع بما اقوم به من تنظيم حركة تهريب الهولنديين الى بريطانيا . ولهذا السبب قفز بي من فوق رؤوس زملائي في العمل الى منصب مساعد مدير ، وقد كان اكبر دافع له الى هذا انه كان يدرك انني ازددت نفوذاً كلما كان أسهل علي ان اساعد الهاريين الى انكسرتا .

وفي هذه المرة ايضا كان جوابه معقولا ومقنعاً تماماً . وقد زادني اقتناعا معرفتي ، من خلال الاضمارات السرية الرسمية التي في حوزتي ، ان ما قاله بشأن المدعو « م.ل. » كان صحيحاً كل الصحة .

وقلت له :

- حسن جداً . اننا على وفاق في هذا ايضاً الان . ونأتي الان الى السؤال الثالث : لقد قمت بتهريب سبعة وثمانين شخصاً . والمفروض ان الذي ينقذ حياة انسان ما ، فان هذا الانسان يظل مديناً له بالشكر وعرقان الجميل . ومع ذلك فان اكثر اولئك الشبان الذين انقذت حياتهم مدينين لك شخصياً صرحوا لي بأنهم لا يحبونك . فكيف يسعك ان تقدم لي تفسيراً لهذا ؟

فايتسم بولهوف من جديد ، غير ان ابتسامته دلت على انه حزين اسيف ، وقال :

- كنت احسب ، يا سيدي ، انك انت بما تعرفه عن الطبيعة البشرية كنت تستطيع ان تحجب عن هذا السؤال بسهولة . أليس من المعروف المتداول ان الانسان يجب ان يتقي شر من احس اليه؟ وبالإضافة الى هذا فاني اعلم تماماً انني كنت ، احياناً ، اظهر بعض العنف في عمليات التهريب مما احفظ قلوب اولئك الشبان وجعلهم يحقدون علي . وهذا العنف صفة من طباعي لا يسعني التخلص منها .

ومرة اخرى استطاع هذا الفتى الذكي ان يزيل بقوة عارضته وتوقد ذهنه ان يجلو ما في سؤالي من معانٍ ضمنية .. غير انني كنت مضطراً ان اعترف بان برهانه كان متاسكاً ، ومقبولاً وقلت له :

- اسلم معك جدلاً ، هذه المرة ايضاً ، وليس ما يمنع ان اقبل جوابك . والان فاليك سؤالي الرابع :

-٦-

وجهت الى بولهوف سؤالي الرابع فقلت :

- لقد اتضح لك دائما ان عملك السري في تهريب الشبان الهولنديين الى انكلترا لا بد انه يتعرض الى اخطار جسيمة . فلماذا ، بالله ، كنت تضيف الى هذا مجازفة اخرى غير مجددة وذلك بتجولك في سيارة مكشوفة في شوارع روتردام ومعك الاشخاص الذين كنت تستعد لترحيلهم او تهريبهم ؟ وفوق هذا كله فان السيارة التي كنت تتجول فيها سيارة المانية رسمية

غير ان سؤالي لم يريكه ، ولم يضايقه فقال:

- هل تعتبر هذا حقاً مجازفة كبيرة يا سيدي ؟ اما انا فقد كنت أرى دائما انك ، في بلد محتل ، تكون أقل اجتذابا للاتباء والاهتمام اذا عملت بصورة مكشوفة . وهل تذكر ، يا سيدي ، قصة الاديب الشهير « ادغار يو » المعنونة باسم « الرسالة المسروقة » ؟ في هذه القصة يقوم رجال التحري ، في سبيل العثور على تلك الرسالة الخطيرة ، بالبحث عنها عيشاً في كل ركن وزاوية ، بل هم قد بحثوا عنها طي الجدران ، وفي ثنايا الاثاث ، وفي كل ما يخطر ولا يخطر على البال من المخابى .. وفي اثناء بحثهم الجاد المرهق كانت الرسالة الخطيرة الشمينية موضوعة تحت انوفهم ، وعيونهم وفي تناول ايديهم .. كانت قريبة منهم ، تشير الى نفسها في اوضح مكان ، حتى ما خطر لهم على الاطلاق ان يبحثوا عنها في هذا المكان القريب ، الواضح ، الظاهر .. لانه لم يدر لهم في بال ان رسالة لها مثل هذه الخطورة يمكن ان توضع ، او تخفى في مثل هذا المكان القريب ، والموضع الظاهر للعيون .. وانا ، يا سيدي ، قد عملت وفقا لهذا المبدأ . كان عملي اشبه ما يكون بالمزايدة العلنية .. وما كان جندي الماني واحد ليجرؤ ان يفترض او يظن ان في الامكان استعمال سيارة رسمية ، في وضع النهار ، في سبيل مساعدة الشبان الهولنديين على الهرب والى بريطانيا .. واحسست ، حيال هذا الشاب الالمعي ، كأنني اقبض ، عيشاً ، على حية البحر التي سرعان ما تنزلق متفلقة من بين يديك .. وانتقلت الى السؤال الخامس راغماً . ويحسن ، اولاً ، ان اقدم بعض

ستوكل اليك في المستقبل . وفي نهاية هذه المدة ستتيح لك ان تهبط بالمظلة في هولندا . ولكن الناس لا يلبثون، على الفور ان يعرفوك في شوارع روتر دام، وسيدركون انك كنت متغيبا مدة طويلة... وسيصر الالمان على ان يعرفوا لماذا منحت نفسك، فجأة، اجازة مدتها ثلاثة اشهر دون اذن، ثم عدت بهذه الصورة الخفية المدهشة . قل الم يخطر لك ابدا انك ستجد نفسك في مثل هذا الموقف المحرج ؟ فاجابني بوليف قائلاً

- ان هذا لن يكون معقداً الى الدرجة التي تتصورها يا سيدي، واني لأحسب اولاً ان العملاء السريين يتم انزالهم بانضلة الواقية ليلاً . اليس كذلك؟ فهزئت رأسي موافقاً ثم واصل هو كلامه:

- اذا ما هبطت ليلاً هناك فسيكون امامي متسع من الوقت لكي اذهب الى بيت احد اعضاء منظمتي السرية . وعندما الؤذ بهذا البيت واستقر فيه فاني انوي ان لا اغادره الا ليلاً، واظل مختبئاً فيه نهائراً . وان لي عدداً من الاعوان الذين يقومون بمقامي وهم رجال شجعان وذوو فعالية ويمكن الاعتماد عليهم تماماً . وهم، بهذه الصفات، سيعرفون كيف يأخذون على انفسهم ان ينفذوا التعليمات التي تكون السلطات البريطانية قد زودتني بها . وانا استطيع، من مخبئي هذا، ان اوصل اليهم التوجيهات اللازمة، فهل ترى، يا سيدي، في قلبي هذا ما يصلح ان يكون جواباً على سؤالك؟ لزمّت الصمت هنيهة، الا انني كنت مرغماً، فيما بيني وبين نفسي، ان اعترف انه في الواقع جواب محكم . غير انني كنت قد ادخرت الالهم والاشد وطأة من الاسئلة الى النهاية، فقلت اسأله:

- حتى الان كانت اجوبتك حسنة، وقد استطعت ان تواجهني بكلام ارضائي . ولكنني سأعجب كيف تستطيع ان تفسر المشكلة التالية: لقد علمت من مصادر مختلفة، وقبل نحو ستة شهور من وصولك الى انكلترا، ان احد مراكب تهريب

الشبان الهولنديين بعد ان اعدده وزودته بما يلزم لم يصل الى انكلترا ، ذلك ان الرياح الشديدة اعادته الى الساحل الهولندي ، وفي الغداة ، حوالي الساعة العاشرة صباحاً

- اي في رابعة النهار - القى ذلك المركب مرساته في مرفأ « هوك » .. فانت ترى الصورة كاملة: الركاب يهبطون بهدوء ، وكل منهم يعود الى بيته من طرق واتجاهات مختلفة ، ومع ذلك لا يلاحظهم احد ، ولا يوجه اليهم اي موظف في الميناء سؤالا ما .. انتي لاعجب حقاً كيف يسعك ان تفسر لي هذا الامر؟ .. ثم قال :- لست اجد انا نفسي تفسيراً لهذا .

ان هذه القصة كلها غامضة وغير مفهومة . ان المعقول والبدهي كما لاحظت انت ان يكون اولئك الاشخاص الذين عاد بهم المركب بقوة الرياح قد ألقى عليهم القبض في اللحظة التي وطئت فيها اقدامهم الارض .. اجل .. لا استطيع ان اجد لهذا تفسيراً وجبذا لو امكنتنى ذلك .. وكل ما استطيع ان اقله هو ان الحقيقة احيانا اعظم وابعث على الدهشة من الخيال .

وقلت انا له :

- ربما كانت هذه الحيرة هي التفسير الصحيح .. وربما كان التفسير الاصح ان الالمان كانوا على علم بالامر ، لانك انت قد اطلعتهم ، في الليلة السابقة ، على ابحار المركب ، وربما فكروا ان الافضل ان يتركوا المركب ، يذهب دون اعتراض لان ركاياه اصدقاؤك ومن اعوانك انت صديق الالمان وعميلهم .. اليس هذا ممكناً؟

- ٨ -

ابتسم بولهورف بمنتهى الهدوء وقال :

- هذا ممكن جداً لو كنت انا فعلاً احد عملاء الالمان كما تتصور . ولكنني كما قلت لك سابقاً انا لست عميلاً ولاولئك المختازير ، ولن اكون . وانت حر ان تصدقني او ان لاتصدق، غير انني لا استطيع الا ان اقول الحقيقة . فقاطعته قائلاً:

- ولقد تكون الحقيقة، في اكثر الاحيان، اغرب من الخيال .. يبدو لي انني سمعت مثل هذا الكلام في مكان ما .. حسن فلتحدث، بعض الوقت ايضاً، عن عمليات التهريب هذه في السفن والمراكب ... فانها تستثير فضولي اكثر فأكثر : بعد مرور شهرين على حادث المركب الذي ذكرناه الان بصورته الغربية، قمت انت بتنظيم رحلة تهريب أخرى ماثلة . وحدث لهذا المركب ما حدث لسابقه فهبت الرياح، وتعطل المحرك، وعاد المركب من حيث اتى . غير ان الركاب، في هذه المرة . لم يستطيعوا ان يعودوا بهدوء الى منازلهم، فقد شاهدهم الالمان والقوا عليهم القبض فوراً . وزيادة على ذلك علمنا ان احدهم قد ذكر اسمك باعتبارك منظم رحلة تهريب الشبان الهولانديين هذه، وحتى انه أعطى الالمان عنوانك الشخصي . ولكنك فيما يدل شاهد الحال، مزود بالطلاسم والحجب التي تدرأ عنك السوء .. ذلك ان رجال « الفستابر » لم يلقوا عليك القبض في الحال وحسب، بل انهم لم يقوموا حتى بأي تحقيق حولك .. فلماذا؟ انه سؤال اوجهه اليك انت .. ولم يبد على بولهور انه اضرب اطلاقاً، بل راح يجيب قائلاً:

- ومرة أخرى اقول ان هذا من المعميات حقاً . ولا تفسير له الا انهم آثروا ان يضعوني تحت المراقبة لكي يستدروني في نهاية الامر الى ان اقود خطاهم الى شخصيات اخطر شأناً ترغب في الهرب من هولندا .. او ربما كانوا لم يتأكدوا بعد، او لم يدر لهم في بال انني اعمل وحدي، فسكروا انني، حين لا يوقظون توجسي . ربما كشفت لهم عن وجود شبكة تجسس واسعة النطاق تعمل في السر وطبي الكتمان .

وعندئذ قلت له :

- صحيح . ان هذا تفسير منطقي . ولكن ما دمنا نتحدث في المنطق فلو ان
الامان راقبوك مراقبة جدية حقاً لاكتشفوا انك، بعد بضعة اشهر، اعددت رحلة
تهريب جديدة كنت انت نفسك احد اشخاصها الهاربين الى انكلترا ويقضي
المنطق، في هذه الحال، ان يلقوا القبض عليك قبل الرحيل، ومع ذلك فهذا انت
معي الان، وفي ارض بريطانية ... والنتيجة الوحيدة التي يمكن استخلاصها هي
: انهم لم يكونوا يراقبوك على الاطلاق وقد استمر استجوابي الثاني
لبلهوف هكذا اياماً متتامة، وكنت اعود دون كلل او ملل الى تلك الاسئلة
الثلاثة التي لا اجوبة مقنعة لها . اجل لقد كانت هكذا دون ريب على الاطلاق اذا
ما استبعدنا الفرضية التي قلتي نفسها املاء وهي : ان بولهوف كان على اتفاق
مع الامان ..

وفي النهاية اضطررت الى ايقاف الاستجواب وقلت له انني سأعلمه بما يتم
بشأنه قريباً .

-٩-

ان دراسة ملف بولهوف اتعبتني، واقلقتني، وجعلتني انفق الليالي البيضاء
في النظر فيها، كنت على اتم الاستعداد لقبول اجوبته واعتبارها مرضية تماماً عن
اسئلتني الثلاثة الاولى التي وجهتها اليه في مستهل الاستجواب غير انه لم يقدم
لي اي تفسير مقنع واي جواب مقبول عن الاسئلة الاخيرة ...

ومع ذلك لو افترضنا انه كان يعمل لحساب العدو، فان الامان يكونون قد
اضاعوا وقتاً ثميناً جداً في الانتفاع بخدماته .. فقد انقضى اكثر من سنتين منذ
ان وصل الى انكلترا اول مركب اعده هو لتهريب الشبان الهولانديين، ثم تبع ذلك

خسة مراكز أخرى استطاعت ان تهرب ما مجموعه سبعة وثمانون لاجئاً..

وزيادة على ذلك الفريق الذي وصل مؤخراً وكان هو نفسه من بين اشخاصه الهارين .. وما كان للالمان ان يفترضوا قط ان الحرب ستستمر حتى سنة ١٩٤٤ واذن وينتجـة هذا كله فقد استفادوا من حركة هذه المنظمة التي كان يرأسها بولهوف مدة طويلة قبل تاريخ التهريب هذا .. غير انه لم يـقم اي دليل بل لم نـقع على اية علاقة او اشارة مقنعة تنبيء بان تواطؤ ما قد حدث في تنظيم عملية التهريب التي كان يجري باشراف بولهوف..

واضف الى هذا لو ان بولهوف كان عميلاً للالمان لكانوا اذكي من ان يجهلوا ان دوائر مقاومة التجسس عندنا سيتولاهـا العجب ان لا يكونوا قد ازعجوه اي إزعاج مهما يكن يسيرا عندما وشى به صديقه الذي وشى به، تحت العذاب، وذكر لهم اسمه وعنوانه باعتباره المشرف على حركة التهريب يوم القى الالمان القبض على ركاب المركب الثاني الذي اعادته الرياح الى الساحل الهولاندي، وكان الالمان، على الاقل، لكي يتستروا ويصرفوا الشبهات عن انفسهم، تظاهروا باللقاء القبض عليه واستجوابه، بل لكانوا، دون اي ريب، وقد دبروا امر هربه هو نفسه على نحو يوقع في الاوهام، لدى وصله الى انكلترا، انه انما استطاع النجاة بنفسه من تعذيبهم واضطهادهم . فتكون مشويته ، بهذا، مضاعفة، واجره مزدوجاً لانه ، اولاً قد خاطر بنفسه بتنظيم حركة تهريب الشبان الهولانديين، ولانه، ثانياً، استطاع ان يفلت هو نفسه من مخالف الفستابو الرهيب ..

لقد كان شعوري الشخصي يؤكد منطق هذا الافتراض نفسه .

والواقع كان شعوري يحدثني بأن بولهوف بريء . فان شيئاً ما في موقفه في نوع ثقته الهادئة بنفسه، قد انتهى باقتناعي ببرائه . وكما قلت سابقاً فقد كان

بولهوف اكثر واحد ذكاء والمعينة بين جميع الذين قدر لي ان التقى بهم من الشبان، ولقد قلت لنفسي لو ان هذا الفتى الموهوب والذي له مثل هذه الصفات الفائقة من الذكاء البارع كان عميلاً المانياً، لتحوط من ان يورط قصته ويفسد حقيقتها بمثل تلك الشغرات الفاضحة التي ظهرت في اجوبته الاخيرة . بل ان عجزه في الجواب عن تلك الاسئلة والادلاء بالتفسير المقنع المرضي لها قد ساعد، اذن على اظهار براءته في نظري .

وجلس الى مكتبي، ورحت اكتب تقريرى بشأن بولهوف الى وزير العدل . قد ذكرت جميع التفاصيل المتعلقة بهذه القضية، وقدمت تلخيصاً مركزاً ضمنته جميع النقاط التي تقف الى صالح بولهوف لتعزيز براءته .

وكما قد توقعت فقد قيل الوزير وجهة نظري، فاطلق سراح بولهوف، وعين في وظيفة ادارية فعالة . ولكن، وفي شهر نيسان سنة ١٩٤٥ وقع ما لم يخطر على بال ..

- ١٠ -

في شهر نيسان سنة ١٩٤٥ . اي بعد نحو تسعة أشهر استقرت قيادتي العامة في المدينة الهولندية « بريدا »، وكانت الجيوش الالمانية قد دحرت، وجعلت فلولها تهرب نحو الغرب .

وكان النازيون قد اقاموا في المدينة المجاورة « آنشينه »، حتى اواخر ايامهم فيها، احد اجهزتهم لمقاومة التجسس وقد اطلقوا عليه هذا الاسم: « الجهاز السري رقم ٣٠٦ » وكنت انا، بالطبع، تواقاً ان اكون اول من يدرس اساليبهم الخاصة بمكافحة التجسس، والمعلومات التي كانت في حوزتهم . فأصدرت اوامري، اذن، ان تقدم الي في الحال جميع الوثائق الموجودة في مكاتب

ذلك الجهاز .

وقد امضيت ساعات وانا مكب على تلك الاوراق والوثائق والملفات
اتفحصها ، وادرس محتوياتها . وذات يوم ، وفيما كنت القي نظرتي سريعة على
احدى الاوراق المكتوبة على الآلة الكاتبة في اسطر ملزوزة ووقعت عيني على
اسمي انا فدهشت إما دهشة وجعلت اقرأ : «الميجر او . بنتو ، المعروف في الشفرة
السرية باسم «فرانك جاكسون» فبلغ من دهشتي اني وثبت من مكاني ويدي
ثابتة في منتصف الطريق لا هي تتحرك لتصل الي شفتي من شدة المفاجأة ، ثم
عدت فجلست ورحت اقرأ تلك الوثيقة من اولها بمنتهى الانتباه .

وقد كان عنوانها «الاعتراف الكامل للعميل المعروف في الشفرة السرية
باسم بوبي واسمه الحقيقي انطون بولهوف . ولقد ادلى بهذه الاعترافات يوم ٢٢
اذار سنة ١٩٤٥ في مدينة اولرورم .

كان هذا صدمة كبيرة لي وكنت قد غادرت لندن بعد ان اصدرت اوامري ان
لا يسمح لبولهوف بالخروج من انكلترا قبل نهاية الحرب ... غير انه استطاع ان
يجد الوسيلة لمفادرة لندن والذهاب الى هولندا حيث القى الالمان القبض عليه
فاعترف لهم اعترافا كاملاً بكل شيء بما في ذلك اسمي انا ... فيا لها من قراءة
شائقة في هذه الوثيقة المفاجئة

والواقع ان قراءة الوثيقة كانت شائقة حقاً ... وقد بدأ اعتراف بولهوف فيها
بأن اثنين من العملاء الاميركان السريين التابعين لما يسمى «جهاز التجسس لما
وراء البحار» قد اتصلا به في خلال صيف سنة ١٩٤٤ وطلبا منه ان ينخرط في
الجهاز المذكور .

ويؤكد اعتراف بولهوف انه كان الهولندي الاول الذي سمح له بان ينضم الى

جهاز التجسس الاميركي، ولم يسمح لهذا، من قبل، الا للفرنسيين، البلجيكيين والاميركيين المنحدرين من اصل الماني ليعملوا في التجسس في القارة الاوروبية.

وجاء في الاعتراف ان المهمة التي أسند بها اليه هي ان يهبط بالمظلة الواقية شمال هولندا حيث يقوم فوراً بتنظيم شبكة تجسس. وكان عليه ان يتصل بموظفين موالين في وزارة الزراعة ومصايد هناك ويجتذب من بينهم عملاء لشبكة التجسس المذكورة.

- ١١ -

تروي اعترافات بولهورف، بعد هذا، انه التي به، بالمظلة الواقية، يوم ١٠ تشرين الثاني سنة ١٩٤٤ في مقاطعة «غروننغ» الهولندية. وقد انهلك، في الحال، بتنظيم شبكة التجسس المتفق عليها، وتم له كل شيء. على احسن وجه.... وبعد مضي ثلاثة اشهر بالضبط قام رجال الغستابو بفارة مفاجئة على احد مخابىء شبكة التجسس التي يديرها بولهورف في المدينة التي تحمل اسم المقاطعة نفسها وقد اهدى رجال الغستابو الى هذا المخبأ في ضوء معلومات قدمها لهم احد الخونة من الشبكة نفسها... وقد مر على سجن بولهورف اسابيع كثيرة، وفي النهاية جرى استجوابه امام قائد الامن المحلي الالماني، وامام جهاز امن هولندا المحتلة وذلك بموجب لائحة اتهام رسمية مسهبة.

وفي ٢٢ آذار سنة ١٩٤٥ قدم قائد الامن المحلي نسخة من اعترافات بولهورف الى الميجر «فون فيلدمن» رئيس الجهاز السري الالماني رقم ٣٠٦ لمكافحة التجسس في مدينة «آنشيندة». وكانت هذه النسخة هي التي بين يدي... .

واستمرت اعترافات بولهورف تروي كل شيء، وتذكر جميع المعلومات التي ادلى بها في خلال استجوابه، اي القصة المفصلة لوصوله الى انكلترا، ووصف

اساليب المراقبة التي احيط بها، دون ان ينسى بالطبع ذكر دوره في هذه القصة كلها... .

وكان هذه المعلومات لم تكن لقمة سائغة ودسمة للامان، فقد تبرع بولھوف بمعلومات واسرار اخرى كاملة في غير هذا من مجالات الاستخبارات السرية منها تفاصيل واقية حول اجهزه الاستخبارات البريطانية، وملاحظاته الشخصية فيما يتعلق بالصاروخ الطائر «ف ١» وتقرير مقتضب بصدد لغم بحري وجده الحلفاء، غير منفجر في سواحل نورمانديا، وبعض نقاط تتعلق بتزويد الطائرات البريطانية بالوقود ووسائل صيانتها الخ.

بعد ان فرغت من قراءة هذه الاوراق احسست كأن حلقي قد جف وقلبي قد توقف عن خفقانه... ذلك ان بولھوف، في ضوء هذه البراهين الدامغة التي طالعته، قد انقلب خائناً لوطنه دون اي ريب.

وفي هذه اللحظة كنت على اتم الاستعداد ان أتنازل عن اي شي، مهما يكن غاليا وثميناً لكي يقع في قبضتي هذا الخائن ذو الابتسامة الساطعة والحديث البارع... غير انني فكرت في مزيد الحسرة والاسف ان بولھوف لا بد قد هرب الى المانيا بصحبة اسباده النازيين الفارين المهزومين.

وقلت في نفسي: لن يساعدني الحظ ابداً ان اجد بولھوف امامي وواقفاً معي وجهاً لوجه... وتلكنتي الغيظ والحقد، وجعلت اردد ساخطاً غاضباً: انني لن اراه... لن اراه... .

غير ان الواقع كان غير هذا، وكانت نبوءتي غير صادقة... .

-١٢-

في مطلع شهر ايار سنة ١٩٤٥ كان شمال هولندا جميعاً قد وقع في ايدي

الحلفاء.. وقد فتحت السجون الالمانية كلها، واستجوب نزلؤها بسرعة قبل اطلاق سراحهم واعادتهم الى بلدانهم... وكان بين اولئك السجناء السابقين الذين كانوا ينتظرون دورهم في الاستجواب: بولهورف نفسه!

وسرعان ما مثل امامي، ورحت أنا اتفحصه ببرود بضع ثوان... وكانت نظراتي اليه مشقة بالاشمئزاز والازدراء ومنتهى الاشتباه بأمره... ثم قلت له:

- والان يا بولهورف، او يا «هوبي» اذا اردت ان ادعوك بالاسم الذي تعرف به في الشفرة السرية، والان ها نحن قد التقينا ثانية... وفي المرة الاولى استطعت ان تخدعني وتنجو بنفسك... غير انني اشك الان انك ستستطيع ان تنجو بجلدك بسهولة... لقد ابتكرت ، في السابق، قصة طريقة... اما الان فاني ارى انك ابتكرت قصة اخرى اكثر طرافة لاعدائنا.

قلت له هذا ورحت اضرب براحة يدي فوق الوثائق العجيبة الموضوعة فوق مكنتي.

غير ان بولهورف قابل نظرة الازدراء والاشمئزاز التي رميته بها بما يعادلها. بل يفوقها ثقة بنفسه واعتداداً بها... ثم قال:

- هل استطيع، يا سيدي، ان اجيب على سؤالك بان اوجه انا اليك سؤالين؟

فقلت مغفماً،

- سل ما تشاء ولكن لا تتصور ابدا انك تستطيع ان تنجو باكتساب الوقت. لقد ارشكت الحرب ان تنتهي... وامامي الوقت الكافي جدا والذي لا اخشى ضياعه....

فأجاب متندا :

- انا اعلم يا سيدي ان وقتك ثمين ولست اطمع فيه. واذن فسأدخل في صلب الموضوع فوراً:

- هل تستطيع ان تظهر لي في اعترافاتي هذه الموجودة تحت نظرك فوق المكتب اية معلومات او اي طرف من معلومات مهما تكن ضيئلة او كبيرة لم تصل الى الالمان قبل ان ابوح لهم بها ؟

كان سؤاله محرّجاً حقاً. فلقد اتضح لي ان جهاز مكافحة التجسس الالمانى كان قد علم من مصادر شتى اخرى بالوقائع والتفاصيل والمعلومات والاسرار المهمة التي وردت في اعترافات بولهورف، قبل ان يبوح لهم بها.

واقدم مثالا صغيراً لما اقول، وهو يتعلق بي انا شخصياً: لقد كنت اعلم على وجه اليقين وبصورة ليس فيها ولا غموض ان اسمي المستعار في الشفرة السرية وهو «فرانك جاكسون» كان معروفاً عند الألمان منذ زمن طويل.

-١٣-

ان الذي لم استطع ان افهمه هو كيف استطاع بولهورف نفسه ان يعلم باسمي السري المستعمل في الشفرة، ثم لماذا هو احتاج ان يقدم لهم بضاعته من معلومات واسرار قديمة طوعاً واختياراً ودون اي اكراه فيما يظهر ؟ وقلت له:

فلتدع هذا جانباً الان. وانا اترك على ان المعلومات والاسرار التي بحت بها للالمان كانت قديمة ومعروفة لهم الا ان هذا لا يجعلك أظهر ذيلاً في نظري. فأتك اطلعهم على ما وسعك ان تطلعهم عليه. اما ان تكون بضاعتك قديمة فان هذا لا يقلل في شيء من نيتك التي أنتويتها ان تساعد العدو.

ولم يفقد بولهورف هدوءه وسكينته ابداً، فقال يجيبي:

- استمطحك العذر، يا سيدي، فاني ارى نقيض ما تراه تماماً. واليك الان السؤال الثاني الذي كنت اهم ان القيه عليك لما غادرت لندن اعطوني، هناك، اسما وعناوين شتى لعملاء يعملون لحساب الحلفاء. وكان على ان اتصل بهم في هولندا... وانا لو كنت خائناً كما تتوهم او عميلاً مزدوجاً في خدمة الالمان والحلفاء في آن واحد، ألم يكن من السهل علي ان اميط اللثام عن اولئك العملاء.. للالمان في اول مناسبة سانحة؟ فهل قتل اولئك العملاء الهولنديون او القي القبض عليهم حتى الان؟ قل يا سيدي، هل حدث لهم شيء من هذا؟ أرجوك ان تعود فتقرأ هذه الوثائق التي بين يديك لكي تتأكد من صحة ما اقول....

واغلقت نهائياً باب الاستجواب والتحقيق مع بولهورف، واعتبرتها «قضية» منتهية ولا لزوم للعودة اليها. ذلك ان ابرع المستجوبين واحذق المحققين واكثرهم خبرة واختباراً في شؤون مكافحة التجسس ما كان يستطيع ان يجد حجة يحتج بها امام أجوبة بولهورف الصادقة المليئة بالذكاء والفطنة والالمية.

ان بولهورف لم يخن اياً من رفاقه في المقاومة او من كانوا مثله يعملون في سبيل وطنهم هولندا.

والواقع انه بنباهته، وبدايته الذكية النيرة استطاع ان يجد السبيل الذي ينتهجه في وجه عدو مصمم على مواصلة الاستجواب والتحقيق معه حتى النهاية لكي يصل الى مبتغاه....

اجل ان بولهورف قد أفلح في انقاذ نفسه كما افلح في انقاذ رفاقه وزملائه. ذلك ان الالمان اقتنعوا بقيمة وصحة المعلومات التي افضى لهم بها، وحسبوا ان

هذا كل ما يعلمه... ولا شك في ان الضابط الالماني المحقق قد وقع امضاءه بفخر وازدهار على التقرير الذي يتضمن اعترافات بولهورف والذي رفعه الى رئيسه الميجر «فيلدمن» وهو يعتقد انه قام بعمل ناجح عظيم انجزه بنباهة وصدق طوية واخلاص.

وفي رأيي ان تجنب بولهورف ان يزود الألمان باسماء وعناوين رفاقه وزملائه في شبكة التجسس كان كافياً ليمثل بهزناً قاطعاً وبينه حاسمة مطلقة على صدقه واخلاصه... وما كان اسهل عليه ان يخونهم ويغدر بهم.

هذه هي قصة انطون بولهورف، الخلاصي القمي، المتحلي بذكاء مشوق، الحاذق في التنظيم والتدبير، وتهريب الشبان الهولانديين الى بريطانيا في اثناء الحرب لكي ينضموا الى حركة المقاومة... هذه هي قصة هذا الشاب الذي حامت حوله الشبهات، والذي كان عميلاً سرياً ناجحاً، ثم حامت حوله الشبهات مرة ثانية، ثم تكشف في النهاية عن انه حليف صادق ومخلص وامين.

المجزرة الثلاثية

قد تمتاز بعض قضايا العصر بطابع خاص، لا لأنها تعبر عن روح هذا العصر بصفة خاصة-فالجرائم المروعة تقع مع الاسف في كل العصور- وإنما لأنها تحدث من الدوي والانفعال بحوادثها واحداثها ما يملأ قلوب المعاصرين دهشة او غضبا وسخطا. وقضية أسرة «دومينيسي» كانت هي القضية التي وضعت طابعها وميسمها على جبين سنوات ما بعد الحرب العالمية الثانية في بلادنا فرنسا الكثيرة اكبر من جريمة بشعة ومروعة... وان الكلمة الاخيرة، في هذه الجريمة، لم تعرف حتى اليوم، وعلى مؤرخي المستقبل الانفاذ أن يدرسوها، وينظروا في ملفاتها، ويبحثوا في ملاساتها، عسى أن يصلوا الى الحقيقة ويميطوا اللثام عن خفاياها وأسرارها إذا وجدوا الى ذلك سبيلا.. ويعد فاليك ايها القارئ الكريم حوادث هذه الجريمة النكراء: كيف وقعت وكيف جرت.

-١-

كان السير «جاك دراموند» العالم المختص بشؤون التغذية، المعروف في الارسط العلمية البريطانية، قد وضع مشروعا خاصا، في هذا الصيف، لقضاء اجازته الطويلة في فرنسا.

وفي خلال شهر تموز ابهر من انكلترا حتى وصل إلى «دانرك» فأنزل سيارته الكبيرة من طراز «هيلمان» وراح يغذ السير على طريق «اللورين»

الفرنسية وبصحبته زوجته «ليدي آن» وابنته «اليزابث» وهي تلميذة صغيرة في الثانية عشرة من عمرها.

وقد عبرت هذه الطفلة عن سرورها بهذه الرحلة في بطاقة ارسلتها الى جدتها وقالت لها فيها:

جدتي العزيزة. انني جد مبتهجة، وما اكثر ما الهو وامرح. وانا الآن في-دومرغي- المكان الذي ولدت فيه «جان دارك» بظلة فرنسا التاريخية.. واحب ان تعلمي، يا جدتي الطيبة، انني كنت الرابعة في الامتحان. وانه لطيب لي ان ارسل اليك اظناناً ومقادير عظيمة من محبتي وقبلاتي».

صغيرتك اليزابث

ومن «اللورين» انحدرت اسرة «DRAMOND» الى مدينة «فليفرانش سورمير» حيث كان عالم الكيمياء العضوية الدكتور «ماريان» وصديق اسرة دارموند قد استاجر دارة بديعة. فنزل فيها السير جاك وزوجته وابنته، غير انهم لم يلبثوا طويلا، وقد كانت اقامتهم فترة استراحة قصيرة انطلقوا بعدها، في اليوم الرابع من شهر آب، الى مدينة «ايكس» وقد اتخذوا اليها الطريق المسمى «طريق الطلاب» في «البروفانس العليا». وكان قسما من حقائبهم ونقودهم عند مواطنهم عالم الكيمياء العضوية «ماريان».

وقد كان شهر آب هذا من سنة ١٩٥٢ رائعا حقاً. وبدلاً من أن يبحث افراد اسرة «DRAMOND» عن فندق ريفي لهم فقد فضلوا ان يمضوا ليلتهم في العراء تحت النجوم المتلامحة، فاخرجوا من سياراتهم اسرة السفر المطوية والفراش والاغطية، فنصبوا الاسرة ورتبوا فوقها فراشهم بمشاعر من القبضة والسرور ولكن لماذا تراهم اختاروا هذا المثلث الصغير من الارض الصلبة الجرداء التي تعلو نهر «دورانس» اسفل قرية «لورس»؟

لا ريب في ان اختيارهم هذا كان لانهم والموت كانوا على ميعاد..

-٢-

لم يحس السياح الاتكليز الثلاثة في تلك الامسية، انهم متعزلون في هذه الناحية من الريف التي تكاد تتصل بطريق السيارات رقم (٩٦) التي ستنتقل عليها سياراتهم صباح الغد الى مدينة «ايكس»، والسكة الحديدية نفسها كانت جد قريبة منهم، وكذلك محطاتها الصغيرة. ثم انهم يستطيعون ايضاً ان يلمحوا، على مسافة نحو مئة وخمسين متراً من مكانهم، مزرعة ضخمة، بديعة المنظر بقرميد سطوحها الاحمر، ونوافذها العريضة المعروشة.

كان صاحب هذه المزرعة، العجوز «غاستون دومينيبي» يملك، ثمة، ارضاً زراعية اسمها «غرانتير» غير ان الناحية التي رأى افراد اسرة «دراموند» ان يقيموا مخيمهم فيها لا تخصه، وانما كانت من املاك دوائر الاشغال العامة لانها تؤدي مباشرة الى الجسر الصغير الذي يعلو الخط الحديدي.

وفي عتمة المساء ذهبت «ليدي آن» وابنتها الصغيرة اليزابث الى المزرعة تطلبان من سكانها بعض الماء، وقد عادتا بدلو من قماش غير نافذ يقطع ماء.. وكانت السيدة آن دراموند لا تعرف من اللغة الفرنسية كلمة واحدة، وكانت البنية الصغيرة- اليزابيث- هي التي تعرف هذه اللغة وتقوم بالترجمة... وبعد قليل اوت الاثنتان الى سريريهما واستغرقتا في النوم. وكانت ليلة الرابع من شهر آب قد بدأت. وسكب القمر، الذي يكاد يكون بدرأ في تمامه، نوره فأضاء ثلاثة اشخاص توشك ان تصبح جثثاً ثلاثاً..

وفي نحو الساعة الواحدة، بعد منتصف الليل، سمع سكان النواحي المجاورة بعض العيارات النارية، فلم يهتموا بها ادنى اهتمام، وما أكثر ما يسمعون من اعيرة نارية يطلقها بعض من يخرجون لصيد ارنب او ثعلب..

مرت، بعد ذلك، ساعات، ثم طلع النهار. وكان المدعو «أوليفييه»، وهو عامل في مصانع «بيشبنية»، قد انحدر الى الطريق العام وهو يمتطي دراجته النارية الصغيرة، فبرز امامه رجل هو «غستاف دومينيسي» احد ابناء «غاستون» صاحب المزرعة، فراح ينبئ الرجل بأمر رهيب خلاصته انه وجد، فوق الحشائش بنية صغيرة مقتولة.. وتوصل اليه ان ينطلق، على دراجته النارية، لاختطار مركز البوليس في بلدة «اوريزون» الصغيرة الواقعة على مسبعة عشرة كيلو مترات في الناحية الاخرى من مصب نهر «دوايس» فاستعد صاحب الدراجة النارية للقيام بهذه المهمة، وعاد فامتطي دراجته بسرعة وقبل ان ينطلق استطاع ان يلمح امرأتين تتحدثان امام سور المزرعة... وسنعلم فيما بعد. ان كبرى الاثنتين هي زوجة العجوز «غاستون دومينيسي» والاخرى كتته «ايفيث».

وقد مر اناس آخرون قريباً من مخيم اسرة دراموند دون ان يلاحظوا شيئاً غريباً وغير معتاد، ومع ذلك فان المدعو «ريكار»، وهو عامل من مرسيليا، وكان ذاهباً لركوب «الاتيوبس» الى مدينة «فوركلكييه» قد ادهشه ما شاهد من فوضى حول سيارة ال (هيلمان) الكبيرة، فقد كانت ابوابها مفتوحة، واشياؤها مبعثرة على الارض...

- ٣ -

غير ان «ريكار» صاحب الدراجة النارية لم يساوره القلق. فقد رأى احد افراد اسرة دراموند الانكليزية نائما، ولكن الغريب انه كان، فيما يبدو، نائما تحت سريره السفري، وقد كانت قدماء ظاهرتين تحت السرير فما اغرب هذا كله حقاً! ولكن لماذا الاهتمام بما يفعله الآخرون؟ وانطلق صاحب الدراجة النارية لا يلوي على شيء....

واقبل رجال الشرطة اخيراً، وعلى رأسهم الضابط «رومانيه»، وعندئذ

اكتشفوا الحقيقة المروعة. لم تكن البنية الانكليزية هي وحدها المقتولة. بل كان ابراهام ايضا مقتولين برصاص بندقية..

وقد اتضح ان السيدة دراموند اصببت بجروح ثلاثة مميتة، وكان فستانها المشجر ملطخا بالدم. اما زوجها سير (جاك) فلا بد انه حاول ان يدافع عن نفسه، فان الكثير من الاصابات والجروح قد بانت على جسمه واعضائه جميعاً.. ولا رب في انه استطاع ان ينهض، وعشي، ذلك ان بركة كبيرة من الدم وجدت على مسافة بضعة امتار من جثته، وكان الدم قد تشربه التراب حتى عمق ثلاثة سنتمترات.

اما الصغيرة اليزابث فظهر انها قتلت ضرباً بكعب البندقية، فقد كان جسمها سليماً، غير انها اصببت بجرحين بالغين في رأسها احدهما يبدأ من قاعدة الانف، والاخر في الجبين، وكانت هذه الاصابة الاخيرة هي التي حطمت لها جمجمتها.

وكانت جثة الفتاة الصغيرة ملقاة على بعد نحو مئة متر عن جثتي امها وابيها، اترأها حاولت ان تهرب ناجية بنفسها؟ هذا أمر مستبعد ولا ريب، لانها كانت حافية بدون حذاء، ولم يكن في اخص قدميها آثار من تراب او شظايا الحصى، واذن: لماذا كانت جثتها بعيدة هكذا عن جثتي والديها؟

وقد استدعى عمدة قرية «لورس» الطبيب الشرعي. وجاء الطبيب الدكتور «دراغون» في تمام الساعة صباحاً وكان اول ما قرره ان اصابة جثتي السير راموند وزوجته أشد بكثير من اصابة ابنتهما الصغيرة، ولذلك كان من رأيه ان لبنية قد فارقت الحياة بعد أبويها بنحو ثلاث ساعات.

وبدا أن هذه المجزرة الثلاثية غير مفهومة. ورغم فوضى الاشياء المبعثرة فانه كان ظاهراً ان شيئاً لم يسرق من متاع الاسرة واشيائها، والدافع الى الجريمة لم

يكن الشذوذ والشغف بالتعذيب ورؤية الدم... وأذن فماذا كان الدافع الى هذه
الجرعة النكراء التي ذهب ضحيتها ثلاثة من السياح الأمنيين المسالمين؟

بعد ان انتهى الطبيب «دراغون» من معانيته الرهيبة، وبعد ان خاض في
دماء الضحايا الثلاث اتجه الى مزرعة اسرة «دومينيسي» لكي يغسل يديه الا ان
صاحب المزرعة وسيدھا العجوز «غاستون» لم يحسن استقباله... وكان هذا
العجوز قوياً، صلباً كشجرة البلوط رغم السادسة والسبعين من عمره. وكان
المجاورون قد اطلقوا عليه لقب «الخنزير البري» كما كان معروفاً بينهم بأنه فلاح
متحيز، وأمر متسلط مستبد... ولما رأى الطبيب خاطبه بضمير المخاطب المفرد
استخفاً به:

- اراك هنا... فماذا اتيت تفعل؟

- أتيت أسألك ماء اغسل به يدي وغمغم الفلاح العجوز، ناقماً:

- ولم يتحرك من مكانه. وكانت تقف إلى جانبه امرأة طاعنة في السن وقد
انتشرت التجاعيد في وجهها، انها زوجته، وقد كانت واقفه، ثمة، وقد شبكت
يديها علي بطنها. وجعلت تحدد بعينيها في الارض، وبدا كأنها هي الاخرى قد
تصلبت وتحجرت..

-4-

نفد صبر الطبيب فسحب طلبه.. وذهب «غاستون» ليعضر له وعاء فيه ماء
ثم عاد فغير رأيه فجأة وقال:

- لو جئتك بهذا الوعاء فانه الوعاء الذي نستعمله لشرب الجواد ، والمعروف
ان الحيوان عندما يحس بوجود الدم فانه يمتنع عن الشرب.

وأخيراً سمح للطبيب «دراغون» أن يذهب ليغسل يديه من الدماء من المضخة. وكان اصحاب المزرعة ينظرون اليه على مضض وهو يغسل يديه، وكأنما هم يكظمون غيظاً كامناً في صدورهم.

وفيما بعد روى «غاستون» انه استيقظ في الساعة الثالثة صباحاً ليذهب بعنزاته الى حقل يقع في اتجاه مضاد للناحية التي حلت بها تلك الاسرة الانكليزية وانه لم يعلم بالمأساة التي وقعت الا بعد ان عاد الى بيته، فانطلق في الحال ليشاهد الجثث، ولما رأى جثة «اليزابث» الصغيرة استأذن بأن يلقي عليها غطاء لان ذلك، كما قال سيجعل الناس يشمتون ان يروا البنت الصغيرة ملقاة الجثة هكذا في الشمس.

غير أن رجال الشرطة تملكثهم الدهشة، ذلك أن أحداً ما قد نبش كل ما في السيارة قبل مجيئهم دون ريب، بحيث تغيرت مواضع الأشياء، وزحزحت الجثث من أماكنها...

ومعنى هذا أن القاتل قد عاد ليبحث عن شيء ما في أولى اشاعات النهار بلا شك، ومن هذا يبدو، على الأرجح، أن القاتل لا بد أن يكون شخصاً يقيم في تلك الناحية أو في جوارها غير بعيد عنها.

وقد جاء من مارسيليا بعد ظهر ذلك اليوم ضابط البوليس «سيباي» لكي يتولى التحقيق. واستمر بعد ذلك خمسة عشر شهراً وهو مكب على دراسة آثار الجريمة، وسؤال الأشخاص، ومحاولة تلمس الحقيقة وسط كل شهادات الشهود المتناقضة.

وقد أقلقته أسرة «دومينيسي» جداً، وبصورة خاصة «غستاف» الذي كان أول من اكتشف الجريمة. وتساءل: ترى لماذا لم يهتم غستاف بالبحث عن أبوي الفتاة اليزابيث عندما شاهد جثتها؟ وقد أجاب عندما سئل في التحقيق عن هذه

النقطة فأجاب بكل بساطة:

- ذلك لأتني ظننت أنهما هما اللذان قتلاها..

وكانت هذه فكرة عجيبة أذهلت المحققين.. غير أنه ظلت هناك نقطة أخرى غامضة، وهي أن راكب الدراجة النارية الذي أنبأه «غستاف» بما وقع وقد شاهد غستاف نفسه يدور السيارة الـ «ميلمان»، وهي سيارة الأسرة الانكليزية، لكي يصل إلى الطريق العام، فماذا تراه كان يفعل في تلك الساعة المبكرة من الصباح في مكان الجريمة؟ وقد أجاب عندما سئل عن هذا فقال:

- كنت ثمة ألاحظ السيارة لثلاثي يأتي من يسرقها.. ولذلك فقد نقلت رقمها على ورقة أيضاً.

غير أنه اتضح، فيما بعد، أن غستاف كان قد شاهد جثتي العالم الانكليزي وزوجته قبل أن ينسى صاحب الدراجة النارية بمقتل الفتاة الصغيرة ابنتهما، وذلك خلافاً لما أدلى به في أول الأمر. وزيادة على ذلك فإن هذا الشاهد المريب أدلى بشهادة أخرى أشد خطراً واثارة.. فقد اعترف بأنه في اللحظة التي شاهد فيها الصغيرة اليزابيث كانت هذه لا تزال حية، وكانت تتحشرج أو على الأصح، فيما قاله هو. كان يخرج من حنجرتها ما يشبه أن يكون «هرهرة».. ويا له من اعتراف!

واذن فإن غستاف قد ترك تلك الفتاة الصغيرة تحتضر دون أن يفكر لحظة في أن يغيبها.. وكذلك زوجته «ايفت» لم تفكر هي الأخرى بأن تهتم بالبنية التي كانت تعاني سكرات الموت.. ومع ذلك فقد ذهب غستاف وقال لزوجته: «رأيت منذ لحظات فتاة صغيرة ملطخة الوجه بالدم، وشاهدت احدى ذراعيها تتحرك..» ترى اي قلب من صخر في صدر هذه المرأة؟ لقد تداولت قليلاً مع حماتها

قليلاً، غير بعيد عن الطريق العام، ثم ذهبت إلى بيتها لكي تستعد للسفر إلى بلدة «اوريزون» حيث زعمت أنها كانت تريد أن تشتري بعض الأدوية لأولادها. وقد أجابت لدى التحقيق:

بالطبع كان يجب أن أشاهد تلك الفتاة المغدورة واستدعي لها الطبيب، غير أن قلبي لم يطاوعني.. فأنا حبلى في الشهر الخامس.. وخشيت أن يؤذيني منظر الفتاة الصغيرة.

وترك المحققون هذه المرأة الحساسة... ووجهوا إلى زوجها غشتاف التهمة التي ينص عليها القانون وهي «عدم تقديم العون لشخص في خطر» فحكم عليه بالسجن شهرين» وقد أمضى غشتاف هذه العقوبة، غير أنها لم تغير شيئاً في أساس القضية وهي: من قتل أفراد أسرة دراموند البريطانية؟

- ٥ -

بقيت كمية كبيرة من النقاط المهمة غامضة شديدة الغموض. من ذلك أن رجال البوليس لم يجدوا غير فشتكين اثنتين فارغتين في مكان الجريمة على الرغم من أنه قد أطلقت ست أو سبع رصاصات وبالمقابل فإن سلاح الجريمة، وهو بندقية، كان قد اكتشف في قاع مجرى نهر «دورانس».

وكان هذا السلاح عبارة عن بندقية حرب قديمة معتنى بها عناية جيدة، فمن يك صاحب هذه البندقية إذن؟ ولكن يبدو أن أحداً لا يعرف عنها أو عن صاحبها أي شيء.. ومع ذلك، وعندما أراها المحققون لـ «كلوفيس» الابن البكر العجوز رب أسرة دومينيسي فقد ظهر عليه الاضطراب وشحب لونه، وتهاوى على نفسه، ثم استعاد هدوءه وقال مؤكداً:

- أنا لم أر قط هذه البندقية.. واستجوب أفراد أسرة دومينيسي عن كيفية

قضاء وقتهم في ليلة الرابع من شهر آب وهي الليلة التي وقعت فيها الجريمة وهل ستلوا هل عقد اجتماع ما في المزرعة ضم بعض الأقارب أو الأصدقاء؟ وكان قد روي أن اجتماعاً كبيراً من هذا النوع كان قد عقد ثمة، وشرب فيه المجتمعون العديد من كؤوس الراح... غير أن أفراد الأسرة انكروا ذلك تماماً..

غير أن الثابت المؤكد هو أن العجوز «غاستون» وابنه «غستاف» كان قد أقلقهما انهيار كان «يوشك أن يحدث في ناحية من أراضيهم على اثر الافراط في ري الأرض عند حافة حقل يعلو خط السكة الحديدية.. وأسرة دومينيستي هي المسؤولة أمام سلطات الأشغال العامة عن كل انهيار أو سقوط أحجار يمكن أن يقع فوق خط السكة الحديدية.. وهم لذلك معرضون لغرامة كبيرة في حالة تأخر أي قطار بسبب افعالهم.. وقد أفاد غستاف أنه على الرغم من تعبهِ الشديد في العمل مع أسرة زوجته في دراسة القمح طيلة النهار فقد تناول، في المساء، شيئاً من الحساء ثم تناول مجرفته وانطلق لكي، يزيل جميع آثار انهيار التربة فوق خط السكة الحديدية ثم امتطى دراجته الهوائية وذهب يخبر بذلك حارس الطرق المدعو «وور» وقد أيد حارس الطرق أقوال غستاف كما أيدها شقيقه الأكبر «كلوفيس»..

إن حكاية انهيار التربة عند خط السكة الحديدية سيكون لها، ولا ريب أهميتها فيما بعد. أما الآن فانها تظهر أن غستاف ووالده العجوز -غاستون- ماكان لهما، ليلة الرابع من آب، ما يستأثر باهتمامهما غير وصول أولئك السياح الانكليز من أسرة دراموند الذين لاقوا حتفهم مقتولين في تلك الناحية.

* * *

استمرت قضية هذه الجريمة تغذ السير عدة أشهر. ووجد «سبباي» ضابط البوليس نفسه غارقاً في خضم من الشهادات التي يناقش بعضها بعضاً، حتى

ليزداد الاعتقاد بأن أكثر الشهود نزاهة وصداقة يدلون بأية أقوال تتفق لهم.. وفي هذه الأثناء قدمت لضابط البوليس مشات بل ألوف الاقتراحات والآراء.. فمن قائل أن مرتكبي الجريمة من حراس الليل، ومن قائل بل هم من لصوص غلات الأرض والمزارع.. وسار ضابط البرليس في كل اتجاه، وتابع كل أثر ممكن، ولكنه كان سرعان ما يقصر لعدم جدوى ذلك كله..

وقد تلبد الظلام طبقات فوق طبقات حول قضية هذه الجريمة المروعة وملاساتها. وذات يوم رقع انقلاب عجيب، ما كان ليشوقه أحد، وقد قلب القضية كلها رأساً على عقب.

- ٦ -

في يوم من أيام شهر تشرين الثاني سنة ١٩٥٣، طلب المحققون من غستاف أن يروي مرة أخرى كيفية قضائه الوقت ليلة الرابع من شهر آب وصبيحة الخامس منه، فقال:

-نهضت قبيل طلوع النهار، ولما ذهبت لأرى انهيار التربة عند خط السكة الحديدية شاهدت الفتاة الصغيرة اليزابث، ثم اكتشفت جثتي والديها.. ولما عدت إلى البيت أنبأت نساء الدار بما رأيت، وبعد ذلك انصرفت إلى شراغلي وأعمال المععادة.

ويدا هذا الجواب غير كاف، وغير مقنع لرجال التحقيق، فضغظوا عليه بمختلف الاسئلة فعاد يقول:

- شاهدت جسد الفتاة الصغيرة، ولكني سمعت وقع خطى فاختبات... بعد هذا انجهت نحو الجثتين الاخرتين، جثتي والديها فقلبتهما، وادرت جثة السيدة على شكل نصف دائرة ممسكاً برسغي قدميها، فعلت ذلك لكي أتأكد من انها قد

ماتت حقاً...

وقال له المحققون:

- دعك من هذا.. لقد كان من الواضح جداً أنها ميتة.. والاتفضل ان تعترف بأنك كنت تبحث عن شيء ما..

غير أن غستاف رفض ان يعترف بذلك غير انه في الغداة لم يستطع ان يستمر في انكاره، فأقلتت منه هذه العبارة:

- اردت ان اعلم ما اذا كان ثمة رصاص او فشك فارغ مصدره بيتنا..

ثم انهيار تماماً وانكب يبكي فوق كتف ضابط البوليس... وقد حرص الضابط ان لا يفجأه ولا يعنف به فقال له:

- تخفف مما في صدرك

غير ان غستاف اعتدل واقفا واندفع يقول:

- ان والدي هو الذي قتل افراد تلك الاسرة الانكليزية. لقد قال لي ذلك في الساعة الرابعة صباحاً عندما ذهب للبحث عن عنزاته..

وهكذا فان العبارات التي شد ما كان «سبياي» ضابط البوليس يترقعها قد نطقت بها اخيراً شفتا غستاف. ومن الان فصاعداً فان التحريات ستأخذ مجراها في جو اقل حيرة ورباً..

واذا كانت اقوال غستاف صادقة فانه يبدو مفهوماً واضحاً الان السبب الذي حدا به الى اشاعة الفوضى والاضطراب في مكان وقوع الجريمة.

وجاء دور الابن الاكبر «كلوفيس» فأيد اعتراف شقيقه غستاف وقال: أجل
إن والدنا هو الذي ارتكب الجريمة..

ومع ذلك فإن الشقيقين رفضا التعرف على البندقية، وقد قال كلوفيس فيما
بعد:

- كنت في بادئ الأمر أحسب أن غستاف هو الذي ارتكب الجريمة... حتى
كان يوم قال لي فيه أن الوالد هو القاتل...

وفيما بعد، أيضاً، قال أن غستاف وصف له: صرخات الرعب التي انطلقت
من حناجر أولئك المساكين أفراد أسرة دراموند الاتكليزية.

أما «ايفيت» زوجة غستاف فقد أدلت باعترافها فقالت:

- قال لي كلوفيس أن الوالد هو القاتل.. وأنا أعلم أنه قال لي هذا لأنه
ذات ليلة وقد بات في أرضنا التي تدعى «غرانتير» فلم يشهد شجاراً بين والده
وأمه في تلك الليلة. ولما رآه والده في اليوم التالي قال له حانقاً ومثيراً إلى ذلك
الشجار مع أمه:

- لقد سبق وقتلت أشخاصاً ثلاثة.. وأنا قادر على قتل شخص رابع.

وفي يوم المحاكمة أنكر هؤلاء الأشخاص العجيبون جميع الأقوال التي أدلوا
بها عن والدهم وارتكابه جريمة القتل.. ولكن كان قد فات الأوان فانهم لن
يستطيعوا مهما حاولوا أن يحولوا دون العجوز نفسه من أن يقضي بما في صدره
ويضع رأسه تحت رحمة المقتلة..

- ٧ -

جيء بالعجوز غاستون، أو المختزير البري كما كانوا يسمونه في تلك الناحية،

جيء به فور الاتهامات التي وجهها ولداه إليه واعترافهما بأنه هو القاتل، وراح المحققون يمحطونه من جديد بسيل من الأسئلة. وكان هو لما يعلم بعد باعتراف ولديه، فأخذ يجيب على الأسئلة بطلاقة حيناً، وحيناً يقاطع المحققين لكي يبيدي بعض الملاحظات الشائنة العاصفة، أو يبيدي انزعاجه بازدراء وترقع، ويقول:

- انكم تسمونني.. أنا ذاهب. غير أن ضابط البوليس بسط صحيفة يومية ووضعها تحت عينيه فقرأ فيها بأحرف ضخمة ما اتهمه به ولداه: غستاف، وكلوفيس... وعندئذ ثار حانقاً وراح يقول:

- هذا غير ممكن... آه يا للقذرين.. الساقطين..

وبدا على الرجل العجوز أنه قد انهار وتخاذل وأخذ ينوح ويجوح، فاودع السجن، وعين لحراسته عن كتب الحارس «غيرينو» الذي تلطف معه حتى وثق به العجوز، فجعل يتحدثان باللهجة المحلية لتلك الناحية، واندفع العجوز يروي للحارس قصصاً طويلة في أعماله في الصيد في أراضي الآخرين. ثم تحدث عن صعوباته العائلية، وأبدى كثيراً من العطف والحنان عند ذكر أحفاده الستة عشر، ثم وعلى حين غرة، وضع رأسه بين راحتيه، وجعل يردد:

- آه تلك الصغيرة.. تلك الصغيرة.

أتراه كان يشير بذلك إلى الفتاة الصغيرة الميزابت التي وجدت مقتولة مع أبيها أم إلى إحدى حفيداته؟ ولكن حتى لو كان يقصد بعبارته الفتاة الانكليزية فان ذلك يمكن ان يفسر بما يلي: «ولكن انا الجدد الطيب العطوف كيف يمكن ان يفكر احد بانتي قتلت تلك البنية؟»

ومع ذلك فقد احس الحارس «غيرينو» ان سجينه يوشك ان يفضي بما في صدره، فقال له بلهجة ساذجة

- تلك الحكاية.. ربما لم تكن أكثر من حادث غير مقصود.. فقال العجوز غاستون دومينيسي مردداً بهدوء:

- أجل. انها ليست غير حادث غير مقصود، فأنتي انا الذي قتل اولئك الاشخاص.. غير ان الرجل الانكليزي هاجمني، وقد اعتقد انني لص فتناول بندقيته، واطلقت انا النار..

فبهت الحارس غيرينو، غير انه لم يعنف به، بل اخذ يشجعه في هذا الاتجاه من الحادث والافضاء فقال له:

- ان البوح يخفف عن النفس همها وينفس عن الصدر.. وسيكون هذا في مصلحتك.. وعلى الاخص في مثل سنك.. اترى ان تعيد هذا لضابط البوليس السيد «سيباي» وتحمّد الرجل العجوز فقال:

- لا.. ليس للسيد سيباي.. بل للرئيس، في نظر غاستون العجوز، هو السيد «برودوم» رئيس ضابط البوليس.

ونقل الخبر الى رئيس ضابط البوليس وفي هذه الاثناء جعل الحارس غيرينو يؤكد للرجل العجوز انه يستطيع، اذا شاء، ان يحتفظ بكلبه الذي يحبه.. يحتفظ به حتى في السجن..

وامام ضابط البوليس «برودوم» اعاد الرجل العجوز اعترافه، غير انه ادخل عليه شيئا جديدا فقال:

انه اراد في ليلة الجريمة ان يرى عن كشب السيدة البريطانية الحسناء، وقد تحدث معها بل قد استطاع ان تكون له دالة عظيمة معها.. غير ان زوجها نهض ووثب عليه فاشتبكا في عراك..

غير ان هذه الحكاية لا بد مختلفة اذ انه لا تبدو محتملة التصديق ولا يمكن ان يتصور العقل سيدة كريمة كـ «اللاذي آن» تدع لفلاح مجهول ان يقترب منها فتروح تتحدث اليه الى حد ان تصبح له دالة عليها، وهي التي تجهل اللغة الفرنسية جهلاً تاماً...

ثم ما لبث العجوز غاستون ان نطق بعبارة مذهلة كان من شأنها ان قلبت افادته كلها رأساً على عقب، فقد قال:

- انني أقول لكم هذا لكي أبعث بالسرور الى نفوسكم... انني في الواقع أضحي بنفسي في سبيل شرف احفادي..

-A-

الواقع ان العجوز «غاستون» تراجع، فيما بعد، عن اقواله كلية وبشدة. وراح يؤكد انهم انتزعوا منه اعترافه انتزاعاً وهو في حالة من الاجهاد ونفاد الصبر بل هو اتهم المسؤولين بانهم سمموه تسميماً يكتمل وافرة من القهوة الرديئة.

وما كان ادعى الى العجب والدهشة انه عندما طلب منه ان يمثل امام المحققين ارتكاب الجريمة هرع فوراً وعن طيب خاطر وقام بتمثيل جميع مشاهد الجريمة، ولكنه كان يضيف اليها، من تلقاء نفسه، تفاصيل واشياء غير مطابقة للواقع.. ومن هذا القبيل قياسه بالركض، في الحقل، لمطاردة فتاة صغيرة متخيلة..

غير انه في اثناء تمثيله المضحك المبكي هذا استولى عليه نوع من الخوف فقفز عن جانب خط السكة الحديدية ووثب من فوق حاجز الجسر وأوشك ان يلقي بنفسه من حائق، غير ان رجال البوليس ادركوه قبل ان يفعل شيئاً، وقال عندئذ:

- رأيت ان أقضي على نفسي... وهكذا يتاح لي ان أموت في سريري..
غير انه اضاف قائلاً فيما بعد:

- لقد سخرت بكم... ومثلت منظرأ هزلياً مضحكاً بمحاولتي الانتحار..
وسواء كان هذا تمثيلاً مضحكاً أو غير مضحك، فان التحقيق قد تقدم خطوات
واسعة في هذه القضية..

وقد اضطر الاخوان «غستاف» و «كلوفيس» ان يعترفنا، في النهاية، بأن
البندقية التي كانت السلاح الذي ارتكبت به الجريمة، هي من اسلحة المزرعة.. ومع
ذلك ما اكثر ما في هذه القضية من فجوات... ومن شكوك وريب..

وانتشرت شتى الاشاعات في تلك المنطقة وما جاورها من المناطق حتى
وصلت الى مدينة باريس نفسها.. وقيل إنها كانت جريمة سياسية، وقيل إن
اسلحة كثيرة كانت مخبأة منذ عهد المقاومة السرية في اثناء احتلال الالمان لفرنسا
في الحرب العالمية الثانية، وقيل إن الجريمة كانت عبارة عن تصفية حساب بين
جماعات من المعارضة.

بل اكثر من هذا، فقد اشيع ان العالم البريطاني القاتل «سيرجاك دراموند»
كان من رجال دوائر التحري الانكليزية «الانتليجنس سورفيس»، وحتى انه قد
هبط بالمظلة الواقية في «البروفانس» الفرنسية في الحرب العالمية الثانية.

وقد كانت هذه الاشاعة الاخيرة مغلوطة تماماً. ذلك ان حياة العالم البريطاني
السير جاك كانت معروفة جداً في بريطانيا. ثم ان جهله التام باللغة الفرنسية
يكفي لنفي هذه الاشاعة.

واذن فهل كان الذين ارتكبوا هذه الجريمة ممن يكرهون الاجانب الى درجة
التعصب العنيف؟

لقد كانت، في ذلك العهد، عبارة «عودوا الى بلادكم» المستعملة ضد الاميركان معروفة متداولة، وكثيراً ما كانت توجد مكتوبة على الجدران.. واذن فيمكن التصور ان مرتكبي الجريمة حسبوا العالم الانكليزي وزوجته وابنته من الاميركان..

ولكن هذا كله كان يبدو غير محتمل التصديق.. غير ان الخرافة المضحكة حقاً والتي تناقلها الكثيرون في ذلك العهد لفرط ما هزت الجريمة المجتمع الفرنسي في اعقاب الحرب العالمية الثانية هي ان اشخاصاً من سكان كوكب «المريخ» قد هبطوا في الارض.. لكي يسفكوا دماء البشر..

وهكذا اختلطت الخرافة والاسطورة بألوان الاشاعات فلم يكن بعضها احق بالتصديق من بعض.. وشعر الكثيرون انهم يتخطون في الظلام، ويضربون في جنبات اللامعقول، وفي الوقت نفسه يخوضون في بركة هائلة من دماء الجريمة.

-٩-

تجري حوادث هذه الجريمة المروعة، بعد هذا، في مدينة «دين»، ويقصر العدل بالذات، حيث حوكم الرجل العجوز «غاستون». وقد كانت ايام المحاكمة من الايام التي ظلت فيها الشمس مشرقة ساطعة، والسماء صافية زرقاء الاديم.

كانت قاعة المحكمة الرحيبة غاصة بالحضور لا مكان فيها لقدم. وفي تمام الساعة التاسعة صباحاً ظهر غاستون العجوز، الملقب بالخنزير البري، بين حراسه من رجال البوليس. وكان شعره ممشوطاً مُرتباً، وكانت نظرفته متوقدة، ولما تكلم كان صوته جهيراً، قويا، وهو هذا الصوت الذي ينبىء بأنه سيكون في اثناء المحاكمة، جريئاً، قوي الشكيمة، عنيداً، إذا أنهض ليجيب أو يناقش انتصب متعالي، معتدل القامة، بل متحدياً لا يتضعض، ولا يتخلخل، وبدأ يقول مزهواً عندما سئل عن هويته:

- اسمي: غاستون دومينيسي من ملاك الاراضي في نواحي «غرانتا»
والألب السفلي.

ثم راح يستمع بمنتهى السكينة والهدوء الى لائحة الاتهام. ولم يفارقه هدوؤه
قط حتى عندما أعادوا على مسمعه اعترافه الشخصي الذي قال بموجبه:

«انني انا الذي قتل افراد تلك الاسرة الانكليزية».

ولقد كان أشبه بأب جليل وشيخ وقور منه مجرم قاتل ... وكان اذا ما ذكر
ابناؤه التسعة واحفاده الستة عشر هتف قاتلاً: «انني احبهم جميعاً» ، فيا له من
أب. ويا له من جد لاشبيه له ولا نديداً

ولكن ربما كان زوجاً أقل طيبة. والواقع انه لا يبدو انه كان زوجاً عطوفاً او
حائناً على امرأته التي يصفها ، في اكثر الاحيان ، بالعجوز القذرة... غير ان
اللقب الذي كان يطلقه عليها عادة هو: «السردينة العجوز»...

وعلى العموم فان الصورة التي رسمت له في الازهان هي صورة رجل
متسلط ، يرهه أهله وذووه ، وينكب على العمل بهمة عظيمة ، ويخص نفسه
بالقسوة كما يقسو على الآخرين.

اترى هذا الفلاح من المرأة والاقتدار حتى ليقتل ثلاثة من السياح المسالين
دوغما سبب ظاهر؟

وبدأت، معه، معركة القضاء. وراح الخنزير البري يستمع مرة اخرى الى قصة
اكتشاف الجريمة، والى تقارير الخبراء، وشهادات الشهود، وقد بان عليه الانفعال
بصورة خاصة عندما رأى افراد أسرته بين هذا الجرم الغفير من الشهود المتتابعين
على منصة الشهادة.. وهذه هي زوجته «ماري دومينيسي»- السردينة

العجوز-انه يراها نحيلة، عجفاً، محصورة، جافة العود وقد التفت بشال عريض اسود. انها تبدو وجلة، فزعة، ومع ذلك فقد أخذوا يضغطون عليها لكي تتحدث عما تعرفه من حوادث تلك الليلة الرهيبة، ليلة الجريمة النكراء، فراحت تقول:

- لا أعلم شيئاً، ولم أسمع أية عبارات نارية ولا أي صراخ أو صياح. لم أسمع غير نباح الكلب. وحوالي الساعة السادسة صباحاً قال لي غاستون إن هناك فتاة صغيرة ميتة قرب الجسر. وهذا كل شيء.

- ١٠ -

سألها رئيس المحكمة:

- ولكن ألم تتأثري عندما سمعت زوجك يقول لك إنه شاهد فتاة صغيرة ميتة عند الجسر؟ أنت جدة ذلك أحفاد، ألم تفكري بأن تمدي يد العون إلى تلك الصغيرة؟

وأجابت العجوز:

- والله... إن شيئاً من هذا لم يخطر ببالي... لم أفكر في شيء من هذا...

إن «السردينة» العجوز لا تريد أن تبوح بشيء، فهي لم تر، ولم تسمع، ولم تعرف، ولم تقع عينها على البندقية قط... لا شيء على الإطلاق.. انكار تام يدعو إلى الدهشة.. وسئلت عما إذا كانت سعيدة هائلة البال مع زوجها غاستون، فقالت:

- لم أجد نفسي محرومة من شيء أبداً. وليس ثمة ما آخذه عليه.

وحق غاستون دومينيبي النظر في زوجته. وفي اللحظة التي انسحبت فيها

وهبطت عن منصة الشهود. ناداها قائلاً:

- ألا قولتي.. أصبح أنك رأيت بنطالي ممتلئاً بالدماء؟

والفتت الفلاحة العجوز الماكرة وقالت:

- أهدأ.. كان بنطالك نظيفاً وجافاً ومهنماً كشأنه دائماً..

كان هذا نصراً لـ «غاستون».. لقد بقيت «سردينته» العجوز وفية له ولكن أكان هذا وفاء صدق وحق، أم وفاء كذب وبهتان؟ على أي حال فإن تضامن الزوجة لعب دوره بلا شك، وسيلعب هذا التضامن دوره بلا شك، وسيلعب هذا التضامن أيضاً بين الرجل وكنته «ايغيت» زوجة ابنه «غستاف».

وظهرت «ايغيت» السراء، ربة القوام، واعتلت منصة الشهود، واستهلت حديثها قائلة بأنه يجب أن لا تقيم المحكمة أي وزن لأقوالها السابقة. وسكتت هنيهة ثم أردفت تقول:

- قاضي التحقيق قال لي: «إذا لم تقولي مثلما قال زوجك فقد تصابين بما لا محمد عقباه...». وعندئذ قلت في نفسي: لقد وقع في قبضتهم انسان بريء حتى الآن هو الأب... فماذا يهمهم أن يقع في قبضتهم بريء آخر... ما داموا لا يكثرثون لبريء أو مذنب؟ ثم أنهت شهادتها بهذه البساطة نفسها فقالت:

- لقد ساعدنا قاضي التحقيق وبذل كل جهده لكي يجعلنا نقول: «إن الأب هو القاتل»... فقلنا ما أراد القاضي. ولكنه غير صحيح، وليس هو الحقيقة..

ولسوء حظ المتهم، غاستون دومينيستي فإن ولده الأكبر «كلوفيس» لا يشارك زوجة أخيه وجهة نظرها.. إن هذا الرجل، كلوفيس، الذي بلغ التاسعة والأربعين من عمره، والذي يعمل بناءً، يشبه والده شبيهاً غريباً. أجل إنه يشبه

هذا الوالد، ولا ينفك في الوقت نفسه، يتهمه بجرمة القتل اتهاماً صريحاً لا لبس فيه ولا غموض. لقد أطبق شفتيه، ولزم الصمت أشهراً طويلاً، وظل طيلة هذه المدة محتفظاً بسرره الرهيب، ثم تكلم.. وراح يؤكد أن البندقية هي بندقية والده العجوز دون ريب.. ولكن.. لماذا تراه رفض أن يتعرف إلى البندقية في يادى الأمر؟

- ١١ -

أجاب كلوفيس الابن الأكبر للعجوز غاستون على سؤال رئيس المحكمة عن سبب انكاره أنه يعرف البندقية التي كانت أداة الجريمة في يادى الأمر فأجاب قائلاً:

- كنت لا أريد أن يأتي الاعتراف مني أنا.

وأراد رئيس المحكمة أن يشعره بفداحة اتهامه لأبيه فقال له:

- انه لرهيب ويشع جداً أن يتهم الابن أباه، فقال كلوفيس:

- أجل يا سيدي الرئيس، إن هذا رهيب حقاً... وعاد رئيس المحكمة يقول له:

- وإذا كنت تكذب فانتا لن نجد لمثل هذا الكذب ما نصفه به من شدة بشاعته وقرط دمامته...

فأجاب كلوفيس يهدوء ودون أن يتلعثم:

- انني أقول الحقيقة!

ثم روى حكاية شجار حدثت في المزرعة، قال الأب في أثنائه صائحاً ومحتدًا

ومهدداً:

- إنني أنا الذي قتل الأشخاص الثلاثة، وإنني لخليق أن أقتل شخصاً رابعاً..

عندما سمع العجوز غاستون هذه الكلمات، لم يستطع أن يضبط نفسه فهب واقفاً وصرخ قائلاً:

- كذب! لقد كذبت يا كلوفيس.. إن كل ما قلته كذب.. لقد ذكرت شجاراً عنيفاً حصل، ولكن، أيها الولد القذر، لقد كنت أتحدث إلى أمك حول المجراف الثرية عند خط السكة الحديدية، وقد قلت بكل بساطة: لولا أننا أزلنا الحجارة والثرية المنهارة فوق السكة الحديدية لذهب ضحية الانجراف عدد كبير من القتلى.. يا ناس: كلوفيس يتهمني.. ابني يتهمني.. لقد كان دائماً يتهمني.. ولا تأتي الأكاذيب إلا منه هو.. غير أن كلوفيس قال دون أن يتزحزح أو يتلجلج:

- لقد قلت الحقيقة!

وعاد العجوز غاستون يصرخ قائلاً:

- انك تكذب.. انني أريد أن أدافع عن شرف أسرتي وأحفادي..

وعندئذ قال كلوفيس متهمكاً:

- شرف الأسرة.. آه.. يا له من إرث.. وما أجملها من تركة!

وجاء دور «روز» زوجة كلوفيس لتؤدي شهادتها.

وبالطبع فإنها لم تناقض أقوال زوجها إلا أنها راحت تؤكد مع ذلك أن زوجها.. قد أخفى الحقيقة عنها زمناً طويلاً، ثم قالت:

- لقد لمت كلوفيس لأنه لم يذكر لي شيئاً. فأجابني أنه كان يأمل أن والده سوف يتقدم إلى العدالة من تلقاء نفسه ويبرح بارتكابه الجريمة أو أنه سيتحرر تاركاً، من بعده، رسالة، تشرح كل شيء.. وإني لأذكر أن زوجي لم يعد، منذ مدة، يجد إلى النوم سبيلاً.

* * *

كان كلوفيس وزوجته روز دقيقتين واضحين في شهادتيهما. وجاء بعدهما، دور الابن الثاني - غستاف - فكانت شهادته سبباً في مزيد من الريب والتشكك. واستهل شهادته فقال أنه في كل ما قاله سابقاً قد كذب على الجميع دائماً...

ولكن تأكيد هذا أليس كذباً جديداً يضاف إلى الأكاذيب الأخرى السابقة التي ذكرها؟

انه في هذه اللحظة لا يتهم أبداً ويكذب كل ما سبق وقاله لقاضي التحقيق. ثم يقول:

- لقد اتهمني رجال البوليس بمختلف الاتهامات الشائنة، عندما رأوا انني لا أريد أن أتكلم، وقد انهالوا علي ضرباً... لأن صحتي قد أزعجهم... كانوا يريدون أن يدفعوني إلى الإدلاء بالأكاذيب... واضطرت أن أكذب. انهم ما كانوا يريدون الحقيقة.. لقد جعلوني أتهم والدي.. ووالدي بري... أجل بري...

- ١٢ -

واذن فقد تغير كل شيء. وها هو غستاف، الابن الثاني، يؤكد أنه لم تصافح اذنيه قط حشرات الفتاة الصغيرة - اليزابيث - في نزعتها الأخير.. وهو

يؤكد كذلك أنه لم يذهب قط إلى مكان الجريمة باحثاً عن الفشك الفارغ كما سبق وأدلى في شهادته السابقة.

كيف يمكن أن يعرف الانسان: في أي يوم يقول الكاذب الحقيقة؟ لا سبيل إلى ذلك إلا أن يستطاع سبر أغوار النفوس وأعماق القلوب.

ومع ذلك فإن الحضور قد أيقنوا أن الذي يعلمه غستاف أكثر بكثير مما يدلي به، وأنه إذا أفضى بما في نفسه فإن الكثير من المعميات في هذه الجريمة لا بد أن تتضح تماماً.

وحاول الأستاذ «بولاك» محامي العجوز غاستون أن يحل عقدة من لسان غستاف، فقال له:

- يا غستاف دومينيسي اصغ لما أقول: إن المحكمة ترجو أن تقول الحقيقة.
فأجاب باقتضاب

- لقد قتلها!

- انني أستحلفك أن تفضي بما في صدرك.. ما الذي حدث في ليلة الجريمة؟
إن والدك يطلب ذلك منك على رؤوس الاشهاد، فانك أنت تعلم الحقيقة.

فقال غستاف باقتضاب مرة أخرى:

- قلت الحقيقة.

وراح الرجل العجوز، والده، يتوسل إليه هو نفسه فقال:

- لا أريدك يا غستاف أن تقول انني بريء. ليس هذا ما يجب أن يقال.

وانما قل الحقيقة نفسها. من كان معك في الحقل عندما سمعت الصراخ؟ من كان معك؟. يجب أن تتكلم أمام الجميع. قل الحقيقة وحسب.

فعاد غستان يردد قائلًا بأصرار وعناد:

قلت الحقيقة وانتهى الأمر.

وتوالت بعد هذا شهادات الشهود. لقد كان من بينهم الكثيرون ممن قالوا أي شيء مما يخطر ببالهم. فمثلاً «روجيه بيران» حفيد المتهم، وهو فتى في العشرين من عمره وتبدو عليه الطيبة والصراحة. هذا الفتى اخترع في شهادته حوادث من عالم التصوير والخيال، وراح يذكر تفاصيل كاذبة فوق أخرى وسط كل هذه الأكاذيب التي لا جدوى منها وكذلك بسط الملابس القذرة للعائلة، لم يساعد على الإطلاق في إلقاء شعاع ضئيل يساعد في توضيح الموقف.

لم يبق إذن غير أصوات الاتهام والدفاع ترتفع من حنجرتي محامي الدولة ومحامي المتهم. أتراها تستطيع أن تحل جميع الألغاز والمعميات وتصل إلى الحقيقة؟.

لا زلنا نرجو هذا ونتمناه.

* * *

سيكون هناك قراران للاتهام: أولاً المحامي العمومي «سبانييه» الذي قال انه واثق ومقتنع كل الاقتناع «بأن العجوز غاستون دومينيسي هو المذنب الوحيد الذي اقترف الجريمة اقترافاً تاماً، كاملاً، كلياً»، ويأتي بعد هذا الاتهام النائب العام «روزان» الذي أيد ما قاله المحامي العمومي ثم راح يوجز القضية على النحو التالي:

لخص النائب العام «روزان» القضية كلها على الوجه التالي فقال:

نهض الفلاح العجوز «غاستون دومينيسي» وانطلق إلى حيث أقامت أسرة «دراموند» الانكليزية في العراء غير بعيد عن مزوعته.

وقد تملكه الفضول فأراد أن يعرف لماذا أثر أولئك الانكليز الأغنياء أن يناموا هكذا في العراء بدلاً من أن يتخذوا لأنفسهم غرفة طيبة في فندق محترم بالمدينة القريبة، وجعل يجوس خلال السيارة وحول أشياء الأسرة الانكليزية.

وقد استيقظ العالم البريطاني «جاك دراموند» فحسب المزارع العجوز لصا يحاول أن يسطو على شيء ما من متاعهم فنهض وتماكس الاثنان ولا ريب في أن الغلبة في أول الأمر كانت للعالم الانكليزي فهو أصغر سناً من غاستون وأكثر رشاقة وخفة..

وأمسك النائب العام هنيئة، ثم تابع كلامه قائلاً:

- وعندئذ فإن غاستون دومينيسي لم يطق أن يكون ثمة من هو أقوى منه جسماً وإرادة، ولو كان في السادسة والسبعين من عمره، وتساءل: كيف يتغلب عليه انسان ما، وهو الذي ترتعد أوصال أفراد أسرته فرقاً منه ومن مجرد سماع صوته الجهير، وكيف يستسلم أمام قوة طارئة توشك أن تقهره وتذله؟ وهكذا استولى الغضب الرهيب على الخنزير البري العجوز فتناول بندقيته وأطلق النار على الانكليزي وزوجته معاً.. غير أنه بقي هناك شاهد على جريته، فلا بد أذن من التخلص من هذا الشاهد... وقد كان هذا الشاهد هو البنية البريئة «اليزابيث» فقتلها هي الأخرى، وعلى هذه الصورة تمت «المجزرة الثلاثية» الرهيبة...

كانت هذه هي وجهة نظر النائب العام. وفي ختام مراقبته طلب برأس غاستون العجوز ثمناً لهذه الجريمة النكراء.

* * *

ولكن. ماذا ترى سيفعله الدفاع؟ انهم محامون ثلاثة عن غاستون. أترام سيستطيعون أن يهدموا ببلاغتهم وقوة منطقهم هذا البناء الذي أقامه النائب العام؟.

كان المحامي الأستاذ «بولاك» هو أبلغ الثلاثة وأشدهم عارضة وفصاحة، وقد جهد جهده لكي يثبت أنه ما من بيّنة أو برهان أمكن تقديمهما ضد الرجل العجوز، وأن الأمر كله لا يعدو مجرد الفرضيات الذهنية والتصورية التي لا يساندها واقع ملموس أو بيّنة مادية واحدة..

والواقع أن تصرفات مختلف أفراد أسرة دومينيسي بقيت مقلقة ومحبيرة يلفها الغموض والخفاء.

وقد جعل الأستاذ بولاك، هدفاً لهجرمه الشديد: الابن الأكبر للرجل العجوز، ابنه الأول «كلوفيس» الذي اتهمه بمقتل الأسرة الانكليزية، وشهد عليه وكأنه أكثر الناس اقتناعاً بجريمة والده واقترافه إياها، وقال محامي الدفاع:

- ان كلوفيس هذا جد سعيد ان يفقد والده ويكون هو سبب ضياعه.. ولقد أدى به حقه الدفين هذا إلى ارتكاب هذه الخطيئة الكبرى وهي: رغبته في القضاء على والده العجوز.

فلماذا ترى كلوفيس قد كذب؟ لقد كذب لأن اكتشاف أداة القتل وهي البندقية تخصه هو، أجل إنها بندقيته. وان اكتشافها أصابه بالذعر الرهيب..

وهو الذي يعرف جيداً من ارتكب الجريمة.. وربما كان للجاني أولاد، وربما كان الجاني لا يزال شاباً. وربما كان العمل في الأرض لا يزال بحاجة إليه.. في حين لم يعد الرجل العجوز صالحاً لشيء غير الخروج بعنزاته الهزيلات للنزهة.. فما نفعه، وما الجدوى من بقائه؟

واذن فان كلوفيس يكون قد ضحى برالده، اذ اتهمه وشهد عليه، وفي يقينه أنه لم يعد فيه أي نفع، وقد فعل هذا لكي ينقذ انساناً آخر من أفراد الأسرة.. غير أن الابن الثاني «غستاف» يعلم هو أيضاً الحقيقة. وعندئذ ناداه الأستاذ بولاك بصوته الجهوري، وقد خيم الصمت الرهيب على جو قاعة المحكمة. ناداه قائلاً:

- غستاف! انني لا أدري إذا كنت موجوداً في هذه القاعة. ولكن إذا كان لا يزال في أعماق قلبك شيء ما.. إذا كنت تعلم الحقيقة بالغة ما بلغت من الرهبة والهول.. أجل يا غستاف.. انني أستحلفك أن تقول، وتفضي بهذه الحقيقة.

- ١٤ -

كان لكلمات المحامي البارع وقعها المخيف في النفوس. وقد خلق جو المأساة في القاعة، وتمثل الحضور وقائع تلك المجزرة الثلاثية الرهيبة، وارتعدت أوصال الكثيرين، ولاح للجميع ان هذه الجريمة هي جريمة ما بعد الحرب العالمية الثانية الكبرى، الجريمة التي الفت شبح الذعر على فرنسا كلها، وسطت فوقها وشاحاً اسود رهيباً زاد حدادها، على ضحايا الحرب، سواداً.. انها وصمة عار ان تراق دماء اولئك السباح الانكليز فوق تربة فرنسية غيلة وغدراً، وأين يوارى الشعب الفرنسي وجهه اذ يقال ان عالماً بريطانيا كبيراً واستاذاً مرموقاً من اساتذة الجامعات قد قتل هكنا، في ارض فرنسية، دوفا جريرة او ذنب سوى ان انساناً مسالماً اتى مع افراد أسرته لقضاء بضعة اسابيع في فرنسا؟، راين يوارى وجهه

وقد اغتيلت بنيه صغيرة بريثة لم تتجاوز الثانية عشرة من عمرها، واغتيلت معها امها المرأة الجميلة، التي كانت ترجو من هذه الرحلة الخير والعافية لزوجها وابنتها؟..

اجل. كان للكلمات المحامي البارع وقصها المخيف في النفوس، الا نفس انسان واحد هو «غستاف» الابن الثاني لغاستون دومينيبي، وهكذا هوى نداء الاستاذ «بولاك» في الفراغ التام... وسط الانفعال العام الشديد...

ترى: ماذا سيكون وقع هذا كله في نفوس المحلفين؟ هل تراهم سيراتابون في ان يكون هو القاتل؟ هل سيشتبهون بالابن الثاني: غستاف ان يكون هو القاتل.. هو الذي يجب ان ينجو رأسه من المقصلة لتتهوي بعدها الرهيب على رقبة والده الشيخ الذي لم يعد صالحاً لشيء.. فاذا قتل تكفيراً عن ذنب ابنه ذهب غير مأسوف عليه؟

وينهض الرجل العجوز غاستون دومينيبي متحاملاً على نفسه، ينهض للدفاع الاخير عن نفسه، للاقتضاء الحاسم بما في صدره.. انها عبارات قليلة تلك التي فاه بها وكأنه تلميذ صغير غير عجيب يلقي درسه، فقال:

- انا هنا في مكان الاتهام والجريمة بدلا من انسان آخر. وهذا الانسان الاخر كان- هو- الذي يجب ان يقف هذا الموقف بدلا مني.. واني لرجل صادق ونزيه... واعلن على رؤوس الاشهاد انني: بريء...

اتراه حين نطق بهذه الكلمات كان يعلم بما يجازف به؟

ونهض المحلفون، واختلوا بأنفسهم ودامت خلوتهم ساعتين كاملتين، ثم عادوا الى قاعة المحكمة.. وفيما يشبه الحلم لم يسمع الرجل العجوز «غاستون دومينيبي» من الكلمات والعبارات الكثيرة التي قالها رئيس المحكمة غير

عبارة واحدة، او غير كلمة صغيرة واحدة خرجت من بين سائر العبارات والكلمات وكأنها ترتعد ارتعاداً: الموت!

لقد حكم عليه بالموت اذن... بالاعدام... والجم فمه فلم يجد كلمة واحدة يقولها...

ومع ذلك فان جميع الفرنسيين يعلمون ان الرجل العجوز غاستون دومينيسي الذي صدر عليه حكم الاعدام الرهيب هذا، لم يصعد قط الى منصة المقصلة التي تحز الرقاب، وما انفكت تحزها منذ الثورة الفرنسية الى اليوم... أنه لم يصعد الى منصة المقصلة، ولم تهو شفرتها المخيفة على رقبته لسبب بسيط هو ان تقدمه في السن قد سمح باستبدال حكم الاعدام بالسجن وحسب!

وفي شهر قوز سنة ١٩٦٠ اطلق سراح الرجل العجوز غاستون دومينيسي الذي كان يطلق عليه اسم المختزير البري وقد خرج من سجنه حتى وصل الى بيت احدى بناته، بعد ان بيعت املاكه واراضيه وهو في السجن.

في هذه الاثناء شرع في تحقيق جديد حول هذه القضية، ذلك ان الكثيرين كانوا يرون، في الواقع، ان القضية السابقة لم تقدم اي حل، وان الكثير من نقاطها بقي غامضاً شديد الغموض.

وقد قال «بيير سيز» احد شهود القضية: «اما ان غاستون العجوز كان مذنباً فما من احد كان يستريب حقيقة في هذا غير أن اصرار المحكمة العجيب على أن لا ترى غير هذا المتهم الوحيد من ملابسات القضية كان صدمة لكثير من اصحاب الوجدانات والضمائر الحية». وقال المحامي «جاكوب» من ناحيته: إن شكاً ثقيل الوطأة قد ران على هذه القضية سواء في اثناء التحقيق او في خلال المرافعات الطويلة. وهذا الشك لا يزال قائماً إلى اليوم».

وعلى الرغم من هذه الريب والشكوك وعلى الرغم من الخشية ان لا تكون العدالة قد اخذت مجراها الصحيح في هذه القضية، فان التحقيق الجديد الذي اوعز به وزير العدل الفرنسي قد اوقف بقرار صدر ووصف هذا التحقيق بانه «غير ذي موضوع».

وقد دار الحديث أيضا حول امكان مراجعة القضية السابقة، غير انه لم يحدث جديد يقتضي اعادة النظر في القضية. ويبدو- الى اليوم- ان هذا الاحتمال قد تلاشى هو الآخر.

ولقد مات العجوز غاستون دومينسي موتاً طبيعياً، غير ان سائر افراد أسرته الكبيرة يعلمون الكثير عن هذه الجريمة، ويعلمون ان ثمة تفاصيل كثيرة لا تزال طي الخفاء، ولا يدري بها احد غيرهم. اتراهم سيبحون يوماً بما يعلمون؟ ان هذا مستبعد، وسيظل جدار الصمت قائماً اذا كان المجرم الحقيقي؛ لا يزال حياً بينهم..

ابناء زعماء النازي

ماذا هل بهم؟

كتبها نرين غان

زعماء النازي: هيلمر، هيس، غورنغ، وورنبرغ، وينتروب، بورمن، وغيرهم، وعلى رأسهم جميعاً هتلر نفسه. هؤلاء الزعماء من طراز الشخصيات التاريخية التي هزت التاريخ وتحكمت بمصائر الشعوب، ولا تزال اسماء زعماء النازي ترن في اسماعنا، فالعهد بهم قريب قرب الحرب العالمية الثانية وويلاتها. الا انهم، الى جانب حياتهم الحافلة بالحوادث والاحداث الجسام، كانت لهم حياة خاصة، وكان لهم ابناء وبنات وزوجات. وقد طويت صفحات اولئك الزعماء الذين هزوا العالم فترة من الزمن، وبقي اولادهم وبناتهم وزوجاتهم. ولا يملك المرء الا ان يتساءل: كيف كانت حياة زعماء النازي العائلية، كيف كانت علاقاتهم بابنائهم، واين يعيش، اليوم، اولئك الابناء وماذا يفعلون، وكيف تراهم يحملون على اكتافهم عبء اسماء آباءهم؟ انها اسئلة في الصميم شد ما يتطلع الى أجوبتها جميع المهتمين بكل ما يتصل بالتاريخ الحديث من أسباب. وها هو الكاتب الاميركي «نيرين غان»، مؤلف كتاب «ورود دالس الحمراء» عن مصرع الرئيس كينيدي الذي احدث دويلاً كبيراً في الولايات المتحدة، يقوم بالتحقيق الشائق، ويتتبع آثار ابناء اولئك الزعماء، ثم يحدثنا عنهم، وعما يصنعون في آفاق الدنيا، وكل منهم يحمل اسماً تاريخياً مليئاً بالمعاني.

* ابنة هيلم

في كل صباح، وفي الساعة التي تخرج فتيات مدينة «ميونخ» اللواتي يحسن الاختزال والضرب على الآلة الكاتبة الى اعمالهن، تشق امرأة شابة مكتنزة باب العمارة التي تقيم فيها وتروح تلقي بنظرات محتزة متوجسة الى الخارج لكي تتأكد من ان ليس ثمة من أحد يراقبها. وإذا تطلع الناظر الى وجه هذه المرأة فانه يشعر انها قد تجاوزت الثلاثين من عمرها، غير أن جسمها يدل على أنها ما تزال محتفظة بقوام ورشاقة فتاة في ريع الشباب.

وإذا ما هدأت مخاوفها وتوجساتها فانها سرعان ما تتجه اولا نحو دكان تقوم في الزاوية . دكان للكي الآلي باسم «محل غادران لكي الملابس» تملكه هي.. ثم تجتاز مشياً على قدميها حي «شوابنغ»، وهو أشبه ما يكون بنموذج مصغر لمدينة باريس في بافاريا، وتصل أخيراً الى المكتب الذي تعمل فيه موظفة.

غير انها اذ تشق الباب وتنتظر من خلاله تترد راجعة الى شقتها اذا اشتبهت في الخارج بوجود شخص مجهول ينظرها او يشرب خروجها. وعندئذ تتناول سماعة الهاتف وتتصل باصدقاء لها. ولا يلبث اولئك الاصدقاء الموثوق بهم ان يوافوها في دقائق، وساعتئذ يعرفون كيف يلقون الذعر والارهاب في قلب ذلك الفضولي المجهول. وقد يكون، احياناً، احد المصورين فباخذون آتته عنوة ويحطمونها ويذيقونه ضرباً مروعاً لا ينساه.

وكان في وسع هذه المرأة الشابة ان تتحاشى كل هذه المزعجات لو أنها ارتضت ان تختفي وراء اسم آخر غير اسمها، غير ان «غادران هيلم» رفضت هذا الاجراء البشع إذ ان اسمها الحقيقي مكتوب في دليل الهاتف، وفي وسع الجميع ان يعرفوا انها تقيم في عمارة رقم ٨١ بشارع «جورجنستراسه».

وهي تقول: «انا معتزة باسمي اعتزازي بالدي»، وترفض ان تعترف بان والدها كان اكثر من يخشاه الناس في المانيا، وربما كان رجل الرهبة الوحيد في العصر كله.

إنها ليست الوحيدة التي تتظاهر بمثل هذه الكبرياء.

ان جميع الابناء الآخرين، ابناء وبنات: غورنغ، وبينتروب، بورمن، شيرتش، هايدرتش، رزنبرغ، فرانك انتهت بهم الاقدار الى مصاير مختلفة: فمنهم الان الاغنياء واليؤساء، والمشاهير والمنسيون الخاملون، والمتطرفون والمعتدلون ولو في الظاهر، ولكن احداً منهم لا ينكر اياه وان دفعوا الثمن غالياً، في بعض الاحيان، لهذا السبب وحده.

وربما كان وراء هذه الحيوية المفرطة بهذه الاسماء لانها لا تنفك تتلبسهم ليل نهار وكأنها اشبه ما تكون بسحر ساحر القى عليهم. إنها خطيئتهم الاصلية التي يريدون ان يحيلوها الى فضيلة، ما داموا لا يدخل في مقدورهم التخلص منها.

ومع ذلك فان «غادران هيلمير» فتاة محببة. ولقد تناولنا طعام العشاء معاً، وكانت سهرتنا لطيفة ممتعة، وربما لانني عنيت بان أخفي عنها انني كنت احد اسرى الحرب العالمية الثانية في معتقل «داشو» وهي تعرف كيف تكون رائعة ساحرة عندما لا تتحدث في السياسة. وقد اعترفت لي بأنها قد رفضت دائماً ان تتزوج رغم عروض الزواج الكثيرة التي قدمت لها. اما السبب فلأنها لا تريد أن تغير اسمها وتستبدل به اسماً آخر. وقالت:

- لا اريد ان انكر والدي واجعده. يجب ان يكون هنا احد ما يحمل اسم «هيلمير»....

عندما دخلت شقتها الصغيرة في شارع «جورجنستراسه» دهشت حقاً على الرغم مما قيل لي سابقاً، انه ليس مسكن فتاة بل هو متحف. ففي كل ناحية وزاوية تطالعك لوحات من وحي النازية، رقائيل نصفية، وكثب كثيرة، ومستندات، ومحف، ولطائف، والبومات، وأشياء شخصية للذكرى، ورسائل، وأوسمة ومدايا، وشارات عسكرية... الخ...

لقد جمعت، خلال سنوات، ما استطاعت ان تعثر عليه مما يتعلق بوالدها. وقالت:

- هنا اشياء اضطرت ان أبقى اسبوعاً كاملاً دون ان أتناول وجبة العشاء لكي استطيع ادخار ثمنها وشراؤها.

ارسل اليها اشخاص مبعثرون في انحاء العالم من النازيين القدماء اشياء كثيرة لتحفظها ذكرى لوالدها . وتاهت بحثها عن بعض هذه المخلقات فسافرت عدة مرات الى السويد، وانكلترا، وحتى فرنسا، وهي ترغب في الذهاب الى واشنطن حيث توجد، كما قالت، مستندات ذات اهمية خاصة تتعلق بوالدها.

كانت صورة واحدة ناقصة في هذه المجموعة هي صورة هملر ميتاً، التقطت له قبل حرق جسده بقليل. وبعد حرق الجثة نشر رمادها مع الريح في غابة «لينبورغر هايد». وأشارت الى احدي الصور وقالت:

- انها صورة غير حقيقية لوالدي هملر، وكانت قد التقطت له في استعراض عسكري سنة ١٩٤٣ ثم ركب تركيباً خاصاً. انني لا اعتقد ان والدي انتحر. ان نهايته لا تزال سرّاً خفياً، غير اني ارجو ان أجلو هذا السر في يوم من الايام- الواقع انني اعتقد انهم قتلوه.

وقد أبدت رغبتها في وضع كتاب عن والدها. ولما اقترحت عليها هذا

العنوان: « في سبيل الدفاع عن ابي » هزت رأسها غير موافقة، واجابتني:

- ليس ابي في حاجة الى من يدافع عنه: والا كان ذلك اقراراً بأنه مذنب،
سأسمي الكتاب بكل بساطة: « هيرتس هيملر » وسيأتي يوم سينطق باسم
ناهليين اليوم، او « ولنفتون » او « مولتكيد ».

لم تكن « غادران هيملر » عند وقوع الهزيمة قد تجاوزت الخامسة عشرة، وهي
لا تتذكر شيئاً ذا أهمية. وقد كانت في سنوات الحرب لا ترى والدها الا نادراً،
ويبدو انه اضطر الى التخلي عن حياته العائلية. وكان آخر لقاء بينها وبينه في
شهر نوفمبر- تشرين الثاني- سنة ١٩٤٤ . وقالت:

- لا شك في اننا كنا نتصل هاتفياً. غير انني لم اكن لأحدثه في غير
مشكلاتي المتعلقة بفترة المراهقة.

ومع ذلك فقد اعترفت انها ذهبت يوماً مع والدها الى معتقل داشو، وقالت:

- اجل، لقد أراني والذي بعض الاسرى والمساجين، وقال لي: اولئك الذين
يحملون شارة مثلث أحمر هم المساجين السياسيون، وذوو المثلث الاسود هم
المجرمون. وقد تراءوا لي جميعاً بهيئة جميع مساجين العالم في كل السجون.
كانوا يرتدون ملابس مهلهلة، وقد تركوا حلق لحاهم، انهم لم يوحوا الي بأية
طمأنينة.

ولم يشر اهتمامي شي، هناك سوى بعض مزروعات الخضر، وقد حدثني
والدي عن أهمية النباتات التي تزرع في المعتقل، واستطعت ان اقتطف بعض
اوراقها للذكرى.

فى يوم ١٣ مايو- ايار- سنة ١٩٤٥ اجتاحت الفرق الاميركية قصر «بولزانو» الملكي فى «اديغ العليا» بايطاليا حيث كان قائد القوات الالمانية، الجنرال وولف، ينتظر وصول هذه القوات بسكينة وهدوء، وقد امسك بقدح من الشمبانيا فى يده. وفى هذه الاثناء عرض احد الضباط الالمان القريبين منه، عرض على الاميركان هذه المساومة: «دعوني ارجع الى المانيا وانا ادلكم اين تختبئ، زوجة هيملر «مارغا» وابنته «غادران»».

وهكذا بقي القبض عليهما وذهبتا تحت الحراسة الى «البرغو ديلابوستادي بولزانو» بعد أن كانتا مختبئتين فى «كازال موتشي» فوق رابية تطل على المدينة.

اقول انهما ذهبتا تحت الحراسة حماية لهما خاصة. فقد كان الشعب وجماعة الانتصار لا يحنون الى شيء حينئذ الى قتل هاتين المرأتين وهما زوجة وابنة أبغض رجل الى اوروبا كلها. ثم نقلتا باسرع ما يمكن الى مدينة «فيرونه»، ثم الى «فلورانس».

وقد استجويتا مرة بعد أخرى، وانهالت عليهما الشتمات والمسابات والاهانات وقال لهما احد ضباط الحلفاء وقد ذهبت اليه تشكو ما تعاني هي وامها من هذه الاهانات، قال لهما وهو يهز كتفيه:

- عندما يحمل اى انسان اسم هيملر يجب ان يتوقع هذا واسوأ منه.

وكانت المرحلة الثالثة لهذه التنقلات الكثيرة: «سينيسيا» فى مدينة روما، وسينيسيا هي مدينة السينما، وقد حول الحلفاء «هوليروود» ايطاليا الى سجن ضخم. وقد اعدوا لزوجة هيملر وابنته غرفة فى هذا السجن، هو عبارة عن

«ديكور» استعمل في السابق لتمثيل فيلم من افلام الفاشية. وكان الحرّ هناك فظيحا لا يطاق، والغذاء ملوثاً. وقد عزلت الاثنتان تماماً، وراحت «غادران» تحلم بالفيللا الانيقة التي كانت تقيم فيها، ويغرفتها ذات الاثاث الجميل المدهون. وبعدرتها الثانوية الالمانية في «رايتشر سيورن». ان هذا كله الان بعيد، بعيد جدا، وكأنه لم يكن حقيقة ماثلة ذات يوم..

وقررت ابنة هيملر ان تضرب عن الطعام. واضطرب لذلك موظفو الاستخبارات البريطانية، وقد كانوا مسؤولين عن احوال الاسرى. وفي النهاية استسلم اولئك الموظفون، وأمروا بأن يقدم للمرأة وابنتها ما يقدم لضباط الحلفاء من طعام. وهكذا انتصرت ابنة هيملر وكانت لم تتجاوز الخامسة عشرة من عمرها. وقد أبت بشدة ان تتخذ اسماً غير اسمها ، حفاظا على سلامتها وسلامة أمها. وقد أعطيتا اسماً مستعاراً هو «براندث».

وفي مقابلة لهما مع مصور اميركي، ارتكب المصور حماقة بالغة اذ اعلمهما بانتحار هيملر، وكان انتحاره لا يزال حتى تلك اللحظة مكتوماً عنهما. ولما علم المصور باسمها الحقيقي، سأل الابنة بكل سذاجة:

- اذن فإن والدك مات مسموماً. واغمي عليها، فوراً، وظلت حياتها كما ظلت قواها العقلية في خطر حقيقي مدة شهر كامل.

-٤-

اخيراً استطاعت ابنة هيملر ان تغلب على أزمته المروعة. وما ان استطاعت السير على قدميها حتى أرسلت مع امها الى مدينة «ميلانو» حيث اقامتا في السجن المركزي، وقد كان، اذ ذاك، مزدحماً بالفاشست. وحتى تتجنبنا ما لا نحمد عقباء، اضطرنا الى ان نتحاشيا اسم «سكيث».

وحينما اصطعبيهما ، بعد ذلك ، ضابط اميركي الى فرنسا حيث لم تلبثا اكثر من ايام ثلاثة في فيلا بقر سايل ، ثم الى «نورمبرغ» الحت ابنة هيمر قائلة:

- سيكون اسمي منذ هذه اللحظة الانسة هيمر. لن اقبل بعد اليوم اسما مزورة. لم يعد مكان لكل هذا الهراء.

ولم يكن وجودها في «نورمبرغ» مجديا ، لانها لم تعلم اي شيء عن والدها. ولم قتل امام المحكمة كشاهدة. وما كان ليسعها ان تقول شيئا سوى انها كانت تلتقي بهمتر في رأس السنة، وكان في تلك المناسبة، يهديها دمية او علبا من الشكولاتة. هذا كل ما يمكن ان تذكره بنت صغيرة.

ثم تقرر ادخالها هي وامها الى معتقل مدني الحياة فيه احسن احتمالا، وحتى كان يمكن ان ترقصا فيه مساء، كان ذلك المعتقل أشبه بالاماكن الحرة، الا انه اكثر امناً على اي حال. وكان اسم هيمر، في الخارج لا يزال ممكنا ان يؤدي الى القتل الاعتيادي دون محاكمة او قانون، في حين كان الالمان يعانون من اقسى واشد شتاء عرفوه في حياتهم... وفي سنة ١٩٤٦، حينما عرض قائد المعتقل عليها وعلى أمها ان يطلق سراحهما، رفضت زوجة هيمر، قائلة انها لا تدري اين تذهب، وما كان أحد ليقبل أن يؤوي تحت سقف بيته: زوجة هيمر وابنته.

وكان ثمة دير يتخذ في الوقت نفسه مأوى في «بيثل»، وكان هذا الدير، وفقا لتقاليد، مكاناً لا يروء المصابين بداء الصرع، وللمجانين، والنساء الساقطات، منذ قرن، وفي قسم من هذا الدير اسمه «بيت دمشق» اعطيت زوجة هيمر وابنته غرفتين، وقد سجلتا في سجل الدخول على اعتبار انهما «ضعيفتا العقل».

وأرادت الراهبات البروتستانت ان يعملن على جذب الفتاة الى الدين،

وتعميدها لتصبح مسيحية بحق... فشارت وتمردت وقالت:

- اريد ان أظل كوالدي، ثم لاذت بعزلة تامة.

وفي السنة التالية، حينما، أرادت أن تدخل مدرسة مهنية، رفعت مديرة المدرسة يديها الى السماء لدى سماعها اسم هيملر. غير ان رئيس بلدية المدينة الاشتراكي، جعل المديرية تغير رأيها اذ قال لها:

ان ديموقراطيتنا الناشئة لا تأخذ الابناء بجريرة الآباء..

وهكذا استطاعت ابنة هيملر ان تتعلم مهنة التفصيل، وفيما بعد بقيت مدة عند «خياط» معروف للتدرب..

ولما بلغت الثانية والعشرين انفصلت عن امها وجاءت الى مدينة ميونخ، غير انها اصطدمت بمصاعب جمة في البحث عن عمل، وكانت رفيقاتها لا يكدن يعلمن اسمها، والى من تنتسب، حتى يطلبن فوراً وبالحاح طردها.

وقد اقترح عليها بعضهم، عدة مرات، ان تتخذ اسما مستعاراً لكنها رفضت.

-5-

اضطرت ابنة هيملر ان تغير اماكن اقامتها باستمرار، بحيث لا تبقى في المكان الواحد اكثر من ثلاثة اسابيع. وذات مرة طردت بعد ان ذكرت احدى الصحف اسمها وهوايتها دون قصد، ومرة اخرى طردت أيضاً لاحتجاج بعض الناس. وهكذا عملت خادمة في فندق، وعاملة، وبائعة في دكان، وسكرتيرة، واضطرت ان تنتقل باستمرار من مسكن الى مسكن.

اما اليوم فقد استقرت في حياة طبيعية نسبياً، وهي تشتغل ولا يبدو انها تعاني من هموم مالية. يتهامس بعضهم ان هناك اصدقاء اوفياء يرسلون اليها سراً ومن وقت الى آخر مبالغ تؤخذ من صندوق إعانة سري مودع في بنك سويسري. وبالطبع فان «غادران» ترفض ان تبوح باي شيء حول هذا الموضوع وهي لا تنفك تقول:

- مهمتي بسيطة جداً. اريد رد الاعتبار الى ابي. واني لارجو ان يساعديني في هذه المهمة الكثيرون من اعوانه الذين احتجبوا حتى الان تحت اسماء مغلقة مجهولة، ولذاوا بالصمت. وقد يستمر هذا خمس سنوات، او عشرأ، ولكن ماذا يهم؟ لست خائفة، فانا هيملرية.

ابن هيس

هذا الشاب الذي يعمل مهندساً في مصنع صغير بضواحي «ميمينخف»، والذي يدعوه الجميع بموده ظاهرة «وولفي» يرثر كثيراً طواعية واختياراً حول كأس من الويسكي الجيد، إنه يتحدث عن والده الذي لم يكذب يعرفه في الواقع، ما دام لم يكن له من العمر الا ثلاث سنوات عندما انفصل عنه.

ان والده لم يت، لكنه لم يعد في ذاكرته اكثر من ظل او شبح، لانه يرفض، منذ خمس وعشرين سنة، ان يرى ابنه الوحيد.

ومن المستحيل الحصول على صورة لـ «هيس» الان.

والوثيقة الوحيدة التي يحوزها الشاب هي صورة غير واضحة التقطت خلفه بآلة تصوير من بعيد. ووالده هو «رودلف هيس» الذي نجح من مشقة

«نورمبرغ». باعجوبة. غير أنه الآن ميت حي.

أما الشاب، وولف رايجر هيس، وهو اليوم في الثامنة والعشرين فإنه متصل بوالده، والمعروف بالرجل الثاني ونائب هتلر، عن طريق المراسلة. ذلك أن للوالد الحق في أن يرسل إلى ولده رسالة واحدة في الشهر ويتلقى منه مثلها. وهو لا يرسل أحداً غير ابنه لأسباب مجهولة. ولا يكتب قط إلى زوجته «السي».

وهيس، اليوم، هو السجين الوحيد في قلعة «سياندو» المتجهمة العابسة التي شيدها فردريك الكبير.

إن هذه الرسائل الشهرية المتبادلة تبعث أولاً من انكلترا، ثم من نورمبرغ وأخيراً من سياندو، وهي التي تمثل العلاقة الوحيدة، بين الأب وابنه منذ ربع قرن.

وما يجدر ذكره أن وولف كان الوحيد، من أبناء زعماء النازي، الذي ذاق مرارة الخزي قبل انهيار النازية بزمّن طويل. وكان قد ولد سنة ١٩٣٧ ووقف هتلر نفسه شبيهاً له، وما أكثر ما وصفت له أمه هذا المشهد التاريخي الرائع، وهما يقيمان معاً في دارة باذخة لها حديقة غناء وحوض سباحة فخّم. وفي سنة ١٩٤١ جاء والده فاحتضنه وقبله وقال له: إلى اللقاء القريب، فإن علي أن أركب الطائرة الآن.

ومنذ ذلك اليوم، وعلى وجه الدقة بعد ظهر ذلك اليوم المطير العاشر من شهر مايو-أيار- سنة ١٩٤١ لم ير والده ثانية. وقد مات ولقي حتفه بسقوط الطائرة في بحر الشمال. ثم زعم هتلر أن مساعده الأثير عنده قد أصيب بالجنون.

-٦-

اضطر الطفل الذي لم يتجاوز الثالثة من عمره فقط أن يفادر الدارة الجميلة،

وحديثها الفيتانة، ومسبحها الرائع، ويذهب للقامة في كوخ متوار في الجبال. وما عاد احد من حوله ينطق اسامه باسم والده هيس. وفيما بعد، حين صار في سن دخول المدرسة، كان رفاقه يبتعدون عنه، واذا سار في الشارع يومنون اليه وكانت امه لا تنفك تبكي وتنوح وتذرف الدموع كل مساء.

ثم كانت هزيمة المانيا وانهيائها، واحتلت القوات الفرنسية قرية، «هند فلاتغ» حيث كانت تقيم زوجة هيس وولده. الا ان احدا لم يزعج هذه الاسرة. غير ان زوجة هيس اعتقدت ان اوقاتا هنا وأرغد توشك ان تأتي، اذ انها كانت تخشى دائما انتقام هتلر حتى لو جاء متأخرا. ثم لم تلبث اول رسالة من هيس ان وصلت اليهما وقد ورد فيها قوله: «يجب ان لا تخدعكم الظواهر. وانالم اتغير، وصحتي جيدة.. ويمكن ان يقع لي كل شيء حقا: الموت، السجن، النفي.. كل شيء...»

وكان السجن نصيبه، من بعد، وقد أخبر وولف بذلك احد الرفاق، اذ سمع النبأ من الاذاعة، وقد قال له: «لا تجزع، سيبقى والدك على قيد الحياة»

وجاء في بعض رسائله قوله: «ان سجنني، في سياندو، نظيف، وانا هادي، مرتاح، ولي وسادة وفرشة، واهتم بالبستنة فأزرع الجزر، والبطاطا، وغدت ماهرة وخبيرا في مثل هذه الشؤون».

انها رسائل ود خاصة وحميمة، تتحدث في كل موضوع سوى السياسة. ولا يشير أحد من المتراسلين الاثنين: الرالد وولده الى كون رسائلهما خاضعة الى فحص المراقبين، والى انها ترسل الى لندن، وباريس، وموسكو، قبل ان تصل اليهما ويتسلماها، وهذه فقرة اخرى من احدى رسائل هيس الى ولده:

«يجب ان تعنى باللغة والنحو، ويجب ان تقرأ رسائلني دون جواب. واني لسعيد ان تكون بطلا من ابطال كرة القدم، ولا تنس كذلك انني اتوق الى ان

تصبح رجلاً...»

ويحب هيس ان يناقش ولده في اتجاهاته الفنية، فيحدثه عن الموسيقى قائلاً في احدى رسائله: «انه لحسن جداً ان تحول موسيقى «السلام عليك يا مريم» من قطعة كلاسيكية الى قطعة من موسيقى الجاز. ولكن لا تنس انه ما ثمة شيء يعادل جمال احدى سيمفونيات شوبيرت حين يعزفها العازفون كما وضع الحانها مؤلفها نفسه».

ثم هو ينصح لولده ان يتعلم اعادة الحديث، وهو يذكر له مثلاً على ذلك اسلوب الكاتبة الفرنسية القديمة «مدام دي ستايل»، ويقدم رأياً عن نابليون، وكان بذلك يضحك على رجال المراقبة. وفي رسائل اخرى يعطيه دروساً في الشطرنج، وفي احيان كثيرة يصور له مدى المدة لبعده عنه. غير انه يستمر في رفضه ان يرى ابنه، وقد اصيب الابن بخيبة شديدة في المرة الاولى عندما حاول، بصحبة امه، ان يرى والده، فجاءها رفض دخول سجن نورمبرغ: «الهر هيس لا يقبل زواراً».

ويفسر وولف هذا الموقف العنيد من والده قائلاً:

- انه يريد ان يتسكك لنا صورة جميلة منه. وهو لا يريدنا ان نفكر فيه تفكيرنا برجل بين الجنود، وراء قضبانه الحديدية.

-٧-

وقد ذاق «وولف» نفسه مرارة الاسر، كانت امه قد القي القبض عليها ثم زج بها في معتقل «غرجينجن» قرب «اوغسبيرغ» بامر من السلطات البافارية كغيرها من زوجات المتهمين في محاكمات (نورمبرغ)، وكان وولف لا يستطيع زيارتها الا مرة كل خمسة عشر يوماً، وبوجود الحرس. وفيما بعد انضم بدوره الى

امه في المعتقل بناء على طلبها والمحاجها، وقد وجد وولف نفسه بين رفاق له من لداته: «ايدا» ابنة غورنغ، وابناء فرانك، واولاد برمان الخ..

وفي ربيع سنة ١٩٤٨ قروت المحكمة اطلاق سراح السيدة (السي هيس)، والدته، غير ان ثروتها كلها كانت قد صودرت، ولم يبق لها الا بضع قطع من الحلبي كانت قد اودعتها بعض الاصدقاء، ولكي تستطيع ان تكسب قوتها عملت في الفنادق، وادخلت ابنها مدرسة في «برختسفادن» ثم نقلته الى مدرسة اخرى داخلية، حيث نال شهادة «البكالوريا» الثانوية، وحاز بطولة التزلج على الثلج، ودرس بعد ذلك الهندسة في جامعة ميونيخ وتخرج فيها مهندسا يحمل دبلوما. وكان، لكي يدفع نفقات دراسته ومصروفات معيشته، ينهك في اعمال مختلفة فعمل بائع جرائد، وممثل مسرح، وحطاباً وبائع مرطبات الخ..

وفي سنة ١٩٥٩ ذكر اسمه في الصحف والمجلات، وقد رفض ان يقوم بالخدمة العسكرية، وعلل ذلك قائلا:

- ان الاسباب التي تدعوني الى الامتناع عن الخدمة العسكرية بسيطة. الجيش الالماني جزء من قوات حلف هي الدول الحليفة التي تقي والدي في سجنه ظلماً، ولن يسعني ابدأ ان اخدم جلاذ والدي.

اما الفتاة الباهرة الجمال «ايدا» ابنة «هيرمن غورنغ» فقد راحت تقول لي في كثير من الكبرياء والفخر:

- إن فرح ديبا زوجة شاه ايران تسلمت ستة عشر الف بريقة تهنته عندما وضعت ولي العهد، ولما ولدت أنا تلقى والداي ستمئة وثمان وعشرين بريقة

وعلى الرغم من اسم اسرتها ، بل على الرغم من اسمها الشخصي «ايدا» .
وكان قد اختير لها تكريماً لزوجته الكونت «شيانو» ابنة موسوليني ، وكانت تدعى
«ايدا» ، وكما يعلم الجميع ان الكونت شيانو قتل رمياً بالرصاص نزولاً على امر
هتلر بموافقة موسوليني والد زوجته، تقول على الرغم من هذا كله فقد ابتسم الحظ
لـ «ايدا» ابنة هيرمن غورنغ الزعيم النازي الكبير، انها لنضرة الشباب، وفائقة
الحسن، وثرية وتلقى الدعوات من كل مكان، ويشعر الكثيرون بالزهر ان يظهروا
معها في الحفلات او الدعوات . ولقد ورثت شعبية والدها، وكان هو يعرف كيف
ينال اعجاب الجماهير، وكان مرحه والبشر الذي يطفح به وجهه يحولان دون
الاعتقاد بانه قاتل سفاح. ولقد عرف غورنغ ان يسلك سلوك الكرامة في محاكمة
نورمبرغ.

ان الالمان لا يباحون بهذا علناً، غير انهم لا يزالون معجبين ان استطاع
غورنغ ان يهزأ بجلاديه وسجانيه فنجاً بالسم من الموت المزمي على مشنقة
المجرمين. وقالت لي ايدا:

- كان والدي رجلاً ممتازاً، ان عمله في السياسة كان خسارة ومدعاة للأسف
وهو لو اكتفى بصنع الشكولاته كما كان يفعل جدي لكنا جميعاً، اليوم معاً
سعداء غاية السعادة. اما انا فإني لا اشتغل بالسياسة،، وحسبي انني ابنته،
وبالطبع فاني احمل اسمه بكل فخر واعتزاز. ان الكثيرين في احيان جديدة عندما
يعلمون انني «ابنة غورنغ» يظهرون السرور، بل ان خدم المطاعم يرفضون ان
يدعوني أذفع ثمن طعامي، كما ان سائقي سيارات الاجرة لا يطالبونني قط بأي
أجر.

وهي تعيش اليوم على دخل دائم لها، في منزل بمدينة ميونخ، غير انها
تعمل مساعدة ممرضة مجازة، وحياناً تعمل في عيادة احد الاطباء.

ويحول دون الفضوليين والمقتحمين واللصوص باب حديدي كبير لمسكنها.

ومما يذكر انها ولدت كما تولد بنات الملوك، ويومئذ حُلقت الطائرات وقامت بالألعاب وتشكيلات بهلوانية عجيبة في سماء المانيا، واطلقت لمولدها المدافع، وأحيا والدها حفلة رقص باذخة في قصره «كارينهاال». وكان ذلك في اليوم الثاني من شهر حزيران سنة ١٩٣٨ وهو يوم كاد يكون عيداً قومياً في المانيا.

-٨-

بعد سبع سنوات من ذلك التاريخ اي في سنة ١٩٤٥، القى جنود الصاعقة النازيون القبض عليها مع والدها وكانوا قد حاصروا قصر «موتاندورف» الذي كان غورنغ يقيم فيه في اواخر الحرب. وكان هتلر قد امر بابتداء اسيرة غورنغ جميعاً في الوقت نفسه الذي كان الروس فيه يحتلون المستشارية ببرلين. غير ان جنود الصاعقة اليائسين لم ينفذوا اوامر هتلر، وحاول غورنغ وزوجته وابنته، ومعهم ثمانية من الخدم، ان يجدوا ملاذاً لهم في ايطاليا، ولكن الاميركان اوقفوهم في الطريق، وبعد مضي شهر واحد فرقوا بينه وبين زوجته وابنته، وصودرت حقائبهم ما عدا صندوق قبعات، غير ان هذا الصندوق كان مليئاً بالحلي الثمينة التي تجاوزت قيمتها المليون دولار.

وفي شهر اكتوبر- تشرين الاول- اوقفت «ايما غورنغ» مرة اخرى، واكتشفت الحلي الثمينة فصودرت. اما «ايدا» فقد اخذتها الراهبات «البندكتيات» الى ديرهن، لكنها لم تلبث طويلا في كنف الراهبات بعيدة عن امها التي سمح لها بأن تحتفظ بابنتها معها في السجن. وربما كانت كلمة سجن مبالغاً فيها، فقد اتاحت اسباب الراحة للام وابنتها ولم يعوزهما، نسبياً، شيء، اذا ما اخذت بعين الاعتبار أوضاع المعيشة في المانيا في تلك الحقبة.

وأراد الامبركي قائد المعتقل الالماني ان يتخلص منهما ويطلق سراحهما،

غير ان زوجة غورنغ أثرت البقاء قائلة:

- لست ادري الى اين عسى ان اذهب. واخيراً وجدوا لهما، في شهر آذار سنة ١٩٤٦ كوخ صيد في احدى الغابات فاقامتا فيه في عزلة تامة. ولم يكن في وسع «ايدا» ان تذهب الى المدرسة، وهي بعيدة جداً عن مكان اقامتهما، فراحات امها تعنى عناية تامة بأمر تعليمها وتربيتها.

وفي النهاية استطاعت هذه البنية الجميلة ذات صفائر الشعر الشقراء المرسله على طريقة الممثلة الطفلة «شيرلي تامبل» والتي تشبه والدها هيرمن غورنغ شبيهاً عظيماً، استطاعت ان تزور والدها في سجنه بـ «نورمبرغ». وقالت لها امها:

- عديني ان لاتبكي

ولم تبك أبداً، فقد كان يفصل بينها وبينه حاجز زجاجي شفاف. وبدا لها غورنغ وقد فقد الكثير من وزنه، الا انه كان صافي المزاج. وفي هذه المقابلة سمعته ايدا قصيدة من محفوظاتها، فابتسم لها.

وكانت زوجته «ايجا» تأمل دائماً ان لا يحكم عليه بالاعدام، وتقول لابنتها:

- ستريين يا ايدا. سيصدرون العفو عن والدك، وينفون في جزيرة مثل نابليون.

واستطاعت ايدا، بعد ان بلغت العاشرة من عمرها، ان تدخل المدرسة اخيراً، وقد غدت من انجب الطالبات ثم انتقلت الى المدرسة الثانوية حيث نالت شهادة البكالوريا وكانت الاولى دائماً في جميع سني الدراسة. انها لم تنل عقاباً قط، وما يذكر انها نسيت شيئاً من دروسها، او تأخرت يوماً واحداً عن مدرستها.

ولما كانت المدرسة تنظم حفلات مسرحية، كانت ايدا تختار لتمثيل الادوار الرئيسية ، واساتذتها يذكرون انها كانت ذات موهبة عظيمة. اترى كان هذا من الورثة؟. والمعروف ان والدتها «ايدا» كانت احدى كبيرات ممثلات المسرح الكلاسيكي في زمانها.

-٩-

بعد ان تحدثنا عن «ايدا» ابنة الزعيم النازي الكبير غورنغ، لا نجد شيئاً كثيراً نقوله عن: أنجليك، وتشارد، وروبرت، وكلاوس ابناء «بالدور فون شيراش» زعيم الشبيبة النازية وحاكم النمسا، ولعل القراء يذكرون انه قد اطلق اخيرا سراحه مع الزعيم النازي الآخر «سبير» وكانا قد أمضيا معاً سبعة آلاف وثلاثمائة وخمسة أيام في السجن وهي المدة التي حكم عليه بها في محكمة نورمبرغ.

وبعد المضايقات التي عانى منها أبناء شيراش غداة كارثة انهيار المانيا، فقد استطاعوا ان يُخطوا مصيرهم ويشقوا طريقهم دون مساعدة أحد، ولم يكونوا في ضيق مالي إذ أن والدهم ينتمي إلى أسرة ثرية من علية القوم. وكانت جدتهم لأهمهم اميركية من مدينة «ميدلتون» بولاية «فيرجينيا». وفي سنة ١٩٥٢ ووت شيراش من جدته هو - اليزابيث بوالي نوريس، من فيلدلفيا باميركا - رزمة ضخمة من الاسهم في شركة خطوط السكة الحديدية الاميركية.

وكانت هذه الأسهم في اعتبار «دولستريت» حي المال والأعمال الأميركية أكثر من ثروة حقيقية. وفي خلال مدة سجنه فان شيراش لم يمس شيئاً من رأساله هذا. غير أن أبناء - روبرت وأخوته وأخواته - كانوا يتسلمون فوائد هذه الأسهم وكانت كافية لنفقاتهم وتلبية رغائبهم.

* * *

ويأتي الآن دور «ارين» ابنة الزعيم روزنبرغ. انها الآن في الثلاثين من عمرها، وهي في عدا - مستمر مع العالم كله.. وتبدو متعبة مجهدة الملامح، وتعكس نظرتها غضبها الدائم. وليس لها غير ضغائرها الشقاء تثبت بها أنها لا تزال آنسة. وهي تعيش على نحو ما مع أمها في مسكن متواضع بمدينة فرانكفورت الألمانية. والاثنان تجدان عمراً ومشقة في كسب قوتها.

وقد سمعتها تقول:

- لقد بقيت نازية، وأنا، بهذا، جد مزهوة. .

وتقول انها لا تنفك ضحية لليهود. وما يذكر أن والدها «الفريد روزنبرغ» كان هو واضع المبادئ النظرية للنظام النازي. وكان كتابه «الظاهرة العظيمة في القرن العشرين» هو انجيل النازية الجديد، وربما كان له من التأثير أكثر مما كان لكتاب هتلر نفسه: «كفاحي». وقد أصبح روزنبرغ أيضاً وزيراً للأراضي الروسية المحتلة، ويقال انه يتحمل مسؤولية كبيرة مما جرى هناك.

وقد كانت حياة «ارين» عذاباً موصل الأسباب، ذلك أن والدها فقد حظوته عند هتلر قبل انهيار ألمانيا بزمان طويل، وفي ٢١ آذار سنة ١٩٤٥ دمرت قنابل الغارات الجوية الدارة المترفة التي كانت أسرة روزنبرغ تسكنها في «داهلم» الحي الارستقراطي في برلين.

وكانت «هيدويغ» زوجته الثانية، إذ كان قد طلق زوجته الأولى الروسية. وكانت «ارين» فتاة صغيرة رائعة لا تنفك تنشد الشعر وتندرب على انحناءات التأديب والمعاملة. وكانت ابنتهما الوحيدة، وقد استطاعت أسرة روزنبرغ أن تهرب من برلين وتجد ملاذاً لها عند الاميرال «دوننز» الذي عينه هتلر ليكون خلفاً له.

إلا أنه ما لبث الجميع أن أغلقوا أبوابهم في وجه أسرة روزنبرغ، واختفى هو في أحد المستشفيات متظاهراً بأنه أحد المرضى، وتخفت زوجته في ثياب ممرضة، وكانت «ارين» معها لا تفارقها، إلا أنه وشي بهم. وفي يوم ١٩ أيار جاء البوليس البريطاني العسكري وأوثقهم جميعاً..

وبعد أيام أطلق سراح «ارين» وأمها، ووجد لهما رئيس بلدية المدينة غرفة صغيرة في عمارة، غير أن المستأجرين الآخرين احتجوا، وأبوا أن يجاوروا هاتين «الساحرتين النازيتين». وأخيراً أسكنهما رئيس البلدية مؤقتاً في غرفة مطبخ منزوية، ومع ذلك فقد دامت هذه الإقامة المؤقتة سبع سنوات.. ولم يكن لهما غير سرير واحد ومنضدة، وكانت الصغيرة «ارين» تنام على الأرض وأبت والدتها «هيدى» أن تزاول أي عمل. وكانت تقول: «سأظل زوجة وزير في الرايخ». وكان بعض النازيين السابقين يمدونها من حين لآخر بمبالغ زهيدة لا تغني عنها شيئاً، فكانت تضطر إلى بيع بعض حليها، أما «ارين» فكانت تذهب إلى المدرسة حيث تتعلم الفرنسية والانكليزية والاطالبة والروسية... وما كانت الأم وابنتها لتريا أحداً قط.

وأمكن أن ينجو قسم من ثروة الأب من المصادرة فتحسن وضعهما المالي قليلاً وأصبحتا أقل يئساً وشقاء. وذات يوم اكتشفت «ارين» مخطوطاً لوالدها لم ينشر من قبل، وعنوان هذا المخطوط «مشاليات ومعيودات النازية» فأقمت عليه أحد أشياع هتلر السابقين.

وقد طبع هذا المخطوط ونشر، إلا أن نشره أثار عاصفة قوية، فاحتجت الصحف، وهاجم الناس المكتبات التي عرضته وحطموا واجهاتها، وسخطت «ارين» أيما سخط، واستولى عليها الغضب الشديد، ولم تستطع أن تدرك سبباً

لهذه العاصفة التي هبت في وجه الكتاب، ووقع في روعها أن هنا حملة اضطهاد ضدها.

وحاول بعض أصدقاء والدها أن يوجدوا لها عملاً، ولكن هذا كان مهمة معقدة جداً، إذ أنها لم يكتب لها أن تحجب نفسها إلى زملائها في العمل وكانت كثيرة النقاش في السياسة، كثيرة التذمر، كثيرة الحرد، وكان سوء طبعها يدفعها أحياناً إلى أن تصفع إحدى زميلاتهما. وهكذا فلم تستطع أن تبقى في محل عمل واحد أكثر من ستة أسابيع، وكان يقال عنها أن الاقتراب منها والاتصال بها مستحيلان. ومن ناحية أخرى كانت تتهم الصحفيين بأنهم إنما يريدون أن يستفيدوا مادياً من سوء حظها ويلواها... وتقول: انهم ضباع يأتون لنهش جثة...

* * *

إن كل من يواظب على مشاهدة برامج التلفزيون الألماني يرى عدداً من الفئاني ذوات الحسن الخلاب كما في أي بلد آخر، ويروح يبدي إعجابه بإتساماتهم، وسيقانهم، وتسحره أصواتهم، إلا أنه ينذر أن يتصلط عن اسم احداهم، من عساها تكون، وهل يخفي اسمها معنى من المعاني السياسية.. وربما كان هذا هو السبب في أن «سيلكه هيدرتش» لم تجد، إلى اليوم، في طريقها ما يزعيها أو يملأ قلبها خشية ورهبة.

ولا شك في أن والدها كان - نسبياً، شخصية ثانوية بين رجالات النازي، وقد توفي قبل ما يسمى بـ «مغرب الآلهة» بمدة كافية، قتلتها قنبلة، القى بها رجال المقاومة التشيكية يوم ٢٧ أيار سنة ١٩٤٢ في براغ.

وقد كان الجنرال «رينهارد هايرتش» مساعد هيملر، وكان مرتبطاً به ارتباطاً وثيقاً، ثم احتل بعد هذا منصب نائب حامي الأقاليم التشيكية، ولما ذهب به قبيلة رجال المقاومة التشيكيين بكنه المانيا كبطل، ثم انتقمت له شر انتقام.

وكان «هايدرتش» متعصباً شديد التعصب للنظام النازي، وسبق له أن أدار ما يسمى بـ «سيشر هيت دينست» وهي أشد دوائر «الغستابو» الالمانى قسوة، وشارك في مقتل «رويم» زميل هتلر القديم في الكفاح.

وفي براغ، خلال الفترة القصيرة التي تسلم فيها مقاليد الحكم، نفذ حكم الاعدام في ٧٧٨ رجلاً من رجال المقاومة.

ومع ذلك فقد كان «هايدرتش» في حياته الخاصة، رجلاً على جانب كبير من الثقافة، وكان لطيفاً، عطوفاً، وله ميرل فنية رائعة، وقالت زوجته «لينا ماتيلدا فون اوستن» تذكر سبب زواجها اياه: لقد تزوجته لأنه كان يعزف على الكمان عزفاً بارعاً لا مثيل له.

وتم هذا الزواج سنة ١٩٣١، وولد لهما ابنهما الأكبر «كلاوس» في سنة ١٩٣٣، و«هايدر» سنة ١٩٣٤، ولم تكن «سيلكه» تجاوزت الثالثة من عمرها عندما قتل والدها، أما «مارت» فقد ولدت في شهر تموز سنة ١٩٤٢ بعد شهرين من مقتل والدها، وكلتاها لا تحتفظان بأية ذكرى مباشرة عن والدهما.

ويعد انهيار المانيا لجأت ارملة هايدرتش ومعها أولادها إلى «فهرمارن» وهي جزيرة في بحر الشمال تنتمي إليها أسرتها في الأصل. وفي هذه الجزيرة عملت بائنة سمك، ويا للفارق العظيم لحياتها السابقة في قصر «بانسكييريزاني» القريب من براغ عاصمة تشيكوسلوفاكيا حيث استمرت تقيم

بعد مقتل زوجها، برعاية من هتلر، حتى سنة ١٩٤٥ .

وأمام الباب الحديدي الكبير لهذا القصر قتل ابنها البكر «كلاوس» في حادث سيارة نقل دهمته وسحقته سحقاً.

وذاث مساء، في براغ، أعلن عن مجيء هيملر. ولم يبد، إذ ذاك، بمظهر سيد الغستابو الرهيب، وإنما كان مجرد رجل يهرب من وجه الجيوش الحمراء المكتسحة. ولما قابل أرملة هايدرتش قال لها:

- وأنت أيضاً، مدام هايدرتش، يجب أن تفكري بالنجاة.

وخرجت من براغ ومعها أبناؤها وبناتها، وساروا جميعاً على أقدامهم ليل نهار، وكانوا يركبون السيارات التي تقلهم أحياناً، وإذا التقوا بجنود الحلفاء قالوا انهم لاجئون لا يملكون أوراق هوية، ثم وصلوا أخيراً إلى الجزيرة الصغيرة في بحر الشمال.

وفي سنة ١٩٤٨ طالبت براغ بتسليمهم، غير أن الحرب الباردة كانت قد بدأت، فتجاهلت الحكومة البريطانية هذا الطلب. ومن جهة أخرى قررت السلطات الألمانية مصادرة أموال وثروة «هايدرتش» ولكن الارملة لم تيأس، ففتحت فندقاً ريفياً، واستطاعت، بمعاونة بناتها أن تؤمن لفندقها مجموعة كبيرة من الزبائن الدائمين.

وأراد ابنها الثاني «هايدر» أن يصبح مهندساً، وقد انساق، وهو ما يزال طالباً، في تيار أحد النازيين المتعصبين، واشترك في بعض الاجتماعات الحزبية، ووزع بعض المنشائر، وهاجت الصحافة المحلية وهاجمته بشدة.

ثم مرت الأيام والأعوام، فعاد «هايدر» إلى حظيرة التعقل، وتزوج، وهو

اليوم يعمل عملاً متواصلاً وبهمة كبيرة، وقلما يتحدث في السياسة، في الظاهر على الأقل.

- ١٢ -

أما ابنتا هايدرتش: «سيلكه» و«مارت»، فانهما لا تهتمان بالسياسة ولا بالماضي - وهما تقولان: - ان هذا كله ما أثار اهتمامنا في يوم من الأيام. إن التاريخ الثالث، في نظرنا، تاريخ بعيد غير ملموس كحرب المئة عام، أو عصر نابليون، ونحن لم ندر قط ماذا يعيرون على والدنا. وإنما ينبغي أن نسأل أنفسنا عن هذا. أما فيما يتعلق بنا فإن والدنا رجل لم نعرفه إلا في صوره، وكان يعزف على الكمان، وقد توفاه الله جندياً في أثناء الحرب، وكان مطيعاً لأوامر هذه الحرب.

وقد سالت «مارت» إلى مهنة الفنادق، فغيرت وبدلت في فندق والدتها، ووسعته، وأوقفت عليه كل عنايتها.

أما شقيقتها «سيلكه» فقد كانت تهوى (الايورا)، وما أن تحسن الوضع المالي للأسرة حتى شرعت تتلقى دروساً في الفناء، ثم أرسلوها، فيما بعد، إلى المعهد. وانضمت، من ثم، إلى غرفة المنشدين في دار الايورا المحلية، ثم حصلت على أدوار صغيرة في المسرح، وفي النهاية عملت في التلفزيون.

وهي اليوم فتاة جميلة. تدعى إلى كل مكان، والمعجبون بها وبجمالها كثيرون. انها رياضية ممتازة، وتهوى رياضة السفن الشراعية، والتزلج على الماء، والسباحة، وهي تلعب «التنس» وترقص بمهارة عجيبة.

وتجتمع الأسرة في برلين مرة واحدة في السنة. ويذهبون جميعاً إلى مقبرة «الانفليد» فيجشون أمام قبر لا يحمل أي اسم وتحيط به الأعشاب البرية. وفي

الماضي كانت مدفورة فوق هذا القبر عبارات الاطراء والتمجيد لذكرى البطل النازي الكبير «هايدرتش» ثم كانت القنابل المدمرة، واجتياح المانيا، ولم يستطيعوا العثور على هذا القبر إلا فيما بعد.

والسؤال الآن: ماذا حل بأبناء الزعيم النازي الكبير «ريبنروب»؟

إن ابنه الثاني «برتهولد» لم يتم الثلاثين من عمره بعد. وهو يطمح الى النجاح في عمله كمحام. إن الثروة الضخمة التي يتمتع بها ليست ثروته، ولا هي ثروة والده «يراكيم فون ريبنروب» وزير خارجية هتلر الذي شقيقته محكمة نورمبرغ وصادت ممتلكاته. وإغا هي ثروة «انيليس» - والدته - من أسرة «هينكل» التي تدير مشروعاً من أكثر مشاريع صنع الأتربة ازدهاراً في المانيا كلها. وهي قلق حزمة ضخمة من أسهم هذا المشروع. ويتلقى «برتهولد» راتباً شهرياً سخياً، يضاف إلى دخله من المعاشاة، وهذا يمكنه أن يعيش موفور الرزق، دون احساس بأية ضائقة مالية.

أما أخوه الأكبر، رودولف، ففي التاسعة والثلاثين من عمره، وهو الذي يدير شركة «هينكل» أنفة الذكر، غير أن اسمه لا يظهر رسمياً كمدير، وكانت أمه «أنيليس فون ريبنروب» قد طالبت بتنفيذ عقد وضع سنة ١٩٣٤ وألحت أن يكون ابنها، بموجب هذا العقد، مديراً للشركة، غير أن المساهمين الآخرين رفعوا قضية ضد هذا الطلب، فقد كانوا يخشون أن ينصرف الزبائن والمستهلكون عن أنواع النبيذ التي تنتجها الشركة بسبب اسم «ريبنروب». وفي النهاية أمكن التوصل إلى حل وسط، وهو أن يصبح أحد الأصدقاء مديراً في الظاهر، أما الرئاسة الحقيقية فتظل لـ «رودولف» طي الاخفاء.

أما الابن الثالث «ادولف» فانه يعمل مع شقيقه. و«ارسولا» اختهم تزوجت وجلاً أرستقراطياً.

ويقول الابن الثاني برتهولد الذي يفضل العمل في المحاماة على العمل في انتاج الشمبانيا والألبنة الأخرى:

- إنني أدرس الآن تاريخ الحقبة الهتلرية. إن هذه الدراسة تستهويني، ولكنني لست غازياً، وأنا أنحاشي ما وسعني أن أصطنع اسم «ريبنتروب»، فهذه وجاهة لا أريدها. غير انني ابن صادق وبار بوالده. لست أخجل من والدي، وأنا لا أكاد أحتفظ له بذكريات فقد كنت صغيراً جداً يوم وفاته.

- ١٣ -

والواقع أن «برتهولد» مقتنع اقتناع أخوته وأخواته بأن والده كان يريثاً. وهو يقول:

- لم يفعل والدي غير ما كان يعتقد انه حق، ولو وجدنا في الظروف نفسها فأنني لا أتردد في اتخاذ القرارات والاجراءات التي كان يتخذها. وهو لم يكن إلا واحداً من مستشاري هتلر، غير أن الواقع هو أن هتلر لم يكن يترك لأحد أن يقوده ويوجهه، وكان أبهي لا يريد غير أمر واحد وهو أن يؤدي واجبه نحو المانيا، ولقد تفتن إلى الخطر الجسيم الذي كان سيحيق بنا من الشرق ومن ثم أظهر التاريخ أنه كان على حق.

وقد اشتهر عن برتهولد أنه يحب اللهو والانديفاع و«الزوغان»، وأنه لشاب تتدفق في عروقه دماء الشباب. وما أكثر ما ذهب إلى لندن حيث كان والده، في يوم من الأيام، سفيراً لألمانيا وحيث كان الفاشست من الانكليز يتلقونه مرحبين به بحرارة.

ومع ذلك فقد وقع يوماً في يد العدالة الالمانية. كان إذ ذاك يسوق سيارته «الفولزفاغن» في الطريق من ميونيخ إلى سالزبورغ بسرعة جنونية، فخرجت

السيارة عن الطريق وانقلبت براكبيها، وأصيب بعض أصدقائه الذين كانوا معه في السيارة بجراح، فحكمت عليه المحكمة بغرامة طفيفة، غير أن القاضي، قبل أن يصدر حكمه، عني بأن يظهر ان المتهم هو ابن مجرم الحرب.. يواكيم فون ريبنتروب، ثم تحدث طويلاً عن أعمال ذلك الوالد.

* * *

ونحن الآن مع أبناء «هانس فرانك» الزعيم النازي وحاكم بولونيا من قبل هتلر:

- أنا أعلم أن والدي كان مذنّباً. لقد ارتكب جرائم فظيعة، ودفع ثمن خطاياها غالباً. هو نفسه قال لنا ذلك قبل أن يلقى حتفه وهذه الخطايا هي «ارثنا» منه.

هذا هو ما يقوله «نيكلاس فرانك» عن والده.. وكان لا يزال يحفظ «الالف باء» عندما شنت محكمة نورمبرغ والده بتهمة أنه كان الحاكم السفاح لبولونيا المحتلة.. ويوافق على ذلك شقيقه الأكبر «نورمن» بإيالة من رأسه..

والاخوان يقيمان في ميونخ وفي المسكن الذي كان لوالديهما. وقد ماتت أمهما، وبقي منزلهما على ما كان عليه من أثاث ونظام قبل ثلاثين عاماً، ولا تزال اللوحة النحاسية المثبتة في الباب الخارجي تحمل هذه العبارة: «الدكتور الحقوقي هانس فرانك»..

ويعمل «نورمن» في السينما، وقد عاون في اخراج عدة أفلام، أما أخوه «نيكلاس» فانه يفضل العمل في المسرح. غير أنه في النهاية قرر أن يصبح محامياً.. وقال يعلل ذلك:

- انني بدراستي الحقوقية أستطيع أن أدرس محاكمة نورمبرغ، لا لكي أرى الاعتبار لوالدي، ولكن لأكون أحسن معرفة به.. لكي أحاول أن أفهمه.. إنني لا أخشى الماضي، بل على النقيض أريد أن أعرف كل شيء.

في غرفته بنورمبرغ كان والدهما «هانس فرانك» يكاد يخنقه عذاب الضمير، ولذلك فقد اعتنق، وهو في سجنه، المذهب الكاثوليكي. واستطاع ابنه «نورمن» أن يزوره عشية وفاته. وقد ركعا معاً واسترسلا في صلاة طويلة.

- ١٤ -

وكان «هانس فرانك» قد غادر «فار سوفيا» في شهر يناير -كانون الثاني- سنة ١٩٤٥، والتجأ إلى قصره البافاري في «شويرهوف» وكانت أسرته قد سبقته إلى ذلك القصر قبل سنتين، وهناك وجده الأميركان.

وقد استقبلهم والابتساماة على شفتيه. ألم يتنبأ له «منجمه» الشخصي أن الحظ وحسن الطالع سيلازمانه؟ وقد ضم ولده نورمن وقبله وقال له:

- قل لوالدتك واخوتك انني سأعود بعد بضعة أسابيع.

ولم تكن حياة، برجيت، زوجته وحياة أبنائه سهلة يسيرة. على الرغم من أن الأميركان لم يتخذوا أي اجراء ضدهم. وحدث ذات مساء أن جماعة من العمال الغرباء، أكثرتهم من البولونيين الذين خرجوا من المعتقلات الألمانية، هربت إلى باب القصر، ثم دخلته وراح ذلك الجمع من العمال ينهبون موجودات القصر ويخربون ما يجدونه. ولما عثروا بالألم وأبنائها الخمسة أمروهم بأن يصطفوا قبالة جدار وأمسكوا ببنادقهم يهددونهم.. وكانوا يريدون القبض على هانس فرانك، ملك بولونيا، فأخذوا يبحثون عنه في كل مكان..

واغتصمت الأم وأبناؤها فرصة الفوضى فأفلحوا في الإفلات والهرب من طريق ضيق خفي في حديقة القصر.. ولكنهم لم يجرؤوا على العودة إلى القصر، بل ذهبوا وأقاموا عند مزارع من جيرانهم.

وفي شهر أكتوبر -تشرين الأول- تزوجت «سيفريد» ابنة الكبرى، وذهبت مع زوجها إلى الشمال، وقد كانت سعيدة ان استطاعت تغيير اسمها.

وفي هذه الأثناء بدأت ترد رسائل فرانك الأولى إلى أسرته. وقد أعلمتهم هذه الرسائل بتويته واعتناقه المذهب الكاثوليكي، غير أن الصحف تحدثت عن محاولاته الكثيرة للانتحار والذي يبدو أنه لم يعد مالكا لكل قواه العقلية.

وعاد «نورمن» إلى مدرسته الثانوية، غير أن الهموم التي أحدثتها له محاكمة نورمبرغ كان لها تأثير سيء على دروسه، فربس مرتين في الامتحان، وكان هو يفضل أن يصرف اهتمامه إلى موسيقى «الجازند».

وكان «نيكلوس» هو الآخر في المدرسة، في حين كان أخوهما الأصغر «ميشيل» قد بدأ دراسته الابتدائية. وقد أزعج أمه. وذات يوم اختفى. ولم يصدق البوليس انه هرب، فطلبت أمه العون من أحد الصحفيين وقالت له: «لقد اختفى ابن فرانك».. وانتشر النبا فأحدث ضجة، وفي النهاية استطاع البوليس العثور عليه مختبئا في «عنبر» إحدى السفن بمدينة «هامبورغ» فأعيد إلى أمه الجازعة.

وقد ترك «نورمن» دراسته نهائياً بعد اخفاق ثالث في امتحاناته، فأبحر إلى الأرجنتين على ظهر باخرة شحن، ووجد عملاً بمخزن أدوات في بيونس آيرس.

ولسوء حظه فان النازيين الأرجنتينيين رأوا في شخص ابن الزعيم «فرانك» وارثاً لاسم شهير، ولكي يفر من هذه الرجاجة المؤذية انتقل إلى داخل البلاد

وعمل في المناجم-

وكان العمل شاقاً ولكنه مريح، وقد بقي ثلاث سنوات يعمل في المناجم، وقد غير اسمه وأصبح يحمل اسماً آخر هو «هانس شميت» وقد عاد إلى ألمانيا بعد وفاة والدته، فوجد وطنه هادئاً ومزدهراً، ولم يعد أحد يطارد أبناء زعماء النازية.

أما ميشيل فكان قد أصبح بائع سيارات، و«نيكلوس» محامياً، والاختان قد تزوجتا.

وكان نورمن يعلم دائماً بأفلام السينما، فاستطاع أخيراً أن يحقق هذا الحلم، واسم «فرانك» من الأسماء الشائعة في بافاريا، يسمى به الكثيرون، وكان معظم الناس قد نسوا والده، فلم يعد به حاجة إلى الاحتفاظ باسمه المستعار، فعاد يحمل اسم والده دون خوف.

- ١٥ -

- أحرق هذه البلدة الرسمية، وغير اسمك فوراً، وإليك بطاقة هوية مزيفة.

كان المتكلم هو سكرتير الحزب النازي في -سالزبورغ- وقد قدم البطاقة المزيفة إلى فتى في الخامسة عشرة من عمره في زي الشبيبة الهتلرية، وعلى ذراعه الصليب المعقوف، وفوق صدره أوسمة ومدايا.

وكان الفتى أحد خمسة عشر طالباً أمروا بالخروج على عجل من مدرسة خاصة بالحزب النازي، في (ماتراي) بمنطقة البترول. وفي تلك الأثناء لم تكن لديه أية فكرة عن مصير والده الذي لم يكن قد رآه منذ عيد الميلاد سنة ١٩٤٣. وقد كتب له أن لا يراه من بعد أبداً. وحتى اليوم فإنه لا يزال يجهل، والعالم كله لا يزال يجهل، إذا كان والده ميتاً أو من الأحياء.

هذا الفتى الذي كان يومئذ في الخامسة عشرة من عمره، يدعى، كوالده، «مارتن بورمن». أجل ابن الزعيم النازي الكبير «بورمن».

واستطاع «مارتن» الصغير أن يدبر لنفسه، وقد استولى عليه خوف شديد، بعض الملابس المدنية وذهب لاجئاً عند فلاح من «سالز كمرغوث» وروى له أنه مواطن فقد والديه في الغارات الجوية. فأواه الفلاح، غير أنه قد قلقلته الدهشة إذ تبين أنه، في أيام الاحاد إذ يذهبون إلى الكنيسة، لا يدرك شيئاً من شعائر الدين.. والواقع أن الفتى حتى ذلك الحد من عمره لم يتلق أي تعليم ديني على الاطلاق. وكان الله، في نظره، يدعى «هتلر».

واستطاع «مارتن» أن يحتفظ طويلاً بهويته المجهولة، ولكن حدث ذات يوم أن جدران القرية كلها وغيرها من القرى المجاورة ظهرت مغطاة بالاعلانات المثيرة منبهة بأن رأس «مارتن بورمن» - والد الفتى - قد جعل له ثمن باهظ يدفع من يرشد إليه، وانه إذا ما قبض عليه حياً فانه سيعدم فوراً دون محاكمة..

وأحس الفتى بالخوف واليأس، وكان قد حاول عبثاً أن يجد أمه وسائر اخوته وإخواته.

وذات مساء، وقد بلغ به اليأس مبلغه، اعترف لكاهن القرية، الأب «ريجنس» كاهن الكنيسة الصغيرة البديعة «مار ياكيرشتال»، فرضي بأن يأخذه عنده ويلقنه مبادي الدين بصورة جدية. وهكذا اتضحت خطوط مصير «مارتن ادولف بورمن» الابن، فقد دخل الكهنوت وأصبح من رجال الدين «اليسوعيين».

وفيما بعد فقط استطاع رجال المخابرات الأميركية السرية أن يعلموا أن ذلك الراهب هو ابن الرجل الذي يبحث عنه عبثاً رجال البوليس في الدنيا كلها... وقد تم توقيف الراهب مارتن غير أن استجوابه لم يؤد إلى أية نتيجة، وقد كان لا يعلم أي شيء على الاطلاق عن والده، فأطلق سراحه بعد أن أعلموه في خلال

استجوابه، أن والدته قد توفاه الله في سنة ١٩٤٦.

وهذه هي قصة أمه «جيردا بورمن». كان قد أُلقي عليها القبض في كوخ جبلي يقع في «غورين» بالجبال البافارية حيث كانت تقيم مع أولادها الآخرين: «فيكه، فردريك هارموث، جيردا، إيفاماريا، جيرهارد، هيزتش، إيرما، وجوزيف فولكر». وهذا الأخير كان ابن سنة فقط، أما فيكه فقد كانت في الثالثة عشرة.

وذهب الأميركان بهم جيردا إلى «ميلانو» في اديج العليا بإيطاليا. وبقي أمر احتجازها سرّاً مكتوماً. وبقي أولادها كلهم في الكوخ الجبلي، متروكين لأنفسهم تماماً، إلى أن ارتضت خادمة عجوز الاهتمام بهم. وقد ماتت أمهم في السجن وهي تجهل أيضاً كل شيء عن مصير زوجها.

كيف وقعتُ في أسر الروس

كتبها طيار هتلر: هانس بور

كان الروس مقتنعين كل الاقتناع بأن «هانس بور» طيار هتلر قد نقله إلى مكان سري مجهول، وأن الجثة التي وجدوا أكثرها محترقاً فوق أرض المستشارية ببرلين لم تكن جثة هتلر نفسه، بل جثة «شبيهة»، وقد وقع هانس أسيراً في أيدي الروس وأمضى في الأسر أكثر من عشر سنوات، وهو يروي في هذه السلسلة المثيرة قصة أسره الطويل، وقصة عذابه، وقصة استجوابه المستمر حول هتلر والمكان المجهول الذي نقله إليه بطائرته... وقد ظل الكثيرون، حتى أيامنا هذه، يعتقدون أن هتلر ما يزال حياً، وأن قصة الجثة المحترقة فوق أرض المستشارية لم تكن إلا تمويهاً وذراً للرماد في العيون. إن العنوان الأصلي لهذه السلسلة التي أترجمها لقراء الدفاع هو: «هل أنقذ الطيار الخاص هتلر وذهب به إلى مكان مجهول؟»

«المترجم»

- ١ -

كان لا بد من أن تظهر فوق الأرض من مخابئنا تحت أرض المستشارية. وقد استطعنا أخيراً أن نخرج إلى فضاء برلين سنة ١٩٤٥، وما استطاع أحد من رؤواها يومئذ أن ينسى إطلاقاً المشهد الرهيب الذي تبثت به عاصمة المانيا المحتضرة، انه

منظر الروح والبؤس واليأس الذي لا سبيل إلي وصفه أو تصويره بالغاً ما بلغ القلم من قدرة على الأداء والوصف.

وما كدنا نخرج ونتنفس الصعداء حتى وجدنا أنفسنا وقد وقعنا في جحيم من اطلاق الرصاص والقذائف، فرحنا نعدو قارين على امتداد شارع «زابيلستراسه» وقد هاعدنا بين أحدنا والآخر مسافة تقرب من ثلاثين متراً.

كان الرصاص. وكانت القذائف تطلق من جميع الترافذ، ومن جميع الأركان، في كل اتجاه. وكانت كأنها المطر المنهمر الذي لا ينقطع أبداً. وكنا نرى سيارات محترق وقد تعالت منها السنة النار، وكنا نشاهد جرحى تتسائل دماؤهم من جروح مفتوحة نفارة تقشعر من رؤيتها الأبدان، وكان أولئك الجرحى يصرخون ويستغيثون وما من مغيث.. وقبل أن أصل إلى الجامعة بقليل ارتعيت على الأرض ولم أعد أشاهد أحداً... وخيل إلي أن اطلاق النار قد خف قليلاً.

وعندما نهضت كان النهار لما ينقض بعد، وحاولت أن أسير ولكن الجموع المذعورة الفارة ساقنتني معها... وعلى مقربة من لهيلتر باهنوف «ألقينا بأنفسنا في إحدى الساحات الداخلية، وكان الروس يحرسون مدخلها وبأيديهم المدافع الرشاشة يطلقونها كيفما اتفق. وعلى حين غرة أحسست بطلقة عنيفة أصابت ساقي الائنيتين فسقطت على الأرض... ولا بد إنني صحت من شدة الألم فقد جاء بعض الرجال فأنهضوني وذهبوا بي إلى بيت كان قد اشتعلت فيه النار وانهارت واجهته كلها. وفي أحد أركانه البعيدة عن النار جاؤا بقطع من الخشب والورق المقوى فجبروا، على عجل، ساقي المكسورة، أما ساقي الأخرى فقد كانت الرصاصة قد اخترقتها دون أن تكسر العظم فضمدها، ومنذ تلك اللحظة أصبحت أسير الروس.

* * *

ثم ذهبوا بي إلى مكان ما فوجدت فيه نحواً من خمسين أو ستين جندياً ألمانيا. وكان ثمة شرطي يتكلم الروسية ويساعد في معرفة أسماء الموجودين، وعندما سألتني عن اسمي ورتبتي العسكرية وأجيبته بأنني «جنرال» انشفص مأخوذاً.. وكنت يومئذ أرثدي سترة لا تدل على رتبتي، ولما وقعت هكذا في الأسر لم يبال بي أحد، ولم أجد من يظهر أي اكتراث بي. ولكن ما كدت أذكر رتبتي حتى تغير الوضع تماماً وبدا الاهتمام المفاجيء، وأسرع الشرطي الألماني يخبر الروس بأمرى..

وبعد قليل جاني «كولونيل» روسي وقدم لي بطاقة صغيرة بيضاء اللون وطلب مني أن أكتب فيها اسمي. غير أنني رفضت طلبه وقلت اشرح سبب رفضي بأنني لا أريد أن أوقع هكذا على بياض لآخول الناس سلطات لا أدري ما هي إذا استغل اسمي وتوقعي.. وكان هو يريد أن يجمع توابيع الجنرالات الألمان - على بياض - لاستعماله في توجيه نداءات رسمية إلى الجنود الألمان لالقاء السلاح..

وقلت له بأنني كنت طيار هتلر الخاص، ولا شأن لي بهذا كله..

ولما رأى أن التهديدات نفسها لا تجدي معي ساقني إلى حجرة خالية حيث مددوني فوق منضدة عريضة..

- ٢ -

كان الدم الكثير الذي نزف من جراحي قد أوْهنتني، فجعلت اسناني تصطك بعضها ببعض. وانقضت ساعتان ثم جاء اشخاص من الروس وذهبوا بي الى السلطات المختصة لكي يجري اول استجواب لي. ولما علم اولئك المسؤولون أنني كنت الطيار الخاص لهتلر ارادوا ان يعرفوا فوراً كيف نهاية الفوهرر، وهل هو قد قضى نعبه حقاً وهل صحيح ان جثته احترقت.. وفي تلك اللحظة لم يخطر لي على بال الى اي حد كان هذا الموضوع يخبيء لي من متاعب وعذاب وآلام..

وتوصلت اليهم ان يأتوني بما يظفي . عطشي.. وعلى انني كنت جريحا بالغ الجراح فان هذا لم يعفني من مشاهدة عرض الجيش الالمانى ومروده في شوارع برلين، وكان قد صدر امر عسكري عام بان يشاهد جميع العسكريين الاسرى من الالمان العدد الضخم من الرايات والاعلام الحمر والبيض التي تخفق في سما برلين..

وهكذا القوني في سيارة انطلقت وراء دبابة روسية، وكانت السيارة تمر في اماكن حفرت القنابل ارضها فكنت ارتج في مكاني من السيارة ارتجاجا عظيما، وفي احيان اخرى اثب من مكاني إلى علو عشرين او ثلاثين سنتمتراً فأصرخ وأتوجع من شدة الالم ولكن ما من سميع.

وشد ما كان خطئي اذ تصورت انهم لا بد ان يذهبوا بي إلى المستشفى بعد كل هذا العذاب... لقد ساقوني، في الواقع، الى محققين آخرين. ولما آرخى الليل سدوله نقلوني الى مزرعة ما، دون أن يهتموا أبداً بجراحي ويحاجتي إلى العناية الطبية، وفي المزرعة واصلوا تحقيقهم واستجوابهم. وكان موضوع الاستجواب لا يتغير ابداً، انه موت هتلر ولا شيء غير هذا...

وفي اليوم السادس قلت للضابط الذي يستجويني:

- من الان فصاعداً لن اجيب على اي سؤال توجهه الي، لن اقول شيئاً. انما اريد طبيباً لجراحي. ثم انكم لا تنفكون تسألونني الاسئلة نفسها. اجل ان هتلر قد مات وشيع موتاً، ولست انا الذي سيعيده الى الحياة. وبالإضافة الى هذا قد احرقوا جثته.

ومن جديد قدموا لي شيئاً اضع فيه توقيعي. فقلت:

- هذا لن يكون!

ولم تثنتي التهديدات المتواصلة عن عزمي. وعدت اقول لهم:

- اقتلونني رمياً بالرصاص! كفاني ما لا قيت حتى الان. انني لا اتمنى غير امر واحد هو: ان تأتونني بطبيب أو تقتلونني..

وعندما تبين الضابط الذي يستجوني انه لن يستطيع ان يحصل مني على اكثر من هذا اخذني والقي بي في سيارة ذهبت بي الى بيت احد المزارعين حيث تجرى فيه عمليات جراحية.. وكان في البيت المذكور اربعة اسرة ضيقة فرشت فوقها قطع من المشمع. وكانت ثلاثة من هذه الاسرة قد احتلها اشخاص روسيون لا يزالون تحت تأثير المخدر.

لما بدأ الطبيب يشق ساقي كان المخدر لما يفعل بعد فعله الكامل.. وعندئذ صرخت وارسلت لعنة قبيحة في وجه الطبيب ومساعديه، فأدركوا عندئذ ما حدث فأنشقوني مزيداً من المخدر فلم البث أن فقدت وعيي.

ولما صحت وجدت ساقي الاثنتين قد وضعتا في الجبس.

-٣-

ارسل الروس الجنترالات والقواد الاخرين الى موسكو، اما المرضى والجرحى فقد ذهبوا بهم الى «بوزن». وقد تجمع في احد المعتقلات الصحية خمسة وثلاثون الف رجل، كان بينهم اربعة آلاف جريح فقط. الا انه لم يكن ثمة اية علاجات او ادوات.

وقال لي الطبيب الاستاذ «شيدر» انه يجب ازالة الجبس للكشف عن جراحي اذ كان من المستحيل فحصها بالأشعة ذلك لأن الروس في قُوَّة تحمصهم عند دخولهم برلين قد حطموا كل شيء، بما في ذلك آلات التصوير بالأشعة..

وبعد ان صحت من مفعول المخدر لم يكن ما رواه لي مشجعاً على الاطلاق
وقد قال:

- انهم لم يفعلوا لك شيئاً سوى انهم قد شقوا ساقك من الكاحل حتى
الركبة.

ومع ذلك وعلى الرغم من هذا الجرح الضخم الذي احدثه الروس في ساقتي
فانهم لم يفعلوا في استخراج شظايا الرصاص، بل ظلت كامنة في صميم
عظامي.. وعاد الاساذ شنيدر يقول:

- ستكون لك ساق مهتزة مرتجة منذ الان، اذ انها تفتقر الى بعض العظام..
غير انك تستطيع، فيما بعد، ان تعوضها بغيرها.

ولم يستطع احد ان يدرك لماذا احدث الروس في ساقتي ذلك الشق الكبير
الضخم. ثم لم تلبث ساقتي ان اخذت تنقيح ويتسايل منها الصديد، فساحت
صحتي بسرعة غريبة، وما اسرع ما وجدت وزني قد هبط من ٨٦ كيلو غراما الى
خمين فقط، وكان لا بد ان اقبل، وغصص الحسرة تكاد تخنقني، بان يبتروا لي
ساقتي، ولم تكن هناك مباحض ومشارط ومناشير طبية، فاستعمل الطبيب، بدلا
منها، سكين عادية من السكاكين التي تحمل في الجيب..

ووضعت من ثم مع نحو اربعين جريحاً يرقدون على أسرة جمعت من هنا
وهناك، ولم يكن احدنا ليستطيع ان يحتل من السرير اكثر من ثلاثين او أربعين
سنمتراً على الاكثر- وهكذا لم نكن لنستطيع ان نشترك او نتقلب الا بأمر-
وبعد ايام نقلوني الى احدى الخيام... ولقيت يومئذ احد موظفي الهاتف في
المستشارية الالمانية، وقد وقع في الاسر مثلي، واسمه «ميتش». واستطعت ان
احصل من المسؤولين الروس على امر ان يبقى معي كجندي تابع لي.

و ذات يوم انبأ نتي طبيبة المستشفى . وهي برتبة ضابط ، انني سأنقل الى موسكو حيث ادخل مصعاً مخصصاً للجنرالات والقواد ، وحيث اجد طعاماً اوفر وغذاء افضل .

ويسعني الحصول يومياً على مئة غرام من الخمر (وهذا امر ذو اهمية خاصة لمعظم الروس) . ورجوت الطبيبة ان تسمح لميتش ان يصحبني ، وقد سمح لي بذلك بعد تردد طويل الامد .



في يوم ٢٤ تشرين الثاني سنة ١٩٤٥ حشرونا في القطارات التي تنقل الحيوانات ، وكان على هذه القطارات ان تذهب بنا شرقاً . وكان عددنا اربعمئة وخمسين اسيراً . وذهب بنا القطار الى «موجايسك» وهي تقع على مسافة مئة وعشرة كيلومترات الى الغرب من موسكو . وعندئذ اخرجوني من قطار البهائم وذهبوا بي مع بعض الضباط ومعهم الجندي الامين «ميتش» الى مصح الجنرالات والقواد .. وقد كان لهذا المصح باب حديدي ضخيم واقفال لا تقبل عنه ضخامة .. ولم يكن المرء بحاجة الى ان يكون خارق الذكاء لكي يدرك انه ليس مصعاً بل سجنأ كبيراً .. وقد وضعونا ، ميتش وانا ، في غرفة صغيرة واحدة تكاد لا تتسع لنا ..

-٤-

كانت الساعة الرابعة صباحاً عندما ابقظونا . وقد تفقدونا بالمناداة باسمائنا ، ثم جاء ضابط فأطلعني على بلاغ عسكري يمنع على الاسرى ارتداء الملابس العسكرية والالوسمة والشارات . ولما جردني من كل ما دخل في وسعي من تجريدي راح يؤكد لي ، كالعادة ، ان هذا كله سيعاد الي في يوم من الايام .. غير اننا لم نلبث ان فهمنا معنى هذه العبارة على حقيقتها وهو اننا قد فقدنا كل شيء

نهائياً. ولكن الغضب والسخط لم يكونا ليجديا شيئاً..



وبالطبع فان التحقيق معنا واستجوابنا استمر دون انقطاع بعد هذا، ولقد عرفت، منذ اليوم الاول، الرجل الذي ستتصل اسبابي بأسبابه، اغلب الايام، في خلال السنوات المقبلة. هذا الرجل كان: الدكتور «سفالي»، وقد كان يحتذى في اشياء كثيرة.. من بينها انه من المغرمين جداً بالعمل ليلاً، اجتمع بي الدكتور سفالي عدة ايام، وفي كل يوم كان يطلب مني ان اروي له بالدقة وبكل التفاصيل المسكنة حوادث الايام الاخيرة وحتى الساعات الاخيرة في المستشارة بهيرلين، وكان يدون كل ما اروي به في كثير من الصبر والاثابة، الا انه تبدى ملتزماً حدود الادب الجرمي الذي يبلغ مبلغ الصداقة..

وكنا، انا وميتش، لم نقل لإتسان ان احدها يعرف الآخر منذ ان علمنا في المستشارة في خدمة هتلر، وكان «ميتش» يخشى كل الخشية ان ينكشف هذا الامر..

و ذات مرة كنا معاً عند الدكتور سفالي بعد منتصف الليل بقليل، وعلى حين غرة تناول سفالي كتاباً وضرب به رأس ميتش، وقال:

- هلا حدثتني قليلاً عن المستشارة يا ميتش؟ لمن كنت تفتح خطوط الاتصال الهاتفي؟ لهتلر؟ لـ «كاتيل»؟ لغيرهما؟ وعم كانوا يتحدثون؟

ولم يستطع ميتش اخفاء ما اعتراه من هذه المفاجأة.. وعلى الفور بادروا فأقصوه عني، وذهبوا به الى حجرة اخرى صغيرة في السجن حيث بقي فيها سنتين كاملتين. وقد اعلمني فيما بعد انهم أساءوا معاملته بصورة رهيبة. وقد جلدوه خمس مرات جلداً بلغ من القسوة والعنف انه كان، في كل مرة، يغيب عن

وعيه..

وبعد هذا واصلوا استجوابي انا كل يوم على وجه التقريب. ثم نقلوني الى سجن «لوبيانكا» حيث كانوا يحبرون ان يعكف الاسير على كتابة كل شيء.. وما اسرع ما ملأت مئة وثلاثين صفحة كبيرة عن الحوادث والاحداث التي وقعت في المستشارية. وكنت، كل يوم، اعكف على الكتابة ست ساعات متواصلة غير انني كنت ادون ما اعرفه فقط، ولم يكن هذا بكاف في نظر الروس!

ولما قدمت الصفحات الثلاثين الاخيرة الى الضابط المسؤول، اخذها مني ومزقها والقي بمزقها تحت قدمي، وسألني اذا كنت غيبياً الى حد الاعتقاد بانك يكتفي بمثل هذه التفاهات.. ثم قال إن في وسعه أن يرغمني على أن أقول كل ما اعرف.. وعيشاً حاولت ان اقنعه بان هذا كل ما اعرفه.. فلم يعرني اذنأ صاغية وأصر على اعتقاده بان في حوزتي معلومات لا اريد الإفشاء بها.

وبدأت بعد هذا فترة تعذيب، وبدأ جهاز التعذيب، يعمل برسائله الخاصة، وكان اول ما فعلوه انهم خففوا حصتي من الطعام. ونجحت عن هذا اصابتي بالدوار المستمر، وكان لا بد من ان يأتي اثنان من الرجال ليحملاني الى حيث يعاد استجوابي.. كنت في الواقع قد بدأت آهن وافقد قواي البدنية.

-٥-

ما اكثر المفاجشات التي كانت مخيأة لي! وذات ليلة ذهبوا بي لأمثل امام الجنرال «كابلوف»، ويحسن ان اذكر هنا انه اعدم رمياً بالرصاص في قضية الزعيم السوفياتي «بريا».

وقال لي كابلوف:

- أسمع يا «باور» لقد شاهدت جميع الحوادث والاحداث ومع ذلك فانت لا تريد ان تذكرها لنا...

فأشرت الى الصفحات المثة والثلاثين التي كتبتها ثم اكدت على انني لا اعرف شيئاً خلاف ما جاء فيها.

غير انه عاد فأكد لي على انه سيرغمني على «الجلوس الى المائدة» وهو تعبير يراد به الضرب والتعذيب فوق احدى الموائد.

وقد اشار الى ضابطين كانا موجودين وقال لهما ان يرفقا بي أولاً ويدعواني الى أن أكون مدركاً ومتفهماً للحقائق حتى اذا لم يسفر هذا عن النتيجة المنشودة فإن عليهما أن يضعاني تحت سياط الضرب المبرح... وقال لهما بالحرف إن عليكما مهمة ضرب الجنرال باور، وضربه بأقصى ما في وسعكما من شدة وعنف. وانه ليؤسفنا حقاً أن نضطر الى ضرب الجنرالات والقواد.. غير أن الجنرال باور لا يدع لنا سبيلاً آخر.

وعندئذ ذكرت له انه قد سبق وضربت ضرباً مبرحاً، غير انه أجاب والابتسامة تتراقص فوق شفثيه:

لم يكن ذلك شيئاً يذكر الى جانب ما ستذوقه!

بعد هذا المشهد الليلي عادوا بي الى سجن «بورديكا» حيث عوملت وكأن شيئاً لم يحدث في هذه الاثناء..

ودخلت مرحلة سلسلة جديدة من الاستجوابات شملت ايضاً الجنرال «رانتنهوير» والكثيرين غيره من مواطنينا. وقد وجدنا انفسنا في غرفة تفتيش خاصة حيث جردونا من كل ما كنا نلبس على ابداننا، بل لقد جردوني حتى من

ضامات جراحي. ثم القوا الينا بعض الاسمال والاطمار المهلهة، وهي من بقايا اوردية روسية.

وبدأوا باستجوابي من جديد ابتداء من ساعة الصفر حتى الخامسة.

وكانوا يرددون على مسمعي باستمرار بأنني قمت بتهريب هتلر بالطائرة، وهذا ما كان يعتقد الاميركيون ايضاً، ثم عدت بعد ان نجحت في تهريبه، عدت، عامدا متعمداً والتحت للروس ان يأسروني لكي اثبت لهم، بوجودي في المكان الذي اسروني فيه، اني كنت بعيداً ساعة هرب هتلر.. اجل هذا ما كانوا يعتقدونه.

ولكي اعترف لجأوا الى الاغراء فعرضوا علي مبالغ جسيمة من المال، واغروني بمنصب رفيع في «تشيلي»، واذا شئت بقيت في روسيا نفسها اذا كنت اخشى على نفسي وسلامتي في المانيا..، ولكن يجب ان ادلهم على المكان الذي هربت اليه هتلر

لقد كانت تلك الفترة فترة جنون.. كانوا ينهالون علي بالاسئلة نفسها، والتهديدات نفسها، والوعود المغرية نفسها ونفوا النوم عن عيوني فلم اعد اجد ساعة نوم واحدة، وكان الطعام الذي يقدم الي يقل ويقل يوماً بعد يوم.. ودائماً استحالة الاستقرار حيال وجه المحقق، هذا الوجه الجامد، البارد، المتجهم باستمرار.

وذاث يوم جااني الضابط المحقق بقصة جديدة، قصة جديدة، قصة مثيرة حقاً، فقال: انت تعلم أن الجثة التي احترقت في المستشارية هي جثة شبيه هتلر، لا هتلر نفسه، واذن فيجب ان تقول لنا اذا كان هذا صحيحاً، من هو شبيه هتلر هذا...

انني اعلم ان فكرة اصطناع شبيه لهتلر قد اثبتت رسميا في الواقع. ففي سنة ١٩٣٤ طلب مني الجنرال «راتنهوير» وكان يومئذ مديرا للأمن، ان الفت نظر هتلر الى ان الرسميين الالمان اكتشفوا رجلا يشبهه شبيهاً عظيماً، وانه يمكن ان يحل محله في بعض الظروف والأحوال.. وقد تحدثت بهذا الى هتلر ونحن جالسان الى مائدة الطعام... فطفق يضحك وقال.. «انا لست ستالين لكي يكون لي شبيه.. وما كنت بحاجة الى من ينوب عني على هذه الصورة».

وقد قلت للمضابط المحقق ان يسأل الجنرال «راتنهوير» الذي لا بد انه دون عنده، عنوان ذلك الرجل الذي يشبه هتلر، وهو ربما لا يزال يعرف اين يمكن ان يجلبوه.

وفي الغداة امرونا ان نحمل متاعنا واشيائنا، ثم حشرونا في قطار صغير انطلق بنا غربا، وقد ادركتنا الحجة القطار وفقا لوضع الشمس. ودامت رحلتنا تسعة ايام ولا طعام لنا، كل يوم، غير القليل من ماء عكر كانوا يفترقونه لنا من مياه القاطرة، ونصف سمكة من الفسيخ المملح بكثرة و ٤٥٠ غراما من الخبز..

وهكذا وصل بنا القطار الى برلين ونحن انصاف اموات! وقد كنا نزعم اننا نعلم، بالاختبار والتمرس، كيف يكون السجن الرهيب، غير ان سجن «ليختنبرغ» الذي نزلنا فيه في برلين قد اقنعنا باننا كنا واهين. فان سوء هذا السجن نسخ من اذهانتنا كل صورة لاي سجن رهيب غيره...، وحسبك ان تعلم ان البحارة الاشداء الغلاظ القلوب كانوا هم الذين يهيمنون عليه دون ما رحمة!

والواقع انه لم يؤت بنا الى هذا السجن في عاصمتنا برلين، الا لكي نذوق

الوانا جديدة من العذاب والضرب.

وبعد انقضاء نحو شهر تذكر احدهم اننا ترسف في ذلك السجن، وجاء ضابط كنت قد عرفته في موسكو فاستجوبني من جديد، وقال لي ان جشتي هتلر وايضا براون قد حفظتا واني سأطالب بالتعرف عليهما..

ووجدت في السجن محارباً قديماً في حركة المقاومة السرية وكان يعمل في شؤون التدفئة المركزية في السجن، فقال لي انه حضر عملية استخراج جميع الجثث التي دفنت في قناء المستشارية، وقد رأى جشتين محترقتين نصف احتراق، كما شاهد في الوقت نفسه جثث افراد اسرة الزعيم النازي «غوبلز». وقد كانت الجثتان المحترقتان نصف احتراق هما اللتان احتفظ بهما الروس...

وبالنسبة لي أنا فاني لم أر هذه الجثث قط، غير انني مثلت أمام ضابط برتبة كولونيل. وبعد أن راجع تصريحاً للمفتش (هوفياك) يقول فيه انني قد حضرت، شخصياً، حرق جثة هتلر، سألني عما إذا كان الرجل الذي تحدثت إليه هو هتلر نفسه وليس شبيهه.

وقلت للضابط الكولونيل: «لقد وجدت مع هتلر مناشات المرات. وتناولت الطعام على مائدته مرات لا تحصى، وأنا أعرف طريقته في الحديث وهو خليط من اللهجة النمساوية واللهجة البافارية، ولذلك فمن المستحيل أن يختلط علي الأمر من شبيه له.»

وقد وقعت على افادتي هذه.. ثم أعادوني.. أعادوني إلى موسكو.

- ٧ -

سررنا جداً لرجوعنا من برلين من سجن «هورديكا» في روسيا، وقد يصعب

تصديق ذلك، غير أن تلك الرحلة إلى برلين كانت قد أنهكت آخر ما تبقى من قوانا. وبعد انقضاء بضعة أيام علمت أننا سننقل إلى أحد المعتقلات، وخيل إلينا أن مشروع هذا النقل يتسم لنا بأنه وعد بالحرية. لا شك في أننا سنكون سجناء غير ظليقيين في ذلك المعتقل إلا أننا سنجد ثمة رجالاً آخرين وستبدو الحياة لنا أكثر إشراقاً وسطوعاً.

ولكن وأسفاه فإن شيئاً من هذا لم يحدث، وقد انقضت سنة كاملة تذكّرني بعدها، الجنرال الروسي «كاهلوف»، وقد بدا لي في أول سؤال وجهه إلي غير معقول وغير متوقع، إلا أنه دل تماماً على العقلية الروسية، فقد قال لي:

- وأخيراً هل تريد أن تتكلم؟

غير أن جوابي كان هو الجواب نفسه في كل المرات السابقة. وبدا له هو أيضاً، هذا الجواب غير معقول وغير مصدق! وأخيراً عاد يقول:

ستبقى هنا سنتين آخرين، ثلاث سنوات، خمساً، وحتى عشر سنوات إلى أن ترى أنه قد آن الأوان لكي نتحدثنا بما نعرف من أمر هتلر، وهذا هو بالضبط، ما نريد أن نعرفه.

* * *

يقع أحد أحواض الفحم في جنوب موسكو، وكانت مدينة «ستالينوغورسك» هي مركز ذلك الحوض، وتبعد عن العاصمة نحواً من ١٧٠ كيلومتراً، وقد أقيمت حول هذه المدينة معتقلات عديدة.. لسجناء من الروس، إلا أن عدد هذه المعتقلات بلغ ما بين سنة ١٩٤٥ وسنة ١٩٥٠ ستة عشر معتقلاً للأسرى الألمان، وكان يخرج منها، كل يوم، الأثوف من أولئك الأسرى لكي يعملوا في مناجم الفحم.

و ذات صباح وجدت نفسي قد انتقلت إلى تلك المدينة - ستالينغورسك -
بعد رحلة ليلية شاقة في قطار خاص بالمساجين.

وقد ذهبوا بي، حال وصولي، إلى عمارة «الادارة المركزية». وفي الغداة
نقلتني سيارة شحن إلى المعتقل رقم (٣٠)، وهناك فحصني الطبيب ووجدني في
حالة يرثى لها من قلة التغذية فارسل بي إلى المحجر الصحي، وقيل لي أنه يجب
أن أقضي فيه اسبوعين أستطيع في اثناهما أن أقرأ أو أن أفعل شيئاً آخر إلا
أنني لا أستطيع أن أتحدث إلى أي مخلوق في المعتقل سوى الموجودين معي في
المحجر الصحي.

وطلبت الصحف اليومية فجاؤني بها، ولأول مرة، بعد نحو أربع سنوات،
استطعت أن أقرأ أنباء عن المانيا بلادي وان تكن أنباء قد مرت بالمراقبة في
المنطقة الشرقية.

وقد انتشر نبأ وصولي بسرعة، وكنت أشاهد أشباحاً تقترب من نافذتي إذا
ما انسحب الرقباء الروس، وقد تبين لي أنني أعرف عدداً طيباً من أولئك
الأشخاص الذين كانوا يقتربون من نافذتي. واذن فما هم مواطنون المان أجدهم من
حولي، وغدوت أستطيع التحدث بلفتي. أجل ولقد أصبحت أملك سريراً خاصاً
بي، وناقذة يمكنني أن أفتحها وأرى من خلالها الأشجار، والأغصان، والورق
الأخضر، والعشب.

ولأول مرة، منذ شهر ايار سنة ١٩٤٥، وجدتني، أجل، وجدتني سعيداً.

وقد أزعجت الرفاق ساقي المبثورة، فاستدعوا نجاراً صنع لي في غضون
خمسة عشر يوماً ساقاً من خشب.. وقد قدمت لي هذه الساق خدمات جلّى. إذ
أتاحت لي أن أستغني عن عكازي الاثني واتخذ بدلاً منهما عصا بسيطة، كما
أتاحت لي أن أعود فأستعمل يدي لما وجدنا له من وجوه الاستعمال المعتاد.

كان الروس قد أعلنوا أن سنة ١٩٤٩ ستكون هي سنة إطلاق سراح الأسرى وإعادةتهم إلى أوطانهم. ولكن هذه السنة شارفت على نهايتها دون أن يطلق سراحى. وقد أصابني الهم لذلك وغدوت نائر الأعصاب متوتر الحس، ولكن سرعان ما انتشع هذا الغم عن قلبي عندما قيل لي ما يلي: - ستدخل المستشفى أولاً، يجري عليك الفحص والتأكد من سلامة صحتك، ثم نعيدك إلى وطنك مع آخر دفعة من الأسرى العائدين...

وقد جمع الروس كل من كانت حالتهم شبيهة بحالي في مدينة «ساليوغورسك» ثم أرسلونا جميعاً إلى موسكو.

واتضح أنه لا بد من إجراء عملية لي، غير أنني رفضت بشدة، فقرر تحسين حالتي الصحية مؤقتاً على أن يتاح لي، فيما بعد، إجراء العملية النهائية في ألمانيا.

غير أن الروس لم يعيدوني إلى ألمانيا. وبعد إقامة قصيرة في المستشفى المركزي في «لوبينو» نقلوني من جديد إلى «ستالينوغورسك» حيث وضعوني في عيادة المعتقل رقم (٢).

وفي شهر ديسمبر -كانون الأول- غادرتنا الدفعة الأخيرة من الأسرى المسرحين، وبقي منا عدد قليل من لم تصدر في حقهم أحكام بعد. إلا أنه في شهر يناير -كانون الثاني- تضخم عدداً من خرجوا من الحبوس ليصبحوا، حسب قولنا، «سجناء الحرب الطلقاء»..

وفي تلك الأثناء فتحت أبواب سجن «لوبيانكا» وسجن «بوديكا» وأبواب العديد من السجون والحبوس. وقد قيل أنه كان قد ارتكب خطأ فادح،

والشبيبة السوفياتية التي آل إليها التفوذ لا تجد ما يعيها في الاعتراف بهذا الخطأ، ولذلك فقد تقرر أنه لن يجري، في المستقبل، أحكام جماعية على هذا النحو.

وأبينا أن نصدق هذه الأقوال ومع ذلك، فإن شيئاً من الأمل أضأ زاوية في قلوبنا، فاستسلمنا له، وهكذا نامت الهموم والمخاوف، ولم يحتفظ بالاحتراس والتوجس إلا عدد قليل منا، والعجيب أنهم هم الذين كانوا على حق.

جاء الكولونيل «ستيرن»، من وزارة الداخلية السوفياتية، يعدنا من جديد العودة إلى الوطن... إلا أنه في مساء اليوم نفسه، بدأت عملية الاختيار والانتخاب، ففي يومي ٣٠ و٣١ آذار واليوم الأول من شهر نيسان أعيد حوالي نصفنا إلى سجون قريبة أو بعيدة، ولما نقلت من رفاقنا ثلاث دفعات إلى سجون مختلفة - وقد كنا نعلم هذا على الرغم من التأكيدات المناقضة - حسبنا أن قسماً منا سيطلق سراحه حقاً ويعاد إلى وطنه... وعندئذ جاء الكولونيل ستيرن ليراني مرة أخرى، وقال لي:

- انك، يا سيد باور، جنرال. وموجب أمر أصدره «ستالين» فإن الجنرالات والقواد يجب أن لا يعادوا إلى وطنهم في القطارات التي تحمل الحيوانات عادة. ولذلك فأنك ستسافر في قطار نظيف من قطارات الركاب، فأعد متاعك وحوادثك الشخصية، وليس أمامك أكثر من خمس دقائق، وسنذهب أولاً إلى موسكو، ثم إلى «كراسنوغورسك» وفي اليوم الثاني عشر من شهر نيسان تكون، على الأرجح، في طريقك إلى ألمانيا.

- ٩ -

ولم يبارح القطار «ستالينوغورسك» في الساعة الخامسة بعد الظهر، كما أعلن ذلك، وإنما هو غادرها في الواحدة بعد منتصف الليل، وقد تشاحت جداً

ورحت أتوقع أن أجد نفسي، من جديد، أمام أبواب أحد السجون في موسكو.

ومع ذلك فينبغي أن أكون صادقاً، ذلك اني ما أن رأيت لدى وصول القطار إلى موسكو، سيارة ذات ستة مقاعد، حتى راودني الأمل لحظة بأن الأسر قد انتهى بالنسبة لي أنا أيضاً.

وقد درجت بي السيارة نحواً من نصف ساعة في أرجاء المدينة، ثم توقفت.. أمام ذلك الباب الذي أعرفه كل المعرفة ومع ذلك أبغضه كل البغض: باب سجن «بورديكا»!

ولقد ذهبوا بي إلى البرج الذي يسجنون فيه الأسرى الذين يدخرون لهم المزيد من التهم وسوء الحال والعذاب.. واستطعت أن أعرف عن طريق هيئة استعلام نظمناها ولعب فيها ذهبنا إلى مرافق السجن وعودتنا منها دوراً مهماً اننا كنا في ذلك البرج نحو خمسة وستين جنراً المانياً. وقد بقينا في وضعنا هذا في البرج المذكور شهرين كاملين. وبدا لنا كأننا هم قد نسونا من جديد!

غير أن دولاب الاستجواب القديم لم يلبث أن عاد يعمل من جديد، مع اضافات أخرى هذه المرة. فقد جاء أحد الضباط وسألني عما إذا كنت قد ذهبت عند (موسوليني) مع هتلر.. واحترت ولم أجد لهذا السؤال أي رابط أو صلة بينه وبين الأسئلة السابقة التي وجهت إلي حول تهريبي لهتلر على متن إحدى الطائرات.. وأجبت الضابط، بكل صراحة، انني ذهبت أربع مرات مع هتلر في زيارة موسوليني.. واكتفى الضابط بهذا الجواب وأعادني إلى مكاني في السجن.

وبعد مضي ثلاثة أسابيع وجهت إلي لاتعة الاتهام التالية:

«وما أنك ذهبت لزيارة موسوليني عدة مرات بصحبة هتلر فأنت متهم بالاعداد للحرب، إذ أنه في أثناء المحادثات بين موسوليني وهتلر قد وضعت

خطة الاعتداء على الاتحاد السوفياتي.»

وانه والله لمنطق ساخر كنت أرى آثاره فيما ارتسم من تعبير على وجوه الذين كانوا يحيطون بي...

وقلت للمترجم الذي كان يقوم بمهمة الترجمة بيني وبين من وجهوا إلي هذا الاتهام انني، فعلاً، كنت قد ذهبت مع هتلر عند موسوليني في سبتمبر ١٩٣٣ و١٩٣٤. وسنة ١٩٣٧، وسنة ١٩٤٣، وكما يتضح من هذه التواريخ فقد كانت المرات الثلاث الأولى قبل ابتداء الحرب مع روسيا بزمان كبير، والمرة الرابعة الأخيرة كانت بعد مرور سنتين في هذه الحرب..

ومن ناحية أخرى فقد كنت قائد طيارة وحسب، ولم يتح لي قط أن أحضر اجتماعات موسوليني وهتلر أو أستمع إلى محادثاتهما ومفاوضاتهما..

وكان في جواب المترجم من المنطق الرائع ما كان من منطق ساخر في لائحة الاتهام. فقد قال:

- ليس من شأننا هنا أن نناقش في هذا، وسوف يتاح لك أن تشرح ما تريده أمام المحكمة.

- ١٠ -

بعد أن غادرت سجن «بورديكا» ذهبوا بي إلى إحدى بنايات وزارة الداخلية وقد جهدوا كثيراً في اضافة حلة من المهابة على تلك المهزلة.. وكان يجلس في مكان الرئاسة أحد الجنرالات الروس يحيط به عن يمين وعن شمال ضابطان كبيران وفي سبيل مزيد من التعمية والتمثيل أضافوا إلى هذه الهيئة ترجمة وكاتباً.

وكان أول ما قلته لهذه المحكمة انني أعدت ما سبق وأدليت به سابقاً عندما

وجهت بالاتهامات التي كانت معدة لي. ثم قلت للجنرال رئيس هذه المحكمة أنه كان يجب أن يأتي أيضاً بالميكانيكي سائق القطار الذي أقل هتلر وموسوليني إلى «برنر»، وهو القطار الذي أجريا فيه محادثاتهما النهائية الحاسمة.. أليس هنا حقاً؟ وأي فرق بين من يقود طائرة فيكون مسؤولاً وبين سائق قطار فلا يكون مسؤولاً كذلك؟

لقد أرضاني على الأقل أن كلماتي هذه خلقت جواً من الصمت العميق. وأنا لم أدر في أي اتجاه التجهت أفكار أعضاء هذه المحكمة في أثناء هذا الصمت الطويل غير أنني أحسب أنهم كانوا أسفين لصورة الحكم المعدة ضدي مسبقاً والموضوعة في أحد الأدراج أمامهم. أو تراهم كانوا يفكرون بأن يتحدوني قائلين بأن محادثات هتلر وموسوليني قد جرت في طائرتي وليس في قطار؟

وأخيراً قرر الجنرال الخروج من نطاق هذا الصمت المطبق المليء بالمهابة واستنكف عن إبداء أية ملاحظة حول موضوع القطار، وأمر بإخراجه من القاعة.

وبعد ربع ساعة أعادوني ثانية أمام المحكمة التي يرأسها الجنرال الروسي. وفي هذه المرة لم يشيروا إلى محادثات هتلر وموسوليني غير أن أولئك الأشخاص الطيبين أعضاء المحكمة قد وجدوا موضوعاً آخر جديداً فقال الجنرال:

– هل أتيت، مع هتلر، إلى روسيا؟

وأجبت أنا على الفور:

– أجل. وفي مرات عديدة. وقد استقرت قيادتنا العليا، عدة أشهر في «فينيتزا» بـ «اوكرانيا».

وعاد يسألني:

- وإلى أي مكان آخر ذهبت في روسيا؟

فقلت:

- ذهبت تقريباً إلى جميع الأمكنة التي جرت فيها أحداث عسكرية مهمة
كمناطق «ليننغراد»، و«سمولانسك»، و«زابورجيه»، ومواقع أخرى مختلفة في
أوكرانيا، والقرم وغيرهما..

وبدت على الجنرال سيمااء الرضا لأقواله هذه. وقيل لي أن في وسعي أن
أنسحب، وأن المحكمة ستختلي للتداول، وعلى أي حال فقد مضت ساعة ونصف
الساعة قبل مثولي من جديد أمام المحكمة لاستماع الحكم، وهنا نصه:

- حيث أنك ذهبت إلى عدة مدن روسية مع هتلر، وحيث أنك، بهذا، قد
اشتركت في تدبير الجرائم التي ارتكبت ضد المواطنين السوفييات وأسرى الحرب
فاننا نعلن أنك مذنب، ونحكم عليك بالاقامة خمساً وعشرين سنة في معتقلات
الاصلاح عن طريق العمل.

- ١١ -

وفي يوم ١٥ تموز سنة ١٩٥٠ انفتحت أبواب سجن، «بوديكا» فخرجنا
منها إلى حيث نقلنا إلى سجن «كراسنوغورسك» قرب مطار «توشيتو» في جوار
موسكو. ومع الأيام تجمع مئات المحكومين الذين نقلوا من جميع السجون
الممكنة. وكل من أولئك المحكومين خرج من المحاكمة بنصيبه المقرر وهو خمسة
وعشرون عاماً من الأشغال الشاقة في المعتقلات.

وبالنسبة لي فإن سيارة السجن حملتني حتى مدخل المعتقل في ليلة اليوم
الأول من شهر آب، غير أن المسؤولين في أحد معتقلي «بيروفتش» أبوا قبولي

زاعمين أنهم تلقوا أوامر بعدم قبول المحكومين. فما العمل إذن؟ فتم الاتصال هاتفياً بموسكو بعد بضع ساعات من الانتظار المريع، ودار نقاش طويل بين مدير المعتقل وبين المسؤول المتحدث في الهاتف، واستطاع المدير في النهاية أن يفرض وجهة نظره، فاضطر حارسي أن يذهب بي بعيداً، إلى المعتقل الآخر.

وقد كان في «بوروفتش»، كما قلت معتقلان للأسرى الالمان. فدخلت أحدهما سعيداً بأن أجد نفسي بين المواطنين الالمان، ولم تكن ثمة على أحسن ما تروم، إلا أنه كان خيراً من السجن.

* * *

وفي شهر تموز سنة ١٩٥١ أضاء قلوبنا الأمل، ثم عاد فانطفأ وشيكاً، كما حدث في جميع المرات السابقة. إن كل استعدادات الرحيل التي كنا نراها لم يكن القصد منها اعادتنا إلى أوطاننا، وإنما نقلنا إلى مكان آخر. وقد تم هنا فعلاً، فذهبوا بنا نحو مكان أكثر ابغالاً إلى الشرق.

وأحب هنا أن أصور كيف يجري نقل الأسرى بصورته الطبيعية في روسيا. وهذا النقل لا يستطيع القلم وصفه لقسوته، وأسوأ منه بكثير نقل المحكومين بخمسة وعشرين عاماً، ويطلقون عليه اسم النقل بالمطارق ولأن حراس القطار لا ينفكون، في الصباح وفي المساء، يقرعون حواجز القطار بعصي غليظة طويلة لكي يتأكدوا من أن الأسرى لم يحدثوا في خشب هذه الحواجز ما يمكنهم من الهرب... وهذه ولا ريب تجربة من أشد التجارب هولاً يمكن أن يتعرض لها الأسير في حياته. وكان هذا يبدأ منذ لحظة المناداة: فيشرع الحرس بترويع الأسرى ودحرهم من طرف إلى آخر في القطار ضرباً بقبضاتهم وركلاً بأقدامهم، وهم ينعمون بسرور وحشي خارق أن يعنفوا أشد العنف بأكثر الأسرى عجزاً في الحركة وفي الوقت نفسه يبصقون في وجوهنا سيلاً من الشتائم والكلمات والعبارات

البذينة القذرة...

وتكون أبواب القطار مغلقة اغلاقاً محكماً، ولا يسع الأسير أن يرتاح ويتمدد إلا فترة وجيزة جداً، لشدة ما يعاني من ألم مبرح في أعضاء جسمه جميعاً، أما الماء فإن أوعيته ناضبة، ويستطيع الأسرى في المحطات التي يقف فيها القطار لحظات محدودة أن يحصلوا على الماء أو أن الحرس لا يسمحون لهم.

- ١٢ -

وأخيراً توقف القطار الذي كان يقلنا في «بيرفر اورالسك» حيث يبدو أن أخطر مجرمي الحرب في العالم أجمع قد تقررت اقامتهم في هذا المعتقل.

وفي هذا المعتقل أصبحت خياطاً أقوم بصنع القفازات.. وكنت أنجز منها مئات الأزواج دون أن أنال أقل مكافأة مهما ضوّلت.. بل على تقيض هذا فقد بدا لبعضهم أن انتاجي غير كاف ولم يرض به الروس. وسألني قائد المعتقل كم من الساعات أعمل كل يوم. وأجبت انني أعمل أربع ساعات وذلك نزولاً على ما أوصت به الطبيبة التي فحصتني.. وقدر قائد المعتقل أن هذه المدة يمكن أن تضاعف، ثم أن صنع القفازات بعد ذاته ليس بعمل ذي بال. وأجبت قائد المعتقل قائلاً:

- لقد حكم علي بالعمل أربع ساعات كل يوم فقط. ولست أنوي أبداً أن أعمل أكثر من هذا. وأنه فيه الكفاية لي.

وعلى الفور اتخذ القائد قراراً حاسماً لا رجعة فيه، وهو اني سأوضع، في أثناء خمسة الأيام المقبلة، في زنزانة مخيفة إذا لم أقبل بالعمل ثماني ساعات يومياً بدلاً من أربع. وبهذا انتهت المحادثة، وتسلم الديديبان رقعة صغيرة

واستاقني أمامه. وقد وضعوني بعد هذا في زنزانة من الاسمنت المسلح مساحتها ١,٨٠ سنتمتراً طولاً و ١,٢٠ سنتمتراً عرضاً... وبسبب ساقبي المبتورة ف أعطيت موطناً صغيراً لقدمي... ولقد بقيت ثمة خمسة أيام طوال...

* * *

كنت قد أمضيت في المعتقل نحواً من ثمانية عشر شهراً، عندما ناداني أ. الجنود القاتمين على الخدمة وسلمني أمراً بأعداد حقائبي.. وبعد ساعتين وقف في سيارة السجن أمام مدخل معتقل آخر.

وكان هذا المعتقل يقع على مبعدة عشرين كيلومتراً من المعتقل السابق وكانوا يطلقون عليه اسم «معتقل النمساويين» وقد كان يضم، بالفعل، نحواً من أربعمئة أسير نمساوي، ومئتي أسير الماني وثلاثين إسبانياً.. وقد وجدت في هذا المعتقل حشداً من المعارف والأصدقاء..

وفي سنة ١٩٥٣ عاودنا الأمل. وكانت قد جرت مفاوضات بين «غروتوهل» والحكومة الروسية في موسكو. وكتبت الصحف السوفياتية تقول أن الأسرى سيطلق سراحهم ويعادوا إلى أوطانهم، باستثناء أولئك الذين ارتكبوا جرائم ذات خطورة بوجه خاص.

وفي خريف وشتاء سنة ١٩٥٣ أعيد الأثوف من الأسرى إلى بلادهم، واستطاعوا أن ينقلوا إلى ذوينا وأهلنا بعض أنبائنا، ثم ارتحل الآخرون من بقية الأسرى في شهر كانون الأول من السنة نفسها.

وفي يوم ١٥ شباط سنة ١٩٥٤ نقل جميع الجنرالات الذين كانوا في المعتقلات المجاورة إلى معتقلنا نحن، وبعد بضعة أيام نقلنا، وكان عددنا نحواً من ثلاثين جنرالاً، إلى «فولكوفو» وهي تقع على مسافة ثلاثمئة كيلومتر إلى

القرب من موسكو، حيث وجد دائماً معتقل خاص بالجنرالات، ومع ذلك فإن الروس، وفقاً لأسلوب خاص يحيونه فقد كانوا يأخفون منه الأشخاص الذين لا ينالون رضاهم فيرسلون بهم إلى مكان آخر.

- ١٣ -

عادت آمالنا فانتعشت في ربيع سنة ١٩٥٤، غير أنها سرعان ما تلاشت هذه المرة أيضاً. وقد أقيـل الخريف وأعقبه الشتاء، ثم ابتدأت سنة ١٩٥٥ كسابقاتها وكما يمكن أن تكون السنوات الأخرى المقبلة: آمال جديدة، انتظار وقلق، ضروب من الشك، تأرجح مستمر ومنهك للقوى، ثم دقت ساعة الخلاص الحاسمة على غير انتظار أو تصديق من أحدا

في تلك الحقية جاء إلى موسكو المستشار الألماني «اديناور»، وعلى اثر ذلك انتشرت الاشاعات قوية، بل أقوى من أي وقت مضى، وقفزت معنوياتنا، في أحيان قصيرة، من الصفر إلى درجة الغليان إلى الصفر...

وقد تتبعنا المفاوضات بلهفة شديدة وفي هذه الأثناء أحسنا باحترام الروس للموقف القوي الراسخ الذي لا يمازجه الخوف لبعثة المفاوضات الألمانية.

وبعد هذا ظهر فجأة ثلاثة من الجنرالات الروس في معتقلنا بـ «فولكوفو» وقد استدعوا رئيسنا الجنرال الألماني «ماينرث» وقالوا له أنهم يريدون الدعوة إلى ما سموه «اجتماع العودة إلى الوطن».. وقيل له أن روسيا والمانيا ستأخذان، منذ الآن، بأسباب صداقة ودية فتتبادلان السفراء والتمثيل السياسي، وبهذا تصبح طريق العودة إلى الوطن حرة وخالية.. وعلى الجنرال «ماينرث» أن يسهل مهمة هذه اللجنة الثلاثية، التي جاءت لوداع الأسرى في معتقل «فولكوفو» بحيث يفترق الجميع لا كأعداء وإنما، كأصدقاء أوداء..

وقد تلقينا هذا النبأ بقلوب منسرحة، وتناسينا كل الاسماء.. وقد تم انعقاد الاجتماع المنشود، فألقى أحد الجنرالات الروس الثلاثة خطاباً طويلاً عرض فيه الحوادث والأحداث الأخيرة، ثم أعلمنا أننا قد أصبحنا، منذ هذه اللحظة، مواطنين أحراراً.

وقد توزعنا إلى فئات، كل فئة مكونة من ٣٢ رجلاً يجب أن يرحلوا في غضون اسبوع. وقد علمنا كذلك أن الروس سيعدون لنا ملابس جديدة لائقة.

وقد رد على خطاب الجنرال الروسي أكبرنا سنأ بيبضع كلمات، ثم سرعان ما خلا المكان، وقد بهت الجنرالات الروس وقالوا لزميلنا الجنرال «ماينرث» أنهم لا يتوقعون أن يفترقوا عنا على هذه الصورة، وإنما هم يريدون أن يدعونا إلى مأدبة وداعية.. وعبر الجنرال ماينرث عن بعض الاعتراضات، ثم تقرر أن نكون نحن أصحاب المأدبة الذين يدعون الروس، لا هم.. وقد سر هذا الاقتراح لجنة الجنرالات الروس غير أنهم اشترطوا لذلك أن يقدموا هم لوازم المأدبة والطعام والشراب والخدم.

وجاءت سيارات النقل الكبيرة محمل الأقداح والأوعية، وأدوات المائدة، وكل شيء حتى الطهارة والطباخين.

وقد جلس في قاعة الطعام الجنرالات الروس الثلاثة، وصدير معتقلنا، وزميلنا الجنرال ماينرث، وبعض أشخاص آخرين منا نحن الأسرى، أما الباقون من الأسرى فقد احتلوا قاعة المطالعة دون أن يكون معهم شخص روسي وقد امتلأت الموائد بزجاجات الجعة، والتبيز، والشمبانيا، والفودكا، والحساء، واللحوم، والحلويات والقهوة... كان كل شيء موجوداً وبوفرة..

وأنا لا أذكر هذا كله لأقول أننا، نحن المقصودين بالتكريم، قد علمنا أية أهمية أو أننا اعتبرنا هذه المأدبة تكريماً لنا، ولكن لكي أقول، بكل بساطة، أن

كل شي - ممكن في روسيا.

ثم أعطونا الملابس الجديدة اللائقة التي وعدونا بها، وذهبت، مع فريق الأسرى الثالث، إلى «ابغانورو» ومنها إلى موسكو، وكان الروس في موسكو قد أعدوا لنا مفاجأة جديدة: القيام برحلة في السيارة خلال المدينة.. وهكذا شاهدنا «الكرملين» وذهبنا إلى «جامعة لومونوسوف» التي أدهشتنا بضخامتها. ثم التقينا في المحطة في تمام الساعة الثانية بعد الظهر.

وقد تناولنا طعام الغداء في مطعم القطار فلم ندفع شيئاً سوى ثمن الخمر، ووصل بنا القطار «بريست ليتوفسك» حيث توقفت بضع ساعات.. وانتقلنا، من بعد، إلى قطار آخر انطلق بنا إلى «فرانكفورت سور اودر».. أجل لقد دخلنا أخيراً بلادنا: المانيا..

جاسوس بخمسة أسماء

بين نيويورك وموسكو - ترجمة: محمود سيف الدين الايراني

لم ينس أحد بعد حادثة الطيار الأميركي العائر الحظ «فرنسيس غاري بوارز» الذي وقع، في سنة ١٩٦٠، هو وطائرتة «U-٢» في ايدي الروس. وقد كان لهذا الحادث يومئذ صدى كبير في الصحافة العالمية وشغلت الرأي العالمي زمناً طويلاً. وفي سنة ١٩٦٢ أفرجت السلطات الروسية عن الطيار الأميركي المذكور عن طريق التبادل، أي أن الولايات المتحدة أفرجت هي الأخرى عن «رودولف آبل» مقابل الافراج عن فرنسيس غاري بوارز. و«آبل» هذا كان أخطر وأمهر جاسوس روسي، وقد جعل مسرح أعماله في الولايات المتحدة، وأقام شبكته التجسسية فيما بين نيويورك وموسكو. وهذه المسلسلة تروي قصة هذا الجاسوس الخطير.

«المؤلف»

- ١ -

في الساعة السابعة من صباح يوم ٢١ حزيران سنة ١٩٥٧، دخل ثلاثة من رجال دوائر الاستخبارات الأميركية المعروفة بـ «اف.بي.آي» قاعة فندق «لانام» رقم: في الشارع الثامن والعشرين إلى الشرق من نيويورك... ثم ركبوا المصعد إلى الطابق الثامن، وطارقوا باب الغرفة رقم ٨٣٩، وكان الشخص الذي يقيم فيها

يدعى «مارتن كولينز» حسبما سجل اسمه في سجل الفندق...

وكولينز هذا رجل منيف القامة، متوسط العمر، أنيق المظهر، ولكنها أناقة رخيصة تدل على أن صاحبها من أولئك النزلاء الكثرين الذين يقيمون في فنادق من الدرجة الثالثة، ويدفع الواحد منهم تسعة وعشرين دولاراً في الاسبوع أجراً لغرفته...

وما أن سمع كولينز طرق أولئك الرجال على باب غرفته حتى راح يخاطبهم بصوت خافت مكتوم ويرجوهم أن يتمهلوا لحظة.. وكان كولينز ساعتئذ شبه عار بسبب حر حزيران الشديد الذي جاوز الثلاثين درجة في الظل.. ثم شق الباب قليلاً وهو يستر عريه بيده.

غير أن رجال الاستخبارات الأميركية اقتحموا عليه الغرفة اقتحاماً، وأذنوا له أن يرتدي، على عجل ما يستر به عورته.. ولاحظ أحد أولئك الرجال أسناناً مستعارة على حافة المفصلة فتناولها ومد بها يده إلى كولينز..

ثم قال له رجل آخر من رجال الاستخبارات:

- اننا نأمل في أن تتعاون معنا، يا «كولونيل»..

ولم يبد على كولينز أنه أخذ على غرة من أمره وهو يسمع رجل الاستخبارات يتناديه بذلك اللقب الكبير.. وسألوه، بعد هذا، عما إذا كان قد استأجر مرسوم فنان في «بروكلين» مستعيراً اسماً آخر هو «اميلي غولدفوس».. فأجاب بالإيجاب بحركة واهنة من رأسه..

* * *

وفي الساعة السابعة والنصف دخل الغرفة رقم ٨٣٩ مفتش دوائر الهجرة

«روبرت شونيرجر»، وسأل كولينز عن اسم ثالث له:

- هل دخلت الولايات المتحدة آتياً من كندا سنة ١٩٤٨ وأنت تحمل اسم «آندرو كايوتيس»؟

فاعترف كولينز بذلك.. وعندئذ أبلغه رجال الاستخبارات الأميركية أنه، منذ هذه اللحظة، قد أُلقي عليه القبض رسمياً بتهمة دخوله البلاد بصورة غير شرعية.

ثم تابعوا استجوابه لكي يعترف بما لا يجهلونه من أمره، أي أنه - تحت هذه الأسماء المستعارة الزائفة - هو في الواقع «رودولف ايغانوفتش آبل» وأنه ذو رتبة عالية في «كوميسيرية» أمن الأرض الروسية.. وهي منظمة لم يعرف عنها أنها توزع الألقاب والرتب اعتباطاً..

- ٢ -

وقد علمت دوائر الاستخبارات الأميركية، فيما بعد، أن الرتبة العسكرية كانت صحيحة، ولكن اسم «آبل» كان، بكل بساطة، اسماً حريباً آخر، وكان قد اصطنع في سنوات العشرين ليتخفى به كثير من عملاء الروس في فرنسا.

وقد كان زملاء آبل يعرفونه باسم آخر هو «مارك» الاسم المخصص للمخابرات السرية. أما اسمه الحقيقي فلم يعرفه أحد حتى اليوم.

وفي هذه اللحظة، في غرفة الفندق، كان: مارتن كولينز، أو اميل غولدفوس، أو اندرو كايوتيس، أو الكولونيل آبل، أو مارك.. جالساً على حافة سريريه وكوعاء الاثنان فوق ركبتيه ورأسه بين راحتي يديه.. وكان من العسير أن يتصوره المرء مرتدياً بزته العسكرية الخشنة المزدانة بالأوسمة والشارات الذهبية، مما يرتديه الضباط الروس...

ومع ذلك، وفي عشر سنوات أو ما يقارب هذا العدد، من العمل الخفي المتواصل كعميل روسي من كبار العملاء في الولايات المتحدة: من كان يأنس في نفسه الشجاعة ليزعم أن هذا العميل المحنك، الداهية، لم يحز رتبته العالية دون جدارة أو استحقاق؟

وقد كان مما أقر به رجال الاستخبارات الأميركية أن أبّل كان أهم وأخطر جاسوس استطاعوا القبض عليه...

كان أبّل يحمل لقب العميل السوفياتي «المقيم»، وله في مدينة نيويورك مركز قيادة عامة.. غير أن الاستخبارات الأميركية أصبحت تعتقد اليوم أن نشاطه ومهامه كانت تتعدى نيويورك نفسها، وأنه كان في الواقع عميلاً «مقيماً» لأميركا الشمالية كلها، وحتى المكسيك وأميركا الوسطى... وهو، بهذه الصفة، كان رئيساً لشبكة ضخمة من أعمال التجسس الروسية.

وبدا على أبّل أنه قد تقبل القاء القبض عليه كأنما هو كان قد عاش، في عالم الفكر، هذه اللحظة نفسها، لحظة القبض عليه.. وكان مرتاح الضمير تماماً، لأنه يعلم أن اكتشاف أمره - باعتباره ممتناً للتجسس ومختصاً به اختصاص من يكره العمل غير الدقيق وغير المحكم - لا يعود إلى خطأ ارتكبه أو إهمال بدر منه.

والواقع أن دوائر الاستخبارات الأميركية توصلت إلى اكتشاف أمره، وكأنما كان ذلك معداً ومهيأً وموضوعاً على صينية جاهزة، ذلك أن أحد مساعديه المدعو «رينو هيهانن» هو الذي خانه ووشى به..

* * *

كان أبّل قد انخرط في سلك الاستخبارات السوفياتية سنة ١٩٢٧.

وفي سنة اللقاء القبض عليه (١٩٥٧) كان يحتفل بالذكرى الثلاثين لحياته كجاسوس..

قال له مفتش دائرة الهجرة الأميركية ووبرت شونبرجر - انهض وارند ثيابك.

فنهض آبل وفتح خزانة الملابس المواجهة لسريره ثم اختار حلة من نسيج «التويد» الرمادي، وفي هذه الأثناء كان رجل آخر من رجال دوائر الهجرة قد بدأ بالقاء قطع من الملابس الخاصة بآبل في إحدى الحقائب، غير أنه اعترض على ذلك، وقال ان ملابسه غير مرتبة ترتيباً جيداً، وطلب أن يؤذن له أن يقوم هو بإعداد حقائبه.

ولما أذن له بذلك أخذ يطوي ملابسه قبل أن يضعها في الحقبة، وفي الوقت نفسه جعل يفرز بعض القطع وينحبها جانباً ثم يلقيها في سلة للمهمات.

- ٣ -

كانت غرفة آبل في الفندق قد انتشرت فيها أنايب ألوان الرسم، وفرشاة هنا وأخرى هناك، وتبعثر فيها الورق والأقلام.

وكان موضوعاً فوق منضدة صغيرة قريبة من سرير النوم جهاز اذاعي من الأجهزة ذوات المرحات القصار من نوع «هاليكرافتر»، وكان سلك «الهوائي» بهذا الجهاز ممتداً على طول جدران الغرفة وخارجاً من نافذة حجرة الحمام.

وبعد أن امتلأت سلة المهمات بما ألقاه آبل فيها، وبعد أن انتهى من اعداد حقائبه، ارتدى ستره حلته، وعندئذ رآه المفتش شونبرجر يمس في كفه ورقة مطوية.. وسرعان ما فاجأه واستولى على الورقة الصغيرة المطوية عدة طيات دقيقة ولما فتحها وجد مكتوباً فيها خمس فئات من الأرقام في صفوف منتظمة..

هي في الواقع رسالة سرية لا تفك إلا بمفاتيح خاصة هي هذه الأرقام نفسها..

وبعد هذا تقدم أحد رجال الاستخبارات الأميركية فوضع القيود في يدي آبل وذهب به خارج الفندق.. أما الرجال الآخرون الذين بقوا في الغرفة، فقد راحوا يفتشون وينبشون سلة المهملات فوجدوا فيها قطعة من الخشب ملبسة بورق الزجاج.. واستطاعوا أن يفتحوا قطعة الخشب تلك فتكشف تجويف فيها عن كتاب صغير الحجم مؤلف من مئتين وخمسين صفحة، وفي كل صفحة منها كتبت فئات مؤلفة من خمسة أرقام منتظمة في صفوف متحاذاة..

كان هذا الكتيب عبارة عن شبكة من الأرقام ذوات المعاني والرموز التي تستعمل في كتابة الرسائل السرية المغلفة.. وقد خصص هذا الكتيب لآبل نفسه ولاستعماله الشخصي في مخابراته السرية. وكانت الأرقام فيه مطبوعة على شكل أعمدة صغيرة ذات لونين هما الأحمر والأسود، وكانت طباعتها واضحة كل الوضوح.. ولقد كان كل من هذه الأرقام بسيطاً غير مركب ويقوم مقام الحروف في نص من النصوص... وأضيف إلى كل فئة من هذه الأرقام رقم كيفما اتفق ودون قصد معين إلا أن يضلل من تقع في يده الرسالة السرية فلا يجد في الرسالة من النظام وتوالي الأرقام بصورة معينة ما قد يعينه على فهم مضمونها.. واذن فقد كانت هذه الطريقة غير قابلة لأن تحل رموزها وتفهم معانيها..

ووجد الرجال كذلك قلماً من أقلام الرصاص مثبتة في طرفيه ممحاة، ولما عالجوه وجدوه مجوفاً يحتوي على ثمانية عشر فيلماً دقيق الحجم المعروف باسم، ميكرو فيلم، وكان أكثر هذه الأفلام الدقيقة رسائل من الكولونيل آبل إلى زوجته وابنته، وقد تبينت من أحد هذه الأفلام مواقيت الاتصال بموسكو وبث الرسائل اللاسلكية إليها.

ولقد ذهبوا بآبل من غرفة في الفندق إلى مكتب الهجرة المركزي الواقع في شارع كوليبوس رقم ٧٠، وهناك استجوب استجواباً سريعاً، وفي الساعة الرابعة والربع من بعد ظهر ذلك اليوم نفسه وضع في طائرة فأقلعت به إلى «مكالن» في ولاية تكساس لكي يجري استجوابه هناك في دوائر الهجرة.

ومع ذلك، وقبل مغادرته إلى تكساس، مثل أمام عدسات آلات تصوير أجزاء، وهيئة الجسم فأخذت له الصور التقليدية اللازمة، فكيف كانت صورته تلك، وعما كشفت من هيئته؟

- ٤ -

أظهرت الصور التي أخذت له وجهاً مكثوداً صارماً شديد العبوس، وبأن شعره الخفيف الأغبر مسترسلاً حول أذنيه ورقبته، وبدا بنظرة منكسرة على أنف أفتى... ولحية لم تجلث منذ أيام يقضي العين منظرها... أما ياقة قميصه الأبيض فلم تزور على ربطة عنق معوجة...

كان المرء إذ يلقى نظرة على وجهه هنا يتبادر إلى ذهنه شكل موظف ما أهرق نفسه في العمل والمكوف عليه مدة طويلة في مكتب واحد لم يبارحه.. وقد أعادت هذه الصورة إلى الذاكرة كلمة قالها أحد الشهود وهي «أن أبل كان ذا مقدرة فذة في عدم لفت الأنظار إليه».

ولد الرجل الذي يسمى «رودولف ايفانوفتش آبل» في مدينة موسكو يوم الثاني من حزيران سنة ١٩٠٢، وكان الابن الوحيد لأسرة طيبة من روسيا الجنوبية. وقد أظهر منذ حداثة مواهب مرموقة في تعلم اللغات وقد أتقن اللغات: الانكليزية، والالمانية، والبولونية ومارس تعليمها في مدرسة ثانوية في موسكو ولم يكن، يومئذ، قد تجاوز الخامسة والعشرين من عمره.

ولما بلغ الخامسة والعشرين اتخذ أخطر قرارات في حياته: تزوج أولاً ثم انخرط فيما كان يدعى يومئذ «الغيبو» أي البوليس السوفياتي السري. وقد عينوه في فرع التجسس الخارجي..

وفي أول الأمر أخذ يعلم اللغة الانكليزية للمرشحين للتجسس، وفي سنوات الثلاثين من هذا القرن أهله معرفته باللغة الالمانية لأن يرسل في أولى بعثاته إلى الخارج..

وبعد الحرب العالمية الثانية ضاعف الروس من نشاط تجسسهم في البلدان الغربية، وكانت طريقهم المفضلة في ارسال جواسيسهم إلى الولايات المتحدة هي «كندا» التي لم تكن تبذل عناية كافية في مراقبة المهاجرين، وتباهى بأنها تقبل الكثيرين منهم وتوسع لهم في رحابها على نقيض ما تفعله البلدان الأخرى..

وفي سنة ١٩٤٦، ادخل آبل إلى المانيا سرّاً متخفياً تحت اسم «اندرو كابونيس»، ثم انضم إلى جماعة الأشخاص الراغبين في مغادرة وطنهم..

وبعد مدة تقدم بطلب إلى السلطات لمنحه الاذن بدخول «كندا» بصفته لاجئاً، وتم له ذلك ووصل إلى كندا سنة ١٩٤٧، وفي السنة التالية، وبفضل أوراقه التي حصل عليها من السلطات الكندية استطاع أن يدخل الولايات المتحدة.

* * *

في الامكان التراجع أن وصوله إلى مدينة نيويورك كان في شهر حزيران سنة ١٩٥٠، وهو تاريخ أول دفعة تقدم بها إلى «صندوق التوفير» في «ايبست ريفر»، وكان في تلك الأيام، يقيم في فنادق برودواي، في انحاء الشارع الثمانين والثمانين غرباً.. وكان كثير التنقل من فندق إلى آخر.

وقد عقد صلات مع بعض الأصدقاء، وقد اختارهم بعناية تامة، فكانوا رجالاً أصغر منه سناً بسنوات عديدة، وكان معظمهم من الرسامين الفنانين مثله، وبصورة خاصة كانوا رجالاً لا يهتمون اطلاقاً، ولا يعنون بما يجري في الدنيا حولهم ومن خلال ما ترويه الصحف والمجلات...

- ٥ -

كانت هذه هي خطته: أن يتابع نشاطه في التجسس ويمارس أعماله الخفية السرية بصبر عظيم خارج مظاهر حياته الاجتماعية.. إلا أنه رأى، في سنة ١٩٥٢، أنه أصبح في حاجة إلى مساعد، فأرسل إلى موسكو يطلب أن يرسلوا إليه أحداً ما.

وراح المسؤولون في دوائر البوليس السري السوفيياتي يدرسون قوائم جواسيسهم الذين أرسلوا بهم إلى البلدان المحايدة في أوروبا لمثل هذا الغرض، فاختاروا المدعو «رينو هايهانن»، وهو شاب في الثانية والثلاثين من عمره، برتبة ملازم أول في دوائر البوليس السري..

وكان «مايهانن» من مواليد مدينة «ليننغراد» من أبوين فلاحين، وقد علمته الحكومة على تفقها وخصصت له اللغة «الفنلندية» كلغة ثانية بعد الروسية.. وقد بعثوا به إلى «فنلندا» لكي يوجد لنفسه هناك قصة حياة معقولة تتيح له، إذا دعا الأمر، أن يدخل الولايات المتحدة بسهولة وسرعة، وكان، لهذا، يحمل أوراقاً ثبوتية، باسم «أوجين نيكولو ماكي».. مواطن أميركي من مواليد «اينافيل» في ولاية «واهايو» وقد أمضى معظم حياته في فنلندا..

وقد عمل في فنلندا مساعد حداد وميكانيكي سيارات، وفي الوقت نفسه كان يعمل على اشاعة قصة حياته المرتبة على النحو الذي ذكرناه..

وفي شهر آب سنة ١٩٥٢، أي بعد قليل من طلب آبل، استدعي «مايهانن» إلى موسكو لكي يقضي فترة تدريب مدتها ثلاثة أسابيع استعداداً لمهمته الجديدة... فعبر الحدود إلى روسيا مختبئاً في صندوق خلفي لأحدى السيارات، وأمضى ثلاثة أسابيع في دورة عاجلة للغة الانكليزية، وتلقى دروساً تتعلق بالأفلام السينمائية الدقيقة المعروفة باسم «ميكروسينما»، وبالصورة العادية، والأرقام السرية... ثم أعطي اسماً حقيقياً هو «فيك» وقيل له أن رئيسه الموجود في مدينة نيويورك يحمل اسم تجسس هو «مارك».

وكانت الأوامر التي تلقاها هي أن يتصل بـ «مارك» وأن يساعده، وأن يظل على اتصال بالموظفين السوفيات في نيويورك.. ثم أعطوه مبلغ خمسة آلاف دولار لكي يستعين بها على ايجاد عمل يتستر به، وعينوا له راتباً قدره أربعمئة دولار في الشهر بالإضافة إلى مئة دولار أخرى لنفقاته.. وخصصوا لزوجته التي ظلت في روسيا راتباً آخر..

وبعد انقضاء أسابيع التدريب الثلاثة عاد «مايهانن» إلى فنلندا، وبقيت زوجته في روسيا.. إلا أنه، بدافع من ضرورة الاحتياط والتستر، تزوج امرأة فنلندية اسمها «هانا هوريكا» فاصطحبها معه... وقد غادر الزوجان فنلندا إلى انكلترا في مطلع شهر تشرين الأول باسمين مستعارين هما السيد والسيدة «ماكي» ووصلا من ثم إلى نيويورك في ٢١ تشرين الأول.

- ٦ -

غداة وصول «هايهانن» إلى نيويورك، انطلق يتنزه سائراً على قدميه في حديقة «ستترال» بارك، قرب مطعم «تافيرن اون ذي غرين»، وعند التقاء ممرين من ممرات الخيل فتناول «هايهانن» من جيبه مسماراً صغيراً ذا «طبعة» حمراء وغرزه في إحدى عوارض الحاجز قريباً من اللوحات ذات التحذير...

وقد كان هذا الموضع هو أحد المواضع العديدة المتخذة كعلامات متفق عليها ، وقد أعطيت له في موسكو . ولقد كان الغرض من غرز ذلك المسمار الصغير اللون الطבעه هو أن يعلن نبأ وصوله إلى نيويورك.

وعلم هايهانن ، فيما بعد أن مواضع تلك العلامات يجب أن يتم تفقدها كل يوم لكي يتحقق من وجود رسائل أو اشارات موجهة إليه وعليه أن يتسلمها .

وقد كان السور الحديدي حول الحديقة ، ومحطات «المشرو» - القطار الكهربائي تحت الأرض - كانت جميعاً من المواضع المتفق عليها كعلامات لمثل هذه الغاية.

وكانت هذه المواضع تعلم بالطباشير الأزرق اللون وفوق العلامة خط صغير أفقي يدل على أن رسالة ما وضعت في المخبأ المخصص في ذلك الموضع .. وللدلالة على تسلم الرسالة يجب أن يوضع خط آخر عمودي.

وفي مدة السنوات الخمس التي قضاها «هايهانن» في أعمال التجسس بنيويورك أتيج له أن يستعمل أكثر من ستة مخابىء متفق عليها .. وكان أحد هذه المخابىء شقاً في جدار من اسمنت ، في طريق «جبروم» فيما بين الشارعين (١٦٥ و ١٦٧) . وكان مخبأ آخر هو عبارة عن قطعة من القرميد المفككة والموضوعة تحت جسر صغير فوق ممر للخيول قرب حوض حديقة «سنترال بارك» . وكان مخبأ ثالث يقع قرب النصب التذكاري للجنود والبحارة ، فيما بين ركن «ريفر سايد درايف» والشارع التاسع والثمانين..

* * *

و ذات مرة استعمل هايهانن وآبل ثقباً في سلم يقع في حديقة (بروسبيكت بارك) ، وقد لغت هذا الثقب أنظار حراس الحديقة ، وعندما جاء هايهانن مساء

لكي يتسلم الرسالة المفروض أنها وضعت في الثقب، وجد أن العمال جازوا
وسدوه بالاسمنت سداً محكماً.. ودون أن يدروا أن في داخله رسالة تجسس
سرية.. وقد ثبت ذلك بصورة قاطعة لأن دوائر الاستخبارات الاميركية وجدت
تلك الرسالة، بعد مضي سنوات، لا تزال في موضعها تحت الاسمنت.. ولكن ماذا
كان مكتوباً في تلك الرسالة؟

- ٧ -

كان ما كتب في الرسالة التي وجدتها دوائر الاستخبارات الاميركية السرية
في الثقب المسدود بالاسمنت ما يلي، وهي بالطبع موجهة إلى «هايهانن»: ولماذا
تراك تخلفت عن حضور اجتماعين مهمين؟ أجب برسالة مماثلة وضعها في هذا
الثقب نفسه « وقد كانت هذه الرسالة الموجزة عبارة عن قطعة صغيرة من نوع
الأفلام الدقيقة التي لا يرى ما فيها بالعين المجردة، وقد حشرت في تجويف قطعة
من حديد تشبه المسار..

ربما كانت هذه الاحتياطات المعقدة تبدو مبالغاً فيها عندما نرى أي نوع من
الرسائل كان يتم تبادلها..

غير أن الأمر كان يختلف كل الاختلاف في نظر آبل، فقد كان يرى أن
التجسس مسألة عادات حسنة يجب أن يتعودها الجاسوس، وكان في تقديره، أنه
لا بد من اتخاذ أعظم الاحتياطات حتى بالنسبة لأتفه الأمور وأقلها شأنًا
وأهمية.. وكان يتشدد في التزام القواعد والوسائل الأشد صرامة حيال أقل
التفاصيل قيمة في أية عملية تجسس، كائنة ما كانت التعقيدات، ركائناً ما كان
الوقت الذي يهدر في هذا السبيل.

والواقع أن احتياطات آبل كانت أشبه بدرع الفارس الشجاع المستلثم.. أي
أنها كانت كثيرة، ومتعددة الألوان ومربكة حتى أنها أدت إلى ضياعه..

ولقد كان من جملة وسائله وأدوات تجسسه مجموعة متنوعة للشكول والأحجام من أقلام رصاص، وأقلام ملونة خادعة ذات تجاويف ومخابىء سرية، وكان من بينها أيضاً مسامير مثقوبة، وبطاريات مصابيح يدوية زائفة، ولم تكن كما وصفها الادعاء لدى محاكمته بأنها مما يستعمله قتيان الكشافة، وإنما كانت، في الواقع، بطاريات زائفة ولكنها في الوقت نفسه تحتوي على رسائل تتضمنها أفلام دقيقة لا يرى ما فيها بالعين المجردة، وكانت توارى في مخابىء مدروسة بحيث لا تستلفت الأنظار ولا تثير الشبهات حتى لو اكتشف أمرها..

وكان في حوزته، كذلك، قطع نقود مزيفة، من فئة الخمسة سنتات، و«البنى» الواحد، وكانت قطع النقد هذه تبدو وكأنها صحيحة لا غبار عليها، غير أنها كانت مثقوبة من أحد جوانبها، فإذا أعمل فيها دبوس صغير انفتحت نصفين وأسفرت عن تجويف صغير فيها...

نعود الآن إلى أول يوم جاء فيه «هايهانن» إلى نيويورك، وإلى الدبوس الصغير ذي الطבע الحمراء الذي غرزه تحت عارضة الحاجز في مكان التقاء عمري الخيول في حديقة «ستترال بارك»: فقد تفقد آبل هذا الموضع ووجد الدبوس ففهم منه أن «هايهانن» قد وصل أخيراً إلى نيويورك حسب طلبه.

وقد أجاب آبل على هذه الإشارة برسالة مكتوبة بالأرقام السرية ثم صورها في أحد الأفلام الدقيقة التي لا يرى مضمونها بالعين المجردة، ثم وضع الفيلم في قطعة نقود مزيفة من معدن «النيكل» ومن فئة الخمسة «السنتات» المسكوكة في سنة ١٩٤٨، وخبأ قطعة النقد هذه في إحدى مخابئه المتنفذ عليها، ولم تكن الرسالة تحتوي غير التعليقات والأوامر الأولى الموجهة من آبل إلى مساعدة هايهانن. غير أن قطعة النقود المزيفة هذه، والرسالة المخبأة داخلها كان لها قصة عجيبية أذهلت حتى رجال الاستخبارات الأميركية فما هي هذه القصة؟

كانت قطعة النقود المزيفة عجيبة حقاً، بل كانت من الغموض والابهام بحيث يحار الانسان في تحليلها وتفسيرها. ويزعم «هايهان» انه لم يتسلم الرسالة المخبأة في قطعة النقود قط... أما التحليل فهو أن أحد المارة، وقد لفت نظره بريق معدني خلف قطعة مفككة من «القرميد» فبادر إليها ومد يده فتناولها من موضعها بكل بساطة ووضعها في جيبه...

وثمة أيضاً تحليل آخر وهو أن يكون أبيل قد أخطأ فدفع القطعة المزيفة ثمناً لشيء ما في لحظة سهو، ثم وضع قطعة صحيحة غير زائفة في المخبأ المتفق عليه.. ومهما يكن من أمر فإن الذي حدث، بدون أي ريب، هو أن قطعة النقود المزيفة دخلت في التداول العام..

وذات صباح اشتدت حرارته في سنة ١٩٥٣، قبض بائع جرائد صغير في الرابعة عشرة من عمره اسمه «جيمس بوزانت» مبلغ خمسين سنتاً مكوناً من هذه القطع النقدية الصغيرة من ذوات الخمسة والعشرة سنتات أعطاه إياها زبون يسكن شقة رقم ٣٤٠٣ من عمارة في «بروكلين» تقع في شارع «فوستر أفنيو».. وكان مما أدلى به الصبي بائع الصحف، فيما بعد، قوله:

- جعلت أهبط السلم مصرعاً، وعلى حين غرة خرجت النقود من يدي ووقعت على درجات السلم، ولما عدت فجمعتها رأيت احداها قد انشقت نصفين، فأخذتهما وجعلت أنظر فيهما فشاهدت في جانب من احداها قطعة صغيرة من «الميكرو فيلم» الذي لا يقرأ ما هو مطبوع عليه بالعين المجردة.. وقد خيل إلي أن ثمة أرقاماً، أو صفوفاً من أرقام.

وقد سارع الصبي بائع الصحف إلى أقرب مركز للبوليس وسلم ما وجده.. وتلقى التهتة الحارة من رجال البوليس..

وعلى افتراض أن هذا الصبي لم يتعثر في نزوله على السلم، لكان الأرجح أن قطعة النقد الزائفة كانت ستظل في التداول وشراء الصحف اليومية إلى يومنا هذا.

وقد قدم بوليس نيويورك هذه القطعة إلى دوائر الاستخبارات الأميركية الـ «اف.بي.آي» وهذه، بدورها، أحالتها إلى خيراتها في فك رموز الأرقام غير أنهم عجزوا عن ايجاد المفتاح الذي يؤدي إلى فك هذه الرموز الرقمية.

ومنذ صيف سنة ١٩٥٣ وحتى ربيع سنة ١٩٥٧ - وهو التاريخ الذي سلم فيه هايبهانن نفسه إلى السلطات الأميركية - ظلت قطعة النقد لغزاً محيراً لدى دوائر الاستخبارات الأميركية.. ولكن مايبهانن قدم لهم، بعد تسليم نفسه، مفتاح رموزها كاملاً.

* * *

استمر هايبهانن بتبادل الرسائل مع آبل دون أن يراه، ولم يتعرف إليه ويلتقي به إلا بعد مرور نحو سنتين من تاريخ وصوله إلى نيويورك.. وفي هذه الأثناء كان على اتصال دائم بـ «ميكائيل سفيرين» الذي سبق والتقى به في موسكو.. وفي أول لقاء سري له معه وكان ذلك عند سلم الخروج من إحدى محطات «المترو» في «لنكولن رود»، كان هايبهانن يحيط عنقه بربطة زرقاء مخططة بالأحمر ويدخن الغليون على الرغم من أنه ليس من المدخنين، وإنما كانت ربطة العنق بألوانها، وكان الغليون علامتي تعارف بين الاثنين... وعندئذ لمح سفيرين، فتقدم منه وسلمه علبة أفلام مما لا تقرأ مضمونها العين المجردة، وكانت هذه الأفلام تحتوي على رسائل له من أسرته في موسكو ثم تبنى له النجاح في عمله الجديد... وفي شهر نيسان سنة ١٩٥٤ غادر سفيرين الولايات المتحدة فجأة... وبعد ذهاب سفيرين غدا مايبهانن تحت امرة آبل الشخصية مباشرة...

بعد أن أصبح هايهانن تحت إمرة أهل الشخصية، تلقى ذات يوم من أيام شهر آب سنة ١٩٥٤ أمراً بأن يكون موجوداً في رحبة المنافع التابعة لدار سينما «آر. كيه. او.» في تمام الساعة الثامنة، وفي عنقه الرقطة الزرقاء ذات الخطوط الحمراء، وفي فمه غليونته. وكانت كلمة التعارف السرية تتراقص على شفثيه، إلا أن الرجل التحيل، التافه المظهر، الذي تقدم نحوه قال له:

- ما من أهمية ذات بال لكلمة التعارف السرية، فأنا أعرف أنك هو ذاك الذي أبحث عنه...

وعندئذ ذهباً معاً إلى مقهى مجاور، حيث جعل أهل - وقد كان هو نفسه الرجل التحيل التافه المظهر - يتفحص مساعدته... وكان الذي رآه فيه مخيباً لأمله... فقد كان هايهانن ذلك الرجل القميء المربوع، ذا الوجه الشاحب المتورم والشفثين الغليظتين اللتين تشيان بشراة لا حدود لها لأطاييب الطعام والشراب... كان يوحى، بصورة عامة، بتميع العزعة... وأحسن هايهانن بازدياء رئيسه أهل فأبفضه من اللحظة الأولى... وقال في نفسه: «انه يعاملني وكأنني أحد الخدم...».

وكانت المهمة الأولى التي عهد بها أهل إلى هايهانن هي: أن يكون سائق سيارة... والواقع أن هايهانن كان قد اشترى لنفسه سيارة وبيتاً في «بيكسيكيل» التابعة لولاية نيويورك، حيث أخفى جميع الأوراق السرية المتعلقة بشخصه في قبو بذلك البيت، ثم جعل يسوق السيارة برئيسه في نواحي «وتشتر» حيث كان أهل يبعث عن مكان صالح لكي ينصب جهازه اللاسلكي ذا الموجات القصار، فقد كان معه محول بقوة مئة إلى مئة «فولت» وحاول بعد أن علق الهوائي بأحدى الأشجار أن يتصل بموسكو غير أن عملية الاستقبال لم تكن

مرضية، فذهباً معاً، بعد هنا إلى «هوبيل جانكشين» في طريق «ناكونيك» العامة على أمل شراء بيت يسعهما أن يركبا فيه أجهزة الارسال والاستقبال، غير أنهما لم يجدا أي بيت بثمن أقل من خمسة عشر ألف دولار، وهو مبلغ أعلى بكثير من أن تقبل بدفعه حتى الحكومة السوفياتية نفسها...

وقد بدأت الشكوك الأولى تصاور آبل حول قيمة مساعدة هايهانن في أثناء هذه الرحلة نفسها في السيارة، وذلك عندما طلب منه أن يسجل شيئاً كان الراديو يذيعه برموز «مورس»، غير أن هايهانن قال متضيقاً أنه لا يعرف رموز «مورس» فذهل آبل أيما ذهول وقال:

- إن كل من يعملون في التجسس يجب أن يكونوا على معرفة تامة برموز مورس... ترى ما الذي علموك اياه، إذن، في موسكو؟

وبعد هنا قام هايهانن بمهمتين صغيرتين قسافر في احدهما إلى مدينة «هوسطن» لكي يجتمع به «اولاف كارلسون» وهو ضابط ميكانيكي في باخرة سويدية، وفي الثانية ذهب إلى «آولاي» بـ «نيوجيرسي» لكي يستعمل عميلاً جديداً إلى عملية التجسس... غير أنه أخفق اخفاقاً ذريعاً في المهمتين معاً...

وعندئذ أخذ آبل يتسائل عما إذا كان هايهانن قادراً على القيام بأية مهمة مهما صغرت، وقرر، من فوره، أن يختبره اختباراً يتبين به حقيقة أمره على وجه الصحة والتأكد...

- ١٠ -

قرر آبل أن يختبر مساعده هايهانن اختباراً يتبين منه حقيقة أمره على وجه الصحة والتأكد، فأرسله إلى «بيرمونتين» لكي يبحث عن مبلغ من المال مدفون في حديقة تلك البلدة، والواقع أن آبل كان قد دفن في تلك الحديقة مبلغاً

بمجموعه خمسة آلاف دولار، وكان هذا المبلغ معداً لدفعه إلى السيدة «هيلين سويل» زوجة «مورتون سويل»، وكانت قد تعاونت في سنة ١٩٥١ مع الزوجين «رونبرغ» في عمليات تجسس أخرى لحساب الروس.

انطلق هايهانت إلى بلدة «بيرمونتين» وشرح يبحث ويتقّب في حديثها العامة ويبيده خارطة المكان الذي خبىء فيه المبلغ، ولم يلبث أن وجد رزمتين مدفونتين، وكانت إحدى الرزمتين تحتوي على ثلاثة آلاف دولار، والأخرى على ألفين... وقد أثبت هايهانت أن مقدار ما يكون من شرف بين الجواسيس هو مقدار ما يكون من هذا الشرف بين اللصوص... فبدلاً من أن يدفع هايهانت المبلغ إلى المدعوة «سويل» دسه في جيبه... وفي الغداة قابل رئيسه آبل وقال له:

- لقد سلمتها المبلغ... ونصحت لها أن تنفقه بحذر...

* * *

وفي شهر ايار سنة ١٩٥٥ قرر آبل أنه قد آن الأوان أن يتخذ هايهانت لنفسه قناعاً أو ستاراً للتصويه والتعمية فدفعه إلى فتح دكان صغير للتصوير في «نيوارك» بـ «نيوجيرسي»... ولكن آبل ما لبث حتى اكتشف أن هايهانت لا يكاد يعرف شيئاً عن مهنة التصوير... ومع ذلك فقد رأى من واجبه أن يساعده عندما وجد هايهانت محلاً آخر مع شقة سكن في حي فقير من المدينة، بشارع «بيرجن ستريت».

وفي هذه الأثناء ارتكب آبل، بنية حسنة، الخطأ الذي دفع ثمناً له حرته فيما بعد، ذلك أنه خالف القاعدة الأولى التي تأخذ بها كل شبكة تجسس وهي: أن عملاء التجسس يجب أن لا يعرفوا أبداً أسماء وعناوين رؤسائهم... ولم يكف آبل بذكر عنوانه لهايهانت بل اصطحبه في موسمه في «فولتون ستريت» لكي يعطيه بعض مواد التصوير... وجهازاً لاسلكياً للارسال والاستقبال قصير

الموجات.

وقد كان هذا الاهمال الوحيد هو الذي أتاح لهايهانن، فيما بعد، أن يرشد دوائر الاستخبارات الأميركية إلى رئيس شبكة التجسس الكبير: آبل...

وبعد انقضاء شهر، على وجه التقريب، من استقرار هايهانن في دكانه فوجيء آبل مفاجأة سارة وهي أن رؤساءه، وقد سرهم عمله وأرضاهم، رفعوه إلى رتبة «كولونيل» ومنحوه اجازة مدتها ستة أشهر يقضيها مع أسرته... وفي اليوم العاشر من شهر حزيران غادر نيويورك عن طريق باريس ثم فيينا.

وما أن سافر آبل حتى تنفس هايهانن الصعداء، ولم يعد بحاجة إلى تفقده مخابيه ومعالم التجسس والدبابيس ذوات الطبقات الحمراء يومياً. كما لم يعد مضطراً أن يعمل سائقاً لأبل في الضواحي بحثاً عن المواقع المناسبة لنصب أجهزة الارسل والاتصال بموسكو، وأهم من هذا كله أنه أصبح غير مجبر على أن يستمع إلى تعليمات ودروس رئيسه المتزمت.

- ١١ -

... وبدلاً من أن يفتح هايهانن دكان التصوير فقد عمد إلى زجاج واجهته ودهنه بالمسحوق الأبيض دلالة على أن المحل مغلق وليكون من ثم واثقاً من أن أحداً لن يستررب في أنه مفتوح... وبعد هذا أخذنا يسلك سلوكاً غريباً لا يتفق وسلوك من يعملون في التجسس.

وننقل، فيما يلي، أقوال المحامي «دونفان» في أثناء المحاكمة التي جرت لأبل فيما بعد للدلالة على هذا السلوك الغريب: «على الرغم من أن هايهانن كان من عملاء التجسس في الناحية التي فتح فيها دكان التصوير فقد ارتكب جميع الأخطاء والحماقات الممكنة التي يتجنبها الجواسيس عادة... والجاسوس الحق هو

الذي ينبغي أن يذوب في الجماهير، أن يطل بلا وجه معلوم وذئ سمات... أما هايهانن فقد فعل كل شيء لكي يلتفت إليه الأنظار ويجذب الانتباه... كان يحب خمر «الفودكا»، ولأول مرة في حياته كان يحوز المال الكافي لكي يحتسي الفودكا ويروي بها ظمأه رياً كاملاً... بل هو كان يشتري صناديق الفودكا المملأ بالزجاجات، وكان كلما فرغت زجاجة أو أكثر يلقي بها في وعاء النفايات الموضوع خلف مسكنه الملتصق بداره... ولقد بالغ في هذا كله حتى لفت أنظار جميع سكان الحي فلم يكن لهم من حديث سوى ذلك...»

* * *

لما عاد أبيل من اجازته الطويلة في أوائل سنة ١٩٥٦ حاول أن يتصل بهايهانن عن طريق المخايبي المتفق عليها، غير أنه لم يلبث أن لاحظ أن مساعده عاد لا يتفقد هذه المخايبي بصورة منتظمة... وأخيراً وجده، وسأله كيف تسير الأمور في دكان التصوير.

وعندئذ أخذ هايهانن يتحلل المعاذير ويقول أن الحي الذي يقيم فيه رطب، وأنه من المستحيل فتح دكان فيه... ولم يقتنع أبيل بهذه الحجج الواهية فعنفه، وأغلظ له القول... ثم عاد فغير من حدة لهجته وقال له أنه يدرك ما قد عسى أن يكون قد طرأ على أعصابه من توتر، وقد يكون الأفضل أن يأخذ اجازة وينهب إلى موسكو لكي يرى أسرته...

واتصل أبيل بموسكو، وطلب لمساعدته الاجازة المنشودة، ولم يأت الجواب إلا بعد بضعة أشهر وكان يتضمن منح هايهانن الاجازة المطلوبة... كما يتضمن نبأ ترفيعه إلى رتبة «رئيس».

وبادر أبيل إلى تنظيم رحلة هايهانن الذي كان عليه بموجب ترتيبات رئيسه أن يذهب أولاً إلى باريس باسم مستعار هو «لوري ارلوند اورماس» غير أن هذه

الاجازة التي أتت بسهولة مرفقة بترفيه رتبته ملأت قلبه رغبة.. ومحسباً.. وأدرك أن موسكرو لا تريد استقدامه لكي تقدم له التهنئة والثناء العاطر...

ولكي يكسب مزيداً من الوقت قال لأبل أنه سيحصل على تذكرة سفر في الباخرة «كوين اليزابيث» التي ستبحر في شهر كانون الثاني سنة ١٩٥٧ ثم تقبل من أبل مبلغ مئتي دولار كنفقات سفر، غير أنه لم يبحر على السفينة المذكورة... وإبتكر قصة خيالية زعم فيها أن بعض رجال المخابرات الأميركية حققوا معه وأرغموه على مغادرة السفينة.

والواقع أنه كان يزداد ذعراً، يوماً بعد يوم. لمجرد تصوره أنه يوشك أن يعود إلى موسكو... وجعل يزعم لأبل أنه يشعر أن ثمة أشخاصاً يتعقبون أثره... غير أن أبل رفض أن يصدق شيئاً من هذا كله... وأرغمه على السفر في الباخرة «ليبرتي» يوم ٢٤ نيسان.

- ١٢ -

لما وصلت الباخرة «ليبرتي» إلى الهافر، الميناء الفرنسي، نزل منها هايهانتن، ثم ذهب إلى أقرب هاتف ثم أدار القرص على الرقم الذي كان أبل قد زوده به وهو «كليبيري ٤١-٣٣» وكانت كلمة السر لمن يحادثه هي: «هل أستطيع أن أشحن على باخرتكم رزمتين بواسطة شركة ميربي؟».

ولم تمر ساعة أو نحوها حتى وجد هايهانتن نفسه أمام أحد الموظفين السوفيات في الشارع فأعطاه الموظف مبلغاً من الفرنكات الفرنسية بالإضافة إلى مئتي دولار.

بعد أن استطاع هايهانتن أن يستولي على أكثر ما يمكنه الاستيلاء عليه من الروس، ذهب في القعدة إلى باريس وقدم نفسه إلى سفارة الولايات المتحدة

هناك.

وروى لموظفي السفارة قصته كلها فذهلوا أيما ذهول، ولم يصدقوه... غير أنه أظهر لهم، بكل بساطة، قطعة من النقود المجرّفة التي تستعمل لأعمال التجسس... ولما أكد لهم إنما يقول الحقيقة التي لا شبهة فيها، سارعوا فأعادوه إلى نيويورك حيث تتولى أمره دوائر الاستخبارات الأميركية المعروفة باسم: «أف. بي. آي».

وفي نيويورك بقي مجهول الهوية. فقد وضعت دوائر الاستخبارات في «مجر وستيتن آيلاند» حيث خضع لفحوصات طبية وعصبية ونفسية عديدة لكي يتبينوا إذا لم يكن مصاباً بحب الكذب والادعاء... إلا أنه عندما وضع لرجال الاستخبارات الأميركية أسرار فك رموز الأرقام التي عشروا عليها لدى تفتيش غرفة آبل في الفندق، بدأوا يأخذون أقواله على محمل الصدق...

وفي هذه الأثناء كان آبل قد أخذ يحس أن الأمور لا تجري في مجراها الطبيعي... فجعل يعد العدة للهرب... ولكن رجال الاستخبارات الأميركية سرعان ما ألقوا عليه القبض قبل قراره كما تقدم في الحلقة الأولى من هذه السلسلة...

* * *

وعين يوم ١٤ تشرين الأول موعداً لمحاكمة آبل. وكان هذا الموعد يقترب... وكان محاميه يجتمع به في سجنه ويتحدث إليه طويلاً لكي يعد العدة للدفاع عنه. وقد تم اختيار المحامي الأستاذ «دونغان» من بين ثلاثة من كبار المحامين في «بروكلين» نزولاً على طلب آبل نفسه من المحكمة الفيدرالية...

وفي اليوم السابع من شهر آب سنة ١٩٥٧، أي بعد شهر ونصف الشهر من

القاء القبض عليهم، وجه إليه الادعاء العام ثلاث تهم.

التهمة الأولى: كانت أنه تأمر وحصل على معلومات عسكرية أوصلها إلى الاتحاد السوفياتي، والعقوبة القصوى لهذه التهمة هي الحكم بالاعدام.

والتهمة الثانية: كانت اشتراكه في مؤامرة للحصول على المعلومات المذكورة وعقوبة الاشتراك في المؤامرة هي السجن مدة عشر سنوات.

أما التهمة الثالثة: فلم ينكرها، بل اعترف بها وهي دخوله إلى الولايات المتحدة بصورة غير مشروعة ودون أن يسجل نفسه كأجنبي في الدوائر المختصة. وكانت العقوبة التي ينص عليها القانون، في مثل هذه الحالة السجن خمس سنوات...

- ١٣ -

وقد اختيرت هيئة محكمين على وجه السرعة من تسعة رجال وثلاث نساء. وقد جلس في منصة المحكمة القاضي الاتحادي «موريتماريايز».

ولقد كانت هذه القضية من القضايا الفريدة من نوعها في الولايات المتحدة. أولاً لأن هذه كانت هي المرة الأولى في تاريخ الولايات المتحدة - فيما قاله المحامي الأستاذ دونوفان - التي يحاكم فيها، مواطن سوفياتي ويصدر عليه الحكم، باعتباره جاسوساً، وفقاً للقوانين الأميركية ثم كانت المرة الأولى أيضاً التي يحاكم فيها أجنبي بموجب قانون «روزنبرغ» الذي ينص على أن انساناً ما يصبح مستحقاً لعقوبة الاعدام إذا ما قام بعملية التجسس لحساب بلاد أجنبية تكون معها الولايات المتحدة في حالة سلام شرعاً وقانوناً...

وفي أثناء المحاكمة كلها لم يفتح آبل فمه بكلمة واحدة دفاعاً عن نفسه.

وكان قد قال لمحاميه «دونفان» انه لا ينتظر عوناً من الخارج. وكان لذلك، يبدو راضعاً مستكيناً...

والواقع أن المحامي دونفان لم يقدم أي شاهد لمصلحة موكله، ومع ذلك فان شهود الاتهام، بعد أن نوقشوا مناقشة دقيقة وقوية، تحولوا إلى شهود دفاع بما وصفوا به أخلاق أهل. فقد صرح أمام المحكمة، رجال من أولئك الشهود فقالوا أن أهل كان رساماً يشير الاهتمام، وكانت رسومه تستلفت الأنظار، وأن سمعته في الحي وفي بيئتهم جميعاً «فوق الشبهات».

وحاول المحامي أن يشكك في صحة شهادة الشاهد الرئيسي في القضية... وكان أهل لا يرغب في قول أي شيء لأنه يدرك أن الخطيئة الكبرى التي يرتكبها عميل التجسس هي أن: يلفت الأنظار إليه، حتى بعد أن يكشف أمره ويقبض عليه.

أما الشاهد الرئيسي في القضية فقد كان «هايهانن» نفسه، وقد مثل أمام المحكمة وقد حجب عينيه بعيونات سوداء، وصيغ شعر رأسه وشاربيه. وراح يروي للمحكمة بلهجة عسيرة ولكنها متبججة أعمال التجسس التي كان يقوم بها هو وأهل، وذكر ما كانا يستعملاتهما من الأفلام التي يقرأ ما فيها بالعين المجردة «الميكرو فيلم»، ووصف المخايب، السرية التي كانا يصطنعانها، وكيف كانا ينفذان الأوامر التي كانا يتلقيانها من موسكو...

غير أن أخطر ما جاء في شهادته هو ذلك القسم المتعلق بما سمي (رسالة كيبك) والتي تشير إلى أوامر صدرت إليهما بوجوب الاستمرار في النشاط والعمل على ضم المدعو «روي رورس» إلى أعمال التجسس السوفياتية، وقد كان روي رورس هذا جندياً في جيش الولايات المتحدة، وكانت هذه الرسالة قد وجدت عند «هايهانن» في - بيكسكيل - وقد أخفيت في ثقب لولبي خاص...

كانت هذه الشهادة بأن آهل ومساعديه قد تلقوا أوامر من موسكو بافساد ذمة جندي في الجيش الأميركي واستمالته إلى العمل معهم واغرائه بافشاء أسرار بلاده عن طريق أخ له قيل أن في وسعه أن يصل إلى الحصول على أسرار تتعلق بأمور الطاقة الذرية... كانت هذه الشهادة ثقيلة جداً رجحت بها كفة اتهام آهل حقاً.

- ١٤ -

ومع ذلك فإن الاستخبارات ودوائر التجسس السوفياتية لم تمتدح شيئاً مذكوراً مما قدمه لها الجندي الأميركي «رودس»، بل لقد ضلل رودس هذه الدوائر وأمدّها بخليلط من المعلومات الصحيحة والزائفة معاً - ولم يكن له، في واقع الأمر، شقيق يعمل مهندساً في المصانع الذرية...

وقد استطاع رودس، بهذا الخداع أن يبتز أموالاً طائلة من الروس في موسكو، وكان واضحاً أنه بالغ مبالغة مفضوحة وأضفى على معلوماته كثيراً من البهرجة لكي يكسبها قيمة ليست لها...

ويبدو أن الروس قد انخدعوا فعلاً وأخذوا مزاعمه وكأنها حقائق لا ريب فيها...

ثم طلب الاتهام من هايبان أن يروي للمحكمة، وبالتفصيل الدقيق، كل أعمال التجسس التي قام بها في خلال خمس سنوات من العمل باعتباره الساعد الأيمن لأبل، وقد نفذ هايبان ما طلبه منه الاتهام وروى كيف جاء، وبالتفصيل الدقيق، كيف كان يعمل مع آهل، والمهام التي أوكلت إليه...

وعلى الاثر حاول المعامي دونوفان في مناقشته الصارمة لهايبان أن يبطل شهادته ويجعلها غير ذات قيمة، فصور للمحكمة حالة هايبان برجل بين نارين:

فالولايات المتحدة تحتقره من ناحية، وروسيا تزدريه من ناحية أخرى، فكان أمله الوحيد: أن لا يجر أكثر ما يمكن من الناس في جرائمه وحسب، بل أن يبالغ كذلك ويضفي على أقواله أكثر ما يستطيع من الأهمية والقيمة والأبهة...

وقد بدأ ما تبقى من القضية مسنماً وعملاً بعد أن أدلى هابيهانن بشهادته المثيرة.

وكان من جملة الشهود الذين مثلوا أمام المحكمة الجندي «رودس» نفسه فقال أنه سلم الروس فعلاً خليطاً من المعلومات الصحيحة والمفككة الزائفة، وذلك في الوقت الذي كان فيه مستخدماً في السفارة الأميركية بموسكو.

واغتتم محامي الدفاع - دونوفان - هذه البادرة فهاجمه بعنف شديد، واتهمه بأنه «الجندي الوحيد في تاريخ الولايات المتحدة كله الذي تجرأ واعترف بأنه باع وطنه في سبيل حفنة من المال»...

وكان «رودس» هذا رجلاً ساذجاً طويل القامة، بادي العظام، وفي نحو التاسعة والثلاثين من عمره إذ ذاك، فلم يكن منه إلا أن علق على شفثيه ابتسامة رضى وطمأنينة طيلة الوقت الذي أدلى فيه بشهادته كأنه كان مزهواً جداً بما فعل... وقد أحيل، فيما بعد، إلى محكمة عسكرية فأصدرت حكمها عليه بالسجن خمس سنوات مع الأعمال الشاقة، وكان ذلك في اليوم الحادي والعشرين من شهر شباط سنة ١٩٥٨.

- ١٥ -

طلب الدفاع، في القسم الأخير من القضية، أن تأذن المحكمة بقرأة رسائل تلقاها أبيل من أسرته في موسكو، وكانت مصورة في «الميكرو فيلم» الذي وجدت دوائر الاستخبارات الأميركية نسخاً منه في فندق «لاثمان» في أول يوم قبض

فيه على آبل. ولدى قراءة رسائل زوجته «إيليا» وابنته «افلين» بدأ آبل لأعين الجميع في صورة انسانية لم تدر في خلد أحد طيلة الوقت الذي استغرقتها محاكمته.

فقد وصف في سياق المحاكمة بأنه جاسوس من أساتذة التجسس الخطيرين، وأنه كان، بسهولة، يصنع الهويات... والأشخاص... كما تقص اليد الحاذقة من الورق عرائس ودمى وألعاباً... وعلى هذا فقد كان من الصعب جداً، بعد هذه الصورة القاسية، أن ينظر إليه كرجل عادي مثل سائر الرجال... له أسرة، وبيت، وزوجة، وابنة، وحياة خاصة حقيقية.

وقد استمعت المحكمة، واستمع المحكمون، واستمع الحضور جميعاً إلى ما جاء في تلك الرسائل: فزوجته كان يصيبها القلق على صحته وراحته وأمنه. وابنته التي بلغت الخامسة والعشرين من عمرها كانت تحدثه عن زواجها، وعن عملها الجديد، وتبثه جها العظيم له، وتعترف أن زوجها كان ما كان جها إياه، لا يصل، مهما علا وسما، إلى أعلى من رسغ قدمه.

وكأنه لم يكن من اللائق أن يطلع أحد، هكذا فجأة، على أن الجاسوس السوفياتي الأول في الولايات المتحدة كان يتلقى رسائل من زوجته تسأل فيها عن أحواله وتحديثه عن كلب البيت وأنه بصحة جيدة... وتستفسر منه عن معدته وشؤون صحته... الخ...»

أجل، كان هذا كله يبدو في غاية الغرابة ومثيراً للدهشة كما يمكن أن يثير الدهشة نفسها مجرم قاتل زنيم، ويقال بعد ذلك أن هوايته جمع الفراشات الملونة الزاهية وحفظها، لجمالها، في محافظ خاصة بها...

والواقع أن قراءة هذه الرسائل كانت مؤثرة جداً، وقد زاد من معقوليتها أنه كان معلوماً، بصورة مسبقة، في المحكمة أن آبل لن يعود فيرى أسرته في وقت

قريب...

وقال بعض أعضاء هيئة التحكيم أن اللحظة الوحيدة التي أظهر فيها أهل بعض الانتفال هي اللحظة التي قرئت فيها هاتيك الرسائل، فقد شوهدت الدموع تجول في مآقيه وتتغيم منها زجاج عويناته...

وفي يوم ٢٣ تشرين الأول انسحب المحلفون ليختلوا، ويتدارلوا، وكانت الساعة، إذ ذاك، قد بلغت الثانية عشرة والربع.

وبادر «أهلين» رئيس هيئة التحكيم فقال مؤكداً:

- إن القضية لا تحتاج إلى جدل كثير أو قليل... وأخذ يستطلع آراء زملائه.

- ١٦ -

بعد الادانة كان لا بد من صدور الحكم، والحكم من شأن المحكمة وحدها، ولا دخل للمحلفين فيه، وحسب المحكمة أن تأخذ بالادانة أو التبرئة التي يصدرها المحلفون، ثم أن المحكمة، بعد ذلك، هي التي تقرر العقوبة المناسبة.

ولم يصدر الحكم بالعقوبة، في هذه القضية، إلا يوم ١٥ تشرين الثاني، وفي هذه الأثناء، بين الادانة وصدور الحكم بالعقوبة، كتب الأستاذ «دونوفان» محامي الدفاع عن أهل رسالة إلى القاضي «هايز»، وكانت هذه الرسالة - في خضم ما وقع من حوادث وأحداث لاحقة - تبدو الآن وكأنها نبوءة لا ريب فيها.

ولقد أقر المحامي بما في ادانة «أهل» من وجه حق لا ريب فيه ولا مجال للطعن في صدقه، غير أنه، إلى هنا، قدم لائحة مستفيضة من الحجج والبراهين التي تدعو، في رأيه، إلى عدم اصدار الحكم بالاعدام على أهل.

وقد قال في رسالته أن المبرر السوري المعقول لاصدار الحكم بالاعدام، هو أن تحول هذه العقوبة، في الواقع، دونه الاقدام على أعمال التجسس في المستقبل... ولكنه سيكون من الحق والسخف البالفين الاعتقاد بأن اعدام آبل سيجعل روسيا تطلع عن أعمال التجسس، وتكف عن ارسال عملاتها وعيونها حيث يطيب لها، وحيث تستدعي ذلك مصلحتها.

وبالاضافة إلى هذا، بل فوق هذا فان الحكم بالاعدام يجب أن تزوره الحكومة وتزنه وزناً دقيقاً قبل النطق به، وذلك في ضوء التفكير بأن ثمة مواطنين أميركيين لهم نشاط وفعالية ومهام تشبه، بل قائل نشاط وفعالية ومهام آبل... في بلاد... في الخارج... وبعبارة أخرى فان «دونوفان» ذكر القاضي «بايرز» بأن للولايات المتحدة جواسيس وعيوناً وأرصداً في أنحاء هذه الدنيا، فمن مصلحتها، إذن، أن لا تصدر أحكاماً بالاعدام... إذا كانت لا تريد أن يصدر مثل هذا الحكم على أحد المواطنين الأميركيين لو أوقعه سوء الطالع وانكشف أمره لسلطات البلاد التي يعمل فيها ما يشبه أو يماثل أعمال آبل لحساب بلاده.

لقد كانت هذه الفقرة بالذات، في رسالة المحامي الأستاذ (دونوفان) هي التي كان فيها ما يشبه أن يكون تنبؤاً لما قد يحدث في المستقبل.

وأراد المحامي الحاذق أن يكون أكثر تخصيصاً في حجته، بعد التعميم الذي ذكره في الفقرة السابقة من رسالة، فكتب أيضاً يقول:

إن من الممكن الذي لا سبيل إلى استبعاده أن يحدث في مستقبل غير بعيد أن تلقى روسيا القبض على شخص أميركي من رتبة ماثلة لرتبة آبل، أو على شخص آخر له منزلة أعوانه والعاملين في فلكه، أو شبكته... وفي مثل هذه الحال قد يصار إلى تبادل المساجين، بالوسائل الدبلوماسية، تبادلاً هو في مصلحة أميركا الوطنية.

ومع ذلك كان أعضاء هيئة التحكيم، اجمالاً، في صف «أهل» كرجل
وانسان.

وقد قال أحد المحلفين:

- لو كنت أنا صاحب الأمر لاخترت جاسوساً لبلادي رجلاً مثله.

غير أن الأعضاء لم يستطيعوا أن يتغاضوا أن بينات الاثبات المتراكمة ضد
أهل من الثقل بحيث لا سبيل إلى انكارها أو التخفيف من شأنها وشدة وطأتها
عليه.

وكان من رأي «دابلين» رئيس هيئة المحلفين أن اجراء التصويت بطريقة رفع
الأيدي قد تحول دون أن يعطي المتخرجون آراءهم بصدق ونزاهة، فاقترح أن يجري
التصويت بالطريقة السرية على ورق مطوي في أول الأمر.

وبالفعل جرى اعطاء الأصوات على هذه الطريقة، وكانت الورقة الأولى التي
فتحتها تنص على أن أهل «غير مذنب»، وكانت هي الورقة الوحيدة التي برأته...
وجاءت الأصوات الأخرى، وهي أحد عشر صوتاً، ضده، وهكذا أدانته هيئة
المحلفين بأحد عشر صوتاً ضد صوت واحد.

وبهذه المناسبة فقد صدرت مسرحية من فصل واحد مثلت على المسرح، ثم
اقتبس منها فيلم سينمائي باسم «اثنا عشر رجلاً غاضبون» وبرى في هذه
المسرحية العضو الوحيد المخالف من هيئة المحلفين في احدى قضايا الجريمة يبذل
المستحيل في الجدل والمناقشة وتحكيم المنطق والعقل، والطعن في الأدلة أكثر من
ساعتين وهو يستميل إلى جانبه الأعضاء الآخرين واحداً بعد واحد حتى يصل في

النهاية وبعد تعب ومشقة بالفتين، إلى كسب الأعضاء الذي كادوا يدينونه في بادئ الأمر بأحد عشر صوتاً ضد صوت واحد...

وربما كانت هذه المسرحية مستوحاة من قضية محاكمة آبل... وربما خطر لمؤلف المسرحية أن يبرهن أن مخالفاً واحداً قد يكون على حق، ويكون الآخرون على باطل رغم ما يشبه الاجماع، لو تذرع المخالف الوحيد بالشجاعة والصمود لرأيه وبذل الجهد المرهق لاقتناع الآخرين...

وعلى أي حال فإن شيئاً مثل هذا لم يجر في قضية آبل، واكتفي بإدانتها بأكثرية أحد عشر صوتاً.

ومع ذلك فقد استمرت مداوالات هيئة التحليف ثلاث ساعات ونصف الساعة، أي الساعة الواحدة حتى الرابعة والنصف، ثم عاد المحلفون إلى مقاعدهم في المحكمة وهم يحملون ادانتهم بأن آبل «مذنب» من جميع الوجوه...

وقد انتصب آبل واقفاً على قدميه لكي يستمع إلى الادانة من أفواه المحلفين...

وفي حركة الضجيج التي أعقبت النطق بالادانة في المحكمة غادر القاعة شامخ الرأس، منتصباً، لا شيء، في موقفه واعتداده بنفسه، يشي بأي معنى من معاني الهزيمة أو الانهيار أو التضعف على الأقل مما أذهل الحاضرين حقاً، فارتفعت همساتهم تعلق شتى التعليقات على هذا الموقف الذي يدل على رجولة أصيلة لا ريب فيها...

- ١٨ -

وقد حدث هذا فعلاً، وتحققت نبوءة المحامي الحاذق. ففي شهر ايار من سنة

١٩٦٠ سقط الطيار الأميركي «فرانسيس غازي بوارز» وطائرته «١١-٢» في قلب روسيا مما جاء مؤكداً ومثبتاً لتوقع المحامي «دونوفان» وبعد نظره. وفي أقل من سنتين، بعد ذلك، وبفضل تثبيت هذا المحامي وإصراره كان هذا التبادل في المساجين بين أميركا وروسيا، وغدا مجرد الاحتمال حقيقة واقعة.

* * *

ونعود الآن إلى قضية آبل، وإلى الحكم بالعقوبة المتوقعة فقد أنهى المحامي رسالته إلى القاضي «بايرز» قائلاً: ان آبل رجل في الخامسة والخمسين من عمره، وهو قد خدم بلاده باخلاص... وسواء كانت هذه البلاد على حق أو على باطل، فإنها وطنه دون رب واني لأطلب من المحكمة، بكل بساطة أن تدخل في اعتبارها أننا في حالة سلام شرعية مع تلك البلاد.

وفي اليوم الذي صدر فيه الحكم بالعقوبة أعلن القاضي «بايرز» أنه تسلم طلب المحامي «دونوفان»، ثم قال أنه وحده هو الذي يستطيع أن يقول ما إذا كان لهذا الطلب أي تأثير عليه.

ثم أردف القاضي يقول:

- إن المحكمة تكاد تجهل كل شيء من الحياة الشخصية الخاصة لهذا الرجل ومن حقيقة أخلاقه. وما أننا لا نستطيع أن ننفذ إلى طوايا وخطايا عقل هذا الرجل المعروف باسم «آبل» فان أدلة الجريمة تقضي أن يحاكم باعتباره رجلاً قد اختار مهنته عن علم ودراية، ودون أن يجهل شيئاً مما يعف بها من مخاطر ومن الثمن الذي يتوجب عليه أن يدفعه في حالة اكتشاف أمره والقاء القبض عليه.

وإذا ما ترجمت عبارات القاضي إلى عدد من السنين وعدد من الدولارات فإنها تعني: السجن ثلاثين عاماً، وغرامة قيمتها خمسة آلاف دولار للتهمة

الأولى، وعشر سنوات وألفي دولار للتهمة الثانية، وخمس سنوات وألف دولار للتهمة الثالثة. غير أن هذه العقوبات جميعاً يجب أن تختلط ويذوب بعضها في بعض فتكون العقوبة القصوى: السجن مدة ثلاثين عاماً... وحسب. وهي، في الواقع، العقوبة التي حكم بها على آبل دون الغرامات المالية. وقد اقتيد آبل للسجن (الفيدرالي في أطلنطا) بولاية جورجيا، حيث شرع ينفذ تلك العقوبة.

وفي سجن أطلنطا أعطي آبل رسمياً الرقم الخاص به بين المساجين وهو «A-٨٨٠١٦».

وقد علم، من مصادر موثوق بها فيما بعد، أن آبل كان واحداً من أكثر المساجين شعبية، وحسن سلوك وطاعة واستجابة لقوانين السجن ونظمه. وبالمقابل نال الاحترام الذي يناله محارب حلت به هزيمة شريفة... حتى جاء اليوم الذي خرج فيه حراً طليقاً من سجنه وعاد إلى بلاده بفضل التبادل الذي تم التوصل إليه، بالأساليب الدبلوماسية، بينه وبين الطيار الأميركي بوارز.

جثة على ضفة النهر !

للقصصي العالمي «جي دي موباسان»

- ١ -

انطلق ساعي البريد «ميدريك رومبيل» في ميعاده العادي من مكتب بريد «روي لوتور»، وكان سكان تلك الناحية يختصرون اسمه متحبين إليه ويدعونه «ميدري». وبعد أن اجتاز المدينة الصغيرة بخطواته الواسعة التي اعتادها باعتباره جندياً قديماً قطع أولاً سهول «فيلوم» لكي يصل إلى ضفة نهر «البرانديل» التي تؤدي به، وهو سائر يحاذي مياه النهر، إلى قرية «كرفلين» حيث يشرع بتوزيع ما في جعبته من رسائل وصحف ونحوها.

كان يخطو بسرعة، في محاذاة النهر الضيق الذي كان يرغب ويزايد ويفور ثم تنساب مياهه في مجراه من الأعشاب تحت قبة معروشة من شجر الصفصاف. وكانت الحجارة الكبيرة، وهي تعترض جريان الماء، تحدث حولها منه حلقات تنتهي بما يشبه أن يكون عقداً من زيد. وكانت الشلالات الصغيرة، في مواضع هنا وهناك، لا تكاد تتبينها العين، ومع ذلك كانت كلها تصخب وتعريد غاضبة وهي تحيish متدفقة خلال النباتات الوريقة، والمتسلقة، وتحت مشتبك الشجر المتلف. وكانت عدوتا النهر تتسعان، عند مسافة أبعد، ولا تعلم العين أن تجد ثمة بحيرة صغيرة هادئة تسبح فيها أسماك النهر وتقلب بين الأعشاب الشبيهة

بشعر أخضر جميل يتماوج في أعماق مسايل المياه الهادئة.

ولكن «ميدريك» كان يقدّر السير دون أن يرى شيئاً من هذا كله، ولا يتفكر في نفسه: أن أول رسالة أقوم بتوزيعها ستكون لبيت «هوافرون» ما دامت في جعبتي رسالة غيرها للسيد «رينارديه» فلا بد إذن من أن أجتاز الغابة ذات «الأرواح الكبيرة».

كانت سترته الزرقاء مشدودة جيداً حول قامته، يحزام من جلد أسود اللون، وقد اندفع يسير مسرعاً ولكن بخطى موزونة منتظمة، ويديه عصاه المتينة، ثم اجتاز النهر من فوق جسر مصنوع من كتلة شجرة واحدة القيت فوق الضفتين.

كانت الغابة ذات الشجر الباسق من أملاك السيد «رينارديه» عمدة قرية «كارفولين»، وهو من أغنى أغنياء ملاك الناحية. وكانت الأشجار في تلك الغابة أداواً ضخمة، عتيقة، منتصبة، في استقامة رائعة كأنها أعمدة قائمة، وكانت كثيرة العدد، ومنتشرة على مسافة نصف فرسخ وعلى امتداد الضفة الشمالية لجداول المال الذي اتخذ حداً لذلك الرواق من الشجر الوريق الملتف.

تمهل «ميدريك» وطامن من خطاه، ونزع عن رأسه قبعته السوداء المزدانة بشارة حمراء تدل على مهنته، وجفف عرقه المتفصد من حرارة السهول على الرغم من أن الساعة لم تكن قد بلغت حد الثامنة صباحاً.

وما أن استروح قليلاً، حتى عاد فاعتمر قبعته واندفع يقدّم السير من جديد ولكنه لم يخط بضع خطوات حتى شاهد عند أسفل شجرة، سكيناً صغيرة بما يعيثر به الصبية، ولما انحنى يلتقط هذه السكين وجد أيضاً «كشتباناً» ثم اكتشف، غير بعيد، علبه صغيرة للابز.

بعد أن أخذ هذه الأشياء حدث نفسه قائلاً: - سأسلمها إلى العمدة. ثم تابع

سميره، غير أنه غدا منتبهاً الآن، مفتوح العينين، يشرب أن يجد دائماً شيئاً جديداً...

وعلى حين غرة توقف مبهوراً كأنه ارتطم بحاجز من خشب، ذلك أن جسماً عارياً لفتاة يافعة في نحو الثانية عشرة من عمرها كان منطرحاً على ظهره فوق الطحالب الخضراء على بعد عشر خطوات أمامه...

كانت الفتاة مفتوحة الذراعين، متباعدة الساقين، مغطاة الوجه بمنديل، وقد لطخ فخذها قليل من دم...

- ٢ -

جعل «ميدريك» يتقدم على رؤوس أصابعه كأنه يخشى خطراً ما، ثم راح يرى بعينيه ويحدث ببصره، فما هذا الذي يراه؟ إنها نائمة ولا شك. غير أنه فكر وقال في نفسه لا يمكن أن تنام عارية هكذا... وفي الساعة السابعة والنصف صباحاً تحت الشجر الرطب... لا بد، إذن، أنها... ميتة... وأنه أمام جريمة... واعتبرته، لهذا الخاطر، ارتعاشة باردة تراكضت حتى كليتيه على الرغم من أنه جندي قديم... ثم أن الجريمة كانت أمراً نادر الوقوع جداً في تلك المنطقة... وزيادة على ذلك: مقتل فتاة يافعة... انه لا يصلق عينيه حقاً... ولكن لا يبدو عليها أي جرح... لا شيء، غير هذا الدم المتجمد فوق فخذها. كيف أمكن أن تقتل إذن؟

وكان قد تلبث واقفاً جد قريب منها وراح يحدث فيها النظر معتمداً على عصاه لا ريب في أنه يعرفها ما دام يعرف جميع سكان المنطقة، غير أنه، إذ لا يستطيع أن يرى وجهها، فانه لا يسمعه أن يعرف اسمها...

وانحنى لكي ينزع المنديل الذي يغطي وجهها ثم أمسك، ويده لا تزال

معدودة، فقد بدا له خاطر أوقفه: هل يحق له أن يحدث خللاً ما في حالة الجثة قبل الفحص الطبي الذي يباشره رجال العدالة؟ كان يتصور العدالة وكأنها قائد جيش لا يفوته شيء ويعلق على زر ضائع، من الأهمية قدر ما يعلقه على سكين مغمدة في بطن انسان... ومن يدري، فقد يجدون، تحت هذا المنديل، أعظم دليل من أدلة الجريمة... التي قد تفقد قيمتها إذا مستها يد غير حاذقة...

واعتدل واقفاً يريد أن ينطلق ليخبر العمدة، غير أن فكرة أخرى ردت: ماذا لو أن الفتاة لا يزال فيها رمق من حياة؟ انه، اذن، لا يستطيع أن يتركها هكذا... وجثا على ركبتيه برفق، وقد ابتعد قليلاً بداعي الحر، ومد يده نحو قدمها... فأحس أنها باردة برودة الجليد، هذه البرودة الرهيبة التي تجعل البدن الميت مشيراً للذعر، ولا تبقى في النفس أثراً من الشك في الوفاة... ولقد أحس ساعي البريد، إذ مس قدم الفتاة، أن قلبه قد هوى من قفص صدره، كما قال فيما بعد، وجف ريقه في حلقه. ثم نهض من قوره، وراح يعدو تحت الأدراج الباسقة متجهاً إلى بيت السيد (رينارديه) عمدة البلد - كان يركض وعصاه تحت ابطه، وقبضته مطويتان، ورأسه مندفع إلى أمام، وحقيبته الجلدية الطافحة بالرسائل والصحف اليومية تهتز اهتزازاً رتيباً إلى جانبه.

كانت دار العمدة تقع في طرف الغابة التي أصبحت بمثابة حديقة لها، وكان ركن من سورها غائصاً في بركة صغيرة من مياه نهر «برنديل»، انها دار كبيرة، مربعة الشكل، جد قديمة، ومادية الحجارة، ما أكثر ما كانت عرضة للحصار في الماضي البعيد، وكانت تنتهي ببرج ضخم يرتفع عشرين متراً في الفضاء ويقوم على أساس وطيء شيد تحت مياه النهر... ومن قمة هذه القلعة كانت تجري مراقبة المنطقة كلها، وكان يطلق عليها اسم «رينارديه». وقد اشتق من تلك التسمية، لقب الأسرة منذ أكثر من مئتي سنة. ذلك أن أسرة «رينارديه» كانت جزءاً من تلك الطبقة البرجوازية التي كادت تكون من طبقة النبلاء في الأقاليم قبل اندلاع

نار الثورة الفرنسية.

دخل ساعي البريد مندفعاً إلى المطبخ حيث كان الخدم يتناولون طعام فطورهم وصاح قائلاً: «هل سيدي العمدة استفاق من نومه... يجب أن أتحديث إليه فوراً...» وأدرك الخدم أن أمراً خطيراً قد حدث وإلا لما صاح ساعي البريد، هكذا، وهو معروف بالاتزان والجِد في القول وهيبته المظهر... .

وأمر العمدة بإدخاله، فدخل حجرتة وهو شاحب الوجه، مبهور الأنفاس، وقبعته في يده، ودار بصره في الحجرة فرأى العمدة جالساً أمام منضدة طويلة غطتها أوراق كثيرة مبعثرة.

وكان العمدة رجلاً بديناً، عظيم الجثة، منيف القامة، أحمر الوجه، قوي البنية كأنه ثور، إلا أنه كان محبوباً في المنطقة على الرغم من افراطه في الشدة والعنف. وكان في نحو الأربعين من عمره وقد فقد زوجته منذ ستة شهور، وكان يعيش من أملاكه وأراضيه عيشة السادة ملاك الحقول، وما أكثر ما جر عليه من مصاعب ومشاكل مزاجه المندفع، غير أن قضاة تلك المنطقة كانوا ينقلونه دائماً بصفتهم أصدقاء له فيتساهلون ويتفاضلون عن أعماله وتصرفاته ومبالغته في العنف والغضب... ألم يكسر لأحد حراس الصيد بعض ضلوعه إذ ذكره بما يكره لأنه اخترق أرضاً لجاره ويندقية الصيد في يده؟

ألم يمسك بطوق وكبل الحاكم الإداري وكان قد ترقف في القرية في أثناء جولة إدارية له وصفها للسيد «رينارديه» بأنها جولة انتخابية؟ ذلك أن العمدة كان يقف في صف المعارضة للحكومة نزولاً على تقاليد أسرته...

قال يسأل مرزوع البريد:

— ماذا هناك يا «ميدريك»؟

- وجدت فتاة يافعة ميتة في غابتك، فاعتدل رينارديه وقد احتقن وجهه:

- تقول... وجدت فتاة... يافعة...

- أجل يا سيدي انها عارية تماماً وملقاة على ظهرها... وثمة دم سائل... لا شك في أنها ميتة... بل قد شبت موتاً...

- ٣ -

هتف العمدة ناقماً:

- يا الله! انني أراهن على أنها تلك الصغيرة ابنة الأرملة «روك» فقد أخبروني انها لم تعد إلى بيت أمها منذ مساء أمس... في أي مكان وجدتها؟

ذكر ساعي البريد ذلك المكان وقدم التفاصيل، وعرض على العمدة أن يذهب به إلى حيث وجد الفتاة.

غير أن السيد رينارديه سرعان ما تهجم وقال:

- كلا. لست بحاجة إليك. وإنما ابعث إلي فوراً بحارس الغاب، وسكرتير البلدية والطبيب... ثم تابع عملك ووزع بريدك - انطلق بسرعة، هيا... وقل لهم أن يلاهنوني في الغابة.

وكان ساعي البريد رجل نظام فأطاع وانسحب غاضباً، أسفاً أن لا يستطيع حضور الكشف على الجثة...

وخرج العمدة بدوره، وتناول قبعته الكبيرة العريضة الحافتين، وتلبث بضع ثوان على عتبة مسكنه حيث شاهد منبسطاً تمتد من العشب تتروج فوقه بقع ثلاث إحداها حمراء، والأخرى زرقاء، والثالثة بيضاء... انها ثلاث سلال من الزهر

المتفتح الندي، وكانت احداها قبالة المنزل والأخريان إلى جانبيه. وإلى مسافة أبعد قليلاً كانت تنهض متشامخة نحو السماء أولى أشجار الغابة في حين كانت تشاهد إلى اليسار، ومن فوق النهر الذي اتسعت ضفتاه هناك اتساعاً جعل منهما بركة ماء كبيرة، سهول مترامية على مدى البصر... وإلى اليمين، وراء الاصطبلات والمباني الصغيرة التابعة لأملاك العملة، كانت تبدأ القرية الغنية المزدهمة بمربي الأبقار.

هبط رينارديه درجات السلم متمهلاً، ثم انعطف إلى اليسار فوصل إلى ضفة النهر وسار في محاذاتها بخطى وثيدة وقد شبك يديه وراء ظهره... واستمر يسير مطأطئ الرأس، ويلقي من حين لآخر نظرة سريعة من حوله باحثاً عن الأشخاص الذين أرسل في استدعائهم.

وعندما وصل إلى منطقة الشجر توقف، وحسر عن رأسه، وجفف عرقه، تماماً كما فعل ساعي البريد من قبل، ذلك أن شمس شهر تموز كانت تنصب على الأرض وكأنها خيوط مطر من نار... ثم تابع سيره، وتوقف مرة أخرى، وعاد أدراجه، وانحنى وبلل منديله من جدول الماء القريب من قدميه ووسط المنديل المبتل فوق رأسه من تحت القبعة، وجعلت قطرات من الماء تسيل على صدغيه وأذنيه المحتقتنين بلون البنفسج، وعلى رقبتة الغليظة الحمراء... ثم تنحدر قطرة قطرة داخل ياقة قميصه البيضاء.

ولما لم يشاهد أياً من الذين استدعاهم، خبط الأرض بقدمه وأخذ يرسل نداءات متتالية بصوت قوي جهير، وأجابه بنداء مائل صوت عن يمينه ثم ظهر الطبيب مقبلاً تحت الأشجار، وكان الطبيب صغيراً، ضئيلاً، وهو جراح قديم في الجيش، وقد اشتهر بالمهارة والمقدرة في تلك النزاهة. وكان يظلم إذ يسير إذ كان قد أصيب بجروح في ساقه أيام كان يعمل في الجيش، ولذلك كان يستعين في سيره بعضاً يتوكأ عليها.

ثم ظهر حارس الغابة وسكرتير العمدة وقد أقبلوا معاً، وكان الذعر مرتسماً على وجهيهما وهما يتراخضان لاهئين وقال رينارديه للطبيب:

- هل تدري ما حدث؟

- أجل وجد ساعي البريد جثة فتاة يافعة في الغابة.

- هيا بنا اذن.

وراحا يمشيان جنباً إلى جنب، يتبعهما الرجلان الآخران، وكانت خطوات الجميع تكتمها الأعشاب وطحالب الماء ولكن عيونهم كانت لا تنفك تبحث هنا وهناك.

وعلى حين غرة مد الطبيب «لا يارب» ساعده وهتف قائلاً:

- انها هناك... انظروا...

- ٤ -

كان يبدو من بعيد، تحت الأشجار، شيء له لمعان، ولولا أنهم كانوا يعرفون عما يبحثون لما تفتنوا إليه. كان هذا الشيء يتألق ناصعاً كأنه قطعة ملابس داخلية ملقاة على الأرض، إذ أن ضياء الشمس وقد تسلل بين أغصان الشجر كان ينير البدن الشاحب بأشعاع منحرف عبر بطن الفتاة، ورأسها المحجب بالمتدليل، والمستدير نحو مياه النهر، وذراعاها المتباعدتان كأنهما ذراعا المصلوب على صليبه...

وقال العمدة

- انني أشعر بحرارة شديدة

وانحنى من جديد على مياه النهر وبلل منديله ووضع فوق رأسه وحث الطبيب خطوه وقد أثار اهتمامه ما رأى. وما ان اقترب من الجثة حتى انحنى يتفحصها دون أن يمسه بيده، وقد وضع عويناته كأنه يوشك أن يشاهد شيئاً مشيراً للفضول، ثم جعل يدور حول الجثة برفق. وقال دون أن يعتدل:

- انها جرمة قتل واغتصاب... سنتأكد منها الآن... إن هذه الفتاة اليافعة توشك أن تكون امرأة مكتملة الأنوثة والنضج انظروا إلى عنقها.

وكان نهذاها الكاعبان قد هبطا فوق صدرها في ارتخاء أحدثه الموت.

وحسر الطبيب، قليلاً، المندبل الذي يغطي وجهها، فبدا أسود، حالكاً، مخيفاً، وقد تدلى لسانها، وجحظت عينها، وعاد يقول:

- لا رب في أن القاتل قد أجهز عليها بعد أن قضى وطره منها...

وجس عنقها وقال:

- لقد قتلت خنقاً باليدين... دون أن يبقى أثر ما على الاطلاق، فلا خشة ظفر، ولا بصمة اصبع... لا شيء... انها ابنة الأرملة «ووك» كما تبادر إلى أذهاننا في الواقع.

وأعاد طرف المندبل على وجه الجثة برفق. وأضاف يقول:

- ليس هناك ما أفعله. لقد ماتت منذ اثنتي عشرة ساعة على الأقل. ويجب استدعاء النيابة العامة.

وكان العمدة رينارديه واقفاً ثمة ويداه وراء ظهره. ولا ينفك يحدق النظر في الجثة المعروضة هكذا فوق الأعشاب. ثم همس:

- يا للمسكينة. يجب البحث عن ملابسها...

ومحسّن الطبيب يديها، وذراعيها، وساقها، ثم قال:

- لا ريب في أنها جاءت تستنجم هنا... ولا بد أن ملابسها موجودة في مكان ما من ضفة النهر.

وأصدر العمدة، عندئذ، أمره إلى «برانسبي» سكرتير البلدية:

- اذهب وابحث عن هذه الأسماك على امتداد الضفة...

ثم التفت إلى «مكسيم» حارس الغاب وقال له:

- أما أنت فبادر إلى بلدة «روي لوتور» وارجع ومعك قاضي التحقيق والجنّد. يجب أن يكونوا جميعاً هنا بعد ساعة هل سمعت ما أقول؟

وانطلق الرجلان ترواً وقال السيد ريناردييه موجهاً كلامه إلى الطبيب؟

- أي نذل أمكته أن يرتكب هذه الجريمة المنكرة في ناحيتنا هذه؟

وهمس الطبيب يقول:

- من يدري، كل انسان قادر على هذا، كل انسان بصورة خاصة... ولا أحد بصورة عامة... لعله متجول غريب... أو عامل عاطل عن العمل... ومنذ قام حكم الجمهورية عندنا لا نجد، على الطرقات، غير هذه الجرائم...

وقد كان العمدة والطبيب كلاهما من أشياخ نايليون بونابرت.

وقال العمدة معقياً:

- أجل... لا يمكن إلا أن يكون أحد الغرياء... أحد المتسكمين الضالين...
بلا قوت ولا مأوى...

وأضاف الطبيب في شبه ابتسامة:

- ولا زوجة... ولما افتقد البيت المريح الذي يسكن إليه والطعام الجيد الذي
يلتذّه... بحث لنفسه عن... بدن شهوي... متعة لحظة عابرة... ولو عن طريق
الجريمة... وما أكثر الرجال القادرين على فعلة كهذه في لحظة ما... هل كنت
تدري، يا سيدي العمدة، أن هذه الفتاة كانت قد اختفت؟

وراح بطرف عصاه يلمس الأصابع المتصلبة في الجثة، ويضغط فوقها كأنها
مقاتيح معزف موسيقي وقال:

- أجل، أتنني أمها يوم أمس... في نحو الساعة التاسعة ليلاً وقالت أن
ابنتها لم تعد لتتناول عشاها في الساعة السابعة... وقد بحثنا عنها حتى
منتصف الليل على الطرقات... غير أننا لم نفكر بالغبابة... وكان لا بد من
طلوع النهار للقيام بالبحث المجدي.

وقال الطبيب:

- هل لك بسيجارة؟

وأجاب عمدة البلدية:

- لا وشكراً... لا أجد رغبة في التدخين... إن رؤية هذه الجثة عكرت صفو
مزاجي...

ظل العمدة والطبيب واقفين قبالة الجسد الواهن لتلك الفتاة اليافعة وقد اكتسى بباليغ الشحوب وهو ملقى هكذا فوق الأعشاب والطحالب. وجاءت ذبابة كبيرة زرقاء البطن فحطت فوق الجثة وراحت تسير فوق أحد الفخذين، ثم توقفت عند آثار الدم، وعادت تسير مصعدة دائماً، مندفعة، مرتجة الحركة فوق المحصر، ثم تسلقت أحد الثديين وانحدرت منه وذهبت تستطلع الثدي الآخر، وتبحث عما تلعبه على تلك الجثة. وتطلع الرجلان إلى هذه النقطة السوداء الثائثة... وقال الطبيب:

- ما أجمل الذبابة فوق الالهاب... كانت نساء العصر الماضي على حق إذ كن يلصقن ذبابة اصطناعية فوق وجوههن... لماذا تراهن تركن هذا الضرب من التجميل؟

وبدا على العمدة كأنه لم يسمعه أبداً، وظل سادراً في تأملاته... غير أنه التفت فجأة فقد سمع حركة نيهته. وكان مصدر الحركة امرأة ذات قلنسوة من نسيج على رأسها، ومثزر أزرق اللون حول خصرها، وكانت المرأة مندفعة تركض تحت الشجر، انها أم الفتاة... الأرملة «لاروك» وما ان لمحت ريتاديته حتى راحت تبكي وتولول: «ابنتي... صغيرتي... أين هي؟...» وكانت مولعة، ضائعة الرشد، حتى انها لم تكن لتلقي نظرة واحدة على الأرض... ثم شاهدت جثة ابنتها فجأة فوقفت وكأنها قد تجمدت، ثم ضمت يديها ورفعت ذراعيها وأرسلت صراخاً حاداً ممزقاً، أشبه ما يكون بزئير حيوان بتر عضو من جسمه... ثم اندفعت نحو الجثة، وارتقت جاثية على ركبتيها ورفعت المنديل عن وجه ابنتها وكأنها تنتزع انتزاعاً... وما ان رأت هذا الوجه المخيف، المسود، المنقبض حتى اعتدلت بحركة عنيفة واحدة، ثم انكبت على وجهها فوق الأرض وهي لا تنفك ترسل صراخاً رهيباً متصلاً يتخلل العشب والطحالب جميعاً... كان جسدها المديد

الأعرج، وقد التصقت به الملابس التصاقاً، يهتز بعنف ثم يختلج . وكانت العين ترى بوضوح رجليها الهزيلتين المروقتين، وريتي ساقيهما المصوصتين وهما ترتعشان ارتعاشاً يشير الفزع... وكانت لا تني تحفر الأرض بأصابعها المخرشة الدامية كأنها تريد أن تحدث فجوة تتوارى فيها.

وهمس الطبيب منفعلًا: «يا للعجز المسكينة» وأحس العمدة، في معدته بحركة غريبة، ثم عطس عطسة صاخبة انطلقت من أنفه وقمه في آن واحد، وأخرج متدبلة من جيبه فأخفى فيه وجهه وراح يبكي ويسعل ويعول... ثم تمخط بشدة وتقم: «ل.. ل.. من الله.. الخنزير القذر الذي أجد.. زع.. هذه.. القعدة.. لة.. شد.. ما.. أ.. قنى أن أرى رأ.. سه تف.. صله.. المقصلة..».

وظهر عندئذ -برنسب- سكرتير البلدية أسيفاً خالي اليدين، ثم همس يقول: «لم أجد شيئاً يا سيدي العمدة، لم أجد شيئاً في أي مكان...».

وسأله عمدة البلدية فزعاً وبصوت أجش لا يزال غارقاً في الدموع: «ما هذا الذي لم تجده؟».

- ملاهى... الفتاة...

- ولكن... ولكن... ابحث أيضاً... وحاول أن تجد هذه الملابس... والا... فالويل لك...

وكان الرجل يعلم أن العمدة عنيد متعنت لا يقاوم فعاد أدراجه يائساً وهو يلقي في الحفاة نظرة جانبية وجلة.

ومن بعيد ارتفعت أصوات تحت الشجر المنتشر، كانت في أول الأمر أشبه بههمة غامضة... ثم إذا هي هدير مخيف... هدير حشد مقبل من الحلف.

كان «ميلريك»، ساعي البريد، قد نقل الخبر في جولته، من بيت إلى بيت. وقد ذهل سكان تلك النواحي في بادئ الأمر، وتحدثوا في الأمر في الشارع، وعلى عتبات المنازل... ثم تجمعوا، وعلت أصواتهم، وتناقشوا، وعلقوا على الحادث بضع دقائق... وها هم قد أقبلوا لبروا بعيونهم.

وكانوا يتقدمون جماعات جماعات... مترددين شيئاً ما، ومضطربين، خشية الصدمة الأولى... ولما شاهدوا الجثة توقفوا، غير متجرتين أن يتقدموا، وراحوا يتناقلون الحديث بأصوات خفيفة... ثم جازفوا ببضع خطوات وعادوا فتوقفوا... ثم تقدموا من جديد... وما لبثوا أن شكلوا، حول الميتة وأمها والطبيب والعمدة، دائرة كثيفة، هائجة صاخبة ولا تنفك تتراص كلما توافد آخرون وآخرون... ثم ما هي إلا أن تحمسوا الجثة... وانحنى بعضهم يجسها، فناهم الطبيب... ولكن العمدة ذهب عنه ذوله فجأة فاستشاط غضباً وتناول عصا الطبيب ولوح بها في وجوه رعاياه... وهو يقول متعثر الكلمات: «تـ... تـ... رقوا أقو.. ل تفر.. قوا.. يا.. بها.. ثم.. تفر.. قوا..» وفي مثل لمح البصر انداحت دائرة المتحلقين الفضوليين... واتسعت اتساعاً بلغ ممتي متر.

وكانت أم الفتاة قد اعتدلت واستدارت جالسة، وجعلت تبكي وقد غطت وجهها براحتيها... في حين كانت أصوات المتجمهرين لا تفتأ تتحدث وتصل... أما الفتیان منهم فقد جعلوا يعدقون بنظرات فاحصة في هذا البدن العاري الملقى أمامهم ورأى العمدة ذلك منهم فخلع سترته الواسعة ورمى بها على الفتاة فسترتها تماماً... وعاد الفضوليون يقتربون قليلاً قليلاً، وامتلأت الغابة بالخلق، واستمرت همهمة الأصوات تتعالى تحت تلك الأدراج من الشجر الوريق المتشاك الأغصان والأعراف.

وظل العمدة بقميصه، دون سترة، واقفاً والعصا بيده... في موقف المحارب... وكان يبدو غاضباً، مهتاجاً بسبب هذا الفضول، ويردد من حين إلى حين:

- إذا خطر لأحدكم أن يقترب... فأنني سأحطم رأسه كما أحطم رأس كلب.

وكان أولئك الفلاحون يخشونه خشية كبيرة، فلزموا حدودهم... وجلس الطبيب «لابارب» إلى جانب المرأة وهو يدخن سجائره. وراح يتحدث إليها مسرياً عنها... ورفعت يديها عن وجهها وطفقت تتكلم كلاماً باكياً منتحباً مفرغة أملها في فيض عباراتها... وروت له قصة حياتها، وزواجها، وموت زوجها بضربة من قرن ثور، وحدثته عن طفولة ابنتها، وحياتها كأرملة دون مورد عيش لها وللصغيرة...

أجل... لم يكن لها أحد سوى صغيرتها «لويز»... وها هي قد قتلت... قتلت في هذه الغابة...

وعلى حين غرة أرادت أن تعود فتتملاها فزحفت إلى الجثة على ركبتيها ورفعت طرفاً من السترة التي تغطيها، ثم تركته يهوي، وراحت تعول، وصمت جمرع الفلاحين... وراحوا ينظرون بفضول ويعيون دامعة إلى حركات الأم المفجوعة...

وعلى حين غرة تعالى هدير يصم الآذان... وصاح بعضهم يقول:
«الشرطة... رجال الشرطة».

- ٧ -

ظهر شرطيان من بعيد يخب بهما جواذهما خباً متداركاً. وكان الشرطيان

بواكبان أمرهما وسيناً قميصاً له في عارضيه شعر أحمر. وكان الرجل يتقلقل كأنه
قرد فوق قرسه العالية البيضاء اللون.

كان حارس الغابة قد وجد السيد «هوتوان»، قاضي التحقيق، وهو يوشك أن
يمتطي قرسه ليقوم بنزهته اليومية، وكان يزدهيه دائماً أن يتبدى بمظهر القاموس
البارع. فيشير بذلك ضحك الضباط ومرحهم.

لدى وصوله هو والضابط ترجل عن قرسه وصافح العمدة والطبيب وهو يلقي
نظرة على السترة التي تغطي جثة الفتاة.

ولما اطلع على تفاصيل الحادث بادر أولاً إلى إبعاد جموع الناس الذين راح
الشرطيان يطردانهم من الغابة، ولكنهم سرعان ما تجمعوا في السهل وكونوا ما
يشبه أن يكون سياجاً كبيراً من الرؤوس المهتاجة المضطربة على امتداد ضفة النهر
الأخرى.

وقام الطبيب، بدوره، يذكر شروحاته، وكان رينارديه يدونها بقلم الرصاص
في مفكرته، ولقد جرى التحقيق وسجل بصورة كاملة، ونوقش، ولكن دون أن
يؤدي هذا كله إلى أي اكتشاف... وكان سكرتير البلدية قد آب أيضاً من بحسه
الطويل عن ملابس الفتاة فلم يقع على شيء.

وقد أذهل اختفاء الملابس الحاضرين جميعاً، ولم يجد له أحد من تفسير غير
السرقه... غير أن هذه الملابس كانت اطماراً وهلاهيل لا تساوي شيئاً... واذن
فمن غير المعقول أو المقبول أن تكون قد سرقت...

وجعل قاضي التحقيق، والعمدة، وضابط البوليس والطبيب يبحثون هم
أنفسهم، كل اثنين معاً، عن هذه الملابس، حتى لم يتركوا غصن شجرة إلا نحوه
بحثاً وتفتيشاً... وكان رينارديه يقول لقاضي التحقيق في هذه الأثناء:

- كيف أمكن لهذا الشقي أن يفعل فعلته... ثم يخفي أسمال الفتاة أو يأخذها معه... ويترك جثتها هكذا في العراء... عرضة لجميع الأنظار؟...

وأجابه قاضي التحقيق بلهجة الذكي المداجي.

- هه... هه... ربما كانت هذه حيلة... إن مرتكب هذه الجريمة إما أن يكون وحشاً ضارياً أو غداً داهية... وعلى أي حال فسوف نتمكن من اكتشافه.

وتأدى إليهما صوت عربة تدرج فالتفتا نحوها فشاهدا فيها وكيل النيابة والطبيب الشرعي وكاتب المحكمة وقد وصلوا هم الآخرون. وأعيد البحث من جديد... وتحدث الجميع حديثاً فيه حيوية وحرارة، وقال العمدة فجأة:

- هل تعلمون انني سأمسك بكم لتناول طعام الغداء؟

وقد قبلوا دعوته بالابتسامات. ووجد قاضي التحقيق أن فيما انهمكوا فيه من أمر هذه الفتاة القتيل، كان حسبهم في يومهم هذا، فالتفت إلى العمدة وقال:

- أستطيع أن أمر بحمل الجثة إلى بيتك. أسمح بهذا؟ لا شك في أن عندك غرفة يمكن الاحتفاظ بالجثة فيها حتى المساء.

ولكن العمدة اضطرب وراح يقول متلعثماً:

- أجل.. ولكن لا.. لا.. انني أفضل أن لا تدخل الجثة بيتي.. لأن.. لأن الخدم عندي.. لا يفتأون يشهدون.. عن.. الأشباح.. في برج دارنا.. برج الشعلب.. وأنت تعلم.. إنني لا أستطيع أبداً.. أوه.. أوه.. كلاً.. أفضل أن لا تكون الجثة.. في بيتي..

راح القاضي يضحك، بل أغرق في الضحك ثم قال:

- طيب... طيب... لا تخف... سأمر بارسالها إلى بلدة «روي» للفحص الشرعي... ثم التفت إلى وكيل النيابة وقال:

- أستطيع أن أستعمل عريتك... أليس كذلك؟

- بالطبع... دون ريب...

وعادوا جميعاً نحو الجثة، وكانت الأرملة «لاروك» جالسة إلى جانب ابنتها وممسكة بيدها، وهي تمحق النظر أمامها بهجوم وذ هول...

- ٨ -

حاول الطبيب أن يبعدها لكي لا ترى صغيرتها وهي تحمل من مكانها غير أنها سرعان ما ادركت ما يوشك أن يحدث، فارتقت على الجثة واحتضنتها احتضاناً كاملاً، وراحت تصرخ: «لن تأخذوها... انها لي انا... لي انا في هذه الساعة... لقد قتلوها... واريد ان احتفظ بها... لن تأخذها...»

ووقف الرجال جميعاً مضطربين، واجمين، من حولها، وجشا رنارديه على ركبتيه ليحدثها فقال:

- اسمعي، ايتها السيدة لاروك، يجب ان تؤخذ... لكي نعرف من قتلها، ويدون هذا لن نعرف ابداً... ويجب ان نبحث عن القاتل ليتال عقابه وستعاد اليك عندما نجده... اعدك بذلك، استطاعت كلمات رنارديه ان تزعزعها عن مطلبها... وقالت وقد توقدت نظرتها المجتونة بمثل النار: وتلقون عليه القبض؟

- اجل... اعدك بذلك

فنهضت وقد اعتزمت ان تدع لاولئك الرجال ان يتصرفوا كما يرون غير ان

الضابط قال هامساً:

«من عجب أن لم يعثر على ملابسها» وعندئذ طرأت فكرة عارضة في رأس هذه المرأة الفلاحة، وسألت:

- اين هي ملابس ابنتها؟.. مفقودة ولم يعثروا عليها!.. وعندئذ راحت تلح باصرار وعناد شديد يائس ان يسلموها ملابس ابنتها، ثم جعلت تبكي وتنتحب وتقول:

- انها لي... واريدها... فأين هي ملابسها... انتي اريدها...

وكانوا، كلما حاولوا ان يهدئوا من روعها ازدادت هي عويلا ونواحا واصراراً. عادت لا تطلب الجثة، وانما تريد الملابس، ملابس ابنتها... وربما كان هذا بدافع من الحرص والشح، على غير وعي منها، اكثر منه حافزا لعاطفتها كأم مفعوجة... وهي الفلاحة البائسة التي ترى في قطعة صغيرة من النقود ثروة ضخمة عزيزة المنال.

ولما جيء من بيت رينارديه باغظية لفت بها الجثة ثم حملت وغيبت داخل العرية، كانت المرأة العجوز، واقفة تحت الاشجار يساندها العمدة وضابط البوليس ولا تنفك تعود قائلة:

- لم يعد لى انسان في هذه الدنيا... لم يعد لي اي انسان... اي انسان... حتى ولا طاقيتها الصغيرة... .

وفي هذه الاثناء اقبل كاهن القرية، وهو شاب ظاهر البدانة. وقد اخذ على عاتقه ان يذهب بالعجوز، فسارت الى جانبه واتجهوا معاً الى القرية. وقد طامنت كلمات الكاهن الرقيقة من الم المرأة، وجعل بعدها بما حصر له من نعيم الآخرة

لايتها تعويضاً عما وقع لها ... غير انها كانت لا تفتأ تردد دون انقطاع: «لو بقيت لي طاقيتها الصغيرة... لو بقيت لي هذه الطاقة فقط،» وكانت هذه الفكرة قد تمكنت منها حتى حجبت ما سواها...

وهتف ريتارديه من بعيد:

- تعال تناول طعام الغداء معنا يا سيدي الكاهن... تعال بعد ساعة.

والثفت الكاهن واجاب:

- حباً وكرامة يا سيدي العملة... سأكون عندك مع الظهر.

واتجه الجميع نحو دار العملة التي لاحت لهم، من بين الاشجار، واجهتها المغيرة الدكناء، كان الجميع قد التقوا عند رأي واحد في اثناء حديثهم عن الجريمة، وهو ان متجولا ما هو الذي ارتكبها خلال تجواله في تلك الناحية بينما كانت الفتاة تقتسل في مياه النهر.

-٩-

بعد الانتهاء من مأدبة العملة عاد القاضيان الى بلدة «روي لاتور» وقد اعلنا انهما سيعودان باكراً في الغداة، ورجع الطبيب والكاهن كل الى بيته، اما العملة ريتارديه فقد قام بجولة طويلة في السهول والحقول ثم عاد الى غابة الادواح الباسقة حيث ظل ينتقل في ارجائها بخطى بطيئة، وقد عقد يديه وراء ظهره... الى ان اقبل الليل... فأوى الى فراشه مبكراً جداً، وظل مستغرقاً في نومه حتى جاء قاضي التحقيق في صباح اليوم التالي ودخل غرفته، وهو يفرك يديه وقد بدا راضياً مبتهجاً وقال:

-آه... آه... الا تزال نائماً؟ عال ... لقد وقعنا على جديد في الموضوع هذا

الصباح... يا عزيزي... .

وكان العمدة قد استوى.. جالساً في سريره فسأل قاضي التحقيق:

- ما هو هذا الشيء؟

- اوه! شيء غريب... انك تذكر ولا ريب كيف كانت ام الفتاة تطلب يوم امس، بشيء تحتفظ به كذكرى من اينتها... وكانت تريد، بصورة خاصة، طاقيتها.. . عال... لقد وجدت، هذا الصباح وهي تفتح باب بيتها، قبقايبها الخشبيين على العتبة.. وهذا يثبت ان احد سكان الناحية هو الذي ارتكب الجريمة... فرئى لحال الأم.. ووضع لها قبقايبى اينتها على العتبة.. ثم أن «ميدريك»، ساعي البريد، أتاني بـ «كشتبان» الفتاة، وسكينها الصغيرة وعلبة ابرها.. واذن فان القاتل عندما حمل ملابس الفتاة لكي يخفيها سقطت من جيبيها هذه الأشياء دون أن يدري. وفي رأيي أنا.. فانتى أعلق، بصورة خاصة أهمية كبيرة على القبقايبين.. فهذا أمر يدل على شيء من تربية خلقية.. وعاطفة حنان في القاتل.. وسنشرح الآن معاً، إذا أردت، في استعراض أسماء السكان الرئيسيين في هذه الناحية..

كان العمدة قد نهض، وقرع الجرس طالباً ماء ساخناً لحلاقة لحيته، وقال:

- كما تشاء، ولكن هذا سيطول جداً.. وفي وسعنا أن نبدأ فوراً..

جلس قاضي التحقيق السيد «بوتوان» على كرسيه جلسة من يمتطي صهوة جواد، مسترسلاً بهذا حتى داخل الفرقة، في هوسه بالفروسية وركوب الخيل.

وفي هذه الأثناء كان السيد رينارديه قد غطى لحيته برغوة الصابون البيضاء وراح ينظر إلى وجهه في المرآة، ثم أخذ يشحذ موسى الحلاقة فوق قطعة من الجلد

وعاد يقول:

- إن أبرز شخصية تقيم في قرية «كارفلين» يدعى «جوزيف رينارديه» وهو عمدة القرية، وثري من أصحاب الأملاك والأراضي، وانه لرجل فظ، غليظ، ينهال ضرباً على الحراس والحوذية.. فانفجر قاضي التحقيق ضاحكاً، ثم قال:

- حسينا هذا منه... فمن يليه؟

- يأتي بعده في الأهمية السيد «بيلدان» مساعد، وهو من الذين يربون البقر، وانه لغني هو الآخر وصاحب أملاك، وفلاح داهية، ومراء، وذو حيلة واحتتيال في كل أمر له علاقة بالمال، غير أنه، في رأيي، أعجز من أن يرتكب مثل هذه الجريمة.

وقال قاضي التحقيق:

- فلنتركه إلى غيره.

وراح السيد رينارديه، وهو لا يني يحلق لحيته، ويقوم ويقعد، يستعرض أسماء سكان القرية جميعاً متحدثاً عن صفاتهم وأخلاقهم.. وبعد انقضاء ساعتين من جدل وتقاش، قام اشتباه قاضي التحقيق والعمدة حول أشخاص ثلاثة من أصحاب الشبهات هم: المدعو «كافيل» وهو قناص طيور مشرد، والمدعو «باكيه» وهو صياد سمك وسراطين في النهر، وراعي أبهار اسمه «كلوفيس».

دامت التحريات طيلة فصل الصيف دون العثور على القاتل وقد استطاع الذين اشتبه بهم وألقي القبض عليهم أن يثبتوا براءتهم واضطر مكتب المدعي العام أن يقلع عن ملاحقة القاتل والبحث عنه.

غير أن هذه الجريمة كانت قد روعت تلك الناحية جميعاً وبصورة غريبة فقد

أبقت في نفوس السكان قلقاً واضطراباً، وخوفاً غامضاً واحساساً خفياً بالذعر لم يتأت من استحالة الوقوع على أي أثر للقاتل وحسب بل وبصورة خاصة من وجود بقاياي الفتاة على عتبة أمها العجوز في الغداة.

وقد كان اليقين بأن القاتل قد شهد التحقيق، وانه لا يزال يقيم في القرية دون ريب. كان هنا كله لا ينفك يساور الأفكار ويلتزمها ويتسلط عليها ويحوم فوق المنطقة كأنه نذير مخيف لا ينتضي..

- ١٠ -

غدت غابة الشجر نفسها مكاناً رهيباً، يتجنبه السكان لاعتقادهم أن الأرواح والشياطين أصبحت تسكنه. وقد كان أهل القرية، في الماضي، يتوافدون إليه للترهة عصر أيام الآحاد فيقتعدون الأعشاب حول جذوع الشجر الباسق، أو ينطلقون إلى عدوتي النهر يرقبون الأسماك وهي تتفلت هاربة تحت ما يعلو المياه من طحالب وأعشاب. وكان الفتيان يلعبون بكرات الخشب أو الحديد أو المطاط في بعض الأماكن التي سوروا أرضها ومهدوها، أما الفتيات فقد كن يتنزهن صقرفاً وجماعات من أربع أو خمس، وهن ممسكات ببعضهن بعضاً بالسواعد، ويرحن ينشدن الأناشيد بأصوات، منكرة تصرخ أكثر مما تفني، وتخرس الآذان بأنغامها النابية وتذهب بسكينة الجو وتشير الأعصاب بألحانها المزعجة كأنها قطرات خلل تكوي أعصاب الفم كياً.

غير أن أحداً، الآن، لم يعد تحدثه نفسه أن يهرع إلى حيث تنهض قبة الشجر الباسق الملتف.. كأنما أضحي ينتظر أن يجد ثمة جثة ما ملقاة على الأرض.

وجاء الخريف، وتساقطت أوراق الشجر.. كانت لا تنفك تنهاوى ليل نهار فتبهط وهي تدور حول نفسها هشة خفيفة على امتداد الأدواح العظيمة.. وهكذا أخذت تبين صفحة السماء من خلال الأغصان لا يكاد يحجبها شيء.. وفي بعض

الأحيان، عندما كانت تهب الريح فوق القمم العالية، كان المطر المتباطي المتواصل يزداد كثافة على حين غرة، ثم لا يلبث أن يهطل مدراراً حتى يحجب العشب تحت بساط أصفر اللون تسمع له خشخشة إذا ما وطنته الأقدام. وكان هذا الحرير الذي لا يكاد يسمع، هذا الحرير الطافي، الهادي، الحزين، الذي لا ينقطع: يبدو وكأنه شكاة متصلة، وكان ورق الشجر المتهاوي دائماً أشبه ما يكون بالدموع، الدموع الكبيرة تسكبها الأدواح الشامخة آناء الليل وأطراف النهار أسمى على السنة المنصرمة، وعلى انقضاء الأصباح النيرة والأمسيات الرقيقة الوداعة، والنسمات الندية الدافئة وأشعة الشمس الساطعة.. وربما، أيضاً على الجرعة النكراء التي شاهدت الأدواح ارتكابها تحت أفيانها، وعلى الفتاة الصغيرة التي اغتصبت وقتلت عند جذوع هاتيك الأشجار.. كانت تذرف دموعها في صمت الغابة الخاوية المهجورة المشيرة للرعب، حيث لا بد أن روح الفتاة الصغيرة الميتة تهيم وحدها في أرجائها.

كان نهر «برانديل» وقد تضخم بما حملته إليه هواطل الأمطار، أكثر اندفاعاً في جريانه، وأكثر ارتداداً وغضباً وجيشاناً بين ضفتيه..

وها هو دينارديه قد عاد، فجأة، يجوب الغابة، كان كلما أרך الليل سدوله، يخرج من داره، ويذهب منطلقاً تحت الأشجار وعليه سيماء من يفكر، وقد دس يديه في جيبيه. كان يسير طويلاً فوق الأعشاب الرطبة في حين كانت جماعات الغربان المقبلة من كل ناحية مجاورة لتأوي في أعالي الشجر، تنقلب في فجاج السماء وكأنها حجاب حداد أسود كبير يسبح في مهب الرياح، لم تطلق نعيها عنيفاً، مدوياً ونذيراً للشؤم والنحس.. وكانت تحط، أحياناً، فوق الأغصان المتشابهة أشبه ما تكون ببقع سوداء تحت سماء تتوهج احمراراً، تحت سماء مدماة في غسق أمسيات الحريف... ثم تعود فتنتطق، وهي ترسل نعيها الرهيب، وتبسط أجنحتها من جديد، فوق أرجاء الغابة، الحالكة السوداء...

وأخيراً تنهوى دراكاً فوق أعلى الذرى. ثم تكف عن صياحها شيئاً فشيئاً في حين يخلط الليل الذي يزداد حلوكة وكشافة، بين سواد أجنتها وظلمة الفضاء الرحيب...

ويستمر رينارديه هائماً على وجهه، وعندما لا يعود الظلام المتكاثف يسمح له بالمسير، كان يرجع إلى داره، وينحط فوق مقعده المواجه لموقد النار كأنه يجففهما، ويظل البخار يتصاعد منهما مدة طويلة.

وما هي إلا أن شاع نبأ كبير في المنطقة كلها مفاده: أن العمدة قد شرع يقطع أشجار غابته.

- ١١ -

تجمع عشرون حطاباً لقطع أشجار الغابة، وبدأوا عملهم في أقرب ناحية منها إلى دار العمدة. كانوا يعملون بهمة ونشاط وسرعة وهو واقف ثمة يراقبهم ويشاهد ما يفعلون. كانوا، في يادى الأمر، يعرون الشجرة الضخمة من فروعها وأغصانها الكبيرة والصغيرة على السواء، ثم يكسرونها قطعاً صغيرة ويحزمونها ويجمعون منها أكواماً بعضها فوق بعض، وبعد هذا يعمل الحطابون بلطاتهم وفرووسهم في جذع الشجرة حتى إذا أحدثوا فيه صدعاً غائراً أمسكوا بحبال غليظة مربوطة في أعلى الشجرة وجعلوا يشدون ويجذبون وهم يرسلون صوتاً واحداً متفوماً حتى تسمع الشجرة قسقة ثم سرعان ما تهوي على الأرض محدثة دويماً يصم الأذان كأنه هزيم رعد بعيد..

هكذا أخذت الغابة تخلو من أشجارها يوماً بعد يوم أشبه ما تكون بجيش يفقد جنوده. وكان رينارديه لا يفارق المكان من الصباح حتى المساء، وهو لا ينفك يشاهد الغابة تموت ببطء ويدهاء معقدتان وراء ظهره وكان إذ يرى شجرة تهوي يبادر فيضع قدمه فوقها كأنها جثة من الجثث، ثم يشخص بعينيه إلى شجرة

أخرى قائمة دوغما اصطبار خفي كأنما هو ينتظر بل يأمل وقوع شيء ما في نهاية هذه المجزرة.

وفي هذه الأثناء كان الخطابون يقتربون من المكان الذي وجدت فيه جثة الفتاة، وذات مساء، في ساعة الغروب، وجدوا أنفسهم في هذا المكان نفسه. وكان الظلام قد أخذ يزحف ويغطي السماء فرأى الخطابون أن يكفوا عن العمل ويؤجلوا إلى الغد قطع شجرة ضخمة من الزان. ولكن العمدة اعترض وألح في أن يجردوا -في هذه الساعة نفسها- الدوحة العظيمة، التي أظلت الجريمة، من فروعها ويقطعوها من جذورها..

ولما قام الخطاب المختص بتعرية الشجرة وأعدّها لتلقي مصيرها المختوم، وبعد أن أعمل الخطابون بلطاتهم في جذعها وأحدثوا فيه ذلك الصدع العميق راح خمسة من الرجال الأشداء يجذبون الحبال المثبتة في ذروتها.

وقاومت الدوحة العظيمة، وكان جذعها على الرغم من أن بلطات الخطابين قد حزته حزاً حتى منتصفه، صلباً قاسياً كأنه حديد لا يلين، وتجمع الخطابون كلهم وأمسكوا بالحبال وجذبوها في وثبة واحدة منتظمة، واستمروا يجذبون حتى كادوا يتبطحون على الأرض ثم أرسلوا صيحة جهورة من حلوهم، صيحة تشي بالجهد الحارق الذي يبذلونه. وكان قد وقف اثنان من الخطابين قبالة الشجرة العملاقة، وكل بلطته في يده فكأنهما سيافان على استعداد لضرب عنق مجرم أثيم... وكان رشارديه نفسه واقفاً ثمة ويده فوق لحاء الشجرة ولا يني ينتظر سقوط الشجرة في انفعال عصبي قلق... وقال له أحد الرجال:

- إنك قريب جداً من الشجرة يا سيدي العمدة.. فقد تحرك وتؤذيك عندما تهوي.

فلم يجب ولم يتراجع بل كان يبدو مستعداً أن يحيط بساعديه الاثنتين شجرة

الزان لكي يجندلها وكأنه من عتاة المصارعين.

وعلى حين غرة سمع ما يشبه التمزق بدأ من أسفل الشجرة الصلابة وتراكض حتى قمتها كأنه ارجحاجة رهبة، ثم انحنت قليلاً توشك أن تسقط ولكنها مع ذلك لا تنفك تقاوم.. وازداد احتياج الرجال، وتوترت سواعدهم وبذلوا جهداً أكبر.. وفيما كانت الشجرة يتقصف جذعها لتهرى خطأ رينارديه إلى أمام ثم توقف مرتفع الكتفين لكي يتلقى الصدمة الهائلة الصدمة القاتلة التي ستسحقه على الأرض سحقاً. غير أن شجرة الزان انحرقت قليلاً في سقوطها فلم تمس منه غير جانبه مساً خفيفاً ألفاه منكباً على وجهه على مبعدة خمسة أمتار من مكان سقوط الشجرة.

وتدافع الخطابون لينهضوه غير أنه سبقهم وتحامل ناهضاً على ركبتيه ذاهل الملامح زائغ العينين وأخذ يمر بيده فرق جبينه كأنه قد استعاد صوابه بعد نوبة عارضة من جنون..

ولما استوى واقفاً على قدميه سأله الخطابون عما دهاه، وقد باغتهم الأمر ولم يفقهوا مما حدث شيئاً، فأجاب مغمغماً أن ذهنه قد شرد لحظة، أو على الأصح، كان هذا منه رجعة إلى الطفولة فقد تصور أن أمامه سعة من الوقت لكي يمر تحت شجرة كما يفعل الصبية وهم يرون مسرعين أمام العربات المنطلقة... وقال أنه كان كمن يلعب بالنار حقاً.. وأنه كان منذ ثمانية أيام يتسالم عما إذا كان يستطيع أن يمر تحت شجرة توشك أن تسقط فلا يصيبه منها سوء...

واعترف بأن هذا كان حماقة منه، غير أنه اعتذر بأن كل انسان تمر به مثل هذه اللحظات غير السليمة، ومثل هذا الاغراء الصبياني السخيف.

كان يشرح للخطابين ما حدث له بصوت خفيض، وهو لا يكاد يجد الكلمات التي يقولها، ثم ذهب وهو يتمتم: إلى الغد، يا أصدقائي؟

وما أن عاد إلى غرفته، حتى جلس إلى منضدته التي كان يضيئها مصباح ساطع النور، ووضع جبينه بين راحتيه وطفق يبكي.

بكى طويلاً، ثم كف كفف دموعه، ورفع رأسه. ونظر إلى ساعة الحائط، فوجدها لم تبلغ السادسة بعد. قال في نفسه: «لا يزال في الوقت متمتع قبل موعد طعام العشاء» ثم نهض وأغلق الباب بالمفتاح، وعاد فجلس أمام المنضدة وأخرج من درجها الأوسط مسدساً وضعه فوق أوراقه، في موضع ينسكب عليه نور ساطع، فتلأأ معدن السلاح وأرسل شعاعاً متوهجاً كأنه اللهب..

- ١٢ -

تأمل رينادييه المسدس مضطرب النظرة كرجل ثمل، ثم نهض وراح يمشي من أول الغرفة حتى آخرها، وكان يتوقف أحياناً ولا يلبث أن يواصل سيره. ثم فتح، فجأة، الباب المؤدي إلى الحمام وبلل فوطة مسح بها جبينه، قاماً كما فعل في صبيحة اكتشاف الجريمة، ثم عاد يقطع الغرفة جيئةً وذهاباً، وكلما مر أمام منضدته كان المسدس المتوهج يجتذب أنظاره، وكأنما يتوسل إلى يده أن تقترب منه وتأخذه... غير أنه كان يرقب الساعة ويقول في نفسه: «لا يزال ثمة متمتع من الوقت»..

ودقت الساعة النصف بعد السادسة، وعتذنت تناول السلاح، وفتح فمه على وسعه ودس فيه أنبوب المسدس كأنما يريد أن يبتلعه. وتلبث هكذا يضع ثوان لا يأتي بحركة واصبعه على لسان اطلاق النار، وعلى حين غرة اعترته هزة رهيبة، فبصق المسدس، وتهاوى على مقعده وهو يشهق باكياً ويقول: «لا أستطيع.. لا أجرؤ.. يا إلهي.. يا إلهي.. ماذا أفعل لأجد القوة على الانتحار؟!..».

وقرع الباب فاستوى جالساً مستطار اللب. وسمع الخادم يقول:

- عشاء سيدي جاهز..

فأجاب:

- حسن. أنا آت..

والثقل المسدس فأعاده إلى الدرج، ونظر إلى وجهه في مرآة موقد النار لكي يتأكد من أنه غير كثير التقبض. فرآه أحمر كالعادة، ربما أكثر احمراراً بعض الشيء وحسب. وعندئذ غادر غرفته وهبط إلى حجرة الأكل.

طفق يتناول طعامه متمهلاً كمن يريد أن يطيل الوقت، كمن لا يريد أن ينفرد بنفسه قط... ثم دخن بضعة «غلايين» في الحجرة في حين كان الخدم يرفعون عن المائدة الأطباق ويقايا الطعام. ثم عاد رينارديه فصعد إلى غرفته.

وما أن دخلها حتى واح ينظر تحت السرير، ثم فتح الخزانين جميعاً، ويبحث في كل ركن. وتفقد كل قطعة من الاثاث وبعد ذلك أشعل الشموع الموضوعة فوق موقد النار، ودار حول نفسه عدة مرات، وأرسل بصره في أرجاء الغرفة خائفاً ملءعوراً متقبض الوجه... ذلك انه كان واثقاً انه يوشك ان يعود فيرى الفتاة المقتولة ورؤيته اياها في جميع الليالي السابقة، تلك الفتاة الصغيرة التي اغتصبها ثم صرعها... كان هو الذي قتلها.

كانت هذه الرؤيا تعاوده كل ليلة فيسمع اولاً ما يشبه هدير آلة تدور، او دوي قطار بعيد يمر فوق جسر. وعندئذ يروح يلهث، ثم يشعر انه يكاد يختنق. فيفك زر ياقته ويحل حزامه... ثم يمشي في الغرفة لينشط دورته الدموية، ويحاول ان يقرأ، ويحاول ان يغني... دون جدوى... فقد كان ذهنه، على الرغم منه، يعود الى يوم الجرعة مستعيناً كل اسرارها وتفصيلها بما رافق ذلك من اشد الانفعالات، منذ اول دقيقة حتى آخر لحظة... .

ساعة نهض من نومه. في ذلك الصباح الرهيب، صباح يوم الجريمة... كان يحس بشيء من دوار وصداغ فمزا ذلك الى الحر فلزم غرفته حتى، موعد الغداء.. وبعد تناول طعامه نام القيلولة، ثم خرج عصر ذلك اليوم ليستنشق النسيم العليل المهدى تحت اشجار الغابة.

ولكنه ما ان أصبح في العراء حتى عاد الهواء الثقيل الملتهب الآتي من السهل يلفحه ويزيد في ضيقه. وكانت الشمس لا تزال تتكبد السماء وتصب على الارض المحترق، الظمأى، شواظاً من نارها. وما كانت ثمة نسمة واحدة رطبة تحرك ورق الشجر. وكان يخطو فوق طحالب نهر «البرانديل» الذي كان يرسل بعض رطوبة في الجو ولحت قبة الشجر المعروش. غير ان رينارديه كان لا يزال يحس انه على غير ما يروم، وكان يبدو له كأن يداً غير منظورة تضغط على عنقه، وما كان ساعتئذ، ليفكر في شيء، وما كان اقل الافكار في رأسه عادة. ولكن فكرة واحدة غامضة كانت تلازمه منذ اشهر ثلاثة هي: ان يتزوج ثانية... كان يتألم ان يعيش وحيداً، كان هذا الالم ينتابه روحاً وبدناً... وكان قد اعتاد، منذ عشر سنوات، ان يتمتع بوجود امرأة قربه اعتاد أن يراها في كل لحظة، اعتاد معانقتها إياه يومياً، وكان بحاجة شديدة، أمرة، غامضة، الى هذا الاحساس بوجود هذا البدن، وتلك القبلات... ومنذ وفاة زوجته كان يعاني من ألم موصول دون ان يفقه السبب. كان يعاني من انه لم يعد يحس بفستانها يخفق بين ساقيه كل يوم... وان لا يجد، بصورة خاصة، سبيلاً الى السكنية والتفثر اللذين بين احضانها... وكان السيد رينارديه قد ترمّل منذ ستة أشهر، ومع ذلك راح يبحث، في تلك الناحية، عن فتاة او ارملة ما يمكنه ان يتزوجها.

وكان في ذلك الصباح قد عاودته تلك الرؤى البدنية التي تخاومه، فخطر له، فجأة، ان يسبح في نهر «البرانديل» لكي يتخفف من وطأة الحر... ومن وطأة الدم الذي يغور في عروقه... وكان يعرف موضعاً متسعاً وعميقاً من النهر، على

مبعدة قليلة، يأتي اليه اهالي تلك الناحية فيستحمون فيه احياناً ابان فصل الصيف. فغذ السير اليه.

كان الشجر الصفصاف يخفي هذا الحوض الصافي الذي يرتاح في احضانه تيار الماء، ويغفو قليلا قبل ان يعود فينتلق. وحسب رينارديه، وهو يقترب من ذلك الموضع، انه يسمع حركة خفيفة، واصطفاق ماء واهن ليس هو اصطفاق النهر بين عدوتين، فتحى الاغصان هرقق وراح يتطلع، فشاهد بنية صغيرة عارية تماماً، تبدو ناصعة البدن من خلال الماء الشفاف، وهي تخطب صفحة النهر بيديها وترقص قليلا، وتدور حول نفسها بحر كات لطيفة... .

-١٣-

لم تكن طفلة غريبة، ولم تصبح بعد امرأة: كانت مكتنزة وتامة التكوين، وفي الوقت نفسه محتفظة بلامح صبوية مبكرة النضج والنمو، لم يتحرك رينارديه... تسمر في مكانه وقد تملكته الدهشة واستبد به القلق، وتقطعت انفاسه من اثر انفعال غريب حاد. تلبث ثمة خافق القلب كأنما قد تمثل له احد احلامه الشهرانية... وقد تحقق كأنما قد اتت جنية رجسة فكشفت له عن هذه المخلوقة المشيرة اليافعة، عن «فينوس» صغيرة ودية جمال. فلاحه ولدت في ثنايا فورة نهر صغير، كما ولدت «فينوس» الاخرى الكبيرة من اثباج امواج البحر العظيم وزيده... .

وعلى حير غرة خرجت الفتاة من ماء النهر، وانجذبت نحوه- دون ان تراه- باحثة عن ثيابها لكي ترتديها، وكان كلما تقلعت هي خطوات قليلة مترددة خشية الخصى المذهب الرؤوس، يحس انه مندفع اليها بقوة لا تقاوم، بهرام وحشي ضار اشراق له بدنه، وارسل في حسه سيلا من جنون، واشاع فيه الارواح من رأسه حتى اخمص قدميه.

بقيت واقفه بهض لحظات مختفية وراء شجرة صفاف. وعندئذ فقد رينارديه عقله كله، فنهى الاغصان وانقض عليها واخذها بين ذراعيه، فسقطت وهي اشد خوفاً من ان تقاوم، واعظم ذعراً من ان تصيح وتنادي... وهكذا اغتصبها دون ان يعي ما يفعله.

وقد استفاق من فعلته كما يصعر الانسان من كابوس رهيب. وطفقت الفتاة تبكي وتعول فقال هو:

- اسكتي... اسكتي... سأعطيك نقوداً.

فصرخت وهي تتلوى وتحاول الهرب .

حاول أن يوقف، في حلقها، صرخاتها الرهيبة الممزقة.. ولما استمرت تتخبط بين يديه بقوة المخلوق البائس الذي يريد ان ينجو من الموت اطبق يديه، وهما يدا عملاق، على عنقها الصغير المتلوى صباحاً وصراحاً، وراح يضغط بقوة حتى صرعتها في لحظات... وما كان ليفكر في قتلها، وانما كان يريد فقط ان يسكتها!...

ثم استوى واقفاً وقد أذهلته بشاعه فعلته... كانت منطرحة امامه، محتقة الوجه سواداً، وهم ان يهرب، ولكن غريزة خفية غامضة انبثقت في نفسه الهالعة وقادت خطاه كما تقود جميع الاشخاص في مواطن الخطر... واوشك ان يلقي بهشة الفتاة في مياه النهر، غير ان دافعاً آخر دفع به نحو اسمال الفتاة فجمعها وحزمها بخيط كان في جيبه واخفاها في فجوة عميقة في النهر تحت جذع شجرة غاص اسفلها في الماء.

ثم انطلق واسع الخطى نحو الحقول والسهول، وقام بجولة كبيرة لكي يراه الفلاحون الذين يقيمون بعيداً جداً عبر الجانب الاخر من الناحية، ثم عاد الى داره

ليتناول طعام العشاء في موعده،

ومع ذلك فقد استغرق في النوم تلك الليلة، استغرق في نوم ثقيل، أشبه بنوم البهائم، أشبه بنوم المحكوم عليهم بالاعدام أحياناً... ولم يفتح عينيه إلا مع أولى شعاعات النهار، وراح ينتظر ساعة نهوضه المعتادة، والعذاب يغري قلبه خشية اكتشاف الجريمة.

ثم كان عليه أن يحضر كل ما جرى من تحقيق، بعد ذلك، وهو كمن ينهضون ويتكلمون في أحلامهم، وقد تغيم عقله من الذهول والوهم حتى كان يرى الأشياء والناس من خلال ضرب من الاحلام، وفي شبه سحابة من خمار، وشك يبلبل العقل في اوقات الكوارث الكبرى.

وقد اخترقت قلبه الصيحة الممزقة التي ارسلتها امها العجوز... في تلك اللحظة كاد يرقى جاثيا عند قدميها معترفاً بجريته هاتفاً من اعماقه: «انا الذي قتلتها» ولكنه تمالك نفسه... ومع الليل انطلق الى النهر واخرج صرة ملابس الفتاة، واخذ قباقها الخشبي وذهب به فوضعه على عتبة دار الام... .

-١٤-

كان رينارديه هادئاً، ومالكا لنفسه، ومخادعاً، ومبتسماً طيلة الوقت الذي استغرقه التحقيق في القابة، وقد استطاع ان يوجه هذا التحقيق ويضله كيف شاء. وكان يناقش قاضي التحقيق والمدعي العام بطمأنينة حول جميع الافتراضات التي كانت تخطر لهما، وكان يكافح آراءهما، ويتقوض راهيتهما، وكان يجد سروراً ما مؤثلاً ومر المذاق وهو يجهد في تشويش افكارهما، وتبرئة كل من كانا يشتبهان بهم.

ولكنه، منذ اليوم الذي تركت فيه التحريات والبحث عن القاتل، اصبح،

شيئاً فشيئاً، عصبي المزاج، وأكثر استشارة واحتياجاً عما كان عليه في السابق، على الرغم من انه كان يسيطر على نوبات غضبه. وغدا ينتفض انتفاضاً لدى اية حركة، وحقاً به الخوف فهو يرتعد فرقاً لاية نأمة، وكان احياناً يرنجف من قمة رأسه حتى اخمص قدميه اذا ما حطت على جبينه ذهابة . وعندئذ اجتاحتها حاجة ملحة، غلابة، لكي يتحرك، ويسير ويتجول على نطاق واسع، ويظل، ومع ذلك منتصباً على قدميه الليلي الطوال، وهو لا ينفك يسير في ارجاء غرفته.

ولم يكن هذا منه لأن ضميره كان يخزّه ويؤنبه. ان طبيعته البهيمية لم تكن لتستجيب لاي لون او ظل من عاطفة او خشية، او وازع خلقي. وانه لرجل فطر على العنف والقوة، وقد ولد للحرب والنضال واكتساح البلاد المفتوحة وذبح المغلوبين المهزومين، وهو كان، لذلك ممتلئاً بالغرائز الوحشية وغرائز القتال التي لا تقيم لحياة الانسان اي وزن. وعلى انه كان يحترم الكنيسة بدافع سياسي فقد كان لا ينتظر في آخرته ثواباً او عقاباً. وانما كان يحتفظ لنفسه بايمان ما، هو عبارة عن فلسفة غامضة مصنوعة من كل افكار وأراء جماعية «الانسيكلوبيدين» في القرن الماضي: وكان يرى في الدين عقوبة روحية للقانون، وكلاهما من مبتكرات بني البشر لتنظيم وضبط العلاقات الاجتماعية.

وكان يبدو له ان قتل انسان ما في مبارزة، او في حرب او في شجار، او في حادث، او بدافع الانتقام، او حتى بدافع الصلف والمباهاة، امر يصلح للهر والازدهاء، وخليق ان لا يترك في نفسه من اثر اكثر مما يمكن ان تتركه طلقة من بندقية تصيب ثعلباً... ولكنه قد احس بانفعال المسكينة، وهو قد قتلها، اولاً، في نشوة جنون عارمة، فيما يشبه عاصفة شهرانية افقدته عقله. ثم احتفظ في ملمس شفتيه، وحتى في مجس اصابعه القاتلة بضرب من الحب البهيمي، وفي الوقت نفسه بانتفاضة كره مذعورة لهذه الفتاة التي باغتها هكذا وقتلها بنذالة. وكان تفكيره يعود به، في كل لحظة، الى ذلك المشهد الرهيب وعلى انه حاول

جاهداً أن يقصي هذه الصورة وينحيها برعب واشمزاز عن خاطره فانه كان يحس بها تحوم في نفسه، وتدور من حوله، مترقبة- دون انقطاع- ان تعود فتترامى له.

وعندئذ استحوذ عليه الخوف من الامسيات، والخوف من العتمة التي تتكاثر حوله، وكان لا يدري، بعد، لماذا تبدو له الظلمات مرعبة، غير انه كان يخشاها بالغريزة، وشعر انها مليئة بالرهبة والفرع. اما النهار بنوره الساطع فقد كانت تحي فيه احوال الخوف وتري الاشياء والمخلوقات في وضعه كما هي، وكما تبدو في النور... غير انه في الليل، الليل الكثيف، الاشد كشافاً من الاسوار الجاثمة، الليل الحالك السواد، الشاسع الواسع الرحيب الذي تحس في اطوائه الفرع الخفي يضرب ثأنها، ويجوس في كل مكان، كان هذا الليل يبدو له وكأنه قد اخفى في احشائه خطراً مجهولاً، قريباً، ومتوعداً. ولكن ما هو هذا الخطر؟

-٩٥-

وما اسرع ما علم بامر هذا الخطر: كان جالسا في مقعده في ساعة متأخرة من ليلة لم يذق فيها طعماً للنوم فتخيل اليه انه يرى ستار النافذه يتحرك فراح ينتظر قلقاً خافت القلب ولكن الستار لم يعد يتحرك. ثم وعلى حين غرة اضطرب الستار من جديد او على الاقل خيل اليه ذلك فلم يجرؤ على النهوض ولم يجرؤ على التنفس ومع ذلك فقد كان شجاعاً وما اكثر ما دخل في حياته في الوان من العراك وشد ما كان يشتهد ان يجد في بيته لصوا يصاولهم...

وهل كان صحيحاً ان هذا الستار يتحرك؟ القى على نفسه هذا السؤال وهو يحسب ان عينيه خدعته.

ومع ذلك فقد كان شيئاً يسيراً ما يراه، انه اقرب ما يكون الى حفيف غلالة رقيقة، أو اشبه بشيء بما تحدثه الريح من خفق وقاوج. غير ان رينارديه بقي جاحظ النظر، مشربب العنق، ثم نهض فجأة وقد تولاه الخجل من خوفه، وخطا

بضع خطوات وامسك بالستار بكلتا يديه ونحاه عن آخره. فلم ير باديء الامر، غير اللوح الزجاجية السوداء، سوداء كأنها بقع كبيرة من حبر لامع، وكان الليل، الليل العريض الذي لا يسبر غوره يمتد خلف الزجاج حتى الافق غير المرئي. تلبث واقفاً قبالة هذا الظلام، الذي لا حدود له وعلى حين غرة شاهد ضوئاً متحركاً بدا كأنه بعيد. وعندئذ قرب وجهه من لوح الزجاج وقد حسب ان صائد اسماك يحاول ان يصطاد خلسة في نهر «البرانديل» بعد منتصف الليل.

وكان هذا الضوء لا يتفك يزحف فوق ضفة النهر، وتحت اشجار الغابة، ولما لم يستطع ان يميز ما يرى أخفى عينيه في راحتيه. ولكن هذا الضوء لم يلبث ان غدا نوراً ساطعاً، فشاهد رينارديه الفتاة الصغيرة عارية مدمعة وملقاة فوق الطحالب... وعندئذ تراجع وقد تقبضت اساريره من الهلع، فاصطدم بأحد المقاعد وسقط على ظهره، وبقي في هذا الوضع بضع دقائق كئيباً محزوناً، ثم استوى جالساً وراح يفكر: لا شك في ان ما شاهده كان كابوساً ثقيلاً، سببه ان سارق حصاد او غلات يجوس ضفة النهر ومصباحه في يده. ثم ماذا يدعوا الى الدهشة ان تعاوده، احياناً، ذكرى جريمته وتلقي في روعه انه يرى تلك الفتاة التي قتلها؟

وبعد ان نهض واقفاً شرب كوباً من ماء، ثم جلس.. وراح يفكر: «ماذا عسى ان اصنع لو عادت هذه الصورة ثانية؟» وقد كانت ستعاوده دون ريب، وكان يشعر بهذا، وعلى اتم ما يكون ثقة فيما يشعر... وها هي النافذة قد عادت تسترعي انتباهه، وتدعوه، وتجتذبه، ولكي لا تقع عيناه عليها ادار كرسيه، ثم تناول كتاباً وحاول ان يقرأ، ولكن سرعان ما بدا له انه يسمع شيئاً يتحرك.

لا شك في انه قد تحرك هذه المرة. لا سبيل الى اي شك، فاندفع نحوه وقبض عليه بيد بالغة العنف والوحشية حتى هوى مع عارضته الخشبية، ثم الصق وجهه، بشراة، فوق الزجاج، فلم ير شيئاً. كان كل شيء شديد الظلام في الخارج،

وعندئذ تنفس الصعداء بسرور وارتياح كما يفعل رجل تم انقاذه من خطر الموت.

وعاد فجلس. ولكن لم يلبث ان استحوذت عليه الرغبة في النظر، من خلال النافذة ومنذ ان هوى الستار اصبحت النافذة اشبه بفجوة مظلمة رهيبة تجتذب نظره نحو ارض الريف المظلمة. ولكي لا يستسلم لهذا الاغراء الخطر، نضا ملايسه، واطفاً الانوار واضطجع واغمض عينيه، وراح ينتظر النوم. وعلى حين غرة اخترق اجفانه نور متدفق ساطع، ففتح عينيه وفي يقيه ان داره تحترق. ولكن كل شيء كان مظلماً، فاتكأ على مرفقه لكي يستطيع ان يميز النافذة التي كانت لا تنفك تجتذبه دون ونا. ولفرط ما حاول ان يتبين شيئاً ما شاهد نشارة من لمجوم، فنهض، وقطع غرفته متحمساً متلماً، ثم وجد الواح النافذة الزجاجية عن طريق يديه المبسوطتين الى امام، فوضع جبينه فوق الزجاج، وسرعان ما شاهد هناك تحت الأشجار، جثة الفتاة تتوهج وكأنها قطعة من الفوسفور تنير الظلام من حوله... فأرسل ريناردية صرخة مدوية وانشى عائداً الى سريره فبقي فيه حتى الصباح وقد اخفى رأسه كله تحت الوسادة...

-١٦-

غدت حياة ريناردية، منذ هذه اللحظة، لا تحتل ابداً، وكان يقضي نهاره في الهلع من الليلة المقبلة. وكانت الرؤيا الفظيعة تعاوده كل ليلة. وكان لا يكاد يدخل غرفته ويغلق بابها حتى يروح يحاول ان يكافح دون جدوى. فقد كانت تنهض وتدفع به الى زجاج النافذة قوة لا سبيل الى مقاومتها، فكانه يستدعي شيخ الفتاة ثم لا يلبث ان يراه، يراه ممدداً، بادىء الامر، في مكان الجريمة، وقد انكشفت ذراعاه، وتباعدت ساقيه تماماً على الصورة التي وجدت فيها الجثة: ثم كانت الميتة تنهض وتتقدم بخطى بطيئة كما فعلت الفتاة وهي تخرج من النهر. كانت تتقدم برفق في الحياء مستقيم وهي تطفأ العشب والازهار الجافة، ثم ترتفع في الفضاء منطلقة نحو نافذة ريناردية.

كانت تقبل اليه كما اقبلت نحو قاتلها يوم ارتكاب الجريمة... وكان هو يتراجع... يتقهقر امام هذه الرؤيا... حتى يصل الى سريره فينهار فوقه وهو موثق ان الصغيرة قد دخلت من النافذة ووقفت وراء الستار الذي لا يلبث ان يتحرك، ويظل يحدق النظر في هذا الستار حتى وهو ينتظر، دون انقطاع، ان يراها تخرج من ورائه. ولكنها لا تخرج ابداً، بل تظل هناك، متوارية خلف الستار الذي لا يتحرك اكثر من مرة واحدة احياناً... وهو لا ينفك يقبض باصابع متقبضة على اغطية السرير، ولا ينفك يضغط عليها كما سبق وضغط على عتق الفتاة يوم مصرعها... وكان يستمع الى الساعة تدق اوقاتها، ويصفي الى حركة محركها في صمت مطبق، وينصت الى وجيب قلبه وضربات العميقة. كان ذلك التاعس يتألم، وكان المله اشد مما يعاني انسان.

ثم لا يكاد يظهر في سقف الغرفة اشعاع من نور ناصع البياض ينبيء بالنهار الوليد حتى يحس انه قد نجى، وانه قد اصبح وحده في الغرفة... فيستفرقه النوم، عندئذ، ويسترسل بضع ساعات في سبات قلق، محموم، وقد تعاوده في احلامه ايضا تلك الرؤيا المخيفة التي تلازمه في ليلاليه الساهرة.

وكان اذ يهبط الى قاعة الطعام، فيما بعد، ليتناول غداء يحس انه متيبس الاطراف، متجمد الجسم كما يحدث للانسان بعد تعب شديد مرهق. واجهاد طويل الامد، وكان لا يكاد يتناول شيئاً من طعام، وهو لا ينفك يلازمه الهلع من تلك التي... ستظهر له... في الليلة المقبلة... .

ومع ذلك فقد كان يدرك انه ليس ثمة من رؤيا، وان الاموات لا يعودون ابداً. وان روجه المريضة، روجه التي تلازمها فكرة واحدة ثابتة وذكرى لا سبيل إلى نسيانها، كانت هي السبب الوحيد في عذابه، وهي وحدها التي تبتعث شبح الفتاة وتحجبها من جديد، وتستدعيها، وتنصبها واقفة امام عينيه اللتين لا تمحي منهما آثار تلك الصورة- غير انه كان يدرك ايضاً انه لن يشفى ولن يبرأ، ولن

راح رينارديه بيكي كطفل وهو يردد «لن اجرؤ، لن اجرؤ» ثم خر جاثياً على ركبتيه وأخذ يتمتم: «يا الهي يا الهي». ولكن دون إيمان بالله على الإطلاق. وفي الواقع لم يعد يجد الجرأة للنظر الى النافذة التي يدرك ان الرؤيا الرهيبة تختبئ وراءها، ولا الى المنضدة التي يلعب فوقها مسدسه.

وعندما نهض واقفاً قال بصوت مرتفع:

- ان هذا لا يمكن ان يلوم... ويجب الانتهاء منه.

ولقد اشاع صوته، في الغرفة الصامتة ارتعاده خوف في جسمه كله... واذا لم ينته الى قرار حاسم يتخذه، واذا احس ان اصبعه لا تطاوعه على ضغط زناد المسدس فينتهي من حياته بطلقة واحدة، فانه عاد فأخفى رأسه تحت اغطية السرير وراح يفكر.

كان لا بد له من ان يجد شيئاً يرغبه على الموت ارغاماً، ان يبتكر حيلة ضد نفسه لا تشرك بعدها اثراً لتتردد او ابطاء او اسف ممكن. وقد غدا يحسد المحكومين بالاعدام. آه لو يستطيع ان يتوصل الى شخص هنا ان يطلق عليه الرصاص وليته يستطيع ان يقضي الى صديق كتوم بحاله النفسية، ويوح له بجرعته وهو واثق ان هذا الصديق لا يشي به، بل يبادر الى اجابة طلبه ومنحه الموت. ولكن ممن تراه سيطلب اسداء هذه المكربة؟ وعلى حين غرة برقت في ذهنه خاطرة: سيكتب الى قاضي التحقيق الذي تربطه به رابطة صداقة حميمة، سيكتب له ويعلمه كل شيء سيقول له انه هو الذي ارتكب جريمة قتل الفتاة، وسيروي له عذابه، ورغبته في الموت، وتردده، ووسيلته التي يصطنعها لكي

ينهض عزيمته الخائفة. وسيتوسل اليه، باسم صداقتهما القديمة، ان يمزق رسالته بعد ان يعلم ان المذنب قد اقتص من نفسه. ورنارديه يستطيع الاعتماد على هذا القاضي، فهو يعرف انه كتوم، واهل للثقة، وغير قادر حتى على التلفظ بكلمة واحدة رعنا. وانه لاحد اولئك الرجال من ذوي الضمائر الحبة التي لا ينفك العقل يحكمها، ويوجهها، وينظم امرها.

وما كاد رينارديه يتراعى له هذا المشروع حتى غمر قلبه سرور مبهم. ولقد هدأ واستكان. سيكتب هذه الرسالة على مهل، وعندما يطلع النهار يضعها في صندوق البريد المعلق فوق جدار مزروعاته، ثم يصعد الى قمة برج داره يرقب مجيء ساعي البريد، وبعد ان يذهب سيلقي بنفسه- ورأسه في المقدمة- فوق كتل الصخور التي تقوم عليها أسس البرج.

وسيبذل جهده لكي يراه، اولاً الخطابون الذين لا يزالون ماضين في تقطيع اشجار الغابة، ووسيلته الى هذا ان يشب الى الدرجة الناتئة التي تقوم عليها صارية العلم الذي يرفع في الاعياد فيمسك بها بيديه الاثنتين ويهزها هزة عنيفة فتقص وتهرى ويهرى هو معهم من حائق تئنق عنقه وهكذا لا يمكن الاعتقاد الا بان حادثاً قد وقع له قضاء وقدراً.

وترك رينارديه سريره فوراً، وجلس الى منضدته وراح يكتب. ولم ينس، فيما كتبه، شيئاً، ولا اياً من تفاصيل الجريمة، وما ذاق من مرارة العذاب في قلبه وروحه جميعاً، ثم ختم رسالته قائلاً انه قد اصدر الحكم على نفسه، وانه سيقبض بتنفيذ حكم الاعدام بها، وتوسل إلى صديقه، القديم ان يحرص على ان لا تلوث ذكراه ابداً، وان يظل هذا السر مطويا الى الابد.

ولما انتهى من كتابة رسالته وجد ان النهار قد لاح، فطوى الرسالة، وغلفها، وكتب العنوان، ثم هبط من غرفته في الطابق العلوي بخطى خفيفة مسرعة،

وانطلق الى صندوق البريد الابيض اللون المشتب بالحائط في ركن من المزرعة،
وبعد ان القى فيه بالرسالة التي كتبها بيده عاد مسرعاً واقلل الرتاج الكبير
وراءه وصعد الى قمة البرج العالي وراح ينتظر مرور ساعي البريد الذي لن يلبث
أن يأتي ويأخذ الرسالة التي اصدر فيها الحكم بالاعدام على نفسه.

- ١٨ -

أحس الآن بالهدوء والسكينة، وبأنه قد نجا وتخلص، ثم هبت على نفسه
ريح جافة، وباردة برودة الثلج، فاستنشقتها بنهم وراح يعب منها مفتوح الفم،
وكانت السماء، ساعته، حمراء متقدة الحمرة، في هذا اليوم من ايام الشتاء الذي
انبط فيه السهل ابيض ناصعاً بما كساه من صقيع الصباح وقد اخذت تلتصع
فوقه اولى شعاعات الشمس فغدا وكأن نثارة من زجاج مبروش فرشت فوقه.

وكان رينارديه واقفاً في مكانه حاسر الرأس يرسل بصره الى انحاء المقاطعة
فيرى السهول المترامية شمالاً، والقرية جاثمة الى اليمين وقد اخذت مداخن
مواقدها ترسل دخانها استعداداً لوجبة الصباح. وفي أسفل كان يرى نهر
البرانديل يجري بين الصخور التي سيهري فوقها عما قريب فتندق عنقه
ويموت... وقد أحس كأنما هو يولد من جديد في هذه الساعة المبكرة الشديدة
البرودة كما أحس انه يموت في قوة وعافية وحيوية. كان الضياء ينسكب عليه،
ويحيط به، ويدخل في ذات نفسه كالأمل الجميل. وانثالت على خاطره
الذكريات: ذكريات الأصباح الماثلة لهذا الصباح، ذكريات الارض الصلبة وهو
يسير فوقها سريع الخطى فيسمع لحظوه وقع له في اذنيه اصداً، ذكريات الصيد
الهنيء عند برك الماء، ذكريات كل هذه الاشياء التي كان يحبها، الاشياء الطيبة
في الوجود... وقد اخذت كلها تتدافع في مخيلته وتشحذ في نفسه رغائب
جديدة، وتوقظ جميع مشتبهات جسده القوي النشط العظيم الفعالية... ومع
ذلك اتراه يوشك ان يموت حقاً؟ ولكن لماذا؟ وهل تراه سيتحرر بقباء هكذا لانه

اصبح يفرغ من شبح... ويخاف من لا شيء! انه ثري ولا يزال شاباً... فما اشد حماقته! ان حسبه، لكي ينسى ان يتلهى بشي ما، ان يتغيب وقتاً ما، ان يقوم برحلة ما... وحتى انه، في الليلة الماضية، لم ير شبح الفتاة لان ذهنه كان مشغولاً بأمر آخر... فهل لن يعود يراها ابداً؟ واذا كانت رؤياها تلازمه في داره هذه، فانها دون رب لن تتبعه الى مكان آخر! فدنيا الله واسعة والمستقبل رحيب مديد!... فلماذا، اذن، يموت؟

كانت عيناه لا تنفكان تدوران في السهل المترامي فلمح بقعة زرقاء في الدرب الضيق الممتد على ضفتي النهر. لا رب في ان القادم هو «ميدريك» ساعي البريد وقد اقبل حاملاً رسائل المدينة لكي يوزعها ويأخذ رسائل القرية.

وانتفض رينارديه انتفاضة سريعة، وداخله شعور بالالم، فاندفع في السلم الحلزوني لكي يستعيد رسالته من البريد. ولا يهمه ان يراه احد الان وراح يعدو راكضاً فوق العشب الذي اخذ يذوب فوقه ثلج الليل فبلغ ذلك الركن من القرية الذي علق فيه صندوق البريد، في الوقت الذي وصل فيه ساعي البريد. وقد فتح الرجل باب الصندوق الخشبي الصغير، وتناول الرسائل القليلة التي وضعها فيه سكان الناحية. وقال له رينارديه:

- اسعدت صباحاً يا ميدريك

- اسعد الله صباحك سيدي العمدة

- الا قل لي يا ميدريك... لقد القيت في الصندوق رسالة انا بحاجة اليها الان... وقد اتيت لاطلب منك ان تعيدها الي.

- طبعاً يا سيدي العمدة. سأعطيك اياها... .

ورفع ساعي البريد عينيه فأذهله ما رأى من وجه رينارديه، فقد كان خداه بلون البنفسج، ونظرفته زائفة، وعيناه غائرتان وحولهما دوائر سوداء وشعره اشعث، ولحيته غير محلقة، وريطة عتقه محلقة... كان واضحاً جداً انه لم ينم في ليلته ابداً... وسأله الرجل:

- هل انت مريض يا سيدي العمدة؟ وادرك رينارديه، فجأة ان مظهره لا يد ان يكون مشيراً للاستغراب، فقد ضبطه لنفسه واخذ يقول متلعثماً:

- ولكن لا... لا... فقد نهضت من سريري فقط لكي آتي وأسالك ان تعطيني هذه الرسالة... لقد كنت مستغرقاً في النوم... اتفهم ما اقول؟

غير ان شبهة ما دارت في ذهن ساعي البريد الذي كان جندياً في يوم من الايام فقال:

- اية رسالة؟

- الرسالة التي ستعطيني اياها.

فازداد تردد ساعي البريد فقد كان موقف العمدة غير طبيعي... وربما كان في هذه الرسالة سر من اسرار السياسة، وهو يعلم ان رينارديه ليس جمهورياً، وكان يدرك جميع الحيل وضروب الغش والخداع التي تستعمل في الانتخابات فسأل العمدة:

- ولمن هي موجهة هذه الرسالة؟

- الى السيد بوتوان «قاضي التحقيق... وانت تعلم جيداً انه صديقي».

ويبحث ساعي البريد في الرسائل التي اخذها من الصندوق فوجد الرسالة

المطلوبة وجعل يتأملها ويديرها بين اصابعه وقد تولاها الارتباك الشديد،
والاضطراب الاشد خشية ان يرتكب خطأ جسيماً او يجعل من العمدة
عدوا له... .

-١٩-

لما رأى رينارديه تردد ساعي البريد اتى بحركة يريد بها ان يمكس بالرسالة
ويشتزعها منه. غير ان هذه الحركة المفاجأة اقنعت ميدريك ان في الامر سرا
خطيراً، فقرر ان يقوم بواجبه كائناً ما كان الثمن... فالتقى بالمغلف في حقيبته
الجلدية واغلقها وقال يجيب العمدة:

-كلا. لا استطيع يا سيدي العمدة لا استطيع ما دامت هذه الرسالة موجهة
الى العدالة... لا استطيع... .

احس رينارديه ان غماً ثقيلاً يعتصر قلبه فاخذ يتمتم متلعثماً:

-ولكنك تعرفني جيداً بل انت تستطيع ان تعرف خطي واقول لك انني
بحاجة الى الرسالة.

- كلا... لا استطيع.

وعندئذ اخذت العمدة رعدة غضب فقال:

- ولكن حذار... ايها الرجل... فانت تدرك جيداً انني لا امزح... وفي
وسعي ان اعزلك من وظيفتك ودون ابطاء... ثم انا عمدة الناحية... وأمر الان
ان تعيد الي هذه الرسالة... .

غير ان ساعي البريد اجاب بحزم:

- كلا... لا استطيع يا سيدي العمدة... وعندئذ استشاط العمدة غضباً
ففقّد صوابه وقبض على ساعد الرجل يريد أن ينتزع منه حقيبة، إلا أن ساعي
البريد تخلص منه بحركة عنيفة، وتراجع قليلاً، ورفع عصاه الغليظة وقال دون أن
يفقد هدوءه:

- آه... لا تحاول أن تمسني يا سيدي العمدة... أو تضطرنني إلى استعمال
هذه العصا... حاذر أذن... فانا انما اقوم بواجبي...

احس رينارديه انه قد قضى عليه فانقلب على الفور لطيفاً، متراضعاً، وراح
يتوسل إلى ساعي البريد وكأنه طفل يبكي:

- ولكن... ولكن... يا صديقي... اعد الي هذه الرسالة.. فأكافئك...
واعطيك مئة فرنك... أسامع انت... مئة فرنك...

فلوى الرجل قدمه واستدار ماضياً في طريقه... ولكن رينارديه تبعه لاهثاً
متلعثماً:

- ميدريك... ميدريك... اصغ الي... سأعطيك الف فرنك... اتسمع...
الف فرنك...

واستمر الرجل يسير دون أن يجيب بشيء فعاد رينارديه يقول:

- سأغنيك... اتسمع... سأعطيك ما تريد... سأعطيك خمسين الف فرنك
لقاء هذه الرسالة... وماذا تراها تهلك؟ الا تقبل؟ اعطيك اذن مئة الف... مئة
الف فرنك... هل تدرك ما اقول مئة الف... مئة الف.

والثفت ساعي البريد وقد تصلب محياه، وبانت القسوة في نظراته وقال:

- حسبك هذا... وكفاك... والا نقلت الى العدالة كل ما قلته لي الان.

وعندئذ توقف رينارديه وامسك عما كان مسترسلاً فيه. لقد انتهى الامر ولم يعد له اي امل. فاستدار وانطلق يعدو نحو داره كأنه وحش يطارده الرماة.

وتوقف ميدريك بدوره وراح ينظر ذاهلاً الى العمدة، وراح ساعي البريد ينتظر كأن شيئاً خطيراً ومفاجئاً يوشك ان يقع.

وفي الواقع فان قامة رينارديه المنيفة لم تلبث ان ظهرت في قمة برج الشعلب... كان يركض كمنجنون فوق السطح، ثم اعتلى المصطبة التي ركزت عليها صارية العلم فامسك بها وهزها بعنف دون ان يصل الى كسرهما، وعلى حين غرة أتى بحركة سابح يستعد للقفز في الماء من مكان شاق، ثم اندفع في القضااء الرحيب ويذاه محمودتان امامه... .

وجرى ميدريك طلباً للنجدة، وفيما كان يجتاز غابة الاشجار شاهد الخطابين مقبلين على عملهم فناداهم وهو يصرخ معلناً اليهم ما حدث... فاندفعوا مسرعين إلى اسفل اسوار البرج فوجدوا جثة العمدة عندها وقد انبعث منها الدماء وانسحق الرأس فوق احدى الصخور... وكان نهر البرانديل يحيط بهذه الصخرة وقد شوهد فوق مياهه الصافية، الهادئة المتداحة في هذا المكان: خط طويل يتسايل وردي اللون هو مزيج من دم ونخاع معاً... .

أخطر جاسوس في العصر الحديث!

للمؤرخ الألماني «كورت سنجر»

- ١ -

في الحرب الباردة، تكون الجبهة مفتوحة في كل مكان. وقد كان اكبر جاسوس سوفياتي وجد على الاطلاق في العصور الحديثة يعمل، كالكثيرين غيره من الجواسيس السوفيات: في سفارة، ولكنها لم تكن السفارة الروسية.

وكما سماه بعضهم «دون جوان الجحيم». أما التقرير الرسمي للقيادة الاميركية في الشرق الاقصى، تقرير الجنرال «ماك آرثر» عن «رتشارد سورج»

- وهو اسم هذا الجاسوس الخطير - فقد اطلق عليه لقب «الرجل الذي انقذ حياة ستالين».

ويمكن ان يقال انه جاسوس بلغ حد الكمال في اعمال التجسس، ولكن على وجه التقريب فقط.

وقد كان كل من يقابل الدكتور رتشارد سورج الصحفي الالماني المولود في «باكو» بروسيا يتضح له فوراً انه رجل لامع بكل ما في هذه الكلمة من معنى.

وقد كان يتحدث بعدة لغات ويهتم بالتاريخ، وكان اليابانيون والصينيون

يروون أن قلة من الغربيين استطاعت أن تتفهم العقلية الشرقية وتكون قريبة منها
قرب الدكتور سورج...

وكان هو منيف القامة، متردداً، وكانت له عينان زرقاوان تتواقدان، وكان
دائم الانتماس شأنه في هذا شأن الرجل المحب للحياة الذي يدرك كيف يعيش
أحسن العيش.

وقد كان هو الرجل الذي اطلع، مقدماً، على سر الهجوم الياباني على «بيرل
هاربر» ذلك بفضل شبكته من الجواسيس التي كانت تتألف من ستة عشر عميلاً.
وقد استطاع، أيضاً، أن يعلم تاريخ وساعة الهجوم بدقة متناهية. وبادر سورج
فأوصل هذه المعلومات لاسلكياً على الموجات القصيرة إلى رؤسائه السوفيات...
غير أن روسيا لم تخطر بها أميركا حليفتها... .

أما أكبر عون قدمه لسادته الروس هو العون الكبير وقت احتدام معركة
«ستالنفرد» حيث كانت روسيا تدافع عن كيائها نفسه. فقد أرسل إلى رئيسه
«بريا» وإلى ستالين نفسه البرهان السياسي والعسكري على أن اليابان كانت قد
قررت أن لا تهاجم روسيا، وأن الجيوش اليابانية لن تعرض سيبيريا للخطر.

وفي اللحظة التي تسلم فيها ستالين هذه المعلومات أمر بإرسال معظم الفرق
المحتشدة على حدود «فلاديفوستوك» ومعها سلاحها وعتادها لتعزيز ومساندة
القتال في ستالنفرد... وقد كان هنا عملاً حاسماً غير وجه التاريخ في معركة
ستالنفرد وتاريخ الحرب جميعاً.

وفي ذلك الوقت المخرج، فيما لو أخذنا بعين الاعتبار ما جاء في تقارير رجال
المخابرات السرية، صرح ستالين قائلاً:

- إن سورج انقذ حياتنا بلا أدنى ريب...

وقد كان سورج أذكى من أن يستريب لحظة واحدة في أن اليابانيين سينتهون بالقبض عليه أن عاجلاً أو آجلاً.. على الرغم من الحماية التامة التي كان يتيحها له مركزه كمستشار أول لـ «أوجين أوت» سفير ألمانيا النازية في اليابان. ولا بد أن سورج كان يستشعر دنو ساعته لأنه قال للسفير في أثناء حديث له معه:

- هل تدري، يا أوت، كيف يعدم اصدقاؤنا اليابانيون سجناءهم؟ انهم يعدمونهم ببطء، وشيئاً فشيئاً، فيلقون حول أعناقهم سلكاً من حديد، يشدون هذا السلك على مهل تاركين لهم أن يعيشوا أطول ما يمكن من لحظاتهم الاخيرة... انهم لا يشنقونهم... وإنما هم يخنقونهم بصورة بارعة حقاً... فما اطرف اولئك اليابانيين الاقزام... ثم تناول كأسه المترع بالريسكي فرفعه الى شفتيه وهو يقول «على صحتك»... ثم شرع هو والسفير يحتسيان الخمر على طريقتهما الخاصة... .

- ٢ -

كان ما قاله سورج صحيحاً. ولكن، فيما يتعلق به هو شخصياً، فإن اليابانيين، مع ذلك، لم يكونوا قساة الى الدرجة التي صوّرها، ففي اليوم السابع من شهر تشرين الثاني سنة ١٩٤٤، وهو اليوم الذي نفذ فيه الحكم عليه بالاعدام كانت آخر كلماته التي وجهها الى موظفي السجن هي:

- اني اشكر لكم لطفكم معي... ثم رفع رأسه، وشمخ بانفه، وسار حتى بلغ المشتقة المنصوبة في سجن «سوغامو» في العاصمة طوكيو. وفي الساعة العاشرة والدقيقة العشرين فغرت هرة المشتقة فهاها تحت قدميه فهوى يتأرجع معلقاً من عنقه. وفي الساعة العاشرة والدقيقة الثلاثين أعلن الجلاد انه قد قد فارق الحياة... وانتهى الامر... .

وقد كان سورج آخر رجل من الغرب أعدم في اليابان في خلال الحرب العالمية

الثانية.

ويعا ان رتشارد سورج كان، دونغا ريب، جاسوس الحرب العالمية الثانية الذي نال اعظم النجاح في مهمته، ويعا ان الكثير من الخرافات والاساطير قد ابتكرها المبشرون حول هذا الرجل العجيب في جميع انحاء العالم، فقد قررت ان أنشر بياناً صادقاً وصحيحاً عن حياته واعماله.

ولاول مرة، فيما احسب، انشر ملخصاً لتقرير رسمي هو تقرير الجنرال «دوغلاس ماك آرثر» كما قدمه الجنرال «دوغلاس ويلوغبي» رئيس مكتب الاستخبارات السرية التابع لماك آرثر.

ان تقرير ماك آرثر عن رتشارد سورج أرسل بصورة رسمية الى الوزارة الاميركية، كما ارسل الى وزارة الحرب ودوائر الاستخبارات التابعة لها، والى الكونغرس الاميركي نفسه ويعدّ أوفى تقرير من تقارير التجسس قدم لاية حكومة بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية، وهذا هو موجز هذا التقرير:

«ان عصاية من اشد الجواسيس جرأة ومهارة قد عملت في اليابان، مدة تسع سنوات طوال، لحساب وطنها الروحي- روسيا السوفياتية- وقد استطاعت هذه الشبكة من الجواسيس ان تصل، على وجه التقريب، الى ارتكاب ما يسمى بالجريمة البالغة حد الكمال بقيادة الدكتور رتشارد سورج، وهو شيوعي الماني، وقد كان المشار اليه يوهم الجميع ببراعة اقناع خارقة انه من غلاة النازيين واكثرهم صدقاً واخلاصاً.

ان الدكتور سورج وتائبه الياباني «اوزاكي هازومي» قد ارسلوا كجاسوسين من جواسيس الاتحاد السوفياتي، الى الصين واليابان من سنة ١٩٢٩ الى سنة

وكان سورج يعيش في جو من المودة الحميمة بينه وبين سفير ألمانيا وموظفي السفارة، وكان له «هازومي» علاقات مماثلة مع الامير الياباني «كونومي» الذي تولى رئاسه الوزارة اليابانية ثلاث مرات. ومن هذه المصادر الممتازة التي لا يرقى اليها الشك كان الجاسوسان- سورج وهازومي- يستقيان جميع معلوماتهما واسرارهما المختلفة حول السياسة الداخلية وحول الحرب... . وهي معلومات واسرار كانا ينقلانها الى السلطات الروسية عن طريق رسل يعملون طي الخفاء، ويمختلف وسائل النقل والبريد، وكذلك عن طريق السفارة السوفياتية.

وقد كان هدفهما الرئيس الحصول على الخطط اليابانية والسعي لمعرفة نوايا اليابان المتعلقة جميعاً بهجوم غير مستبعد على الاتحاد السوفياتي.

وقد استطاع سورج، خلال الأعوام الكثيرة من خدمته في مجال التجسس، ان ينقل عدداً لا يحصى من التقارير التحليلية المفصلة الوافية الى المكتب الرابع للجيش الاحمر.

-٣-

لقد القي القبض على اعضاء فريق التجسس الذي كان يرأسه سورج في شهر تشرين الاول سنة ١٩٤١، وقد مات في السجن اثنان من أبرز هؤلاء الاعضاء، اما الآخرون، وهم ذوو مراكز ثانوية، فقد صدرت عليهم احكام بالسجن لمدة طويلة.

وفي اليوم السابع من شهر تشرين الثاني سنة ١٩٤٤ شق الدكتور رتشارد سورج الألماني الجنسية، واوزاكي هازومي الياباني الجنسية، بسبب الخدمات الجللى التي قدماها للاتحاد السوفياتي.

وما استطاع البوليس الياباني المدني، ولا البوليس الخاص، ولا أية منظمة
أمن يابانية ان تقع اطلاقاً، على أية شبهة أو ريبة تتعلق بإمكان سورج أو بإمكان
مرؤوسيه وهم ستة عشر شخصاً من رجال ونساء كانوا يؤلفون هذه الشبكة من
التجسس، هذا المكان الذي كانوا فيه يجتمعون، ويتداولون ويضعون الخطط
والمؤامرات. وإنما قد خانهم وغدر بهم المدعو «ايتو ريتسو» وهو عضو ذو نفوذ
في الحزب الشيوعي الياباني، وذلك بدافع الانتقام من امرأة هي عضو في شبكة
التجسس المذكورة. وقد كان ايتو ريتسو يجهل بأنها تخدم قضية الحزب. وما
يدعو الى سخرية حقاً ان هذا الخائن هو، اليوم عضو ذو نفوذ في الحزب الشيوعي
الياباني... .

ان رتشارد سورج الرئيس اللاحق لهذه الشبكة من الجواسيس ولد في: باكو
بروسيا الجنوبية يوم ٤ تشرين الاول سنة ١٨٩٥، وكان أبوه مهندساً ألمانياً يعمل
في شركة نفط المانية في القفقاس، ويعتقد ان امه روسية. ولما كان سورج لا يزال
طفلاً عاد والداه الى برلين حيث تلقى تعليمه العادي، واصبح من ثم مواطناً باراً
لالمانيا القيصرية.

وفي اوائل الحرب العالمية الاولى دخل رتشارد سورج الجيش واصيب بجروح،
ثم عاد فدخل الجيش وجرح مرة اخرى.

وفي اثناء نقاهته، وبعد انتهاء الحرب، درس في جامعات برلين، وكيبيل،
هامبورغ. وفي سنة ١٩٤٤ نال شهادة الدكتوراة في العلوم السياسية من جامعة
هامبورغ. وفي خلال السنتين التاليتين عمل، بالتتابع، معلماً في مدرسة وعامل
مناجم... ثم، وفي سنة ١٩٢٢ بدأ يكتب للمصحف والمجلات... .

وما ان تألف الحزب الشيوعي الألماني، في شهر تشرين الاول سنة ١٩١٩
حتى انضم اليه سورج واصبح عضواً في خلية مدينة «هامبورغ». وكان سورج

ماهراً وذا موهبة خاصة في تعلم اللغات. ويوم اقام في اليابان كان يتكلم بطلاقة: الفرنسية، والروسية، واليابانية وربما الصينية ايضاً، بالإضافة الى الالمانية....

وقد بدأ سورج باحتراف الشيوعية في سنة ١٩٢٤، وفي تلك الحقبة كان يتمتع بسمعة ممتازة بين الشيوعيين الالمان، وكان المسؤولون الروس يحترمونه، وانضم الى الروس، واصبح عضواً في «الكومنتيرن» الذي كان له، انذاك، نفوذ بعيد المدى على مصائر العالم الشيوعي....

وقد عمل سورج مدة ثلاث سنوات في قيادة الكومنتيرن العامة بموسكو، ليلم بما يجب على الارجح، ولكنه ارتحل إلى الخارج في سنة ١٩٢٧ لكي يبدأ العمل بمهنته الخطيرة كممبل سري، متخفياً وراء واجهة مجلة المانية، وقضى في البلاد الاسكندنافية وبريطانيا العظمى سنتين كممثل لاستخبارات التجسس وللمكتب التنظيمي للكوميتيرن....

-٤-

في سنة ١٩٣٠ ذهب الى الصين ثلاثة من عملاء المكتب الرابع التابع للجيش الروسي. وهؤلاء الثلاثة كانوا: «اليكس» وهو غير معروف الهوية، والدكتور رتشارد سورج نفسه. وشخص آخر اسمه «واينغارت» يعمل في الراديو الالمانى.

وبعد مضي نحو ستة اشهر غادر «اليكس» الصين وقد كان هو رئيس هذه البعثة ليعود الى روسيا على الارجح، وكان «سورج»، من بعده، هو الذي اصبح رئيس هذه العصاةة من الجواسيس التي اتخذت من «شنغاي» مركزاً لها، غير انها كانت جعلت مجال عملها ببلاد الصين كلها.

وكان سورج كثير الاسفار والتنقلات ودائم الاطلاع، بصورة دقيقة ومفصلة على كل ما يصدر من كتب ونشرات تتعلق بسياسة اليابان، وتاريخها، وثقافتها، وفي هذه الاثناء كان لا ينفك يدرس اللغتين الصينية واليابانية حتى غدا مورداً لا ينتضب له معين من المعلومات والمعرفة في الشؤون الاسيوية جميعاً. والواقع انه كان عميلاً مدهشاً لا مثيل له على الاطلاق.

وقد كانت الاتمة «اغنيس سميدلي» عضواً في عصابته، وكانت قبل هذا، من اكثر الاشخاص فعالية ونشاطاً في العمل لقضايا السوفييت في الصين. وقد كانت هي وحدها، وقيل اي انسان اخر، التي تصورت وكان تصورها صحيحاً ان الشيوعيين الصينيين ليسوا في الحقيقة شيوعيين، ولكن، وبكل بساطة، كانوا ثواراً زراعيين لا تربطهم بالسوفييت اية علاقة ولا يقارب بينهم سبب.

اما اشد حلفاء سورج وفاء له، ونفعاً لاغراضه فهو «اوزاكي هازومي» الصحفي، والمعلق السياسي الشهير، والذي اختص في الشؤون الصينية. والمعروف انه كان لاوزاكي الشرف الكبير ان يلاقي حتفه قبل موت سورج نفسه بنصف ساعة، وان يكون هو وحده، ثاني اثنين من بين اعضاء هذه العصاة، الذي لفظ آخر انفاسه معلقاً بحبل المشنقة.

وكان اوزاكي هازومي قد اكتسب الشهرة بانه الخبير الياباني الاول بكل ما يتعلق بالصين من شؤون، وقد كتب عدداً وافراً من المقالات بهذا الصدد في مجلات عديدة مختلفة. وقد كانت مقالاته هذه تنشر في صحف انكلترا وصحف اليابان على السواء.

وفي سنة ١٩٣٨ اصبح اوزاكي المستشار الرسمي للوزارة اليابانية التي كان يرأسها الامير «كونوي»، ولما سقطت حكومة كونوي في شهر كانون الثاني سنة ١٩٣٩ قدم اوزاكي استقالته من منصبه، الا انه، في شهر حزيران من السنة

نفسها، عين مستشاراً وسمياً في «مكتب طوكيو لسكك حديد منشوريا
الجنوبية» وقد ظل محتفظاً بهذا المنصب حتى اوقف في سنة ١٩٤١ .

وهو يوم كان لا يزال صبياً صغيراً في فرموزا انطوى على حقد دفين لـ
«العسكرية» اليابانية وتطلعها النفعي الى الشؤون الصينية.

ولما اصبح طالبا في طوكيو بعد ذلك انكب يقرأ كل ما يصدر من كتب عن
اليساريين اليابانيين الا انه لم يصيح قط عضوا في اي حزب شيوعي.

وقد نشأت صداقة عميقة وصداقة بين او زاكي الصحفي الياباني و
يواغنيس سميدلي الصحفية الاميركية.

ولا شك في ان التوصية التي قدمتها لسورج الاسمة سميدلي ثم التحريات
التي قام بها قد ارضته واقتنعتة اقناعا تاما باخلاص وصدق اوزاكي.

وقد طلب منه سورج ان يزوده بمعلومات وافية عن الحالة الداخلية في الصين
وعن سياسة اليابان نحوها. فوافق اوزاكي فوراً ودون اي تردد.

-٥-

في سنة ١٩٣٠ حينما وصل سورج الى «شنغهاي» وجد فيها «ماكس
غوتفريد كلوزن» الذي كان هو الآخر عضواً في المكتب الرابع للجيش الاحمر،
وكان قد قدم من موسكو في السنة السابقة متخفياً بهزي أمر صغير في الجيش
السوفييتي. وقد اكتسب خبرة طيبة في شؤون الاتصالات السرية بالراديو. وقد
ظلت هذه هي مهمته خلال الحقبة التي كان فيها سورج يمارس اعماله التجسسية.
وعندما انتقل «كلوزن» الى اليابان كان هو العامل الرئيسي في الاتصال بين
سورج والاتحاد السوفييتي.

في شهر ايار من سنة ١٩٣٣ ذهب سورج الى برلين لكي يتخذ ستارا يختفي وراءه ويبرء اعمال التجسس الخطيرة التي كان يمارسها في اليابان. ولذلك سرعان ما عين مراسلا خاصا لعدة صحف ومجلات المانية من بينها صحيفة «فرانكفورتر زايتمونغ» و «برجن كوربييه» و «تختنش راندشار» و «آمتر دام هاندلسيلات» وغيرها... ثم طلب ان يصبح عضوا في الحزب النازي الذي كان قد استولى على الحكم في المانيا بأمر من هتلر. وقد قبل سورج في الحزب فوراً...

اما كيف استطاع سورج ان يؤمن لنفسه هذه «الواجهة» البارعة فأمر ذلك مجهول حتى اليوم. ولا شك في ان مفتاح السر لهذا كله كان صحيفة «فرانكفورتر زايتمونغ» التي لم تكن مراسلتها في شنغاي غير الآتسة «اغنس سيدلي» الاميركية والعميلة السرية للحزب الشيوعي للحكومة الروسية...

وبعد ان اثبت الدكتور سورج انه نازي مخلص، وصحفي معروف، انتقل الى اليابان عن طريق الولايات المتحدة، وكندا، فقد ابهر الى «يوكوهاما» ووصل اليها يوم ٦ ايلول سنة ١٩٣٣. ولم يلفت الانتظار شيء في هذا الصحفي الالماني فسمح له فوراً بمغادرة السفينة والنزول الى البر. وبعد مضي وقت قصير اختار سورج لنفسه منزلا رقم ٣٠ في حي «نغازا كاماشي» بطوكيو. وقد كان طيب السمعة لاتلدور حوله الشبهات... وما لبث سورج ان راح يمارس عمله الظاهر كصحفي. وقد تقدم الى السفارة الالمانية كما تقدم الى النادي الالماني هناك فسرعان ما وجد الترحيب الحار من الجالية الالمانية وزملائه الصحفيين.

وفي هذه الاثناء.. وبناء على طلب الجيش الاحمر، فقد شرع «الكومنتيرن» في اعادة توزيع عملاته، غير المشتبه بهم، في انحاء العالم جميعاً. وقد كان الجيش الاحمر بحاجة الى عملاء من طراز خاص في اليابان. وهكذا فقد تلقى ممثلو «الكومنتيرن» بفرنسا والولايات المتحدة اوامر عاجلة انتقلوا، على اثرها، الى طوكيو. رجال لا يعرف بعضهم بعضا على الاطلاق كما لم يسمعوا قط باسم

الدكتور رتشارد سورج، وإذا استثنينا الأشخاص الثانويين من أولئك الرجال فإنه تبقى، بعد هذا، شخصيتان رئيسيتان هما: «برانكودي فوكيلتش» و«مياغي يوتوكو» .

وقد كان سفير المانيا هو الهدف الرئيسي امام سورج. ولم يكن له من المنزل في السفارة اكثر مما لاي صحفي آخر. إلا أنه استطاع أن يتصل بأحد أعضاء مكتب الملحق العسكري الالمانى الضابط «ارجين اوط» وذلك عن طريق صداقته التي أنشأها مع زوجة هذا الموظف.

وكان «اوط» لا يحب منهج الحزب النازي، ومع ذلك فقد كان ينفذ ما يتلقاه من أوامر وتعليمات من حكومته، ولم يكن قد وصل إلى اليابان إلا في سنة ١٩٣٣، وكان أصدقائه قد أبعدوه إلى اليابان لكي لا يتم الاستغناء عنه في خلال عمليات التطهير ضد الموظفين التي شرع يقوم بها النازيون.

وكائفة ما كانت آراء «اوط» في أمور وطنه المانيا، فإنه كان يجهل كل شيء عن اليابان، وقد سره جداً أن يكتشف أن صديقه الجديد -سورج- معين لا ينضب من المعلومات والأسرار المتعلقة باليابان والسياسة اليابانية ومراميها، وقد سره أكثر من هذا أن سورج يخلص له النصح والمشورة.. ولما رفع «اوط» إلى درجة أعلى ازدادت صداقته لسورج متانة وقوة وجعلتا يلتقيان أكثر فأكثر في معظم الأحيان..

- ٦ -

وإذن فقد جعل سورج يعمل جاهداً وسريعاً لكي يكون دخوله سهلاً إلى السفارة الالمانية ويكون أقرب منزلة. وفي الوقت نفسه كان لا ينفك يكون شبكة التجسس التي يرأسها. وفي شهر تشرين الثاني انتقلت أسرة «برانكو فوكيلتش» إلى بيت جديد خاص.

وقد كان سورج في أمس الحاجة أن يُكون بعيداً عن العيون المستطلعة. وكان «برانكو» هاري تصوير متحمساً فوفر لنفسه غرفة مظلمة في بيته الجديد جعلها لتحميم الأفلام وممارسة هوايته التي أخذت عليه مشاعره.

وفي هذه الغرفة المظلمة جرت جميع عمليات إعداد الأفلام الدقيقة التي لا يرى ما فيها بالعين المجردة «الميكرو فيلم» والتي كانت تحمل المعلومات السرية الخطيرة فترسل إلى السفارة السوفيتية في شنغاي..

وفي هذه الأثناء كان «الكومنتيرن» يواصل جهوده لكي يساند سورج ويعزز مكانته، فكان الياباني «يوتوكو» المقيم في الولايات المتحدة منذ سنة ١٩١٦ هو الذي اعتبر خليقاً أن يكون مساعداً لسورج وملبياً لرغباته ومتطلباته. فأبحر من الولايات المتحدة ووصل إلى طوكيو في شهر تشرين الأول سنة ١٩٣٣.

وبهذا وصلت شبكة التجسس التي شرع سورج بتأليفها إلى تمامها.. غير أنه لم يكن أحد من أعضائها يعرف الآخرين أو يعرفه الآخرون.. وقد بدأ «يوتوكو» يتعرف على «طوكيو» ويتلمس ملامحها وقد كان قبل هذا لا يعرف عنها شيئاً قط إذ كان قد أمضى حياته كلها في الولايات المتحدة دون أن يعرف عاصمة بلاده..

وقد كانت الحلقات الرئيسية لشبكة التجسس هذه مكونة في طوكيو نفسها من رتشارد سورج رئيساً وبرايفكو دي فوليكيتش الصحفي المحاييد.. ومياجي يوتوكو المصور الفنان الهادي ومكس كلوزن خبير الارسال بالراديو.

وكان مهمهم أن يوجدوا فيما بينهم وسائل اتصال محكمة وأن يؤمنوا أسلوباً بارعاً في الاحتكاك باليابانيين بغية خلق تيار يرفدهم بالمعلومات والأسرار النافعة التي يسعون إليها... وقد كان في وسعهم الاعتماد على السفارة السوفيتية لنقل التقارير العادية إلى موسكو. أما بالنسبة إلى سورج فقد كان

الأخلق به أن يذهب إلى أبعد من هذا ويقوم بأعمال أفضل بكثير.

وقد كان انتسابه إلى الحزب النازي كافياً ليفسح له مجال دخول السفارة الألمانية والاتصال بالسفير نفسه.

وهو قد كان، يومئذ، الهر «هربرت فرن ديركسن»، وبغيره من شخصيات السفارة.. وقد كشف سورج عن مزايا وخصال شخصية في نفسه كانت كافية لكي يدعوه السفير ويدعوه سائر أصحاب المراكز المهمة في السفارة أن يزورهم ويتردد عليهم في أي وقت يشاء..

وفي أثناء هذا كله وصل الكولونيل «اوط» إلى درجة قائد، ومن مساعد للملحق العسكري إلى ملحق عسكري أصيل، ثم أصبح سفيراً.. مما أتاح لسورج أن يصل إلى أوفى وأدق المعلومات السرية الألمانية عن اليابان.. وقد كان «اوط» يعتبر الأنبياء والمعلومات التي يحملها إليه سورج والنصائح الثمينة... التي كان يخصص بها لا تقدر بثمن... وبالطبع كان المكتب الرابع في موسكو يرى الرأي نفسه في المعلومات الثمينة التي كان السفير «اوط» يطلع عليها سورج فينقلها هذا بدوره إلى موسكو دون أن يدري اوط من الأمر شيئاً.

- ٧ -

تتابع السنوات في أثر بعضها البعض، وانتهى الأمر بالسفير الألماني «أوجين اوط» إلى إطلاع سورج على أشد تقاريره سرية وكتماً، لكي يستطيع أن يلم بمضمونها ويكون الحديث بشأنها، فيما بينهما مجدداً. وهكذا لم يخف عنه شيئاً من أدق الأمور وأخطرها..

ولم يكن السفير «اوط» وحده هو الذي يثق بسورج، بل كان يثق به كل الشقة أيضاً: الملحق العسكري، وملحق الطيران، والملحق البحري وكذلك

الكولونيل «جوزيف مايسنجر» وهو من رجال «الغستابو» الألماني الرهيب.. أجل كانوا جميعاً قد أولوه ثقتهم التامة، وكانوا لا ينفكون يستشيرونه ويطلبون رأيه فيما يعرض لهم من أمور ومشاكل ومعلومات.. غير أن المستشار البحري وحده كان يبدو أنه يستريب به، لا لأنه كان قد وقع في وهمه أن سورج يعمل لحساب السوفييت، ولكن، بكل بساطة، لأنه كان لا يحبه، ولا يميل إليه.

وبالطبع كان لا بد أن تنقضي بضع سنوات قبل أن يستطيع سورج بلوغ هذه المنزلة المحارقة للعادة في السفارة الألمانية. غير أنه كان، في سنة ١٩٣٩ قد بلغ غايته. وعندما نشبت الحرب العالمية الثانية عين السفير اوط: الدكتور سورج ملحقاً صحفياً في السفارة.. ولم يتح له هذا التعيين راتباً محترماً وحسب، ولكنه أتاح له أيضاً مركزاً دبلوماسياً رسمياً له مزاياه وقيمته التي لا تخفى في مجال عمله كجاسوس سوفيتي خطير.

وكان سورج، في كل صباح تقريباً وبعد أن يكون قد كتب أنباء الصحيفة حول العمليات الحربية في الجبهة الأوروبية، يذهب لتناول طعام الفطور المتأخر عند السفير «اوط». وفي هذه الأثناء كان يطلع السفير على آخر اشاعات العاصمة اليابانية، وييسط له السفير بدوره، الوضع الدبلوماسي يوماً بيوم... ويطلعه على التعليمات التي يكون قد تسلمها ويتناقش معه في مشروعات البرقيات التي يريد أن يرسلها إلى الحكومة الألمانية. وكان سائر موظفي السفارة يحذون حذو رئيسهم السفير فيطلعون الدكتور سورج على كل شيء، وكان يفعل هذا بصورة خاصة الضابط الكولونيل «مايسنجر» مبعوث الغستابو..

وبعد توقيع الحلف الثلاثي الذي تكون منه محور: ألمانيا وإيطاليا واليابان في السابع والعشرين سنة ١٩٤٠ جعلت القيادة العامة للبحرية والجيش اليابانيين أكثر انطلاقة وأقل تقيداً في تبادل الحديث، مع أعضاء وموظفي مكنتي البحرية والعسكرية في السفارة الألمانية. وتبعاً لهذا كان الملحقان البحري والعسكري

يلوذان بسورج طالبين مشورته فيما يعرض لهما من أمور. والواقع أن سورج كان أحد الأشخاص الذين قاموا بعمل هندسي بارع لتحقيق فكرة المحور العتيد..

* * *

نعود الآن إلى الوراء قليلاً لتوضيح الأمور: كان «مياغي» الذي مر ذكره في الحلقات السابقة باعتباره أحد أفراد شبكة التجسس التي يديرها سورج قد اتخذ اسماً مستعاراً هو «مينامي ريوتشي» وقد قام بزيارة لـ «اوزاكي» وكان في سنة ١٩٣٤ يعمل مستشاراً للوزارة. وفي هذا الاجتماع قال مينامي أن أحد أصدقائه القدماء في شنغاي يرد أن يقابله وهذا الصديق القديم لم يكن غير سورج نفسه. وقد دهر مينامي الأمر بحيث تقابل الاثنان وكان مقابلتها كانت بفعل المصادفة فقط، في حدائق «تارا» اليابانية بطوكيو في أحد الأحاد. وفي هذا المكان الذي لا يخشى فيه فضول الفضوليين أفضى سورج للمستشار لوزاكي أن الروس يحتاجون إلى رجال لهم داخل الوزارة اليابانية والقصر الامبراطوري نفسه.

- ٨ -

وقد استجاب اوزاكي لما طلبه سورج واستطاع أن يؤمن خدمة عشرة من زملائه اليابانيين إما باستنخاء مشاعرهم وعواطفهم المتحازة للشيوعيين.. أو باغراء المال.. غير أنه اتخذ كل الاحتياطات الضرورية في اختيار أولئك المرشحين. وهذه الحيلة، وهذا الحذر يدلان بل ويشتان اثباتاً قاطعاً كيف أن شبكة التجسس استطاعت أن تعمل خلال سنوات طوال بكل أمان واطمئنان وأن يكون عملها الخطير ناجحاً كل النجاح إلى أبعد حد مستطاع.

وكان سورج لا يلتقي، من أفراد شبكته، بغير أربعة فقط هم: «فوكيلتش» و«اوزاكي» و«مياغي» و«ماكس كلاوزن» وقد مر نبأ ذكرهم جميعاً. وقد كان

يلتقي بهم، أكثر الأوقات، في المطاعم، والبارات، أو في مسكنه الخاص. وكان عليهم أن ينقلوا ما يسلمهم إياه من أقلام ورسائل سرية في علب سجاير تكاد تكون فارغة. وكانت لهم طريقة في تسليم هذه العلب إلى الأشخاص الموجهة إليهم: فقد كان الشخص يطلب من أحدهم سيجارة فيتاوله علية وهو يقول له: احتفظ بسجايرها لنفسك فان معي غيرها. فيأخذ الشخص العلبة ويمضي لطيبته، وهو عالم بما فيها.

وفي سنة ١٩٣٥ قام سورج برحلة إلى أوروبا، وقد اتخذت هذه الرحلة طابعاً رسمياً في الظاهر وهو أنه ذهب لمقابلة رؤسائه أصحاب صحيفة «فرانكفورت زايتونغ»، إلا أنه ذهب في الحقيقة لحضور مؤتمر «الكومنترن» في موسكو حيث يقدم لرؤسائه، هناك، تقارير ويتلقى تعليماتهم...

وقد وصل إلى نيويورك مزوداً بجواز سفره الألماني وفي نيويورك استبدل به جوازاً آخر وفيه سمة دخول الاتحاد السوفييتي. وهكذا ذهب إلى موسكو عن طريق برلين، ثم عاد إلى اليابان.

وما أن عاد إلى طوكيو حتى بادر سورج وأصدر الأوامر اللازمة لإنشاء شركة تجارية باسم «كلاوزن وشركائه». وكانت مهمة هذه الشركة أن تنتج وتبيع المكينات التي تصنع الألوان، كما تصنع مصابيح «النيون» الكهربائية. والعجيب أن أعمال هذه الشركة ازدهرت وراجت بصورة تلفت النظر.. ففي سنة ١٩٤١ استطاع كلاوزن أن يحقق أرباحاً جسيمة جعلته يحول شركته إلى شركة مساهمة برأس مال قدره مئة ألف ين من العملة اليابانية، احتفظ منها لنفسه بـ ٨٥ ألفاً. بل هو قد ذهب إلى أبعد من هذا فأنشأ فرعاً للشركة في «موكدن» خصصا له عشرين ألف ين.

والواقع أن كلاوزن وجد نفسه ثرياً إلى حد كاد معه يفقد إيمانه بالشيوعية.

ولم تصبح شركته مجرد واجهة لا يشتبه بها قط وحسب، ولكنها أضحت أيضاً مصدرًا لتغطية جميع نفقات شبكة التجسس... وقد كان يتعامل مع الخارج بيعاً وشراء... واذن فلم يكن من غير الطبيعي أن يتلقى تحاويل مالية من نيويورك، وسان فرانسيسكو، أو شنتاي...

ونحن فيما لو حاولنا أن نوجد صلة ما بين الأشخاص الذين لا يزالون أحياء وبين نشاط وفعالية الدكتور سورج في اليابان لوجب أن نذكر القراء بأسلوبه الصارم الذي كان يجوبه يتجنب الاتصال بالحزب الشيوعي الياباني وبأعضائه العاملين، كما كان ناجحاً كل النجاح في إبقاء وصيده من المال معقولاً لا مبالغة فيه. وفي حرصه الشديد أن لا يثير الشائعات من حوله حتى بين الأشخاص ذوي الاستعداد الطيب نحوه، وأن لا تكون له أية اتصالات بعملاء جواسيس السوفييت الآخرين الذين كانوا لا يعملون تحت أوامره.

- ٩ -

وقد كان سورج، بالإضافة إلى ما كان يقوم به من بث معلوماته وأسراره بالراديو، يرسل الكثير من المعلومات بواسطة أشخاص مسافرين. وكانت هذه المعلومات، بصورة عامة، عبارة عن أفلام صغيرة دقيقة لا يرى ما فيها بالعين المجردة وتحتوي على تقاريره الشخصية، كما تحتوي في أحيان أخرى على نصوص يابانية وألمانية. وقد كان هؤلاء المسافرون يرتبطون رزم الأفلام حول خيط متين يلفونه على صدورهم تحت ملابسهم. وكان من بين أولئك الأشخاص نساء أيضاً. غير أن النساء كن يجدن صعوبات أقل في اخفاء هذه المعلومات ونقلها إلى جهاتها...

وفي سنة ١٩٣٩ وقبل قليل من قطع العلاقات الاقتصادية بين اليابان والولايات المتحدة أصبح من العسير جداً الحصول على أموال عن طريق المصارف

الأمريكية، فقام سورج بإرسال رسالة بالراديو طلب فيها انشاء ارتباط مباشر باليابان بدلاً من الولايات المتحدة. وبعد أيام تلقى «كلاوزن» تعليقات تقول له: «هناك هطاقتان باسم فريتز وطاققة للعميل الأثني من روسيا». وفي الغدادة وجد في بريده هطاقتين لدخول «المسرح الامبراطوري» وقد كان واضعاً في التعليقات المرسلّة أن هطاققة مبعوث موسكو ستكون ذات رقم أدنى من الهطاقتين الأخرين اللتين أرسلتا له باسم فريتز للشمعية والشمويه. وقد ذهب كلاوزن وزوجته إلى المسرح المذكور فجعلت الزوجة في المكان ذي الرقم الأعلى، وجلس هو إلى يمينها، وفي أثناء عرض التمثيلية على المسرح مد كلاون يده إلى جاره الجالس إلى يمينه وسلمه ٢٨ رزمة من الأفلام السرية التي طبعت عليها وثائق مصدرها السفارة الألمانية بطوكيو ومقابل هذا سلمه جاره رزمة من الدولارات، بلغت خمسة آلاف دولار..

كان مجموع التكاليف لشبكة التجسس التي يرأسها الدكتور سورج ثلاثة آلاف ين في الشهر أي نحو ثلاثمائة دينار فقط، وذلك لدفع أجور عشرين عميلاً كانوا يقومون بأعمال ذات أهمية لا تنكر، وإذا كانت هذه الأجور قليلة أو لا تكاد تذكر فلأنها كانت تدفع لأشخاص يعملون جميعاً، باستثناء واحد فقط، لمصلحة معتقدهم الشيوعي لا في سبيل كسب وريح.. وقد كانت المبالغ التي يأخذونها كل شهر تغطي نفقات معيشتهم وتنقلاتهم وحسب ولا يمكن بحال أن تسمى رواتب. وهناك أوزاكي مثلاً فإنه لم يتقاض فلساً واحداً على الإطلاق لنفسه.

وليس من شك أبداً في أن المعلومات التي كان يرسلها سورج بعد تاريخ ٢٢ حزيران سنة ١٩٤١ كانت تقدر، بالنسبة للاتحاد السوفييتي، بعدد كبير من ملايين الدولارات.

كانت سنة ١٩٤١ هي أكثر سنوات سورج عملاً وتجارب واختبارات. وهو

بعد أن أرسل تقارير عديدة ذات طابع عام قام بتاريخ ٢٠ ايار بارسال رسالة عاجلة محذراً فيها بأن الجيش الالمانى قد ركز ما بين ١٧٠ و ١٩٠ فرقة على طول الحدود السوفييتية وأن هذه الفرق الهائلة ستبدأ هجومها في العشرين من شهر حزيران في الجبهة كلها، وسيكون الجهد المبذول بصورة خاصة مركزاً في اتجاه موسكو، والواقع اننا نذكر أن الهجوم وقع يوم ٢٢ حزيران.

ومن الواضح أن جهود سورج التحيت بعد ذلك إلى اكتشاف نوايا اليابان وامكان هجوم يقومون به من الشرق. ولقد كانت ظواهر السياسة اليابانية جميعاً، والعلاقات اليابانية الأميركية، والحرب في الصين، والساسة الداخلية، هذه كلها كانت خاضعة لهذه المسألة الأساسية...

- ١٠ -

في اليوم الثاني من شهر تموز، وعلى اثر انتهاء اجتماع المجلس الاستشاري الامبراطوري، قام سورج على الفور بكتابة تقرير عن القرار الذي اتخذته الحكومة اليابانية والذي، بموجبه، ستتقدم القوات اليابانية فتدخل الهند الصينية وتستولي على القوات الاستراتيجية فيها، وقد نص هذا القرار على أنه في الوقت الذي تحترم فيه اليابان معاهدة الحياد مع الاتحاد السوفياتي فان التعبئة العامة للقوات اليابانية ستتم، بمرسوم تنفيذي، في حالة احتمال وقوع حرب روسية يابانية.

وفي يوم ١٥ تشرين الأول أرسل سورج إلى روسيا معلوماته المختامية التي بموجبها قد قررت اليابان أن تبدأ هجومها على الهند الصينية من الجنوب، واذن فلم يكن ثمة خوف جدي من هجوم جيش (كوانتانغ) على سيبيريا.

وقد وجد الدكتور سورج أن مهمته في اليابان، قد تمت فأعد برقية طلب فيها أن يبادر الاتحاد السوفياتي إلى استدعائه دون امهال لكي يغادر اليابان.

غير أن «كلاوزن» لفت نظره إلى أن طلبه سابق لأوانه، وأنه يحسن الانتظار، وليس ثمة ما يدعو إلى مغادرة اليابان بمثل هذه السرعة. ولذلك فإن البرقية التي أعدها لم ترسل إلى روسيا على الإطلاق. ولكن لم تَمُضِ ثلاثة أيام على ذلك حتى أُلقي القبض على سورج وكلاوزن معاً..

* * *

لم يكن أمر اكتشاف سورج وشبكته بسبب خطأ وقع منه أو من زميله كلاوزن، فانهما ما ارتكبا أي خطأ على الإطلاق منذ بداية عملها حتى اللحظة التي أوقفا فيها، ولم يستطع أن يشبّه بهما أحد قط، والذي حدث أن المدعو «ايتورييتسو»، وهو عميل شيوعي، هو الذي خانهما وغدر بهما، مدفوعاً إلى هذا بآلام بدينية مبرحة وبالفيرة وحسب، وهو لم يكن ليدرك قط ما كان موشكاً أن يفعله..

وقد كان «ايتو» هذا في التاسعة والعشرين من عمره، وقد أوقف في شهر حزيران سنة ١٩٤١ بتهمة القيام بنشاط شيوعي، وقد قام باستجوابه رجال التحري التابعون لمكتب بوليس العاصمة طوكيو، ونتيجة هذا الاستجواب أدلى ايتو باعترافات كاملة، وأقر بأنه أخطأ إذ انضم إلى الشيوعيين ثم وشى بآخرين من الشيوعيين.

كان توقيف سورج مفاجأة كبرى لأصدقائه وللمسفير الألماني «اوط»، ولجوزيف ماينستجر، عضو الفستاهو في السفارة الألمانية، وقد حسبوا، في الحال، أن اليابانيين قد ارتكبوا، بحق سورج، إحدى غلطاتهم الكبرى التي لا يحسن أحد غيرهم ارتكابها... وبذل أصدقاء سورج كل ما في وسعهم من جهود لكي يطلق اليابانيون سراحه... غير أن البوليس الياباني لم يصغ إلى شيء من هذا على الإطلاق - وكان رجال البوليس مقتنعين تماماً أنهم يمسكون في قبضتهم أكبر

زعيمين لأخطر شبكة تجسس لم يكتشف مثلها في اليابان حتى ذلك اليوم.

- ١١ -

ومع ذلك فقد ظل في الأذهان سؤال خطير شغل أذهان اصداقاء سورج في السفارة الألمانية وهو: ماذا لو صح، على سبيل الافتراض والمصادقات البعيدة ان سورج «النازي» المخلص هو في الواقع جاسوس سوفيتي؟ وماذا سيحدث لأكبر شخصيتين في السفارة، وهما السفير اوط ورجل الغستابو جوزف ماينسجر اللذان وضعاً في سورج ثقتهم التامة المطلقة حقبة طويلة من الزمن؟

على الرغم من ان رئيس وزراء اليابان قد اصر مستحثاً البوليس على سرعة العمل في قضية سورج وكلاوزن فان البوليس الياباني لم ير أن ثمة أي داع للاستعجال، لا سيما وأن عدداً كبيراً من السجناء الذين ألقى القبض عليهم قد أدلوا باعترافات ذات فائدة كبرى مكنتهم، دون أية صعوبة تذكر، من إعادة تنظيم تفاصيل القضية ومعرفة المذنبين من الأبرياء.

بعد أن أقام رجال البوليس اليابانيون الدليل القاطع على صحة آرائهم، وجدوا من الضروري أن يذهبوا في تحقيقهم وأبحاثهم وتحرياتهم إلى أبعد من هنا، وهم إذا لم يكتفوا أن يعرفوا كيف كانت تعمل وتدار شبكة التجسس وأية معلومات استطاعت أن تحصل عليها وتوصلها إلى مراجعها فقد أرادوا أيضاً أن يعرفوا الدوافع التي تكمن وراء أولئك الجواسيس، والحوافز التي كانوا يعملون في سبيلها، وبصورة خاصة ما يتعلق بـ «اوزاكي هازومي» الذي أطلقوا عليه اسم «الحائن الياباني»..

وفي أول الأمر حاول سورج أن لا يفضي بشيء على الإطلاق، وقد أخذ يزدرى أشد الزدراء زميله كلاوزن الذي أدلى باعترافات كثيرة. ولكن سورج ما لبث، هو نفسه، أن سار في دروب الاعتراف بعد مضي خمسة أشهر عليه

في السجن، وقد بدا أنه أخذ يروح بما في صدره من تلقاء نفسه.

وفي النهاية أصدر الحكم على «كلارون» بالسجن المؤبد مدى الحياة، وقد نجا من الاعداء لأنه، فيما يبدو، قد تنكر لمبادئه من ناحية، ومن ناحية أخرى لأنه أدلى باعترافات كاملة بدافع تلقائي ودون اكراه أو ضغط، أما زوجته «آنا» فقد صدر عليها الحكم بالسجن ثلاثة أشهر فقط لأن المحكمة اعتبرت انها كانت تمارس التجمس بالقوة ومكرهة على أمرها.. وقد ظلت تنتظر خروج زوجها من السجن، وبالفعل فقد أطلق سراحه من سجن «اكييتا» يوم ٩ تشرين الأول سنة ١٩٤٥ بأمر من الجيش الأميركي على أثر هزيمة اليابان في الحرب.

أما «اوزاكي هازولي» الياباني فانه ما ساورته خشية ما من عواقب الخيانة، وقد كان في ذهنه دائماً أنه إذا ما اكتشف أمره فلن يخشى الموت قط.

وفي شهر ايلول سنة ١٩٤٣ أصدرت محكمة طوكيو أحكامها. وقد استأنف سروج اوزاكي إلى محكمة البلاط العليا والقريب أنهما قد تعللا، في هذا الاستئناف، بأنهما لم يقوما قط بأي عمل غير شرعي... وذكر أنهما لم يستعملا العنف، على الإطلاق، للحصول على المعلومات، وأنهما اكتفيا بأن يرسلتا إلى موسكو بمعلومات متاحة وفي متناول أي رجل ذكي. أما سروج فقد أوجز دفاعه عن نفسه بما يلي.

- ١٢ -

أوجز سروج دفاعه عن نفسه فكتب يقول:

تلقيت معلومات من السفارة الألمانية. وأرى أن القليل جداً من هذه المعلومات كان يعد من أسرار الدولة، وهي قد أعطيت لي عن طيب خاطر ولم أستخدم العنف أو الاحتيال أو القوة قط للحصول على هاتيك المعلومات. وقد كان

السفير «اوط» والكولونيل «سكول» يسألاني أن نساعدهما في كتابة برقياتهما، وعلى الأخص «سكول» الذي كان يشق بي ثقة كبرى فيطعنني على جميع تقاريره قبل ارسالها إلى ألمانيا.

أما أنا فقد كنت أضع ثقتي التامة كلها في هذه المعلومات التي كان يأتي بها خبراء ثقات عالمون ببواطن الأمور ويعملون متحمسين للقيادة الألمانية العليا، وكنت أنا أحسب أن هذه المعلومات كانت الحكومة اليابانية نفسها تتيح لها أن تنتقل إلى السفارة الألمانية لكي تنسرب إلى الخارج بناء على خطة خفية رستها الحكومة اليابانية للايهام والتمويه.. وقد كان اوزاكي هازولي يقع في يده الكثير من هذه المعلومات من جماعة كانت تطلق على نفسها اسم «جماعة فطور الصباح»، غير أن هذه الجماعة لم تكن ذات طابع رسمي. ولا شك في أن الأمور والقضايا التي كانت تدور حولها أحداث هذه الجماعة كانت أموراً وقضايا يدور حولها الحديث، بين جماعات أخرى مماثلة تكثر في طوكيو. فهي إذن ليست بأسرار محاطة بالكتمان.. وحتى المعلومات التي كان اوزاكي يعتبرها ذات قيمة عليا كانت في الواقع قد فقدت الكثير من أهميتها ما دام كان يستقيها بصورة غير مباشرة بعد أن تكون قد خرجت من مصادرها الرسمية..

هذا كان مرجز دفاع سورج عن نفسه، غير أن هذا المنطق الذي أضفاه سورج على دفاعه لم يكن له أي تأثير على محكمة البلاط العليا، فأهملته، بل استخفت به، وسارعت إلى التصديق على الحكم بالاعدام الذي أصدرته محكمة طوكيو على سورج في شهر كانون الأول، وعلى اوزاكي في شهر نيسان من سنة ١٩٤٤.

وربما كان مما يدعو إلى الاهتمام، وربما يشير الدهشة، فيما يتعلق بأسلوب المحاكمات المدنية الباقية، أن نلاحظ أنه فيما كانت اليابان تخوض حرباً عاتية لا رحمة فيها كان أخطر من وقع في أيدي اليابانيين من جواسيس على الإطلاق

يتمتعون بكل أنواع وضروب الحماية التي وفرها لهم القانون الياباني...

وانه ليببدو مدعشاً كذلك أن اثنين فقط، من بين عشرين رجلاً وامرأة من الجواسيس، قد حكم عليهما بالاعدام في حين أن الحكم بالاعدام، بموجب القوانين اليابانية، كان يجب أن يشملهم جميعاً.

وقد أعدم سورج واوزاكي في اليوم السابع من شهر تشرين الثاني سنة ١٩٤٤ . هذا ما يقال عن نهاية الدكتور وتشارد سورج الألماني، النازي، الشيوعي وأحد أساتذة التجسس السوفييتي.

ولكن.. أجل.. ولكن هل أعدم سورج حقاً؟ وهل هو، رغم كل ما تقدم، ورغم المحاكمات، وإصدار الأحكام، ما يزال حياً يرزق... هذا ما ستقرأه في حلقة الغد، وهي الحلقة الأخيرة من هذه السلسلة.

- ١٣ -

ما يزال موضوع بقا، الدكتور وتشارد سورج على قيد الحياة قائماً إلى اليوم ومدار تكهنات كثيرة وثمة ما يروى بقوة ومفاده أن سورج ما يزال إلى اليوم يعمل لحساب «المكتب الرابع» السوفييتي. ومن وقت إلى الآخر تنشر صحف أوروبا حوادث ووقائع تذهل من يعتقدون أن سورج قد أعدم ومات. واليك ما كتبه الصحيفة الفرنسية اليومية المعروفة باسم «باري-برس» على أثر ظهور إعلان عن فيلم سينمائي حول سورج:

قرر المخرج «ايف شيامبي» منذ سنة، وعلى أثر تلقيه رسالة من زوجته أنهاته فيها بسلسلة مقالات ظهرت في اليابان حول قضية «سورج»، قرر اخراج فيلم سينمائي عن حياة أكبر جاسوس سوفييتي عرفه العصر الحديث. وبفضل «هول كانتان» التقى بـ «هانس أوتومايسنر» وهو صديق قديم لسورج ومؤلف

قصة بوليسية اسمها «رجل طوكيو»، وهي أقرب ما تكون من قصة حياة سورج الحقيقية. وما لبث، بعد هذا، أن قام بتحريات وتحقيقات لدى جميع الأشخاص الذين لا يزالون على قيد الحياة ممن عرفوا سورج أو احتكوا به. وهؤلاء الأشخاص دون استثناء، أبدوا شكهم العميق في وفاة الجاسوس السوفييتي المخطير. ولكن لماذا تراهم أبدوا شكوكهم هذه؟ إليك ما يقدمونه من حجج وبراهين:

في صباح يوم الاعدام احتجز جميع المساجين في زنزاناتهم، وقد غلقت الأبواب والمعابر والمخارج كلها، وفيما عدا النائب العام ممثل الأمير «كونوي»، وحاكم السجن، والجلادين الثلاثة المقتنعين لم يكن ثمة أحد من الشهود، وأذن فقد كان التقرير عن تنفيذ الاعدام تقريراً رسمياً وحسب. وقد ارفقت فيه تفاصيل يبدو أنها ملفقة لم يستعمل مثلها من قبل. والواقع أن ما من أحد يستطيع أن يقول أنه شاهد سورج.

ثم هناك «انيكو» المعروفة باسم «اغنيس» - وهي قد ذكرت كصديقة في سياق هذه السلسلة - كانت في ذلك العهد من فتيات الجيشا في «رينغولد» وعاشت متصلة عن كذب بسورج من سنة ١٩٣٩ إلى سنة ١٩٤٤، وقد حاولت خلال عدة سنوات أن تجد دليلاً واحداً على موت سورج، وهي لا تزال، إلى اليوم، تعيش في طوكيو في «بانسيون» أحد العائلات، انها الشخص الوحيد الذي فعل له سورج شيئاً ما، ذلك أنه ترك لها خمسة آلاف من العملة اليابانية قبل توقيفه والقاء القبض عليه، وبعد انقضاء سنوات عديدة من البحث والاستقصاء لدى السلطات اليابانية وموظفي السجن والمقبرة فقد استطاعت أن تحصل من حارس عجوز للمقبرة على «ابزيم» حزام، وحذاء، وسن من ذهب زعم أنها وجدت في القبر المشترك للذين أعدموا، ولكن سورج واوزاكي قيل أنهما اعدما بعد تجريدتهما من حزاميهما وحذاءيهما جميعاً...

وهناك قصة أخرى معروفة غير هذه. وهي أن السيدة «كلايا غاشي دونغان»

وهي امرأة من أصل ياباني ارلاندي وقد كانت من أسباب سقوط سورج. كانت ذات ليلة من سنة ١٩٦٦ موجودة في إحدى علب الليل بشنغاي، وفيما كانت تغني على مسرح ذلك الملهى توقفت في وسط أغنيتها وقد استولى عليها ذعر شديد وصرخت تقول: «لقد رأيته... انه هنا...» ثم اندفعت خارجة من المسرح، ولم تمض بضعة لحظات بعد ذلك حتى وجدت هذه السيدة مقتولة على باب الملهى برصاصة مدس...

وفي هذه الحقبة نفسها أكد دبلوماسي سياسي فرنسي وصديق للصحفي الايطالي «توليدانو» الذي واكب عن كثب قضية سورج، أكد أنه رأى الدكتور رتشارد سورج في منطقة شنغاي...

وقصة ثالثة غريبة أيضاً: فهناك السيدة الالمانية «هيد ماسنخ» التي اتصلت بسورج اتصالاً وثيقاً في اليابان يوم كانت هذه السيدة شيوعية، ثم انقلبت على الشيوعية انقلاباً مشهوداً. وغدت من ثم من أتباع حزب المستشار الالمانى «اديناور»، وكانت كذلك من شهود الاثبات في قضية «مكارثي»، قالت في مدينة «ميونيخ» حيث تقيم الآن: «اننا لم نستطع إلى الآن، أن نقول أي شيء عن حقيقة سورج. واليوم ربما قد حان الوقت لنقول هذه الحقيقة. لو سمح لنا بذلك».

والمعروف أن المخرجين «ايف شيامبي» و«راؤول ليفي» مهتمان بحياة رتشارد سورج. غير أن التنافس قد انتهى الآن بين المخرجين السينمائيين، فقد استقر الرأي على أن يقوم راؤول، إذا استطاع، بإخراج فيلمه عن حياة سورج، أما فيلم المخرج شيامبي فيبدأ بعد وفاة سورج المزعومة فيروي التحقيقات التي قام بها أحد الصحفيين حول هذه القضية المثيرة.

سجين في السفارة!

كان هنا في أحد أمسيات الخريف، بلندن . وكان المطر مختلطاً بالضباب في ذلك المساء المكفهر من شهر تشرين الاول سنة ١٨٩٦، حينما هبط من القطار في محطة « اوسطون » شاب صيني . وقد أتت به، قبل هذا بوضع ساعات، من مرقاً « ليفربول » الباخرة « ماجستيك »:

وفي اثناء الرحلة الطويلة، بين نيويورك وليفربول، تبدى الشاب الصيني بمظهر المسافرين الصامت، المتحفظ، المسترسل دائماً مع افكاره .

لم يكن هذا الشاب المجهول قد تجاوز العشرين من عمره بعد . وكانت الحلة التي يرتديها جيدة التفصيل، وكان شعره مقصوصاً، ويبدو عليه الخزم والعزم، ويزين شفته العليا شارب صغير . وعلى الرغم من شبابه وحداثة سنه فان هذا المسافر كان قد انساق في عدة مغامرات خطيرة ، ثم ارتحل كثيراً حول العالم، وفي النهاية وبعد ان تعرض لقضب امبراطوره ونقمته، اضطر ان يفر من وطنه . وها هو الان قد قدم الى لندن يطلب فيها ملجأً وملاذاً . وكان يتراعى له انه سيجد في العاصمة البريطانية الامن والهدوء .

ولما خرج هذا الشاب من المحطة استدعى عربة وطلب من المحوذي ان يذهب به الى فندق يقع في حي « ستراند » وقد استقبل في هذا الفندق استقبالاً حسناً وحل في غرفة بدیعة بعثت السرور والبهجة في نفسه .

ولما انتهى من فتح حقائبه، ورتب ملابسه في أماكنها من خزانة الملابس قرر، على الفور، أن يزور صديقاً عجزواً له، هو استاذة القديم الدكتور « جيمس كانتلي » الذي كان عميد نقابة الأطباء في « هونغ كونغ » وقد استقبل الطبيب وزوجته زائرهما الشاب بحرارة ومودة ظاهرتين . وكان في صدور هؤلاء الأشخاص الثلاثة الكثير مما يودون أن يفضوا به في حديثهم .. فسأل الطبيب عن أخبار زملائه وأصدقائه الصينيين الذين تركهم في « هونغ كونغ » . وأسف أنه لم يلق منهم أية رسائل . وقال الشاب أن معظم أولئك الأصدقاء القدماء قد تعرضوا، هم أيضاً، إلى غضب ونقمة الامبراطور . ثم أضاف قائلاً :- ومع ذلك فقد قررت، دون تردد، أن أزور السفارة الصينية وأقدم نفسي للمسؤولين فيها .. حتى لو كان ذلك من قبيل المجاملة...

وما أن نطق الشاب الصيني بهذه العبارة حتى أكفهر وجه الدكتور « كانتلي » وبأدلة قاطعة:

- حذار أن تذهب إلى السفارة المذكورة ... ولست انصح لك حتى بالاقتراب منها أو السير في الأحياء القريبة منها ... فانك إن فعلت هذا اختطفوك وإعادوك إلى الصين .

ومرت الأيام واستطاع الطالب الشاب أن يتكيف مع الحياة الانكليزية وكان يتحدث بلمغة الانكليز كأنه قد ولد في لندن نفسها . وكانت قيافته، وملابسه، وحركاته تبدو وكأنها بريطانية تماماً ... واستطاع في هذه الأثناء أن يعقد صلات صداقة مع كثير من الأشخاص . وقد قدم له الدكتور « هنري مانسون » هو الآخر وكان قد سبقت له معرفته في هونغ كونغ، النصيحة نفسها التي قدمها له الدكتور كانتلي، وقال له:

- إياك أن تقترب من السفارة الصينية ..

غير ان الشاب الصيني لم ياخذ هذا التحذير مأخذ الجد... ثم ان الصين، بعد كل شيء، بعيدة... بعيدة... حتى ليحسبها المرء تقع في آخر الدنيا... ومهما يكن من غضب الامبراطور، وبالفة ما بلغت نغمته، فهو ايضا بعيد جداً... وان المرء ليحس بالامن حقاً في لندن، هذه المدينة الطيبة.

وبعد مضي اسبوع من وصول هذا الشاب الى لندن، فقد ترك فندقه واستقر في شقة جميلة تقع في «غريز اين رود» وكان قد تم انتقاله الى هذه الشقة في يوم سبت. وفي الغداة، اي في يوم الاحد، غادر مسكنه، وذهب يضرب في ارجاء الشارع المعروف بـ «ديفوتشير ستريت» وكان يسير متمهلاً، متشد الخبطو، على غير عجل من امره. وكان في الواقع على موعد مع افراد اسرة «كانتلي» لكي يذهب معهم الى الكنيسة.

غير ان الشاب الصيني داخله احساس غامض غريب عندما اقترب من «اكسفورد سيركوس»، وبدا له كأنه قد اصبح، بالضبط، على بعد خطوات من ساحة «بورتلاند» حيث تقع السفارة الصينية بالذات... .

وتوقف الشاب المنفي، وتلفت من حوله، فشاهد أحد مواطنيه، وهو رجل متوسط السن، ويرتدي ملابس ذوي المناصب العليا في الصين... وابتمسم له الرجل وسأله متأدباً:

- هل استطيع ان اسألك في اية منطقة من الصين ولدت؟

واجابه الشاب دون تردد:

- في «كانتون»...

فبدأ السرور على وجه الرجل ذي الملابس التي تدل على رفعة منصبه وقال
وهو ما يزال يبتسم للشاب:

- نحن اذن من منطقة واحدة... اولاد بلد.... فأنا ايضا من كانتون...

وسار الرجلان معا، جنباً الى جنب، وهما يتجاذبان اطراف الحديث... وما ان
وصلا الى شارع «غافنديش ستريت» حتى ظهر بغتة رجل يرتدي كذلك ثياب
اصحاب المناصب الصينية العالية...

ويهدوء، وكأن الامر طبيعي جداً ولا غبار عليه اطلاقاً، سار الصيني الجديد
الى يسار الشاب واشترك في الحديث هذا الرجل.

وفي هذه الاثناء تحدث هذا الرجل، وعمد الى ارق عبارات المجاملة والادب
فاستعملها في دعوة مواطنيه الاثنتين الى شرب الشاي في بيته... غير ان الشاب
اجاب قائلاً:

- يؤسفني جداً أن لا استطيع تلبية هذه الدعوة الكريمة، فانا على موعد مع
الاصدقاء... ويجب ان نذهب الى الكنيسة معا... فليكن شرب الشاي، اذن، في
موعد آخر.

وعلى حين غرة ظهر صيني ثالث... كان رجلاً عملاقاً، ضخماً الجثة، وحشي
السمات، لا ينم وجهه عما في صدره... وعندئذ تخلى الموظفان الصينيان
الكبيران عن مهزلة تأديهما الزائف، وتعاون ثلاثتهم فأمسكوا بفريستهم الشاب
من تحت ابطيه، وارغموه ان يستدير حول ركن البيت. انه امام نهاية السفارة
الصينية.

وانفتح باب، فدفع الصينيون الثلاثة بالشاب الى داخل السفارة... وكان هو، ما يزال لم يدرك بعد ما حدث له... فقد وقع كل شيء بسرعة خارقة وفي وضع النهار... يوم أحد لندني هادي... يمكن، اذن، ان تقوم دوائر الاستخبارات الصينية السرية، من الطرف البعيد الاخر من الدنيا، بترصد خطاه، واقتفاء اثره، ومطاردته ثم الاستيلاء عليه هكنا في قلب مدينة لندن؟

وشرع رجلان صينيان يفتشانه بدقة متناهية، فجرداه من اوراقه، ونقوده وساعته. ثم صعدا به الى احدى الغرف... ولم يستطع الشاب من خلال النوافذ المحاطة بشبكة من قضبان الحديد المشبك ان يشاهد غير الاسطحة المجاورة، وغير المداخل، والضباب. والدخان الكثيف المعقود فوق المنازل.

استولى الذهول على الشاب الأسير... ولم يسعه الا ان يبدي اعجابه- فيما بينه وبين نفسه- بالسرعة، والبساطة اللتين تمت بهما عملية اختطافه... وفتح عليه الباب فجأة، ودخل الغرفة الصغيرة رجل انكليزي... ولم يعلم الشاب الا فيما بعد بوقت طويل جداً، ان هذا الزائر هو السير «هاليداي ماكرتني» احد رجال القانون... وانه يعمل مستشاراً حقوقياً للسفارة.

وشرع المستشار الحقوقي يتحدث الى الشاب ثم قال له:

- يا بني... انك الان موجود في ارض صينية... ولو كانت هذه الارض في لندن نفسها... فمن اية وجهة نظر جئت الموضوع فانت في الصين ذاتها... تحت طائلة القوانين الصينية... فهل استطيع ان اعرف اسمك؟

فذكر له الشاب اسمه... .

فابتسم البريطاني وقال بهدوء:

- او لحسب ان معلوماتنا غير صحيحة؟ ان اسمك الحقيقي هو: «صن وان»... .

والواقع ان الشاب كان قد وقع بهذا الاسم عدة طلبات واستدعاءات في طلب
الاصلاح السياسي في الصين... .

وعاد الرجل الاتكليزي يقول متابعاً حديثه:

- يجب ان لا نضيع وقتنا يا بني... فنحن على اطلاع تام بصورة خاصة
فيما يتعلق باعمالك، وحركاتك، وسكناتك... ولقد وصلتنا المعلومات من
نيويورك بأنك قد ركبت الباخرة «ماجستيك» قادماً الى ليفربول... ومن الصين
تلقينا الاوامر بالقبض عليك... وقال الشاب مستغرباً:

- وما هي الجريمة التي كان لا بدّ من القاء القبض علي بسببها؟

واجاب المستشار الانكليزي:

- انت تعلم هذا تمام العلم... فقد اغضبت الامبراطور كما اغضبت
الحكومة...

وبدا للشاب غريباً كل الغرابة ان يسمع هذا الرجل الذي يبدو اوروبياً مغرقاً
في «اوروبيته» يتحدث كما يمكن ان يتحدث اكثر الشرقيين تعصباً..

والواقع ان هذا المحامي الذرب اللسان كان مخلصاً أشد ما يكون الاخلاص
لسادته... .

وعاد المحامي الاتكليزي يقول:

اننا نحمد انفسنا مضطرين ان نستبقيك سجيناً هنا ، الى ان يطلعنا الامبراطور
على نواياه نحوك

-٤-

لم يجد الشاب السجين اية صعوبة في تصور ما يمكن ان تكون عليه نوايا
الامبراطور .. بل هو سرعان ما رأى بعين خياله السيف والنطع والجلاد في
انتظاره ..

وقالك نفسه وسأل رجل القانون الانكليزي:

- هل استطيع اعلام اصدقائي الانكليز بوجودي في هذه السفارة ؟ واجابه
المحامي الانكليزي بكل هدوء:

- يستحيل .. هذا غير وارد اطلاقاً .. وانما انت ستكتب رسالة الى صاحب
مسكنك امليها انا عليك وتخطره فيها انك لم تعد بحاجة الى الشقة التي
استأجرتها .. وتقول له فيها ايضاً ان يسلم حقائبك الى من يحمل رسالتك اليه .

وأطاع الشاب السجين ، ونفذ ما اراده منه ، وبعد هذا تركه السير « هالينداي
« وخلق بينه وبين افكاره وشتى تصوراته ..

وقد شرع الصيني الشاب بكتابة يومياته في اثناء مدة سجنه . وقد وصف
فيها مشاعره بعد اختطافه وسجنه فكتب ما يلي:

« لقد ادركت للوهلة الاولى ان القائمين على سجنني كانوا يرجون ان يجدوا
في اوراقي ما يرشدهم الى اصدقائي او شركائي ... »

وما انقضت ساعة حتى تأدى الى مسمعه طرق عنيف انتفض له بدنه .. ثم

تبين له انهم اخلوا يركبون قفلا ثانيا في باب حجرته الضيقة .. ثم اتخذ اثنان من الحرس مركزهما في الرواق الذي تقع فيه الحجرة المذكورة ولما سمعهما يتحدثان بلهجة سكان « كانتون » الصينية ناداهما .. غير انهما رفضا ان يجيباه .. وانما بادرا الى دخول سجنه وراحا يفتشانه . هو من جديد . وفي هذه المرة جرداه من مفاتيحه التي كان يحملها ، واخذ منه سكيناً صغيره كان يضعها في جيبه .

ولما اقبل المساء سأله حارساه اذا كان يرغب في تناول الطعام، فطلب كوباً من الخليب .

وفي تمام الساعة السابعة فتح عليه باب غرفته ودخل منه خادمان انكليزيان ... وشرعا في ترتيب الغرفة، ووضعوا قطعاً من الفحم في موقد النار ... ولا بد انهما تلقيا أوامر جد مشددة، ودليل ذلك انهما قاما بعملها وكأن الشاب الحبيس غير موجود او غير مرئي ...

وانقضى معظم الليل، ولما لاح الفجر كان الشاب قد شحِب وجهه، ونال منه الاعياء ... ومع ذلك فقد كان ذهنه أكثر صفاء من اي وقت آخر ... وكان قد استقر عزمه على الهرب .. واذا دعت الضرورة فانه سيحاول ان يرشو حراسه .. ولكن ينبغي له، قبل كل شيء، ان لا يضيع دقيقة من الوقت تذهب سدى .. ولقد سبق وحذره صديقه الاتكليزي الدكتور « كانتلى » وصديقه الاخر الدكتور « هنري مانسون » من الخطر الكامن في اقترابه من السفارة الصينية .. وقال في نفسه : « انهما اذا استبان لهما انني اختفيت فلا شك في انهما سيبادران الى العمل لتخليصي واطلاق سراحي .. »

-٥-

في صبيحة هذا اليوم كان اول من زاره ودخل غرفته الرجل الصيني العجوز

الذي كان اول من عمل على اختطافه ساعة ان اقترب منه وهو في الشارع . وقد زعم هذا الرجل ان اسمه « تانغ » وهو يعمل سكرتيراً في السفارة ..

وقال تانغ :

- أنا آت لحدثك باعتباري صديقاً لك .. فلماذا لا تعترف انك « صن وان » ؟ ان انكارك لا معنى له على الاطلاق .. والامبراطور لا يجهل شيئاً من حركاتك وفعالياتك .. وانا لو كنت مكانك لسترني ان تتاح لي الفرصة لأموت ميتة الابطال في سبيل افكاري ومبادئني .. وسأله الشاب السجين : ولكن ما الذي يجعلك تعتقد انني سأموت؟ ثم انني لست بعد في الصين .. وما تزال في بلاد الانكليز حتى الان .. وانك لترا بلد حر .. ويدهي انكم تستطيعون قتلي هنا في السفارة، الا انكم ستجدون مشقة اي مشقة في اخفاء جرميكم .. ولست اعتقد انكم ترومون ان تواجهوا المصاعب الجمّة مع السلطات البريطانية ...

واجاب تانغ بخبت ثعلبي :

- لقد سبق وقلت لك اننا سنرسلك الى الصين ... وبالطبع لا احسب انك تتصور اننا سنطلب من السلطات البريطانية تسليمك الى الجهة الشرعية التي تطالب بك ... فهذه حماقة ما بعدها حماقة ... وانما سنعمل على تخديرك ونقلك بعد هذا من لندن الى « سائمتون » ... وهناك توضع في مكان على ظهر سفينة شحن ... وقبل ان تصل هذه الباخرة الى هونغ كونغ فستعرضها سفينة صغيرة مزودة بالمدايع والاسلحة المدمرة ... فتتولى هي الذهاب بك الى « كانتون » ... حيث سيتم اعدامك ...

وقال السجين الشاب :

- وسيكون هذا . بلا محاكمةبالطبع .. فأجابه العجوز « تانغ » دون ان

يبدو عليه أثر للغضب :

- سيتم كل شيء حسب الاصول .. ونحن لسنا براهرة .. فمستحاكم اولاً ..
ويقطع رأسك بعد ذلك .

وعاد الشاب يسأله :

وعلى ظهر الباخرة .. هل تعتقد أن ضباطها وبعارثتها .. لن يداخلهم شك .. ولن يلحظوا وجودي ؟

غير ان العجوز تانغ لم يبد عليه اي انفعال، بل قال في هدوء مخيف :

- لم ندع شيئاً الا وفكرنا فيه .. ويحسن ان تعلم ان اصحاب تلك السفينة
اصداقاً لمستشار السير « هاليداي » .. ومصالحتهم التجارية مع الصين اعظم
من ان يدسوا انوفهم في امورنا ..

ووجد السجين الشاب في هذا الحديث فائدة كبرى له .. فقد اتضح له اكثر
فأكثر ما يعدونه له .. وما هو المصير الذي ينتظره ... واذن فان امامه فرصاً
كثيرة يجب ان لا يدعها تمر دون ان يستغلها ويدير امر فراره .. ومن كثير ما
استطاع ان يعلمه ان الباخرة التي ستقله .. تابعة لشركة الخطوط البحرية « غلين
لاين » .. وفهم ايضا ان رحلة الباخرة ستكون في خلال الاسبوع المقبل .

وكان الوقت يمر سريعاً ... والشاب السجين يزداد قنوطاً ... وقد حاول
عشياً ان يرش حرامه ... ثم القى من النافذة قصاصات من الورق تتضمن
صيحات الاستغاثة وطلب النجدة ... غير انه رأى قصاصاته تلك تحملها الريح
وتتطاير بها فوق الأسطحة او تدسها في ميازيب المياه ...

خطر للشاب السجين ان يكتب رسالة ويلفها حول قطعة معدنية ويلقي بها الى الشارع... ونفذ فكرته في محاولات ثلاث، فسقطت القطعة المعدنية الاولى، ومعها الرسالة، في حديقة بيت مجاور، والاخرى فوق احد الاسطحة، اما الثالثة فقد وصلت الى الشارع فعلا، غير ان بواب السفارة كان هو الذي التقطها.

وفي الغداة دخل الخدم غرفة السجين وقاموا بتسمير الالواح فوق النافذة... وهكذا وجد الشاب نفسه غارقاً في لجة من الظلام.

وقد كان هذا الشاب مسيحياً فوجد في الاستغراق في الصلاة عزاء وسلوى، وراح يتفق الساعات الطوال مصلياً وداعياً ربه... لقد كان حسه هو الذي يخيل اليه انها ساعات... ولكن الحقيقة فانه لم يكن ليدرك شيئاً، اذ انه كان يعيش في ظلام دامس... لا ينيره غير بصيص من النار الموقدة.



هذا الوضع الرهيب جعله يدرك انه لم يبق له غير فرصة واحدة لا غير، وهي ان يحاول إلاتة قلب الخادم الاتكليزي المكلف بتنظيف غرفته وترتيبها وإيقاد النار... وكان اسم هذا الخادم «ادوارد كول»، وكان يقوم بحمله وكأنه إنسان آلي... ولم يحاول قط ان يتحدث الى السجين... بل كان يبدو عليه انه لا يراه...

وذات صباح وجه الشاب الصيني الحديث الى كوال هذا فقال له:

- هل ترفض ان تساعدني يا سيدي؟ وفي سنة ١٨٩٦ لم يكن احد يحدث خادماً ويقول له «يا سيدي»... وقد دهش ادوارد كول وهتغ... وحدق النظر في السجين كأنه يراه لأول مرة في حياته... فقال هامساً:

- من انت؟...، ماذا تريد؟... فقال الشاب :

- انا لاجئ سياسي . وقد جئت الى انكلترا لكي اضع نفسي تحت حماية حكومتك ... وانا مسيحي مثلك .

ولاني مسيحي فان الامبراطور يريد ان يقتلني ... وكذلك فاني أنتمي الى من يريدون أن يجعلوا من الصين بلداً حراً كانكلترا ... وانا لم أؤذ أحداً ... وقد جاؤوا بي الى هنا ختلاً واحتيالا .. وكان الشاب المسجين يعرض نفسه لمجازفة كبرى وهو يتحدث هكذا بصراحة ... الا انها كانت هذه هي الوسيلة الوحيدة التي يستطيع بها ان يكسب مودة هذا الرجل الانكليزي وعطفه...

غير ان « كول » لم يجب فوراً ... بل جعل يتشاغل في الغرفة منهمكا في عمله ... واخذ يكتس الارض، وينفض القبار، ويروح ويجيء، ثم قال مخافتاً جداً من صوته:

- انك تقول لي ان الحكومة البريطانية ستساعدك الا انني لست على علم بشيء من هذا .. وانت، من بعد، لست اكثر من انسان غريب .

وامتعر الخادم في تنظيف الغرفة .. وكان مستحيلا ان يدرك المرء انه تأثر بتوسلات الشاب المسجين، او ان هذا كله ذهب هباء منثوراً . غير ان الشاب المسجين عاد يقول باصرار:

- انها مسألة حياة او موت يا سيدي .. انقل هذا الى السلطات البريطانية فتقذني .. وانا واثق من انك لا تريد ان يقضى بالموت على رجل بريء مثلي .

-٧-

لم يكن احد قد تحدث الى « كول » بمثل هذه اللهجة « وكان » كول «

خادماً أميناً ومخلصاً وجاداً في عمله . ولذلك فهو يتأهب للتدخل في شؤون
مخدوميه . وسأله الشاب الصيني السجين :

- اليس واجبك باعتبارك مسيحياً أهم بكثير من اخلاصك لمخدوميك في
السفارة؟

وكان « كول » قد أنهى عمله ، فمضى دون ان يجيب على سؤال الشاب
بكلمة واحدة .

ولم يغمض للشاب السجين جفن في هذه الليلة . وكان لا ينفك يتساءل :
هل استطاع ان يقتنع هذا الخادم الانكليزي؟ ام تراه سيخونه ويغدر به؟ ام ان
كلماته لم تستطع ان تحرك وتراً حساساً في قلبه؟..

وفي صبيحة غد عاد الخادم ، ودخل غرفة السجين كعادته ، ووضع على
المنضدة صينية طعام الفطور ، ومضى مكتئباً دون ان يفوه بكلمة واحدة . وجاء
في المساء ومعه دلو ممتلئ بالفحم ولم يفتح فمه . ولم ينبس ببنت شفة ، الا انه
اشار الى دلو الفحم باصبعه ، ثم غادر الغرفة ...

وهرع الشاب السجين الى الدلو ، وجعل يبحث ، ملهوفاً ، في كوم الفحم
واخيراً وجد قصاصة مطوية من ورق ، ففتحتها وقرأ فيها ما يلي:

« لا اريد ان تكون لي مشاكل مع البوليس ، غير انه لا مانع عندي ان اذهب
برسالة تكتبها انت ، الى اصدقائك وحذار ان تكتب هذه الرسالة وانت جالس الى
المنضدة فان الذين يقومون على حراسة غرفتك يراقبوك من ثقب الباب باستمرار ،
اما اذا كتبتها وانت في سريرك فانهم لا يستطيعون ان يروك » وتمدد الشاب
السجين فوق سريره وادار وجهه الى الحائط ، وكتب بالقطعة الصغيرة التي في
حوزته من القلم رسالة فوق بطاقة زيارة ، هذا نصها :

« الى الدكتور جيمس كانتلي، ديفوتشير ستريت، رقم ٤٦ - ارجوك ان
تحرص كل الحرص على مصير حامل رسالتي هذه اليك، فهو رجل فقير ومسكين
وسيجازف بعمله ومورد رزقه وهو يقدم لي خدمة حمل رسالتي اليك . لقد
اختطفتني السفارة الصينية يوم الاحد الماضي، ووضعتني في احدى غرف
السفارة، ولسوف يذهبون بي، خفية من انكلترا الى الصين حيث يتم اعدامي .
فأتوسل اليك ان تغيثني بأسرع ما تستطيع ا »

غير ان هذه الرسالة لم تصل الى الدكتور جيمس كانتلي بهذا الشكل الذي
كتبته فيه، فقد كان « كول » رجلا شديد الحذر، ورأى ان ينتظر اولاً يوم عطلته،
وقد كان يوم سبت في السابع عشر من شهر تشرين الاول، ثم كتب هو نفسه
رسالة بعث بها، مع شخص آخر، الى الدكتور « كانتلي » واليك ما جاء في هذه
الرسالة .

« ان احد اصدقائك سجين في سفارة الصين منذ يوم الاحد الماضي، ولن
يلبث طويلاً حتى يرسلوا به الى الصين حيث سيعدمونه، ان هذا يدعو الى عظيم
الاسى بالنسبة لهذا الرجل، وعلى الاخص اذا لم تفعلوا شيئاً لانتقاذه ... وأؤكد
لكم ان ارساله الى الصين سيتم دون ان يدري احد بذلك . وانا لا استطيع ان اوقع
هذه الرسالة . غير انني قلت لكم الحقيقة بحذافيرها . ويجب ان تصدقوني .
فيادروا الى العمل فوراً والا فأت الموت . ان اسم هذا الرجل هو « لن ين صن »
فيما اعتقد .

-A-

وصلت الرسالة الى الدكتور « جيمس كانتلي » واسرته، وهم جالسون
يقرأون الى جانب موقد النار، وكانت أمسية يوم السبت تلك عادية كغيرها من
الامسيات .. وصحيح انهم دهشوا ان لم يوافهم صديقهم الصيني الشاب في

الموعد المضروب للهاب الى الكنيسة يوم الاحد الماضي، الا انهم لم يقلقوا عليه،
وحسبوا انه اخلف الموعد لسبب من الاسباب الشخصية .

ولما قرأ كانتلي تلك الرسالة التي بعث بها الخادم الاتكليزي « كول » ادرك
بدهاءة ان عليه ان يبادر الى العمل فوراً ودون تلكؤ او ابطاء .. وكان كانتلي
طبيباً كما ذكرنا سابقاً، ولهذا فانه لم يكن يفقه شيئاً في السياسة والامور
القضائية والتجسس ، وعمليات الاختطاف الخ .. ولم يخطر له ان يذهب لينبئ
البوليس بما حدث لصديقه الصيني الشاب .. غير انه كان قد سمع باسم محام
انكليزي كبير هو السير « هاليداي ماركارتي » على اعتبار انه المستشار
القضائي والحقوقى للحكومة الصينية .. ووقع في روعه ان السير هاليداي
يستطيع ان يقدم له مشورة نافعة بشأن صديقه الصيني الشاب المسجون في
السفارة ..

وكان السير « هاليداي » يقيم في مكان قريب، ويحتل داراً مستقلة وعلى
غاية من جمال البناء وروعة الهندسة . فاسرع كانتلي الى تلك الدار، وقرع جرس
الباب الخارجي مراراً فلم يتلق اي جواب .. فلا ريب، اذن، في ان السير «
هاليداي » قد مضى إلى ناحية من الريف لقضاء عطلة نهاية الاسبوع .. وعندئذ
قرر الدكتور كانتلي ان يفضى الى البوليس بما تأدى اليه من مصيبة صديقه
الشاب الصيني .. فأسرع ودخل اقرب مركز للبوليس .. وقد اصفى اليه
المسؤولون اصفاء كله تأدب حتى انتهى من قصته .. ثم نصحوا له ان يراجع
رجال « سكوتلاتيارد » واصفى اليه مفتشو البوليس هناك في كثير من
المجاملة والادب ايضاً ولكن هذه المجاملة، وهذا اللطف، وهذا الادب لم تخف
عدم تصديقهم لما رواه لهم .. ومع ذلك فقد سجلوا ملاحظاتهم عما قاله لهم
بعناية فائقة ... ووعده ان يرجعوا بذلك الى رؤسائهم .. ثم نصحوا له ان يعود
الى بيته .

وفي صبيحة الغد هرع الدكتور « كانتلي » الى صديق آخر للشباب الصيني السجين هو الدكتور « هنري مانسون » لكي يسأله ماذا عسى ان يفعل ... وبعد المناولة اتضح للرجلين ان دوائر سكوتلاند يارد ليست على عجل في امرها، ولن تفعل اي شيء. بالسرعة التي يتصورانها، وانه يجب ان يفعل شيئاً .. وان يجد شخصاً يقبل بالذهاب الى سفارة الصين .

ومرة اخرى عاد كانتلي الى دار المحامي سير « هاليداي » وكان يرجو ان يجد حارساً او بوابة يرشده الى مكان وجود المحامي ... غير انه لم يجد ثمة احداً يسأله ... ولما عاد الى بيته وقد انهكه التعب تماماً لفرط ما بذل من المساعي والمجهود، وجد زائراً لم يكن يتوقع وجوده في بيته، وقد كان هذا الزائر هو « ادوارد كول » خادم السفارة الاتكليزي، وكان قد عقد عزمه على ان يأتي، هو شخصياً، لكي يشرح قصة الشاب الصيني السجين، ويطلب، بل ويلج في الطلب ان ينقذه اصداقاه ...

- ٩ -

رحب الدكتور « كانتلي » بالخدام ترحيباً حاراً، ثم روى له ما فعله، والمساعي التي بذلها دون جدوى، وذهابه اكثر من مرة الى دار المحامي سير « هاليداي » وكيف انه لم يجده، بل لم يجد احداً يسأله عنه ... وأصغى « كول » بكل انتباه لما قاله الدكتور كانتلي، وبدأ عليه الدهشة عند سماع اسم المحامي « هاليداي »، ثم لم يتمالك نفسه فقال وما تزال الدهشة مرتسمة على محياه : ان سير « هاليداي » يقيم في لندن ولا شك، وانه يراه في السفارة كل يوم، الا انه، دون اي ريب، ضالع في قضية اختطاف الشاب الصيني السجين، بل هو من واضعي خطة الاختطاف تمهيداً لارسال السجين الى الصين حيث سينفذ فيه الاعدام بقطع الرأس ... وهذا كله يصعد الامور ولا يسهلها ابداً ... وان رجلاً كالسير هاليداي يمكن ان يكون عدواً مرهوب الجانب حقاً

وفكر الدكتور كانتلي، واطال التفكير، ثم اتضح له اخيراً انه لم يبق امامه، لانقاذ السجين الشاب، الا القليل من الوقت... وكان يوم الثلاثاء هو اليوم المعين لاهجار السفينة التي سينقل عليها الى الصين... وكان ربان هذه السفينة قد جاء الى السفارة لكي يبحث الموضوع مع سير سهاليدايش نفسه... .

وهكذا لم يكن امام اصدقاء الشاب الصيني السجين غير ثمان واربعين ساعة فقط لكي يعملوا على انقاذ صديقهم... .

وعلى الفور هرع الدكتور «كانتلي» الى بيت صديقه الدكتور «مانسون»، وانطلقا معاً الى دوائر سكرتلاتد يارد ليسألوا المسؤولين، هناك، المبادرة الى مساعدتهما قبل فوات الاوان... .

واصفى لهما المفتش صاحب النية، ثم راح ينظر في اصابيره، ويتفحص اوراقها، واخيراً قال:

- انني ارى بموجب القيود في الاضارة، انك اتيت الى هنا مساء يوم امس يا سيدي الدكتور كانتلي... وحتى هذه اللحظة لم نتلق اي اثبات لما رويتنا....

وخرج الرجلان يائسين يضربان كفاً بكف... وقرروا الذهاب لمراجعة وزارة الخارجية ولم تكن امامهما مسافة طويلة يقطعانها فقد كانت الوزارة غير بعيدة، ولم تمض بضعة دقائق حتى وصلا اليها، غير انه تبين لهما ان المصاعب والعقبات لا تطل برأسها الا بعد الوصول الى المكان المقصود... وقيل لهما في وزارة الخارجية، وبعبارة مؤدبة جداً، ان الموظف المناوم المختص لا يستطيع ان يقابلهما قبل الساعة الخامسة من بعد ظهر ذلك اليوم، ثم أردف الموظف الذي قابلهما قائلاً:

- ان الموضوع الذي تهذلان مسعا كما في سبيله حماس جدأ، وهو يتناول علاقاتنا ببلد اجنبي كما يتناول الحصانة الممنوحة للارض التي تقوم عليها السفارة الصينية واية سفارة اخرى، وكذلك القانون الدولي نفسه... ثم انني انا شخصياً، لا املك اية صلاحية للعمل في هذا الموضوع الخاص.... وعلى هذا فلا بد من ان تنتظر الموظف المختص.... .

ولم تستطع هذه الصعوبات ان تثبط من عزم وعزيمة الرجلين، فخرجنا من الوزارة، وانتخبنا جانباً من الرصيف المقابل لمبنى وزارة الخارجية... واستقر رأيهما على الذهاب الى السفارة الصينية نفسها غير ان الدكتور «كانتلي» كان معروفاً كل المعرفة لرجال السفارة الصينية، فلا يمكنه الذهاب إليها للتحدث في موضوع الشاب السجين، الا انه لم يكن ثمة اي مانع يحول دون ذهاب الدكتور «مانسون» ولن يجد الصينيون اي سبب لرفض مقابلته... وقال كانتلي:

- اذهب انت الى السفارة، وإذا لم تعد بعد انقضاء ساعة فسأخطر بذلك دوائر سكوتلاند يارد.... .

- ١٠ -

في الساعة السادسة والنصف كان الدكتور «مانسون» يقرع باب مبنى السفارة رفق ٤٩ في ساحة «بورتلاند» وقد فتح له الباب خادم انكليزي، ثم جاء من تقدمه وذهب به الى غرفة الاستقبال التي ازدانت جدرانها بقطع من الحرير المشغول بالذهب والفضة، ولاحظ الزائر عدة تماثيل لـ «بوذا» مصنوعة من البرونز، ولفتت نظره صورة كبيرة للامبراطور.

وقال الدكتور «مانسون» انه يرغب في ان يتحدث في أمر مهم الى احد ملحقى السفارة... ولم ينتظر طويلا قبل ان يوافيه الى حجرة الاستقبال الصيني «تانغ» وقد علت الاهتمام المريضة شفتيه، ثم انحنى محييا زائره

الانكليزي... .

ودخل الدكتور «مانسون» مباشرة في الموضوع دون ما حاجة الى المداورة فقال:

- انكم تحتفظون بأحد اصدقائي سجيناً في هذه السفارة، وهذا الصديق هو احد طلابي القدامى، وارغب في ان اراه.

وعلى الفور تغير وجه «تانغ» واختلفت ملامحه كل الاختلاف، وانقلب قاسي الملامح واكتست اساريره ببرود ثقيل، وغدا كأنه احد هاتيك التماثيل البرونزية الجامدة، وقال:

- اتنا لا نحتفظ بأي انسان سجين في هذه السفارة، وما هو اسم هذا الشاب الذي تبحث عنه؟

- اسمه « صن ون»

- ليس من انسان اسمه «صن ون» في هذه السفارة... .

وعاد الدكتور «مانسون» يقول بصراحة عجيبة:

- انا على اطلاع تام على انكم تحتفظون به سجيناً هنا. ولقد اصيبت دوائر سكوتلنديارد مطلعة على هذا كله وكذلك وزارة الخارجية... .

لم يبد على «تانغ» انه ذهل او تضعع امام هذه اللهجة القاطعة الجازفة، بل راح يؤكد للدكتور مانسون ان في الموضوع خطأ أو التباساً، ولا ريب انه ضحية «مقلب»..... .

وكان موقف هذا الموظف الصيني بالغ الاتعاب الى الحد الذي استطاع ان يقنع

الدكتور «مانسون» بأقواله.... فنهض مردعاً وانصرف... ثم هرع للقاء زميله الدكتور «كانتلي» واخبره انه ليس في السفارة من سمع باسم الشاب الصيني السجين... .

غير ان «كانتلي» لم يقتنع بما قاله زميله «مانسون»، وراح يتسائل عما اذا لم يكن من الخطأ ارسال «مانسون» ليقوم بهذا المسعى الفاشل في السفارة الصينية... بل ربما كان اثر هذه الزيارة وبالا على الشاب السجين فيستعجل رجال السفارة ارساله الى بلاده حيث سينكل به ويتم اعدامه بقطع رأسه.

- ١١ -

عاد الدكتور «كانتلي» كالمنكسر الى دوائر «سكوتلاتديارد»، وراح يتوسل الى مفتشي البوليس ان يقوموا بمراقبة السفارة الصينية على الاقل... فأجابه بان هذا ليس من مهام دوائر سكوتلاتديارد، وانما هو من اختصاص مركز بوليس «ويست آند» وهو المكان الذي تقع فيه ساحة «بورتلاند»...

ومضى «كانتلي» الى ذلك المركز فاستقبل استقبالاً سيئاً، ولم يصدق احد ما قاله بصدد السجين الصيني الشاب.. وعلى الاخص انه لا يملك اي دليل او اثبات على صحة قصته تلك.. ثم قيل له :

- ان هت رجالنا حول سفارة ما قرار لا نستطيع اتخاذه لانه، ببساطة، يفرق صلاحيات اي مركز بوليس... واطرق الدكتور «كانتلي» قليلاً يفكر واومضت في ذهنه خاطرة سرعان ما نفذها، فنهض من فوره ودخل مبنى صحيفة «التايمز» اليومية وطلب ان يقابل احد رؤساء التحرير.. غير ان هذه المقابلة لم تجده شيئاً، بل وجد نفسه كأنما قد اصطدم بجدار أصم.. وحز هذا في نفسه.. انه قام بهتّى المساعي، وبذل جهوداً جمّة، وحاول مختلف المحاولات.. غير ان تعبته ذهب دون اية نتيجة ايجابية..

كانت الساعة قد تجاوزت الحادية عشرة والنصف عندما عاد الى بيته، وعلى الرغم مما ناله من تعب وأرهاق فقد أبى ان يخلد الى النوم .. وكيف تراه سيغمض له جفن واحد طلابه يوشك ان يقضى عليه ويعدم اعدماً .. ان المرء عندما يسهر على شخص يحتضر يجب ان لا تثبط عزيمته، بل عليه ان يكافح ويبذل المستحيل لاتقاذه ..

وعاد الدكتور « كانتلي » فارتدى ملبسه استعداداً للخروج من بيته، وقد اختار اردية دافئة تساعد على السهر طيلة الليل .. اجل، لقد قرر ان يقوم هو نفسه بمراقبة سفارة الصين .. ونفذ قراره العجيب هذا بشجاعة ورباطة جأش حتى صباح اليوم التالي .. ثم هرع الى احدى وكالات الاستخبارات والتحري الخصوصية وراح ينتظر حتى فتحت ابوابها، فدخل مع عدد كاف من رجال هذه الوكالة لكي يحيطوا ببنى السفارة الصينية ويراقبوا ليل نهار .

ثم مضى وقد اطمأن قليلاً، وقد زاده هذا الاطمئنان قوة، وتصميماً وعزماً، وقرر ان يواصل مساعيه، فالجبه من جديد الى وزارة الخارجية.

-١٢-

ما ان دخل الدكتور كانتلي وزارة الخارجية، وقابل المسؤولين وروى لهم القصة بعلافيها، حتى لاحظ شيئاً من الاهتمام، واتصلت وزارة الخارجية بدوائر سكوتلانديارد، وطلبت ان يقوم المسؤولون فيها بالتحقيق اللازم ليتأكدوا من ان السفارة الصينية قد استأجرت فعلاً احدى سفن الشحن .

ولم يلبث الجواب ان جاء سريعاً وعلى الفور، وهو ان سفارة الصين قد استأجرت باخرة شحن من بواخر « غلين لاين » التي ستبحر في الغد وهو يوم الثلاثاء .. وان الباخرة ستكون محملة بالسلع التجارية المطلوبة للصين .. وسيكون فيها راكب واحد لم تذكر شركة البواخر اسمه، ولكن المعروف هو انه صيني

في هذه الاثناء كان الشاب الصيني المسجين في احدى غرف الطابق الثالث من سفارة الصين يتوق الموت اشكالا والواناً من الشك، وعذاب التفكير والقلق، والامل الذي سرعان ما يخيب، واليأس القاتل... بل هو لم يكن على يقين من أن الخادم الانكليزي «كول» قد أوصل رسالته الى الدكتور «كانتلي»... .

غير ان شعاعاً واحداً من امل عاد فاضاء جوانب نفسه المعذبة مساء يوم الاحد، عندما دخل عليه غرفته «كول» ويده الدلو الممتليء بالفحم كالعادة. وقد وجد الشاب السجين قصاصة ورق بين الفحم فيها عبارة واحدة هي:

«تشجع. انتانهتم بامرك»... مع ذلك فقد كان الوقت يضيق ويضيق، واضطر الخادم «كول» ان يرسل الى الدكتور «كانتلي» رسالة جديدة هذا نصها:

«سيتاح هذه الليلة ان اصعد بصديقك الى سطح البيت المجاور للبناء... الذي تعرفه... وليكن ثمة من ينتظره.... ولكن هل يجب ان أجازف هذه المجازفة؟ ارجو ان تعلمني رأيك....»

وما كاد الدكتور «كانتلي» يتسلم هذه الرسالة حتى هرع من فوره الى دوائر سكوتلاتديارد وجعل يتوسل الى المسؤولين ان يرسلوا بمفتشي البوليس الى سطح البيت المذكور في رسالة الخادم «كول» غير ان بوليس سكوتلاتديارد رفض... ثم قيل له انهم، في النهاية، قد قرروا ان يقوموا بتحقيق في الموضوع، غير ان اجراءاتهم ستكون كلها وفقاً للاصول القانونية، وهي اصول يجب احترامها تماماً... .

وفي صباح يوم الاثنين، الثاني والعشرين من شهر تشرين الاول، طلب
البوليس مذكرة توقيف، على بياض ضد سجين مجهول... .

-١٣-

كانت مذكرة التوقيف التي طلبها البوليس قبل يوم الاثنين ٢٣ تشرين الاول
ضد سجين مجهول نوعاً من الاحتياط قد ينقذ حياة الشاب الصيني حبيس سفارة
الصين... ومعنى ذلك أن البوليس البريطاني يبادر الى توقيفه... ثم يضعه تحت
حمايته بعيداً عن الخطر المخيف الذي يهدده... .

الا ان مما يدعو الى الاسف الشديد هو موقف قاضي الصلح البريطاني الذي
طلب منه القيام بهذا الاجراء القانوني الذي يراد به تقديم شخص ما ليمثل امام
المحكمة... فقد رفض القاضي توقيع مذكرة التوقيف هذه التي بفضلها كان يؤمل
ارغام السفارة الصينية على تسليم السجين.

ومع ذلك فان هذا المسمى لم يذهب سدى ودون اية فائدة، فقد لفت، على
الاحل، انتباه صحف لندن كلها... ومنذ هذه اللحظة اتخذت الحوادث شكلا
جديداً، وانجهاً آخر لم يكن متوقعا... .

فقد احاط مراسلو الصحف تلك العمارة القائمة في ساحة «هورتلاند»...
عمارة السفارة محط الانظار، ومثار الكثير من التعليقات والاهتمام المتزايد...
وتصلب الصحفيين في موقفهم، وكأنما قد اصابهم عناد شديد حيال هذا التحدي
فأخذوا يطالبون ويلحون في المطالبة: ان يروا هذا السجين الذي تحتفظ به السفارة
في احد غرفها... .

وظهر لهم الثعلب العجوز «ت» هو اشد ما يكون تأدياً، ومجاملة،
وابتساماً، ودعاهم الى مؤتمر صحفي عاجل، وراح يؤكد لهم، وابتسامته المؤدية لا

تفارق شفتيه اهلاً، ان الامر لا يعدو ان يكون من باب المحتل والمحتدع والوهم الكبير... .

غير ان رجال الصحافة لم يأخذوا بمظهره المريب هذا، جابهوه باصرار قوي وبكلمات قاسية، وقالوا له ان لمن العار ان تعتمد السفارة الى انسان بريء فتخطفه، وتسجنه في احدى غرفها، وتنسى انها تفعل هذا... في قلب مدينة لندن نفسها... اي في المجلتر... .

واشتدت حماسة الصحفيين، وادركوا انهم امام هذا التحدي يجب ان يزدادوا عزماً وتصميماً، وان الامر لم يعد يتعلق بسجين ما، بقدر ما هو متعلق بسمعة بريطانيا نفسها، ثم بسمعة صحافتها التي انتهت اليها انباء هذا الاختطاف الصافر... .

وتساءل الصحفيون في غضب شديد: «هل ترانا سنفسح المجال لكي يقال ان صحافة لندن علمت بالامر كله، ولم تفعل شيئاً... لم تنبه الرأي العام... لم تستقطبه كله لاطلاق سراح السجين... الذي اختطف في قلب مدينة لندن؟»

واخذ فريق من الصحفيين يتحرى الامر باهتمام عظيم، واخذوا يدرسون القضية بعناية فائدها، وترتيبها المنطقي منذ اللحظة التي وصل فيها الشاب الصيني الى انكلترا... .

وهكذا استطاعوا أن يكتشفوا رجل القانون الانكليزي ومستشار السفارة الصينية «سير هاليداي ماكارتن» وكانت صحيفة «الديلي ميل» هي اول صحيفة قابله واجرت معه حديثاً صحفياً مطولاً باعتباره الممثل القانوني للسفارة الصينية... .

وهكذا، وللمرة الاولى، اميط اللثام عن هذه القضية العجيبة، ووضعت امام

الرأي العام، بعد ان كانت محصورة في حدود ضيقة لا تعدو بضعة اشخاص... .

-١٤-

كانت هذه الحوادث كلها، في الواقع انقلاباً فجائياً في قضية الشاب الصيني السجين .. وتحت ضغط الصحف في حملاتها اليومية النارية، وتحت ضغط الرأي العام البريطاني واستنكاره الشديد، واستغرابه ان يقع هذا الاختطاف في بلادهم، والحاحه في اطلاق سراح السجين، تحت هذا الضغط كله اضطرت السفارة الصينية ان : تعترف بوجود هذا السجين .. وقد جاء هذا الاعتراف على لسان السير « هاليداي » نفسه، وقد نشرت صحف لندن حديثه وتصريحه الصحفي التالي :

« عندما سئل السير هاليداي ما كارتي رجل القانون الذي يعمل مستشاراً حقوقياً لسفارة الصين في لندن قال انه ذهب الى وزارة الخارجية البريطانية بعد ظهر يوم امس الساعة الثالثة والنصف، ولما سأله ممثل الصحافة : عن قضية الشاب الصيني السجين ادلى بالتصريح التالي : « ليس عندي اية معلومات جديدة اضيفها الى ما سبق ونشرته في جرائدكم حول هذا الموضوع .. »

ولما قيل له ان اللورد « ساليسبوري » وزير الخارجية قد طلب من السفارة الصينية ان تطلق سراح شاب سجين عندها، اعترف السير هاليداي بهذا، وقال انه على علم بهذه الواقعة، ثم فكر هنيهة، وعاد فأضاف قائلاً :

« سيطلق سراح هذا الرجل .. ولكن اسمه الحقيقي ليس « صن ون » .. والواقع اننا نعرفه معرفة لا يشوبها ليس في هويته الحقيقية، كما اننا على اطلاع تام على جميع اعماله وحركاته وسكناته وتصرفاته منذ ان وطئت اقدامه ارض

انكلترا...»

وعاد المحامي الحبث يفكر، ثم رفع رأسه وأخذ يدير عينيه في وجوه الصحفيين، وأخذ يقول:

«أن الشاب الصيني الذي اثار اهتمامكم العظيم هذا... لم يختطف اختطافاً... وإنما هو دخل السفارة طواعية واختياراً دون أي إرغام على الإطلاق... وبالطبع ليس ما يدعو إلى الدهشة أن يجد رجل صيني نفسه جيداً في لندن فيرغب في أن يزور سفارة بلاده ويتبادل الحديث مع مواطنيه...»

غير أن مثلي الصحافة البريطانية لم تنطل عليهم هذه الخدعة، ولم يؤخذوا بمكر هذا الرجل الداهية فجابهوه بهذا السؤال المهرج:

- ما دام الامر كما ذكرت... فما هو التفسير الذي تستطيع ان تقدمه لإبقاء هذا الشاب سجيناً في السفارة الى اليوم؟

وكان الرجل سريع البديهة فأجاب بدهاء، محاولاً إخفاء كذبه:

- كان هناك خطأ ولا ريب... فقد ظن بعض الأشخاص، أن هذا الشاب كان قصده أن يتجسس على موظفي السفارة.

-١٥-

في اليوم الثالث والعشرين من شهر تشرين الاول وصلت مذكرة اللورد ساليسبوري وزير الخارجية البريطانية الى سفارة الصين، وفيها طلب الافراج الفوري عن الشاب الصيني السجين في السفارة.

ولم يمض وقت طويل حتى جاء الحرس وفتحوا على الشاب باب غرفته،

وامرؤه ان ينتمل حذاءه، ويرتدي معطفه، ويعتمر بقبعته، ثم يتبعهم ... واطاع المسكين ما أمرؤه به، واخذ يسائل نفسه ماذا يراد به: اتراهم سيذهبون به الان الى السفينة المتأهبة للمسفر وحمله الى بلاده حيث سينفذ فيه حكم الاعدام بقطع رأسه، ام انهم بكل بساطة سيهبطون به الى احد أقبية السفارة حيث يقتلونه رمياً بالرصاص؟

وسأل سجانیه خائفاً متوجساً:

- الى اين نحن ذاهبين؟

الا انهم لم يحبروا جواباً... وانما ساروا وسار هو معهم حتى وصلوا به الى غرفة استقبال صغيرة في الطابق الارضي وكان، ثمة، في انتظاره رجال ثلاثة هم: الدكتور كانتلي، ومفتش من رجال بوليس سكوتلاند يارد، واحد موظفي وزارة الخارجية البريطانية...

وانفتحت ابواب السفارة، وخرج الرجال الثلاثة وبينهم الشاب الصيني، وهو لا يكاد يصدق انه قد اطلق سراحه حقاً ونجاً من الهول الذي كان ينتظره...

وفي الخارج وجدوا حشداً كبيراً من الخلق ينتظرهم... وما ان رأوهم، ورأوا الشاب السجين معهم حتى تعالت هتافات الجماهير تشق الفضاء...

والعجيب ان وصول هذا الشاب الى لندن قبل ثلاثة اسابيع لم يكن له اي صدى، لم يدر بوجوده احد... اما في هذه الايام الاخيره، وفي هذه اللحظة بالذات فقد كان هو الرجل الذي لم يكن للنندن، وللملايين من سكانها من حدٍ غير قصته العجيبة.

وما اكثر ما امطروه من أسئلة، غير ان هذا السؤال كان هو الاكثر دوراناً

على ألسنتهم:

- كيف تراك فعلت لكي تبنى الدكتور كانتلي بامرك ؟

وكان هذا السؤال، بالذات، هو الذي لا يستطيع ان يجيب عنه بكلمة واحدة... فقد كان لزاماً عليه ان يحمي حتى النهاية، ذلك الخادم المخلص الذي كان هو الذي انقل حياته بالفعل.

وكان لا بد. من باب الشكر وعرفان الجميل، ان يزور الشاب الصيني دوائر سكوتلاند يارد، ثم تناول طعام العشاء، في تلك الليلة نفسها، على مائدة الدكتور كانتلي... وبعد هذا كتب رسالة موجودة في كثير من كتب التاريخ التي يدرسها الطلاب في بعض انحاء العالم، وهذا هو نصها:

«لو تسمحون لي ان استأثر بعزيز من صفحاتكم لكي اعبر عن شكراني العميق للحكومة البريطانية التي كان لها فضل اطلاق سراحي من سجنني في السفارة الصينية؟ وان الراجب ليدعوني، كذلك، ان اشكر للصحافة عرنها ومودتها . واذا كنت بحاجة الى الاقتناع بكرم بريطانيا ومحبة شعبها للعدل والاتصاف ، فان الحوادث التي عشتها اخيراً تكفي لاقتناعي.

وانا اعلم الآن، واحس اكثر من اي وقت مضى: كيف يمكن ان تكون الحكومة الدستورية، وكيف يمكن ان يكون الشعب الحر. ولقد كسبت شجاعة عظيمة ستمكثني، اكثر مما فعلت، من خدمة قضية التقدم، والتعليم والحضارة في وطني المحبوب»

المخلص : صن يان صن

اجل ان الرجل الذي كتب هذه الرسالة المفتوحة التي نشرتها في حينها

صحف لندن جميعاً كان هو الذي أصبح، فيما بعد، أول رئيس للجمهورية
الصينية، والطليعي الأول للديمقراطية في بلاده: سان يان صن.

أنا أمرت بضرب هيروشيما

أكثر من عشرين سنة انقضت منذ ذلك اليوم، يوم اللعنة والهول، الذي أدركت فيه البشرية أن في الامكان أن تمحى وتُباد بسهولة... ومنذ ذلك اليوم والقوة المخارقة للمدرة لم تنفأ تعظم وتتضخم... فالى متى يمكن لحكمة الانسان أو خوفه أن يردعا رؤساء الحكومات عن سحق البشرية وإبادتها؟ قلنصغ، أذن الى ما ما يقوله الرئيس ترومان عندما كان عليه أن يقرر استعمال هذا السلاح الرهيب الذي وضعه العلماء بين يديه.

«دار النشر التي اصدرت هذا المقال»

-١-

كان وزير الحربية «ستيمسون» هو الذي ابلغني الرسالة التاريخية المنبثة بتفجير اول قنبلة ذرية، وكان ذلك في صباح يوم ١٦ تموز سنة ١٩٤٥ . واذن فقد لمجج أكثر مشروعاتنا الحربية سرية وجراًة، وغدونا من بعد، غم تلك سلاحا حربيا سيكون من شأنه تطوير الحرب ، وربما أدى الى تغيير مجرى التاريخ والحضارة.

لقد جازني هذا النبأ في «هوتسدام» غداة وصولي اليها في سبيل مؤتمر الثلاثة الكبار.

كانت الاستعدادات الاخيرة لتجربة اول تفجير ذري قد سارت بسرعة عاجلة

في «الاموغوردو» في نيومكسيكو في الوقت الذي كنت فيه مضطرا الى السفر لأوروبا، وبعد انتهاء رحلتي جعلت أنتظر وأنا نافذ الصبر اعلان النتائج. وكان العلماء قد اطلعوني على الكثير من هواجسهم واللوان حلسهم، ولكن احدا منهم لم يكن واثقا من نجاح هذا التفجير النووي الاول على نطاق واسع.

وعندما قرأت الرسالة التي بعث بها الى «ستيمسون» ادركت ان التجارب الاولى لم تؤكد توقع الخبراء كاهد ما يكون التوقع تفاؤلا واستيشارا وحسب، بل هي قد حققت للولايات المتحدة ان تمتلك قوة متفجرة لا تعادلها قوة في العالم.

وجاء «ستيمسون» في الغداة الى «هوتسدام» على متن طائرة، حاملا الي جميع التفاصيل المتعلقة بتجربة اول تفجير ذري، فاستقبلته فوراً، ورجوت وزير الخارجية «هايرتس»، والاميرال «ليهاي» والجنرالات «مارشال» و«آرنولد» وكذلك الاميرال «كنغ» ان يأتوا «لينضموا» الينا في مكنتي.

وقمت دراسة خططنا الحربية في ضوء هذا الحدث العظيم الذي قلب مفاهيمنا جميعاً رأساً على عقب. ولم تكن قد قورنا بعد، استعمال هذا السلاح ضد اليابانيين، على الرغم من اننا لم نكن نعرف حتى تلك اللحظة الاثر الجشمانى او النفسى الذي يمكن ان يعانى منه العدو... ولهذا السبب نصح لي الرؤساء العسكريون ان احتفظ بالخطط الموجودة لاجتياح اليابان.

وقد بقي سر القنبلة الذرية مصنواً بعناية تامة في «هوتسدام» وغيرها، كما اننا لم نوسع دائرة الاميركيين الصغيرة المطلعة عليه.

لقد كان تشرشل، بالطبع، عالماً بهذا المشروع منذ جنوره الاولى، ثم ان الموارد الفنية «التكنيكية» البريطانية والاميركية قد اضيف بعضها الى بعض في عمل مشترك.

وفي يوم ٢٤ تموز اشترت اشارة عابرة لـ «ستالين» باننا نملك سلاحاً جديداً له قوة مدمرة استثنائية، غير ان الرئيس السوفياتي لم يبد كثير الاهتمام بهذا النبأ، واكتفى بان يقول انه سعيد ان يعلم ذلك، وانه يرجو ان نحسن اصطناعه ضد اليابانيين.

وكان «غرو» وزير الخارجية بالوكالة المؤقتة قد سألني في اواخر شهر ايار اذ لم يكن الاجدر ان ننشر نداء يدعو اليابانيين الى التسليم، ونؤكد لهم في الوقت نفسه اننا نأذن للامبراطور ان يظل على رأس الدولة، وقد عزز هذا الاقتراح بالدلائل والبراهين التي امدته بها سنوات عشر امضها سفيراً في اليابان وقلت انا له انني قد واجهت هذه الفكرة ايضاً لاني بدت لي عادلة.

وكان «غرو» يحمل مشروعاً لهذا النداء، فرجوته ان يقدمه بالطريق العادية المألوفة الى المجلس المختلط، والى لجنة التنسيق الحربية البحرية، لكي تطلع على آراء جميع من يعنيه الامر قبل ان اتخذ قراري.

وفي يوم ١٨ حزيران اعلمني «غرو» ان زملاء في الوزارة، وكذلك المجلس المختلط قد اقروا اقتراحه، كما ان القواد العسكريين كانوا قد تحدثوا معي في هذا الموضوع عندما جاؤا يعرضون علي ما قاموا به من اعمال في ذلك اليوم نفسه .

وقد قررت أنا اننا سنذيع هذا النداء في اثناء انعقاد مؤتمر الثلاثة الكبار في «بوتسدام». وكان من رأيي ان هذا الاجراء سيظهر بوضوح لليابان وللعالَم اجمع ان الحلفاء متحدون في نواياهم ومقاصدهم، ثم اننا نكون، في تلك الفترة، اكثر اطلاعاً ومعرفة حول نقطتين تهمان جهودنا المقبلة وهما: مشاركة الاتحاد السوفياتي، والقنبلة الذرية نفسها. وكنا نعلم إذ ذاك ان التجارب الأولى لتفجير القنبلة الذرية ستتم في اواسط شهر تموز، وكنت اريد في حالة نجاح هذه

التجارب، ان أقدم لليابان فرصة متاحة لانتهاء الحرب قبل استعمال سلاحنا الجبار الذي استطعنا امتلاكه حديثاً.

-٢-

لهذه الاسباب مجتمعة كان روزفلت وتشرشل قد اتفقا ان يوحدا الابهات ويركزا جميع الاعمال داخل الولايات المتحدة. واذن فان تعاون البريطانيين معنا قد اتاح لنا، نصراً عملياً في مجال الطاقة الذرية.

ومع ذلك، وكائنا ما كان خطر هذا الحدث فقد كان ينبغي ان نعتبره، اذ ذاك، امراً ثانوياً بالنسبة الى الحرب التي نشنها في الرحاب الترامية للمحيط الهادي. وتنفذ لها ثمناً باهظاً من الارواح الاميركية.

وربما كنا ننتظر معجزة من المعجزات الا ان المأساة اليومية لحرب دامية كانت تمسك بمخنتنا، في حين كنا نعمل لالحجاز سلاح، كان هذا هو الهدف الاساسي من مجهودنا السري الجبار، الا انه لم يكن، في وسعنا، بعد، ان نكون اقل استمراراً في تحمل العبء الضخم لخططنا الحربية التقليدية.

ولقد اوكلت مهمة تحقيق والحجاز القنبلة الذرية إلى وحدة خاصة من المهندسين العسكريين سميت «منطقة منهيتان» بإدارة الجنرال «ليجلي غروفز». الا ان المجهود الرئيسي كان يضطلع به العلماء البريطانيون والاميركيون في المختبرات وفي مكاتب متفرقة في انحاء البلاد.

وكان الدكتور «ج. روبرت اوينهاير» عالم الفيزياء الممتاز، من جامعة كاليفورنيا، قد اقام البناء الرئيسي لهذا المشروع جميعاً في «لوس الاموس» بنيومكسيكو. ونحن مدينون له اكثر من ديننا لاي انسان آخر في الحجاز للقنبلة .

وانا لم اطلع على كل هذه التطورات الا بعد ارتقائي الى الرئاسة بقليل.
عندما جاء الوزير «ستيمسون» يروي لي القصة كلها.

وقد قال لي، في ذلك الحين، ان المشروع على وشك الانتهاء، وان في
الامكان انتظار حيازة القنبلة في خلال الشهور الاربعة المقبلة. ويعجب هذه
النصائح ايضا عينت يومئذ لجنة من رجال ممتازين، كلفتهم ان يدرسوا في كثير
من العناية والاهتمام ما قد يكون لهذا السلاح الجديد من عواقب علينا. وكان
الوزير «ستيمسون» يرأس هذه اللجنة التي كانت تعاونها طائفة من العلماء
بينهم من كانوا يهتمون مباشرة بالمجاز القنبلة الذرية وهم: الدكتور اوينهايمر،
الدكتور آرثر كوميتون، الدكتور لورنس، والدكتور انريكو فيرمي، وهو من اصل
ايطالي.

وقد قدمت الي، في اليوم الاول من شهر حزيران، وعن طريق الوزير
ستيمسون، النتائج الحتمية التي توصل اليها اولئك الرجال سواء كان ذلك في
اللجنة الاستشارية للخبراء، او في الفريق الاكثر عددا الذي تم تشكيله هاديء
ذي بدء.

فماذا كانت توصيات اولئك الرجال فيما يتعلق بالقنبلة الذرية؟

-٣-

اما في حالة انتهاء تجاربنا النووية الى الاخفاق فسيكون من الهم ايضا،
بالنسبة لنا أن نشير ما يسحب عرضنا لليابان قبل ان تضطر الى الظفر باليابان
قوة واقتداراً. وقد اخطرتني الجنرال «مارشال» ان ارغامنا اليابان على التسليم
داخل اراضيها قد يكلفنا تضحية نصف مليون جندي اميركي.

ولكن مجارب القنبلة الذرية ها هي قد نجحت ! ولقد كان تطوير اغراض هذه

القنبلة جميعاً خاضعاً وموجهاً بتقديرات عسكرية محضة. وكان العلامة البرت اينشتاين هو الذي اوحى بالفكرة الى الرئيس روزفلت، وقد تبين على وجه التأكيد ان الحجاز القنبلة يقتضي جهوداً مشتركة ومتداخلة على صعيد العلم، والصناعة، والعمل والايوساط العسكرية وباختصار، كانت شيئا لم يكن له مثيل في التاريخ.

وفي سبيل اتمام هذه القنبلة كان لا بد للخبراء ومعاونيهم والذين يعملون معهم ان يكونوا واقعين تحت توتر عصبي فائق التصور. في حين كان لازماً للحجاز هذا العمل الضخم ان يعتشد له مئة الف رجل بالاضافة الى مقادير هائلة من المواد المختلفة. ولقد امضينا في اقامه اكثر من سنتين ونصف السنة، وانفقنا ملياري دولار ونصف المليار.

ان حفنة من بضعة آلاف رجل كانوا يعملون في هذه المصانع ويدركون هذا الذي ينتجونه، وكان التكتم على هذا السر قد فرض فرضاً شديداً حتى ان بعض اصحاب المناصب العليا في واشنطن لم يكونوا مطلعين على ادنى فكرة مما كان يجري... ولا حتى انا نفسي.

وقد كان معروفاً منذ عام ١٩٣٩، وبصورة عامة، بين العلماء انه من الممكن - نظرياً - اطلاق الطاقة الذرية، وفي عام ١٩٤٢ شرعنا نحن بالاشتراك مع بريطانيا العظمى في دمج المعلومات العلمية التي يمكن ان تكون ذات نفع في سير الحرب، على الرغم من اننا، نحن الاميركيين، لم نكن بعد قد دخلنا الحرب.

وفي سنة ١٩٤٢ ايضاً، اتصل الى علمنا ان الالمان يعملون باسلوب علمي سيمكنهم من استعمال الطاقة الذرية كسلاح حربي، وسيكون هذا السلاح الذي مضافاً الى قنابلهم الطائرة «ف اوف ٧»، وهكذا كان في مرجوهم ان يكتسحوا العالم جميعاً... وبالطبع فقد فشلوا، وشكراً للعناية الالهية، الا انه، منذ الان،

بدأ سباق عنيف في: من سيكون اول من يصنع القنبلة الذرية الاولى، وقد تحول هذا السباق او هذا الصراع الى معركة حامية في المختبرات العلمية. ...

وفي اطار السياسة العامة في توحيد المعلومات العلمية البريطانية والأميركية، تمهد السبيل لبحاث القنبلة الذرية أن تظل طبي الكتمان العميق البالغ، المصون بغيرة شديدة، وقد تضافر علماؤنا جميعاً ليكونوا السباقين المتفوقين على الالمان في هذا الصراع.

وقد كان لنا في اميركا عدد من الاختصاصيين المتمازين في مختلف المجالات، ثم اتنا كنا نملك شيئاً آخر يرجع كفتنا وهو انه كان في وسعنا جمع الموارد الصناعية والاقتصادية الهائلة التي كان لا بد منها للمسير بالمشروع بنجاح دون ان يؤثر ذلك على انتاجنا الحربي. زيادة على هذا كانت مصانعنا موجودة في موقع خارجة عن نطاق اعمال قاذفات القنابل المعادية.

اما بريطانيا التي كان علماؤها مشتركين اصلا بالمشروع وقدموا قسماً كبيراً من، المعلومات الاولى حول الموضوعات الذرية فقد كانت باستمرار هدفاً لضربات العدو، وفي الوقت الذي شرعت فيه بابحاثها في هذا المجال: وجدت نفسها مهددة بغزو الالمان.

-٤-

لقد أوصى العلماء كما يقول ترومان باستعمال القنبلة الذرية، ضد العدو في اقرب وقت ممكن، وان تضرب بها ودون انذار سابق هدفاً يظهر بجلاء فعاليتها المدمرة المخارقة.

ولقد ادركت تماماً، ودون ريب، ان انفجاراً كهذا سيحدث من الحزاب والدمار والضحايا في الارواح ما يفوق التصور. ومع ذلك فان المستشارين العلميين

اعلموني بما يلي:

اننا لا نستطيع ان نعرض اي دليل «تكتيكي» مقنع يمكن ان يضع حدا للحرب، ولذلك فلسنا نرى اي حل مقبول يمكن ان يكون بديلا من الاستعمال العسكري المباشر للقنبلة الذرية.

وقد انتهوا بقولهم ان القاء القنبلة دون ما هدف، كتفجيرها في جزيرة خالية لن يكون له اي حظ من النجاح في انهاء الحرب. وانما يجب ضرب هدف للعدو نفسه بهذه القنبلة .

وكان القرار النهائي المتعلق بمكان وزمان القاء القنبلة يعود اتخاذه الي انا وحدي. ولكن ينبغي ان لا نخطئ، القول: لقد كنت اعتبر القنبلة الذرية سلاحاً عسكرياً، فلم اشك اطلاقاً في انه يجب استعمالها.

إن أنبه مستشاري العسكريين قد اوصوني بذلك، وعندما تحدثت عن هذا الي تشرشل صرح لي، دون ظل من تردد، انه اذا كانت هذه القنبلة الذرية ستساعد على انهاء الحرب، وجب استعمالها، وانا حين اتخذت هذا القرار الاعظم، كنت اريد ان اكون واثقا ان هذا السلاح الجديد سيستعمل استعمالاً حسناً، ويعوجب قوانين الحرب، اي انني كنت اريد ان يلقي فوق هدف عسكري، وقتل للوزير «ستيمسون» انه يجب باكثر ما يمكن من الدقة، التصويب على مركز من مراكز انتاج الاسلحة ذي طابع «استراتيجي» لا جدال فيه.

وراحت مكاتب الوزير ستيمسون تعد قائمة بالمدن اليابانية التي يمكن ان تكون هدفاً للقنبلة الذرية. وقد استبعدت مدينة «كيوتو» من القائمة وكان الجنرال «آرنولد» يريد ان تكون هي الهدف لانه كان يرى انها تقع في وسط نشاط عسكري كبير، ولكنني استبعدتها، لان الوزير ستيمسون أبدى ملاحظته حول كون تلك المدينة موقعا دينيا يحج اليه اليابانيون باستمرار. وفي النهاية

أوصى بأربع مدن لكي تكون هدف القنبلة اللرية الاولى وهي: هيروشيما، كوكورا، نغازاكي، ونبيغاتا متسلسة حسب اهميتها العسكرية، الا انه كان يجب التحسب من الأحوال الجوية التي يمكن ان تنشأ في لحظة القاء هذه القنبلة.

وقبل الموافقة على هذه الاهداف المختارة، والتصريح بانها صالحة باعتبارها اهدافا عسكرية. رحت ادرسها شخصا وبالتفصيل مع الوزير ستيمسون، والجنرالين مارشال وآرنولد، وجعلنا، جميعاً نتناقش حول الوقت الملائم الذي يحسن فيه القاء اول قنبلة ذرية، وحول الاختيار النهائي للهدف المنشود.

-٥-

كان الجنرال «سباتز» هو قائد القوات الجوية الاستراتيجية التي عليها ان تحمل القنبلة الذرية وتنقلها الى نقطة فوق هدفها. وقد منح بعض السعة فيما يتعلق بتاريخ القاء القنبلة وتعيين مدى رؤية الهدف. وقد كان هذا ضروريا بسبب من الأحوال الجوية والمخطط الحربية التي لا بد من ادخالها في الحساب.

ولكي يتم الشروع في التحضير والاستعدادات فان وزارة الحرب تلقت الاوامر لاختبار الجنرال «سباتز» ان القنبلة الاولى ستلقى بعد اليوم الثالث من شهر آب وعندما يكون الطرف ملائماً.

وكان من شأن هذه الاوامر انها أدارت عجلة العمل بسرعة، وكنت انا قد اتخذت قرارى. ثم كنت قد انبأت الوزير «ستيمسون» ايضاً بان هذه الاجراءات تظل معمولاً بها ما لم اخبره بان جواب اليابان على اذارنا بانها الحرب اصبح مقبولاً.

ولقد اختيرت الفرقة (ب ٢٩) المختصة لهذه المهمة، واطلق عليها اسم الفرقة الجوية الـ «٥٠٩»، وادخل تعديل على طائراتها. ثم اصبحت على أتم

الاستعداد مع ما يلزمها من ملاحين ومعدات، وراحت تنتظر الاوامر.

وفي هذه الاثناء اخذت السفن والطائرات تنقل بسرعة فائقة العناصر اللازمة للقنبلة، والتي كان على الحبراء ان يجمعوها في جزيرة «تسيان» بأرخبيل «الماريان».

في اليوم الثامن والعشرين اعلنت اذاعة طوكيو ان الحكومة اليابانية قررت الاستمرار في القتال، ولم تلتق الولايات المتحدة وانكلترا، والصين جوابا رسمياً على انذارها اليابان بانتهاء الحرب. ومنذ ذلك الوقت لم يعد الاختيار في يدنا نحن... وهكذا فان القاء القنبلة الذرية عين له موعد يأتي مباشرة بعد اليوم الثالث من آب، الا اذا استسلمت اليابان قبل ذلك .

وكان السادس من آب، وهو رابع ايام عودتي بالبحر من بوتسدام، هو اليوم الذي تلقيت فيه النبأ التاريخي الذي هز العالم هزا. كنت. اذ ذاك على وشك تناول طعام الغداء مع بعض بحارة السفينة «ارغستا» فجاءني الكابتن «فرانك غراهام» الذي كان مسؤولاً عن الاتصالات بغرفة الخرائط في واشنطن ومد لي يده بالرسالة التالية: «وزير الحربية ومنه الى الرئيس. القيت القنبلة الضخمة على هيروشيما في الخامس من آب الساعة ١٥، ١٧ (بتوقيت واشنطن) التقارير الاولى تشير الى نجاح تام مع نتائج اشد اثاراً من تجربة التفجير السابق».

وقلقتني الانفعال فتحدثت هاتفياً مع «هايرنس الذي كان في الباخرة وأعلمته بالنبأ، ثم أعلمت فريق البعارة الذين كانوا يحيطون بي قائلاً:

- انه اعظم حدث في التاريخ لقد آن الاوان لنعود الى الوطن.

وبعد دقائق اخرى تلقيت رسالة ثانية هذا فعواها: «بعد مضي خمس عشرة دقيقة من القاء القنبلة يقول-بارسونز- ان النتائج كانت واضحة جداً، والنجاح جد

باهر علي طول الخط، وكان اثر القنبلة اضخم بكثير من اية تجربة تفجير سابقة.
احوال الطائرة التي القت القنبلة طبيعية بعد عملية الالتقاء.»

بعد ان قرأت هذه المعلومات الاخيرة اشرت الى جمهور البحارة الموجودين
وقلت لهم ان لدي ما اقلوه لهم. واعلمتهم عندئذ باننا استخدمنا الان قنبلة هائلة
ذات انفجار اقوى تدميرا عشرين الف مرة من طن متفجرات من مادة
وت.ن.ت.»

-٦-

ذهبت، من ثم، الى استراحة الضباط ورويت، للموجودين منهم هناك لتناول
الغداء، ما حدث، ولم اقالك نفسي من القول بانني ارجو ان ارى، على وجه
التأكيد، ان حرب المحيط الهاديء قد انتهت سريعا.

وبعد دقائق، فيما بعد، راحت محطة «اللاسلكي» في السفينة تلتقط
نشرات الاخبار من واشنطن، وهي النشرات المتعلقة بالقنبلة الذرية، وبما في ذلك
اعادة نقل تصريحه الذي أبعثه قبل مغادرة المانيا.

وبعد قليل جمعت مراسلي الصحف الموجودين في السفينة في مؤتمر صحفي
كشفت، خلاله، النقاب جزئياً عن الابحاث الطويلة والاعمال التي امكن بها
تتريج هذا العمل الحربي بالنجاح.

ومع ذلك فلم يصلنا اي عرض للاستسلام من اليابان. فارسلت الى الجنرال
«سباتز» اوامري بالاستمرار في العمليات الحربية كما هو متفق عليه في انتظار
تعليمات جديدة.

بعد ظهر يوم ٧ آب انتهت السفينة «اوغستا» رحلتها القياسية ودخلت في

خليج «شيزابيك»، وما ان القت مراسيها في «نيويورك نيوز» حتى هربت نازلا الى الارض وركبت قطاراً خاصاً انطلق بي من فوره الى واشنطن وفي البيت الابيض حيث كان ينتظرني وزرائي لتحييتي والترحيب بي وكانت رحلتي قد استغرقت شهراً كاملاً قطعت فيها ٩٣٤٦ ميلاً.

وفي اليوم التاسع من آب تم القاء القنبلة الذرية الثانية، وكان القاؤها هذه المرة على «نغازاكي». ثم امهلنا اليابانيين ثلاثة ايام لكي يستسلموا، وجعلنا في هذه الايام الثلاثة تبرهن لليابانيين اننا عازمون ان نضع تهديداتنا موضع التنفيذ.

لقد كانت مدينة «كوكورا» هي هدف القنبلة الذرية الثانية اصلاً، وكانت «نغازاكي» تليها على القائمة ، ولكن عندما حُلقت الطائرات فوق كوكورا غدت الرؤية رديشة، وبعد ان دارت ثلاث مرات حول هدفها دون ان تتمكن من رؤيته اجهت الى نغازاكي وقد كاد يتفقد وقودها، وهنا ايضاً كان الجو ملبدًا، الا ان ثغرة انتفتحت بين الغيوم فاتاحت للطائرة حاملة القنبلة ان تلقيها على نغازاكي بنجاح تام.

لقد كان هذا البرهان على القوة الفائقة للسلاح الذري مما اثار جنون طوكيو، ودفعها اذ جاسنا، في صباح اليوم التالي، الدليل على ان الامبراطورية اليابانية اصبحت مستعدة للاستسلام.

قصة أطول هروب

كتبها: روبير دلاكروا،

- ١ -

- انها طائرة المانية

هذا ما تصايح به، في صبيحة اليوم الخامس من شهر ايلول سنة ١٩٤٠ عمال كانوا يحملون في سيارة نقل صناديق الفاكهة في باحة أحد المزارع قرب «ميدستون» إحدى المدن في مقاطعة «كينت» وهم يشاهدون طائرة مطاردة المانية تظهر من خلفهم على ارتفاع نحو من خمسين متراً لا غير، وقد عرفوا أنها المانية من الصليب المعقوف المرسوم على دقة التوجيه في مؤخرتها.

راحت الطائرة تهبط نحو الأرض وقد تركت وراءها خطاً من الدخان الأسود، ثم اختفت وراء ستار من الشجر على بعد نحو من ثلاثمئة متر، وعلى الفور ترك عمال المزرعة سيارات النقل واندفعوا نحو المكان الذي افترضوا أن الطائرة الألمانية قد هوت وتحطمت فيه..

وقد وصل العمال إلى حقل كبير، إلا أنهم سرعان ما وقفوا ذاهلين مبهوتين.. لقد كانوا يتوقعون أن يروا الطائرة وقد استحالت حطاماً وهيكلها محترقاً، غير أنهم شاهدوا طائرة المطاردة هذه وقد حطت على الأرض ولم يمسهـا

سوء. لقد كانت ذرعان مروحتها فقط هي التي التوت عما يدل على أن هبوطها كان قاسياً وعنيفاً..

وكان يقف إلى جانب الطائرة طيار مكشوف الرأس، وقد غزقت صدرته الجلدية عن صدره، وراح هو يتم حرق أوراق كان يحملها.. كانت حركاته هادئة، مطمئنة، واثقة، وكان يتظاهر بأنه لا يرى حرس الأراضي الذين صوبوا بنادقهم جميعاً إلى صدره.

وأخيراً رأى الطيار أن يتبع أولئك الجنود، فسار ويده اليسرى في جيبيه، ولما مرت تحت شجرة تفاح مد يمينه وقطف تفاحة، وراح يقضمها باهمال من هنا وهناك ثم سرعان ما ألقى بها إلى الأرض. لقد ظل هادئاً طيلة الوقت باستثناء لحظة واحدة أريد فيها وجهه، وتفضضت أساريره، عندما رفع رأسه وشاهد في الفضاء طائرات القاء القنابل البريطانية التي أسرت طائرته في الجو واضطرتها إلى الهبوط كما وصفنا.

ومثل الطيار الألماني أمام الضابط الاتكليزي المحقق، وفيما كان هذا يدون أقواله سمعه يقول.

- إنني أراحتك على صندوق «شمبانيا» مقابل عشر سجائر على انني سأتمكن من الهروب قبل انقضاء ستة أشهر.

ورفع الضابط الاتكليزي رأسه عجباً من هذا الأسير الذي كان يدون أقواله قبل برهة، والذي يقترح عليه الآن هذا الرهان العجيب! أجل. انها أول مرة في تاريخ الحروب يتحدث فيها أسير حرب بمثل هذه اللهجة.

وهز الضابط الاتكليزي كتفيه وتنهّد، ثم استدعى الجنديين الواقفين يؤديان مهمتهما الرسمية أمام باب مكتبه، وأمرهما قائلاً:

- والآن اذهبا بالأسير.

ولما أصبح الضابط وحده راح يفكر: ما أغرب هذا الانسان، انه ولا شك هو ضابط الطيران الألماني «فون فون فيرا» الذي اشتهر بأنه من أمهر الطيارين الألمان، الذي اضطرته قاذفات القنابل البريطانية إلى الهبوط هكذا قرب «ميدستون».

لقد وضع موضع الاستجواب والتحقيق عدة مرات وقد حاولوا معه شتى الوسائل بالترغيب واللطف مرة، وبالقسوة والعنف مرة دون جدوى، فقد أبى دائماً أن يعترف بشيء، أو يفوه بكلمة إلا أن يردد مؤكداً إيمانه بانتصار الألمان، أو يتباهى بانتصاراته العديدة على الطائرات الانكليزية والفرنسية جميعاً.

وجعل «فون فيرا» يطلب، ويلح في المطالبة، بأن يرسلوا به إلى أحد معتقلات الأسرى، زاعماً أنه إنما يريد أن يشارك زملاءه في مصيرهم، والواقع أنه كان يرى أن الهرب من المعتقل أسهل وأيسر من الهرب من الغرف التي وضع فيها حتى الآن. ولقد كان «فون فيرا» صادقاً عندما تحدث الضابط الانكليزي بأنه سيتمكن من الهرب قبل انقضاء ستة أشهر على أسره. ولكن كيف تراه سيهرب؟ هذا ما لم يكن يعلمه، بعد، حق العلم، غير أن فكرة الهرب كانت تسحره وتغلب له على ما فيها من صعوبة تبلغ درجة الاستحالة..

وفي النهاية نقل «فون فيرا» إلى معتقل «غرايزيدال» في «لانكشاير» في أواخر شهر ايلول.

- ٢ -

كان الأسرى يسبرون في طابور واحد في طريق صغيرة ضيقة، وكانت هذه هي نزهتهم اليومية بحراسة عشرة من الجنود وعلى رأسهم رئيسهم الفارس.

واجتاز الرجال قرية صغيرة، وبعد عشر دقائق توقفوا عند متعطف في الطريق لينالوا حظاً من الراحة التقليدية وقد أبيع للأسرى أن ينفرط عقدهم، فراح بعضهم يتمشى فوق العشب الأخضر الذي كان يعف بجانب الطريق، ويقف بعضهم دون ما حراك وقد كونوا من أنفسهم كتلة متكئة كثيفة.. وكان يختفي وراء هذه الكتلة البشرية رجل.. وهذا الرجل كان الطيار الألماني البطل «فون فيرا».

وكان قائد فرقة الحرس يسير مستنشقاً الهواء الطلق في ذلك الصباح الحريفي، ولا ينفك يلقي نظرة إلى الأسرى من حين إلى حين.. واسترعت انتباهه عربة محملة بالفواكه كانت تقترب منه، وعندئذ أشار إلى سائقها، وهو صاحب دكان البقالة في القرية، لكي يشتري بضع تفاحات مما تحمله عربته، وبعد أن اشترى ما أراد نظر في ساعته، وأدرك أنه يجب أن يستأنف الأسرى السير، فأصدر لهم أمره لكي يعودوا فيصطفوا.

وعاد طابور الأسرى يسير، وقطع بضع مئات من الأمتار، عندما سمعت صيحات بعيدة.. وشهدت امرأتان تركضان وراء الأسرى وهما تلوحان بمندليهما..

وقال الضابط رئيس فرقة الحرس:

- لا بد أنهما تريدان أن تقدما طعاماً للأسرى الالمان.. ان الأفضل لهما أن تحتفظا بمشاعرهما لجنودنا. هيا إلى الأمام.

غير أن هذا الضابط كان مخطئاً، فما كانت هاتان المرأتان تتجهان بإشاراتهما إلى الأسرى الالمان، وإنما كانتا تشيران إليه هو، وتحاولان أن تفهما أنهما شاهدتا أسيراً يركض في السهل..

وكان هذا صحيحاً فان «فون فيرا» قد استطاع أن يهرب.. بعد أن أعمل التفكير والروية طويلاً بمعاونة زملائه الأسرى الآخرين الذين قاموا بدور اخفائه في برهة الاستراحة، وقد ساعدهم على ذلك مجيء عربة الفاكهة التي جذبت إليها انتباه الحرس ورئيسهم.

وقد سار «فون فيرا» محاذياً خط العشب الأخضر على الطريق، وهو منحرف ومتقوس الظهر، ثم ما لبث أن توقف خافق القلب، ذلك أن صياح المرأتين ربما أدى إلى تنبه الحرس. ولذلك فسيسمع بين لحظة وأخرى، لعلعة رصاص حراسه.. فالأفضل إذن أن يسلم نفسه قبل أن يقتل.

وراح «فون فيرا» ينتظر اللحظة المروعة، ولكنه عاد فاطمان اطمئناناً تاماً، فقد سمع زملاءه وقد علت أصواتهم بنشيد مدو من أناشيد الحرب يغطون به صياح المرأتين.. وهكذا لم يستطع الحراس الانكليز أن يتيبنوا غيابه من صفوف الأسرى، ثم أن هؤلاء الأسرى جعلوا همهم أن يبدلوا مواضعهم من الطابور لكي لا يلاحظ موضع فون فيرا الخالي.. ولما استطاع المسؤولون أن يدركوا أنه هرب فعلاً كان النهار قد ولى..

وانطلقت مفارز من الجند الانكليز يقلبون الريف رأساً على عقب في سبيل البحث عن فون فيرا بعد أن سمعوا نبأ هربه من الاذاعة وقرأوه في الصحف، ولكن أتعابهم ذهبت أدراج الرياح.

وفي ليلة العاشر من شهر تشرين الثاني كان اثنان من حرس الأراضي يقرمان بهراستهما المتجولة في متفصح كبير من الأراضي البور على مسافة بضعة أميال من الشاطيء الذي كان فون فيرا يسعى إلى الوصول إليه ولا شك، لكي يجد سفينة محايطة يركبها.

واقترب الحارسان من كوخ للرعاة وفي نيتهما أن يأويا إليه طلباً للراحة بضع

لحظات.

غير أن الحارسين وجدا باب الكوخ مفتوحاً، فأخرج أحدهما مصباحه وأضاءه، وعلى الفور تبين أن ثمة شاباً ملطخ الملابس بالرحل، وقد نهض للقائهما عندما شاهدهما.. وسأله أحدهما:

- هل معك بطاقة هويتك؟

وقال الشاب بعد أن فتش في جيوبه.

- بكل أسف ليست معي.. يبدو انني نسيتها.

وقال الحارس وهو يصوب إليه مسدسه:

- هنا ما كنت أتوقعه.. فأنت الأسير الألماني الذي هرب.

وعلى الفور سارع الحارس الآخر فأمسك بالساعد الأيسر للرجل المجهول وأحكم وثاق يديه الاثنتين بحبل وقال له:

- انك تدعى فون فيرا، أليس كذلك.

فقال الرجل:

- لا يسعني أن أنكر..

وعاد الحارس يقول:

- سر، اذن، أماننا.. إن البوليس ينتظرك على الطريق.

وأجابهما:

- أصبح هذا ؟ انه ليؤسفني حقاً أن أضطر إلى مفارقتكما.

وسحب فون فيرا ساعده الأيسر بعنف وفوجيء بهذه الحركة الحارس الذي كان ممسكاً بطرف الحبل الذي يوطه به الطيار الألماني، فاختل توازنه وتخلى عن مصباحه اليدوي فسقط منه، وعندئذ قفز فون فيرا إلى الناحية المظلمة بعيداً عن متناول الحارس الثاني الذي اندفع عبثاً وراءه...

ولم يسلم فون فيرا نفسه إلا في اليوم الثاني عشر من شهر تشرين الأول، بعد أن طوقه. وقد دامت مدة هربه ستة أيام كاملة.

* * *

قال أحد الحراس:

- انهم جد مرحين ومبتهجين هذا المساء.

وأجابه رفيق له:

- انهم يفعلون هذا منذ أسبوع.

والواقع أن فريقاً من الضباط الالمان في معتقل «سوانويك» في مقاطعة «ميدلاندز» قد اعتادوا أن يجتمعوا في حجرة تقع في الطابق الأرضي من عمارة المعتقل الوسطى لكي يفتوا ويعزفوا الموسيقى. وكانوا إذا تعبوا أداروا على الحاكي اسطوانات الغناء والموسيقى والآشيد.

وقد كان أشهر الضباط الأسرى في هذا المعتقل هو الطيار الألماني فون فيرا، وكان قد حكم عليه بالسجن في إحدى الزنزانات واحداً وعشرين يوماً بعد محاولته الهرب، ثم نقل إلى معتقل «سوانويك» هذا حيث لا يقوم الأسرى

بنزهات خلوية، وإنما يكفي المسؤولون باتاحة التزهة المكتبية لهم داخل المعتقل
وضمن الأسلاك الشائكة فقط..

وكان الحراس يفكرون وهم يرون فون فيرا مشتركاً في حفلات الموسيقى هذه
«لا شك في أنه عدل عن مشروع الهروب». ومع ذلك فلو قام أولئك الحرس
بزيارة مفاجئة للضباط الألمان لأذهلهم أن لا يروا فون فيرا بينهم. وإنما هو موجود
في حجرة مجاورة.

أتراه كان يأخذ قسطاً من الراحة في تلك الحجرة؟ أبداً والأحسن أن ندخل
هذه الحجرة. إنها تبدو كأنها تحت التجديد، إن الكثير من بلاط أرضيتها قد
اقتلع. وكان الحراس عندما يقومون بجولاتهم المسائية، ويلقون نظرة على هذه
الحجرة، وكانوا يجدونها مرتبة لم يحدث فيها أي تغيير. وإليك سر هذه
المعميات: إن فون فيرا لم يعدل عن مشروع هربه إلا أن معتقل «سوانويك» كان
شديد الحراسة. ولم يكن ثمة أي أمل في تخطي الأسلاك الشائكة والفرار من وجه
الحراس.

وعندئذ رأى فون فيرا أن يقوم بحفر نفق تحت أرض الحجرة، فإذا تم انجاز
هذا النفق تمكن من الخروج من منطقة المعتقل كلها.

- ٣ -

وقد كانت فوهة هذا النفق موجودة في غرفة صغيرة خالية غير مستعملة إلا
كزنزانة سجن ويفضي بابها إلى القاعة المخصصة للترفيه عن السجناء وهي
نفسها الغرفة التي راح «فون فيرا» يحضر هذا المر الأرضي مبتدئاً من الفوهة،
وكان زملاؤه الضباط يتعمدون الفناء والانشاد بصورة عالية لكي يغطوا
بأصواتهم حركة الحفر التي يقوم بها فون فيرا مع أربعة آخرين من زملائه
مستعنيين بأدوات وقعت لهم كيفما اتفق.

كان فون فيرا، إذا حانت ساعة عودته إلى الضباط الآخرين في قاعة الترفيه يسارع فيعطي فوهة المر باعادة بلاطات الأرضية المنتزعة إلى مكانها.

وكان العمل شاقاً، وأول ما صادفه من عقبات أنه وجد المر وقد اعترضته مجاري مياه قذرة، وكان لا بد من أن يميل الحفر عنها مستديراً حولها، ثم ان التهوية في النفق كانت تشتد سوءاً كلما اوغل في عملية الحفر، ولذلك كان هو وزملاؤه لا ينفكون يحفرون نصف مختنقين، ومتصبين عرقاً، ومتقطعي الأنفاس، وقد أنهكهم التعب وقلة الغذاء. وكان لا بد كذلك من ألف حيلة وتدبير لتفريغ التراب ونثره بمقادير قليلة لتحمله الريح..

وبعد انقضاء أربعة أسابيع طوال في هذا العمل المرهق انتهى فون فيرا وزملاؤه من حفر النفق أو المر المنشود، وقد سد فوهتيه من الطرفين بعناية لكي لا يكتشفه الإنكليز.

وقال فون فيرا لزملائه الذين كانوا هم أيضاً تواقين إلى المغامرة والهرب.

- ليس أمامنا أي فرصة للنجاة إذا لم نغادر بريطانيا بسرعة.

وإليكم خطتي: سأصل إلى أقرب مطار حيث أزعم انني طيار هولندي في خدمة سلاح الجو البريطاني الملكي، ثم أحاول الاستيلاء على إحدى الطائرات لتقلني إلى ألمانيا.

وفي هذه الأثناء استطاع أن يدير لنفسه، كيفما كان الأمر، زي طيار، ومر يروان ثم انسل الرجال الخمسة عبر النفق، وما لبثوا أن وجدوا أنفسهم بعد قليل في الهواء الطلق. وكانت السماء التي يضيئها نور هلال باهت قد ازدحمت بالطائرات الألمانية المظيرة على انكلترا، وكانت صفارات الانذار قد انطلقت معلنة ذلك. وكان الضباط الألمان في معتقل «سوانريك» لا ينفكون يجأرون بخنائهم

وأناشيدهم.

* * *

وعلى حين غرة أوقف محطتي الدراجة البريطانية، وهو من جنود الدورية،
دراجته واعترض طريق فون فيرا في ذلك الظلام وسأله:

- ماذا بك أيها الرجل؟

فأجابه فون فيرا:

- عفوك يا سيدي، فأنا طيار هولندي وقد سقطت طائرتي على بعد بضعة
أميال من هنا، فهل تستطيع أن تدلني على أقرب مطار من هنا؟

وفكر الرجل قليلاً ثم قال:

- مطار؟ لا أذكر..

فقال فون فيرا:

- أين أستطيع استعمال الهاتف؟

- في محطة «كودنوبارك» وما عليك إلا أن تستمر في طريقك هنا.

وبعد انقضاء نصف ساعة كان الطيار واقفاً عند شباك التذاكر. وسأله
الموظف:

- هل تريد تذكرة؟

فقال فون فيرا:

- كلا. أنا طيار هولندي في خدمة سلاح الجو البريطاني. قد سقطت طائرتي وهي من نوع بيلفتون» فهل تستطيع أن تحدث المطار هاتفياً؟

وتردد الموظف، وبدت له هذه الحكاية مشبهة، فقال:

- سأذهب لاختار البوليس، ورجال البوليس يعرفون ما يجب عمله.

فما هو اسمك؟

- اسمي «فان لوت».. الكابتن فان لوت من طياري خفر السواحل.

وتحدث الموظف مع مركز البوليس، واستعاد رجل البوليس الحديث مرات، ثم أخبره أنه سيرسل حالاً سيارة بوليس.. وعندئذ تغبرت ملامح فون فيرا، وسارع يقول للموظف:

- اسمع، يجب أن أفضي لك بهذا السر: لقد كانت طائرتي مزودة ببعض آلات الاستكشاف الحديثة، وأنه لعلّ جانب كبير من الأهمية أن أعود إلى قاعدتي في «ابردين» بأسرع ما يمكن لأقدم تقريرى.. فأرجوك أن تطلع بسرعة المطار.. أعني مطار.. مطار.

- مطار «هاكسل»؟

- أجل هو نفسه..

- إذا كان لهذا الأمر صفة الاستعجال فلا بأس.

وطلب الموظف مطار «هاكسل» هاتفياً.. وقال الضابط الذي تمّ معه الاتصال أنه لا يفقه شيئاً من هذه الحكاية كلها.. ومع ذلك فقد وعد، هو الآخر، بارسال سيارة وتنفس فون فيرا الصعداء.. فقد كانت أمامه فرصة جديدة متاحة..

قال له ضابط المطار:

- تقول أنك الكابتن فون لوت؟ وانك تقود طائرة من نوع «وليفتون»؟

وجعل فون فيرا يقدم شروحا وتفصيل وهو نافذ الصبر. وكان يشاهد من خلال النافذة بين الطيارات العتيقة الجاثمة على أرض مطار «هاكسل» - وهو مطار للتدريب - عدداً من المطارات الحديثة من نوع «هاريكيتز». وقال في نفسه: «انني حقاً بحاجة إلى احدى هذه الطائرات لأعود بها إلى المانيا».

لقد بسط الحظ عليه حتى اليوم، جناحه - انه حظ لم يكن مأمولاً دائماً. غير أنه في هذه اللحظة كان يحس هبوطاً احساس غير مريح، غير مطمئن. وأخذ الضابط يطالبه بايضاحات مصطنعاً لهجة دقيقة مؤدبة: «من أجل تقريرك كما تعلم.. إنها أوراق لا بد من الاطلاع عليها..»

وقال له أن «دايس» القريبة من «ابردين» القريبة من «سكوتلندا» هي قاعدته، فقرر الاتصال بدائس هاتفياً للتأكد... وأحس فون فيرا، عندئذ، أنه قد ووط نفسه، ومع ذلك فقد اعتزم أن يفاخر هذه المغامرة... وفيما كان الضابط ينتظر الاتصال الهاتفي، اتجه فون فيرا نحو مرافق المطار فدخلها ثم خرج من احدى نوافذها وراح يعدو في أرض المطار، وشاهد أحد الرجال الميكانيكيين قرب طائرة من نوع «هاريكين»، فقال له على عجل:

- أنا الكابتن فان لوت، ومعني أمر بأخذ احدى طائرات «هاريكيني» والذهاب بها إلى «ابردين»... وانه لأمر عاجل جداً.

وتطلع إليه الميكانيكي، وتردد قليلاً ثم طلب منه أن يوقع ايصالاً، واقتربا من الطائرة، فقفز فون فيرا داخلها. وحاول أن يعرف مؤشر الاتجاه فلم يفلح لأن لراحة التعليمات كانت مختلفة عن مشيلتها في طائرات «ميسر شميث»

الالمانية..

وقال فون فيرا للميكانيكي:

- لقد اعتدت استعمال الطائرات قاذفات للقنابل. فهلا ذكرت لي بعض الايضاحات المتعلقة بهذه الطائرات؟

وبعد انقضاء خمس دقائق كان فون فيرا يحاول ادارة محرك الطائرة. ولكن الميكانيكي صاح به:

- انتظرا انك لا تستطيع الانطلاق بدون بطارية.

وذهب الميكانيكي لبحث له عن بطارية. وانتظر فون فيرا وهو يرتعد من نقاد صبره وتوجسه.. وعلى حين غرة انتفض فقد سمع صوتاً يأمره أن يهبط من الطائرة - وأطل فون فيرا فرأى الضابط الذي كان يستجوبه واقفاً أمام الطائرة، إلا أن الحزم والتصميم كانا ظاهرين عليه. ولم تبد منه بادرة غضب واحدة، ولم يضطرب. وحسب فون فيرا، وقد خدعه مظهر الضابط، أن الحظ يخدمه هذه المرة أيضاً. غير أن الضابط قال له ببساطة:

- لقد محدثت هاتفياً مع قاعدة دايس فانزل.. انزل.. وبقي فون فيرا دون ما حراك.. وكانت ثلثة من الجند تقترب عندئذ من الطائرة. وخشي أن يأخذوه بتهم التخريب فيعدموه برصاصة، لذلك آثر أن يعترف بالحقيقة.

وقال الضابط متمتماً: «لقد كان هذا الوغد على وشك الاستيلاء على أحد نماذج طائراتنا السرية»، وهكذا أعيد فون فيرا إلى معتقله أسفاً حزناً، وأكثر تصميماً على الهرب في آن واحد.

* * *

في اليوم العاشر من شهر كانون الثاني سنة ١٩٤١ غادرت الباخرة «دوقة يورك» مرفأ «غرينوك» الاسكتلندي، وكان على ظهرها ألف راكب معظمهم من الأسرى الالمان المنقولين إلى كندا. وكان بينهم الطيار الالمانى فون فييرا. إن محاولته الأخيرة للهروب وإن أخفقت فقد أبقت في نفسه شعوراً بالاعتزاز والازدهاء والثقة. وجعل يحلم بـ «كندا» تلك التي لا يعرفها، وكان أشد ايفالاً في أحلامه لأنها قريبة من الولايات المتحدة التي كانت إذ ذاك ما تزال على الحياد ولم تدخل الحرب، وإذن فحسبه أن يعبر الحدود من كندا إلى أميركا ثم يلتجئ إلى أية قنصلية المانية هناك... وقال له ضابط الماني أسير من ضباط الغواصات:

- هنا كله حسن... إلا إذا أمكن أن تهرب الآن.

وابتسم فون فييرا، ثم تطلع إلى الضابط زميله، فأيقن أنه جاد فيما يقول - وعندئذ راح الضابط يشرح له خطته همساً وكانت الخطوة بكل بساطة: الاستيلاء على الباخرة نفسها...

- ٤ -

كانت الأنباء المكتومة قد تسربت فعلم ان الجانب الاكبر من هذه القافلة البحرية سيتجه الى افريقيا الشمالية، وأذن فان الباخرة «دوقة يورك» ستفصل عنها، وتستمر في اتجاهها الى كندا وحدها. وهكذا يؤلف الاسرى ثلاث فرق، تحتل احداها مركز اللاسلكي. والثانية تحتل جسر السفينة اما الثالثة فتستولي على مستودع الاسلحة.

تحمس فون فييرا لفكرة الهرب الجماعية هذه... وما لبث الاسرى ان اخذوا يختلطون، وهم متخفون بزي بحارة، برجال السفينة وكان المتفق عليه انه في اللحظة التي يتم فيها الاستيلاء على الباخرة يسارعون بالاتصال لاسلكيا

بالفواصات الألمانية لتهرع الى حمايتها.

وراح المتمردون ينتظرون بفارغ الصبر... وذات صباح شاع نبأ يقول بان
الباخرة «دوقه يورك» قد انفصلت عن سائر القافلة.

واندفع فون فيرا ورفاقه، وتأكدوا مما اشيع، وسرعان ما اخذوا يتأهبون
للاستيلاء على الباخرة... غير ان احدهم استدار فجأة الى الخلف فشحب وجهه
وارتحف... ذلك انه شاهد على مبعده يسيرة لا تتجاوز نصف ميل كتلة ضخمة
تسد الفضاء... انها المدرعة البريطانية الجبارة «راميليس» تغفر الباخرة «دوقه
يورك» تسير وراها حتى تبلغ مستقرها



وند مشروع الاستيلاء على الباخرة، فتأهبت رحلتها حتى تبدت مشارف
كندا لعينى فون فيرا وهو واقف بتأملها على ظهر السفينة ثم سرعان ما القت
مراسيها في «هاليفاكس».

وسأل فون فيرا احد زملائه، وهو يعرف كننا معرفة جيدة، عن افضل مكان
يهرب منه فقال له هنا: «افضل مكان للهرب يقع بين «مونتريال» و «اوتاوا»
قريباً من نهر «سانت لوران» الذي يقع على الحدود».

وعلم فون فيرا ان القطار الذي سيحمل الاسرى الى مكان اعتقالهم لا بد ان
يمر بهاتين المدينتين.

ولما صار في عربة القطار ادرك ان هربه ليس بالامر الهين اليسير، فقد كان
الجنود المسلحون يتجولون في ممرات القطار ولا ينفكون يراقبون مقاصير القطار
بشدة وحذر.

وفيما كان القطار منطلقا في الريف المكسور بالثلوج كان فون فيرا يبحث عن الطريقة التي يستطيع بها التواري عن انظار اولئك الجنود، فلا يرويه وهو يفتح نافذة القطار ويقفز منها الى الخلاء ولما غادر القطار محطة «مونتريال» وجد بغيته، وتداول مع زملائه لتنفيذها... وكانت سرعة القطار شديدة جدا، واخيرا وقف في محطة منعزلة، وبعد بضع دقائق استأنف سيره، وعندئذ أشار فون فيرا اشارة برأسه فسارع احد زملائه ويسط «بطانية» عالياً كأنما يريد ان ينفضها متهيئاً للنوم، وهكذا اخفت البطانية الاسرى الموجودين في مقصورة القطار عن انظار الحرس لحظة بسيرة استطاع فون فيرا في اثنائها ان يفتح النافذة ويوازن على قضيبها المتعارض ثم يهبط الى الخارج، واغلق زملاؤه النافذة، وانطلق القطار باقصى سرعته.



بقى فون فيرا منطرحاً فوق الثلوج وقد فقد اكثر وعيه من شدة الصدمة، وخيل اليه كأنما البرد الشديد والثلوج الكثافة قد الصقته بالارض. ثم ما لبث ان احس بموجة من السرور تجتاحه اجتياحاً. لقد غدا طليقاً... وحسبه مسيرة يوم واحد فقط ليلبلغ اميركا نفسها التي كانت لم تدخل الحرب بعد.

واستطاع ان ينهض، ثم اخذ يفذ السير في اطواء الليل محاذيا احدى الغابات وتوقف فجأة فقد سمع صوت محرك، ووجد نفسه قريباً من طريق عامة.

وشاهد عن يساره اضاءة سيارة تتبعد فتابع سيره مستهذياً بهذه الاضاءة، وبعد انقضاء ربع ساعة كان يسير في الطريق العامة. وعندالفجر وصل الى «جونستاون» على ضفة سان لوران اليسرى، وشاهد امامه الانوار الاميركية تسطع وتتألق.

وكان نهر سان لوران نصف متجمد فسار فون فيرا فوق الجليد، ولكنه اضطر

ان يعود على اعقابه، فقد شاهد امامه مساحة كبيرة من مياه النهر غير متجمدة.

وراح يتطلع من حوله وقد نال منه التعب والجوع والبرد، ثم سار على غير هدى فاكشف مجموعة من الاكواخ وهي اماكن سكن لمصطافي المنطقة في فصل الصيف. ورجا في نفسه ان يدخل احد هذه الاكواخ فيجد ما يتبلغ به. وقفز من فوق سور صغير وسرعان ما نسي تعبهِ وجوعه فقد اكتشف اكتشافاً رائعاً اذ عثر على قارب، والقارب هو وسيلته التي يقطع بها نهر سان لوران ويصل الى الشاطئ، الاميركي.

وراح فون فيرا يجز القارب بمشقة والدم يخفق في رأسه بشدة... حتى وصل به الى الماء... كم تراه امضى من الوقت حتى استطاع دخول المياه الحرة؟ انه لم يستطع قط ان يعينه بالدقة. وبعد لأي وضياح في تلك المياه، يسبح به القارب مرة هنا، ومرة هناك، وصل الى الشاطئ، الاميركي، وهبط فون فيرا من القارب وسار على الحجارة يترنح فوق الجليد حتى اقترب من بيت كبير وقد استضاءت نوافذه بانوار الكهرباء.. وفي هذه اللحظة شاهد امرأة تخرج من سيارة فاستوقفها وسألها هامساً:

- عفوك يا سيدتي... اتراني الان في اميركا؟

وذهلت المرأة وسألته:

- هل انت مريض؟

- كلا. ثقي انني لست مريضاً. ولكن في اي مكان انا الان؟

- انك في «اوغدنسبورغ» وانا ممرضة في مستشفى ولاية نيويورك.

وفي هذه الاثناء اقترب احد رجال البوليس وطلب منه أن يبرز اوراق هويته،

ولما لم يكن في حوزته اية اوراق فقد استأقنه الى المركز حيث اضطر ان يكشف عن حقيقته. وقد سمح له ان يتصل هاتفياً بالقنصلية الالمانية في نيويورك فهرع اليه رجال القنصلية واخذوه في كثير من الاعجاب والرعاية.

وظهرت الصحف الاميركية في اليوم التالي وقد روت قصة فون فيرا ووضعت لها اضخم العناوين. وفي هذا الوقت نفسه كانت واشنطن تدرس قضية الطيار الالمانى الشهير فون فيرا... وفي يوم ٢٥ كانون الثانى سنة ١٩٤٠ تقرر انه وفقاً للقوانين الدولية فان الأسير الهارب يجب ان يعاد الى بلاده المانيا عندما تسمح الظروف بذلك. وفي وسعه، في انتظار اعادته الى المانيا، ان يقيم في نيويورك.

واقام فون فيرا عدة اشهر في نيويورك وعاش فيها عيشة مسرة ومرح، وكان كثيراً ما يتلقى باقات الورد ودعوات الى مآدب العشاء من الجالية الالمانية هناك.

وكثر الحديث عن فون فيرا، بل لقد كثر الحديث عنه اكثر مما يجب، وشاعت الاتباء بان اثنين اخرين من الاسرى الالمان قد قرا مثله ووصلا الى الحدود الاميركية فاعادتهم السلطات الى آسريهم... واذن فلا يستبعد ان يكون حظه كحظ هذين الاسرين في اية لحظة فماذا يفعل؟

لا بد من الهرب مرة أخرى. كان حشد من الناس يجتازون في الساعة الخامسة كل يوم جسر «ريوغرانده» القائم على حدود الولايات المتحدة والمكسيك، فيما بين «البازو» و«سيوادا جوارتش» تخفى فون فيرا بزي فلاح من عمال المياومة وراح يسير بمشقة بين جماعة من اولئك العمال العائدين الى بيوتهم على الحدود المكسيكية الاميركية، وكان يسرق امامه عربة يد مليئة بالزبل والروث والقاذورات ذات الروائح الكريهة محاولاً قطع الجسر، واقترب حرس الجمارك

الذين يدققون في هويات من يقطعون الجسر، اقتربوا من عربة اليد تلك ليفحصوا أوراق صاحبها غير أن رائحة القاذورات زكمت انرفهم فابتعدوا مشمئذين... وقالوا هازئين: «ها ان الولايات المتحدة الان تصدر الزيل والروث...» وابتسم سائق العربة الصغيرة ابتسامة بلهاء مصطنعة... وتابع سيره، وما كاد يقطع الجسر حتى ترك الى جانب عربته وزيله وروثه، واختلط بالناس، واخرج منديله، ورفع قبعته ليجفف عرقه... اجل... انه هو نفسه فون فيرا... لقد خدمه الحظ واستطاع ان يجتاز الحدود الى المكسيك... وغذ السير الى محطة السكة الحديدية واشترى تذكرة الى «مكسيكو» وجلس في عربة من عربات الدرجة الثالثة... وفي اليوم الثامن والعشرين من شهر آذار سنة ١٩٤١ اقترب سائق سيارة «مرسيدس» سوداء أنيقة وحمل قبعته بيده، اقترب من رجل قد طال شعر لحيته دون ان يحلقه، وارتدى ملابس جد قذرة وقد اخذ يهبط من القطار... وسأله سائق السيارة:

-الضابط الطيار الكولونيل فون فيرا؟

وعندئذ استضاء وجه الرجل الذي يرتدي الملابس القذرة، وسرعان ما دخل سيارة قنصل المانيا..

استراح فون فيرا بضعة أيام وهو يعجب كيف حاول الفرار ثلاث مرات، وفي كل مرة كان يحسب نفسه قد نجح، ولكنه يعود الى الهرب ثانية... فهل نجح تماماً هذه المرة؟ ان عليه الان ان يقطع مسافة اخرى طويلة قبل ان تتم له النجاة النهائية. وهذه المرة ركب الطائرة التي ذهبت به الى «البيريو» ثم «بوليفيا» و«البرازيل» وفي يوم ١٣ نيسان كان غلدر «ريودي جنيرو» على طائر مائية ايطالية تقطع الخط الجوي التجاري بين اميركا الجنوبية وأوروبا. وفي يوم ١٧ نيسان كان فون فيرا، في روما، وفي الغداة كان في برلين.

وقد انعم عليه بهوسام « صليب الفرسان » ورفع الى رتبة قائد سرب، ومنح
اجازة طويلة تزوج خلالها ، ثم حارب في روسيا، واخيراً عهد اليه بعمليات خفر
السواحل جويًا.

وفي يوم صباح ٢٥ تشرين الاول اقلع بطائرتة على علو منخفض فوق داره
حيث كانت ترقد زوجته الشابه... وكان ذلك التحليق فوق داره كان وداعاً
اخيراً... .

والواقع كان الوداع الاخير حقاً... اذ لم يتقضى ربع ساعة حتى هوت طائرتة
في البحر كالحجر الثقيل. ولم يعثروا على جثته قط... ان فون فيرا لم يكن
ليسدري، في نهاية هروبه الطويل ونجاته من أسريه، ان ابواب الموت مفتوحة
لاستقباله على رحبها... .

٥٠٠٠ عالم الماضي في الأسر

كتبها: ميشل بار زوهار

«هذه قصة مطاردة الادمغة الألمانية واصطيادها ووضعها في قبضة الاسر والمراقبة الشديدة لكي تنتج خوارقها ومعجزاتها العلمية في مجالات الذرة والصواريخ الجبارة وتقدمها للفاتحين في أعقاب الحرب العالمية الثانية. وقد ترجمنا لك ما فعلته القنبلة الذرية الأولى في هيروشيما مكتوباً بقلم طبيب ياباني كان يعمل في (...) المدينة. وترجمنا لك كذلك مقال الرئيس السابق «هاري ترومان» الذي روى فيه الظروف التي أملت عليه بأن يأمر بالقاء القنبلة الذرية على هيروشيما. ونترجم لك اليوم أساليب ستالين وأعدائه في مطاردة العلماء واصطيادهم وسوقهم إلى أسقاع روسيا ومناهاتها لكي يضعوا أدمغتهم في خدمة الروس. وينتجوا لهم ما لم يكونوا قادرين على انتاجه من مختلف الصواريخ والأسلحة الفتاكة في أعقاب نهاية الحرب».

- ١ -

- هيا.. بسرعة.. بسرعة أكثر.. وأكثر.. وأكثر..

وينهض وسط الصحراء برج مستوحد، وتنهض بقره أساطين يعلوها مخروط نحيل ضامر تقوم على حمايتها جميعاً الأسلاك الشائكة والمدافع الصغيرة الرشاشة.

إن اشعاعات الفجر الأولى أخذت تنير مجمع الخيام الكبير، وهي خيام مطبوعة عليها هذه العبارة «صنع الولايات المتحدة». وكانت تسير بين الخيام سيارات النقل التابعة للجيش السوفياتي، كما كانت تنتقل، هنا وهناك، كاسحات الثلج التي استعملت هنا، على نحو غريب، لتسهيل الرمال.. وحيشا امتد البصر في تلك الأصقاع لا ترى العين إلا رجالاً منتشرين.. رجالاً في كل بقعة ومكان..

* * *

كان الجو بارداً برودة الثلج، وكانت الرياح تهب فوق سهول كازاكستان القاحلة، وجنود الجيش الأحمر يبدون متدثرين بمعاطفهم السمكية، ومعتمرين قبعات من الفراء، وقد جعلوا يختلطون بجماعات الفلاحين ذوي الشوارب الكبيرة الذين هرعوا من هنا وهناك ليشاهدوا ما يحدث..

وقد حضر من «ستالنفرد» الرجال الطلائع في فرقة جنود الاصطدام. وحضر كذلك كل من (...) أكاديمية العلوم، في حين كان (...) ذوو اللهجة الألمانية منهمكين (...).

ولن تمضي بضع ساعات حتى ترتفع الحرارة الشديدة بدلاً من صقيع ليل القطب الشمالي. ولن يحين وقت الظهر حتى لا يصود في وسع المرء أن يظن مرتدياً ولو رداء البحر الخفيف.

وكان يبدو الرجال وكأنما قد تأججت أعصابهم حول البرج المرتفع والخزانات الضخمة، فقد كانت الشائعات والمسابات تندفق من بين شفاههم باللغتين الروسية والألمانية.. وفوق مدرج للطائرات صنع على عجل وكيفما اتفق حطت طائرة رسمية كانت تقل نفراً من الجنرالات والمدنيين، يمكن أن تميز العين، من بينهم «أوستينوف» وزير التسليح، وقد جرى المسؤولون يقدمون له «الهر دكتور

غروتروب» و«الهـر دكتور ولف» والدكتور ألبرينغ، والدكتور آميغانياخ وغيرهم وغيرهم من العلماء الألمان.

فما الذي يحدث، إذن، في هذا اليوم الثلاثين من سنة ١٩٤٧ في ركن منعزل ضائع في آسيا الوسطى؟

إن الذي سيحدث، ببساطة، هو إطلاق أول صاروخ سوفياتي.

إن البرج المصنوع من مواد مجلوبة من «بينموند» لم يكن ثابتاً، وطيد الأركان.. ولكنه، على أي حال، كان متماسكاً.

وقد كان الصاروخ يبدو واضحاً في المكان المعد لإطلاقه، وكانت الخزانات الضخمة ممتلئة، وكانت خيوط من دخان أبيض تنفلت من ذيل الاسطوانة الكبرى المصوية نحو السماء.. وعلى حين غرة.. -وأأسفاه- يترنج الصاروخ إذ قد انهارت إحدى ركائزه.

ودونما اهتمام بالخطر اندفع الجنود نحو البرج وأعادوا الركيزة المنهارة إلى موضعها.. وفيما كانت قلوب الحاضرين تخفق بشدة متزايدة.. أخذت أصوات التحذير الأمرة بالتراجع تتصاعد من مكبرات الصوت.

وصدر الأمر القاطع.

- أطلقوا النار.

وسمع على الفور زئير يصم الآذان ولا ينفك يزداد هديراً ودوياً، وانبعشت دفقة من اللهب.. ثم راح الصاروخ يرتفع في الجو.

تفجرت حناجر ثمانية آلاف شخص بصيحة فرح واحدة، وراح «اوستينوف» يحتضن المدير الروسي للقاعدة، ثم يستدير نحو رئيس المهندسين الالماني «هيلمان غروتروب» فيأخذه في أحضانه وهو يهتف قائلاً:

- أ رأيت؟ إن الصواريخ الروسية أفضل من مثيلاتها الالمانية؟

غير أن صوتاً، من بين جماعة العلماء الالمان لم يستطع إلا أن يقول في ملاحظة ساخرة:

- لم يشترك الروس في شيء من هذا كله، وإنا هم المهندسون الالمان الذين صنعوا كل شيء بمواد المانية خالصة..

ومع ذلك فإن روسيا سجلت دون حرج، في سجل رصيدها، هذا النجاح في اطلاق الصاروخ، وعلقت عليه بما يلي: «انه ثمرة جهد خارق ضخم ابتدأ منذ اللحظة التي انتهت فيها الحرب».

وفي نهاية سنة ١٩٤٤ صدر مرسوم من الكرملين بانشاء معهد جديد باسم «الدائرة الخاصة» وأعطى حق الاشراف عليه إلى جورج مالىنكوف.. وكان الغرض من ذلك واضحاً وهو «الاستيلاء عن طريق رجال الكوماندو الخصوصيين على جميع الأعتدة والأدوات التجارية والعلمية التي يمكن أن تكون ذات نفع للاتحاد السوفياتي، والتي تصدر باسم اصلاحها واعادتها إلى ما كانت عليه..»

* * *

كانت روسيا قد قررت أن تضرب ضربتها الكبرى وهي أن تهدم المصانع، والمعامل، ومعاهد البحث، وأن تنقل إلى أراضيها ليس فقط الآلوف المؤلفة من

أطنان الآلات، والأدوات، والمواد الخام، والوثائق والمستندات، بل الرجال أيضاً، الرجال القادرين على عملية تنسيق هذا الجهد الجبار.

ومنذ سقوط برلين استقر في العاصمة الألمانية قسم خاص، وكان «شوسترك» هو رئيس هذا القسم، ولم يكن في جعبته، في الحقيقة، إلا القليل من المعلومات التي يمكن أن تكون دليلاً له في مهمته، وأقل القليل، إلى حد بعيد، مما كان يملكه الأميركيون من هذه المعلومات.

ومن ناحية أخرى فقد كان التنسيق فيما بين «الدائرة الخاصة» و«القيادة العامة» على غير ما يرام. كيف لا وقد كان القائد الروسي «اناطول فافيلوف» -وهو الذي كان أول من دخل «بينموند»- يحمل في جيبه الأمر الجازم بأن يقرض هذه القاعدة «بينموند» ويدمر جميع موادها ومحتوياتها..

ولم تكن المهمة سهلة بأي حال أمام العملاء التشيكيين للجيش الأحمر، وهم لم يزودوا بأية إيضاحات أو تعليمات دقيقة وجادة، وقد وقفوا وجهاً لوجه أمام السكان الألمان الذين لا ينظرون لهم على غير البغض والمقت..

وفي مثل هذه الأحوال فإن في وسع المرء أن يتبين مبلغ الفرحة التي احتلت قلب الضابط الكبير «فلادمير شابينسكي» عندما اكتشف في المانيا مصانع «ميتلورك» الهائلة بمعاملها الضخمة وقاعات التركيب فيها وصواريخها غير التامة.. وعجب كيف أن الأميركيين، الذين غادروا المنطقة قبل ثلاثة أيام فقط، لم يكونوا من النباهة بحيث تركوا هنا كله في مواضعه لم يسروا منه شيئاً.

وأدلى ضابط الماني بهذه الملاحظة:

- سيئدومون كل النعم بعد عشر سنوات، إذ أن صواريخنا يومذاك ستستطيع اجتياز المحيط الاطلسي.

واستطاع القائد «يغوروف» وهو من أعضاء القسم الخاص الذي مر ذكره تأليفه، أن يجلب، من مصانع ميتلورك ومن مخايم «هارتز» حمولة سيارات نقل كاملة من الوثائق والكتب العلمية. وعندئذ أقام شوستوك على شرفه وتكريماً له مأدبة فاخرة في مقر القيادة العامة في «ناراكانوف». وفي أثناء هذه المأدبة كانوا يتبادلون الأتخاب ولا ينفكون يعجبون كيف فات الأميركيين أن يتفطنوا إلى قيمة ما في مصانع «ميتلورك» من كنوز الصناعة وبناء الصواريخ. فهل فات الأميركيين حقاً أن يتفطنوا إلى هذا كله؟ الجواب قطعاً «لا». إلا أنهم في ذلك الوقت، لم يدر لهم في خلد: ان حرب المستقبل ستكون حرب صواريخ في الدرجة الأولى...

- ٣ -

كان اكتشاف مصانع «ميتلورك» أشبه ما يكون بضربة سوط ألهمت رجال «شوستوك» فانطلقوا إلى «بينموند» واستطاعوا أن يتقدروا اثنين من مختبرات البحث، وبعض متعلقات الصواريخ، ويضع عشرات من القنابل الطائرة «فا ١ وفا ٢» وصواريخ مضادة للطيران. ومن على أرصفة «لوبيك» و«ماغدبورغ» استرجعوا الزوارق الضخمة المليئة بالصواريخ والمحروقات التي جهد «فون براون» في تزجها، ثم دار البحث الدقيق جداً في جبال «هارز» حيث أمكن الحصول، في النهاية، على غنيمة كبرى من المعدات والوثائق.

ومع ذلك فقد كان السوفييات يبحثون بنافذ الصبر عن الرجال الذين يستطيعون أن يعلموا الاتحاد السوفييتي كيفية استعمال كل هذه الثروة العلمية الهائلة - إلا أنهم، في هذا المجال، سيصادفون متاعب ومشقات إذ أنه لم يبق في المنطقة السوفييتية من المانيا أحد من هاتيك الأدمغة التي تنطوي عليها رؤوس مستطيلة الشعر.. لأن أصحاب هاتيك الأدمغة قد فروا جميعاً إلى المانيا الغربية على اثر اقتراب الشيوعيين من ناحية الشرق. ولقد كانوا قلة، أولئك

العلماء الذين كانوا يؤمنون بأن عالم الغد سيكون عالماً ماركسياً، وأن عليهم، بناء على ذلك، أن يبقوا حيث هم.

- هير هانس كول؟

انطلق هذا السؤال من قم ضابط روسي شاب وقد بقي واقفاً على عتبة الباب، وابتسامة تعلو شفتيه، وكانت تقف وراء سيارة «جيب» أميركية، ولكنها مرسومة بالنجمة الحمراء، انها سيارات أهديت لستالين بموجب قانون الاعارة والتأجير الذي سنه روزفلت.

ولكن ماذا فعل أولئك الروس لكي يكتشفوا العالم الألماني الكبير «هانس كول» في مدينة «جوتنبروغ» الصغيرة في جنوب برلين؟

والواقع أنهم وجدوا عنوانه عند مصانع (تليفونكن) في برلين، ولم يضيعوا الوقت سدى عندئذ. وكان ذلك اليوم هو الخامس عشر من شهر حزيران سنة ١٩٤٥.

وعاد الضابط الروسي الشاب يقول:

- هير كول: هل تريد أن تعود فتزاول عملك في قسم القيادة الالكترونية والاشراف على القتابل الطائرة «ف٢»؟ اننا على وشك اعادة انشاء المشروع، وفي وسعك أن تبدأ فوراً مزاوله عملك.

وبدأ الضابط الروسي الشاب وكأنه لا صلة له بما كانت دعاية «غوباز» تصفهم بأنهم من «الكتاب الكواسر».. كان مؤدباً، ومنتبهاً، وكان يصغي باذن واعية للأسئلة، ويجيب عليها، ولا يفتأ بعد أحلى الوعود وأجملها من بيت خاص مريح، وراتب ضخيم، وغذاء، ودخان، ثم اعادة انشاء المصنع السابق الذي

كان قائماً أيام هتلر.

وأجاب كول:

- عظيم جداً.. ولكن ما هي حقيقة الاشاعات التي تقول بالترحيل القهري إلى روسيا.. وما الرأي فيها؟

وأجاب الضابط الروسي:

- هذا ما لن يكون...

ولم يستطع هانس كول أن يقاوم الاغراء المعروض عليه، ولم تقض بضعة أيام حتى كان يقيم، مع أسرته في بيت مريح بهيج في «هوهن سكونهاوزن» القريبة من برلين. ولقد وجد هناك مهندسين وفنيين المان مثله، وعلماء من السوفييت يتحدثون الألمانية بصورة مذهشة.

ويبلغ السرور من العالم «كول» حذاً دفع به إلى مصاحبة الشخصيات الرسمية إلى «بينموند» ومساعدتهم في حفر الأرض واستخراج الأجهزة والآلات المدفونة فيها. وبعد عودته باشر عمله، وأماط اللثام عن جميع الأسرار المتعلقة بعمل هذه الأجهزة.

- ٤ -

كان العلماء والفنيون الالمان يعملون، وقد لزمهم العلماء الروس حتى لا يكادوا يفارقونهم، وكان العلماء الالمان يتدفقون بعامل الاغراء، كانوا يتوافدون ليلاً في سيارات محجوبة النوافذ، وسرعان ما يقيمون في دور جميلة، ويصكفون على العمل دون تباطؤ.

ولماذا تراهم يترددون؟ كانوا يعلمون أنهم مطاردون، مطاردون حتى لو بدا الروس في غاية التأدب.

ولكن، يا للشيطان، كيف استطاع هؤلاء الروس أن يعرفوا مكان اختفاء هذا الحشد من الفتيين الألمان، كبارهم وصغارهم على السواء؟

الواقع أن الروس لم يتركوا مكاناً إلا بحثوا فيه، وفتشوه، من بلد إلى بلد، ومن بيت إلى بيت. ولقد نصبوا في كل مكان، خيوطهم الحربية المغرية. وما أكثر ما سألوا الأسرى، والسجناء والضباط القدماء، والموظفين.. هل لقد قلبوا المعتقلات قلباً، ومحتشمات الأشخاص الذين نزحوا عن مدنهم أو بلدانهم..

وأني رجل، في تلك الحقبة كان يرفض عروض العمل، وهي عروض لا تعني إلا العيش الرغد والحرية؟

الحرية؟ إنها لكلمة تقال بسرعة. ذلك أن أحياء السكن التي أقام فيها العلماء والفتيون الألمان وإن كانت مريحة جداً فإنها، مع ذلك، كانت محاطة بالأسلاك الشائكة، ومحروسة ليل نهار، لا يفارقها الحراس المدججون بالسلاح أبداً..

ومع ذلك فإن هذا كان أفضل من الإقامة في معتقل وأحسن حالاً من البؤس الرهيب..

في ظل هذه الحراسة المشددة، وفي ظل هذا التعميم الذي هبط على العلماء الألمان، جعلوا يعملون، ويعيدون إنشاء مراكز البحث العلمي والصناعي، وسرعان ما قام معهد «راب» في «بلاشيرود» وقامت مختبرات «جيما» قرب برلين، ومصانع الطيران، والالكترونيات، والفيزياء، والملاحة الجوية، ومعامل «كروب» نفسها..

في هذه الأثناء كان مبعوثون سريون يتسللون خفية إلى المنطقة الغربية فيطرقون الأبواب، ويعرضون عروضهم المغرية، وقد لجحوا في حشد مجموعة صغيرة من العلماء الألمان أصحاب الأدمغة وهربوا بهم إلى المنطقة الشرقية..

وأقيمت على ضفاف «الايلب» الشرقية مكبرات الصوت الضخمة التي راحت تعيد وتكرر اباما طويلة هذا الاعلان: «أين ارنست شتاينهوف؟ من يعرف عنوان شتاينهوف؟ إن مكافأة سخية ستكون من نصيب من يدلي بعلامات عنه.»

وهكذا تناهى إلى علم شتاينهوف، وهو أكبر دماغ أو أكبر عالم في الالكترونيات، انه مطلوب للروس لقاء ثمن باهظ.

وقد استطاع أن يتنجو من الوعيد والتهديد، غير أن الروس حصلوا على ما كان فيه عزاء لهم. لقد أتوا بمساعد شتاينهوف، العالم الشاب «هيلمات غروتوب»، أجل انه عالم ممتاز، ولكنه سيء الخلق.

والعجيب أن فضل النجاح في حصول الروس على هذه الغنيمة الثمينة يعود إلى الأميركيين أنفسهم، فكيف كان ذلك؟

لقد استطاع أن يدخل الولايات المتحدة ثلاثمئة وخمسون فقط من ألوف الفنيين، والخبراء، ورجال البحث الألمان الذين ابتلتهم هزيمة ألمانيا بالبطالة. ومن فنيي وخبراء ومهندسي «بينموند» البالغ عددهم خمسة آلاف رجل لم يستطع اجتياز المحيط الأطلسي إلى أميركا غير مئة وسبعة وعشرين شخصاً، وذلك عندما قرر هاري ترومان، في سنة ١٩٤٦، انه في الامكان «استيراد» ألف عالم ألماني.

أما الآخرون، عندما فتحت أمامهم أبواب معتقلي «غارميش»

و«تينونهاوسن» فقد انطلقوا أحراراً يلهبون حيث يشاؤون.. وحتى إلى المنطقة السوفييتية.

وكان من بين هؤلاء، بل في طليعتهم «هيلما غروتروب» فقد اجتاز الحدود الداخلية، وكان مصمماً أن لا يفترق عن زوجته وولديه الصغيرين ولو للحظة واحدة وكان يفضل أن يعمل في انكلترا، أو في المانيا نفسها..

فكيف استطاع السوفييت أن يعلموا بقراره هذا؟

- ٥ -

استقل في وطنك..

كيف استطاع الروس أن يدركوا نوايا «هيلما غروتروب»؟ هذا ما كان مجهولاً إلى اليوم. غير أن الروس زاروه في منزله غداة خروجه من المعتقل، وتقدم منه الجنرال «عايدوكوف» وعرض عليه ادارة مصانع ومعامل «ميشلورك» التي أطلق عليها الالمان اسماً جديداً هو اسم «زانتراالورك» وقال له:

- اننا نؤكد لك، وتضمن هنا التأكيد، انك لن تنقل من المانيا إلى روسيا وستظل تعمل في وطنك نفسه.

وقد علق على هذا أحد الاميركيين فيما بعد فقال: ان غروتروب، وان كان شاكياً وطموحاً، إلا أنه أدرك أنه يمسك بذهب نجم محرق، وقد كان لا بد لكل من يساعده ويأخذ بيده أن يقدو سيده المتحكم في أمره..

ومع ذلك فقد تبع الروس واستطاع بالمبالغ الضخمة التي وضعت تحت تصرفه أن يجتذب الكثيرين من زملائه للعمل في المصنع الضخم الذي أعيد فتحه في جبال هارز، وهكذا عادت الحياة إلى أبي الهول..

قنبلة طائرة فوراً

وبعد مضي ما يقرب من خمسة أشهر كان غروتروب قد جمع تحت أمرته أكثر من خمسة آلاف عامل فني الماني كان من بينهم العلماء والفنيون القدماء في معامل بينموند نفسها أمثال الدكتور «والديمار شيرهورن»، وهو العالم الساحر في شؤون خلط الألمنيوم وتركيزه، والدكتور «آليرنغ» المدير السابق لمعهد «دانترنغ» للفعاليات الجوية، والذي كان رئيس انتاج الصناعات الثقيلة، وقد استطاع هو أن يأتي بالعالم «جوشن آمضمباخ» الحبير باطلاق الصواريخ، وغيرهم كثيرون أمثال «مولر» و«ماغنوس» و«هوش»..

ولم تلبث نتائج هذا الحشد للأدعة الألمانية المبدعة أن ظهرت للعيان، فقد تم فوراً انشاء قنبلة طائرة من نوع ف-٢ في مصانع «زانتالورك» -سميتلورك سابقاً- ثم تم انجاز عشر قنابل طائرة أخرى، وعشرين، ومئة، وألف صاروخ.

وشحنت أول دفعة منها إلى روسيا حيث تفحصها جيداً العلماء الروس، وكانوا كانوا يقومون بعملية تشريح كاملة، ثم قاموا باطلاق بعضها على سبيل التجربة والتدرب.. وقد صمم الروس أن يعوضوا عن تأخرهم عن الألمان مدة ثمانية أعوام في هذا المجال، ببضعة أشهر فقط.

وكان المسؤولون في الكرملين يفكرون أيديهم فرحاً ورضاً، فلقد آن الأوان، أخيراً، ليضربوا ضرتهم الكبرى.

في مساء يوم ٢١ تشرين الأول أقام الجنرال غايدكوف المدير الروسي لمصانع «زانتالورك» مأدبة كبرى دعي إليها مثمتا عالم ومهندس ألماني. وكانت هذه المأدبة فاخرة وباذخة في آن واحد، لا سيما وأنها أتت في مساء يوم من أكثر الأيام عملاً والمجازاً ودراسات، وقد دارت الأحاديث حول ضروب النجاح التي تم تحقيقها، وحول مشاريع المستقبل. وقد حفلت موائد المأدبة بكافيار بحر قزوين،

والأمعاء المحشوة من النوع البافاري، والفردكا، ونبذ الراين.. وأخذ العلماء الألمان يفقدون شيئاً فشيئاً ائزانهم، فلم يلحظوا مساعد الجترال غايدكوف وهو يتنقل فيما بين رئيسه وجهاز الهاتف..

- ٦ -

في فجر تلك الليلة التي أقيمت فيها المأدبة الباذخة استفاقت وايرمغارد غروتروب - زوجة العالم الألماني الكبير - من نومها على رنين جرس الهاتف، فتناولت السماعة، ولم تستطع أن تفهم غير العبارة الأخيرة من الحديث وهي:

- أنت أيضاً ستذهب بك إلى موسكو.

وقبل أن تتبين حقيقة الأمر كانت دقائق عنيفة تطرق باب دارها.. وظهر على عتبة الباب ضباط سوفيتيون وعلى شفاههم تلك الابتسامة الوديعة المزدبة دائماً.

وفي الغداة شاهد عمال الطرق السوفييتيون في «بريست ليتفسك» اثنين وتسعين قطاراً خاصاً منطلقة نحو الشرق بسرعة عظيمة. كانت تلك القطارات مزودة بالرجال، والنساء، والأطفال، وربما كان عددهم خمسة عشر ألفاً أو عشرين ألف شخص، وهم جميعاً موظفو وفنيو مراكز الصناعة الألمانية العسكرية.

والواقع أن الروس استطاعوا أن يوقعوا في شباكهم الضخمة نحواً من خمسة آلاف رجل من أصحاب الأدمغة الألمانية اللامعة.

ولم يكن ترحيلهم، أخيراً، إلى روسيا قاسياً وبعيداً عن المس الانساني كلا. لقد كان «سيناريو» أو قصة هذا الترحيل ليلاً، فأحاط الحرس الصامتون بيوت

أولئك العلماء والفنيين، واتخذوا أماكنهم أمام تلك البيوت، وبدأت عملية الترحيل في الساعة ١٥، ٤ بالدقة.

وحاول بعض الالمان أن يحتجوا، وناقشوا، ولكن هذا كله كان عبثاً ولا طائل تحته، فقد كانت الأوامر جازمة حازمة وكان الجنود لا سبيل إلى التفاهم معهم أبداً..

وفي الوقت نفسه كانت حركة نقل الأجهزة والأدوات قائمة على قدم وساق وقد تم فك جميع الآلات والمعدات والمركبات بحيث أن مصانع «زانتزلورك» لم تعد موجودة فعلاً..

وقد وجهت التهنتة الحارة إلى جميع الضباط الروس الذين أنجزوا هذه المهمة على أحسن وجه. أجل لقد تم كل شيء بأفضل صورة ممكنة، دون ما حاجة إلى استعمال القوة والعنف

وبالطبع حدثت بعض الأخطاء، وتم ترحيل أشخاص لا علاقة لهم البتة بشؤون العلم، كما أن بعض العائلات انفصل أفرادها بعضهم عن بعض مؤقتاً، وبعض المهندسين الشبان من الالمان قفزوا من القطار وهو منطلق وهربوا إلى المانيا الغربية عبر الغابات، ولكن بصورة اجمالية، تم نقل أولئك الألوف العشرين من العلماء والمهندسين وزوجاتهم وأطفالهم وفقاً للخطة المرسومة.

* * *

وابتداء من ربيع سنة ١٩٤٥ قررت موسكو أن ترصد كل جهودها بعد الحرب، وتكتلها حول برنامج لصنع الصواريخ والطائرات المتفوقة السرعة في الأرض الروسية نفسها، ولكن بمواد مصادرة من المانيا..

ومع ذلك فإن ستالين كان يدرك جيداً أن هذه الكتوز العلمية ستتنتهي، بعد الحرب، إلى الفشل والاختفاق. فقد كان من السهل البسيط نسبياً نقل أفران الصهر العظيمة، والمفاعلات الكيميائية، إلى روسيا وإدارتها من قبل أشخاص روسيين، إلا أن الأمر مختلف جداً بالنسبة للآلات والأجهزة الصغيرة والدقيقة المعقدة التي يتم بها صنع الصواريخ والطائرات الأكثر سرعة من الصوت. فماذا يفعل الروس إذن؟

- ٧ -

لم يكن أمام الروس، بالضرورة، إلا أن يتفهموا كيف تعمل هذه الآلات والأجهزة الدقيقة، ولا سبيل إلى شيء من هذا غير أن يراقبوا الألمان، في مكان العمل نفسه، وهم يعيدون انشاء هذه الأجهزة بعد تدميرها أو إتلافها. ومنذ اللحظة التي تعود فيها هذه الأجهزة والآلات إلى العمل، وبعد أن يدرك العلماء الروس كيف تعمل وتدور، عندئذ يمكن أن يعاد فك هذه الآلات من جديد، ولكن في كثير من الاحتراس.

كان العلماء الألمان وهم يشاهدون، من نوافذ القطارات التي تقلهم، روائع الطبيعة في السهل الروسي، لا يعلمون على وجه التأكيد إلى أين تنقلهم هذه القطارات..

وفي أثناء هذه الرحلة عقد الألمان، وعلى الأخص رؤساء أقسام العمل في مصانع «زانتراالورك» القديسة، ما يشبه أن يكون مجلس حرب حول العالم الكبير «غيرو تروب»، وبعد مداوولات كثيرة وقعوا جميعاً عريضة احتجاج موجهة للضباط الروس.

وكان قد حدث للعالم الألماني الدكتور «رونجبير» أن فقد زوجته قبل ثلاثة أيام من هذا الرحيل، إلا أن الضابط الروسي الذي جاء ليضمه إلى قافلة زملائه

المنطلقين إلى روسيا، أيقظه، وقال له:

- في وسعك أن تأخذ أية امرأة تقع عليها يدك، فتتزوجها بعد وصولك...

وحدث لأحد المهندسين الألمان أيضاً أن زوجته كانت متغيبية في الوقت الذي أراد فيه الألمان ترحيله، فحشروا معه براهة العمارة بدلاً من زوجته... وكانت البوابة صبية وجميلة فراحت تروي لكل من تقابله في القطار، وقد بلبت تفكيرها هذه الظروف الغريبة، انها توشك أن تصبح سيدة محترمة وامرأة دكتور كبير...

كانت الاشاعات تملأ سمعات ودهاليز القطارات. فمن قائل أن الروس ذاهبون بالعلماء والفنيين الألمان إلى «الأورال» في آسيا الوسطى، فيكذبه غيره ويقول:

- لا... بل هم ذاهبون هنا إلى معتقلات القتل، وغرف الخنق بالغازات... إلى قنائل بأن الروس إنما يريدون أن ينقلوا الألمان إلى الكرملين نفسه... فلا ضرورة للتشاور والتصورات الكثيبة السوداء.

وأخيراً هدأت القطارات ثم وقفت أمام محطة «مونيتو» قرب موسكو. وكان أعضاء لجنة الاستقبال من الروس يروحون ويجيشون ويخبطون بأحذيتهم أرض رصيف المحطة التي علتها الثلوج.. انهم ضباط القسم الخاص، وقد أفرغوا القطارات من الألمان، ثم وضعوهم في سيارات نقل تابعة للجيش الأحمر، ومضوا بهم إلى أماكن إقامتهم الجديدة.

لقد أقام أكثر الفنيين في مساكن ضيقة، غير أن الروس من أكثر الناس مراعاة لسلّم الرتب ومنازل الأشخاص فخصصوا للعالم «غروتروب» وزوجته وأبنائه دارة رحيبة مؤلفة من ست حجرات، وقد كانت هذه الدارة سكناً لأحد قداماء الوزراء.

وأجاب الروس على جميع الأسئلة التي وجهت إليهم فقالوا أن أمتعة العلماء والفنيين لن تلبث أن تصل بعد بضعة أيام، أما الرواتب فمستكون، في متوسطها، أربعة أضعاف ما يتقاضاه المهندسون الروس على الأقل. أما العمل فسيشرح فيه على الفور.

ذلك أن الروس كانوا يحاولون أن يجعلوا ضيوفهم الألمان ينسبون، قدر المستطاع، انهم سجناء... وكانوا يدركون، بالتجربة أن هذا الموقف السخي الذي يخفف عن العلماء الألمان قسوة التفكير في الشؤون المادية، هو مرقف إذا استفاد منه أحد فانهم هم سيكونون المستفيدين منه أولاً، وقبل الألمان أنفسهم..

- ٨ -

غير أن بعض أولئك الأسرى لم يتقبلوا ما حدث بسهولة، فإن العالم غروتروب نفسه لم يتمالك نفسه ذات يوم فراح يسأل الوزير السوفياتي «واستنوف»:

~ لماذا تراني هنا؟

فأجابه الوزير:

~ أأنت هنا القائد الأعلى لصنع الصواريخ؟ إن صنع القنبلة الطائرة «ف٢» قد أوشك أن يتم. أصدر أوامرك..

وعاد غروتروب يسأل:

~ ومتى نعود إلى ألمانيا؟

فأجاب الوزير بلهجة ساخرة:

- عندما تستطيع أن تقوم برحلة حول العالم فوق أحد صواريخك يا حضرة الدكتور..

وبعد مضي بضعة أيام استدعى الوزير أوستنوف العالم الألماني غروتروب، واستدعى معه معاونيه وزملاءه إلى مكتبه وقال لهم:

- أعيد إليكم، أيها السادة، عريضة الاحتجاج التي قدمتموها لأنها غير قائمة على أساس، ذلك أن للاتحاد السوفياتي، بموجب اتفاقات بتسدام، الحق في أن يستقدم من ألمانيا خمسة آلاف شخص ويستخدمهم في أعمال الانشاء والتعمير..

فأجاب غروتروب ببرود:

- إن الذي تطلبونه منا ليس انشاء وتعميراً، وإنما هو عمل علمي في نطاق التخصص العالي..

فقال الوزير أوستنوف:

- أترك تفضل أن ترسل بك إلى «الاورال» حيث ندفع لك أجر كل قطعة تصنعها؟

وعاد غروتروب يقول:

- ونساؤنا وأطفالنا الذين حملتموهم معنا؟ أترى اتفاقات بتسدام قد أشارت إليهم هم أيضاً؟

غير أن الوزير القميء البدين لم ينهزم فقال:

- إن الاتحاد السوفياتي يحترم حقوق الانسان، ولذلك لم يعمد إلى الفصل

بين أفراد الأسرة الواحدة، يا حضرة الدكتور، انك أنت الوحيد الذي يتفهم بهذه الصورة!

لم يكن العالم غروتروب عن يستسلمون بسهولة، وكان المشهور عنه أنه عنيد لا يتزحزح عن رأي يرثيه. وكان «فون براون» قد ذكره فوصفه بأنه شخص سرعان ما يقف موقف المهاجم كلما وجد ما لا يعجبه.. وهو رجل يؤمن إيماناً عميقاً بالحرية الشخصية غير أن الوزير اوستنوف أنهى قضية الاحتجاج هذه عندما صرح بحزم:

- أحب أن أذكرك أن الاتحاد السوفياتي قد ربح الحرب. وأشد في القول بأن الاحتجاج كائناً ما يكون شكله، غير مسموح به في الاتحاد السوفياتي، وفي وسعي أن أقول كلمة واحدة لكي أنقلك، أنت ورجالك، إلى وزارة المناجم، ثم انك وقعت هذه العريضة بصفتك مديراً لمصانع «زانتزلورك»، ولكنني أحب أن تلاحظ أن زانتزلورك لم يعد موجوداً بصورة رسمية..

وقد بقي غروتروب هو المدير العام، والناطق باسم زملائه الذين احتفظوا بالأعمال والمهام التي كانوا يقومون بها في المانيا - غير أن الروس راحوا يطبقون مبدأ: فرق تسد، فأشاعوا أن غروتروب نفسه هو الذي يعين رواتب العاملين معه، ويحدد أوضاع معيشتهم، وما ينبغي لكل منهم من معاملة.. كما أشاعوا أيضاً أن زوجته مبلّدة، كثيرة الانفاق، وأنه هو يعيش في منتهى الرفاهية والترف وأسباب البذخ..

فماذا كان لهذه الاشاعات المذبذبة من أثر في نفوس زملائه الالمان؟

- ٩ -

صادقت هذه الاشاعات هوى في النفوس، وعلى الأخص في أماكن العمل

البعيدة عن موسكو. ومع ذلك فقد ظل الالمان عاكفين على العمل، وكانت بعض الأجهزة قد فقدت في عملية النقل والتحويل، إلا أن الالمان أعادوا انشاعها من جديد، بل هم زادوا في تحسينها.

وقال بعضهم:

- انني لأتساءل إذا لم يكن الروس قد أهملوا نقل هذه الأجهزة لكي يضطرونا أن نصنع غيرها، أحدث وأفضل منها.

ومرت الأيام، وفي اليوم الثلاثين من سنة ١٩٤٧ بعد مضي سنة كاملة من انتقال المهندسين والفنيين الالمان إلى روسيا أمكن إطلاق الصواريخ الأولى في سماء كازاكستان وقد كتب عليها «صنعت في الاتحاد السوفياتي». وهاج الالمان وماجرا من الحماسة والمرح فقد كان هنا من عملهم وصنعهم هم، ولم يبق أمامهم، إذن، غير أن يعودوا إلى ألمانيا.

ولكنهم لم يكونوا يدرون أن ستالين لم يكن مستعداً لمثل هذا الفراق!

* * *

وفي حوالي نهاية شهر تشرين الثاني من سنة ١٩٤٧ ترأس ستالين اجتماعاً للحكومة.

وحمل الضابطان من سلاح الجو والكلونيل «سبيروف» ونائب الكلونيل «غريشوري توكايف» إلى هذا الاجتماع حقائب مملوءة بالتقارير حول القنبلة الطائرة «ف٢» وقرئت هذه التقارير فتحمس لها الحاضرون باستثناء «مالنكوف» الذي صرح قائلاً:

- ليس لهذا الصاروخ أية فائدة حقيقية، وماذا عسانا نستفيد من الـ

«ف٢»؟ وهل ترانا، في الحرب المقبلة، سنحارب في هولونيا.. ألستم ترون أن مدى هذه القنابل الطائرة محدود وقصير؟

فما لبثت التقارير الكثيرة أن أعيدت إلى حقائبها مع الضباط. وعلى نقيض هذا فقد حان الحديث حول النقطة الأهم، فعرض «توكايف» في خلال أكثر من نصف ساعة صورة عن السلاح المعجزة الذي يعتبر أخفى أسرار «الرايخ» الالمانى، وهو «الطائرة الصاروخ».

وكانت هذه الطائرة الصاروخ قد قام بانجازها العالم الالمانى «سانغار» ومساعدته «ايرين برادت»، وكان من خصائص هذه الطائرة أنها تستطيع أن تدور حول العالم في ساعتين اثنتين، وتستطيع أن تضرب، حسب الرغبة، أي موضع في الكرة الأرضية.

وفي عام ١٩٤٤ كتب العالم سانغار تقريراً عن سرعتها الفائقة التصور، وكان قد اكتفى بمشة نسخة من هذا التقرير فقط ختمت جميعاً بخاتم السرية المطلقة، ولم يكن يسمح بنقلها من مكان إلى مكان إلا عن طريق أشخاص ثقات يتسلمونها ويسلمونها يدأ بيد.

وقد كان «ويرندهايسميرغ» و«فون براون» بين الذين أرسل إليهم هذا التقرير في نهاية الحرب، ثم اكتشفه الاتكليز والأميركان.

ويدورهم ختموه بخاتم السرية المطلقة، وأخفوه في الخزائن الحديدية الموجودة في مراكز الأبحاث العلمية.

ومع ذلك فإن عالماً المانياً فاته أن يهرب في الوقت المناسب، كان يحتفظ بنسخة من هذا التقرير الخطير في مكتبته فعثر عليها الروس. وفي أقل من شهر كانت هذه النسخة من التقرير قد وصلت ووضعت على مكتب ستالين، فأمر

بترجمتها إلى الروسية فوراً.

- ١٠ -

كان التقرير هو الذي تحدث عنه وعلق عليه «توكايف» فكان له وقع كبير في نفس ستالين وقال:

- اتنا إذا سلحنا هذه الطائرة الصاروخ بالقنبلة الذرية فانتنا لا نلث أن نصبح سادة العالم.

وعلى الفور أصدر أمره إلى «سيروف» وإلى «توكايف» وإلى ابنه «قاسيلي» بأن يتطلقوا إلى المانيا للبحث عن العالم الالمانى «سانفار». وأن يأتوا به بأي ثمن.

ولم يمض يومان حتى كان ذلك الوفد قد وصل إلى برلين، فلم يجدوا العالم الالمانى، واتضح لهم أن من المستحيل العثور عليه، وعندئذ تسلل «توكايف» إلى المانيا الغربية بكل جرأة، بعد أن اختلق لنفسه لقباً أو صفة مجارية، واستمر ثلاثة أشهر كاملة ذرع فيها المانيا الغربية جميعاً دون جدوى.

وعلى الرغم من جميع الجهود التي بذلها السوفييت فانهم لم يتوصلوا إلى معرفة مقر العالم الالمانى «سانفار» الذي كان يعمل يومئذ في باريس.

واذن فان مشروع الطائرة الصاروخ لم يعد قابلاً للاستمرار، ما دام العالم الالمانى سانفار غير موجود، فكان لا بد من الاكتفاء بمشروع آخر أقل تواضعاً وهو عبارة عن أسطول جوي منقاذات القنابل من أحدث طراز، ويكون مماثلًا لقاذفات القنابل المستعملة في الغرب بالإضافة إلى «مظلة» من الطائرات المطاردة التي تفوق سرعة الصوت لتقوم بحماية القاذفات.

وقرر الروس فوراً أن يضاعفوا العمل في برنامج الصواريخ. وفي هذا المجال أيضاً كان على الألمان أن يقوموا بدور رئيسي مهم.

وفي يوم ١٢ كانون الأول سنة ١٩٤٧، وفي مقر المختبرات العلمية بموسكو، انعقد المجلس العلمي، وكان يشاهد حول موائد مفطرة بالسجاد الأحمر كبار الضباط والموظفين جنباً إلى جنب مع العلماء والمديرين للمعهد المركزي للفاعليات الجوية وكان ثمة العالم الألماني «غرورتروب» مع مساعديه. وفي هذا الاجتماع عرض الألمان أمام هاتيك الشخصيات الروسية الكبيرة مخططاتهم في سبيل المجاز صاروخ جديد كل الجدة، وأبعد مدى بثلاثة أضعاف المدى الذي تقطعه القنبلة الطائرة ف٢.

وبعد يومين من هذا الاجتماع حضر الروس والألمان مأدبة كبرى، وشربوا الأنخاب مرحين مبتهجين.. وكانوا يلهمون قائلين: «هذه المرة سنبلغ القمر..»

وفي انتظار تحقيق هذا الحلم الجميل أقام العلماء والمهندسون الألمان في «غورودوميليا»، وكانت تشاهد في هذه الناحية نساء يرتدين الملابس الباقارية وقد وضعن على رؤوسهم قبعات برلين.. أجل فقد أصبحت تلك الناحية وكأنها نموذج مصغر لأمانيا نفسها..

ففي النهار يعمل الرجال لانحياز الصواريخ الجديدة، وفي المساء يجتمع الرجال والنساء لازياء الوقت في عزف الموسيقى وفي شتى الألعاب الأخرى.

- ١١ -

مر شتاءان قاسيان على الألمان، وكانوا يشاهدون وهم يجتازون البحيرة التي تجمد سطحها لكي يذهبوا، محروسين، إلى مدينة «اوستاشكوف» حيث كانوا يختلطون بالسكان الملونين في منظمات «الكوخوزنيك» وبغيرهم من الأهالي

المتدثرين بمعاطفهم العسكرية القديمة، غير أن صبية المدينة كانوا يلاحقونهم صائحين: «النازيين.. النازيون..».

ومع الأيام أخذ الروس بأعداد متزايدة يفدون إلى حيث يقيم الالمان ويستقرون معهم، وكان أولئك الروس شباناً جادين عكفوا يدرسون كل جليل ودقيق، وقد وصلوا الليل بالنهار، لكي يدركوا أسرار ما يقوم به الالمان من هذه المنجزات العلمية الرائعة، وقد بدا واضحاً وبما لا ريب فيه أن أولئك المهندسين الشبان من الروس سيصبحون، بعد بضع سنوات قادرين تمام القدرة أن يتسلخوا من أعدائهم القدماء شعلة السباق في مجال الفضاء الرحيب.

وبالفعل أخذت الصواريخ تحمل الطابع الروسي الصرف على مهل ومع مرور الزمن.

ومع ذلك فقد كان الروس ما يزالون بحاجة إلى أعدائهم الالمان. وفي شهر نيسان من سنة ١٩٤٩ وصل «اوستنوف» بطائرة هليكوبتر إلى «غورودوميليا» حيث يقيم الالمان، وراح يقول لهم:

- لا بد لنا من صنع صاروخ يصل إلى مدى ثلاثة آلاف كيلو متر ويستطيع أن يحمل مادة متفجرة تزن ثلاثة أطنان.

هل كان لهذا المشروع علاقة ما بالاشاعة التي كانت تقول يومئذ أن السوفييت يوشكون أن يقوموا بتفجير قنبلة نووية أتم إنجازها «فرن آردن» الالمانى؟.. غير أن «اوستنوف» لزم الصمت ولم يقدم على هذه التساؤلات أي جواب صحيح.

وتم إنجاز الصاروخ المطلوب والذي عرف باسم «ر١٤» وكانت ميزته أنه تخلص من ذيله المصنوع على شكل سهم ومن الأجنحة الصغيرة الثقيلة لهذا

الذيل، فغدا خفيفاً، ولم يعد أكثر من خزان مليء بالمحروقات.

وحل الصيف الشديد الحرارة، ومع ذلك بقي الالمان في جزيرتهم، وراحوا يحتسون الخمر بكثرة دون مزجها بالماء، وبدأوا يهتمون قياقتهم.. واستمر العلماء السوفييت يقدون، ويوجهون أسلحتهم إلى الالمان، كما كان يأتي من موسكو مراسلون يزداد عددهم يوماً بعد يوم ويروحون يطلبون تقارير، ورسوماً، ومخططات.

وما أشد ما عقدت الدهشة ألسنة الالمان عندما قيل لهم ذات يوم أنه لن يباح لهم المشاركة في تجارب إطلاق الصاروخ الذي صنعه.

وأطلق الروس صاروخهم ذاك بنجاح، وقبل نهاية سنة ١٩٥٠ تشكلت لجنة سوفيتية بدأت باطلاق سراح نحو عشرين من الالمان الأقل أهمية من غيرهم، فذهبوا من توهم إلى المانيا.. ثم لم يلبث الروس أن قبضوا على مقاليد الأمور في مختلف أماكن الآلات والأجهزة.

وأخذ الروس من ثم يطالبون أكبر العلماء الالمان الموجودين عندهم أن يصنعوا بعض الأجهزة الدقيقة للطائرات، أو مزيجاً جديداً من المحروقات أو آلات الكترونية حاسبة، أو مركبات تطلقها الصواريخ وغير ذلك.

والواقع أن الروس كانوا يشغلون أولئك العلماء بمثل هذه الطلبات لكي يستبقوهم عندهم. ولكي لا يذهبوا إلى الغرب وفي حوزتهم أسرار السوفييت الاستراتيجية.. وهكذا فقد أبقوا أولئك العلماء -مجمدين- هكذا قرابة سنتين آخرين.

وفي شهر تشرين الثاني سنة ١٩٥٣ جاءت لجنة حكومية أخرى، وراح رئيس اللجنة يقرأ قائمة في يده جاء فيها، «ان جميع الالمان الذين ستذكر أسمائهم،

باستثناء نحو من اثني عشر عالماً سيصودون إلى بلادهم من اليوم الثاني والعشرين من سنة ١٩٥٣ ويجب أن يكونوا قد غادروا أراضي الاتحاد السوفييتي في أثناء ثمان وأربعين ساعة بعد التاريخ المذكور. وبهذه المناسبة تقدم لهم واقر الشكر لما أنجزوا من عمل».

- وكان هذا كل شيء.

وفي الغداة كان العالم غرورتوب ومساعدوه في طريقهم نحو الغرب.

وكان العلماء الالمان قد غادروا بلادهم بعد أن صنعوا القنبلة الطائرة ف٢، وهامهم يعودون إليها بعد أن أنجزوا الصاروخ (ر١٤) الذي له عشرة أضعاف سرعة أي صاروخ سابقاً ويستطيع أن يقضي على ثلاثة أضعاف الرجال الذين يمكن أن يقضي عليهم صاروخ أقل كمالاً منه.

فهارس المجلدات الثلاثة

* الفهارس *

فهرست المجلد الأول

صفحة	المادة
١١	- تقديم
١٣	مقابلة صحفية مع الأديب محمود سيف الدين الايراني أجراها الأستاذ سليمان موسى. - بعنوان (مع أهل الفكر في الأردن)
	«المجموعات القصصية»
٢٣	□ مجموعة قصص (أول الشوط)
٢٥	- مقدمة
٢٩	- نداء البدن
٥٥	- صراع
٦٣	- رغبة خبز
٧٧	- سحابة ومرّت
٨٥	- حياة إنسان
١٠١	- جرائم
١١٩	- احتمال الحياة
١٢٣	□ مجموعة قصص (مع الناس)
١٢٥	- هذه المجموعة
١٢٧	- الخروج من الجنة
١٤٣	- الأرض الطيبة
١٥٣	- قصة لم تتم

١٥٩	- الظأ
١٦٩	- حناؤه الجديد
١٧٥	- حطام
١٩٣	- هراء
١٩٩	- الاحتراق
٢٠٧	- شعرة بيضاء
٢١٥	- أبو جसार رجل رهيب
٢٢٣	- قيد لن ينتهى
٢٢٩	- عود على بدء
٢٣٥	□ مجموعة قصص (متى ينتهى الليل)
٢٣٧	- قيود
٢٥١	- متى ينتهى الليل
٢٦١	- ضباب
٢٦٧	- بداية ونهاية
٢٧٥	- أنا قتلتها
٢٨٩	- اضرب رصاص
٢٩٧	- انتقام الجبار
٣٠٣	- جريمة قتل
٣٠٩	- الحاجة صغية
٣١٥	- مجنون بلدنا
٣٢١	- شائش حارتنا
٣٢٩	- جماعة الشياطين الصغار

٣٣٥	- سر في صورة
٣٤٣	- نذير من السماء
٣٤٧	- زينة
٣٥٥	- عيد الأم
٣٦٥	□ مجموعة قصص (ما أقل الثمن)
٣٦٧	- كلمة
٣٦٩	- الإهداء
٣٧١	- قطار منتصف الليل
٣٨٣	- الحب الأول
٣٩١	- الأعرج
٣٩٧	- ملك الزجاج
٤٠٥	- نحو النور
٤١١	- ما أقل الثمن
٤١٧	- امرأة
٤٢٥	- الرجل الطيب
٤٣١	- إنسان لا جريرة له
٤٣٩	- كانت حلم حياته
٤٤٧	- أقوى من الموت
٤٥١	- الجارة المتعللة
٤٥٥	- لماذا يغضب البحر
٤٦١	- الأفعى
٤٦٥	- الحاج مصطفى

٤٧١	- زنجي في باريس
٤٨١	□ مجموعة قصص (أصابع في الظلام)
٤٨٣	- مدام بلانش
٤٩٧	- خيط من حرير
٥٠٩	- ذات الشعر الأحمر
٥١٩	- حنين
٥٢٩	- ماذا حدث للأطفال
٥٣٥	- الرصاصة الأخيرة
٥٤١	- أصابع في الظلام
٥٤٩	- آن للشمس أن تطلع في منتصف الليل
٥٥٧	- أربعة أشخاص يبحثون عن مؤلف
٥٧٣	- نهاية الرحلة
٥٨٣	- نفايات
٥٩١	- المرأة والكلب
٦٠٣	□ مجموعة قصص (غبار وأقنعة)
٦٠٥	- أحلام رندة
٦٠٩	- فندق السرور
٦٢١	- مكتوب غرام
٦٢٧	- رسالة الحياة
٦٣٥	- ابتسامة المنتصر
٦٤١	- غبار

- ٦٤٩ - مات الغول
- ٦٥٧ - غبار وأقنعة (مسرحية)
- ٦٨١ - كلمة بقلم الكاتب فخري قعوار
- ٦٨٣ □ (قصص مخطوطة)
- ٦٨٥ - متحف الذكريات
- ٦٩١ - عاش للحب
- ٦٩٧ - قصة يوم الكرامة (مكتوبة بأسلوب جديد)
- ٧٠٩ - الأعرج (تمثيلية تلفزيونية)

فهرست المجلد الثاني

- ١٣ (نساء البحر)
- ٢١ - الأعمال الناقصة:
- ٢٣ - القصة، من كتاب (ثقافتنا في خمسين عاماً)
- ٦٧ - كيف أكتب قصصي؟
- ٧٢ - ماذا أقرأ وكيف أقرأ
- ٧٧ - القصة والشعر والشباب
- ٨٣ - ندوة حول مستقبل القصة القصيرة
- ٩٣ - قصة بدين
- ٩٧ - أهى تقارير أم قصص
- ١٠٣ - الفرق بين قصتين
- ١٠٧ - حول تدخل المؤلف في الأثر القصصي

- ١١١ - حول موقف النقد في اوروبا من القصص الأميركي
١١٥ - أسرة المسرح الأردني في (البيت السعيد)
١٢٣ - مع مسرحية (المشكلة)
١٢٩ - أسرة المسرح الأردني في رواية «المشكلة»
١٣٥ - على هامش أفول القمر (المنتصر الغاضب هو الشر كله)
١٤١ - عودة الروح، الكل في واحد - حلقتان
١٥٩ - سوق الحمير وتوفيق الحكيم
١٦٣ - حول مأساة الزمن عند توفيق الحكيم
١٦٩ - من الاثنين إلى الاثنين، السائر في الهواء - حلقتان
١٨٩ - اوروبا مدينة لإيسن في نهضة أدبها المسرحي
١٩٥ - الأدب
٢٠٣ - رأي في ضعف الشعر
٢٠٧ - الشعر بين قديم وحديث
٢١١ - نقطة تحول للفكر والفن
٢١٥ - لامعقول ومعقول وطفيان موجة اللامعقول
٢٢٣ - توماس مان
٢٢٥ - أبدلوا هذه الكلمة
٢٢٧ - كانديد
٢٢٩ - من الحبة إلى القبة
٢٣٥ - عقدة استعراض العضلات وحساء البصل وخليط العاميات وهذيانها

٢٤١ - نحن والاتجاهات الأدبية الحديثة

٢٤٧ **المحالات:**

٢٤٩ - القصة الأردنية بين الأمس واليوم

٢٦١ - حول مؤتمر الثقافة العالمي

٢٦٧ - جوائز وأهواء وخصومات

٢٧١ - هل يصبح كندي أسطورة ؟

٢٧٥ - حاجز المعرفة

٢٧٩ - هل تعرف زيدة بيطاري؟

٢٨٥ - آخر رجال الحدود

٢٨٩ - أين الخطئة في المسرح الأردني؟

٢٩٣ - فيلور دستوفسكس

٣٠٣ - ورفع الستار مرة أخرى

٣٠٧ - وحدي مع الأيام / فدوى طوقان

٣١٥ - القصصي والأديب والشاعر شهود متحازون

لعرصهم

٣١٩ - المثاليات المقتنعة

٣٢٥ - غرور في جيلنا يفسد علينا أحكامنا

٣٢٩ - هذا المعرض الثقافي الفني

٣٣٣ - هل الشباب مرهون بالسن؟

٣٣٩ - الشباب مرة أخرى

٣٤٣ - رسالة فنان

- ٣٤٧ - نحن من خلال ألف ليلة وليلة
- ٣٥٣ - قضية الرجل المريض
- ٣٥٧ - من نقطة الألف باء إلى نقطة الصفر
- ٣٦١ - من أبي نواس إلى ألكسندر ديماس
- ٣٧١ - حضارة الانسان كانت دائماً من صنع الأذكىاء،
الكسندر فلمنع مكتشف البنسلين.
- ٣٧٩ - هذا الصراع الذي يجدد الحياة
- ٣٨٥ - ولكن الشعر لن يموت
- ٣٨٩ - أتراها لغة الحضارة الحديثة
- ٣٩٣ - هذه الشهرة العريضة، ما أسبابها؟
- ٣٩٩ - ذكرى شوقي أمير الشعراء
- ٤٠٣ - صراع مع نحلة
- ٤٠٧ - صورة من ذلك المجتمع
- ٤١١ - نافذة مفتوحة على شارع الحياة
- ٤١٧ - لعبة ذات أصول وفنون
- ٤٢٣ - حرية الفكر والفن
- ٤٢٩ - الشيخ ابراهيم الدباغ
- ٤٣٣ - المرأة والأدب
- ٤٣٥ - تعريض المجتمعات من الداخل
- ٤٤١ - التمييز العنصري بكل بشاعة
- ٤٤٥ - التمييز العنصري في مجتمع بعينه، وفي مجتمع
ضد غيره

- ٤٥١ - النقد الذاتي إلى أين؟
- ٤٥٥ - حسبي قلم بسيط وورق مقصوص
- ٤٦١ - ذلك الصديق الغريب
- ٤٦٥ - هذا ما جناه أدب وشعر
- ٤٧١ - رجال ونساء
- ٤٧٥ - جائزة نوبل لم تعد ذات موضوع
- ٤٧٩ - أحقاً تلك هي باريس
- ٤٨٣ - التلفزيون الأمريكي وشد الأحزمة على البطون
- ٤٨٩ - مع فدوى طوقان « الليل والفرسان »
- ٤٩٧ - كلامومانيا
- ٥٠١ - شاعر في الخالدين

٥٠٥

صور شخصية:

٥٠٩

- الخير المطلق هو القانون الطبيعي في آيين هذا

الكون.

٥١٧

- الثقافة وسيلة من وسائل الخير لمجتمع إنساني

جديد.

٥٣٥

- لوي غيورو: يمثل حداً فاصلاً بين ثقافتين.

٥٤٧

- جان جيوفو وعالمه الجديد.

٥٥٩

- أندريه ملرو وتطورات العصر.

٥٦٩

- أندريه جيد من خلال بعض كتبه: البحث عن

الحقيقة.

- ٥٧٩ - هل الموت أفضل من الحياة.
- ٥٨٧ د. ه. لورنس: ظاهرة خطيرة في الثقافة الانجليزية
- ٥٩٥ - كاندرين منسفلد من خلال قصصها.
- ٦١٥ - الفنان القزم العملاق هنري دي تولوز لوتريك
- ٦٢٣ - آخر السنديانات التي هوت
- ٦٣٩ - الرجل الذي يعيش مع الموت والأشباح
- ٦٣٣ - الكتابة التي أحببت الجزائر وشعب الجزائر
- ٦٣٧ - سلام على غاندي في الخالدين
- ٦٤٣ - بيني وبين سلامة موسى
- ٦٤٩ - حياة ديكنز ومؤلفاته (١ ، ٢)
- ٧٠٧ - ديكنز وفن الرواية
- ٧٣٥ - فلسفة ديكنز
- ٧٦٧ - ترغيف حياته، فنه، صفحات مختارة من آثاره
- ٨١٣ - فن ترغيف
- ٨٢١ - صفحات من ترغيف

مع الكتب:

- ٨٥١
- ٨٥٣ - الاوشال، للشاعر جميل صدقي الزهاوي
- ٨٥٧ - النواضر للسيدة وداد محمضاني
- ٨٦٣ - همنغواي قدم الجواب
- ٨٦٩ - على هامش كتاب الدليل الجيولوجيا في
- ٨٧٥ - الهارب من الحياة

- ٨٧٩ - درتان فريدتان
- ٨٨٣ - بيضة من ذهب في وادي العرائس
- ٨٨٩ - المزامرة ومعركة المصير
- ٨٩٣ - أرض الآلام والأحزان
- ٨٩٨ - مع الكتب.. أحمد شاعر الكرمي

- ٩٠٥ **خواطر:**
- ٩٠٧ - الحياة مجموعة هائلة من القصص القصار
- ٩١١ - قباب رتضاريس وبحيرات بحجم علبة السجائر
- ٩١٥ - مسرولية الكاتب
- ٩١٩ - الخوف من الفقر
- ٩٢٣ - أثر الموسيقى في النفس
- ٩٢٧ - طبق الفول ورأس البصل والرغيف البلدي
- ٩٣١ - سندباد في رحلة الحياة
- ٩٣٧ - عندما غزا سكان المريخ الولايات المتحدة
- ٩٤٣ - همسة في أذن عالمنا الجديد
- ٩٤٧ - ثمن الحب والصابون
- ٩٤٨ - أولاد بلدي
- ٩٤٩ - القمر وعبء الرجل الأبيض
- ٩٥٠ - قدسنا
- ٩٥٣ - حفنة من تراب الوطن
- ٩٥٧ - في الخطوط الخلفية

المسألة	صفحة
-الامتحان العسير	٩٦٣
-غرور الانتصار العابر	٩٦٧
-الكتابة صناعة	٩٧٣
-معركة القلوب المزورة	٩٧٩

فهرست المجلد الثالث

المسألة	صفحة
حوار مع المرحوم محمود سيف الدين الايراني	٩
□ قصص مترجمة / أفاصيص من الغرب والشرق	١٥
- مقدمة	١٧
- نعيمة لن تعود	١٩
- قط تحت المطر	٣٧
- الكناري المسافر	٤٣
- الذبابة	٥١
- الكناري	٦١
- نسمة هوا	٦٧
- من يكون	٧٩
- الغماز	٨٧
- التخلص من ماتليد	٩٧
- البرج	١٠٩
- الآنسة نتالي	١١٩

١٢٥	- المحار
١٣٣	- الحب القاتل
١٣٩	- الثأر
١٤٥	- أب وابنته
١٥١	- الخطبة المحترقة
١٥٩	- الشحاذ
١٦٥	- الخوف
١٧١	- بيت للبيع
١٧٩	- نجوم الليل
١٨٥	- الغريان الثلاثة
١٨٩	- الريان هارفي
١٩٥	- الأرغفة السوداء
١٩٩	- مأساة في الصحراء
٢٠٧	- بعد عشر سنوات
٢١٥	- صديقة
٢٢٣	- أماء
٢٣٣	- وداع المرأة المجهولة
٢٤١	- يوم زفافها
٢٥١	- الدموع الحلوة
٢٥٩	- أسماك الأحلام
٢٦٧	- جذبي والعصافير
٢٧٥	- قبيلة أخرى

- ٢٨٧ - القاتلة
- ٢٩٧ - الحقيبة
- ٣٠٣ - اللقاء الرهيب
- ٣١٣ - عزيزي الكسندروس
- ٣١٩ □ ملامح من الغرب (قصص مترجمة)
- ٣٢١ - مقدمة
- ٣٢٣ - ملامح من لندن
- ٣٤٩ - ملامح من باريس
- ٣٩١ - ملامح المانية
- ٤١٧ - ملامح من فينا
- ٤٢٥ - ملامح ايطالية
- ٤٥٥ □ قصص مترجمة نشرت في جريدة الدفاع على حلقات
- ٤٥٧ - أبى راسبوتين
- ٤٩٣ - جواسيس في خدمة الكرملين
- ٥٢١ - غرام جورج نائب هتلر
- ٥٤١ - غرام غويلز
- ٥٧٣ - أشهر قضية تسميم
- ٦١٣ - الجاسوسان الخفيان
- ٦٣٣ - جيل الأفاعي
- ٦٤٣ - بطل وطني في ثياب جاسوس
- ٦٦٩ - المجزرة الثلاثية
- ٧٠١ - أبناء زعماء النازي، ماذا حل بهم؟

-
- ٧٣٣ - كيف وقعت في أسر الروس؟
 - ٧٦١ - جاسوس بخمسة أسماء
 - ٧٩٥ - جثة على ضفة النهر
 - ٨٤٣ - أخطر جاسوس في العصر الحديث
 - ٨٦٩ - سجين في السفارة
 - ٨٩٩ - أنا أمرت بضرب هيروشيما
 - ٩١١ - قصة أطول هروب
 - ٩٣١ - ٥٠٠٠ عالم في الأسر

مؤسسة عبد الحميد شومان

ملف ٥٦٩١٦٦ (١-١٦٢)

ملصق ٥٦٧٢٥٤١ (١-١٦٢)

مكتبة عبد الحميد شومان الثقافية

ملف ٤٦٥٩١٥٤ (١-١٦٢)

ملصق ٤٦٥٩١٦٤ (١-١٦٢)

مطبوع (٢٠٠٥-١٤) حان (١١١٩٤)

حان- الملكة الراحلة الهاشمية

محمود سيف الدين الإيراني

ولد محمود سيف الدين الإيراني في بافا سنة ١٩١٤ . وأنهى تعليمه الابتدائي والثانوي في مدارس القرير سنة ١٩٢٩ واستطاع أن يجيد فيها الإنجليزية والفرنسية وأن يلم بالفارسية فضلاً عن اللغة العربية. واستهل حياته العملية بوظيفة حكومية قضى فيها بضع سنين عكف خلالها على قراءة الأدب العربي والغربي مترجماً وغير مترجم وأعجب بآثار تشيكوف وموبسان ودستوفسكي وتولستوي .

وفي سنة ١٩٣٥ أنشأ مجلة الفجر الأسبوعية التي صدر منها خمسون عدداً، وعدت من أرقى المجلات الأدبية التي صدرت في فلسطين زمن الإنتداب.

قدم الإيراني إلى الأردن عام ١٩٤٠ ، فاختارته وزارة المعارف في الحكومة الأردنية مدرساً للغة العربية ، فنقل بين مدن الأردن من عمان إلى إربد والكرك، وترقى في سلك التدريس إلى أن أصبح مفتشاً في وزارة التربية والتعليم . وفي سنة ١٩٦١ غادر عمان في بعثة دراسية للتخصص في شؤون اليونسكو على نفقة المنظمة العالمية، وقد مكثت هذه البعثة من الإقامة في باريس مدة اطلع خلالها على أنماط من الحياة الباريسية تركت آثاراً واقعية في أدبه، وبعد عودته الى عمان عين مستشاراً في دائرة الثقافة والفنون، وأشرف على إعادة مجلة أفكار للمصـور .

كتب محمود سيف الدين الإيراني المقالة والحادية والبحث والتحقيق الصحفي والدراسات والنقد الأدبي، لكنه برع في القصة القصيرة التي يعد رائداً من روادها في فلسطين والأردن وبلاد الشام قاطبة.

صدرت له المجموعات القصصية: أول الشوط ١٩٣٧ وفيها ظهرت ملامح النبوغ، ولفتت إليه النظر، ثم ظهرت مجموعته الرابعة متى ينتهي الليل؟ ١٩٦٤ وأصدر في العام ١٩٦٩ مجموعة قصص مترجمة لكتاب عالين باسم أفاصيـص من الشرق والغرب، وتابع الكتابة القصصية فصدرت له في العام ١٩٧٢ مجموعة خامسة بعنوان أصابع في الظلام. وحين توفي في الحادي والثلاثين من آيار (مايو) ١٩٧٤ ترك تراثاً غير منشور في القصة والمقالة والمسرحية وقد نشر بعض ذلك في الكتاب القصصي غبار وأقنعة الذي أشرف على إصداره د.إبراهيم خليل. وللإيراني كتاب في أدب الرحلات بعنوان ملامح من الغرب ١٩٧٢. وقد أبدى في أيامه الأخيرة إهتماماً كبيراً في المسرح تأليفاً وترجمة وإقتباساً ونقداً. فخرج ل سارويان وبكيت وحول إحدى قصصه القصيرة الى مسرحية بعنوان الأتمة وقد عرضت هذه



اعمال الايراني

لم يكن سهلاً علينا ان نصل الى هذا اليوم ، الذى
تظهر فيه أعمال المرحوم ، خمود سيف الدين
الايراني الادبية ، فقد كان فى الامر مشقة لكثرة ما
خلف الايراني من كتابات متنوعة ، منشورة فى
الصحف أو المجلات أو فى كتب ، أو مخطوطة
ومخطوطة فى ركام من قصاصات الجرائد والمجلات
، مما يحتاج لجهد واسع من البحث والتنقيب
والتنظيم والتصويب . ولولا التشجيع الذى لاقيناه
من مؤسسة عبد الحميد شومان ، والدعم الصريح
لهذا الكتاب ، لما كان لمؤلفات الايراني أن تظهر أو
ان يتاح لها الوصول الى أيدي القراء والمهتمين ،
وأيدى أبناء جيل لم يعرف الايراني عن قرب كما
عرفناه . ورغم كل الصعوبات ، فقد استطعنا ان نحفر
ما أردناه ، من إعادة إحياء لتراث رائد بارز من رواد
الأدب فى فلسطين والأردن ، وخاصة فى
مجال القصة القصيرة .

ولعل هذا الجهد المشترك الذى تقوم به الأمانة
العامة للاتحاد العام للادباء والكتاب العرب بالتعاون
مع مؤسسة شومان ، يكون نواة لجهد أوسع ، وحلقة
من مسلسل التعاون الهادف الى احياء ما يمكن
احياؤه من ادب الرواد العرب .

فخرى قهوار

الأمين العام

للاتحاد العام للادباء والكتاب العرب

Bibliotheca Alexandrina



0453210

